السياسي القديس

المهاتما غاندي

سلسلة النوابغ
١

السياسي القديس

المهاتما غاندي

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسية

طبعة أولى

١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب : ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف : ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب : ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

الجزء الأول

مسيرة نفس

الفهرس

الجزء الأول

مسيرة نفس ٥

تمهيد ٧

جريمةُ العصر ٧

الفصل الأوّل: نشأةُ غَانْدي ١٣

أسرة غاندي.. ١٣

غاندي الطالب ١٥

الوَلَد الزوج.. ١٧

الزوج الطالب ٢٠

تمرّدٌ وكبواتٌ ٢١

مفترق طُرقٍ.. ٢٦

الغريب ٢٨

سلوك يتحوّل، وشخصيّةٌ تبرز معالمها.. ٣٠

توغّلٌ في النباتيّة، وتشبّثٌ بالنذور.. ٣٢

فريسة الحياء ٣٣

"لقاءٌ مع الدِّين".. ٣٥

زيارةٌ خاطفةٌ لباريس.. ٣٧

غاندي المحامي ٣٨

تلمُّسٌ وعَثَراتٌ ٤٠

صدمة الكرامة الأولى.. ٤٢

الفصل الثاني: البوتقة الأفريقيَّة – نشوء الزّعيم ٤٥

في الطريق إلى أفريقيا ٤٥
الهنود في أَفريقيا الجنوبيّة ٤٦
انبثاق شخصيّة المهاتما والزعيم ٥٠
قضيَّةٌ ناجحة ٥٢
المُنعَطَفُ الحاسم ٥٥
يقظة الوعي القوميّ الهنديّ ٥٨
المحامي الملوّن ٦٠
خطوات الزعيم الأولى ٦١
صديق المنبوذين ٦٢
سياسةٌ وقيَمٌ روحيَّة ٦٣
عودةٌ خاطفةٌ إلى الهند ٦٥
عودةٌ عاصفةٌ إِلى أَفريقيا ٦٨
ربّ الأسرة ٧١
استقلالٌ وبساطةٌ ٧٢
الولاء لبريطانيا ٧٤
عودةٌ مؤقّتةٌ إلى الهند ٧٦
غاندي و"المؤتمر" ٧٧
في ضيافة كوخلي ٧٩
اختبارٌ لمعاناة الفقراء ٨٠
محاولةُ استقرارٍ في بومباي ٨١
في أفريقيا الجنوبيّة من جديد ٨٢
حربٌ على الفساد، وقلبٌ مشرعٌ للحبّ ٨٣
غاندي الصحافيّ ٨٦
أولويّةُ الخدمة ٨٧
سِحرُ كتاب ٨٩
مستوطنة "فينكس" ٩٠
منعَطَف "البراهماشاريا" ٩٢
اختبار "الساتياغراها" ٩٦

دروس السجن ١٠٢
زعامةٌ صعبةٌ ١٠٣
مزرعة تولستوي ١٠٤
كوخلي وغاندي ١٠٦
غاندي المربّي ١٠٧
العصيان المدنيّ ١١١
شهادةُ الخَصم ١١٦
مزيدٌ من التجرّد ١١٨
القرار الصعب ١١٩

الفصل الثالث: المهاتما غَاندي في الهند ١٢١

"هند سواراج" ١٢١
"أشرم" سابارماتي ١٢٨
البريطانيّون في الهند وغاندي ١٣٣
امتحان الأشرم الأوّل: غاندي والمنبوذون ١٤٠
طريق التحدّي ١٤٤
محامي الفلاّحين ١٤٨
إضرابٌ وصيامٌ ١٥٥
المصلحة والواجب ١٥٨
فريق الاستقلال ١٦١
"هارتال" ١٦٣
"اللاتعاون" ١٧٠
غاندي زعيم "المؤتمر" ١٧٥
خطواتٌ متعثّرةٌ على درب العصيان المدنيّ ١٧٧
صيام المصالحة ١٩٣
إصلاحٌ داخليٌّ، وغَزوُ قمَم الروح ٢٠١
سنة الصمت ٢٠٤
عودةٌ إلى العصيان المدنيّ ٢٠٦
مسيرةُ الملح ٢١٢
غاندي في لندن ٢٢٢

رسائل إلى الأشرم من "معبد يرافـــدا" ٢٣٢
صيامٌ حتّى الموت، من أجل "أبناء الله" ٢٣٦
بعيدًا عن مُعتَرَك السياسة ٢٤٩
غاندي والحرب ٢٥٧
غاندي وتشرشل ٢٦٠
سجنٌ وصومٌ وأَحزان ٢٦٥
غاندي و"جناح" ٢٧٢
طوبى لصانعي السلام ٢٧٨
"طلاقٌ قبل الزواج" ٢٩١
استقلالٌ غارقٌ في الدماء ٢٩٦
مُعجزة كلكتّا ٣٠٦
الصّيام الأخير ٣٣٠
الحُلمُ المحطَّم ٣٤٩
الغائب الحاضر ٣٦٠

الجزء الثاني

شخصيّة غاندي وتعاليمه ٣٦٩

قسمَاتٌ وَمَلامح ٣٧١
غاندي السّياسيّ ٣٩٤
غَاندي الثائر ٤١٥
تَديّن غَاندي ٤٢٥
غَاندي التحدِّي ٤٣٥
مَدرَسَـــة غَـــاندي ٤٣٨
أنجاحٌ أَم فشلٌ؟ ٤٦٥
أيّها المهاتما، أيّتها النفس الكبيرة ٤٧٣

ملحق ٤٧٥

شذراتٌ من أقوال غاندي ٤٧٥

تمهيد ٤٧٥

الله ٤٧٧
الصّلاة.. ٤٨٢
الصَّوت الدّاخِليّ.. ٤٨٤
الإيمـــــَان ٤٨٥
الـــدِّين.. ٤٨٧
الحقيقة.. ٤٩٠
التواضُـــع.. ٤٩٣
التجَـــرُّد، الخَـــدمَـــة، التضحِيَـــة ٤٩٤
السَّيطَرة عَلى اَلذَّات ٤٩٦
اللاعنف.. ٥٠١
الغـــنى وَالفقـــر.. ٥١٠
الحرّيّة والديمقراطيّة والحكم.. ٥١٤
مِن حصَاد التجَارب ٥١٧
مراجع.. ٥٢٩
الفهرس.. ٥٣١

تمهيد

جريمةُ العصر

مساءَ يوم الثلاثين من شهر كانون الثاني ١٩٤٨، تحامَلَ إلى دار الإذاعة الهنديَّة رئيسُ وُزراء الهند المستقِلَّةِ حديثًا، جواهر لال نهرو، وقد قَرَّحت الـدُّموعُ عينَيْـه، وهَصَرَ الأَسى قلبَه، وأَعلنَ لِشَعبِه، بصوتٍ تخنقُه العَبَرات:

"أَيُّها الأَصدقاءُ والرّفاق،

"لقد انطَفأ نورُ حياتكم، وعَمَّت الظُّلمات...

"قُلتُ إنَّ النورَ قد انطفَأَ، بَيدَ أَنَّني مُخطئٌ، فالنُّورُ الذي أَشرقَ على هذه البلاد، لم يكن نورًا من نَمَطٍ شائعٍ؛ النورُ الذي أَضاءَ هذِهِ البلادَ سنينَ عديدةً، سـيظلُّ يُنيرُهـا حِقبةً طويلةً. بَعدَ أَلفِ عامٍ، سيَظلُّ مُشِعًّا هنا، وسيَراه العالِم، وسيسنُدُ قلوبًا لا يُحصى لها عددٌ. فهذا النُّورُ كان أكثرَ من رَمزٍ لحاضرٍ ماثلٍ، إذ كان يُجسّد حقـائقَ حيَّـةً خالدةً، تُرشِدُنا إلى سويِّ السَّبيل، وتَنتزِعُنا من بَراثنِ الضَّلال، وتقـود هـذه الـبلادَ العريقة إلى الحُرّيّة"

بتلكَ العبارات، كان نهرو يَنعى إلى الأمَّة والعالَم، أَبا الهند، "المهاتما مُهنـداس كرَمْشَنْد غاندي" الذي اغتالتهُ، في غُروب ذلك اليـوم، ثـلاثُ رصاصـاتٍ أَثيمـةٍ، أَصمَت، لا قلبَهُ فحسبُ، بل قَلبَ الهند في الصَّميم، وقلبَ الإنسانيَّة كلِّها، التـي خـيَّم عليها شَبَحُ الفَاجِعَة، ولفّها الشُّعورُ بالحداد، وبفُقدان من كان وِجدانَها، وحامِلَ لِـواءَ مُثُلها، ومُمثّل أَنبلِ مشاعِرها وأسمى تطلُّعاتها.

لقد وُصِفَ مَصرَعُ غاندي، بحقٍّ، أنَّه "جريمةُ العَصر"، واعترفَ العالِمُ أينشتاين أنَّ قرنَنا قد شَهِدَ، بذلكَ الاغتيال، أَفدحَ كارثتَين في تاريخه: تفجيرَ أوّلِ قُنبلةٍ ذَرِّيَّةٍ في

هيروشيما، ومَقتَلَ غاندي. فأَمثالُ غاندي هم الذين تفتقِرُ إليهم الإنسانيّة، أكثـرَ مـن افتقارِها إلى العباقرة والعُلماء الذين غالبًا ما تُفضي اكتشافاتُهم إلى دمـارِ البـشريّة، وتجريدِها من جوهرها. في حين كان غاندي يُشرّف الإنسانيّة، بإبرازه كنوزَ روحِها، وطاقاتِ سُموِّها، وبنَثرِه الحبَّ والإخاءَ والتضامُن، وقيمَ الخِدمة والفِداء، والوفاء للحقّ، والصُبُوّ إلى كمال الله.

فليس بين السِّياسيّينَ الذين سبَقوا غاندي، ولا بينَ الذين خلَفوه في الهند، أو بين سِياسيّي العالَم، مَن حاول، في مِثل إصراره، أن يحيا حياة حقٍّ، وصـلاحٍ، وطيبـةٍ، وتجرُّدٍ، وتواضُعٍ، ووداعةٍ، وخدمةٍ، وليسَ مَن ناضَل مِثلَ نِضاله الشاقّ، الـدؤوب، المُندَفع الذي خاضه، بلا هوادةٍ، ضِدَّ خُصومٍ عُتـاةٍ: أَهـواءِ نفـسه، والاسـتعمار البريطانيّ، وتخلّفِ شعبه، وشِقاقِه، وتصلّبِه. لقد كان نضالُه صريحًا، نظيفًا، لا مكر فيه ولا خَديعةَ ولا حقد، وخاضهُ حتّى نهاية الشَّوط بأيدٍ نزيهةٍ، ونفسٍ ناصعة الطُّهر.

وقد أَشاد أينشتاين بأسلوبه السياسيّ الفريد فقال: "**لقد بَرهَنَ غاندي أنَّ بالإمكـان استقطابَ جُموعٍ غفيرةٍ، ليس فقط بالمناورات السِّياسيّة الرائجة الماكِرَة، وبالخِداع، ولكن، أَيضًا، بمِثالٍ لا يُقاوَم، يوفِّرهُ نَمَطُ عيشٍ مُتفوّقٍ أَخلاقيًّا؛ في عَصرِنا، عـصر الانحطاط الأخلاقيّ التامّ، كان غاندي رجُلَ الدَّولة الوحيد الذي اِضْطَلَعَ، فـي عـالَم السياسة، بعلاقاتٍ من مُستوًى إنسانيٍّ رفيعٍ**".

لقد كان غاندي، وَسْط عالَمٍ مُؤمنٍ بقِيَم المادّة، مستَسلمٍ لأسرِها وسُلطانِها، مُمثِّـلَ الرُّوح، وحامِلَ لوائِه، فنَهَض منارة هِدايةٍ فوقَ خضَمٍّ من الظلُمَات المُدلَهِمّة. وهذا ما عبَّر عنه "السير ستافورد كريبس" بقوله: "**لست أعرفُ إنسانًا، في أيّـة حقبـةٍ، ولا سيَّمَا في التاريخ الحديث، قد بَرهَنَ بمثلِ هذه القوة، وهذه القناعة، عـن سُـلطان الروح على الأشياء المادّيَّة**".

وصرّح جورج مارشال، وزير خارجيّة الولايات المتّحدة، آنـذاك: "**لقـد كـان المهاتما غاندي هو الناطق الرسميَّ باسم ضميرِ الإنسانيَّة جمعاء**".

وقد دَلَّتِ الصَّدمةُ التي هزَّت العالَم، من جرّاء مَصْرع غانـدي، أنَّ حـضارتَنا، على انحرافِها، وافتقارِها المأساويّ إلى القِيَم الأَخلاقيّة، ما بَرِحَت تُجِـلّ مُتحـدّيها،

وتحتَرِمُ مَن ينهجون غيرَ نَهجِها، وينتَصِبونَ، مثلَ غاندي، قِمَمًا شمَّاءَ شامِخَةً في سماء المناقب. وهذا ما عناه "روبيروت دوتش" الذي كتَبَ في صحيفةٍ نيويوركيّةٍ: **"ما زالَ هناك فُسحةُ رَجاءٍ لعالَمٍ عبّر، بهذا القَدر من الإجلال، عن تأثُّره بموت غاندي. إنَّ مشاعر الأسى والألَم التي أعقبَت مأساة نيودلهي، تُثبتُ أَنَّنا ما زِلْنا نحترمُ القداسة، حتّى عندما نعجَزُ عن الإِحاطة بفحواها، إحاطةً كاملةً"**.

لقد كان طبيعيًّا أن تبكيَ غاندي جماهيرُ الهند بمئات ملايينها، فقد كان لكلّ فردٍ منها الأخ، والأبَ، "البابو" الحبيب والمُرشِدَ والمُلهِم. عاش معهم ومثلَهم، وقاسى همومَهُم اليَوميّة، وجَهِد، طيلة حياته، في تبديدها، وتوفير حياةٍ حُرَّةٍ كريمةٍ لكلٍّ منهم، وقضى شهيدَ وحدتهم ووئامِهم.

غيرَ أنَّ مشاعر الحِداد قد غَمَرت شُعوب الأَرض كلِّها، وشاركَ العالَمُ بأجمعه الهندَ أساها على فقيدها العظيم.

وكانت بريطانيا، التي قارَعَ غاندي سياستَها الاستعماريّة، بلا هَوادةٍ، أَشدَّ بُلدان العالَم تأثُّرًا بالفاجعة التي هزّتها أكثرَ من أيّ حَدَثٍ، منذ الحرب؛ وسارَعَ كلٌّ من المَلَك جورج السادس، ورئيس الوزراء أَتلي، وحتّى عدوّ غاندي العتيق ونستون تشرشل، وأسقُف كانتربري، ناهيك عن ألوف الشخصيّات والمثقّفين، إلى التعبير عن حُزنهم.

وعبّر الكاتب السّاخر الكبير، جورج برنارد شو، عن تقديره للراحل، بطُرفَةٍ مُقتَضبةٍ، تقوم مقامَ رثاءٍ مستفيضٍ، إذ قال: "**إنّ مَصرَع غاندي يُثبتُ كم هو خَطِرٌ أن يكون الإنسانُ طيّبًا**".

أمَّا الماريشال "سموتس" الذي كان، يومًا، ألدَّ خُصوم غاندي في مستَهَلّ عهدِ نضاله، في أفريقيا الجنوبيّة، فقد اعترف "**إنَّ أميرًا بين البشر، قد رَحَل**".

وحيّى فيه البابا بيوس الثاني عشر "**رسولَ سلامٍ، وصديقًا للمسيحيّين**".

وأعلن رئيسُ وزراء فرنسا: "**إنَّ جميع الذين يُؤمنون بالإخاء بين البشر سيفجعهم موت غاندي**".

وكتب الزعيم الاشتراكيُّ الفرنسيّ "ليونِ بلوم" مُعَبّرًا عن مشاعرَ ما زال يتبنّاها،

اليومَ، كثيرون في شتّى أَرجاء العالَم، ويُردّدون، بقناعة، كلَّ حرفٍ جاءَ في قوله: **"إنَّني لم أشاهِدْ غاندي يومًا، وأَجهلُ لغته، ولم أَطأ أرضَ بلاده قطّ، ومع ذلك يُساورُني من الأسى مثلُ ما كان من شأنه أن يُساورَني لو أَنَّني فقَدْتُ أَحدَ أقربائي. إنَّ العالَم كلَّه غارقٌ في الحِداد، من جرّاء مصرع هذا الإنسانِ الفذّ"**.

وبكتْ شعوبُ آسيا وأَفريقيا والشرقِ الأوسط، في المهاتما غاندي، رائدًا فذًّا من رُوّادِ مُقارعةِ الاستعمار، كان لها خيرَ قُدوةٍ ومُلْهِمٍ في نضالها من أجل استقلالها.

ولعلَّ أَروعَ رِثاءٍ وأَبلَغَه هو ذاك الذي نشرتْه صحيفة "هندوستان ستاندرد" الهنديَّة، التي كتبت في صفحتها الأولى المُجلَّلة بالسَّواد، غداةَ اغتيال غاندي:

"لقد صُرِع "غانديجي" بيد شعبه الذي، من أَجل افتدائه، طوى حياته. إنَّ هذا الصَّلبَ الثاني في تاريخ العالَم قد تمّ، أيضًا، في يوم جمعةٍ، أي في نفس اليوم الذي لَقي فيه يسوعُ حتْفَه، لألفٍ وتسع مئةٍ وخمسَ عشرةَ سنةً خلت

يا أبتاه، اغفر لنا".

إنَّ القِمَم التي تسنَّمها غاندي تبدو لنا، اليومَ، من الشُّموخ الضاربِ في اللاّنهاية، مُتعذِّرةَ البُلوغ، وهذا ما كان قد استشفَّه أَينشتاين حينَ قال: **"سيكونُ عسيرًا على الأَجيال المُقبِلة التصديقُ بأنَّ إنسانًا من لحمٍ ودمٍ قد عاش، فِعلاً، على هذه البسيطة، على نحوِ ما عاشَ غاندي"**.

غيرَ أَنَّ مَن يستقري مسيرةَ غاندي عن كَثَبٍ، لن يَعسُر عليه اكتشاف إِنسانٍ كانَ، في مُستَهلّ مسيرته، يُعاني ما يُعانيه كلٌّ منّا من وَهَنٍ واضطرابٍ، وجُنوحٍ، وكَبَواتٍ. فكيف تهيّأ له تخطّي تلك العَقَبات، وارتقاء تلك الذُّؤابات الشامخة؟

هيّا بنا نتأثّر خُطَاه، مستَجْلينَ، مرحلةً فمرحلةً، أسرار ذلك المشوار المُذهل.

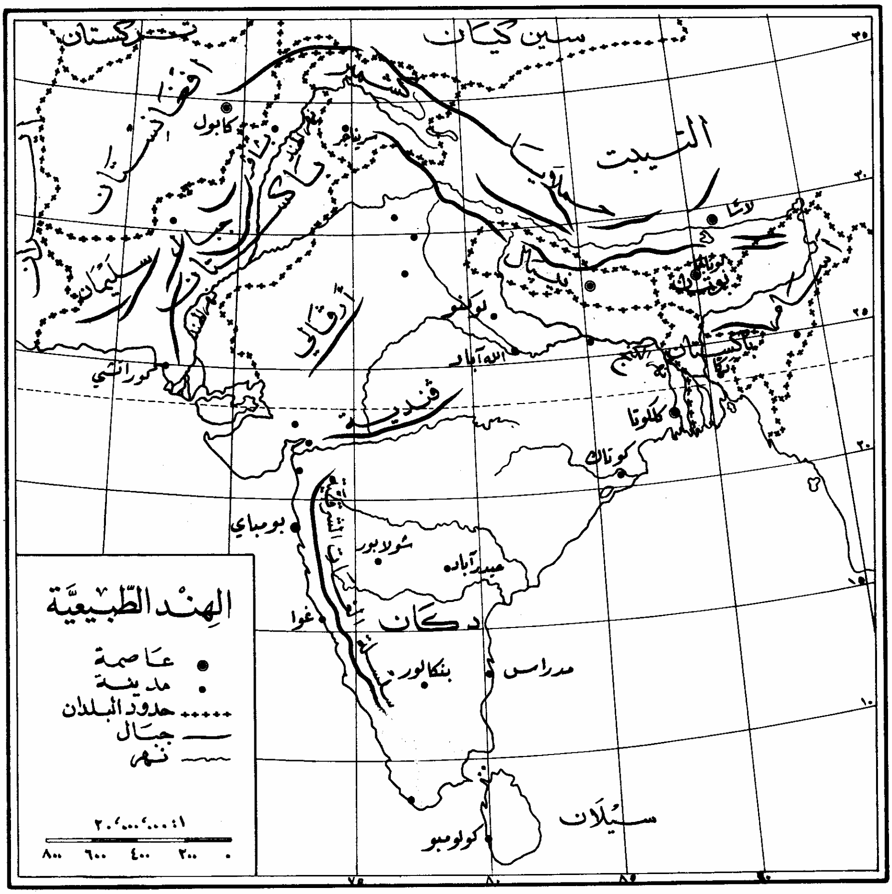
الهند الطبيعية
عاصمة
مدينة
حدود البلدان
جبال
نهر
١: ٢٠،٠٠٠،٠٠٠
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
تركستان
سين كيانغ
أفغانستان
كابول
التيبت
لاسا
كراتشي
الله آباد
كلكوتا
بومباي
حيدر آباد
دكان
غوا
بنكالور
مدراس
سيلان
كولومبو

الفصل الأوّل

نشأةُ غانْدي

أسرة غاندي

في مدينةِ "بوربانْدر"، وهي عاصِمةُ إمارَةٍ صغيرةٍ، تحمِلُ نفسَ الاسم، قابعةٍ على ساحل الهند الشماليّ الغربيّ، كانت تعيشُ، في القرنِ الماضي، أسرةُ غاندي.

ولفظةُ "غاندي"، في اللهجةِ الكوجاراتيّةِ، السائدةِ في تلك البُقعة من الهند، تعني البقَّالَ، أو بائع التوابل، وتُشيرُ الى المهنة التي كان يمارسها مؤسِّسو الأسرة، والتي، في هندٍ كان يَحكمُها نِظامٌ طَبَقيٌّ دقيقٌ، كانت تُحِلُّها في المرتبة الثالثة التي تَضمُّ التُّجارَ والحِرفيّين، في حين كانت طبقةُ البراهمان تتبوّأ المركزَ الأعلى، وطبقةُ الحُكَّام والجنود تحتلّ المقامَ الثاني؛ أَمّا الطَبَقةُ الرابعة والدنيا، فكان ينضوي في إِطارها الكادحون.

غيرَ أنَّ نباهةَ "أوتا مشاد غاندي"، أحد مؤسِّسي الاسرة، كانت قد مكَّنتهُ من كَسرِ طَوقِ النّظام الطبَقيّ، وتسنُّمِ مركز"الوزير الأوّل"، أو الوالي، في مدينتِه الصّغيرة. وقد يبدو هذا اللَّقَبُ الطنّانُ غيرَ متناسِبٍ مع مركزٍ لا يتعدّى، في الواقع، مركزَ مختارٍ، أو رئيس بلديّة؛ إلاّ أنّه كان يُوفّر لحامِله تقديرَ المُجتمع، ودخلاً لائقًا، فضلاً عن أنَّ "أوتا مشاد غاندي"، قد أورثَ ذلك المنصبَ لابنه "كَرَمْشَنْد" الذي تنازلَ عنه، فيمَا بعد، لأخيه بحيثُ غدا المنصبُ شبهَ وقفٍ على الأسرة.

ولم يكُن "كَرَمْشَنْد" قد أصاب من التعليم سوى قِسطٍ شحيحٍ؛ ولكنّه أفادَ من تجارب الحياة خبرةً ثمينةً؛ وكان مُحبًّا لقومِه، وفيًّا، كريمًا، مِقدامًا، يتحلّى بنزاهةٍ

فوْقَ كُلِّ شُبهةٍ، وباستقامةٍ صارمةٍ لا تلين، جَعَلَت منه حكمًا فصْلاً مشهودًا له برجاحةِ الرأي، وصلابةِ المِراسِ، وسَدَاد الوجْدان، ونظافة اليد، بحيثُ اضطُرّ، في غضون السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، التي أَقْعَدَه فيها المرضُ، واقتصرَ فيها دخلُه على راتبٍ تقاعُديٍّ ضئيلٍ، الى بيع ممتلكاته، للنهوض بأعباءِ نفقات أسرته، بعد أن كان قد أنفَقَ قسطًا كبيرًا من مكاسبه، على دروب الخير.

وكان "كرمشند" قد تزوّجَ رُباعًا، بعد إذِ اختطفت المنيّةُ، على التوالي، زوجاته الثلاث الأُوَل، ولم يُرزَقْ منهنّ سوى ابنتَيْن؛ وفي الأربعين من عمره، اقترن بزوجته الرابعة "بوتليباي" التي أنجبت منه بنتًا وثلاثة صبيانٍ، كان خاتمتَهم "مهنداس".

"مُهنداس كرَمْشَند غاندي"، أو "موهانيا" على نحو ما كانوا يدعونه تحبُّبًا، والذي سنستقري، في الصَّفَحاتِ التالية سيرتَه، رأى النورَ في الثاني من تشرين الاوّل عام ١٨٦٩، وحَظي بمعاملة الابن الأصغر المدلّل، فكُلِّفت بالعناية بهِ مربّيةٌ خاصَّةٌ، تُدعى "رمبها"، تميّزتْ بالرقّةِ والورَعِ والتديُّنِ الوطيد، وقد اكتشفت السبيلَ الى انتزاع حُبّ "موهانيا" بحَدبها وحنانها، فواكبهُ كلَفُهُ بها حتّى كهولتِه، وقد غرست بعمقٍ، في حنايا نفْسِه، حِسًّا دينيًّا، أَصيلاً، صادقًا.

ويتّضحُ من المُذكّرات التي دوّنها غاندي في كهولتِه مدى إكبارِه للخِصال الرفيعة التي كان يتحلّى بها والدُه، والتي أَتينا على ذكر بعضها، ومدى إعجابه، على نحوٍ خاصٍّ، بتسامُحه وانفتاحه، إذ كان صدرُه وبيتُه مُشرَعَين على جميعِ الفئاتِ والطوائفِ، من غَيرِ تفرقةٍ ولا تمييزٍ، وكان وطيدَ الإيمان بأَنَّ الحبَّ الشاملَ، أكثر من أيِّ وسيلةٍ أُخرى، هو الطريقُ المفضي الى الله. إلاّ أنّ غاندي، في مُذكّراته، قد أخذ على والده جُنوحه الى الغَضَب، أحيانًا، كما أنَّه أدان، في شيءٍ من القسوة، شهوانيّته، من جرّاء تعدُّد زيجاته، وإِقدامه على زواجه الأَخير، وهو في الأربعين من العمر.

أمَّا عن والدته فيقول غاندي: "**إنَّ الانطباعَ البارز الذي خلّفته أمّي في ذاكرتي هو انطباع امرأةٍ قدّيسة**".

فلقد كانت "بوتليباي"، على بساطة سليقتها، سديدةَ الرأي، مُلمَّةً ببواطن القضايا

العامَّة، يستشيرُها حتّى كبارُ القَوم؛ غيرَ أنَّ ما كان يصبغُ شخصيّتها بسماتٍ مُميّزةٍ هو حِسُّها الدينيُّ المُرهَف؛ فاسمُ الله "راما" لم يكن يُبارح شفتَيها، تُلقّنه لأبنائها بشَغَفٍ، وتصطحبهم، كلَّ يومٍ، الى المعبد، حيث تحرِص على أَداء جميع الطُقوس في وَرَعٍ جمٍّ. وقد أَلِفَت الانقطاع عن كلّ طعامٍ، قبلَ الصلاة، وممارسة أكثر الأصوام والنذور قسوةً، في تواترٍ لا يَثنِيها عنه مَرَضٌ أو علّةٌ. فسحابةَ موسمِ الأَمطار، الذي يمتدُّ، في الهند، نحوًا من أربعة أشهرٍ، كانت تجتزئ بوجبة طعامٍ واحدةٍ في اليوم، لا بل كانت تقتصرُ على وجبةٍ واحدةٍ كلّ يومين، أَحيانًا، وإذ كانت الغيومُ تُغطّي السماءَ باستمرارٍ، خلالَ ذلك الموسمِ، فهي كثيرًا ما كانتْ تنذُر إلاّ تتناول طعامًا حتّى ترى، بأُمّ عينَيها، أشعّة الشمس المُشرقة. وكان "مهنداس" الصغير يقبع يترقّب انقشاعَ الغُيوم كي يجري يُبشّر أمَّه بظهور الشَّمس، فيسعد برؤيتها تطعم بعد طول صيامٍ؛ ولكن، غالبًا ما كانت الغيومُ أَسرعَ منه في حجب الشمس من جديدٍ، وتخرج أمُّه، فلا تبصرُ أيَّ شُعاع، ويستمرُّ صيامُها.

من المُحقَّق أنَّ تلك البيئةَ التي نشأ في أَحضانها "مهنداس" قد حفرت في ثنايا صدره آثارًا بليغةً باقيةً، وسنتبيّن، عبر مراحل هذه السيرة، مدى إسهام استقامة "كرمشند"، ووفائه، وتسامحه وانفتاحه، وكذلك قداسة "بوتليباي"، ووَرَع "رمبها" في صَوغِ شخصيَّة مَن سيغدو "المهاتما غاندي"، ودمغِها في الأعماق، ولو أنَّ بعض تلك الآثار، لم يتجلَّ، واضحًا، إلاّ في حقبةٍ متأخّرةٍ من شبابه.

غاندي الطالب

لم يَتعرَّض "مهنداس غاندي" الحَدَث لمُؤثِّراتٍ إيجابيّةٍ فحسبُ، ولم تتجلّ فيه المناقبُ الحميدةُ ومخايلُ النّباهة فقط، لا بل، على نقيض ذلك، قد بَرَزَ لديه الكثيرُ من العيوبِ الكفيلةِ بأن تجعَل منه إنسانًا عاديًّا، لا يختلف عن سواه من سواد الناس المغمورين المُغفَلين؛ إلاّ أنّه ما انفكّ يُكافح في سبيل تخطّي تلك المثالب، والظهور عليها، وتحويلها الى خِصالٍ نبيلةٍ، مستعينًا بمَا انطوت عليه نفسُه من فضائل أساسيّةٍ، تفتّحت براعمُها، في حداثتِه، واكتسبتْ، مع الأَيّام، ترسُّخًا وتساميًا.

وقد احتفظ غاندي، من سنوات دراسته الأولى، بذكرى صبيٍّ بليد الذكاء، واهي الذاكرة، يتخبّط بعناءٍ في شِباك جدول الضَّرب؛ فضلاً عن أنَّه كان رعديدًا تشتدُّ عليه وطأة الخوف، في سكنات اللَّيل، حيث تزدَحم، في مخيّلته، الأشباحُ المرعبة، وينضمُّ الى موكبها المُرعِب ما تَحْفَلُ به الهندُ من دواعي الفَزَع المتعدّدة، كالزواحف والأفاعي واللُّصوص. ولكن الفتى كان يجهد في مقاومة مخاوفه، بكلِّ جوارحه، ولا يني يُتمتم، وهو يرتعد أحيانًا، اسم الله "رام نام"، على نحو ما كانت قد لقّنته مربّيته ووالدته.

إلاّ أَنَّه كان، بالمقابِل، مُثابرًا، جَلودًا، شديدَ التقيُّد بالنِّظام، وبدقّة المواعيد؛ وإذ كان حريصًا على المُضيِّ الى المدرسة سعيًا على الأَقدام، فقد أَلِفَ مغادرةَ المنزل، باكرًا، ولو أَلجأه ذلك الى الاقتصار على إفطارٍ هزيلٍ، يتناولُه على عَجَلٍ. ثُمَّ كان، حالما يَفرَغُ من الدُّروس، يهرعُ الى البيت، راكضًا، وحيدًا.

ومنذ تلك المرحلة تجلّى تشبُّثه بالصِّدق، ونفورُه من كلّ كَذِبٍ، وهو نفسُه يؤكّد: "**لست أَذكر أنّني، في تلك الحقبة، قلتُ، يومًا، كذبًا، لمعلّميّ أو لرفاقي**".

وهو يروي، في هذا الشأن، حادثةً ذاتَ دلالةٍ بليغةٍ؛ فأثناء امتحانٍ توخّي منه مُفتّشٌ إنكليزيٌّ، اختبارَ قُدرة التلامذة في الإملاء، وأملى عليهم خمسةَ أَلفاظٍ، كتب غاندي إحداها خطًا، ولَحظَ معلّمُه ذلك، فخفَّ الى مساعدته، وركله بقدمه، مشيرًا إليه أن ينقل من زميله الجالس الى جواره الكتابة الصحيحة، غير أنَّ غاندي رفضَ الامتثال، في إباءٍ وعنادٍ، لقَناعته بأنَّ النقل ضَربٌ من الغِشّ والخديعة، وبأنَّ مهمّة المعلّم هي الحيلولةُ دون الكَذِب لا الحثُّ عليه. وقد تبيّن، في أعقاب ذلك، أَنّ جميع الطلاّب الذين نقلَ بعضُهم من بعضٍ، قدّموا امتحانًا خاليًا من أيّ خطأ، ما عدا غاندي الذي راح معلّمه يندّد بحماقة سلوكه، ولكن من غير أن يفلح في النَّفاذ الى قناعاته، فهو كان يؤثر تلك الحماقة على النَّقل والغشّ، وهكذا ظلّ سحابة حياته كُلِّها.

ويُعلّق غاندي، في مُذكّراته على تلك الحادثة بقوله: "مع ذلك، لم يَنل ذلك الحادث، في شيءٍ، من احترامي لأستاذي، فأنا، بالسَّليقة، أُعرِضُ عن أَخطاء مَن هم أكبرُ منّي سِنًّا".

لم يكن غاندي الحَدَثُ شَغوفًا بالعِلم، وإنَّما كان يُراجع دروسَه، ويُنفّذُ وظائفــه، على أنّها واجبٌ يُؤدّيه بأَمانةٍ، في غير اندفاعٍ؛ ولم يكن كَلِفًا بالمطالعة، ولكــن، ذات يومٍ، وقع، بين يدَيه، أحدُ كتُب والده، وهو تمثيليّة تُشيد بالمثُل العليا الهندوسـيّة، ولا سيَّمَا ببِرِّ الأبناء بالوالدين، كما تسنّت له فُرصةُ مشاهدة تمثيليّةٍ أُخــرى، عــاد الــى مشاهدتها مَثنى وثُلاث، في انفعالٍ متزايدٍ، وهي تروي حكاية مَلِكٍ ضحّى بكلّ شيءٍ، وكابد من المشاقّ والعَنَت قسطًا وفيرًا، في سبيل نُشدان الحقيقة. وقد خلّف كلٌّ مــن ذلك الكتاب، وتلك التمثيليّة، في نفسه، أثرًا بليغًا ثابتًا، لم تَنَل منه الأيّام، بحيثُ غــدا نُشدان الحقيقة، والوفاءُ لها، دَيدَن غاندي الدائب.

ومنذُ تلك المرحلة، أَخذت تترسّخُ في حنايا نفس الفتى غاندي القناعــاتُ التــي واكبته طوالَ عمره، والتي تؤكّد أنَّ المبادئ الأخلاقيّة هي أساسُ كلّ بناءٍ سليمٍ، وأَنَّ الحقيقة الصُّراح هي جوهر الأَخلاق، وأنّ التمَاس الحقيقة، لا يتمُّ بالمعرفة وحــدَها، بل بصُبوٍّ مُفعَمٍ حبًّا، وبالإصغاء اليَقِظ الى نداء الوِجدان. ولقد تيقَّنَ، أيضًا، أَنَّ القُــوَّة الروحيّة تربطها عُرًى وثيقةٌ بنَقاء القلب، والصفح عن الإهانات، والتضحية بالذات، وأَنَّ إحكامَ السيطرة على الأَهواء، والزهد، والصومَ، تمثّل مصادرِ المنعَة التي توفّر سُلطانًا على الطبيعةِ والبشر.

الوَلَد الزوج

في الرابعة عشرةَ من عمره، وقَعَ غاندي ضحيَّة إحدى التقاليد الهنديّة المقيتة، التي كانت تقضي بتزويج الأحداث، والتي كافحها، فيمَا بعدُ، بضراوةٍ لا لينَ فيها ولا هوادة.

كان الآباء يُخطِّبون أبناءَهم وبناتِهم، وهم، بعدُ، أَطفالٌ، في شهورهم الاولى، ثُمَّ يُزوِّجونهم، وهم، بعدُ، أَحداثٌ، ويقرّرون مصيرَهم، في غفلةٍ منهم. ولم ينجُ غانــدي من ذلك التقليد، فخُطِبت له، على التَّوالي، فتاتان تُوفّيتا في المهد؛ ثُــمَّ، وهــو فــي السابعة من عمره، خُطبت له ابنة أحد تجّار "بورباندر" تدعى "كاســتورباي" تكبُــرُه بضعةَ أشهر، ولكنّه لم يُحَط بذلك علمًا، إلاّ بعد سنواتٍ، قُبَيل أن يُفرَضَ عليه الزواج بِها، وكلاهما ما برحا في الرابعة عشرة.

كان والد غاندي وعمُّه قد توجّسا خشيةً من تقدّمهما في السنّ، فعقدا عزمهما على تزويج "مهنداس" وأخيه الأكبر، وابن عمٍّ لهما، دفعةً واحدةً. فالأعراس، في الهند، آنذاك، عبءٌ باهظٌ، يستلزم نفقاتٍ جسيمةً، واستعداداتٍ مرهقةً، واحتفالاتٍ طويلةً، قد تتمادى شهورًا. وكان من شأن ذلك الزواج الجماعيّ تقليصُ النَّفقات، وفي آنٍ معًا، إضفاءُ المزيد من الإبهار والتألُّق والطنين على عرْسٍ فخمٍ.

ولم يعِ الصبيُّ "مهنداس" ما هو كان مُقبلاً عليه إلاّ من خلال جلبة التأهُّب للعرس، والثياب المزركشة التي كانت تُخاط له ولذويه، والمآدب التي كانت تُعدّ. وقد ظلَّت ناشبةً، في ذهنه، ذكرى تلك "**الليلة الأولى، حيثُ ولدان بريئان جاهلان يُقذَفُ بهما، في غفلةٍ عنهما، مطأطئَي الرأس، في خضَمِّ الحياة الرَحب**"؛ ولَدان لم يُفلح الزَّواج في تحويلهما الى بالغَين، فبقيا ولَدين مُزَوَّجَين، ينبعُ سلوكهما من ذلك التناقض؛ وسُرعان ما اصطدمت طباعُهما ونزواتهما: فهوكان شديد الغَيرة والقسوة، والاعتزازِ بحُقوق الزوج الذي يملِكُ تحديد حركات زوجته وسكناتها، ويحرَصُ على صياغة شخصيّتها على هواه، وتخضع لرغباته، وحدَها، رَوحاتها وجيآتها، في حين لم تَكُنِ الزوجةُ، التي ما كادت تتخطّى مرحلةَ الطُّفولة، مُستعدَّةً للخُضوع لأَوامرِ ولَدٍ في مثل سنّها، وللاستسلام لقَبضَته الهاصِرة، فضلاً عن أَنّها كانت مُتفرّغةً للعَبَث، قويَّة الشكيمة، حريصةً على استقلالها، مستقيمةً، تأبى أن تتناولَ سلوكَها الرِّيَب؛ ومن ثمَّ، كان لا بُدَّ أَن تتواتر بينهما دواعي الصِّدام والشجار، وغالبًا ما قبعا، أيّامًا عديدةً، حَرِدَين، لا يتبادلان عبارةً واحدةً.

ولكن، لحُسن طالعهِما، لم تَكُن حياتُهما كلُّها نسيجًا من شجارٍ، لا بل إِنَّ الشجارَ نَفسَه، وغيرةَ الزَّوج الحَدَث، كانا نابعَين من كلَفِه بزوجته الصغيرة، ومن تصميمه على الوفاء لها وفاءً لا ثُغرة فيه. والوفاء الزَّوجيُّ، عند غاندي، هو نتيجةٌ طبيعيّةٌ لشَغَفِه بالحقيقة، ومَقتِه للكَذِب الذي تَنطوي عليه كلُّ خيانةٍ. وبدافع الحبّ، كان الزَّوج الفتى قد عزَم على أَن يعوّض زوجتَه ما فاتها من تعليمٍ، وأَن يُحرّرها من أُمّيَّتها. غَيرَ أَنَّ التقاليد الهنديَّة التي كانت تستَقبِحُ انفرادَ الزَّوجَين أثناءَ النهار، أو تجاذبهما أَطراف الحديث في حضور الأكبر سنًّا، لم تَذَرْ له فُسحةً لتحقيق هذه الرَّغبة.

وقد أَصدر غاندي في كهُولته، آنَ دبّج مُذكّراته – وكان إذَّاكَ مُلتَزمًا بنَذر العِفّة منذُ سنوات – حُكمًا قاسيًا على غاندي الفتى، الحديث العهد بالزواج، من جرّاء انصرافه الطائش المحموم إلى إشباع شَهواته، الذي أفضى به إلى إهماله دروسه، وإخفاقه في مُهمّة تعليم شريكة عمره.

وغاندي الكهل قد حمّل، أيضًا، ذلك الاندفاع الجنسيّ الجامح، وِزْرَ ذكرى مُوجعةٍ أُخرى، ظلَّت تُؤرّق وجدانه حتّى مماته. فبعد مُضِيّ سنةٍ على زواجه، ابتُليَ والدُه بعلَّةٍ أَقعدته. وكان الفتى غاندي شديد البرّ بوالدَيه، وقد أَلِفَ، لدى عودته من المدرسة، المكوثَ إلى جوار والده، يُؤانسه، ويُضمِّد جراحَه، ويُعِدّ له عقاقيره، ويُمسِّد له قدَمَيْه وساقَيْه. ولكنَّه يعترف بأسى، في مذكّراته، أَنّ ذهنَه كثيرًا ما كان، أثناءَ ذلك، يُراود مخدعَه الزوجيّ؛ وقد اتّفق، ذات مساءٍ، أنَّه فيمَا كان ينهض بمهمّته البارّة، إلى جوار والده، قَدِم عمُّه، واقترح أن يحلَّ محلَّه في العناية به والسَهَر عليه؛ وتلقّف الفتى ذلك العرضَ، بحُبورٍ، وهرع إلى زوجته، فأيقظها، وما هي إلاّ دقائق حتّى قرع أحد الخَدَم باب مخدعه، وأنبأه بأنَّ والده قد لَفَظَ أنفاسَه، لتوّه. وقد حفرت تلك الحادثةُ في قرارة نفس غاندي جُرحًا بليغًا لم يلتئم قطُّ، فكتب، بعد أَربعين سنةً، في مرارةٍ، وهو ما انفكّ يُنحي على نفسه باللائمة: "**لو لم تكن الشَّهوة قد أعمت بصيرتي، لكنتُ تجنّبتُ الفراق عن والدي، في لحظاته الأخيره، ولكنتُ استمررتُ في تمسيد ساقيه، ولكان ماتَ بين ذراعيّ، في حين أَنّ عمّي هو الذي حظي بهذا الامتياز**".

وربّمَا كان هذا الحدث أحد الدوافع الكمينة التي حدت بغاندي إلى نَذر العفّة – البراهماشاريا – وهو، بعدُ، في مُقتَبل العمر.

إلاّ أنّ غاندي الكهل قد اعترف، من جهةٍ أُخرى، أَنَّ العناية الإلهيّة قد رئفت به، فوفّرت له من الظروف ما حال دون مُضيّه المُسرف في إرواء شهواته، إسرافًا وبيلاً مُهلكًا، في مُستهلّ حياته الزوجيّة؛ فهو كان ما برح، آنذاك، طالبًا حريصًا على أداء جميع واجباته المدرسيّة بأمانةٍ، فكانت تلك الواجبات تصرفه، إلى حين، عن الانغماس المفرط في الشهوة. ومن جهةٍ أُخرى، كان يُواكب تقليد الزواج المبكّر، في

الهند، تقليدٌ آخر، قد يبدو غريبًا، ولكنّه كان، لغاندي، خشبة خلاص، إذ كان يتعيّن على الزَّوجة الصغيرة اقتسامَ وقتها، في شبه تساوٍ، بين منزلَي زوجها ووالدَيها، فتَسلَخُ، في كلٍّ منهما، نحو ستّة أشهرٍ من كلّ سنةٍ.

هذا، وقد مثَّل سَفَرُ غاندي، بمفرده، إلى بريطانيا، للدراسة، بعد بضع سنواتٍ من زواجه، ثُمَّ سفرُهُ إلى أفريقيا اَلْجَنُوبِيَّة، لجامًا كَبَح الشهوة لديه، ولا سيَّمَا أَنَّه قد ظلَّ، أبدًا، وفيًّا لزوجته، ولم يتطلّع، يومًا، إلى امرأةٍ سواها.

وهكذا، بفضل الوفاء والحبّ، وضَبْط النفس والصَّبر، تمادى زواجٌ مصطنعٌ، استُهلّ بالصِّدام والخصام، اثنتَين وستّين سنةً، على وِئامٍ منسجمٍ، واحترامٍ متبادَلٍ.

الزوج الطالب

لم يكن غاندي عبقريًّا، غير أنَّ الدأَب جعل منه تلميذًا مُجيدًا، يظفر ببعض تقدير مُعلّميه، لا بل يحظى بجوائز ومِنح... لقد أَفقده زواجه المبكّر سنةً دراسيّةً كاملةً، بمَا أدخله على ذهنه من تشويشٍ، وعلى مشاعره من اضطرابٍ، غير أَنّه قد أفلح في تجاوُز تلك العَقَبة، وفي مواصلة تعلّمه الثانويّ، في حين أنَّ أخاه الأكبر، الذي تزوّج وإيّاه في آنٍ واحدٍ، قد عَزَف عن الدراسة.

بيد أنّ غاندي لم يكن، دائمًا، طالبًا مثاليًّا، بل كان، أَحيانًا، يتعرّض للتأنيب، حتّى إنّه جُلِد، مرّةً. وكان يعاني، من جرّاء ذلك، ضيقًا شديدًا، لا بسبب التأنيب نفسه، أو بسبب ما كان يُسام من ضَربٍ، بل من جرّاء شُعوره المُخزي بأنّه استحقّ العِقابَ.

وكان عليه، يومًا، المثول إلى المدرسة، في الساعة الرابعة بعد الظّهر، من أجل تدريبٍ رياضيٍّ. ولم يكنْ يمتلك ساعةً، وكانت الغيوم تغطّي السماء، فأخطأ في تقدير الوقت، وانتهى إلى المدرسة، بعد فوات الأَوان، وبيَّن للأستاذ حقيقةَ الظروف التي أَدّت إلى تأخُّره، إلاّ أَنَّ المعلِّم لم يُصدِّقه، فأحزنه أعمقَ الحُزن وأوجعَه، أن يُرشَق بالكذب، وكانت تلك التُّهمةُ هي الإهانة القصوى التي شقّ عليه احتمالها.

مادّتان مفروضتان، في المرحلة الثانوية، كان غاندي يمقتُهما ويتحاشاهما:

الرياضة البدنيّة، ولعبة الكريكيت. ومقته لهما كان ينبع، في المقام الأوّل، من خجله، وهُزاله، وشعُوره بالنقص إزاء رفاقٍ أشدّ منه مِراسًا، وأوفر إقدامًا، وأمنع بنيةً. ثمّ إنّ ممارسة تَيْنكَ المادّتين كانت تتمّ، مساءً، في أعقاب الفراغ من الدروس، وفي الوقت الذي كان غاندي يتشوّق إلى إنفاقه في العناية بوالده العليل، ومؤانسته. ومن ثمّ فقد التمس من والده أن يستأذن المدرسة في إعفائه من حصص الرياضة المسائيّة.

وقد ندم غاندي، في كهولته، على موقفه السلبيّ من الرياضة البدنيّة، التي بات يرى فيها ضرورةً تربويّةً أساسيّةً، وكان، هو نفسه، قد استعاض عمّا فاته من فوائدها بممارسة السَّير مسافاتٍ طويلةً، يوميًّا، وقد عزا إلى عادة السَّير هذه، فضل تَمَتُّعه ببِنيَةٍ متينةٍ.

تمرّدٌ وكبواتٌ

كان غاندي الفتى مُنطويًا على ذاته، فاترَ الصِّلة بأترابه، ولكنّه، مع ذلك، لم ينجُ من عقْد علاقتَي صداقةٍ، سُرعان ما اتّضحت له وخامةُ عواقبهما.

صداقته الأولى ربَطته، وهو في الثانية عشرة، بصبيٍّ من ذوي قرباه، وبها باشر مُحاولتَه الأولى لكسر طَوق القيود الصارمة التي كانت تُحكِمها الأسرة على حرّيّته واستقلاله. وتذرّع، تعبيرًا عن ذلك التمرّد، بتدخين التبغ، أسوةً بعمٍّ له، كان للتدخين مدمنًا. وقد بدأ الصَّديقانِ الحدَثان يَجمَعانِ أعقابَ اللفافات المرميّة لاستخدامها، على نحو ما يفعل الكثيرون من الأحداث الجانحين، ولكنّهما ما لبثا أن سئما التقاط النّفايات، فعمدا إلى اختلاس بعض نقود الخَدَم، في سبيل ابتياع تِبغٍ هنديٍّ، ثُمّ سُرعان ما ضاقا ذَرعًا باضطرارهما إلى الاختلاس، وسيلةً لإثبات استقلالهما، فتعاهدا على الانتحار، وعثرا، في الغابة على حُبوبٍ سامّةٍ، كفيلةٍ بالقضاء السَّريع على الحياة، ووطّدا العزم على الانتحار في المعبد، بعد إتمَام الطقوس الدينيّة. ولكن، على حدّ قول غاندي، "**إِن التصميم على الانتحار أيسرُ كثيرًا من تنفيذه**". فربّما اكتفى اليائسان بجرعةٍ ضئيلةٍ من الحبوب، أو إنهما اكتشفا، في اللحظة الأخيرة، أنَّ قيود الأسرة، رغم صرامتها، خيرٌ من الموت. ولكنّ غاندي قد

خرج من تلك التجربة وقد مَقَت الاختلاسَ، وأقلع عن التدخين، تلك العادة التي أمسى، في كهولته، يراها "**بربريّةً، مُنفّرةً، وبيلةً**"، ويعجب من إقبال الناس عليها، في نهَمٍ مأفونٍ.

إلاّ أنّ جُذوةَ تَمَرُّده، مع ذلك، لم تَخمُد، بل إنّها اتَّخذت منحى وطَنيًّا. فقد كان المُعلِّمون البريطانيّون لا يكُفّون يُفاخرون بحضارتهم، ويتبجّحون بتفوّقها، ويُنكرون، للهند، كلَّ حضارةٍ أو عراقةٍ. وكانت رِيح النَقمة على الاستعمار تسري بين الطلاّب، وقد جرفت، في تيّارها، "مهنداس غاندي"؛ وكان يرافق نَقمةَ الطلاّب يقينٌ لديهم بأنَّ الخلاصَ من المستعمرين يقتضي مضاهاتهم قوّةً وعِلْمًا ولياقةً؛ وكان غاندي نفسه يُعاني من مركّب نَقْصٍ من جرّاء هُزاله، وضآلة جسمه، وفزعه الشديد، ولا سيَّمَا أثناء الليل الذي كان يَشلّه، خوفًا من العتمة والأَفاعي، واللُّصوص والأشباح، بحيثُ إنّه بات مُحرَجًا حتّى حيالَ زوجته التي ما كانت تُقيم للخوف حسابًا، ولا ترهب ليلاً، ولا ظُلمةً، ولا أفاعي.

واستغلَّ مَوطِنَ اَلضَّعْف ذاكَ المتحكّم في غاندي، زميلٌ له في المدرسة، يكبرُه سنًّا، سبق أنْ كان لأخيه الأكبر رفيقًا، يُدعى "شيخ مهتاب". كان فارع الطول، مفتول الساعدَينِ، مِقدامًا، يدَّعي قُدرة القبض على الأفاعي الحيّة، ويتمتع بخبراتٍ عمليّةٍ واسعةٍ، وبالإجمال، كان يتحلّى بالخصال التي كان غاندي يفتقر إليها، ويتشوّق إلى الظَفر بها، فاندفع إلى عقد علاقات صداقةٍ معه، علاقاتٍ أرادها وثيقةً وحميمةً، مع أنّ ذلك الصديق الجديد، لم يكن على مستوى خُلُقيٍّ رفيعٍ. ولم يرَ ذوو غاندي بعين الرضى، تلك العلاقة تتوثّق بين ابنهم ورفيقٍ ما كانوا ليقرّوا أخلاقه وسلوكه، إلاّ أنّ غاندي قد ردّ على اعتراض ذويه بأنَّ دافعه كان الرغبة في إِصلاح صديقه؛ ولا مِرْيةَ أنّه كان، في رغبته تلك، صادقًا، ولكنّه، في الواقع، كان واهمًا، إذ إنّه لم يُخفِق في إصلاح صاحبه فحسبُ، بل إنَّه أَصبح له مطيّةً طيّعةً، ولمؤامراته ضحيّةً بريئةً.

وكان قد راج بين الطُلاب أنّ تفوُّقَ البريطانيّين نابعٌ من تناولهم اللُّحوم والخمور، وأن أسباب تخلّف الهنود تكمن في قناعاتهم الدينيّة الحافلة بالأساطير

الخُرافيّة، والطقوس الزريّة. وجَهد "شيخ مهتاب" في ترسيخ تلك الدَّعاوة في ذهن صاحبه الجديد، بعد أن كان، من قبلُ، قد تمكَّن من إقناع أخيه الأكبر بها. ولم يَطُلْ به الجُهد حتّى حَمَله على تناول اللّحوم، وإذ كان غاندي مُدركًا مدى تشبُّث ذويه بتقليدهم النباتيّ، واستنكارهم الشّديد لتناول اللحوم، فقد شرط أن تحاط مُبادَرتُه بالحيطة والكتمان، وتعاهد الصديقانِ على أن تُجرى التجربة الأولى، في مكانٍ منعزلٍ، ناءٍ عن كلّ عينٍ، وأن يظلّ الأمرُ، أَبدًا، خافيًا عن ذوي غاندي.

وفي الموعد المضروب، وافى "شيخ مهتاب" ببعض لحم الماعز، وبخُبزٍ خميرٍ، لم يكن غاندي قد ذاق مثلَه قطُّ، إذ إنَّ التقليد الهندوسي يوصي بالشاباتا، أي الخبز الفطير، المُعَدّ في المنزل. بيد أنَّ تلك التجربة الأولى كانت مضنيةً، فاشلةً، فقد كان اللَّحم في مثل قسوة الجلود؛ وغِبَّ محاولاتٍ يائسةٍ لمَضغِه، ازدردَ غاندي لُقمةً منه، سُرعان ما انتابه، على إثرها، الغَثَيان. وفي تلك الليلة راوده كابوسٌ مُروِّعٌ، وخُيِّل إليه أَنَّ ماعزًا كان يثغو باستمرارٍ في أَحشائه؛ إلاّ أَنّه، مع كلّ ذلك، ظلّ يرى، في تناوُل اللَّحم، واجبًا وطنيًّا، ووطّد العزم على المُضيّ في التجربة حتّى آخر الشوط؛ كما أنَّ غاويَه كان عازمًا على المُضيّ في غوايته حتّى تستنفد أَرَبها، فتذرّع إلى تلك الغاية بوسائلَ أوفر إغراءً، وطَفِق يأتي صاحبه بأطباقٍ من اللحوم مُتقَنة الإِصلاح، لذيذة المذاق، أو إنَّه كان يدعوه إلى مطعمٍ سَبَق أن اتَّفق مع صاحبه على إعداد أصنافٍ من اللُّحوم مُرهَفةٍ، طيّبةٍ، تروق للضَّيف. وتكرّرت مثل تلك المآدب، على مدى سنةٍ كاملةٍ، وكان غاندي يُقبل عليها بدافع الغيرة الوطنيّة، لا بحافز الرَّغبة.

غير أنَّ مَقته للكَذِب، وشغَفه بالحقيقة الصّراح، المتأصِّلَين في أغوار نفسه، قد حملاه على الصُّدوف عن تلك التجربة، مع كلّ ما كانت تُمثّله، في نظره من ضرورةٍ أساسيّةٍ، كسلاحٍ لطرد المستعمر، ومضاهاته. فقد شقّ عليه أن يظلّ مُرغمًا على إخفاء الأَمر عن ذويه، ولم يكن له قِبَلٌ على مصارحتهم به، ليقينه بمَا سيحمله لهم ذلك من صدمةٍ عنيفةٍ، وخيبةِ أملٍ مريرةٍ. ومن ثمَّ، فقد أَقسم إلاّ يعود إلى تناوُل اللحم، ما دام أَبواه على قيد الحياة.

وفي حين كان غاندي لا يزال يتخبَّط في شِبَاك وهمه بقُدرتــه علــى إصـــلاح صاحبه، كان هذا الأخير يُحكِم قبضَةَ غوايته عليه، وقــد تمكّــن، ذات يــومٍ، مــن اصطحابه إلى ماخور دعارَة، حيثُ كان قد أعدّ كلَّ شيءٍ مسبقًا، وبدقّــةٍ؛ غيــرَ أنّ العناية الإلهية قد رئفت بغاندي، ووَقَتهُ من الانزلاق إلى معصيةٍ أُخرى، فقبــع إلــى جوار المومس التي أوكِلَ إليها أمرُه، معقولَ اللّسان، مُطــرِقَ الطَّــرف، جامــدًا، لا يتحرّك. وسُرعان ما ضاقت به ذرعًا فقذفت به إلى الخارج، تحت وابلٍ من مُقــذِع الشتيمة، ومهين التحقير.

وكانت إحدى مغبّات مصادقة غاندي لشيخ مهتاب، عُزوفه عن ارتياد المعبــد، والتنكّب عن الطقوس، واستهتاره بالدّين الذي لم يعُد يرى فيه سوى مجموعــةٍ مــن القيود السخيفة، والموانع الضارّة، التي تُسْهم في استمرار تخلُّف الهندوسيّين. إلاّ أنّه كان يُشفق على والديه من مجاهرتهم بمَا صار إليه، في هذا المجال. ولكــن، ربّمَــا كانت التساؤلات الدينيّة الحائرة التي أَخذت تُساوره، في تلك الفترة، هي التي قادتــه، في أناةٍ ورِفقٍ، إلى تديُّنٍ وطيد الأسس، قائمٍ على القَناعة والاختبار، تَدَيُّنٍ صَبَغ، فيمَا بعد، كلّ سلوكه، وصاغ شخصيّته في الأعماق.

وخليقٌ بنا، قبلَ طيّ هذه المرحلة من حياة غاندي، أن نروي حَدَثًا ذا دلالةٍ بليغةٍ عن نمط العَثَرات التي دَمَغت سيرته بِسماتٍ حاسمةٍ، وخلّفت آثارًا بعيدة الغور فــي "**تجاربه مع الحقيقة.**"

كان غاندي في الخامسة عشرة، وكان أخوه الأكبر مــدينًا لــه بنحــو خمــسٍ وعشرين روبيّةٍ؛ وكان لأخيه هذا سوارٌ ذهبيٌّ مؤلَّفٌ من حَلَقاتٍ يسهُل فكُّها، وخَطَر لغاندي أن ينتزع إحدى تلك الحلقات خلسةً؛ ولكنّه بعد أن قام بفعلته تلك، أخذ وِزرُها يرين على وِجدانه، كلَّ يومٍ بثقلٍ أشدَّ، إلى أن عزم على إلاّ يعود إلى الاختلاس أبدًا، وقد رأى، تدعيمًا لعزمه هذا، أن يعترف لأَبيه بذَنبه. وحريٌّ بنا، أن نستقري الحَدَث، على نحو ما وصفه غاندي، بقلمه، في صفحةٍ رائعة:

« لم أجسُر على الاعتراف مواجهةً، لا خَشيةَ أن يضربني أَبي، فأنا لستُ أذكر

أنَّ والدنا قد ضَرَب أيًّا منّا، يومًا. ولكنّني كنتُ أشفق عليه ممّا قد أُلحقه به من غمٍّ. بيد أنّني كنتُ أشعر أن لا مندوحة من الإقدام على تلك المخاطرة، وأن اعترافًا كاملاً هو، وحدَه، كفيلٌ بتطهيري.

"وانتهى بي الأمر إلى عَقد العزم على أن أدوِّن اعترافي خطِّيًا، وأضَعه بين يدي والدي، مُلتمسًا صفحه، فسطّرته على قرطاسٍ، وناولته إيّاه بنفسي. ولم أقتصر على سرد ذنبي، بل إنّني طالبتُ لنفسي بعقابٍ ملائمٍ، وأَنهيتُ برجائي إلاّ يعاقبَ والدي نفسَه تكفيرًا عن ذنبي. وفي آنٍ معًا أَقسمتُ إلاّ أعود إلى السرقة أبدًا.

"كنتُ أرتعد، وأنا أناولُ اعترافي لوالدي، الذي كان، آنذاك، مُصابًا بناسورٍ أَلزمه الفراش، وكان فراشُه خَشَبَةً عاريةً، فسلّمته رسالتي، وجلستُ على الطرف الآخر من تلك الخشبة.

"قرأ والدي اعترافي، مُتمعّنًا في كلِّ سطرٍ منه، واغرورقت عيناه بدُموعٍ انسابت على وجنتَيه، وبلَّلت الورقة. وأَطرق، بُرهةً، ساهمًا في تفكيره، مُغمَض العينَين. ثمّ مزّق الورقة، وبعد إذ كان قد انتصَبَ جالسًا ليقرأ، عاد فاستلقى على ظهره. أنا، أيضًا، كنتُ أَبكي، ولا سيَّمَا أنّني كنت أشهد مدى ما كان يُعانيه من ألمٍ مُمِضٍّ. لو أنّني كنتُ رسّامًا، لكان من اليسير عليّ، اَلآن، أن أُثبِتَ المشهد بحذافيره، فهو ماثلٌ أبدًا، بقسوةٍ، في ذهني.

"لآلئ الألم والحبّ تلك قد طهّرت قلبي، وغسلت خطيئته. ولا بدّ للمرء أن يَخبرَ مثل ذلك الحبّ، لكي يُدرِك كنهَهُ الحقّ...

"ذلك النمط من الصَّفح السامي، لم يكن سليقيًّا لدى والدي. كنتُ قد خشيتُ سَورة غضبه، وتجريحه، وتوقّعتُ أن يلطم جبينه. ولكنّني ألفَيتَه ساكنًا، سُكونًا غير مألوف. وإنَّني موقنٌ اَلآن بأنّ الفضل، في ذلك يعود لاعترافي الصَّريح. فالاعتراف، بلا تحفّظ، مقرونًا بتعهّد عدم الرجوع إلى ارتكاب الخطيئة، بين يدَي مَن هو مؤهَّلٌ لتلقّيه، إنّمَا هو أَنقى أَنماط التَّوبة، وإنّني أُدرك أَنّ اعترافي قد أفعم صدر والدي شعورًا مُطلَقًا بالاطمئنان على مصيري، وأنّ حبّه لي قد تعاظم إلى ما لا حدّ له ».

مفترق طُرقٍ

عامَ ١٨٨٧، نَجَح غاندي في امتحانات الدّراسة الثانويّة، وكما هو حالُ ملايين الشباب في العالم، وجَد نفسَه حيالَ مُفترقٍ مُتَشعّبِ المسالك، وقف يتساءل حائرًا أيَّ سبيلٍ منه ينتهج.

أجمعت الأسرة، مع ما كانت عليه، آنذاك، من رقّة حالٍ، في أعقاب وفاةِ ربّها وعائلها، على وجوب متابعة أصغر أبنائها دراسةً جامعيّةً. ومن ثمّ، فقد وقع اختيار الشابّ على جامعة "باڤنا غار"، فهي أقلّ كلفةً من جامعة بومباي، وأدنى قربًا من قرية "راجكوت"، حيثُ كانت أسرته قد استقرّت؛ ولكنّه ما عتّم أن ألفى نفسه تائهًا في عباب تلك الجامعة، عاجزًا عن استيعاب علومها، واتّضحت له، فجأةً، ضآلة الزاد العلميّ الذي كان قد حصّله أثناء دراسته الثانويّة.

ولدى عودته إلى المنزل الوالديّ، في نهاية الفصل الجامعيّ الأوّل، كان لا مفرَّ له من إعادة النظر في مشاريعه المستقبليّة، وكان لمشورة رجُل دينٍ، صديقٍ للأسرة، مُنفَتِحِ الذِّهن، أَثَرٌ بليغٌ في تقرير مصيره، إذ أشار عليه بالسفر إلى بريطانيا، في سبيل الحصول على إجازةٍ في الحقوق تضمن له، في غضون سنواتٍ ثلاثٍ، الاستيلاء على عرش أبيه السابق على رأس ولاية "بورباندر"، في حين أنَّ ما قد يظفر به من شهاداتٍ أدبيّةٍ في الهند، سيكون أَضأل جدوى، ويقتضي دراسةً أطول أَمَدًا.

وقد استطار ذلك المشروع غاندي الشابّ فرحًا، وفي الحال، توهّج حُلم السَّفَر إلى إنكلترا في ذهنه؛ إلاّ أنّه كان يُؤثر أن يتلقّن هناك الطبّ، فهو إليه أشدُّ ميلاً. ولكنَّ ذلك الميلَ اصطدم باعتراضَين راهنَين منيعَين، فقد أَعاد الأخ الأكبر إلى ذاكرة "مهنداس" أَنّ والدهما لم يكن ليرضى، مُطلقًا، بمهنةٍ تتعرّض لتشريح الجثث، وأنّه ما كان يطمح لأصغر أبنائه إلاّ بمهنة المحاماة. أمَّا رجُل الدّين، موحي مشروع السفر إلى بريطانيا، فكان يرى أن الطبَّ لن يؤهِّل "مهنداس" لوراثة مركز أبيه، ولا لتبوّء مناصب اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ أجلّ شأنًا، والتي، وحدَها، شهادةُ الحقوق تضع بين يديه مفتاحها.

رجل الدين غرس الفكرة وسقاها، وغاندي الشابّ تلقّفها باندفاعٍ، واحتضنها بشَغَفٍ، أَمّا شقيقه الأكبر، فقد أَصابته منها الحيرة والاضطراب، فكيف السبيل إلى

توفير نفقات الدّراسة والسفر، وهل يسوغ أن يُقذَف بشابٍّ غِرٍّ في خضمّ بلادٍ نائيةٍ غريبةٍ؟ أمّا والدة مهنداس التي كانت فكرة سفره طعنةً في صدرها، والتي كان يشقّ عليها مُجرَّد تصوّر الانفصال عن ابنها الأصغر، فقد لجأت إلى المماطلة، وادّعت أنها لا تملك البتّ في ذلك الأمر، قبل موافقة شقيق زوجها الذي أَمسى، هو، عميد الأسرة.

وفي الحال، نسي غاندي جُبنه وهواجسه، وشدّ الرحال مُيمّمًا شطر عمّه في "بورباندر"، في رحلةٍ كانت ستستغرق خمسة أيّامٍ، على متن عربةٍ تجرّها ثيران، إلاّ أنّه في سبيل اختزال المسافة والزمن، استأجر في اليوم الثالث من الرحلة جملاً، فوفّر، بذلك، من وقت الرحلة، يومًا واحدًا.

لم تَرق فِكرةُ الدراسة، في بريطانيا، للعمّ الذي ادَّعى أنَّ جميع الهندوسيّين الذين درسوا هناك قد انتهكوا تقاليد دينهم، وانتهجوا تقاليد غربيّةً مقيتةً، ومن ثمّ، فقد أبى أن يتحمّل وِزر الموافقة، إلاّ أنَّه لم يشأ أن ينهض، دونها، عَقَبةً، وأعلن أنّه سيُبارِك السفر، إن وافقت والدة "مهنداس" عليه.

نفس الهواجس، والخشية على أخلاق "مهنداس" ودينه كانت تُراود أمّه، بعدما نمى إليها ما يتعرّض له الشباب الهندوسيّون، في بريطانيا، من غِواياتٍ تُنذِر بهَدر جميع قِيَمِهم، وامتهان تقاليدهم؛ غيرَ أنَّ رجل الدين ابتكر الحلّ المُرضي الذي يضمن للوالدة القَلِقة الاطمئنان، ويقي الشابَّ مزالق الزلل، بعد إذ ألزمه أن يَنذُر ويُقسِم على الإحجام عن ثلاثة: الخمر، واللحم، والنساء.

وعندما اطمأنّت الوالدة لذلك القَسَم الثُلاثيّ، وبعد أن تأكّد لها أن لا شيء كان قادرًا على ثَني "مهنداس" عن عزمه، تعهّد الأخ الأكبر بتوفير النَّفقات المتوجّبة. بيد أنّ متاعب غاندي لم تنتهِ عند ذلك، فبعد أن اصطحبه شقيقه الأكبر إلى بومباي، وأودع نفقات سفره لدى أحد أفراد الأسرة هناك، ريثما تتهيّأ ظروفٌ مؤاتيةٌ للإبحار، التأم كبار الطائفة التي ينتمي إليها آل غاندي، وأقرّوا أَنّ سفره إلى بريطانيا إنّمَا هو تحدٍّ سافرٌ لتقاليد الطائفة، وانتهاكٌ لها. ولكن، إزاء إصرار غاندي الشابّ على المُضيّ في تنفيذ ما عَزَم عليه أَمرَه، أَعلن عميد الطائفة نبذَه، ونبذَ كلّ من يمدّ له يد العون، على أيّ وجهٍ، في سبيل تيسير سفره.

غير أنّ الشابّ باتَ أشدّ تصميمًا على الرحيل، وقد اهتبل فرصة سفر محامٍ هنديٍّ إلى إنكلترا ليُفيد من رفقته وإرشاده. وأبحر، أخيرًا، في الرابع من أيلول ١٨٨٨.

كان، آنذاك، في الثامنة عشرة، وقد أصبح، لبضعة أشهرٍ خَلَت، أبًا، بعد أن أَنجبت زوجته ابنهما البكر "هاريلال". ولكن، كان لا بُدّ له من مفارقة زوجته ووليده.

الغريب

جميع رُكّاب الدرجة الثانية، التي انتظم في مجموعتها غاندي، كانوا بريطانيّين، ما خلا المحامي الهندي "مزمودار". ولم يكن غاندي قد أَلِف، بعدُ، استخدام اللُّغة الإنكليزيّة، وكان تهيُّبه من التعثُّر بقواعدها ومُفرداتها يعقِدُ لسانه، بحيث لم يكُن يجرؤ حتّى على مخاطبة القائمين على الخدمة في المركب. وقد ضاعف خَجَلَهُ وارتباكَه، جهلُه لأسلوب استخدام الشوكة والسّكين على المائدة، وخَشيَتُه الدائمة من احتواء وجبات الطعام على لحومٍ أو كحولٍ، كان قد أقسم على تجنّبها، فاقتصر على تناول الفواكه، والحلوى الهنديّة التي تزوّد بها قبل سفره، وانزوى في قَمرته لا يُبارحها، إلاّ عندما يتأكّد أنّ ظهر الباخرة قد خلا من الرّكّاب؛ ولم تُجدِ محاولاتٌ مُفعَمَةٌ بالعطف، بَذَلَها بعض المسافرين، لانتزاعه من عزلته وقوقعة خجله.

وقد زاده جهله للتقاليد البريطانيّة خجلاً وارتباكًا؛ فهو قد ظَلَّ، طوال فترة الرحلة، يرتدي بزّةً داكنةً، محتفظًا لحين وصوله ببزّةٍ صيفيّةٍ، رقيقةٍ، بيضاء، مُعلّلاً النَّفْس بأنّها ستُضفي عليه منظرًا لائقًا، في حين أَنّ جوًّا شتويًّا كان قد شرع يسيطر على بريطانيا، بحيث استثار منظر القادم الغريب، في زيّه الشاذّ، بَسَمات الاستهجان والاستهزاء.

وعلى غرار الكثيرين من المهاجرين الحديثين الفتيان، سُرعان ما استبدّ به الحنين إلى الوطن والمنزل، وعناية الوالدة وحنانها، وقد زاده شعورًا بالغربة اتّساع مدينةٍ متراميةِ الأطراف، كلُّ شيءٍ فيها يتباين وكلَّ ما أَلِفَه من قبل، مثلما ضاعف تعقيد حياته ارتباطُه بنذورٍ كان حريصًا على الوفاء لها، ولا سيّمَا أَنَّ الأَطعمة النباتيّة

التي كان يظفر بها، كانتْ بالغة التفاهة، عديمة النكهة، إلى أن ضـاق بكـلِّ شـيءٍ ذرعًا، ولم يَعُد يُطيق احتمالاً. ولكنَّ صوتًا خافتًا كان لا يني يهمس في أعماقه، أن لا بدَّ له من التضحية في سبيل تحقيق ما جاء من أَجله، وبدت له أطول مـن دهـورٍ، السنوات الثلاث التي كان عليه سلخُها في إنكلترا.

إثر إقامةٍ وجيزةٍ في نَزلٍ بَهَظَته تكاليفُه، اختار له الدكتور "مهتا" الهنديّ، الـذي تولّى رعايته في إنكلترا، سَكنًا لدى صديقٍ له بريطانيٍّ، علّه يساعده على التكيّف مع التقاليد وأساليب العيش البريطانيّة. بيد أنّ مشكلة طعامه ما انفكّت تُنَغّص عيشه، فهو لا يقوى على استساغة الخضار المسلوقة التي تُقدَّم له، خاليةً من كلّ تابلٍ؛ وخَجَلُـه يلجُمُه عن المطالبة بأكثر من شرائح الخبز الثلاث التي تُخصّص له، بحيـث غـدا الجوعُ ينهش أَحشاءه، ولا سيَّمَا أنّه، في ذكرياته عن تلك الفترة يعترف: "**كنت أَكولاً، لا تمتلئ معدتي بسهولة**".

وضاق مضيفه الإنكليزيّ ذَرعًا بإعراضه العنيد عن تناول اللحوم، وبحرصـه المفرط على التقيّد بنذرٍ سخيفٍ بين يدي امرأةٍ جاهلةٍ – في اعتقاده –، وجَهد في ثَنْيه عن تشدّده؛ ولكنَّ غاندي، في غمرة تلك الشدّة، كان يلتفت إلى الله مُستغيثًا، وإن هو كان، آنذاك، يجهل الله، غير أَنّ بذرة الإيمَان التي غرستها في حناياه والدتُه ومربّيته كانت حيّةً، ولم يكن الربّ ليضنّ عليه بنعمة الثبات.

ثمّ اختار له الدكتور "مهتا" مسكنًا آخر، عند أرملةٍ عجوزٍ، على مقرُبةٍ من وسط لندن؛ وقد بادر غاندي إلى إحاطتها علمًا بمَا هو مرتبطٌ به من نُذورٍ، فـدأَبَت علـى إعداد أَطباقٍ نباتيّةٍ له، لم تُفلِح، أكثر من سواها، في إرضاء ذوقـه؛ وراح الـشابّ الغريب يطوف بشوارع لندن وحاراتها، بحثًا عن مطعمٍ نباتيٍّ يُوفّر له الشبعَ، وشيئًا من مُتعة الطّعام، إلى أَن عثر على ضالّته، بعد طول عناءٍ. وقد ابتاع من واجهة ذلك المطعم كتابًا يُشيد بالنظام الغذائي النباتيّ. وبعد أن كانت قد رَاوَدته، فَترةً، أمنيّةٌ بأن يُصبح جميعُ الهندوسيّين أَكَلَةَ لحومٍ، على نحوٍ صريحٍ مكشوفٍ، ترسّـخت قناعتـه بفضائل النظام النباتيّ، وحمد لله مؤازرته على الوفاء لنذوره؛ ولاح له أَنّ نشر مبدإ النباتيّة بات له رسالةً مُلزِمةً.

سلوك يتحوّل، وشخصيّةٌ تبرز معالمها

الدكتور "مهتا" الذي خَشِيَ على غاندي من مَغَبّات اندفاعه في مضمار التَّغذية النباتيّة، الكفيلةِ بجعله نموذجًا شاذًّا في الوسَط البريطانيّ، فضلاً عن أثرها الوبيل على صحّته، قد جَهِد، بكُلّ الذرائع، كي يثنيه عن ذلك المنحى، وقد دعاه، ذات ليلةٍ إلى المسرح، على أن يسبق ذلك عشاءٌ فاخرٌ في واحدٍ من أكثر مطاعم لندن فخامةً وأناقةً، وقد خيِّل للدكتور "مهتا" أنّ جوّ مطعمٍ على هذا القَدر من الرُقيّ، حريٌّ بتحويله عن التمادي في التشبّث بالنظام النباتيّ دون سواه. ولكنّ ظنّه خاب، فقد جيء إليهما بطبَق حساء، استهلالاً للعشاء، ولم يجرؤ غاندي على استفسار مُضيفه، مباشرةً، عن محتواه، إلاّ أنّه لم يَتَوَرَّع عن استدعاء أحد النُدُل للظفر منه بمعلوماتٍ عن ذلك المحتوى؛ فاستشاط الدكتور مهتا غيظًا، وصاح في وجه غاندي، راشقًا إيَّاه بسماجة السّلوك، وقائلاً: "إن كنت عاجزًا عن التصرّف بلياقةٍ، فخيرٌ لك أن تغادر المكان، وتجد لنفسك مطعمًا آخر". وراق هذا الحلّ لغاندي، فخرج، غير نادمٍ، وظلّ واقفًا في الخارج إلى أن فرغ مضيفه من عشائه.

ولم تنل تلك المشادّة من متانة العلاقة بين الرجلين، غير أنّ غاندي، إرضاءً لصديقه، وتعويضًا عن عدَم الاستجابة له بل ما يتعلّق بالنظام الغذائيّ، وطّد العزم على العناية بهندامه ومظهره، بحيثُ يبدو، في هذا المجال "جنتلمانًا" مكتملاً. وقد دفعه ذلك إلى مَوجةٍ من التَّبذير، ومحاولات التطبُّع الفاشلة، فأنفق مبالغ أَرهقت ميزانيتَّه، من أجل ابتياع ألبسةٍ، وقبّعاتٍ، وربطات عنقٍ، يحاكي بها الأسياد البريطانيّين أناقةً؛ وبات، كلَّ صباحٍ، يقبع عشرات الدقائق إزاء المرآة، لكي يُتقن تصفيف شعره، ويُحكم ربطة عنقه. كما إنّه انخرط في مدرسة رقصٍ، وحين تبيّن له، بعدَ أسابيع ثلاثةٍ، أنّه لم يُحرز من تدرّبه، أيّ تقدّمٍ في تأليف حركاته مع أنغام الموسيقى، قرّر تعلُّم الموسيقى، والعزف على الكمان، وباشر دروسًا في الإلقاء. ولكن، بعد انقضاء ثلاثة أشهرٍ على تلك المحاولات، ومَضَت في ذهنه الحقيقة، وتيقّن أَنّه يجهد في تصنّع ما لم يُخلَق من أجله، وأَنّ مهمّته الأساسيّة، بل الوحيدة، في بريطانيا، هي دراسة الحقوق، والظفر بإجازةٍ تُمكّنه من ممارسة المحاماة في وطنه،

فضرب عُرضَ الحائط بكلّ ما كان قد أَقدم عليه ابتغاء "جنتلمنةٍ" زائفةٍ، وعَقَدَ العزمَ على أَن يكون طالبًا فحسبُ.

سنشهد، من خلال استقراء سيرة غاندي الكثير من تلك التحوُّلات الجذريّة في سلوكه، التي تبرز إحدى ركائز شخصيّته الأساسيّة؛ فهو كلّما تجلّت له حقيقةٌ ما، غدا التزامه بالعيش وفق مقتضياتها واجبًا لا مفرّ منه، يُباشره في غير ما تلكّؤٍ ولا تقاعسٍ.

وممّا آزره على ذلك التحوّل الأوّل، أنّه، في غمرة محاولاته تصنّع الجنتلمان، لم يفقدِ يومًا صوابَه، ولم يتنكّب عن قاعدة المحاسبة الذاتيّة التي ظلّت، أبدًا، نبراسه وقائدة سلوكه، فضلاً عن حرصه الدائم على مَسك مُحاسبةٍ ماليّةٍ دقيقةٍ، صارمةٍ، سواء ما كان يتصرّف به ليراتٍ معدوداتٍ، يجود بها عليها ذووه، أو، فيمَا بعدُ، مئات ألوفٍ تعود للمؤسّسات التي أَنشأها وأشرف على إدارتها، بحيث لم يُخلد يومًا إلى النوم، قبل إِجراء جردٍ مُحكَمٍ لنفقاته وموجوداته، والتأكّد من خلوّ أيّ عجزٍ في ميزانيّته.

تلك العادات التي تمرّس بها، قد دفعته إلى المُضِيّ في سبيله الجديد، أشواطًا بعيدةً وفَّرت له استقرارًا، ورضى، وانسجامًا.

فبعد أن اتّضح له ما أفضى به إليه اندفاعُه في تصنّع الأناقة البريطانيّة، من هدرٍ لوقتٍ كان عليه وقفُه على الدراسة، ولمالٍ كان أخوه الأكبر يوفّره له بفضل الكثير من العَنَت، وتضحياتٍ جمّةٍ، وطَّدَ العَزمَ على استخدامِ أوفر جدوًى لكلٍّ من ماله ووقته. وتبيّن له أَنّ إقامته مع أسرةٍ إنكليزيّةٍ تفرِض عليه نفَقاتٍ ثابتةً لا مفرّ منها، وأُخرى إِضافيّةً نافلةً؛ فعَزَم على السكن وحيدًا، وعلى عدم التحرُّج من الارتحال، كلّما وجد مسكنًا أكثرَ تواضعًا، وتوافقًا مع عمله ومُستلزمات دراسته.

في مرحلةٍ أولى، استأجر مسكنًا من غرفتَين، مكّنه موقعه من ارتياد مدرسته سعيًا على الأقدام، في غضون نصف ساعةٍ، فوفّر بذلك أجور المواصلات، واكتسب من السير اليوميّ الطويل منْعةً بدنيّةً، وصحّةً متّزنةً، وهبطت نَفَقاته إلى نصف ما كانت عليه من قبل. ومع ذلك ظلّ يسعى إلى حياةٍ أكثر بساطةً وتجرُّدًا، اكتشف لها

نموذجًا وأسوةً، في حياة بعض الطلاَّب الهنود الفُقراء، فقرّر حذوَ حَذوِهم إلى أَبعد حدٍّ، وهَجرَ مسكنه إلى آخرَ أشدّ تواضعًا، يتألّف من غرفةٍ واحدةٍ، زوّدها بمرقدٍ يستطيع، به، أن يُصلح بنفسه طعامًا بسيطًا يتكوّن من الكاكاو، ورُقاقات مسحوق الشعير المغليّة؛ وإذ كان ذووه، حتّى تلك الفترة، ما انفكّوا يزوّدونه بالحلوى والتوابل الهنديّة، صدَفَ، أيضًا، عن ذلك الإسراف النافل، وشرع يأْلَفُ طعام مسلوق السبانخ خاليًا من كلّ تابلٍ. وقد أكّدت له تلك التجربةُ وأمثالها أنَّ مركز الذوق يكمن في الذِّهن أكثر منه في اللسان والحنك، فعكف على ترويض ذهنه، وظلّت تلك مُهمّته سحابة حياته، وحتّى لحظاته الأخيرة.

وهكذا انخفضت نفقات غاندي الطالب إلى أَدنى حدٍّ، فغمره شعورٌ بالارتياح، إذ إنّه لم يَعُد على ذويه عبئًا باهظًا، واكتشف، في بساطة العيش، أجنحةً لحياةٍ أوفر انطلاقًا وسعادةً.

وعلى مثل هذا النحو تصرّف بوقته، الذي، عوضًا عن المُضيّ في هدر فتراتٍ منه في ترّهاتٍ لا طائلَ تحتها، استغلّه في توسيع آفاق ثقافته. وإذ كانت دراسة الحقوق تتيح له فسحات فراغٍ رحبةً، قرّر التصدّي لإجازةٍ في الآداب، تؤهّله للتمكّن من بعض اللُّغات العالميّة، فقد كان عليه أن يُتقن، فضلاً عن الإنكليزيّة، اللاتينيّة، ولغةً حديثةً شائعةً، وقد اختار الفرنسيّة.

وعندما عزم على اقتحام ميدان الآداب، كانت فترة خمسة أشهرٍ فقط تفصله عن الامتحان، وكان التحدّي شاقًّا وكأنَّه مناطَحَة المُحال. فدأب على الإفادة من كلّ ثانيةٍ متاحةٍ له، غير أنّ صعوبةَ اللُّغة اللاتينيّة قد سبّبت رسوبه، ولكنّها لم تَنل من عزيمته، فراح، في الحال، يُعِدّ العدّة لدورةٍ ثانيةٍ وفّرت له النجاح.

توغّلٌ في النباتيّة، وتشبث بالنذور

إنّ أكثر ما كان يستحوذُ على اهتمام غاندي، في تلك الحِقبة، إلى جانب دروسه، أبحاثه في النّظام الغذائيّ النباتيّ، التي أَفضت به إلى تأسيس نادٍ نباتيٍّ في لندن، وإلى انخراطه في جمعيّة لندن النباتيّة، التي ما لبث أن غدا أَمين سرّها.

وإذ كان للنباتيّة مذاهبُ متباينةٌ، منها ما يُتيح تناوُل الأَسماك والبيض، ومنها ما يحظر الأَسماك ويتيح البيض، ومنها الأكثر تشدّدًا والتي تحظر كُلاً من الأسماك والبيض على السواء، وقع اختيار غاندي على أشدّ المذاهب تعنُّتًا، ولم يكُن دافعه إلى ذلك المنطق، بقَدرِ ما كان إرهافُ الوجدان، والإِخلاص المُطلَق للنُّذور. فهو كان قد أَقسم بين يدَي والدته على التنكُّب عن تناوُل اللحوم، وكان الصِّدق يُحتِّم عليه انتباذَ كلّ تأويلٍ، وتجنُّب كلّ ما من شأن أمِّه تجنّبه، وكانت ذريعته المثلى للتأكّد من سلامة نهجه، انتحالُ المذهب المتعنّت الذي يحظُر كلَّ ما قد يناله ارتيابٌ.

ولا يخفى ما قد جرّه عليه ذلك الاختيار من ضروب حُرمانٍ جديدةٍ، إذ إنّ البيض كان أحد مكوّنات طائفةٍ كبيرةٍ من الأطباق، وأصنافٍ عديدةٍ من الحلوى، ممّا كانت المطاعم النباتيّة تقدّمه لمرتاديها. وقد تعيّن عليه الإقلاع عنها جميعًا، وتقصّي محتويات كلّ طبقٍ، قبل أن يمدّ إليه يدًا. وقد أمست معيشته أكثر تعقيدًا، بفضل تلك المصاعب المستحدَثة التي نشأت من تماديه في التشَبُّث بروح نذوره، ولكنّها، على حدّ قوله: "**كانت مصاعب عابرة. فوفائي المُحكَم لنذوري قد وفّر لي مُتعًا داخليّةً أوفر صحّةً وإرهافًا وديمومةً**".

وكان يحدوه ويُؤازره إيمَانٌ وطيدٌ بأنّ من يحميه الربّ، لا شرّ يصيبه، فضلاً عن أَنّ وفاءه لنذوره كان يُوليه شعورًا عذبًا معزّيًا بأنّه يحمِلُ والدتَه في صدره، ويأنَس بحضورِها الدائم معَه.

فريسة الحياء

وقد أبرزَ انضمامُ غاندي إلى الجمعيّة النباتيّة في لندن واحدًا من مواطن ضعفه قد رافَقَهُ طويلاً، وسبَّبَ له منَ الحرَج قِسطًا جمًّا، وغالبًا ما عرّضه للسُّخرية، إلاّ وهو الحياء من التكلّم أمام جمهورٍ، إذ كان حَسْبَهُ الوقوفُ أمام جماعةٍ يربو عدد أفرادها على ستّة، حتّى تعقُد الرِّعدةُ لسانَه، ويتولاّه الخَرَس.

وعندما كان يَطغى عليه الشُّعور بالمسؤوليّة حيالَ قضايا خطيرة تَفرِض عليه إبداء رأيه فيها، كان يلجأ إلى الكتابة يُدوّن بها وُجهة نظره، ولكنَّه، مع ذلك، لا يجرؤ على تلاوتها أمام الجمهور، ويُكلِّف آخرين بتلاوتها نيابةً عنه.

وقد رافقه ذلك النقص حتّى مُغادرته لندن؛ فعشيَّة عودته إلى الهند، أقام لأصدقائه النباتيّين عشاءَ وَداعٍ في مطعمٍ غير نباتيٍّ، حيثُ أُعِدَّ لهم طعامٌ نباتيٌّ خاصٌّ، وقد راقت للمدعوّين تلك البادرة التي أسبغت على المناسبة جوَّ مرَحٍ وبهجةٍ غير مألوفٍ، كان حريًّا بحلّ عُقدةِ لسان غاندي، لا سيَّمَا أنّه كان قد أَعدَّ خطابًا، كرّره، في سرّه، مرّاتٍ عديدةً؛ غير أَنّه عندما نهضَ ليُلقيه، عقَلَ الحياءُ لسانه، وأُرتج عليه، فتمتم مُتلعثمًا: "**أشكر لكم قبول دعوتي**"، ثمّ جلس، وهو يتصبَّب عرقًا.

سنواتٌ طويلةٌ قد تصرَّمَت قبل أن يُفلِح غاندي في ممارسة بعض السيطرة على حيائه. ولكنَّه، في كُهولته، عندما راح يُحلّل ذلك النقصَ، اتَّضح له أنّه، وإن هو وضَعه، أحيانًا، في مواقف حَرِجةٍ، وغالبًا ما عرَّضَه للسُّخرية، إلاّ أنّه كان له، في واقع الأمر، خَيرًا وبَرَكةً، إذ وقاه من آفة الثرثرة الفارغة، ونمّى لديه ميلاً مزدوجًا إلى الصمت المتأمّل الخصب، وإلى تكثيف أفكاره، والتعبير عنها بأدنى قَدرٍ من الألفاظ المُحكَمة الاختيار، بحيثُ تكاد لا تُفلت منه أبدًا كلمةٌ نافلةٌ.

خطرٌ آخر وقاه منه حياؤه، إلاّ وهو الانزلاق إلى ما أَلِفَه مُعظَمُ الطُّلاب الهنود في بريطانيا من كتمان واقع زواجهم المبكِّر في وطنهم، والتمادي في مغازلة الفتيات البريطانيّات. وكان غاندي في مأمنٍ من ذلك المنزلق بفضل خَفَره الفِطريّ، وانطوائه، وكَلَفِه بالصدق، وخصوصًا بفضل التزامه بنَذره بين يَدي أمِّه. ولكنّه، ذاتَ يومٍ، غشيَ مطعمًا كانت قائمةُ مأكولاته مكتوبةً باللُّغة الفرنسيّة، فارتَبَكَ، وزادَ من ارتباكِه حِرصُه على انتقاء أطباقٍ لا تتعارض ونهجه النَّباتيّ؛ ولحظَت ذلك أَرملةٌ مُسنّةٌ، فخفّت إلى مساعدته، ثُمَّ دعته إلى زيارتها، ومُشاركتها الغداء كلَّ يوم أَحد؛ وفي منزلها التقى فتاةً شابّةً، أَفلحت بفضل لباقتها، ومُثابرتها، في تحطيم قيود خَفره، فانطلق لسانُه، ولم يعد يتحرّج من محادثتها وممازحتها؛ وقد راق له الأمر، بحيثُ بات يتطلّع، في شَوقٍ، إلى حلول أيّام الأحد؛ بَيد أَنّه، خَشيةَ أن يؤدّي سكوتُه عن زواجه، في الهند، إلى توريطه في علاقات مُلزمة، بادر إلى تسطير رسالة إلى مُضيفته، مُعربًا عن بالغ أسفه على كتمان أمر زواجه، في وطنه، وكونه أبًا لطفلٍ

هناك، ممّا قد يوحي لمضيفتَيه بأفكارٍ وخُططٍ لا تتوافق ووضعه؛ وقد طالب مُضيفته أن تحظر عليه وُلوج منزلها، إن هي ارتأت أنّ طيّه أمرًا على هـذا الجانـب مـن الخطورة يوجب ذلك. وقد ضحكت الأرملة والفتاة البريطانيّتان، ملءَ شدقَيهما، حيالَ براءةٍ تُلامس السَّذاجة، لدى غاندي، واكتسبت دعوتُها له إلى مواصـلة الاخـتلاف الأسبوعيّ إلى منزلهما، مزيدًا من الإلحاح والحرارة.

أمّا غاندي، فكان قد تخفّف من عبءٍ مُرهِقٍ، كما أنّه، باعترافِه الـصَّريح، قـد اجتثَّ، على حدّ تعبيره، سَرَطان الكَذِب من نفسه.

"لقاءٌ مع الدِّين"

الصَّراحة كانت، هي أيضًا، رائد غاندي، عندما صرّح لأَخوَين بريطانيّين، مـن أتباع الحلوليّة، دعياه، بعد إذ كان قد مكث سنتَين في إنكلترا، إلى مشاركتهما مطالعة كتاب "باغاڤـادجيتا"، أَي "نشيد الله"، وهو أَحد كتب الهندوسيّة الرئيسيّة. ولم يُخـفِ عنهما غاندي، في كثيرٍ من الخَجَل، جهلَهُ لذاك الكتاب حتّى سـاعتئذٍ. ومـع ذلـك، مضى معهما في تقصّي ترجمته الإنكليزيّة، ومُقارَنتها، ما أمكنَ، بـالنصّ الأصـليّ السَنسكريتيّ.

وقد وَقَعت كلماتُ ذلك الكتاب، من نفس غاندي، وقعَ صاعقةٍ هزّت كيانَه، وبرقٍ أنار حنايا ذهنه وقلبه؛ ومُذّاك، بات "باغاڤـادجيتا" رفيقَه اليَوميّ، ومُلهمَه في أزماته، ودليلَه إلى الحقيقة؛ وتبدّدت الأوهامُ التي كان قد رسَّخَها في نفـسه، ونفـسِ أَترابـه الهندوسيّين، بعض المستعمرين الذين ما انفكّوا يروّجون بأنَّ الديانة الهندوسيّة، إنّمـا هي مجموعةٌ من الترّهات السخيفة، والأضاليل الخرافيّة.

وفي تلك الفترة عينها، التقى غاندي رجلاً مسيحيًّا طيّبًا، حدَّثَه عـن المـسيحيّة، وحثَّه على مطالعة الكتاب المقدّس، بعهدَيه القديم والجديد. ولم تُفلِح مطالعـةُ العهـد القديم في شَدِّ غاندي أو استمالته، بل كانت شاقّةً مُملّةً، بل مُنَفِّرةً أَحيانًا، على حدِّ مـا كان سفر الأعداد، على نحوٍ خاصٍّ.

أمّا عن العهد الجديد، فيقول غاندي: "**لقد أَحدث فيّ تأثيرًا مغايرًا تمامًا، ولا سيَّمَا**

"عظة الجبل"(١)، التي نفذت مباشرةً إلى قلبي... إنّ مقاطع مثل: "وأنا أقول لكم: "لا تقاوموا من يُسيءُ معاملَتكُم، بل إنْ لَطمَ أَحدٌ خدّك الأيمن، فحوِّلْ له خَدَّكَ الأَيسَرَ؛ وإن قاضاكَ أَحدٌ لكي يأخُذ ثَوبَكَ، فاتركْ له معْطَفَكَ أيضًا". قد سَحَرَني إلى أَقصى حدٍّ".

ومضى غاندي يستَقري وُجوهَ الشَبَه بين تلكَ الأَقوالِ، وأقوال "الجيتا" والتعاليم الهندوسيّة الأُخرى السَّمحاء، فَقَرَنَها كلّها بحُبٍّ واحدٍ، وتقديرٍ مُماثِلٍ. وكان أكثرَ ما استماله إِجماعُها على فكرة التَجرّد التي تُمثّل جوهَرها.

وقد شَحَذَ ذلك الاكتشاف المُذهِلُ المتوهِّج، رغبةَ غاندي في الإلمام بالديانات العالميَّة الرئيسة، بيد أنَّ امتحاناته الوشيكة لم تفسح له، آنذاك، ما يَكفيه من تفرُّغٍ

(١) هي عظة يسوع من على إحدى هضاب الجليل، والتي تُمثِّل مُفترقًا حاسمًا في تاريخ البشريّة، وتَحوّلاً جذريًا في مبادئ الأخلاق والسُّلوك، بدعوتها إلى محبّة الأعداء، وترسيخها لقيَم الرُّوح، وقَلبها لجميع المفاهيم السائدة التي كانت ترى في الثَّروة والمُتعَة والسُّلطان جوهر السعادة، في حين أقام يسوعُ السعادة على الفَقر الطوعيّ، والتجرّد، والوداعة، والمحبّة الشاملة، والرحمة، والخدمة، والمعاناة في سبيل مُثُل العدل والحبّ. أما نصّ تلك العظة، فهو، كما جاء في إنجيل متّى:

« "طوبى للمساكين بالروح، فإنّ لهم ملكوتَ السَّماوات،
"طوبى للوُدعاء، فإنّهم يَرثون الأرض،
"طوبى للباكينَ فإنّهم يُعزّونَ،
"طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنَّهم يُشبَعون،
"طوبى للرّحَماء، فإنّهم يُرحَمون،
"طوبى لأنقياء القُلوب، فإنهم يُعاينون الله،
"طوبى لفاعلي السلام، فإنّهم يُدعَون أبناء الله،
"طوبى للمضطَهَدين لأجل البرّ، فإنّ لهم ملكوتَ السَّماوات...

"سَمعتُم أنَّه قيل للأقدمين: لا تَقتُل، فإنّ من قَتَل يستوجبُ المحاكمة؛ أمّا أنا فأقول لكم: إنّ كلَّ من غَضب على أَخيه يستَوجبُ المحاكمة، ومن قال لأخيه "يا أحمق" يستوجبُ حكم المحفل، ومن قال: "يا معتوه"، يستوجبُ جَهنّم النار؛ وإذن، فإن قدّمتَ قُربانَك على المذبح، وتَذكّرت هناك، أنَّ لأخيك عليك شيئًا، فدع قُربانك هناك أمامَ المذبح، وامضِ أوّلاً فصالحِ أخاك، وحينئذ ائت وقَدّم قربانك...

"سمعتُم أنّه قيل: عينٌ بعين، وسنٌّ بسنٍّ؛ أمَّا أنا فأقول لكمً: لا تُقاوموا الشرّير، بل من لطَمَكَ على خدّكَ الأيمن فقدِّم له الآخر أيضًا، ومن أَرادَ أن يرافعك إلى القضاءَ ويأخُذَ ثَوبَكَ، فخلِّ له الرِّداءَ أيضًا، ومن سخّركَ لميلٍ، فامضِ معه ميلَين، من سألكَ فأعطه، ومن أرادَ أن يَقْترض منك فلا تحوِّل وجهَكَ عنه.

"وسَمعتُم أنّه قيل: أحببْ قريبَكَ، وأبغض عدوّك، أمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم، وصَلّوا لأجل الذين يضطهدونكم، لكَي تكونوا أبناء أبيكمَ الذي في السماوات؛ فإنَّه يُطلع شمسَه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والأثمة، فإنّكم إن أحبَبتُم من يُحبُّكُم، فأيُّ أجرٍ لكم؟ أليس العشّارون أنفسُهم يفعلون ذلك؟ وإن لم تُسَلِّموا إلا على إخوانكم فقط، فأيُّ عملٍ خارقٍ تصنعونً؟ أوَليس الوثنيّون أنفسُهم يفعلون ذلك؟ فأنتم، إذن، كونوا كاملينَ كما أنَّ أباكم السماويّ هو كاملٌ ».

للاضطلاع بتلك المُهمّة التي ظلّت نداءً لَجبًا هادرًا في أعماقه، إلى أن تهيّأَ له، في سبيلها، مُتّسعٌ من الوقت.

وقد واكَبَ اكتشافُ الدين لديه، اكتشافَ التجربة الدينيّة، وفعْل النِّعمة الإلهية، واليقين بأنَّ المعرفة الدينيّة وحدَها لا تُجدي فتيلاً، ساعةَ المِحَن، فمَا هي أكثر من قشّةٍ في مهبّ الريح، إنْ لم يكُن الله قابعًا في أعماق النفس، يُمِدُّها بأَزْرِه ووقايته.

كان غاندي، منذ حداثته، قد تعرَّض لِتَجَارِب كفيلةٍ بجرِّه إلى وِهادٍ وخيمةٍ سحيقةٍ، ولكنَّه نجا منها؛ وقد استولى عليه، آنذاك، شعورٌ مبهمٌ بأنَّ الله قد حماه من السقوط فيها، ولكنَّه لم يقف لذلك على تفسيرٍ، ولا هو استطاع إدراك كُنهِ الله.

وتكرّرت مثل تلك التجارب، بعد أن تفتّحت أبصارُه على المعرفة الدينيّة، وتجلّت له يد الله، في كلِّ مِحنةٍ اجتازها، وازداد شعورُه بذلك رُسوخًا مع تعاظم أعبائه ومسؤوليّاته، واحْتدامِ كفاحه، بحيثُ استطاع التأكيدَ، فيمَا بعدُ، لدى استعراضه شتّى مراحل حياته، أنَّه كلّما داهمته مِحنةٌ تحوّلَ معَها أَملُه سرابًا، وما توخّاه من مؤازرةٍ ارتَدَّ خيانةً، وتلاشى رجاؤه في أيّ عونٍ، قد بادرَه، أبدًا، الربُّ بعونه، بشكلٍ أو بآخَر، من حيثُ لا يدري، وقد اتَّضح له أنَّ "**التضرُّع والعبادة والصلاة ليست شَعوذة، بل هي أعمالٌ أكثر واقعيّةً من الأكل والشُّرب، والجلوس والمشي؛ لا بل ليس من غلواءٍ في القول إنَّها الواقع الوحيد، وكلُّ ما سواها وهمٌ**".

وقد استقرّ في قرارة نفسه اليقين بأَنّ الصَّلاة إنَّما هي من القلب تتفجّر، وليست عباراتٍ تكتفي الشفاهُ بترديدها، على أن يطهُر القلب، ويخلو من كلِّ شيءٍ عدا الحبّ، وعلى أن يترسّخ في النَّفس التواضُع. وعندما تجتمع تلك الشُّروط تغدو الصلاةُ الوسيلةَ المثلى لغسل القلوب من أدران الأهواء، وللاتّصال بالله.

زيارةٌ خاطفةٌ لباريس

ذلك الاهتمامُ بشُؤون الله والدِّين يتجلّى أيضًا من خلال زيارة غاندي للعاصمة الفرنسيّة عام ١٨٨٩، التي حدَتهُ إليها رغبةٌ مُزدَوجةٌ في مشاهدة باريس، والاطّلاع على المعرض العالميّ الذي أقيم فيها، في تلك السنة.

أَنفق غاندي سبعة أَيّامٍ في باريس، بعد إذ كان قد تزوَّدَ، مُسبقًا، بعنوان مطعمٍ نباتيٍّ فيها، وبدليلٍ يُمكّنه من التجوُّل في مدينة النُّور، سعيًا على قدمَيه، وارتياد أكثر أماكِنها الأثَريَّة شُهرةً، بأدنى كلفةٍ.

لا بُرج إيفل الذي جرى تدشينُه، بتلك المناسبة، والذي كان موضعَ حديث الدنيا ودهشتِها، أَلهَبَ خيالَ غاندي، ولا نَمَطُ العيش الباريسيّ الذي كثيرًا ما يُذهل الوافدين إلى باريس للمرَّة الأولى، أثارَ اهتمَامه، ولم يستوقفه سوى رَوعة الكنائس، وجوِّ الخُشوع والعبادةِ السائد فيها.

وقد كتب بهذا الشأن: **"كنائس باريس القديمة ما انفكّت محفورةً في ذاكرتي، إذ يتعذّرُ نسيان جلالها السَّاجي. إنَّ هندسةَ "نوتردام" المُدهِشة، وتَنوُّعَ زخارفِها الداخليّة ودقّتها، بالإضافة إلى رَوعة منحوتاتها، تفرِضُ ذاتها على الذاكرة. لقد استحوذ عليّ حَيال ذلك المشهد، شعورٌ بأنَّ الذين أنفقوا الملايينَ على تشييد تلك الكاتدرائيّات الإلهيّة، إنّما كانت قلوبُهم عامرةً بحبّ الله... إنَّ مُجرَّد المرور بجانب شخصٍ راكعٍ أمام تمثال العذراء، يفرِض مشاعر المهابة والاحترام. إنَّ الإحساس الذي تولاّني، آنذاكَ، بأنَّ كلّ تلك العبادات والصَّلوات لا يَسَعُها أن تكون مَحضَ خُزَعبلات، ما انفكَّ يترسّخُ فيّ. فعبادةُ أولئك الجاثين أمام العذراء، لا يُمكِن أن تكون موجَّهةً إلى تمثالٍ من رخامٍ، بل هي تعبيرٌ عن تُقًى صادقٍ مضطَرِمٍ، يتخطّى الحَجَر إلى الألوهة التي يُمثّلها... إنّ تلك العبادةَ لا تنال من مجد الله، بل تساهِم في تمجيده".**

غاندي المحامي

لم يكن الظَّفَر بإجازةٍ في الحقوق، من جامعات إنكلترا، بالأمر العسير أو المُستَعصي، فالطلاّبُ ينعمون بتسهيلاتٍ جمّة، والأَساتذةُ متسامحون، ونسبةُ الناجحين تتخطّى ٧٥%، في كلّ عامٍ، ممَّا كان يَحمِلُ الطلاّبَ على الاكتفاء بمراجعة الموجَزات، أسابيعَ معدوداتٍ قبلَ الامتحان، من غير أن يُعنَوا أَنفسَهم مؤونةَ استقراء النصوص الكاملة للموادّ المفروضة.

بَيدَ أَنَّ حِرْصَ غاندي على الصِّدق، وتمرُّسَهُ بالجِدِّ، قد جعلا من امتحاناته قضيّةً شاقّةً حقًّا، إذ إِنَّه دأب على دراسة النُّصوصِ الكاملةِ للمؤلَّفات المدرسيّة، وعلى مُطالعة الحقوق الرومانيّة في نصّها اللاتينيّ الأصليّ.

وقد اجتاز الامتحانات، بنجاحٍ، في العاشر من حزيران ١٨٩١، وسُجّل في سلك المحامين. وبعد يومَين فقط، في الثاني عشر من حزيران، كان على متن سفينةٍ قافلةٍ به إلى موطنه.

لم يكن غاندي العائد مُنتشيًا بخمرة النَّجاح، فهو، مع تزوُّده بإجازةٍ في الحقوق، وبنظريّاتٍ حقوقيّةٍ عامّةٍ ورومانيّةٍ، كان فريسة هواجس تُؤرّقه، إذ كان يَرين عليه الشُّعور بعجزه عن ممارسة مهنة المحاماة بكفاءةٍ، وتعتريه الرِّعدة عندما يُقارن نفسه بمشاهير المحامين الهنود الذين تألَّقت نُجومهم في محاكم الهند وإنكلترا، ولعلعَت، في أَرجائها، فصاحتُهم، إذ كانت تتجلّى له، من خلال تلك المُقارنة، في وضوحٍ مخيفٍ، عوائق عَيّه وحيائه، وانعدام كفاءته، وافتقاره إلى الخبرة العَمَليّة، وعدم تمرُّسه بمعرفة الناس، وجهله المُطبق لتاريخ الهند، ولمبادئ الحقوق الهنديّة، وللشريعة الإِسلاميّة.

وقد راح يتساءَل، في قلقٍ، إن هو كان قادرًا على كَسب معيشته من مهنةٍ لن يقوى على مُمارستها بكفاءةٍ. إلاّ أنّ صديقًا له، وهو محامٍ قديم، قد حاول إِشاعة الثقة في صدره، وتبديد هواجسه، مُؤكِّدًا له أنّه يمتَلك عناصر النجاح الجوهريّة، المُتمثِّلة في النزاهة، والدأب، وأنَّ بوسعه اكتساب ما يفتقر إليه بالممارسة، والتمرُّس بمعرفة النَّاس، والإلمَام بالشؤون العامّة.

إنّ تحليلاً مُتمعِّنًا لتلك الحقبة من حياة غاندي يُظهر أنّ السنَتَين الاثنتَين، والأشهر الثمانية التي سلَخَها في إنكلترا، لم تُخلِّف فيه سوى أثرٍ سطحيٍّ، فهو قد ظلَّ، سحابةَ تلك الفترة، في غُربةٍ شِبهِ كاملةٍ عن المُحيط البريطانيّ.

فغاندي ليس، بفطرته، كَلِفًا بالعُلوم النَّظريّة، ولئن هو درس الحقوق، فبدافع الواجب والضرورة؛ وهو، بالإضافة إلى ذلك، لا تستهويه بهارِج الحضارة الغربيّة، ولا ينغمس، بيُسرٍ، في صَخَبِ المجتمع، فضلاً عن التزامه الطَّوعيّ الوفيّ بنذوره

الثلاثة. ومن ثمّ، فقد اقتصرت اتّصالاتُه، في إنكلترا، على حفنةٍ من النباتيّينَ المسنّين؛ ثُمَّ قَفَلَ راجعًا إلى الهند، وكأنَّ بريطانيا لم تَطَلْهُ إلاّ بقَطَراتٍ سريعة التبخُّر، من تأثيرها؛ عاد، وهو ما انفكّ، في قرارة نفسه، قرويًّا هنديًّا، حَيِيًّا، مُنطويًا على ذاته. لا بل إنَّه عاد أصدقَ هنديّةً، وأعمقَ هندوسيّةً من قبلُ، ولئن كان والدهُ قد طمح في إعداده لخلافته في تَوَلّي منصب "رئاسة الوزارة"، غير أنَّ "مهنداس" ما، قطّ، تطلّع إلى تسنّم سدّة عرشٍ، ولا هو، يومًا، انحنى أمام عرشٍ بشريٍّ.

صحيحٌ أنَّه عاد محاميًا، ولكنّه كان محاميًا فاشلاً، مضطربًا، مغمورًا، لا يُمكن لأحدٍ أن يستشفّ فيه ذلك الزعيم غير المنازع، الذي سيُحرِّك مئات الملايين من مواطنيه، بكلمةٍ منه.

لقد ظلّت شخصيّة غاندي الحقّة غافيةً حتّى أيقظتها صدمةُ الواقع الفظّة، ونمَّاها وأنضجها العَمَل الذي، وحدَه، فَجّرَ مخزونه الثَرَّ من الحَدسِ الثاقب، والإرادة الصُّلبة العنيدة، والجرأة التي لا تلين والتي يُغذّيها نبعانِ دافقانِ من ضميرٍ نظيفٍ، ووفاءٍ لداعي الواجب حتّى الاستشهاد.

بيدَ أنَّ أُسس تلك الشخصيّة كانت قد شرعتْ تُرسي دعائمها، مع ترسُّخ شُعور غاندي العميق بحُضور الله، والعيش الحميم الدائم في ظلّه. ولا جَرَم أنّه كان لذلك الشُّعور، ولذلك العيش، الأَثَرُ الأبلغ في صياغة روحانيّة غاندي، وطَبع سلوكِه بعمق، ودفعه في المنحى الذي أَفضى به ليغدو "المهاتما: النفس الكبيرة".

تلمُّسٌ وعَثَراتٌ

كانت عاصفةٌ هوْجاء تقرَعُ البحرَ بسِياطها، عندما أَلقتْ السفينةُ مراسيها عند شواطئ بومباي. وعاصفةٌ أُخرى، تُماثِلها هِياجًا، كانت تُزَمجِر في صدر المحامي العائد إلى وطنه، تُثيرها رياحٌ من خَشيةٍ، وقَلَقٍ، وثقَةٍ في النفس مهزوزةٍ، ورغبةٍ في الإِصلاح عارمةٍ تتلمَّسُ دربَها.

أخوه الأكبر كان في استقباله، ولكنّ أبصار غاندي كانت تَنشُد، عَبَثًا، الوجهَ الأحبّ، والكَتِف الحانية التي كان يتحرّق شوقًا لإلقاء رأسه عليها. وقد صُعِق، عندما

أُنبئ بأنَّ والدته التي كان "يموت توقًا إلى رؤيتها من جديدٍ" على حدّ تعبيره، لم تعد موجودةً لتضمّه بين ذراعَيها، على هذه الأرض. وكان نبأ وفاتها قد كُتم عنه، أثناء وُجوده في إنكلترا، خَشيةَ أن تُحطّمه الفاجعة، في غُربته. لقد كان حزنه على أمّه بالغًا، نافذًا، بعيدَ الغور، إلاّ أنّه خَنَق عبراته، وكَبَت أساه.

شقيقه الأكبر، الذي كان قد موّلَ دراستَه في إنكلترا، والذي كان يشهَدُ مدى النجاح الذي يُحرزه المحامونَ الراسخو القَدَم في تلك المهنة، والمغانم الفضفاضة التي كانوا يجنونها منها، توقّع إلاّ يكون أخوه العائد بشهادةٍ جليلة الشأن من إنكلترا، دون أولئك المحامين الذائعي الصيت، نجاحًا. ومن ثمَّ فقد افتتح له، في بومباي، مكتبًا لائقًا، وشرع يُنفق بسخاءٍ، على الأسرة بأكملها، ويُعوِّد أفرادها على رحراح العيش، ولا يتحرّج، في سبيل ذلك، من الاستدانة، يحدوه الأمل بأن يُفلح المحامي الجديد، في غضون فترةٍ وجيزةٍ، من كسب ما يكفي لسداد الديون، وتمكين الأسرة من مواصلة العيش الرَّغد الرفيه.

وما كان ذلك إلاّ ليُضاعف وِقر العبء الذي ينوءُ به المحامي الغِرّ؛ فالمحامون اللامعون، في بومباي، قد اشتهروا بحفظهم، غيبًا، دقائق القوانين والاجتهادات الهنديّة التي، بها، كانوا يُفحمون أكثر القضاة تمرُّسًا، ويتألّقون بطلاقتهم الجريئة التي كانت تسحر الألباب، وبالإضافة إلى ذلك، لا يتحرّجون من اللّجوء إلى وساطة السماسرة لاستجلاب العُمَلاء.

أمّا غاندي، فقد كان شديد الحرص على رفعة ونظافة مهنةٍ هدفُها الذَّودُ عن المظلومين؛ وهو، بالتّالي، كان يأنَف، في كثيرٍ من الإباء، استخدامَ السماسرة للظَفَر بزبائن كان في أَشدّ حاجةٍ إليهم، ولو هو ظلَّ خاليَ الوِفاض، عاطلاً عن أيّ عملٍ.

أمّا اجتهادات المحاكم الهنديَّة، ودقائقُ شرائعها وخفاياها، فم يكُن يجد إلى استيعابها طاقةً، مع كلِّ ما بَذل، في سبيل ذلك، من جُهدٍ. وغالبًا ما كان يختلف إلى محاكم الاستئناف للإصغاء إلى المرافعات. ولكن، سُرعان ما ينتابه السَّأم والنُّعاس، فيغفو.

وقد جاءت مرافعتُه في القضيَّة الأولى التي أوكلت إليه، تكريسًا لفَشلَه وعيّه، مع

أنّها كانت مُغرِقَةً في البساطة، يَعُدُّها المحامون المتمرّسون عَبَث أَطفال، إذْ إنَّه عندما أَزِف دَورُه لاستجواب الشهود، ونَهضَ ليَطرَحَ أسئلته، استولت عليه الرِّعدة، وخارت قَواه، وزاغ بصره، وأُرتج عليه، ولفَّه الدُّوار، وخُيِّل إليه أنَّ القاعة بأكملها تدور بــه وبالحاضرين، وانهدّ عياءً، قبلَ أن ينبس بلفظةٍ واحدةٍ، واكتفى بالتماس القاضي إيكالَ القضيّة إلى محامٍ آخر معروفٍ، وبادَرَ إلى مُوَكِّله، فأَعــاد لــه الروبيــات الخمــس والثلاثين التي كان قد تقاضاها أجرًا، ثمَّ فرَّ من المحكمة، لا يلــوي علــى شــيءٍ، ويغمره الخَجَل من قمّةِ رأسه إلى أَخمص قدمَيه، ومُقسِمًا إلاّ يعود إلى المرافعة فــي أيّة قضيّةٍ، حتّى يكون واثقًا من قُدرته على تحمُّل مسؤوليّاته كاملةً.

ولم يكُن من شأن تلك التجربة الأولى حمل الزبائن على التَّقاطُر إلى مكتبه. غير أنَّ بعضًا ممّن كانوا يعرفون أباه، كانوا يوافونه بظُلاماتهم، فيُدبّجَ لهم عــرائض، لا يستوفي عنها من أجرٍ سوى عباراتِ الشُّكر.

كان غاندي قنوعًا، شديدَ الاقتصاد في نفقاته، حريصًا علــى اســتخدام ســاقيه كوسيلةٍ وحيدةٍ للتنقُّل؛ إلاّ أنَّ نفقات أسرته، وتكاليف مكتبه كانت تستلزم مبالغ لا يجد إلى توفيرها سبيلاً. وقد خطر له أن يُدرِّس اللُّغة الإنكليزية، علّــه يــنهض بــبعض الأعباء الماديّة المفروضة عليه، ولكنَّه لم يظفر حتّى بوظيفة مُدرّسٍ. وفــي أعقــاب ستّة أشهرٍ من التعثّر والفَشَل، ارتأى إغلاق مكتبه فــي بومبــاي، والانتقــال إلــى راجكوت، حيثُ كانت تقيم أسرتُه وأسرة أخيه، الذي كان شــريكًا لأحــد المحــامين هناك، فأُسندت إليه كتابة العرائض والمرافعة في القضايا الثانويّة. وهكذا اســتطاع، على الأقلّ، التخلّصَ من نفقاتٍ كانت، في بومباي، نافلةً، باهظةً، وكسبَ نحو ثــلاث مئة روبيّةٍ، كلّ شهرٍ.

صدمة الكرامة الأولى

لقد قُيّض لغاندي أن يُمنى، في تلك الحقبة، إلى جانب تجربة الفَــشَل، بــصَدمةٍ امتهنت كرامته، ووضعته، للمرّة الأولى، في مواجهةٍ مريرةٍ مباشــرةٍ مــع عمــلاء الاستعمار؛ فأثناء وجوده في بريطانيا، كان قد التقى موظَّفًا إنكليزيًّا منتَدَبًا إلى الهند،

وكان لقاؤهما وديًّا، وإن هو كان عابرًا. ثمّ تبيّن له، في أعقاب رجوعه إلى الوطن، أنَّ ذلك الموظَّف كان الممثّل السياسيّ البريطانيّ في ولاية بورباندر، وكان يَقِفُ من شقيق غاندي موقفًا يتَّسِمُ بالعداء، من جرّاء اتّهامِه إيّاه بسوء استخدام منصبه، لمّا كان مستشارًا لحاكم بورباندر السَّابق. وقد ألحّ الشقيقُ على أن يستغلِّ مهنداس معرفتَه بذلك الموظَّف البريطانيّ، من أجل تحويل موقفه العدائيّ منه. ولم يرُق الأمر لغاندي، فهو، مبدئيًّا، لا يستسيغ استغلال معرفةٍ سطحيَّةٍ بأحد المسؤولين، في سبيل مصلحةٍ شخصيّةٍ؛ ونهجُ تفكيره يأبى الوساطات، لإيمَانه بأنَّ على أخيه تحمُّل تبعات أخطائه، إن هو كان مخطئًا حقًّا، وإن لم يكن كذلك، فعليه أن يُثبِت براءته، في جُرأةٍ ووُضوحٍ، ولا يخشى أيّة مغبّةٍ؛ في حين كان الأخ الأكبر يقف موقفًا مناقضًا، مؤكِّدًا أنَّ أمور السياسة لا تسير في مثل تلك البساطة، بل تحكمُها، إلى أبعد حدٍّ، المداخلات الشخصيّة، ومن ثمَّ مضى في لجاجته وضُغوطه على أخيه الأصغر، كي يقوم بمهمّة الوساطة؛ وكان المحامي الشابّ ينوء بوقِر دَينه الباهظ تُجاهَ شقيقه الأكبر، فامتثل، بَعد لأيٍ، لرغبته، والتمس مقابلة الممثِّل السياسيّ البريطانيّ، وهو قانعٌ، في قرارة نفسه، أنّه يقوم بعملٍ غير سويٍّ.

البونُ كان شاسعًا بين الشَّخص الودود الذي كان غاندي قد قابله في إنكلترا متمتّعًا بإجازته، والموظّف البريطانيّ الصارم، مضطلعًا بمهامّه الرسميّة، والذي ما إن ألمّ بداعي المقابلة، حتّى وضع لها حدًّا، في قسوةٍ جارحةٍ، موعزًا لزائره بالانصراف في الحال. غير أنّ غاندي، تحدوه الرغبة في خدمة أخيه، حاولَ كَسبَ بضع دقائق لمزيدٍ من التبسُّط في شرح مطلبه، فما كان من الموظَّف البريطانيّ إلاّ أن أهاب بحاجبه أن يُخرج، عَنوةً، الزائرَ الوقح.

وسارع غاندي فأنفذ إلى الموظّف البريطانيّ بطاقةً يدعوه فيها إلى الاعتذار عن إهانته له، وإلاّ اضطرّ إلى ملاحقته قضائيًّا؛ فجاء ردّ الموظّف أكثر فظاظةً وجفوةً.

واستشار غاندي أحد مشاهير المحامين في أمر مقاضاة الموظَّف البريطانيّ، فنصحه المحامي الخبير بابتلاع الإهانة، وإلاّ فَقَد القضيّة، وفَقَد معها ماله ومستقبله.

وأكّد له أنّ كثيرين من المحامين الشباب المندفعين قد خَبَرُوا مثل تلك التجربة، وأَن لا بُدَّ له أن يتلقّى من الحياة قِسطًا وفيرًا من الدُّروس المريرة؛ وهو قد تعلّم، من تلك التجربة، إلاّ يُسخّر، أَبدًا، من بعدُ، صداقاته، في وساطاتٍ خاصّةٍ، وقد ظلّ لذلك القرار وفيًّا، عمرَه كلّه.

ذلك الصّدام مع الموظّف البريطانيّ بات يُهدّد مستقبلَ غاندي المهنيّ، ما زاد في يده إسقاطًا، وضاعف سأمه من جوّ الدسائس السائد في المجتمع السياسيّ، وفي المحاكم، والذي كان يَضيق به ذرعًا.

ولكن، من حيثُ لم يكن يتوقّع، وافاه من تلك المحنةِ مُفتَرَجٌ، إذ عرضَت عليه شركة "دادا عبدالله وشركاه"، العمل، مدّه سنةٍ، في فَرعٍ لها في أفريقيا الجنوبيّة، حيثُ كان لها نشاطٌ واسعٌ، ودعوى قائمةٌ على شركاء سابقين، تتناول مبلغًا يُنيف على أربعين ألف جنيه، لم تُفلح المحاكم في البتّ فيها منذُ سنوات.

لم يكُن العرْض، في الواقع، بمستوى طُموح غاندي، فهو لا يجعل منه أكثر من مستَخدَمٍ في شركةٍ تجاريّةٍ. غيرَ أنَّ السأَم المُطبِق بخناقه، وإحساسه المرهِق بالفشل، ورغبته في الانطلاق شطر آفاقٍ جديدةٍ، والفرصة المتاحة له كي يكسَبَ ما يمكّنه من الاضطلاع ببعض نفقات الأسرة، كلّ ذلك قد حدا به إلى المُضيّ في مغامرةٍ يكتنفها المجهول.

ولم يكن ليدورَ في خَلَده، أو في خَلَد أَيٍّ ممّن يُحيطون به، أنَّ تلك المغامرة ستمثّل مُنعَطفًا جوهريًّا في حياته، وأنّها ستكون المناسبة غير المتوقّعة لانبثاق شخصيّةٍ فذّةٍ، ذات تأثيرٍ مترامي الأبعاد.

الفصل الثاني

البوتقة الأفريقيَّة

نشوءُ الزّعيم

في الطريق إلى أفريقيا

كان غاندي قد أَصبحَ أبًا لابنٍ ثانٍ، في أعقاب عودته إلى الهند، وكانت علاقته بزوجته قد شرعت تتوثّق، بعد أن تطهّرت، إلى حدٍّ بعيدٍ، من نَزوات الهوى، وبعد أن أَخذ غاندي على عاتقه أن يُوَفِّر، لرفيقة حياته، ما كان قد فاتها من علمٍ وثقافةٍ. غَيرَ أن تلك المُهمّة لم يكن مكتوبًا لها الاستمرار، وسُرعان ما حُمّت ساعة الفراق من جديدٍ. فقد كان دعاء السَّفَر من شِدّةِ الأسر، بحيث لم يقوَ المحامي الشابّ على مقاومته، وقد حاول التسرية عن زوجته، بتأكيده لها، أنَّ فترة غيابه لن تتعدّى السنة الواحدة.

وكان غاندي ما انفكّ حريصًا على المظاهر، ومن ثمّ فهو لم يقبل بدون الدَّرجة الأولى على متن السَّفينة التي كانت ستُقِلُّه إلى أفريقيا. وإذ كانت جميع أماكن الدَّرجة الأولى محجوزةً، آثرَ إِرجاء سَفره، على القبول بدرجةٍ أدنى، لولا أنَّ القُبطان قد رضيَ أن يخصّص له سريرًا في قمرته، ويتّخذه نديمًا وصديقًا. إلاّ أنَّ تلك الصداقة كادت تنقلب وَبالاً، عندما توقَّفتِ الباخرة، لمدّة عشرة أيّامٍ، في مرفأ زَنْجبَار، حيث اصطحب القبطان غاندي، وراكبًا بريطانيًّا، إلى ماخور دعارةٍ؛ كان غاندي جاهلاً إلى أينَ يقوده دليلُه، وعندما اتَّضح له الأمر، لَجَمَهُ حياؤه عن الرَّفض، ولكنَّه ظلَّ،

في الغرفة التي أدخِل إليها، ساكنًا، مطرقًا، حتّى استدعاه القبطان للعودة، ولم تستدرجه الفحشاء إلى شباكها. وقد علّق غاندي على تلك الحادثة بقوله:

"كانت تلك هي التجربة الثالثة، من هذا النَمَط، في حياتي. لا ريب أَنَّ شبّانًا كثيرين، في براءتهم البِكر، قد انزلقوا إلى الخطيئة، بدافع شعُورٍ باطلٍ بالحياء. ولئِن أنا خرجتُ من التجربة سليمًا، فليس لي أن أفخر، بل كان قد حقّ لي الافتخار، لو أَنّي رفضتُ الدخول. إنَّ الفضل في خلاصي يعود لله الكلّيِّ الرحمة، وحدَه. وقد ضاعف ذلك الحادثُ إِيمَاني به، كما أَنّه قد علّمني، إلى حدٍّ ما، انتباذَ كلّ حياءٍ باطلٍ".

الهنود في أَفريقيا الجنوبيّة

جاليةٌ كبيرةٌ من الهنود يُناهز عددُ أفرادها مئةً وخمسين ألفًا، كانت مبثوثةً في أرجاء أفريقيا الجنوبيّة، وتتألّف، في مُعظَمها، من كادحين يُمثّلون يَدًا عاملةً رخيصةً، مُستَغَلَّةً أَبشعَ استغلالٍ. كان يُطلق عليهم لقب "كولي"، أي كادح، وقد غدا ذلك اللَّقب، على مرّ الأيّام، مُرادفًا للهنديّ أيًّا كان مركزه أو مهنته، فكان، ثمّة، على سبيل المثال، "محامٍ كولي"، و"معلّم كولي" و"تاجر كولي". ممّا حدا ببعض من لم ترُق لهم تلك التسمية، إلى انتحال صفاتٍ، أو ادِّعَاء انتماءاتٍ، تنفي عنهم الانتساب إلى الهند، وتعفيهم، بالتالي، من لقب "كولي". وهكذا أخذ بعض المسلمين الهنود، ومُعظمهم من التجّار، يدَّعون العروبة، وبعض الناطقين باللهجة الفارسيّة، يدّعون أنَّهم فُرس.

لدى انتهاء غاندي إلى مرفأ "دوربان"، حيث كان ينتظره مُخَدِّمه التاجر الهنديّ، الشيخ دادا عبدالله، كان هندامُه مُحَيِّرًا، يستفزّ التساؤل: فهو يرتدي البزّة البريطانيّة الأنيقة، وينتعِلُ الأحذية اللمّاعة، إلاّ أنَّه يعتمر العمامة، وفقًا للزيّ الرائج في منطقة الكوجارات الهنديّة، في حين أنّ العمامة كانت، في أفريقيا الجنوبيّة، علامة مميّزة للمُسلمين الذين يرتدون الزيّ العَربيّ؛ وقد جرّ عليه اعتماره العمامة مِن المُضايقات ألوانًا، لم يتورّع عن الشكوى منها، على صفحات الصُّحف المحلّيّة، ممّا أثار حولها نقاشًا مُستفيضًا، وأظهر غاندي الوافد حديثًا، بمظهر المشاغب.

ومذ وطئت قدماه أَرضَ أفريقيا الجنوبيّة، استرعى اهتمامه ما يُحاط به مُواطنوه، هناك، من ازدراءٍ واضحٍ، ومن معاملةٍ مميّزةٍ، مُغرِقَةٍ في المهانة، وربّمَا، منذ تلك اللحظة، شرع بركان الثورة الراقد في أعماقه يهدر، ثمّ ما لبث أن تفجّرت حممه، عندما تعرّض، هو شخصيًّا، لإهانةٍ كانت، في نظره، تُمثِّلُ إهانةً لجميع الهُنود والمُلوّنين على السَّواء.

فبعدَ أسبوعٍ من وصوله إلى "دوربان"، أَوفده مُخدِّمه، دادا عبدالله، إلى بريتوريا، لتولّي القضيّة التي من أَجلها قدم إلى أفريقيا؛ وقد حجز له مقعدًا في القطار، بالدرجة الأولى؛ ولكن، عند توقُّف القطار في ماريتزبورغ، عاصمة الناتال، ولج المقطورة التي كان غاندي جالسًا فيها، مُسافرٌ أَبيضُ، حَدَجهُ بازدراءٍ من رأسه حتّى أخمص قدميه، ثمَّ ما عتَّم أن بارح المقطورة وعاد يُرافقه اثنان من موظّفي سكّة الحديد، بادره أحدهما بالقول: "اتبعني، أَنت، فمكانك في عَرَبة الشحن". ورفض غاندي الامتثال بحجّة أنَّ لديه بطاقةً تُخوّله السفر في الدرجة الأولى، ولكن لم يكن لتلك الحجّة أَيُّ وزنٍ، فالتمييز العنصريُّ فوق القوانين كلّها. واستنجد موظّف السكّة بشرطيٍّ جرَّ غاندي بعنفٍ خارج العَرَبة، وقذف بأمتعته على الرصيف، وحيالَ رفض غاندي الركُوب في عربة الشحن، تُرِك في المحطّة، وواصل القطار سَيره.

كان الوقت ليلاً، والفَصلُ شتاءً، ومدينة ماريتزبورغ، التي هُجر غاندي في محطّتها، من أكثر مناطق أفريقيا الجنوبيّة ارتفاعًا، وأقرسها بردًا. وهو لم يكن يمتلك غطاءً، ولم يجرؤ على استحضار حقيبة أمتعته، المحتوية على مِعطَفه، خشيةَ التعرُّض لمزيدٍ من المهانة. وهكذا سَلخَ اللَّيل كُلَّه، ترتَعد فرائصه من القَرّ، وفي صدره يَجيشُ بركانٌ من التساؤلات الحيرى: أَيُنهي مُهمَّته في أفريقيا، قبل بدئها، ويفرّ عائدًا إلى الهند، فيُمسي في مأمنٍ من المذلّة والتمييز العنصريّ؟ أم يُداري الأوضاع والتعسُّف، ريثمَا يفرغ، في أَقصرِ مُهلةٍ، من مهمّته، ويقفل راجعًا إلى وطنه؟ أم يلبّي نداء الواجب والتضحية، فيُقاوم الظلم، ويذود عن حقوقه، وحقوق مواطنيه المنتَهكة؟

لقد أعقب تلك الليلة الليلاء، التي سادَها القَرّ القارسُ في الخارج، وحُمَّى الصراع المحتَدِم في الداخل، فجرُ وِلادةٍ جديدةٍ. ففي تلك اللَّيلة تحطَّمت الأغلال التي كانت تشدّ غاندي إلى ماضي الخوف والجُبن والحياء، وأشرق الصباحُ على إنسانٍ قشيبٍ، عازمٍ على قهر جُبنه، وضعفه، وعلى رفض الانحناء أمامَ التعسُّف والجَور، ومحاربتهما بكلّ ما أوتي من طاقة.

لقد استحوذ عليه الشُّعور بأنَّ ما أَصابه مِنْ عِلمٍ يُلقي على كاهله، دون سواه، واجبَ إعتاق مواطنيه من لعنةِ التفرقة العرقيّة، ومن موكب المَهانة والإذلال الذي يَحفُّ بها، وقد عبَر عن ذلك الشُّعور في رسالةٍ إلى أحد الزعماء الهنود البارزين "دادا باي ناوروجي" قال فيها: "**إنّني ما زلتُ شابًّا مفتقرًا إلى الخبرة، وبالتّالي شديد التعرّض للزلَل. بيد أنّني الوحيدُ القادرُ على مجابهة هذه المشكلة. لذلك سأكون لك ممتنًّا إنْ تفضَّلتَ ووجّهتَني، وأرشدتَ خطواتي، وزوّدتني بنصائحك، التي سأتقبّلها، على نحو ما يتقبّل ولدٌ نُصح أَبيه**".

في ذلك الصباح أبرق غاندي إلى مدير سكَّة الحديد محتجًّا، وأحاط عِلمًا بالحادث الشيخ دادا عبدالله الذي أوعز إلى عُملائه في ماريتزبورغ بتوفير كلِّ عونٍ لمحاميه؛ وتوافد العملاء إلى المحطّة محاولين الشدّ من عضد غاندي، والتسرية عنه، ورَوَوا له نماذج شتّى من ألوان مُعاناة الملوّنين، وقصَصًا عمّا كابده كلٌّ منهم، شخصيًّا، من جرّاء التمييز العنصُريّ.

وفي المساء، استقلّ غاندي قطارًا آخر قاده إلى "شارلستون". غير أنَّ سمار بشرته كان يُخبئ له مزيدًا من المفاجآت والتنكيد. ففي شارلستون، كان عليه استقلال عربةٍ، تجرّها الخيول، إلى "جوهانسبورغ"، وكان مزوّدًا ببطاقةٍ تخوِّله استخدام تلك العربة. ولكنَّ القيّم عليها، ما إن لحظ لونه الداكن، وتبيّن له أنّه غريبٌ، حتّى همّ بالتخلّص منه، مُدّعيًا أنَّ البطاقة التي كان يحملها لم تعُد صالحةً؛ وعندما دحَضَ غاندي ذلك الادّعاء الباطل، عمد القيّم إلى إذلال الغريب الوَقح، فاحتلَّ، هو، مكانه، داخل العربة، مع المسافرين، ودعاه، في ازدراءٍ، للجلوس، في العراء، إلى جوار الحوذيّ. وكظَم غاندي غَيظه، تفاديًا للصدام، وحرصًا على عدم هَدر المزيد من

الوقت جُزافًا. ولكن، في إحدى المحطّات التالية، رغب القيّم في الجلوس إلى جانب السائق، لكي يدخّن سيكارة، فطرح على مَدرَج العربة قُصاصة كيسٍ قَذِرٍ، وأَوعز إلى غاندي بالجلوس عليه، بحيث يكون تحت قدمه. ورفض غاندي، في إباءٍ، مدافعًا عن حقوقه وكرامته، فإذا بالقيّم يُبادره بصفعتَين على وجهه، وينهال عليه ركلاً وضربًا، ويوسعه شتمًا وتحقيرًا، ويجهَدُ، بكلّ قوّته، في انتزاعه من مكانه، والقذف به أرضًا. وقاوم غاندي بكلّ طاقته، متشبّثًا بالعارضة المعدنيّة القائمة أمام الحوذيّ، إلى أن رقّ لحاله بعضُ المسافرين، وخفّوا للذَّود عنه، فتركه القيّم وشأنه، وهو لا يني يهدّده بالويل والثبور، عند غاية المطاف. وراح غاندي يتساءل في قَلَقٍ، إن هو سيُقيَّض له الوصول حيًّا، ولا يكفّ يستغيث بالله. ولدى بلوغه المحطّة، تنفّس الصُّعَداء، عندما وقع بصرُه على ثلّةٍ من الهنود، جاؤوا، امتثالاً لبرقيّةٍ من الشيخ دادا عبدالله، لاستقبال مُواطِنهم؛ وقد أخذ منهم التأثُّر لدى سماعهم روايتَه لسِلسلة المصائب التي حلّت به، والتي لم تكن، عندهم، بِدعةً، فكلٌّ منهم قد ذاق من أَمثالها ألوانًا.

في صباح اليوم التالي، استقلَّ غاندي عربةً أُخرى إلى "جوهانسبورغ"، بعد أن كتب إلى مدير شركة العربات يُحيطه علمًا بفظاظة الموظّف الذي اعتدى عليه. وقد تمّت الرّحلة إلى "جوهانسبورغ" بسلامٍ، وكانت قد سبقته إلى المدينة برقيّةٌ من الشيخ دادا عبدالله، ينصحه فيها بالمُثول إلى مخزن أحد عملائه هناك. غير أَنّ عنادَ غاندي قد قاده إلى أحد فنادق المدينة الكبرى، وسرعان ما اتَّضَح له أن ارتيادَ مثل تلك الأماكن مُحرَّمٌ على أمثاله من الملوّنين، فعاد أدراجَه إلى عميل مخدّمه، الذي لم يكن يستغربُ شيئًا ممّا كان يثير استنكار غاندي واستهجانه، والذي أوضح له أنَّ جاذب الربح وحدَه هو الذي كان يُهوّن على الهنود الإقامة في بلدٍ ينبذهم، وابتلاع الإهانات اليوميّة الهاطلة عليهم.

مع ذلك، ورغم تحذير معارفه، أَصرَّ غاندي على حجز مقعدٍ من الدرجة الأولى، في القطار الذي كان سيُواصل به السَّفر إلى بريتوريا، وقد شخَص بنفسه إلى المحطّة حيث ابتاع بطاقةَ الدرجة الأولى؛ وتعاطف مدير المحطَّة معه، متأثِّرًا، ربّمَا،

بأناقته البريطانيّة، وبصفته محاميًا، ولكنَّه أَنذره بأنَّ مراقب السِّكّة قد يُزري بالبطاقة، ويقسِره على الانتقال إلى إحدى عربات الدَّرجة الثالثة؛ وقد حَدَث ذلك فعلاً، غير أَنَّ المسافر الأَبيض الآخر الوحيد الذي كان يُقاسم غاندي عربة الدَّرجة الأولى، تولّى الدّفاع عنه، مُؤكّدًا رغبته في المكوث معه.

ولمّا انتهى غاندي إلى محطّة بريتوريا، كان حصاده من التجارب الجديدة، وفيرًا ومُوجعًا.

انبثاق شخصيّة المهاتما والزعيم

في بريتوريا، تدبَّر غاندي أَمرَ إقامته لدى أسرة خبّازٍ، وتولّت ربّة البيت إعداد الأطعمة النباتيّة له، والعناية بشؤون معيشته.

وكان أوّلَ مَن اتّصل بهم، هناك، من مُستخدمي شركة دادا عبدالله، مسيحيّون دعوه إلى مشاركتهم صلواتهم، والانضمام إلى اجتماعاتهم، وأعاروه الكثير من الكتب الدينيّة. وكانت، آنذاك، تعتمل، في غاندي، رغبةٌ جادّةٌ في الاطّلاع على الديانات الرئيسة، والتمعّن في مضامينها؛ وكان ردّه على دعوة أصدقائه الجُدد إلى اعتناق المسيحيّة، أنَّه لا يحقّ له ذلك قبل أن يكون قد ألمّ بأسرار ديانته الهندوسيّة، وسَبَرَ أغوارَها.

أصدقاؤه المسلمون، من جهتهم، كانوا يستميلونه إلى الإحاطة بديانتهم، وقد أقبل على مطالعة ترجمةٍ للقرآن. إلاّ أنَّه كان عازمًا على إلاّ ينهج، في شأن الدين، وفي شتّى شؤون حياته الأساسيّة الأُخرى، إلاّ وفقًا لما يلهمه "الصوت الداخليّ"، الذي كان قد غدا نبراسه ومحرّكه، بحيث يلقى في الامتثال لِوَحْيه كلّ اطمئنانٍ، وفي مخالفته كلّ عنتٍ وألمٍ.

وفي تلك الفترة كان لقاءُ غاندي مع المؤلَّف، الذي أوقَعَ في نفسه أبلغ وَقْع، إلاّ وهو كتاب تولستوي: "**ملكوت الله في داخلكم**".

ولكنْ، مع اهتمام غاندي الجدّيّ بأمور الدّين، كان ما يشغله، في المقام الأول، تقصّي شؤون الجالية الهنديّة، والسعي إلى إصلاحها. وفي سبيل ذلك، التمس من أحد وُجَهاء تلك الجالية في بريتوريا دعوة جميع مواطنيه إلى اجتماعٍ يهدف إلى التباحث

في أوضاعهم؛ وقد ضَمَّ الاجتماعُ الأوّل أغلبيّةً من التجّار المسلمين، وحفنةً من الهندوسيّين. وخطب غاندي في الحضور، وكانت تلك الخطبة الأولى التي تجرَّأ على إلقائها في جمعٍ من الناس، فرسَم لهم صورةً عن الوضع القاتم، المحفوف بالظلم والإجحاف، الذي كانوا يتخبّطون فيه، واستنهضهم لإصلاحه، مؤكّدًا لهم أنّ الإصلاح ينبغي أن يبدأ بأنفسهم، ولا سيّمَا أنّ التجار، منهم، قد اشتهروا بالتواء أساليبهم، وبُعدِها عن سلامة المناقب، وروح الدين القويم؛ وقد ردّ بعضهم مدَّعين أن لا شأن للدّين بالتجارة، فعارض غاندي هذا الادّعاء مُعارضةً حادّةً قاطعةً، وأسهب في التأكيد لهم أنَّ عليهم واجبًا مقدَّسًا تجاه الحقيقة لا يسوغ انتهاكُه لأيّ داعٍ، ولا بأيّ مُبرّرٍ، وواجبًا قوميًّا تجاه مواطنيهم، إذ إنّ سلوكهم الملتوي ينعكس وصمةً باطلةً على ألوف الهنود المساكين الذين يُتّهمون، افتئاتًا، بالغِشّ والخداع، وبالتالي، فقد حثَّهم بشدّةٍ على الاستقامة التي تكفَل لهم احترام الذات، وتفرِضُ على الغير احترامَهم.

كما إنّه دعاهم إلى انتباذ أسباب الفُرقة التي تُمزّق صفوفهم، وإلى التضامن والتعاضُد؛ ثمّ تطرّق إلى خَلَلين خطيرَين، كانا يُلقيان على سُمعة الهنود في أفريقيا ظِلالاً قاتمةً، فالهنود دون البريطانيّين، بمَا لا يُقاس، نظافةً، ومُعظمهم على أمّيةٍ مهينةٍ، ويجهلون اللُّغةَ الإنكليزية التي من شأنها تسهيل التعامل مع سائر سُكّان البلاد، وإرساؤه على أسُسٍ أَسلم. وقد حرّضهم على إيلاء نظافتهم عنايةً أوفر، وتطوّع لتلقين اللُّغة الإنكليزيّة لكلّ راغبٍ.

وتوالت بقيادته، اللقاءاتُ التي أسهمت، إلى حدٍّ بعيدٍ، في إيقاظ الوعي الإنسانيّ، والاجتماعيّ، والقوميّ لدى الجالية الهنديّة في أفريقيا الجنوبيّة، التي كان غاندي دائم الإصغاء، في اهتمامٍ، إلى ظُلامات جميع أفرادها. وعلى صعيدٍ آخر كان يوالي اتصالاته بالموظَّفين المحلّيّين، مكثّفًا، بلا هوادةٍ، مساعيه، في سبيل رَفْع الحيْف الواقع على الهنود تعسُّفًا واعتباطًا.

وبالإجمال، أتاحت له إقامته في بريتوريا، إحاطةً مستفيضةً بظُروف الهنود الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، في تلك البقعة من العالم، وكانت تجاربه الشخصيّة، المحفوفةُ بمهانةٍ بالغةٍ أحيانًا، خيرَ مدرسةٍ له. ولم يكن ليجول بخَلَده أنّ

ذلك الاختبارَ سيكون أساسًا منيعًا لمستقبله السياسيّ، إذ كان لا يزال مُتيقّنًا أنَّ عودته إلى الهند، لاستئناف مهنة المحاماة فيها، قد باتت وشيكةً، في حين كانت العناية الإلهيّة قد دبّرت له سبلاً أُخرى.

وفي تلك الحقبة أخذت تتَّضح وتترسّخ معالم شخصيّة غاندي الحقّة؛ فهو، بعد أن خطا خطواته الأولى على درب الخدمة العامّة، استحوذ عليه الشعور، بأنّها، هي، مجاله الحيويّ الطبيعيّ، الذي سيكون نسيج حياته كلّها، وقد راح يتحرّك فيه بيُسرٍ وثقة. كما أنَّ الحسّ الدينيّ الغافي في أعماقه قد استيقظ، وشرع يمثّل لديه طاقةً فاعلةً جبّارةً. وأخيرًا أخذت خبراته المهنيّة تتوطّد، وتُعِدّه للنجاح الذي قد طالما افتقده.

قضيَّةٌ ناجحة

القضيّةُ التي قَدِم غاندي إلى بريتوريا لمعالجتها، كانت تتَّصل بصَفَقاتٍ تجاريّةٍ شديدة التعقيد، لم يكنْ له بها أيّ إلمَامٍ. ومن ثمّ، فقد أكبّ، بدافع الأمانة المهنيّة، على دراسة أصول المحاسبة، وتقرّي أساليب المحاكمات، في مثل تلك القضايا؛ وفي أعقاب إقامته في بريتوريا، ومخالطة التجّار الهنود، اكتسب اطّلاعًا على أنماط التعامل التجاريّ السائدة.

وفضلاً عن تعقيدها، كانت القضيّة تتناول مبلغًا جسيمًا يُناهز الأربعين ألف جنيه، وكان قد تولّى المرافعة فيها، عن كلا الطرفين، ألمع المحامين، فتمادت، وتشابكت خيوطُها، وتعذّر حلّها.

وكان موكّل غاندي، الشيخ دادا عبدالله، قد أولاه ثقةً مُطلَقةً، ما حمله على إيلاء القضيّة اهتمامًا فائقًا، فعكف على استقراء الوقائع بكلّ دقّة، لإيمانه بأنّ الوقائع وحدَها تنطوي على الحقيقة، وقد أثبت له استقراؤه، بالدَّليل الدامغ، أنّ الحق إلى جانب مُوكّله، وأنَّ القضاء كان قد حكم، في سابقةٍ ممُاثلةٍ، لصالح الطرف الذي كان في مِثل وضع موكّله. وعندما أطلعَ على تلك التفاصيل أحد كبار المستشارين الحقوقيّين، أكّد له أنّه قد وَضَع يده على عناصر كسْب القضيّة.

غير أنّ الدافع الوِجدانيّ لديه كان أقوى من الدافع المهنيّ، إذْ إنّ مراقبته لأساليب

المحاكمات قد أثبتَت له أنّ المحامين، عامّةً، ولئن هم كانوا قانعين ببطلان حُجَجهم، لا يُسلّمون بالهزيمة، ويَظلّون متذرّعين بِشَتَّى الادّعاءات والحِيَل، جاهدين في الإطالة والمماطلة، ما استطاعوا، غير عابئين بمصلحة المتقاضين الحقّة، وفي غضون ذلك تتراكم أجورهم، والنَّفقات القضائيّة، بحيث تلتهم أموال الخصمَين كلَيهما، اللَّذَين يعيشان، غالبًا، في قلقٍ وارتباكٍ، وتشوُّشٍ يُفسد تفكيرهم في شؤونهم الأُخرى.

وبمَا أنّ الخصمين، في القضيّة التي كان يعالجها، كانت تجمعهما وشائجُ القربى، فقد رأى غاندي أنَّ من واجبه محاولة اللجوء إلى عقد تسويةٍ بالتراضي بينهما. فبادر إلى الخصم، وبعد أن بيّن له، بالدليل القاطع، بطلان دعواه، وما يتعرّض له، من جرّاء الاستمرار في الإجراءات اَلْقَضَائِيَّة، من خسائر نافلةٍ، ومن تسميمٍ لعلاقاته بقريبه وخصمه، أفلح في إقناعه بضرورة التَّسوية الحبّية، واعتماد تحكيمٍ يرضى به الطرَفان؛ ثمّ أقنع موكّله بهذا الحلّ، وقضى التحكيم لصالح مُوكّل غاندي الشيخ دادا عبدالله.

غير أَنَّ كسب القضيّة لم يكن كافيًا لإرضاء غاندي، فهو كان يواجه مُشكلةً وجدانيّةً موجعةً: فالمبلغ المُتوَجِّب على الخصم الخاسر دفعُه، بالإضافة إلى النَّفقات، من الجسامة بحيثُ كان من شأنه أن يقوده إلى الإفلاس، لو هو أدّاه، دفعةً واحدةً؛ والإفلاس، في عرف التُّجار، آنذاك، أخطرُ شأنًا من الانتحار، ومن ثَمَّ، فقد ارتدّ غاندي إلى مُوَكّله يرجوه ويُقنعه بتقسيط المبلغ على آجالٍ طويلةٍ مُريحةٍ، بحيثُ يقوى الخصم على سدادها، من غير أن ينهار ويتعرّض للدَّمار. وعندما استجاب الشيخ دادا عبدالله، بعد لأيٍ، إلى طَلبه، حينئذٍ فقط، غَمرَ غاندي الشُّعور بالرضى، وتولاّه الإحساسُ بأنَّه قد فاز حقًّا.

ولنسمعه يُعلّق على تلك التجربة الأولى الحاسمة في مهنته، ويُسدي لكلّ رجل قانونٍ، في العالم، نصيحةً ثمينةً، إذ يقول:

"كان فرَحي بلا حدودٍ، إذ كنتُ قد تلقَّنتُ الأسلوبَ الصَّحيحَ لممارسة القانون، واتّضح لي أنَّ مُهمّة رجل القانون الحقّة تتمثَّل في ردم الهوَّة التي تفصل بين الخصمَين. وقد انحفر ذلك الدَّرس في نفسي، وكان من عُمق الرسوخ، بحيثُ إنَّني

سلخت القِسط الأوفر من وقتي، طوال السنوات العشرين التي مارستُ فيها مهنــة المحاماة، في محاولة عقد المئات من التَّسويات الحُبِّية، ولم أكُن، من جرّاء ذلــك، خاسرًا: لم أَخسَر مالاً، وفوقَ ذلك، بكلّ تأكيدٍ، لم أفقد نفسي".

وفيمَا بعد، أَوجز غاندي المُثُل التي استلهمها، طوالَ ممارســته للمحامــاة فــي أَفريقيا الجنوبيّة، فكتب:

« "يوم كنت طالبًا في كُلّية الحقوق، قيل لي إنّ المحاماة والكذب سيّان، ولكــنَّ هذا القول لم يجد إلى قناعتي سبيلاً، إذ لم يكن في نيّتي أن أبتني لــي مركــزًا أو ثروةً، على أساس الكذب...

"إِنّني ما لجأتُ، يومًا، إلى الكَذِب، أثناءَ ممارستي مهنتي. وقد وقفــتُ معظــم نشاطي الحقوقيّ على قضايا ذات صلةٍ بالمصلحة العامّة، ولم أَكُن أَتقاضــى عنهــا أَجرًا، فيمَا خلا النفقات التي كنتُ أؤدّيها من جيبي... لا بل إنَّني غالبًا ما تغاضــيتُ عن استيفاء تلك النفقات ».

كان غاندي يأبى الدِّفاع عن أيّ قضيّةٍ مشبوهةٍ أَو مُلتَوِيةٍ، وإذ عُهِد عنــه هــذا الموقف، بات أصدقاؤه يوكلون إليه القضايا السَّليمة الصريحة، ويعهدون بقــضاياهم المشبوهة إلى محامين آخرين.

واتّفق، يومًا، أنّه، فيمَا كان يرافع في إِحدى القضايا، اكتشف أنَّ موكّله كان قــد خَدَعه، فالتمس من القاضي شَطب كلّ ما سبق له قوله دفاعًا عن تلك القــضيّة، ثــمّ أنحى على موكّله باللَّوم الشديد، على مسمعٍ من الجميع، وسْــط ذهــول المحلّفــين، وابتهاج الخصم.

وفي قضيّةٍ أُخرى مُعقَّدة، وبعد أن أفلح في دفع قرار المحكمة في صالح مُوكّلــه، اتّضح له أنّ الوثائق المقدَّمة للمحكمة كانت تنطوي على خطــأٍ محاســبيّ مــن شــأنه الإِضرار بالخَصم؛ فرفض المُضِيّ في الدفاع، ما لم يبادر موكّله إلى لفت نظر المحكمة لذلك الخطأ. واعترض محامٍ آخر كان يُشاركه المرافعة في القضيّة بأنّ مِثْل ذلك السّلوك إن هو إلاّ ضربٌ من العُتهِ والجُنون، ولكنَّه لم يقوَ على ثَنْيه عن عزمه. وكان لغاندي، أَخيرًا، ما أراد، بعدَ أن أقنع الموكّل أَنّ خسارةَ القضيّة، عَدلاً، خيرٌ من ربحها بالخداع.

هذا، ولم يكن غاندي يجد حرَجًا في الإعراب عن عجزه حيال بعض القضايا الشائكة، ومن نُصح موكّليه أن يعهدوا بها إلى محامين أرسخ منه قَدَمًا، وأطول باعًا، في عالم القانون، وهو نفسه لم يكن يتوانى عن استشارة مِثل أولئك المحامين، كلّما انتابته، في قضيّةٍ، رِيبَةٌ.

وربُّمَا، أَفقدته تلك المواقف بعض "الصَّفقات"، ولكنّها لم تحرمه مَورد رزقٍ كافٍ، وأكسبته صداقاتٍ ثمينةً، واحترامَ كلّ من يُقيمُ لقِيَم الحقّ وَزنًا.

المُنعَطَفُ الحاسم

كان غاندي يَهُمُّ بالعودة إلى موطنه، بعد فراغه النَّاجح من مُهمّته في بريتوريا، غيرَ أنَّ موكِّله أبى إلاّ أن يُقيم له حفلة وداعٍ وتكريمٍ، دعا إليها عددًا من وُجَهاء الجالية الهنديّة؛ وقد امتدّت الحفلة يومًا كاملاً، وربُّمَا في لحظة سأمٍ، طَفِقَ غاندي يجول ببصره بين سطور صحيفةٍ كانت مُلقاةً على منضدةٍ أمامه، فوقع على خَبَرٍ محشورٍ في زاويةٍ مُهمَلَةٍ، تحت عنوان، "حقّ الهنود في التصويت". كان يلمح إلى مشروع قانونٍ مقدَّمٍ إلى المجلس التشريعيّ، ويرمي إلى حرمان الهنود، في مقاطعة الناتال، من الحقّ في التصويت.

لم يكن غاندي على عِلمٍ بمشروع ذلك القانون، وكذلك كان مضيفوه جميعُهم؛ وفي الواقع، لم يكُن الهنود، عامّةً، في شتّى مقاطعات أفريقيا الجنوبيّة، واعين لما يُسامونَ من حَيْفٍ؛ فالفقراء منهم، على قَدرٍ من الإدقاع والجهل يجعل اهتمامَهم مقتَصرًا على لُقمة العيش؛ أَمّا التُجّار والمهنيّون، فلا يعنيهم سوى الربح، وقد أَلِفوا، ابتلاعَ الإهانات، يوميًّا، على نحو ما يقبضون دفعات المال. هذا، فضلاً عن الفُرقة المُستحكِمة بين طوائفهم وطبقاتهم المتعدّدة، والتي تزرع فيمَا بينَهم الشِّقاقَ والعداوة، بحيثُ لا يقوم، في صفوفهم، مكانٌ للمصلحة العامّة المشتركة.

وكان الهنود يُعانون، على مقاديرَ متفاوتةٍ، من الظُّلم الاجتماعيّ، وِفقًا للمقاطعات التي يقيمون فيها من أفريقيا الجنوبيّة؛ فدولة أورانج المستقلّة، على سبيل المثال، كانت الأَشدّ تعسُّفًا، وقد أنكرت على الهنود كلَّ حقٍّ، وصادرت أَملاكهم وأموالهم،

وطردت كلّ من لم تكُن إليه بحاجةٍ. وكانت تليها، في الظُّلم والتعسُّف، مقاطعةُ الناتال حيثُ قضى غاندي اثني عشرَ شهرًا، بين عامَي ١٨٩٣ و١٨٩٤.

وكان سَوادُ الهنود، في الناتال، من الكادحين الذين استُقدِموا من الهند، بموجب عقود، للاضطلاع بالأعمال الشاقّة التي يأبى البيض أَداءَها، ولا يُجدي في إنجازها كَسَلُ الزنوج. وكانت العقود تفرضُ عليهم شِبهَ عُبوديّةٍ، لمدّة خمس سنواتٍ، وتُوفّر لهم مسكنًا زريًّا، والحدّ الأدنى من الطعام، وأَجرًا شهريًّا قدره عشرة شلناتٍ، خلال السنة الأولى، يُضاف إليه شِلنٌ واحدٌ، شهريًّا، في السنوات التالية. وفي نهاية السنوات الخمس، على المُتعاقد أن يختارَ بين العودة إلى وطنه، أو الارتباط بعَقد رِقٍّ"، مدى الحياة. أمّا إن هو آثر المكوث، بصفةِ عاملٍ حرٍّ، ترتَّب عليه أن يُؤدّي، عن نفسه، وعن كلّ فردٍ من أَفراد أسرته، وعن كلّ فردٍ يعوله، ضريبةً سنويَّةً تبلغ ثلاثة جنيهاتٍ، أي ما يعادل أَجر ستّة أشهر.

وكان مُعظم الكادحين القادمين إلى الناتال، بموجب مثل تلك العقود، هم من فئة المنبوذين، الذين توخّوا الفرار من المجاعة والمَهانة، في وطنهم، إلاّ أنَّهم كانوا كمن يفرّ من الدُبّ ليهوي في الجُبّ.

وكان، ثمّة، أيضًا، العديد من العمّال الأحرار، والحرفيّين، والباعة المُتجوّلين، الذين كانوا يُقلّون بضائعهم على ظهورهم إلى أَقصى مناطق البلاد التي لا يجرؤ أحدٌ من البيض على وطئها؛ وهؤلاء قد اشتهروا بجلَدهم، وتقتيرهم، ودَأبهم، ممّا كان يُمكّنهم من جمع بعض الثروة، وبالتالي، يُثير نقمة البيض عليهم. ومن جهةٍ أُخرى، كان، من الهنود، فئةٌ ضئيلةٌ من التُّجَّار الذين جمعوا ثروةً جسيمةً، وتبوّأوا مراكز ماليّةً رفيعةً، وكان حقُّ التصويت يُمنح للقِلَّة منهم الذين يمتلكون حدًّا أدنى مُحدَّدًا من الثروة. بيد أَنّ خَشيَةَ البيض من أن يُسهم تصويت هؤلاء في إنجاح من يَذودون عن حقوق الهنود، قد دفعتهم إلى التقدُّم بمشروع المرسوم الهادف إلى حرمان جميع الهنود من حقّ التَّصويت.

فضلاً عن أنَّ الهنود، عامّةً، في الناتال، كانوا يخضعون لتدابير تعسُّفيَّةٍ مُذِلَّةٍ، إذ كان يتعيَّن عليهم الظَّفر بترخيصٍ للسير في الشوارع، بعد الساعة التاسعة مساءً، تحت طائلة السَّجن، كما كان يُحظّر عليهم استخدامُ الأرصفة. وقد نال غاندي نفسُه،

ذاتَ يومٍ، عِقابًا لائقًا، لتجاهُله ذلك الحَظر. وكان يُفرَض على مُعظَم الهنود الإقامة في أَكواخٍ بائسةٍ، قَذِرَةٍ، زريّةٍ، منتشرةٍ على حواشي المُدُن الكُبرى، ومعروفةٍ باسم "سلوم"؛ هذا، بالإِضافة إلى حِرمانهم من حُقوق التملّك، أو شراء الذهب، وما إلى ذلك من ضروب التعسُّف والإذلال. وليس أدلّ على ما كانوا يُسامون من مهانةٍ من التسمية الرسميَّة التي كانوا يُعرَّفونَ بها، في الوثائق الحكوميّة، والتي كانت تَصِفُهم بأنّهم "الأسيَويُّون نِصف المتوحّشين".

ذلك الوضعُ المُغرِقُ في المهانة، كان الهنودُ أنفسُهم غافلينَ عنه، أَو غير عابئين به، في حين كان يحزّ في قرارة نفس غاندي، ويُوجِعُه في الصَّميم. فهم ما كانوا يطالعون، في الصُّحف، سوى ماله علاقةٌ بأسعار البورصة، في حين أنَّ ما شدَّ انتباهه، خَبَرٌ تائهٌ في زاويةٍ مُهمَلةٍ، رأَى فيه مسمارًا يُدَقّ في نعش مصيرِهم، على حدّ تعبيره، وكان نُقطة تحوّلٍ في مسيرته بأكملها.

لقد أَنذر غاندي مُواطنيه بالخطر الداهم الكامن في مشروع القانون ذاك، وأَهاب بهم إلى التصدّي له بحَزم. ولكنَّهم أجمعوا على إِعلان جهلهم المُطبِق لكلِّ ما له بالقوانين صلِةٌ، وعجزهم عن اتّخاذ أيِّ تدبيرٍ، في مَعزِلٍ عن مُؤازرته وتوجيهه لهم، ومن ثمَّ، فقد توسَّلوا إليه أن يُرجِئ سفره الذي كان سيتمّ في الغد، ويمكث معهم شهرًا آخر لكي يقود نِضالهم. ولَفَت الشيخ دادا عبدالله أنظارَهم إلى وُجوب تأمين أَجرٍ لائقٍ لغاندي، إن هم كانوا راغبين، حقًّا، في بقائه بين ظَهرانيهم. غيرَ أنَّ غاندي رأى في ذلك التلميح تجريحًا، فهو، إن تريّث معهم، فبدافع الخدمة العامّة؛ ولكنَّه لم يُخفِ عنهم ما ستستلزمه المساعي التي سينشطُ لها من نَفَقاتٍ جمّةٍ، يتحتّم عليهم الاضطلاع بها. كما أكّد لهم أنَّ فردًا واحدًا عاجزٌ عن النهوض بمُهمّة على ذلك الجانب من الجسامة، فلا بدّ من تعاضُد جميع أفراد الجالية الهنديّة، الذين بادر إلى إحاطتهم بالأمر علمًا، وناشدهم الإِسهام في حركة النِّضال الوطنيّ، وكانت استجابتهم لدعوته شاملةً حارّةً.

وهكذا، ومن حيثُ لم يتوقّع أحدٌ، تحوَّلت حفلةُ وداعٍ إلى لجنة عملٍ. وهكذا، على حدّ قول غاندي "**أرسى الله أسس الحياة التي كان عليّ أن أقضيها، في أفريقيا الجنوبيّة، وغَرَس البذرة التي كان سينبثق منها الكفاح في سبيل الكرامةِ الوطنيّة**".

يقظة الوعي القوميّ الهندي

دُعيَت الجاليةُ الهنديّةُ، في الناتال، إلى الاجتماع، بقيادة غاندي، بهَدَف التَصدّي لمشروع القانون الذي يَحرِم الهنودَ هناك من حقّ التصويت. وقد استُدعيَ للتطوُّع عددٌ كبيرٌ من الهنود، ولا سيَّمَا من أَبناء الهنود المولودين في الناتال، والذين كانوا قد اعتنقوا الدّيانة المسيحيّة. وكانوا يتمتّعون، أكثر من سواهم، بقِسطٍ وافرٍ من العِلم والثقافة. كما تطوّع عددٌ كبيرٌ من التُّجّار المسلمين ومن موظّفيهم، وقد اعتَرَتِ الجميع دهشةٌ عَذبةٌ، حين أَلْفُوا أَنفسَهم مُنتَدَبين لِمُهمّةٍ ذات اهتمامٍ مشتَركٍ، ومُنخَرطين في تجربةٍ جماعيَّةٍ جديدةٍ، بعد أن نَسَفَ الخطرُ الذي كان يُهدّدهم جميعًا، كلَّ الحواجز التي كانت تُفرّقهم، وباتوا كلّهم أبناءً وخدّامًا لأمٍّ واحدةٍ، هي الهند.

كان مشروع القانون على وشك أن يُناقش في قراءةٍ ثانيةٍ، وكانَ أنصارُه يتذرَّعون بحجّة أنَّ الهنود أنفسَهم لم يعترضوا عليه، ممّا ينهَضُ دليلاً على عَدَم أَهليّتهم للتصويت. وكان لا بُدَّ من عَمَلٍ فوريٍّ حازمٍ. فأبرق غاندي، باسم الجالية الهنديّة، إلى رئيس المجلس التشريعيّ، وإلى رئيس الوزراء، وإلى بعض النُوّابِ الموالين للهنود، راجيًا إِرجاءَ مناقشة المشروع، والعمل على الحؤول دون إِصداره. وسُرعان ما جاءَ ردّ رئيس المجلس يُعلِن عن موافقته على التأجيل مُدَّةَ يومَين، رَيثَمَا يتلقّى المجلسُ طَلبًا رسميًّا بهذا الشأن. فبادر غاندي إلى تسطير احتجاجٍ مُعَلَّلٍ على مشروع القانون المقترَح، وسلخ المتطوِّعون ليلةً كاملةً في نسْخِه، ثمّ انطلقوا في سباقٍ محمومٍ مع الزمن، لمهره بأكبر قَدرٍ من التواقيع. وكان لهم ما أرادوا، في غضون بُرهةٍ خاطفةٍ. وقد زُوّدت الصحف بنسخةٍ من تلك العريضة، ونشرتها مرفَقَةً بتعليقاتٍ مؤيِّدةٍ.

غيرَ أنَّ غاندي ورفاقه، مع كلِّ ذلك، لم يتوهّموا، لحظةً واحدةً، أَنَّهم سيدرؤون، بيُسرٍ، موجةً عُنصريّةً متأصّلةً، شرسَةً. وفي واقع الأمر، أقرّ المجلس التشريعيّ القانونَ المقترح؛ غير أَنَّ الجالية الهنديّة في الناتال كانت قد حقّقت نصرًا أكيدًا على تفرُّقها وتقاعسها، واستسلامها للجَور، واستعادت وعيها لحقوقها. كما أنَّ زعامة غاندي قد أخذت تبرُز وتترسَّخ.

ولم يتوقَّف النضال، إذ قرّر غاندي رفع مذكّرة احتجاجٍ مدويّةٍ إلى وزير المستعمَرات، فالهنودُ، إلى حدٍّ ما، رعايا بريطانيّون، وعَكَف على جمع ما استطاع من وثائقَ وحجَجٍ قانونيّةٍ، تدعم قضيّة الهنود وحقوقهم، ثم دبَّج مذكّرةً مستفيضةً بهذا الشأن، وأَفلح المتطوّعون في تذييلها بعشرة آلاف توقيعٍ، في غضون أسبوعَين فقط، رغم تبعثُر هنود الناتال، في قرًى ومدنٍ تفصلها مسافاتٌ شاسعةٌ، ورغم إصرار غاندي على إلاّ يوقّع على تلك المذكّرة إلاّ من كان مُدركًا لفحواها، وأَبعادِها السياسيّة والاجتماعيّة. وقد تحقّق كلُّ ذلك، في جوٍّ مشبعٍ بالاندفاع والمجّانيّة، إذ أهمل، في سبيله، كثيرٌ من التُّجّار أعمالهم، وبعضُهُم حوّلوا مخازنهم مقرًّا للحركة، ومطعَمًا للعاملين في مضمارها، ولم يُطالب أيٌّ من المُتطوّعين بشيءٍ ممّا أنفقه في سبيل تلك المُهمّة.

وقد أَسهمت تلك الحركة في نشر الوَعي لدى أفراد الجالية الهنديّة، الذين تَيقّظوا لحقيقة الحَيف اللاحقِ بهم؛ ومن جهةٍ أُخرى، كان لِطَبع أَلف نسخةٍ من تلك المذكّرة، وتعميمها على الصحافة ووسائل الإعلام، أَثرٌ بليغٌ في إطلاع الرأي العامّ على ما يتعرّض له هنود الناتال من جَورٍ، ولا سيَّمَا بعد أن تبنّت بعضُ كُبريات صُحف لندن مطالبهم.

وهكذا أَلفى غاندي نفسه مُقحَمًا في معركةٍ هو قائدها ومُحَرِّكُها، بحيثُ لم يعُد يقوى على الانسحاب منها؛ كما أَنَّ مُواطنيه اكتشفوا فيه المُنقذَ الذي لم يعُد بوِسعهم الاستغناء عنه، فراحوا يُلحفون عليه بالتوسُّل للبقاء بين ظَهرانيهم، ولم يكُن لديه مَفرٌّ من النزول عند رغبتهم، إلاّ أنَّه شرَط إلاّ يكون عالةً على الحركة أو على أيّ فردٍ منهُم؛ وإذ كان لا يزال، بتأثير تربيته البريطانيّة، شديدَ التمسُّك بالمظاهر التي كان لا يني يُقيم لها شأنًا كبيرًا، ويرى فيها عاملاً أساسيَّ الأهمّية من عوامل التأثير في المجتمع، فقد أبى إلاّ أن يَتَمَتَّع بسكَنٍ مُستقِلٍّ لائقٍ، وبمُستوى من العيش رفيعٍ. ومن ثَمّ كان لا بُدّ له من دخلٍ مضمونٍ يكفَلُ له كلَّ ذلك. وكان حريصًا على الظَفَر بذلك الدَّخل بمثابة أَجرٍ على عمله في المحاماة، وبالتالي فقد طالب التجّار الهنودَ أن يوكلوا إليه قضاياهم القانونيّة، وإن هو لم يُخفِ على نفسه وعليهم ما يقتضي منهم ذلك من تضحيةٍ ومخاطرةٍ، إذ إنَّهم، ولا رَيبَ، كانوا يُؤثرون محامين بيضًا أرسخَ قدَمًا في ميدان المحاماة، وذوي تأثيرٍ أَبلغ،

وأكثر ضمانًا، لدى محاكمِ الناتال. ومع ذلك، بادرَ نحوُ عشرين من التُّجّار إلى توكيله، ودفعوا له، في الحال، سُلَفًا تعادل الدخل الذي كان يعتبره ضروريًّا. أمّا مُخَدِّمُه السابق، دادا عبدالله، فقد قدَّم له أَثاثًا لمنزله، بمثابة تعويض خدمته لديه.

وهكذا استقرَّ غاندي في الناتال، وكان ذلك في عام ١٨٩٤.

المحامي الملوّن

لم يكن من اليسير على غاندي الانخراطُ في سِلكٍ قضائيٍّ يُسيطر عليه، بل يحتكره، محامون بريطانيّون يُؤلِّفون "رابطة الحقوقيّين في الناتال"، أقاموا، في وجهه شتّى العراقيل الاعتباطيّة. غير أنَّه، بعناده، ومثابرته، استطاع أن يظفر، من المحكمة العليا، بالموافقة على المرافعة، لدى محاكم الناتال، إلاّ أنّه اضطرّ، في سبيل ذلك، إلى القبول بتنازلٍ طفيفٍ، ما لبث أن غدا موضعَ جدالٍ، حين امتثل لطلب رئيس المحكمة العليا، الذي أَجبره على خَلع عمامته، داخل المحاكم، بحجَّة أنّ اعتمار العمامة يتناقض والتقاليد السارية. وفي حين رأى أصدقاء غاندي الهنود، في ذلك الامتثال، ضربًا من الجبن والاستسلام، كان هو قد عَقَدَ العَزمَ على إلاّ يَهدُر طاقاته وفُرصهُ في معركةٍ تافهةٍ، وأَن يوفّرها لأهدافٍ أكبر وأَجلّ شأنًا، ولو اتّهمه أصحابُه بالتّخاذُل. فقد كان يُؤمن بوجوب التكيُّف مع تقاليد البيئة، طالما هي لا تنتَهك مبادئ الحقيقة والأخلاق، وكان يُقرّ الحكمة القائلة: "في روما تصرّف كالرومانيّين".

ويعلِّق غاندي، في مذكِّراته، على تلك الحادثة فيقول: "**سحابة حياتي، علّمني عنادي في وفائي للحقيقة، كيفَ أَسبرُ مدى جمال التَّسويات الوِديّة. وقد بيَّنت لي الأَيَّام، فيمَا بعد، أَنّ القبول بالتَّسويات يُمثّل جزءًا جوهريًّا من "الساتياغراها"؛ وإِنّ ممارستي لها قد طالما هدّدت حياتي، وعرَّضتني لاستياء أصدقائي. غيرَ أَنَّ للحقيقة قسوةَ الأَلماس، ورقّة الزهرة المتفتّحة**".

وعلى أيّ حالٍ، لقد أَسهمت رابطةُ الحقوقيّين في الناتال، بمقاومتها الحمقاء والفاشلة لغاندي، ومن حيثُ لم تقصد، في ترسيخ شهرته، وبذا مهَّدت له سُبُل النجاح.

بيد أنَّ المحاماة ما احتلّت، يومًا، سوى حيّزٍ ثانويٍّ من حياة غاندي، ومن اهتمامه.

خطوات الزعيم الأولى

كان شُغل غاندي الشَّاغل هو لَمُّ شمل هنود الناتال، وتوعيتهم، ورَفع الحَيف الناشب بهم. وكانت ذريعتُه إلى ذلك تأسيس حركةٍ تضمُّهم وتمثّلهم. وقد دفعه حِرصُه على أن يكون لتلك الحركة وَقعٌ مُدوٍّ، بحيثُ يشعرُ المستَعمِرون بوجودها، ويَحسَبوا لها حسابًا، إلى إطلاق اسم "مؤتمر الناتال الهنديّ" عليها، لعِلمه بمَا يستفزّه اسمُ "المؤتمر" من تشنُّجٍ لدى المُستَعمِرين الذين يُعيد إلى ذاكرتهم نضالَ حزب "المؤتمر" في الهند، من أَجل انتزاع استقلال الوطَن اَلآمّ. كما إِنَّه حَرِصَ على أَن يُسهم كلُّ منضوٍ إلى الحركة بشيءٍ من وقته وماله، ففرض رسم عضويَّةٍ، بحدٍّ أدنى للكادحين، على أن يكتتب الموسرون بمبالغ قيّمة؛ وقد اكتتب غاندي نفسُه بمبلغ جنيه شهريًّا، وكان ذلك يُمثّل نسبةً مرتفعةً من دخله.

وقد أَلِف غاندي إلاّ يباشر أَيّ عملٍ يستلزم نفقاتٍ، قبل أن تتوفّر جميع المبالغ اللازمة له، لعلمه بتقلّب أَمزجة الأعضاء بين الحماس العارم والتردُّد، ولذا اقتضى دفع الاشتراكات مُسبقًا، وعن عامٍ كاملٍ، كي يَضمَنَ لَعمله الجدوى والاستمرار. ولكنَّه كان حريصًا، أبدًا، على تنظيم إِيصالٍ بكلِّ دفعةٍ، وعلى ضبط المحاسبة ضبطًا واضحًا ودقيقًا دقَّةً مُطلَقَةً، ليقينه بأنَّ المحاسبة اللائقة شرطٌ لا معدى عنه لكي تحتفظ الحقيقة بنقائها الأصيل.

وإلى جانب "المؤتمر"، أَسّس غاندي ناديًا للمُثَقَّفين الهنود في الناتال، لتمكينهم من التَّعبير عن آرائهم ومظالمهم، وزوّد النَّادي بمكتبةٍ.

وفضلاً عن ذلك دَأَبَ على التعريف بأهداف "مؤتمر الناتال الهندي" وبدوافعه، لكي يُحيط بها علمًا جميع البريطانيّين في أفريقيا الجنوبيّة، وفي إنكلترا، وكذلك الهنود المقيمين في الوطن؛ فأصدرَ نشرتَين دعى إحداهما "نداء إلى جميع الإنكليز في أفريقيا"، ودعى الأُخرى "حقّ الهنود في التصويت – نداء إلى الرأي العامّ". وقد كلّفه إِصدارُهُما جُهدًا مُضنيًا، غير أنَّ مكافأته كانت بمستوى الجهد المبذول، إذ ترجّعت للنشرتَين أَصداءُ واسعةٌ.

صديق المنبوذين

"لا بُدّ لأيّ رغبة قلبٍ، إن هي كانت طاهرةً في توقها، من أن تتحقّق. لقد طالما أكّدت لي خِبرتي الذاتيَّة هذه الحقيقة. إنَّ ما كان يصبو إليه قلبي هو خِدمة الفُقراء، وبالتالي، فقد وجدتُ نفسي، أبدًا، ممتزجًا بالفقراء، بحيثُ بِتُّ قادرًا على التمثُّل بهم".

بهذه العبارات، مهّد غاندي لروايته عن حادثةٍ كان لها، على حياته وشخصيّته، أَثَرٌ حاسمٌ.

فقد كانت، في الناتال، طائفةٌ عريضةٌ من الهنود الذين عجزوا عن الانضمام إلى حركة المؤتمر، من جرَّاء جهلهم، وفقرهم، وظروف العيش المُضنية التي كانوا يرزحون تحت وِقرها؛ وجُلّهم من القادمين إلى الناتال للعمل بموجب عقودٍ تُحيلُهم، في الواقع، عبيدًا لدى الأوروبيين.

وقد طالما تَطلّع غاندي إلى مَدِّ يَدِ العَون إلى هؤلاء، وإلى تحطيم الحواجز الحائلة دون انضمامهم إلى حركة المؤتمر، وكان واثقًا من أنَّ تسخير المؤتمر لخدمتهم هو الوسيلة المُثلى لجرّهم إلى صفوفه. وفيمَا كان ينشُد السبيل إلى ذلك الهدف، وافته تلقائيًّا، السانحةُ التي حقّقت تلك الرغبةَ الغافيةَ في صدره، عندما مَثُل، أمامه، فجأةً، في مكتبه في "المؤتمر"، عاملٌ يدعى "بالاسوندرام"، متذلّلاً، مرتعدًا، مُنتحبًا، يحمل قبَّعته في يدَيه المرتجفتَين، وقد تهشَّم له سنّان، وامتلأ بالدم فمُه، بعد أن كان سيّده الأوروبيّ، الذي يحتلّ، في دوربان، مركزًا اجتماعيًّا مرموقًا، قد أوسعه ضربًا ضاريًا.

وقد هزّ ذلك المنظر أَحشاءَ غاندي، الذي بادر فأوعز إلى زائره باعتمار قبَّعته، كي يُعيد إليه بعضَ كرامته المجروحة، إذ كان الأوروبيُّون، ثمّة، يفرِضون على الهنود المثولَ أَمامهم، حاسري الرأس، تأكيدًا لتفوّقهم وسيادتهم. وقد شاعت بسمة اطمئنان على شفتَي العامل الداميَتين، عندما عاد فاعتمر قبّعته، وشعر أنَّه إزاءَ من يعامله معاملةَ الأخ والندّ. ثمّ مضى به غاندي إلى طبيبٍ وصَفَ حالتَه الراهنة الناتجة عمّا تعرّضَ له من اعتداء، ورافقه إلى قاضٍ سجّل اعترافه مشفوعًا بالشهادة الطبيّة، ممّا وفّر عناصرَ كافية لإدانة ربّ العمل المعتدي.

لم يكُن في نيّة غاندي الاقتصاصُ من ربّ العمل المُسيء، بل كان همُّه إنقاذ العامل الهنديّ من براثن جَوره فحسبُ. فشَخَصَ إليه، وبيّن له خطورةَ الشكوى المسجَّلة بحقّه،

ووعده بالتنازل عنها، إن هو تنازل عن عقده مع "بالاسوندرام" لربّ عملٍ آخر؛ وإذ كان لا بُدَّ أن يكون ربُّ العمل البديل أوروبيًّا، هو أيضًا، وِفقًا لمقتضى القانون، عثر غاندي، في أعقاب بَحثٍ مضنٍ، على بديلٍ أوفر رحمةً من ربّ العمل السابق.

وقد خلَّفت تلك الحادثة، ومساعي غاندي، أَصداءً بعيدةً بين صفوف العمّال الهنود، الذين انتعش في قلبهم الأَمل، بعد إذ نمَا إليهم أنَّ محاميًا هنديًّا قد تبنّى قضاياهم، وانتدبَ نفسَه للذَّود عنهم. وتفشّى النبأ في كلّ أَرجاء أفريقيا الجنوبيّة، وبلغ حتّى أقاصي الهند، حيث كان العمّال يتحرَّون أنباء إخوانهم المغتَربين.

ومُذَّاك، بات مكتب غاندي ملتقى العمّال المظلومين، يغشونه زرافاتٍ، ويودعون آلامهم وشكاواهم بين يدَي صاحبه، الذي كان يُوجعُه الاطّلاع، كلّ يَومٍ، على أنماطٍ جديدةٍ من صُنوف معاناة مواطنيه. وقد علّق على تلك التجربة بقوله: "**لم أستطع، يومًا، أن أفقَهَ، كيف يقوى أناسٌ على الشُّعور بالاعتزاز لرؤيةِ أخٍ لهم في الإِنسانيّة، يُعاني المهانة تحت أَبصارهم**".

سياسةٌ وقِيَمٌ روحيَّة

لقد ارتبط نضالُ هنود أَفريقيا ارتباطًا وثيقًا بغاندي، وأَضحى قائمًا عليه، لا يستقيم في مَعزلٍ عنه. وبذلك نهض غاندي دليلاً حيًّا على أَنَّه بوسع إِنسانٍ مُؤمنٍ واحدٍ أن يُصبح، أَحيانًا، الرمزَ الأسمى الذي، حَولَه، يتبلور نضالُ شعبٍ بأكمله، ومصيرُه وتطلُّعاته. ولقد انتهج غاندي، في نضاله، أسلوبًا فريدًا، مرتكِزًا على أسُسٍ أَخلاقيّةٍ صافيةٍ، نزيهةٍ من كُلِّ شائبةٍ، لا يحيد عنها بأيّ دافعٍ، وتحت أَيّ ضَغطٍ، ولا يُهادن في كفاحه، طالما كان يُمثّل ذَودًا عن كرامةٍ منتَهَكةٍ، وانتصارًا لحقٍّ مُستباحٍ، ولو تمادى النِّضال، وبدا جناهُ بعيدَ المنال. فكفاح غاندي، على سبيل المثال، من أَجل تحرير العُمّال الهنود، وأفراد أسَرهم من ضريبة الجنيهات الثلاثة المفروضة على الرَّاغبين في المُكوث، بعد انقضاء فترة تعاقُدهم، قد امتدّ زُهاءَ عقدَين من الزَّمن، استَنبَطَ خلالَهما الاستعمارُ كلَّ وُجوه المكر والخديعة، لإحباط مساعي غاندي، الذي، مع ذلك، ما وَهَنَت له همّة، ولا انثَلَمت له عزيمةٌ، ليقينه بأنَّ في التمرُّد على الجور، وفي رفض الاستكانة للذُلّ، من دواعي الاعتزاز، مثل ما في النَّصر، وجَني ثمار الجهاد.

وقد أَخذَت تتجلّى، في تلك الحقبة، ملامحُ غاندي الزعيم، وشرع يبرُز أسلوبه السياسيّ الفريد. فقد كان إيمانُه المطلَق بسُموٍّ قضيّته، واندفاعه في الذَّود عنها، قد حرّراه من العيّ والتَّلعثُم اللَّذَين قد طالما أَعاقاه، فغدا خطيبًا جريئًا، مُقنِعًا، يروزُ كُلَّ لفظةٍ من ألفاظه، في حرصٍ شديدٍ على الدِقّةِ والوُضوح والإيجاز، ويتحاشى تمييع آرائِه في تعابيرَ رنّانة فارغةٍ. وقد استخدم معارفَه الحُقوقيّة في سَبر دقائق القوانين، واستشفاف مراميها المقنَّعَة، وما قد تنطوي عليه من عواقبَ بعيدةِ الأجَل، بحيث كان يستمدّ من الحاضر كلَّ جدوى مُمكنةٍ، فيمَا هو يُعدّ للمستقبل المرجوّ، بجرأةٍ لا تنال منها المعاكساتُ الطارئة. فقد كان يُدرك، على سبيل المثال، أَنَّ مشاعر العداوة التي يُضمرها المستعمرون للملوّنين لا قِبَل للقوانين بالقضاء عليها، وأنَّ تربيةً واعيةً ودأبًا صَبورًا، وحدَهما، كفيلان بإزالتها. غير أنّه قد رفض أن تلقى تلك المشاعر، في قوانين جائرةٍ، تبريرًا لها وترسيخًا، فناهض، في حزمٍ، كلَّ تشريعٍ ينهج ذلك النهج، وكان يستهدف، في آنٍ واحدٍ، نسفَ خُنوعِ الهنود واستكانتِهم للذُّلّ، ومنع المستعمرين البيض من سنّ قوانين تَصِمُهم باللاإنسانيّة، وتنتهك قِيَمَهم الحضاريّة العريقة.

وكان غاندي، على دماثة خُلُقٍ تيسّر له إقامةَ علاقاتٍ ودّيّةٍ مع الكبار والصغار على السَّواء؛ كما أنَّه سُرعان ما تمرَّس بحنكةٍ في تحريك البشر، وفي استنباط أثمن ما تنطوي عليه نفوسُهم من حُبٍّ للخير، واندفاعٍ نحو المُثُل العليا. كما أنَّ ما اتَّسم به من نزاهةٍ واستقامةٍ خالصتَين، قد فرضا على الجميع احترامَه منذُ الوهلة الأولى، بحيثُ لم يجد حتّى خصومُه وأَصحابُ الصُّحُف المحلّية بُدًّا من الاعتراف له بهما، ومن امتداح اعتداله وتضحياته المجّانيّة السَّمحاء.

وفي تلك الفترة، أخَذَ نِضال غاندي يتَّجِهُ في المنحى الروحيّ السامي الذي يُميّزه على نحوٍ فريدٍ، ويتوطّد على الأسس الرفيعة التي جعلت من عمَله السياسيّ نَمَطًا فذًّا، منقطعَ النظير. ويوضح غاندي نفسُه تلك الأسس بقوله:

"إن كانت خدمةُ الجماعة قد استأثرت باهتمامي، فإنَّمَا دافعي الكمين إلى ذلك كان رغبتي في تحقيق كياني. فالخدمةُ دِينٌ وإيمانٌ اعتنقتُهما، لثقتي بأنَّ ممارسة الخدمة هي الكفيلة بالوصول إلى الله".

ذلك الصبوُّ إلى بلوغ الله عن طريق الخدمة قد دفَعه، من جهةٍ أُخرى، إلى التمعُّن في استيعاب الدّيانات، بقَدر ما كان يتّسع لَهُ من الوقت فسحةٌ. وقد جعلته تلك الدراسة أشدَّ تعلّقًا بالهندوسيّة، وأكثرَ إكبارًا للبوذيّة، وأوفر محبّة وتقديرًا للدّيانات الأُخرى، ولا سيَّمَا أَنّه قد طالع بكثيرٍ من الاهتمام كُتُبًا تتعلّق بالإسلام، وعقد صداقاتٍ مع مسيحيّين كشفوا له، مثلَ كتابٍ مفتوحٍ، جميع خفايا حياتهم وأفكارهم. ولقد كان هو وأصدقاؤه أولئك قانعين بالخلافات الكبيرة القائمة بين دياناتهم، ولكن، على حدّ تعبيره: "**حتّى الخلافات تُصبح مُجْدِيةً بين أقوامٍ مُتسامحين، مُحبّين، مُخلصين**".

وهكذا، في حين كانت خدمة الهند والهنود تمتلك على غاندي وقتَه وعقلَه وقلبه، كان استقراؤه لأمور الدّين يرقى به إلى قِمّة الحبّ الإنسانيّ الرَّحب الذي عبّر عنه بقول: "**شيئًا فشيئًا كانت تتجلّى لي إِمكانيّاتُ الحبّ الكونيّ الشّامل**".

عودةٌ خاطفةٌ إلى الهند

عام ١٨٩٦، بعد أن كان غاندي قد سلَخَ ثلاث سنواتٍ في أَفريقيا الجنوبيّة، اتّضح له أنَّ إقامته، ثمَّة، لم تكن قد دنت من نهايتها، إذ غدا وجوده فيها لا غنى عنه للكثيرين من مواطنيه الذين وجدوا فيه ملجأهم الوحيد، والذائد عن حياضهم.

وحتى آنذاك، كان غاندي ما برح مُؤمنًا بوجوب الحفاظ على المظهر اللائق، ومستوى عيشٍ رفيعٍ خليقٍ بمحامٍ مرموقٍ، ومُمثّلٍ لحركةٍ سياسيّةٍ، وكان يجهد كي يتدبّر، في هذا المجال، أمرَه، بمساعدة أصدقائه ومعاونيه. إلاّ أنّه أدرك أنّ استقراره يقتضي وجودَ زوجته وأبنائه معه، فالتمس فُسحةَ أشهرٍ ستّةٍ، يفيء، خلالها، إلى الهند، حيثُ يتسنّى له التعريف بنشاط مؤتمر الناتال الهندي، ويستمدّ له الدعم في الوطن الأمّ، ثمّ يرجع بصحبة أسرته.

وهكذا، غادر الناتال، في منتصف عام ١٨٩٦، في رحلةٍ بحريّةٍ امتدّت أربعةً وعشرين يومًا، قضاها في عقد الصداقات، وفي محاولة تعلّم لساني التامول والأوردو، رغبةً منه في التعبير عن تعاطفه مع الهنود الذين يتكلّمون تينك اللّهجتَين، أولئك الفقراء الذين من أَجلهم انتدب نفسه للكفاح، والذين، على جهلهم وفقرهم، قد عاضدوه في إِخلاصٍ كان له، في نفسه، أَبلغ أثرٍ، مدى الحياة.

وما إن وطئَت قدماه أَرضَ الهند، حتّى باشر اتّصاله بوسائل الإعلام، ناشرًا أنباءَ الهنود المهاجرين إلى الناتال، وما يلقونه، ثمّة، من صنُوف الحيف: كما عكف على وضع نشرةٍ، ضمّها وقائع دقيقةً وموضوعيّةً تصف أوضاع أولئك المهاجرين الراهنة؛ وقد طُبعت، من تلك النشرة، عشرةُ آلاف نسخةٍ، أُخرجت في غلافٍ أَخضر اللون، وسُرعان ما عُرِفت باسم "النشرة الخضراء"، وتناقلت الصُّحُف المحلّية والبريطانيّة، ووكالات الأنباء موجزًا من مضمونها. وإذ لم يكُن غاندي يمتلك الإمكانيّات الماديّة لتأمين توزيع آلاف النُّسَخ بالبريد، فقد عمد إلى تطويع الطلاّب الأَحداث، الذين وقفوا بضع ساعاتٍ، كلّ يومٍ، من وقتهم الذي لم يكن مشغولاً بالدروس، للنُّهوض بتلك المُهمّة التي أَنجزوها في سُرعةٍ غير متوقّعةٍ.

وقد تردّدت لتلك النشرة أصداءٌ بعيدة المدى، في إنكلترا، وفي الناتال نفسها، حيثُ كان على غاندي، في مَا بعد، أن يتحمَّل قسوة عواقبها.

وفي تلك الأَثناء انتشر، في بومباي، وباءُ الطَّاعون، الذي كان يُهدّد بالامتداد حتّى "راجكوت"، موطن أسرة غاندي الذي نَشَطَ للتَّعاون مع السُّلُطات المحليّة على اتّقائه ودرئه. وقد اهتبلَ تلك السانحة ليجوب أحياء المدينة، ويتفقّد أحوالها الصحِّيَّة، ويُعمِّم الدعوةَ إلى العناية بنظافة المراحيض، على نحوٍ خاصٍّ. وإزاء إحجام الجميع عن الشُّخوص إلى أَحياء المنبوذين التي يعدّها الهندوسيّين نجِسَةً، لم يتردّد غاندي في اختراق ذلك الحاجز الصفيق، وفي اقتناص فرصة الامتزاج، عن كثَبٍ، وللمرّة الأولى في حياته، بتلك الفئة المرذولة من العائلة الهنديّة؛ وقد تبيّن له أَنَّ أولئك الفقراء المسحوقين أكثر نظافةً، وأوفر دماثةَ خُلُقٍ، وإرهاف شعورٍ، وعذوبة معشرٍ، من أَغنياء المدينة وَوُجَهائها.

وفي غَمرة نشاطه السياسيّ والاجتماعيّ، كان كَلَفه بالخدمة، ولا سيَّمَا العناية بالمرضى يطغى على مشاعره، فيهجر، في سبيله، كلّ شيءٍ. وقد نمى إليه أنَّ زوج شقيقته كان يُعاني من مرضٍ سمَّره على الفراش، فجاء به من بومباي إلى راجكوت، وتخلّى له عن سريره، وأَشرف على العناية به ليلَ نهارٍ، وكثيرًا ما أنفق لياليَ بأكملها، ساهرًا عليه، غير عابئٍ بالمهامّ السياسيّة الخطيرة التي كانت تنتظره في الغد.

ويقول غاندي، في هذا السِّياق: "**هذا الميلُ الفطريّ، لديّ، إلى العناية بالمرضى،**

قد تحوّل، شيئًا فشيئًا، إلى هوًى عارمٍ، قد طالما جرّني إلى إهمال أعمالي، وفي بعض الأحيان، إلى تطويع زوجتي، بل كلّ أفراد أسرتي، لِمشاركتي في هذا المجال؛ إنّ هذا النَمَط من الخدمة يخلو من أيِّ معنى، إن هو لم يؤدَّ في فرحٍ. أمّا إذا باشره المرءُ بدافع التظاهر، أو خشيَة حُكم الرأي العام، فسيكون وبالاً عليه، ويُصيبه بالشلل الروحيّ. إنَّ الخدمة من غير فرحٍ لا تُجدي أحدًا، لا الذي يتلقّاها، ولا الذي يبذلها، ولكنَّ كلَّ فرحٍ آخر، وكلَّ ما قد يشغل الإنسان يبدو شاحبًا، بل يبدو عَدمًا، إزاء الخدمة التي تُؤَدّي في روحٍ من الفرح".

غير أنّ قضيّة هنود الناتال، وهنود أفريقيا الجنوبيّة عامَّةً، هي التي ظلَّت ديدَن غاندي الشاغل، وفي سبيلها جاب مُعظم مدن الهند، وتحادث مع معظم زعمائها السياسيّين، مبشّرًا بها، ملتمسًا لها التأييد. وقد صادَفَ أحرَّ ترحيبٍ، وأجزَل عَونٍ، من زُعماء نافذين، أمثال "فيروزيشاه مهتا" الملقّب "أَسد بومباي" ومَلِكها غير المتوّج، الذي نظّم من أَجله اجتماعًا حاشدًا في بومباي، وتبرّع، بنفسه، لتلاوة الخطاب الذي كان غاندي قد أَعدّه لتلك المناسبة، ممّا خلّف أبلغ أثَرٍ في صفوف الشباب، وأضفى على رسالة غاندي وزنًا فريدًا.

وفي حُميّا الحماس اندفع بضعة محامين، واعدين غاندي بالانضمام إلى نِضاله الأفريقيّ، غير أنّ اندفاعهم كان لَهَب قشٍّ، سُرعان ما خبا، وظلّ غاندي وحيدًا في الساحة الأفريقيّة.

ومن بومباي شَخص إلى "يونا" التي كانت تتنازع زعامتَها السياسيّة فئتان يرأس إحداهما "لوقامانيا تيلاك"، ويقود الأُخرى "كوبال كوخلي" الذي سرعان ما احتل حيّزًا أثيرًا في قلب غاندي، وغدا، لاحقًا، دافعًا حاسمًا لمسيرته السياسيّة. وإِذ كان غاندي حريصًا على إبقاء قضيّة هنود أفريقيا في منأًى عن الصِّراعات الحزبيّة، امتثل لنصيحة كُلٍّ من الزعيمَين المُتنافسَين، وأَوكل إلى الزعيم المحايد، الدكتور "باندار كار"، رعاية حملته التي أسهمت جميعُ الفئات في معاضدتها.

غيرَ أنَّ اللّقاء الأكثر حرارةً، والأَشدّ اندفاعًا، قد جرى في مدينة "مدراس" التي كان كثيرون من سُكّانها قد أحيطوا علمًا بتعاطف غاندي مع العامل "بالاسوندرام"،

ومع كلّ عاملٍ هنديٍّ مهيضِ الجناح، يتعرّض، في الناتال، للظُّلم. وقد تدافع أهالي المدينة إلى شراء "النَّشْرَة الخضراء"، بحيثُ نفدت النسخ المتوفّرة منها، بسُرعةٍ خاطفةٍ، واضطرّ غاندي إلى إِصدار طبعةٍ أُخرى منها، على عَجَلٍ. وقد اشتركت صحافة مدراس بسَهمٍ وافرٍ، في مساندة حملة غاندي، وأفردت له بعضُ الصُّحف أَعمدةً واسعةً، بادرَ إلى ملئها بدعوته من أَجل هنود أفريقيا.

كان غاندي ما فتئ نكِرةً في عالَم السّياسة الهنديّ، وكان يجهل مُعظَم اللَّهجات المحلِّيّة التي تستخدمها فئات الشعب المتباينة، فيُضطرُّ إلى مخاطبتهم بالإِنكليزيّة، ومعَ ذلك لاقى من بوادر التأييد والمحبّة ما أفعم صدرَه حُبورًا، ووطّد عزيمته على المُضيّ في رسالته. وقد فسّر ذلك التجاوبَ الرائعَ معه بقوله: "**أَيُّ حاجزٍ لا يقوى على تحطيمه الشُّعورُ النابعُ من القلب؟!**".

وقد ظفر غاندي، أيضًا، بتأييد بعض أصحاب الصحف البريطانيّين، الذين عقدوا معه صَداقاتٍ وطيدةً، بعد إذ تبيَّنوا صدِقَه ونزاهتَه، وتحرُّره من الضَّغينة والتعصُّب، واتّزانَه في تحليل وجهات نظر خُصومه. وقد استخلص من ذلك الواقع قوله: "**لقد علّمتني التجربة أَنّ الإنسان لا يلبث أن يظفر بحقوقه، إِن هو أعطى خصمَه حقّه**".

عودةٌ عاصفةٌ إِلى أَفريقيا

كان غاندي ما يزال يُعِدُّ لنُدوةٍ عامَّةٍ في كلكتّا، عندما استعجلته برقيَّةٌ من دوربان بالعودة، في الحال، إلى الناتال، وقد تبرّعت شركة دادا عبدالله بنقله مجّانًا، مع زوجته الحامل، وابنَيه، وابن شقيقته الأَرملة.

وقد أبحرت، في نفس الآن، بالإِضافة إلى الباخرة التي استقلّها غاندي، باخرةٌ أُخرى ميمّمةٌ، هي أيضًا، شطر أفريقيا الجنوبيّة. وكانت الباخرتان تُقِلاّن، معًا، نحوًا من ثماني مئة مسافرٍ، وقد انتهيتا إلى شواطئ دوربان، في الثامنَ عشر من كانون الأوّل ١٨٩٦، بعد أن اجتازتا، بسلامٍ، عواصفَ بحريّةً هوجاء.

إلاّ أنّ العاصفة الأَشدّ صَخَبًا وخطورةً، هي تلك التي كانت تتوعَّدهما في دوربان ذاتها، حيث كانت أَصداء حملة غاندي، في الهند، لصالح هنود أفريقيا، قد

وَصلَت مُجَسَّمةً ومشوَّهةً؛ ما أثار عليه حفيظة المتعصِّبين البيض، الذين راحوا يستفزّون عليه الجماهير، مُرَوّجين أنّه قد عاد بسفينتَين مملوءتين بالملوَّنين، سعيًا إلى ترسيخ وُجودهم غير المرغوب فيه، في الناتال، مع أَنَّه لم يكن لغاندي، في الواقع، أَيَّةُ صلةٍ بسائر المسافرين على السفينتَين، والذين كانوا، في أَغلبيّتهم الساحقة، متّجهين إلى الترانسفال، لا إلى الناتال.

وقد أَسهمت سُلطات الناتال، أوّلَ الأمر، بنصيبٍ مُحقّقٍ في مقاومة غاندي، إذ أَمرتْ بحَجْزِ السفينتَين القادمتَين من الهند، لمدّة خمسة أيّامٍ، متذرّعةً بخَشيتها من تَفَشي عدوى الطّاعون المنتشر في بومباي؛ وخلالَ تلك الأَيّامِ الخمسة، مُورست شتّى ضروب التَّهديد على شركة دادا عبدالله، مالكةِ إحدى الباخرتَين، ووكيلة الباخرة الأُخرى، كي تعود بهما وبركّابهما إلى الهند، بعد أن أغدقت لها الوعودُ بالتعويض عمّا قد يلحق بها من خسائر. ولكنّ أَصحاب الشركة والقيّمين عليها كانوا من قوّة الشكيمة بحيثُ لم يرهبهم وعيدٌ، ولا أَغرتهم وعودٌ.

وفي غضون ذلك كان المتطرِّفون من البيض يعقِدون كلَّ يومٍ اجتماعاتٍ صاخبةً يُطلقون فيها الشعارات العنصريّة، ويوغرون صدورَ المتعصّبين على غاندي ورفاقه؛ وبالمقابل كان وُجهاء الهنود ومحاموهم، وأَصدقاء غاندي يكثّفون مساعيهم، في عزيمةٍ لا تلين، لحمل السُّلُطات على السَّماح للسفينتَين بالإرساء، ولركّابهما بالنزول إلى اليابسة، إلى أن كان لهم، أَخيرًا، ما أَرادوا؛ غيرَ أَنَّ السُّلطات ارتأت أن يهبط غاندي، تحت جُنح الظَّلام، تفاديًا للشَّغب؛ لكنَّ غاندي أَبى أن يدخل إلى الناتال خِلسةً، دخولَ اللصّ، فمَضَت عربةٌ بزوجته وأولاده إلى منزل أحد أصدقائه، في حين حَرِص، هو، على اللِّحاق بهم، سيرًا على الأَقدام، برفقة مُستشار دادا عبدالله البريطانيّ. ولكنَّه ما كاد يخطو بضع خطوات على رصيف الميناء، حتّى طفقت شرذمةٌ من الشبَّان تصيح: "غاندي، هوذا غاندي!"، وسُرعان ما تجمهر حولَه بعض الأوغاد، وتكاثف عددهم، وبادروا إلى عزله عن رفيقه البريطانيّ، ثمَّ انهالوا عليه ضربًا بالحجارة، وبكلّ ما يقع تحت أيديهم من موادّ جامدةٍ وقَذِرةٍ، فأَوسعوه ركلاً، ولطمًا، وصَفعًا، حتّى أشفى على الإغماء، ولم يُنقِذه من الهلاك المحتَّم سوى مرور

زوجة مدير الشرطة، آنذاك، اتّفاقًا، في موقع المعركة، وكانت تعرفه، ففتحت مظلّتها، ووقفت حاجزًا بينه وبين المعتدين، حتّى أجبرتهم على التبدّد؛ واقتادت غاندي دوريّةٌ للشرطة، تحتَ حراستها، إلى منزل صديقه، حيث كانت أسرته قد سبقته. ولكن، ما لبث الأوغاد أن عادوا فأحاقوا بالمنزل، مع أَنَّ الليل كان قد هبط، وراحوا يجأرون مطالبين بالقبض على غاندي، وقارنين مطالبتهم بالتهديد والوعيد.

وخفَّ مدير الشرطة إلى المكان، إلاّ أنّه، حيالَ كثافة عدد الأوغاد ومدى هياجهم، آثر انتهاج الحِنكة والظَّرف، فراح يمازحهم، ويُنشِد معهم: "على أغصان شجرة التفّاح، سنشنق العجوز الوغد غاندي "، وفي غضون ذلك، كان قد أنفذ إلى غاندي رسالةً قال فيها: "**إن كنتَ حريصًا على سلامة منزل صديقك، وأَثاثه، وعلى سلامة أسرتك، فعليكَ الفرار من المنزل، متنكرًا في الزيّ الذي أقترحه**". وتنكّر غاندي في زيّ ضابط شرطةٍ، في حين اصطنع رجال الأمن أزياء مختلفة، واقتادوه، عبر مخزنٍ مجاورٍ للبيت، إلى عربةٍ مضت به إلى مركز الشرطة، حيث أقام، آمنًا، عدّة أيّامٍ.

وفي أعقاب ذلك الاعتداء "كان من شأن غاندي أَن يَمقُتَ كلّ وجهٍ أَبيض حتّى آخر أيّامه" على حدّ قول البروفسور إدوارد تومسون، من أكسفورد. غيرَ أنَّ غاندي قد نظر إلى القضيّة نظرةً دينيّة، ولم يُتحْ لها أن تُفقده السَّيطرة على ذاتِه.

وكانت أنباء ذلك الاعتداء قد نمت إلى العاصمة البريطانية، فأبرقَ وزير المستعمرات إلى حاكم دوربان، آمرًا بمقاضاة المعتدين ومعاقبتهم. غير أَنّ غاندي أبى أن يُعاقَب أيٌّ منهم، والتمس لجميعهم العُذر، فهم، على الأَرجح قد ضُلّلوا بأنباء كاذبةٍ صوّرت لهم غاندي بمظهر عدوٍّ للبيض يجهد في تشويه سمعتهم، في كلّ أرجاء الأمبراطوريّة.

إِزاءَ هذا الموقف السَّمح، وبعد أن أصدر غاندي بيانًا بهذا المعنى، وسلّم صحافة دوربان النصوص الكاملة لكلّ النشرات التي أَصدرها، والخطب التي أذاعها، في الهند، والتي لم تَرِد فيها لفظةٌ واحدةٌ تزيد عنفًا عمّا كان يكتبه وينشره في الناتال نفسها، تحوّل الرأيُ العامّ إلى جانبه، وأُدين، بحزم، الاعتداءُ عليه، الذي انقلب، في آخر المطاف، تيسيرًا لمهمّته، ودعمًا لقضيّة الهنود.

بيد أنّ هذا التحوّل، الذي رفع من شأن الجالية الهنديّة، وأبرز قُدرتَها على الدِّفاع عن شرفها وكرامتها، قد أبرز، في نفس الآن، مدى خطورتها، وأَسهم في تسعير نار ضغينة البيض عليها، فتوالت التشريعاتُ الراميةُ إلى مُضايقة الهنود، وإلى الحدّ من حرّية تحرّكهم، وإقامتهم في الناتال؛ ومن جهةٍ أُخرى، زادت تلك التشريعات نفسها يقظة وعي الهنود القوميّ، ودعّمت تضامنهم، ورصّت صفوفهم، فتقاطرت طلبات الانتماء إلى مؤتمر الناتال الهندي، وغَصّت خزينة الحركة بآلاف الجنيهات.

وارتأى غاندي استثمار تلك الأموال في ابتياع عقاراتٍ يؤمّن ريعها دَخلاً ثابتًا، يُمكّن المؤتمر من نشاطٍ مستقرٍّ. إلاّ أنّ الأيّام أثبتت له خَطلَ ذلك المنهج، ورسّخت إيمانه بأنّ على الحركات الجماعيّة أن تظلّ، أبدًا، قائمةً على تعاطف الجماهير، ومساندتها اليوميّة، وأنّها يوم تفقد ذلك التعاطُف، وتلك المساندة، تفقد مبرّر بقائها، أمّا الريع الثابت، فغالبًا ما يَعزِلُ القيّمين على الإدارة عن الجماهير، ويُوهمهم بقُدرة الاستغناء عنها، فضلاً عن فرص الفساد التي يوفّرها.

ربّ الأسرة

إلى جانب مسؤوليّاته السياسيّة والاجتماعيّة الجسيمة، كان على غاندي الاضطلاع بمسؤوليّات منزله، ولا سيَّمَا أَنّ زوجته لم تكن قد أصابت من الثقافة سوى نصيبٍ شحيحٍ، فتعيّن عليه حلُّ العديد من قضايا الأسرة العمليّة بنفسه. وهكذا، على سبيل المثال، قرّر أن يرتدي أفراد أسرته، في الناتال، زيًّا أقرب ما يكون إلى الزيّ الغربيّ، ولقّنهم، أيضًا، الأسلوب الغربيّ في آداب المائدة، غير أَنّ أمر تثقيفهم كان أكثر إثارةً للتساؤل والتمحيص، إذ إنّ أيّ خيارٍ يُقرّ عليه رأيه كان ينطوي على مثالبَ وحَسَناتٍ، معًا، فضلاً عن حرصه على أن تكون جميع قراراته الخاصّة بتربية أبنائه، وبإرساء أسس مستقبلهم منسجمةً مع مبادئه الأساسيّة، مهما كلّف الوفاءُ لها من تضحيات.

فهو كان يرفض المدارس الغربيّة التي تعتمد، في مناهجها، اللُّغة الإنكليزيّة، والتاريخ الإنكليزيّ، والثقافة الغربيّة، دون سواها، إذ كان من شأن ذلك سلخُ الأحداث عن جُذورهم، وحضارتهم وشعبِهم؛ وبالمقابل كان إعراضُهم عن مِثل ذلك التعليم

كفيلاً بحرمانهم من أَساسٍ ضروريٍّ لثقافةٍ عصريّةٍ. ومن جهةٍ أُخرى، كـــان يـــأبى إبقاء أبنائِه في الهند من أَجل تعليمهم في مدارسها، أو إِيداعهم مدارس داخليّةً، إذ لا شيء كان يبرّر، في نظره، عَزلَ الأبناء عن الآباء، لإِيمَانه بأنَّ التربية الطبيعيّة التي يكتسبها الأبناء بين أحضان والديهم، في أسرةٍ منظَّمةٍ، لا تضاهيها أيّة تربيةٍ أُخرى. وبالتالي، فقد اختار أن تلقّنهم مُعلّمةٌ مبادئ الثقافة الإِنكليزيّة، على أن يتــولّى، هــو نفسه، تربيتهم، ولو على نحوٍ غير منتظمٍ، ويرسّخ في صدورهم المُثُل الإنسانيّة التي كان قد وقف حياتَه على خدمتها.

وهكذا، فيمَا خلا ابنه البكر الذي آثر العودة إلى الهند لمتابعة دروسٍ نظاميّـــةٍ، والذي لم يلبَث أن قطع علاقته بوالدَيه، وتاه في دروب الضلال، نشأ أبنـــاء غانـــدي الآخرون على زادٍ من التعليم ضئيلٍ، ولكن على شَغَفٍ متّقدٍ بالخدمة، وبمبادئ الحقّ والعدالة، وعلى قسطٍ وافرٍ من رفيع الخِصال.

وقد رُزق غاندي، أَثناء إِقامته في أفريقيا الجنوبيّة، وَلَدَين آخرَين، وكـــان، فـــي تلك الفترة، قد شرع يُكوِّن فلسفتَه الخاصّة بالإنجاب والتربية، وبات يستنكر القولَ أنَّ العلاقةَ الجنسيّة وظيفةٌ ضروريّةٌ كالأكل والنوم، ويتوطّد لديه الإيمان بأنَّها فِعلٌ واعٍ إِراديٌّ، لا يسوغُ الإِقدامُ عليه إلاّ عندما يرغب الزّوجان في الإِنجاب.، الـــذي هـــو مساهمةٌ في عمليّة الخلق، وعندما يكونان على أَتمّ أهبةٍ لذلك، نفسيًّا وجـــسديًّا، إذ إنّ أوضاعهما النفسيّة والجسديّة تنعكس على الوليد. كما كان يُـــؤمن أنّ الطفـــل، فـــي سنواته الخمس الأولى، يتعلَّم الكثيرَ من والدَيه، ويترسّخ فيه مِثالُ سلوكهما.

استقلالٌ وبساطةٌ

في تلك الفترة، أيضًا، شرع غاندي يجنَحُ إلى تبسيط نَمَط عيشه، وإلى الاعتماد على نفسه في كلِّ ما يقوى عليه. ويصفُ غاندي بوادر ذلك الميل بقوله: "**كنـــتُ قـــد أبتدأتُ بحياةِ ترفٍ ورفاهيةٍ، غير أَنّ تلك التجربة كانت قصيرة الأَمد. وكنـــتُ قـــد بذلت كلَّ عنايةٍ في سبيل تأثيث منزلي، غيرَ أنَّ ذلك لم يستطع أن يُمَـــارس علـــى نفسي أيَّ سُلطانٍ**".

هذا التحوّل تمثّل، بادئ الأمر، في تبدُّل بعض وجوه سلوك غاندي اليوميّ؛ فهو، مثلاً، كان قد ألِف اللُّجوء إلى مصبغةٍ تتولّى غسل قمصانه، وياقاته، وكيّها، وتتشيتها، غير أنّها لا تلتزم بأيّ موعدٍ لتسليمها، فضلاً عن استيفائها أجورًا باهظةً، فكان عليه، بالتالي، أن يمتلك منها عددًا كبيرًا، وأن يُنفق عليها، من ميزانيّته قسطًا وفيرًا؛ وتفاديًا لذلك، ابتاع كتابًا يُبسّط أساليب الغسل والكيّ والتنشية، وعَكف على النُّهوض بتلك المُهمّات بنفسه. وقد كانت تجربته الأولى من السُّوء بحيثُ باتت موضع تهكُّم زملائه المحامين. إلاّ أنّه، على حدّ قوله، كان قد بات منيعًا كتيمًا في مواجهة السُّخرية فلا تنفذ سهامها إلى نفسه. وقد واصل تجاربه، في هذا الميدان، إلى أن أصبح، فيه، حاذِقًا، بل قادرًا على نَجدة أَصدقائه، إذا ما دعت، إلى ذلك، حالاتٌ طارئةٌ.

وكذلك كان من أمر حلاقة ذقنه، وقصّ شعره، اللّذين طفق يُمَارسهما بنفسه، غير عابئٍ بتهكُّم زملائه، بعد أن رفض حلاّقٌ أبيض تولّي ذلك؛ والجديرُ بالذِّكر أنَّ غاندي لم يُضمر لذلك الحلاّق أيّ حقدٍ، ولم يأخذه بلَومٍ، مُدركًا أنّ دافعه إنّما كان خشيَته من فقدان زبائنه البيض، ولم يَغرُب عن باله أنَّ الهنود يفعلون ما هو أسوأ من ذلك، عندما يرفضون أيّة علاقةٍ بالمنبوذين، وهم من أبناء جلدتهم.

وقد أكبَّ غاندي، أيضًا، على الإلمام بمبادئ تربية الأطفال، والتمريض، والتوليد، وهكذا تمكّن من مؤازرة زوجته في ولادة طفلهما الأَخير، بعد أن تلكّأ الطبيبُ في الحضور.

كلُّ تلك الخِبرات الجديدة كانت تؤهِّله لأَداء المزيد من الخدمات، أداءً أمثلَ، فالخدمة كانت نارًا متأجّجةً في حناياه، لا يخمُد لها ضرامٌ، وتتلمّس، أَبدًا، فرُص البذل والعطاء.

وقد طرق، يومًا، بابَه، أَبرص، فلم يقوَ غاندي على الاكتفاء بإطعامه وردّه، بل استضافه في منزله بضعةَ أيّامٍ، وعَكفَ على علاجه، وتضميد جراحه، غير أَنّه لم يستطع استبقاءه، بشكلٍ دائمٍ، فأَودعه، بعد فترةٍ، أَحد المشافي، وقد خلّف ذلك، في نفسه انزعاجًا، إذ كان راغبًا في مزيدٍ من الخدمة يسديها له، فأقنع ثريًّا هنديًّا بإنشاء مشفًى صغيرٍ مجّانيٍّ، تولّى طبيبٌ بريطانيٌّ إدارته مجّانًا، أيضًا، وتبرّع غاندي بثلاث ساعاتٍ كلّ يومٍ، من وقته، كي يعمل فيه ممرّضًا، فكان هو الترجمان بين

المرضى والطبيب، وكان هو الذي يُعدّ الأَدوية الموصوفة، وكانت تلك، له، فرصةً ثمينةً ليطَّلع على ما يعاني أبناء جلدته من أوصابٍ وأَوجاعٍ.

الولاء لبريطانيا

حتّى عام ١٩٠٠، كان ما انفكّ يُداخل غاندي الشُّعور بأنَّه مُواطنٌ خاضعٌ للحكم البريطانيّ، ومن ثمَّ، مُلزمٌ بالولاء له، وقد عبَّر عن ذلك الشُّعور بقوله: "**لا أظنّني أعرف أحدًا قد أضمر مثلَ ما أضمرتُه، أنا، من ولاءٍ للدستور البريطانيِّ. إنَّني أدرك، اليوم، أنَّ جذور ذلك الشعور كانت تستمدّ غذاءَها من حبّي للحقيقة، إذ لم أستطع، يومًا، اصطناع الشُّعور بالولاء، أو بأيّة فضيلةٍ أُخرى... وما، قطُّ، استغلَلتُ هذا الولاء، ولا استخدمتُه لأغراضٍ أنانيّةٍ، فهو كان يُمثّل لي واجبًا، وكنتُ أعبِّر عنه غيرَ متوقّعٍ أيّة مكافأة**".

وقد تسنّت له سانحة التعبير عن ولائه ذاك، عندما نشبت الحرب بين البريطانيّين والبويرز، في أواخر عام ١٨٨٩. لقد كانت مشاعرُ غاندي تشدُّه نحو البويرز، وقناعاته الدينيّة تدين كلّ أنواع الحروب، وكان مواطنوه يؤثرون الحيادَ بين الطرفَين، وكان بوسع غاندي ترسيخ شعبيّته، لو هو التزم موقفًا محايدًا. ولكن، لم يكُن من خصاله لا الوُصوليّة، ولا التهرُّب من المسؤوليّة، وقد ترسّخ لديه اليقين بأنّه طالما كان، أيّامَ السلم، يُطالب البريطانيّين بواجبهم في حماية حقوق الهنود، فإنّ واجبه، إبّان تلك الحرب، كان يتمثّل في مساندة البريطانيّين. وإذ كان امتشاقُ السلاح بغيضًا لديه، فقد سعى إلى تشكيل فرقة إسعافٍ قِوامُها ألفٌ ومئة رجلٍ، ومُهمّتها العناية بجرحى المعارك، وقد أعربت الحكومة البريطانيّة، أوّل الأمر، عن عدم احتياجها إلى خدمات المتطوّعين الهنود، غير أنّ ذلك الرفض لم يُثبط عزيمة غاندي، ولم يحمله على التقاعس؛ بل إنّه التجأ إلى شخصيّاتٍ بريطانيّةٍ بارزةٍ كانت تؤيّد مسعاه، وإلى أسقف الناتال، إذ إنّ فرقته كانت تضمّ العديد من الهنود المسيحيّين، وكان لوساطة أولئك جميعًا، ولما أبداه البويرز، خلال المعارك الأولى، من بسالةٍ غير متوقّعةٍ، يدٌ في حمل الحكومة البريطانيّة على تعديل موقفها، وعلى الترحيب بفرقة الإسعاف الهنديّة، بقيادة غاندي.

وقد كان لتلك الفرقة أَثرٌ بليغٌ في تحسين صورة الهنود في أفريقيا الجنوبيّة، الذين كانوا، حتّى آنذاك يُتَّهَمون بالجُبن والنفعيّة، وقصَر النظر، والفُرقة الطائفيّة المستَحكِمة بينهم. غيرَ أنّهم أَفلحوا في إسقاط تلك التُّهم، بمَا برهنوا عنه من إقدامٍ ومخاطرةٍ. فمع أنّ مهامّهم كانت تُبقيهم، مبدئيًّا، خارج خطّ النار، إلاّ أنّهم غالبًا ما تخطّوه، من أَجل إنقاذ جرحى ونقلهم؛ وكثيرًا ما كانوا يجتازون أربعين كيلومترًا، في اليوم، في هذا السبيل. ومع أَنّ أفراد الفرقة كانوا ينتمون إلى طوائف شتّى، إلاّ أنّ روحًا من التآخي والتضامن الحارّ، كان يشدُّهم بمِلاطِ المحبّة والاتّحاد. فضلاً عن أنَّ احتكاكهم اليوميّ الحميم بالجنود البريطانيّين قد أسهم في كسر طَوق العُنصُريّة، إلى حدٍّ ما، لا بل في عقد أواصر صداقةٍ بين الطرفَين.

وقد كان لفعال فرقة غاندي صدًى مستحبٌّ، ولا سيَّمَا في الأوساط البريطانيّة الرسميّة والشعبيّة، وتعبيرًا عن ذلك التقدير قُلّد غاندي، وبضع عشراتٍ من قُوّاد فرقته أوسمةً رفيعةً.

وأعقبَت تلك المهمّةَ مبادرةٌ أُخرى، توخّى منها غاندي إصابةَ هدفَين بسَهمٍ واحدةٍ. فقد كان يُؤخَذ على الهنود، عامّةً، إهمالهم لمرافق النظافة في مساكنهم، بحيثُ كانت تُعزى إلى قذارتهم جميع الأوبئة التي تنتشر بين حينٍ وآخر. وكان غاندي حريصًا على تبديل نظرة المسؤولين تلك إلى مواطنيه، وكان أشدَّ حرصًا على تبديل موقف الهنود أنفسهم من أمر النّظافة والصحّة؛ فقام، تُساعده السُّلُطات المحلّية، بتفقّد مساكن الهنود، بيتًا، بيتًا، وبتقصّي مرافقها، وبإلزام أصحابها بالتدرّع بجميع التدابير الصحيّة والوقائيّة. وقد شقّ عليه أن يتبيّن أنّ الناس أشدّ حماسًا في المطالبة بحقوقهم منهم في أداء واجباتهم، ولا سيّمَا عندما يقتضي الأمر فكّ أربطة المحَافِظ، وأَنّ الجماعاتِ لا تقوم بأيّ إصلاحٍ إلاّ مُرغمةً، وتحت ضغط مُصلحين يتحلّون، في آنٍ معًا، بهوى الإصلاح، وبالأناة والرفق.

تلك المبادرات المختلِفَة أكسبت غاندي خِبرةً ثرَّةً، عبَّر عنها بقوله: "**هكذا، في كلّ مرحلةٍ، كشفت لي الخدمات التي أسديتها لهنود أفريقيا الجنوبيّة، جوانبَ قشيبةً**

وكمينةً من معاني الحقيقة. فالحقيقة تُحاكي شجرةً باسقةً، كلّمَا غُذّيت، فاضت ثمارُها، أَو إِنّها تُشبِهُ منجمًا بقدر ما يتوغّل الحفرُ في أعماقه، يُميط، كلّ يومٍ، اللّثام، عن لآلئ أوفر وأثمن، أي إنّ آفاقًا أكثر تعدّدًا تُشرَع أمام فَنّ الخدمة".

عودةٌ مؤقّتةٌ إلى الهند

كانت الرسائل تتدفّق من الهند مطالبةً غاندي بالعودة للعمل فيها. وكان قد أخذ يُراوده الشُّعور بأنّ مجال رسالته في الهند أرحبُ منه في أفريقيا، حيثُ كان يخشى أن تطغى عليه، شيئًا فشيئًا، اهتماماتُه المهنيّة، فيسترسل في حياةٍ، قِوامُها جمعُ المال. ومن ثمّ، ومن بعد أن أوكل مُهمّة العناية بالجالية الهنديّة في الناتال إلى اثنَين من أصدقائه كان يطمئنّ إلى كفاءتهما وإِخلاصهما، استأذن بالعودة إلى الوطن. ولم يكن من اليسير أن ترضى الجالية بمغادرته لها، غير أنّها امتثلت لرغبته، بعد لأيٍ، وبعدَ أن انتزعت منه وعدًا بالعودة، قبل انقضاء سنة، إن دعت إلى ذلك ضرورةٌ طارئةٌ راغمةٌ. وكان غاندي يُدرك خطورة ذلك الوعد، غير أنَّ عُرى المحبَّة التي كانت تربطه بالجالية كانت من المناعة بحيثُ لم يجد بُدًّا من الالتزام به، ولسانُ حاله كان يردّد مع الشاعرة الهنديّة ميراباي:

« بِحَبْلٍ ثخين قيّدني الربّ
وكلما شدّ الربُّ الحبل، ازدَدْتُ به التصاقًا،
فقد انقضّ عليّ خنجر الحبّ ».

وقد حرص أفراد الجالية على التعبير لغاندي عن تعلُّقهم وعرفانهم وحبّهم، فأقاموا له حفلات وداعٍ مؤثّرةً حاشدةً، وانهال عليه، على حدّ تعبيره، "وابلٌ من الجواهر"، إذ تدفّقت عليه الهدايا الثمينة من ذَهَبٍ، وفضّةٍ، ولآلئ، ومنها عقدٌ ذهبيٌّ ثمينٌ لزوجته.

لا رَيبَ أنَّ ذلك التعبير عن المحبّة قد أَثلج صدر غاندي، أَمّا الهدايا فقد أثارت، في داخله، صراعًا عنيفًا، فهي كانت تُمثّل شِبه مكافأةٍ على خدماته؛ وهو ما، قطّ، خدم التماسًا لمكافأةٍ، فضلاً عن أنّه كان يُربّي أبناءه، مرسّخًا فيهم الإِيمَان بأنّ جزَاء الخدمة

وثوابها يكمُنان في الخِدمة نفسها، فكيف يُبرّر لهم قبوله ما قد يُعتبَر مكافأةً لخدمَة؟ وهو، إلى ذلك، كان عاكفًا على تبسيط أسلوب عيشه، وعلى التجرُّد من كلِّ نافلٍ، فكيف يحتفظ بجواهر ثمينةٍ! ومن جهةٍ أُخرى، لم يكُن يقوى على رفضِ تلك الهدايا، مراعاةً لمشاعر مقدّميها، ولأنّها كانت تُمثّل ثروةً تستطيع الجاليةُ الهنديّة الإفادة منها.

تساؤلاتٌ أقضّت مَضجع غاندي، فقضى ليلةَ تسلّمِه تلك الهدايا مؤرَّقًا لا يجد النومُ إلى جفنَيه سبيلاً، ولم تتسرّب السكينة إلى نفسه إلاّ بعدَ أن وطّد العزم على التنازل عن كلّ تلك الهدايا، وعن تلك التي كان قد تلقّاها عام ١٨٩٦، لدى عودته الأولى إلى الهند، للجالية الهنديّة في الناتال، وإيكالها إلى لجنةٍ تتولّى إيداعها في المصارف بحيثُ تُسْتخدَم لسدّ حاجات الجالية الطارئة.

في الصَّباح كان قد تخفّف عن عبءٍ باهظٍ، انزاحَ عن كاهله، وبسَطَ قراره بين يدي أبنائه فأيّدوه باندفاع، وحينئذٍ أهاب بهم أن يؤازروه في إقناع والدتهم، إذ كان يتوجَّس خشيةَ معارضتها، لعلمه بمَا للحُليّ والجواهر من سُلطانٍ آسرٍ على النساء، اللاَّئي غالبًا ما يجنحنَ إلى الادّخار، والتحسّب من غدر الزمان. وقد كان مُحقًّا في توقّعه لمعارضتها، إلاّ أنّه أفلح في انتزاع موافقتها، بعد لأيٍ، وفي أعقاب نقاشٍ مؤثّرٍ.

وقد زادته تجارب الأيَّام يقينًا راسخًا بأَنَّ من ينتدب نفسه لرسالةٍ اجتماعيّة، لا يسوغ له قبول هدايا قيّمةٍ.

غاندي و"المؤتمر"

عاد غاندي إلى الهند، عام ١٩٠١، وفي تلك السَّنة كان مُقرَّرًا انعقاد المُؤتمر في مدينة كلكتّا. والمؤتمر، آنذاك، هو أضخم تَجَمُّعٍ سياسيٍّ وطنيٍّ، وقد عَزَمَ غاندي على المشاركة فيه، وتقديم مُقتَرَحاتٍ تتعلّق بأوضاع الهنود في أفريقيا الجنوبيّة، وهكذا احتكّ، للمرّة الأولى، وعن كثَبٍ، بتلك المؤسّسة الوطنيّة. إلاّ أنّ التجربة خيّبت الكثير من تَوقُّعاته، ولكنّها أتاحت له التقاءَ عددٍ من الزُّعماء المرموقين، بيد أنّ أولئك، أيضًا، قد أَدهشوه بمَا كانوا يُحيطون به أنفسهم من تَرَف، وبمَا كانوا يمارسونه من أساليب عيشٍ إمبراطوريّةٍ.

كان لقاؤه الأوّل مع "السير" فيروزيشاه مهتا، ملك بومباي غير المُتوّج، الذي كان قد أوعز إليه أن يُقابله في المقطورة – الردهة المخصّصة له، في القطار الذي كان يُقلّه من بومباي إلى كلكتّا. وقد قابله غاندي بصحبةِ رئيس المؤتمر، آنذاك، "السير" دنيشا فاكشا، وقد تنازلا، كلاهما، فأَصغيا إلى اقتراحاته، في شيءٍ من الشَّفَقة، وبيّنا له أن المُواطنين الهنود، في الهند نفسها، لا يقوَون على انتزاع حقوقهم، فكيف لهم الظَفَر بحقوق الهنود في أفريقيا الجنوبيّة؟ ومع ذلك وعداه بإدراج اقتراحه، في جدول أعمال المؤتمر.

وفي المُخيَّم الذي عُيّن لإقامة غاندي، كان يُقيم الزعيم "لوقامانيا (أي محبوب الجماهير) تيلاك"، الذي كان، هو أيضًا، يُحيط نفسه بمَا يُحاكي بلاطًا ملكيًّا.

كانت فترةُ انعقاد المؤتمر المقرّرة مقتصرةً على أيّامٍ ثلاثةٍ، يرفضّ، في إثرها المندوبون، ويخلد المؤتمر إلى السُبات حتّى السنة التالية؛ وقد تبيّن لغاندي أنَّ تلك الفترة القصيرة، غير كافيةٍ لأيّ إنتاجٍ مُثمرٍ؛ غير أنّه حَمَد الله لأنّها لم تكُن أَطول أمَدًا، بعد أن اتَّضحت له رداءةُ تنظيم المؤتمر، وقذارة المخيّمَات المُخصَّصة للمؤتمرين؛ فقد كان يتولّى التنظيمَ مُتطوّعون يسود فيمَا بينهم الخلاف، ويتَّصفون بالاتّكاليّة والتواني؛ فالمندوبون يُصدرون إليهم الأوامر، ولا يُتابعون تنفيذَها، وكلُّ متطوّعٍ ينقُل الأمرَ إلى آخَر، غيرَ عابئٍ بمآله، ولا أحد يكترثُ بالنظافة، بحيثُ كانت تتكدّس الأَقذار، في المراحيض، وتسطعُ منها روائحُ مقزّزةٌ وبيلةٌ؛ وقد اضطرّ غاندي إلى تنظيف المراحيض، في الدائرة التي كان يقيم فيها، بنفسه؛ ولكنّ مَثَله لم يستفزّ أيّ منافسٍ أو مقلّدٍ. هذا، فضلاً عن تجافي الطوائف المختلفة المتبادل، وانقطاع الصّلات فيمَا بينها، ولا سيّمَا تحاشيها المشاركة في الطَّعام، بحيثُ تعمد كلُّ فئةٍ إلى إعداد طعامها بنفسها، فتغشى سُحُبُ الدُّخان أجواءَ المخيّمات.

ومع ذلك، كان غاندي توّاقًا إلى الولوج إلى أَعماق ذلك الحَرَم الوطنيّ الكبير، فعرض خدماته على أمانة سرّه، مبديًا تأهُّبه للنُّهوض بأيَّة مهمّةٍ، ولو هي كانت مهمَّة ساعي بريدٍ؛ فأُوكل إليه فرزُ البريد الوارد إلى المؤتمر، والردُّ على ما يستوجب ردًّا، ولَفْتُ نظر المسؤولين إلى ما، فيه، ينطوي على قضايا خطيرةٍ. وقد أكسبه اضطلاعه

بتلك المهمّة الوضيعة مودّة أمين السرّ، ما أتاح له الإلمَام، عن كثَبٍ، بخفايا المؤتمر، وتَرَصُّدَ مواطن ضعفه، والاحتكاك بعُتاة زُعمائه، ولا سيَّمَا "كوخلي".

و"كوخلي" هو الذي تبنّى مشروع غاندي المتعلّق بوضع الهنود في أفريقيا اَلْجَنُوبِيَّة. صحيحٌ أنَّ التصويت على ذلك المشروع قد تمَّ في اللَّحظات الأَخيرة، من جلسة المؤتمر الأخيرة، حين لم يكُن للمندوبين همٌّ لسوى مغادرة القاعة، وأنّ الوقت الذي أفسحِ لغاندي لكي يشرح قضيّته، لم يتعدَّ خمس دقائق، ولم يستخدمها غاندي بكاملها، من جرّاء جهله بالقواعد المتّبعة في المؤتمر؛ ولأَنَّ طلاقة اللسان التي كان قد اكتسبها في أفريقيا الجنوبيّة، قد خانته، فجأةً، أمام جمع المؤتمر الحاشد. ومع ذلك، لاقت مقترحاته تأييدًا جماعيًّا، أَثلجَ صدرَه، إِذ رأى فيه تأييدَ البلاد بأكملها، ممّا خفّف خيبةَ أمله الناجمة عن إخفاقه في التبسُّط بشرح قضيّته. إلاّ أنّه قرّر تدارُكَ ذلك النقص وإِصلاحه، بالمكوث فترةً من الزمن في كلكتّا، حيث كان عليه زيارة غرفة التجارة، ومقابلة عددٍ من الشخصيّات السياسيّة البارزة، وعقد اتّصالاتٍ شخصيّةٍ مباشرةٍ، تتيح له الإِفاضة في التعريف بأوضاع الهنود في أفريقيا الجنوبيّة. ومن أجل ذلك، التمس الإقامة في "نادي الهند" بالمدينة، حيث يتسنّى له لقاءُ أكبر عددٍ من رجال السياسة. بيد أنّ الزعيم "كوخلي" أَلحَّ على استضافته في منزله، وحثَّه على انتباذ الحياء، وتوسيع شبكة اتّصالاته، والتعاون مع المؤتمر، ولعب الدَّور الذي ينتظره في الهند.

في ضيافة كوخلي

قضى غاندي شهرًا في ضيافة كوخلي الذي كان يُعاملِه معاملةَ الأخ الأَصغر، ويجهَد في توفير إقامةٍ مُريحةٍ له. وقد أعجبه، من غاندي، بساطةُ عيشه، وضآلةُ احتياجاته، وحرصُه على العناية بشؤونه بنفسه، من غير ما حاجةٍ إلى الاستعانة بأَحدٍ، مثل حِرْصِهِ على نظافته الشخصيّة، وعلى دقّة مواعيده.

ولم يكن كوخلي يكتم عن غاندي شيئًا من دقائق أفكاره، وأعماله، واتّصالاته، ويُعرّفه بجميع الشخصيّات التي كانت تتوافد إلى منزله، ويُشركه بالأحاديث المتبادَلة معهم؛ وكان غاندي، بدوره، شديد الإعجاب بضيفه الذي قال فيه: "**إنّ مراقبة كوخلي،**

وهو يعمل، كانت مبعث مُتعةٍ، بقَدر ما هي كانت درسًا. فهو لم يكن يهدر دقيقةً واحدةً، وكانت جميع علاقاته الوثيقة، وصداقاته كلّها، تستهدف غايةً واحدةً: هي المصلحة العامّة. فإذا ما تكلّم كانت مصلحة البلاد هي التي تستأثر، وحدَها، بتفكيره؛ ولم تكُن كلماته لتنطوي على أيّ أَثَرٍ للكذب، بل كلّ شيءٍ فيها كان صادقًا. وكان فقر الهند، وخضوعُها للاستعمار مرضعَ اهتمامه الدائم، واندفاعه المضطرم".

أثناء ذلك الشهر، تجوّل غاندي كثيرًا، مُؤثرًا السير على قدمَيه. واطَّلع، عن كثَبٍ، على شتّى مظاهر العيش في منطقة البنغال، وعَقدَ، مع أسَرِها المرموقة، صداقاتٍ غدت له عونًا في عمله السياسيّ المُقبل. غير أنَّه اكتشف، أيضًا، بعض المظاهر البغيضة التي ناهضها، فيمَا بعدُ، بضراوةٍ؛ ومنها الحفلات المُغرقة في البذخ والتَّرف، التي كان يقيمها بعض المسؤولين الإنكليز، أو كبار الشخصيّات الهنديّة، ويُفرَض على مرتاديها، من مهراجات وسواهم، ارتداء أزياء خاصّةٍ مغاليةٍ في الفخامة، والتحلّي الفاضِح بالجواهر واللآلئ والعُقود. تلك المظاهر، في نظر غاندي، لم تَكُن دلالةً على سُموٍّ مركزهم، بل إدانةً لعبوديّتهم لأوهامٍ، وتقاليدَ زائفةٍ. وقد علّق على ذلك بقوله: "**أيّة ضريبةٍ باهظةٍ من الخطايا والأخطاء، تفرضها على الإنسان، الثروةُ، والسُّلطة، والنفوذ!**".

وقد استنكر غاندي، أيضًا، ما شاهده من طُقوسٍ وعباداتٍ تتّسم بالعنف، ولا سيَّمَا عبادة الإلهة السوداء "كالي"، حيث، في معبدها، تُنحَرُ الخرافُ قُطعانًا، وتتدفّق منها الدماء جداول.

اختبارٌ لمعاناة الفقراء

في أعقاب تلك الإقامة في كلكتّا، الخَصبة بالتَّجارب، عزم غاندي على القِيام بجَولةٍ واسعةٍ في شتّى أرجاء الهند، على أن تتمَّ كلُّها في عرَبات قطارٍ من الدَّرجة الثالثة، تؤهّله لاختبار مُعاناة الجماهير الكادحة، المرغمة على السفر في مثل تلك العَربات. وقد تزوّد، لتلك الجولة، بصندوقٍ معدنيٍّ صغيرٍ للطَّعام، وبكيسٍ من القماش الخشن، أودَعه معطفًا طويلاً، وسروالاً عريضًا من القطن، وقميصًا، ومنشفةً، وغطاءً للنّوم، وإبريقًا للماء.

لم يكُن بمُكْنة غاندي أن يجوب جميع أرجاء الهند، دفعةً واحدةً، فذلك يقتضي من الوقت فُسحةً مُتمادية الطُّول. ومن ثمّ، فقد اقتصر، في تلك المرحلة، على التوقّف، يومًا واحدًا، في كلٍّ من المدن الرئيسة، الواقعة على طريقه، بين كلكتّا وراجكوت؛ وحيثُمَا حلّ، كان يقيم في "التكيّات"، وهي المضافات الشعبيّة العامّة المُلحَقَة بالمعابد لإيواء الحجّاج والغُرباء والفقراء.

وقد راعه ما شاهد من مظاهر القذارة والازدحام والفوضى، في عَربات الدرجة الثالثة، وافتقارها إلى شتّى مرافق الراحة، والبَون الشاسع بينها وبين عربات الدرجة الأولى، والذي لا يُبرّره، بأيّ وجهٍ، فَرق تعرفة الأسعار بين كلٍّ من تينكَ الدرجتَين. ومن ثَمَّ، عزم إلاّ يسافر، من بعدُ، إلاّ في عربات الدرجة الثالثة، وأَهاب بالمثقَّفين الهنود أن يحذوا حَذوَه، بُغية حمل المسافرين، في تلك الدرجة، على تغيير أنماط سلوكهم، والالتزام بقَدْرٍ أوفى من النظام والنظافة؛ كما إِنَّه جرّد حملةً على إدارة سكّة الحديد، لحملها على توفير مزيدٍ من مرافق الصحّة والراحة لتلك العربات التي تستخدمها أوسع فئات الشعب عددًا.

وأثناءَ تلك الجولة، زار غاندي بعضَ المعابد الهندوسيّة، وقد هاله ما كان يغشاها، هي أيضًا، من قذارةٍ مُنَفِّرةٍ، وما يتَّسمُ به بعض رجال الدِّين من جَشَع.

محاولةُ استقرارٍ في بومباي

كان الزعيم كوخلي قد نَصَح غاندي بممارسة المحاماة، في بومباي، بحيثُ يكون على مَقرُبةٍ منه، ويشرع يعاضده في مهامّ المؤتمر. إلاّ أنَّ ذكريات الفشل القديمة، كانت ما انفكّت تلازم غاندي وتلاحقه، فآثر الإقامة في راجكوت، والمرافعة في محاكم ريفيّة وضيعةٍ. ولكنّه، بعد أن نجح في عدّة قضايا هامّةٍ، استعاد ثقته المهنيّة بنفسه، واستجاب لرغبة أصدقائه، فافتتح له مكتبًا في بومباي، واستأجر لأسرته منزلاً متواضعًا في ضواحي المدينة، وسرعان ما سارت أعماله خيرًا ممّا كان يتوقّع، في حين كان كوخلي يختلف باطّرادٍ إلى مكتبه، ويُطلِعُه على أخبار المؤتمر، ويعرّفه بشخصياتٍ سياسيّةٍ جديدةٍ.

وكاد غاندي يستقرّ، أَخيرًا، لولا أن وردته، من الناتال، برقيّةٌ تستعجله بالعودة

إليها، ولم يكن له مندوحةٌ عن الامتثال، وفاءً لوعدٍ كان قد قطعه، فهرع إلى الناتال، مخلِّفًا أسرته في بومباي، لاعتقاده بأنّ غيابه لن يطول. ويعلّق غانــدي علــى ذلــك المُنعَطَف الجديد في حياته فيقول:

"**يمكن القول إنَّ الربّ لم يسمح، أبدًا، لأَيٍّ من مشاريعي بالاكتمال، بل تصرّف، هو، بها، دائمًا على هواه**" ثمّ يضيف: "**إنّ انفصالي عن زوجتي وأبنائي، ووَضْــعَ نهايةٍ عنيفةٍ لحالٍ مستقرٍّ، والتخلّي عن اليقين من أجل الرّيب، كلّ ذلك قــد شــقّ عليّ، فترةً ما. بيد أنّني كنت متأهّبًا لانتهاج حياةٍ غير مستقرّةٍ، وأنا مؤمنٌ أنّه من الخَطل توقّع اليقين في هذا العالم، حيثُ كلُّ ما ليس الله (أي الحقّ) إن هو إلاّ ريبةٌ. إنّ كلّ ما يظهر ويحدث، من حولنا، متقلقلٌ وزائلٌ. غير أنّ هذا العالم يُخفي كائنًــا أسمى، هو، وحدَه، اليقين. وبوسعنا الظفرُ بالسعادة إن استطعنا استــشفاف ذلــك اليقين، واقتفاء آثاره، عندما نلمحه. إنّ التماس تلك الحقيقة هو الخير الأَسمى**".

في أفريقيا الجنوبيّة من جديدٍ

كان داعي استعجال عودةِ غاندي إلى الناتــال، زيــارة وزيــر المــستعمرات البريطانيّ، جوزيف شمبرلان، لأَفريقيا الجنوبيّة، ورغبة الجالية الهنديّة في اغتنــام تلك السانحة كي تبسط بين يدي الوزير جملة شكاواها ومطاليبهــا. ولــدى وصــول غاندي إلى دوربان، في نهاية عام ١٩٠٢، كان موعد اللّقاء مع الوزير قــد حُــدّد، وبات على غاندي إلاّ يهدُرَ دقيقةً واحدةً، بل أن يعكف، في الحال، على تدبيج مُذكّرةٍ شاملةٍ، تُعبِّر عن جميع ظُلامات المغتربين الهنود وتطلّعاتهم.

إلاّ أنَّ الوزير البريطانيّ كان باردًا في لقائه مع الهنود، وكانت أجوبتــه علــى تساؤلاتهم زئبقيّةً.

وقد ألحفت الجالية الهنديّة، في الترانســڤــال، من جانبها أيضًا، فــي اســتقدام غاندي، ليساعد في بيان مظالمها، وعرضها على وزير المستعمرات. ولكن، عنــدما همَّ غاندي بالحصول على تصريحٍ بالسفر إلى بريتوريا، تبيّن له أنّ دوائــر جديــدةً كانت قد استُحدثت، هناك، مُهمّتها تنظيم تحرُّكات الهنود، وقد انتهجت تلك الــدوائر

أساليب التعسّف والفساد والجشع. وبحدسه المرهف، استشفّ غاندي أنّ بُركانًا كان قد شرع يهدر، مُهدّدًا بالانفجار في أيّة لحظةٍ، كاسحًا بحِمَمِه مصيرَ الجالية الهنديّة في الترانسفال. فلم يتوانَ عن نَصبِ خيمته، عند فُوهة البركان، وفي اليوم الأوّل من عام ١٩٠٣، وصل إلى بريتوريا، يحدوه هذا العزمُ المتّقد على النِّضال.

ومنذُ الوهلة الأولى، قابلَتِ السُّلطات المحلّيّة، في بريتوريا، غاندي، بالعداء، وجَهِدت في إقصائه عن البلاد. وكانت الإهانة الأولى التي ابتلَعها، شَطْبُ اسمه من قائمة أفراد الوفد الذين رُخّص لهم بمقابلة وزير المستعمرات. وقد اعتَبرَت الجاليةُ الهنديّةُ أنَّ الإهانَة مصوّبةٌ إليها، وكادت تُلغي موعدَها مع المسؤول البريطانيّ، لولا أن ثناها غاندي عن عزمها.

وقد ضاعفت كلُّ تلك الأحداث تصميم غاندي على المكوث، أَمدًا طويلاً، في الترنسفال، واستئناف نضاله، منها. ولكي لا يكون على أَحدٍ عالةً، افتتح لنفسه مكتب محاماةٍ في جوهانسبورغ، واستقدم أسرته.

حربٌ على الفساد، وقلبٌ مشرعٌ للحبّ

مُهمّة غاندي المُلحّة، آنذاك، تمثَّلت في القَضاء على الفساد المُستَشري في الإدارات التي تتولّى تنظيم دخول الهنود إلى الترانسفال وإقامتهم فيها، وفق معايير الرَّشاوى والوَساطات، بحيثُ يُقصى مَن تَحقُّ له الإقامة، أو يُحظَر عليه دخول البلاد، في حين تُشرَع أبواب البلاد على مصاريعها لمن يجزِل البَذلَ.

وقد دأَبَ غاندي على تعقُّب بعض الموظّفين المُرْتَشين، إلى أن تجمَّعت لديه الأَدلَّةُ الماديّةُ الكفيلةُ بإدانة اثنَين منهم – وهما من البيض – فتَقدَّم إلى مدير الأمن بشكوى عليهما، فاعتُقلا وأقصيا عن منصبَيهما. صحيحٌ أنَّ براعة بعض المحامين، وتواطؤ القضاة البيض قد أدّيا، في وقتٍ لاحقٍ، إلى تبرئة ذينكَ الموظَّفَين، ما أصاب غاندي "**بالاشمئزاز من مهنة القانون. لا بل إنّ الذكاء نفسه** – يقول غاندي – **قد غدا لديّ بغيضًا، بقدر ما هو يرتضي أن يتعهَّر، فيُصبح أَداةً لحماية الجريمة**".

غير أنّ إدارة هجرة الهنود قد تطهَّرت، إلى حدٍّ بعيدٍ، في أعقاب توقيف ذَينكَ

الموظَّفَين، فَفَاءَت الطمأنينةُ إلى نفوس مواطني غاندي، واكتسب، هو، من حيث لم يقصد، نُفوذًا آزره على توطيد قاعدته المهنيَّة. بَيدَ أنّ الكَسبَ الأَجلَّ شأنًا قد أحرزه عندما خفّ إلى مساعدة الموظفَين المسيئَين نفسيهما على الظفر بعملٍ آخر، يحدوه، إلى ذلك إيمَانه بضرورة التفريق بين الإنسان وأفعاله، ومقاومة الخطيئة مع العطف على الخاطئ، ومحاربة الشرّ لا الواقعين في شراكه، فالخاطئ والشرّير جديران، أبدًا، بالرأفة والعون، من أَجل استعادة كمال إنسانيَّتهما.

نافذة الحبّ هذه، في قلب غاندي، كانت مُشرَعةً على آفاقٍ فسيحةٍ بلا حدود، وقد أفصح عنها باعترافه:

« إنّ مختلف الأحداث التي دَمَغت حياتي قد تضافرت جميعها في نسج أواصرَ وثيقةٍ بيني وبين أناسٍ ينتسبون إلى شتّى المعتقدات والمجتمعات. وإنّ تجاربي في هذا المضمار هي ضمانٌ أكيدٌ لصدقي، عندما أعلن أنّني لم أَفرّق، يومًا، بين أهلٍ وغُرباء، بين مُواطنين وأَجانبَ، بين بيضٍ وملوّنين، بين هندوسيّين وهنودٍ ينتحلون مذاهب أُخرى، من مسلمين، أو فارسيّين، أو مسيحيّين، أو يهود. إنّه ليُمكنُني التأكيد بأنَّ قلبي قد رفض، أَبدًا، رسم مثل تلك الحدود الفاصلة، ولا يسوغ لي أن أدَّعي، في ذلك، فضلاً، فهو، لديّ، فطرةٌ أكثر منه نتيجة جهدي، في حين أن الأهيمسا (اللاعنف) والبراهماشاريا (العفّة) والأباريغراها (اللاتملُّك)، وسائر الفضائل الأساسيّة قد اكتسبتُها بفضل معاركَ لا هوادةَ فيها ».

وكان غاندي حريصًا على أن يُشاركه أفرادُ أسرته هذا الانفتاح على جميع البشر، وقد أدّى به حرصُه هذا، ذات يومٍ، إلى شجارٍ حادٍّ مع زوجته، كاد ينقلب مأساةً. وقد جرى ذلك، عام ١٨٩٩، يوم كان غاندي ما برح يمتهن المحاماة في دوربان، حيثُ أَلِف الكثيرون من معاونيه ومستخدميه أن يحلّوا عليه ضيوفًا، في منزله. ولم يكن ذلك المنزل مُجهّزًا بالمراحيض، فزُوِّدت كلّ غرفةٍ بإناءٍ لقضاءِ حاجات نزيلها. وكان غاندي وزوجته يتولّيان تنظيف تلك الآنية، إن لم يقُم النزلاءُ أنفسُهم بذلك. ولكن، ذات يومٍ، حلّ في المنزل مُستَخدمٌ جديدٌ من طائفة المنبوذين، كان قد اعتنق المسيحيّة فرارًا من لَعنة النبذ؛ ولم تُطِق

كاشتورباي – زوجة غاندي – بتأثير تربيتها الدينيّة – العناية بمنبوذٍ تعتَبِرُه التقاليد الهندوسيّة نَجِسًا. غير أنَّ غاندي لم يحفل بكلّ تلك الاعتبارات، وأرغمها على تنظيف مبولَة النزيل الليليّة، فتلكأت ريثًا، ثم انصاعت، والغَضَبُ يجيش في صدرها، والدموعُ تنساب على وجنَتَيها؛ ولكنّ غاندي، الذي كان يُؤمن أنّ الخدمة التي لا تُؤدّى في فَرَحٍ وابتهاجٍ، إنّما هي باطلةٌ، قد انهال عليها تأنيبًا، فضاقت ذرعًا، وفي لحظة سأمٍ، صاحت أنَّها تُؤثر مغادرة البيت على الاستكانة لوضعٍ لا يُطاق. وفَقَدَ غاندي كلَّ سيطرةٍ على نفسه، فأَمسكَ بها من معصَمها، وجرّها، بعنفٍ نحو باب المنزل، وقذفَ بها، بقسوةٍ، إلى الخارج. ولكنّه سرعان ما ثاب إلى رشده، وخَجِلَ من فعلته، غير أنَّه لم يتخلَّ عن دافعه إليها، إلاّ وهو الحرص على خدمة جميع البشر، من غير تمييزٍ، ولا تأفّفٍ.

وخليقٌ بالتنويه أنّ حياة غاندي الزوجيّة، نادرًا ما شهدت مثل تلك العواصف، بل خيَّم عليها، في الإِجمال، السلام والوئام، رغم التباين الشاسع في مستوى الثقافة ونَمَط التفكير، بين الزوجَين، وقد اكتسبت مزيدًا من التناغم والانسجام، بعدما التزم الزوجان بنَذر العفّة، عام ١٩٠٦.

هذا، وكان غاندي في حاجةٍ إلى من يُنجز له أعمال السكرتاريا، وقد فشل مستخدموه الهنود الأربعة، في النهوض بها، على وجهٍ لائقٍ، لعدم تمكّنهم من اللُّغة الإنكليزيّة، ومن استخدام الآلة الكاتبة. غير أنّه كان سعيد الطالع، بعثوره، على التوالي، على اثنتَين من الأوروبيّات المتحرّرات من الأوهام العُنصريّة، واللّتين تبنّتا مبادئه وأهدافه، وخدمتاه في جدارةٍ رفيعةٍ، وأمانةٍ مُطلقةٍ، وقد اتَّسمتْ إحداهما، على حدّ تعبير غاندي، إلى جانب روح التضحية الذي كان يحملها على الاجتزاء بالحدّ الأدنى من الأجر، بنقاء البلّور، وبجرأةٍ يحسدُها عليها المُحاربون؛ وكانت تضطلع بتدبير شؤون الهنود الماليّة، وبإدارة الصحيفة الناطقة باسمهم، كلّمَا كان يُزجّ بغاندي في السِّجن.

وفي تلك المرحلة، أيضًا، أخذت تتَّضح معالم مسيرة غاندي الروحيّة على دروب الله، وبعد أن ترسّخ لديه اليقين بأنّ الخدمة هي أَقوَمُ سبيلٍ إلى تلك الغاية القصوى، مضى في ميدانها تمرُّسًا؛ ولكي يزداد من الله قربًا، عَكَفَ على استقراء

الكتب الدينيّة الكبرى، وكان للباغاڤادجيتا النصيبُ الأوفرُ من اهتمامه، بحيثُ غدا ذلك الكتاب، على حدّ قوله، "**الدليل القويم لسلوكي كلّه، والقاموس الذي أرجع إليه كلّ يومٍ**".

الدَّرسانِ الجوهريّانِ اللّذانِ استقاهما من الجيتا هما: التجرُّد عن كلّ تملُّكٍ، والثَّباتُ النفسيُّ الذي يواجه بموقف واحدٍ لا يتغيّر ولا يتأثّر، الأعداء مثل الأصدقاء، والأحداث السعيدة كالظروف المناوئة، على حدٍّ سواء.

ويومًا فيومًا، كانت تتوطّد لديه القناعة بأنَّه يتعيّن على من رام العيش في مخافة الله، ورَغِبَ في التمكُّن من مشاهدته وجهًا لوجه، أن يضغط على نِظامه الغذائيّ، كمًّا وكيفًا، وأن يفرِض رِقابةً صارمةً على فكره ولسانه. وقد توغّل إيمانًا بجدوى النظام الغذائيّ النباتيّ، حتّى تولّد لديه الشعور بأنّ عليه رسالةَ نشره، ومساندة أتباعه، فأقدم، في هذا السبيل على تضحياتٍ ماديّةٍ، كادت تجرّ عليه كوارث ماليّةً مدمّرةً.

وبالإجمال، اتَّضح له، من غير لَبسٍ، ولا غموض، أنَّ السَّيرَ في إثر الله يقتضي التجرُّد من كلّ شيءٍ، وتحوُّلاً جَذْريًّا في الذهن والسلوك؛ وبوَحيِ هذه القناعة، سدَّد نَهجَ حياتِه كلِّها.

غاندي الصحافيّ

عام ١٩٠٤ استجاب غاندي لرغبة بعض أصدقائه، فأَصدرَ صحيفةً تحمل اسم "الرأي الهندي"(*)، وتنطقُ بلسان الجالية الهنديّة في الترانسڤال. ومنذُ إِصدارها، تولّى غاندي بنفسِهِ تحريرَ افتتاحيّاتها، وتوجيه نهجها، فَضَرَب مثالاً أسمى لكلّ من يبتغي، من امتهان السُّلطة الرابعة، الخدمة فحسبُ، إذ كانت المَصلحة العامّة، وحدَها، هي رائده، والحقيقة النقيَّة الصُّراح، نبراسَه، والصدق ضابطه، فاستطاع أن يشهد لنفسه قائلاً:

"**طوالَ عشر سنواتٍ، أَي حتّى عام ١٩١٤، وفيمَا خلا فتراتِ العُطلة الإلزاميّة التي**

(*) INDIAN OPINION

كنتُ أقضيها في السِّجن، لم يصدُر عددٌ واحدٌ من "الرأي الهنديّ" لا ينطوي على مقالٍ لي، ولستُ أذكر أنّني، في كلّ تلك المقالات، قد أورَدتُ لفظةً واحدةً لم أشبعها تفكيرًا وتمحيصًا، أو عبارةً انطوت على مُغالاةٍ مقصودةٍ، أو تفصيلاً توخَّيتُ، من خلاله، انتزاع الإعجاب فحسبُ. وفي واقع الأمر، لقد أصبحت، لي، تلك الصحيفة حقلاً لممارستي السَّيطرة على ذاتي، وغدت لأصدقائي، ذريعةَ الاتّصال الدائم بتفكيري...، وطالما هي ظلّت تحت إشرافي، خضعت لتطوّراتٍ كانت تعبّر عمّا ينتاب سيرتي من تطوُّرٍ... لقد كانت مرآةً لجزءٍ من حياتي، وأسبوعًا عقب أسبوع، سكبتُ نفسي في عواميدها، حَيثُ بسطتُ مبادئ الساتياغراها، وتطبيقاتها العمليّة، على نحوِ ما كنتُ أفهمها".

وقد حفرتْ تلك الصحيفة قناةً من العلاقات الودِّيّة المتَّصلة بينه وبين الجماهير، إذ كانت تنهمر عليه رسائل القرّاء، تحمل همومهم، وآمالهم، وشكاواهم، فاكتسب منها خِبرةً اجتماعيّةً غنيَّةً، ووثّق بقرّائه ومراسليه، الذين لم يكن يتوانى عن الردّ على رسائلهم، أواصرَ حميمةً.

وقد كشفت له ممارسة الصَّحافة عن خطورة تلك المهنة وحدودها، التي أوضحها بقوله: "**إنّ الصحافة طاقةٌ هائلةٌ، ولكن على غرار السَّيل الهادر، الذي يغمر بلُججِه براري بكاملها، مُتلِفًا مواسمها، كذلك القلمُ الذي لا يضبطه رادعٌ، إنّما هو أداةُ تدميرٍ، ليس إلاّ. ولقد أثبَتَت التجربةُ أنّ الرقابة المفروضة من الخارج هي أكثرُ وبالاً من انعدام الرقابة، ولا تكون الرقابة مُجديةً، إلاّ إن هي مورست من الداخل**".

ولا مِراءَ أنّ صحافةً لا تستهدف سوى الخدمة، قلّما تكون عملاً تجاريًّا مُجزيًا، ولا عَجَب إن أدّى استمرار صدور "الرأي الهنديّ" إلى التهام معظم دخل غاندي من مكتب المحاماة، ومُدَّخراته بأجمعها.

أولويّةُ الخدمة

في أوساط الجالية الهنديّة، كانوا يُنادون غاندي باسم "باي"، أي الأخ، وكان، هو، يستَعذِب تلك التسمية، على نحوٍ خاصٍّ، عندما تتلفّظ بها شفاهُ العمّال والمحرومين، الذين انتدَبَ ذاتَه لمساندتهم والذَّود عن حياضهم.

وفي جوهانسبورغ، كما هو الحال في الناتال، كان لقب "كـولي"، أي الكـادح، يُطلَق على كلّ هنديٍّ، وكان معظم الهنود، ولا سيَّمَا العمّال، محشورين في أطـراف المدينة، على أراضٍ مهجورةٍ، أقاموا عليها أكواخًا زريّةً، تفتقر إلى كافّـة مرافـق الصحّة والنظافة، وتغمُرُها الأقذار؛ وحينئذٍ، كانت تلك الأقذار نفسُها تغدو للـسُّلطات ذريعةً لمصادرة تلك المساكن، ولطرد سكّانها منها. ولم يكن لأولئكَ المساكين، الذين يتعرّضون لمثل ذلك الافتئات، من ملاذٍ أو محامٍ، سوى غاندي.

والذين كانوا يُطرَدون من مساكنهم، كانوا يُرغمون على الإقامة في أكواخٍ تمتلكها البلديّة، وهي تبذُّ تلك التي كانت تضمُّهم، من قبلُ، إغراقًا في القذارة والإهمال.

وفي مُستهلّ عهد غاندي بالإقامة في جوهانسبورغ، نَشِبَ وباءُ الطّاعون الأسود بعُمّال أحد المناجم، ومعظمهم من الأفريقيّين السُّود، غير أنَّ ثلاثةً وعـشرين مـنهم كانوا هنودًا، ويومَ عاد هؤلاء إلى أكواخهم، والحُمّى تُلهب أجسادَهم، أُنبـئ غانـدي بالأمر، فهَجَرَ عمله، وهرع، على متن درَّاجةٍ، وهمّه الأوّل عزل المـصابين عـن سائر السكّان. ولم يتورَّع، لهذا الغَرَض، عن اقتحام منزلٍ مهجورٍ، نَقَلَهم إليـه، ثُـمَّ تضافر مع عمّال مكتبه الشباب، ومع طبيبٍ بريطانيٍّ، على العناية بهم ليـلَ نهـارٍ؛ وأنفذ إلى البلديّة كتابًا ناريَّ اللهجة، محمّلاً إيّاها تَبعات إغفالهـا لمرافـق الـصحّة والنظافة في المساكن التي كانت تؤجّرها للهنود.

وكان لمسعاه هذا صدًى واسع الوقع لدى العديد من الأوروبيّين، مـن مثقّفـين ورجال دينٍ، وتجّارٍ، خفّوا إلى مؤازرته، وقد غدا عددٌ منهم خَيرَ عَـونٍ لـه مـدى سنواتٍ طويلةٍ.

وعندما قرّرت البلديّةُ إجلاء منطقة الأكواخ من قاطنيهـا، وإحراقهـا، تفاديًـا لانتشار وباء الطّاعون، كان غاندي عَونًا للسُلطات على ذلك، والناصحَ للهنود الذين حلّوا تحت الخيام، مدّة أسابيع ثلاثةٍ، على مسافة نحو عشرين كيلومترًا من المدينـة، حيثُ كان يختلِفُ كلّ يومٍ، ممتطيًا درّاجته، ليتفقّد أحوالهم، ويُؤمّن احتياجاتهم. وقـد ائتمنه معظمهم على مُدَّخراتهم التي كانوا يُخفونها في مخابئ شتّى مـن أكـواخهم، ولكنَّه دفع بالكثيرين منهم إلى إيداعها في المصارف.

كلّ تلك المواقف كانت توطّد نفوذ غاندي، في أوساط الجالية الهنديّة، وتوفّر له المزيد من النجاح المهنيّ، وبالتالي تُثقل عبء التزاماته الأدبيّة.

سِحرُ كتابٍ

كانت صحيفة "الرأي الهنديّ" تُطبعَ في دوربان، وأمورُها الماليّة تتفاقم سوءًا، يومًا إثْر يومٍ؛ واضطرّ غاندي إلى السفر إلى دوربان، لتقصّي الأمر عن كثَبٍ. وفي محطّة سكّة الحديد، أهداه صديقٌ له أوروبّي، مؤلَّف الكاتب "جون روسكين" (١٨١٩- ١٩٠١): "إلى هذا المنتهى"(*)، ودعاه إلى مطالعته بتمعّنٍ، أثناء رحلته التي كانت ستستغرق أربعًا وعشرين ساعةً.

ومنذ الصفحة الأولى، استحوَذَ الكتاب على ذهن غاندي، وأخذ بمجامع قلبه، فلم يعد يقوى على إشاحة نظره عن سطوره؛ وقضى الليل كلّه ساهرًا يَعُبّ منه، لا بل وطَّد العَزم على تحويل منحى حياته، في الحال، وِفقًا لفحواه.

لم يكُن غاندي، في أعقاب الفراغ من دراسته الحقوق في إنكلترا، ممَّن يُكثرون المطالعة التي صرفته عنها مشاغلُه الاجتماعيّة. ولكنّه كان يتمثّل، في عمقٍ، الكتبَ القليلةَ التي يُطالعها. ومن الخِصال التي ميّزتْ سلوكَه، طوال حياته، أنّه كان لا يتوانى عن نقل قناعاتِه إلى عالم التطبيق العمليّ، من غَيرِ ما تلكّؤٍ ولا تردّدٍ بل كان يرى أنَّ التصرُّف، على غير ذلك النحو، لا أَخلاقيٌّ. وكان يؤمن أنَّ قِسطًا وافرًا من شرور عالمنا، ومن خَلَل حضارتنا، ومن وَهَن الأفراد والمؤسّسات، يتمثّل في هُوّة النِّفاق والرياء الفاصلة بين الأقوال والعقائد، وبين العقائد والأفعال. ومن ثمّ فقد دأب دائمًا على تحقيق توافُقٍ منسجمٍ بين أقواله وعقائده وأفعاله، لقناعته بأنَّ في ذلك الانسجام يثوي علاجُ الكثير من أمراض الإنسانيّة، ويكمُن سِرّ صحَّة النُّفوس والعُقول.

ومن ثَمّ، كان كتاب "روسكين"، "إلى هذا المنتهى"، على حدّ تعبير غاندي "سبب انقلابٍ عمليٍّ وفَوريٍّ" في حياته. وجديرٌ بالذّكر أنَّ غاندي قد ترجم، فيمَا بعد، ذلك

(*) UNTO THIS LAST

الكتاب إلى اللهجة الكوجاراتيّة، وعلّق عليه؛ أمَّا الدروس الثلاثة التي استلهمها منه فكانت:

١- إنَّ أفضل ما في الفرد يُمثّل أفضل ما في الجماعة.

٢- إنّ عَملَ رجل القانون لا يسمو ولا يدنو شأنًا عن عمل الحلاّق، مادام العمل يمثّل حَقَّ كلّ فردٍ في كسْبِ عيشه.

٣- إنّ حياة الكادح - فلاّحًا كان أم حرفيًّا - هي الحياة الوحيدة الجديرة بالعيش.

مستوطنة "فينكس"

الترجمةُ العمليّة لذلك التطوّر في حياة غاندي، تمثَّلت في قراره نقلَ مقرّ صحيفة "الرأي الهنديّ" إلى مزرعةٍ، تتحوّل تدريجيًّا إلى شبه مستوَطَنة تتمتّع بالاكتفاء الذاتيّ، حيثُ يكسَبُ كلّ فردٍ أوَد عيشه بجُهده وكَدحه، ويعمل، أثناء فراغه، في المطبعة، لقاءَ أجرٍ موحَّدٍ، يتساوى فيه الجميع، أيًّا كان دينهم ولونهم، ومستواهم الثقافيّ، وقدْرُه ثلاثة جنيهاتٍ في الشهر.

كان أوّل من أهاب بهم غاندي إلى الانضمام لمبادرته تلك، هم عمّال الطباعة في صحيفة "الرأي الهنديّ"، ولكن من غير قسرٍ ولا إكراهٍ؛ وقد استجابَ بعضُهم، فيمَا آثر آخرون مواصلة العمل في الصحيفة، على غير التزامٍ بنظام المستَوطَنة وشروطها. ثمّ حاول غاندي ضمَّ بعض أصدقائه الهنود، الذين كانوا قد تغرّبوا سعيًا وراء المال، وقد أقدمَ قبضةٌ منهم على تحويل منحاهم وأهدافهم، من أجل العمل إلى جوار غاندي.

وهكذا نشأت مستَوطَنة "فينكس" على أَرضٍ تبعد نحو عشرين كيلومترًا عن دوربان، إلى جوار محطَّة سكّة حديدٍ، على مساحةٍ تناهز الخمسين هكتارًا، تنتصب فيها أشجار البرتقال والمانجا، وبيتٌ عتيقٌ متداعٍ، وتنبجس منها نبعة ماءٍ رقيقةٌ.

وخفّ إلى نجدة غاندي جمهرةٌ من أصدقائه، فقدَّمَ له بعضُ التجّار موادّ البناء اللازمة لإقامة عنبرٍ للمطبعة، فيمَا عكف النجّارون والمعماريّون على النهوض بالبناء. وعَمِل آخرون في نقل آلات المطبعة وعُددها بالعربات؛ وفي غضون شهرٍ واحدٍ،

أُنجز البناء، ودارت بين جُدرانِه دواليبُ المطبعة من جديدٍ. وقد ظلّت ذكرى إصدار العدَد الأوّل من الصَّحيفة، في مستوطنة "فينكس"، راسخةً متألّقةً في ذهن غاندي وفي قلبه، بمَا واكبها من إصرارٍ وبذلٍ، وسَهَرٍ وتضامنٍ. فقد كان الجميع موطّنين العزم على إصدار ذلك العدد، في موعده، من غير ما تأخير، وقد أعدّوا للأمر عدّته. وفي أعقاب يومٍ مرهقٍ من العمل المضني، أخلد العمّال المنهَكُون إلى النَّوم، في حين كان المسؤول عن الطباعة يتأهّب لمباشرة عمله، وإذْ بالمحرّك يأبى الدّوَران، ويُصِرُّ على عناده، رغم كلّ الجهود المبذولة لتشغيله. وأوقظَ غاندي من نومه، فارتأى تشغيل المطبعة يدويًّا، بواسطة دولابٍ احتياطيٍّ كبير، كان يقتضي جُهد العشرات من الأذرع المفتولة، ولم يكن بوسع أَحدٍ، غير غاندي، إقناع عمّالٍ منهكين بالاستغناء عن نومٍ مستَحَقٍّ، من أَجل بذْل المزيد من الجُهد المضني، وهبّ العمّال في اندفاعٍ سخيٍّ، وأحيَوا اللّيلَ في منافسةٍ نبيلةٍ، إلى أن رأى الصَّبّاحُ انتصار التحدّي.

ثم فُرزت المزرعة إلى أَقسامٍ، مساحةُ كلٍّ منها هكتارٌ ونصف هكتارٍ، وخُصّ بكلّ قسمٍ واحدٌ من المستوطنين يتولّى استثماره، ويشيد عليه مسكنًا من الصفيح، له ولأسرته. وحثّ غاندي المستوطنين الهنود على استقدام زوجاتهم وأبنائهم كي يقيموا معهم، كما أهاب بأصدقائه الأوروبيّين أن يتزوّجوا، ويستقرّوا مع زوجاتهم في فينكس.

وكان نصيب غاندي هكتارٌ ونصف هكتارٍ، أسوةً بالآخرين، واستقدم أسرته، وكان يحلم بالتخلّي، شيئًا فشيئًا، عن مهنة المحاماة، لكي ينصرف إلى العمل اليدويّ، ولإنجاح تجربة "فينكس". غير أنّه ما لَبثَ أن تبيّن أن فُرَص إقامته في "فينكس" كانت ضئيلةً جدًّا، واتّضح له، مرّةً أُخرى، كيف تَعبَثُ العنايةُ الإلهية بمشاريعنا، وقد كتب في هذا السياق:

« "لقد أوضحت لي التجربة أنّ الإنسان غالبًا ما يُصمّم مشاريع يقلبها الله رأسًا على عَقِبٍ؛ ولكن طالما كان الهدفُ الأقصى هو نُشدان الحقيقة، فليس لانهيار المخطّطاتِ - مهما كان مداه - كبيرُ شأنٍ، ولا هو يلحِق بالمرء ضررًا أو إيلامًا، في نهاية المطاف، وغالبًا ما تؤول الأمور إلى أفضل ممّا كان يُرجى منها ».

لقد كانت واجبات غاندي المهنيّة والاجتماعيّة، والتزاماته بتغطية عجز صحيفة

"الرأي الهنديّ"، تفرِضُ عليه قضاء القسط الأَوفر من وقته في جوهانسبورغ، والعمل فيها، وبالتالي، الإقامة، ثمّةَ، مع أسرته. إلاّ أنّه قد حَرِصَ على أن يُطبّق، هناك أيضًا، قناعاته الجديدة في بساطةِ العيش والعَمَل اليدويّ، فاقتَصَرَ على الحدّ الأدنى من الأثاث، وعَمِلَ هو وأفراد أسرته والمقيمون معه، في منزله، على تأمين احتياجاتهم بأنفسهم، واجتزأوا من الاحتياجات بالأساسيّ الذي لا غنى عنه، فعكفوا، مثلاً، على طحن الدقيق بأيديهم، وعلى استخدام الدقيق الكامل الذي يحصلون عليه، لِصُنْع خبزٍ طبيعيٍّ، من غير خميرةٍ.

وعوَّد غاندي أبناءه على الاضطلاع بتنظيف المراحيض، وبكافّة المهامّ المنزليّة؛ وكان يصطحبهم، كلَّ يومٍ، سَيرًا على الأقدام، من المنزل إلى مكتبه، فيقطعون، يوميًّا، نحوًا من ثمانية كيلومتراتٍ، يفيدون منها مَنعةً بدنيّةً، ويزجونها في نقاشٍ يجهد غاندي، من خلاله، في توطيد أُسُس تربيتهم الخُلُقيّة، وترسيخ مبادئ الخَير والخدمة في صدورهم، وإكسابهم بعضًا من الثقافة الأدبيَّة التي كانوا يفتقرون إليها، والتي ظلّت مَوطن ضعفٍ لديهم، باعترافِ غاندي نفسه.

منعَطَف "البراهماشاريا"

يبدو أنَّ عدم الاستقرار كان قَدَر غاندي، كما هو حال كلّ من انتدب نفسه لتلبية نداء الخدمة. فما كاد يُخيَّل إليه أنّ حياته في جوهانسبورغ قد استقرّت، حتّى حملت إليه الأنباء ما سُمّي "تمرّد" قبيلة الزولو، في الناتال، على الحكم البريطانيّ، الذي كان غاندي مُؤمنًا بالتزامه حيالَه. فهَرِع إلى الكتابة إلى حاكم الناتال، عارضًا إسهامه بفرقةِ إسعافٍ صغيرةٍ، وقُبل عرضه، في الحال، فهجر بيته في جوهانسبورغ، وأرسل أسرته إلى مستَوطنة "فينكس"، وانطلق بفرقته إلى ساحة القتال.

مرّةً أُخرى، كانت عواطفه تشدّه إلى قبيلة الزولو، مثلما هي كانت، من قبلُ، قد شدّته إلى البوورز. وسُرعان ما اتّضح له أنَّ تسمية "التمرّد" كانت تنطوي على قَدرٍ كبيرٍ من المُغالاة والافتئات، إذ إنّ الكثيرين من أفراد قبيلة الزولو الأبرياء إنّما كانوا يتعرّضون للقَتل والتنكيل، ظُلمًا، ونتيجة قَمعٍ بريطانيٍّ عشوائيٍّ.

وقد بارك الله مبادرة غاندي بتشكيل فرقة إسعافٍ، إذ أُوكل إلى تلك الفرقة نَجدةُ المصابين من الزولو، الذين كان البيض يأبون العناية بهم، وإنْ هم عُنُوا، فَباشمئزازٍ؛ وقد هالَه أنّ الكثيرين ممّن دُعي إلى العناية بهم من الزولو لم يكونوا من المقاتلين، ولا ممّن أُصيبوا في ساحة الوغى، بل من المدنيّين المسالمين الذي ألقيَ عليهم القبض بهتانًا، ونُكّل بهم، وأوسعوا جلدًا. وقد فتحت تلك المُهمّة عينَيه على بشاعة الحروب، وأقنعته بأنّ تدابير الحكم البريطانيّ لا تتّسم دائمًا بأخلاقيّةٍ سليمةٍ.

وقد فسحت له تلك المُهمّة فرصةً للتأمّل السّاجي المتعمّق، في بعض ما كان يراوده من خواطر. وبمَا أنّه كان يَنطلق، في سلوكه، من مَنطقٍ صارمٍ، ومن صِدقٍ مطلَقٍ مع نفسه، فقد كان لا بُدّ له أن يتساءل، جادًّا، عن إمكانيّة التوفيق بين الاهتمام بالأسرة، وخدمة المجتمع؛ وكانت كفّة الخدمة العامّة هي الأكثر رُجحانًا، وكانت الخدمة هي خياره للمُقبل من أيّامه، بعدَ أن اتّضح له أنّه "**يستحيل العيش وفق الجسد، ووفق الروح معًا**". وفي قول آخر له، أوفر صراحةً، كان قد أَوضح: "**لقد تكوّنت لديّ القناعة بأنّ الإنجاب، وبالتالي، رعاية الأبناء، لا تتوافق مع مقتضيات الخدمة العامّة**".

ثمّ مضت تلك الفكرة، لَدَيه، تتبَلور شيئًا فشيئًا، وتتوضّح معالمها، وتفرِض نفسَها عليه بإلحاحٍ متزايدٍ، وترتدي، يومًا فيومًا، تألّقًا صوفيًّا. وقد وصف، هو نفسه، ذلك التطوُّر بقوله: "**لقد أشرقت، لديَّ، فجأةً، خاطرةٌ بيَّنت لي أنّني، إن كنتُ، حقًّا، راغبًا في تكريس نفسي لخدمة الجماعة، يتعيّن عليَّ انتباذ كلّ رغبةٍ في إنجاب البنين، أَو في الإثراء، وأن أمارس عيشةَ نسَّاكِ الغابات، عيشة المرء المتَحرّر من هموم العيلة**".

وكانت قناعاته لا تفسح له، من أجل بلوغ ذلك الهدف، سوى سبيلٍ واحدٍ، إلاّ وهو سبيل العفّة، أو "البراهماشاريا" وِفقًا للتّسمية الهندوسيّة؛ فهو كان يُناهض وسائل مَنع الحَمْل المصطنعة، ويرى في العلاقة الجنسيّة الخالية من الرَّغبة في الإنجاب عملاً بهيميّا بحتًا؛ ومن ثمّ، فقد وطّد العزم على ممارسة العفّة. وقد صادف، أوّل الأمر، عَنَتًا في الإخلاص لذلك القرار، وعانى من بعض الإخفاق. ولكن عندما اتَّضح له أنّ ذلك الفَشَل إنّما كان ناجمًا عن "خَوَر الإرادة، واهتزاز الثقة بالنفس، واختلال الإيمان بالنعمة الإلهيّة"، حينئذٍ ارتأى أن يَنذُر العِفّة أمام الله، فالنَّذر من

القداسة والجلال بحيثُ يَقِيه مخاطر الوَهَن والسُّقوط، ويقضي، فيه، على كلِّ رغبةٍ وبيلةٍ، و"**حيثُ تزول الرَّغبة، ينبُتُ، لا مَحالة، مِثل ثَمرةٍ طبيعيّةٍ، نَذر التجرّد**".

وبلغ غاندي قِمّته التجرّد، عقبَ سنواتٍ من مصارعة أهواء النفس، وأقدم على نذر "البراهماشاريا"، نَذرًا نهائيًّا، عام ١٩٠٦، وهو، آنذاك، في السابعة والثلاثين من العمر. لقد كان مدركًا لما ينطوي عليه نَذره من غرابةٍ وتحدٍّ، ولكنّه، على حدّ قوله: "**أَلقيتُ نفسي في اليمّ، مؤمنًا بالله، وبقُدرته على مؤازرتي**". وعندما دَوّن، فيمَا بعدُ، مذكّراته، كان عَقدان من الزمن قد انصرما مُذ هو نَذَر "البراهماشاريا"، فكتب:

"**عندما أَعود بفكري إلى تلك السنواتِ العشرين من الالتزام الوفيّ بنَذري، يُفعمني الفرح والدَّهشة. لقد شرَعتُ، منذ عام ١٩٠١، أَجهد في بسطِ سيطرتي على ذاتي، بين مزيجٍ من إِفلاحٍ وإخفاقٍ، ولكنّني ما عرفتُ قطُّ، قبل ١٩٠٦، مثل الحريّة والفرح اللَّذين بتُّ أشعر بهما، في أعقاب نذري. حتّى آنذاك، كانت الغواية تنذر بأنّها هي الأقوى؛ ولَكن، بعد ذلك، غدا النَّذرُ درعًا أَمينةً في مواجهة الغواية**". ثمّ يضيف غاندي: "**إنّ كلّ يومٍ كنتُ أَلتزم فيه بنذري كان يزِيدني يقينًا بأنّ البراهماشاريا تنطوي على وقايةٍ للجسد، والعقل والنفس. وهي لم تَعُد ضربًا من درب الصليب، بل غدت مَنبع عزاءٍ وفَرَحٍ. وكان كلُّ يومٍ يكشف لي منها النِّقاب عن وجهٍ قشيبٍ رائعٍ**".

ولم يكنِ الالتزام بذلك النَّذر بالأمر اليسير، بل هو كان، على حدّ تعبير غاندي، أشبه بالسير على حدّ السَّيف، ويقتضي يقظةً مستمرّةً؛ فالبراهماشاريا ليست كبحًا لأهواء الجسَد وميوله فحسبُ، – ومثل هذا الكبح، في ذاته، أمرٌ عسير – بل هي، فوقَ ذلك، سيطرةٌ على الذِّهن حيث يكمُن مركز كلّ شهوةٍ. وهي تتخطّى انتباذ العلاقات الجنسيّة إلى القضاء على البغض، والغضب، والكَذِب، والعُنف، وإلى إحكام السَّطوة على حاسّة الذَّوق، إذ إنّ هذه الحاسّة ملازمةٌ لشتّى المُتع الحسيّة والأهواء.

وراح غاندي يخوض شتّى التجارب الكفيلة بمساعدته على الوفاء لنذر البراهماشاريا، وإذ تبيّن له أنّ لنوع الطعام يدًا كُبرى في استثارة الغرائز أو إهمادها، نفى من غذائه كلَّ أصناف التَّوابل، واقتصر على الضئيل الضروريّ من الطّعام الطبيعيّ، المُغرِق في البساطة، والقادر على القيام بأوَد الجسد البهيميّ، وفي آنٍ معًا،

على الارتقاء بالنفس إلى ما فوق البهيمة، وبعد إذ كانت أبحاثه الغذائيّة، في السَّابق، تستهدف سلامة الجسد، غدت دينيّة الدَّافع، تتوخّى التسامي نحو الله.

وعلى منوال والدته، طفق يُكثِرُ من الأَصوام، وقد اتَّضح له أنَّ للصوم طاقةً جُلّى على كَبح الأهواء والغرائز، على أن يتركَّز الصَّوم على عفّة الفكر وتساميه، أكثر منه على حِرمان الجسد من الطَّعام. فالصَّوم الجسديّ لا يجدي فتيلاً، إنْ ظلّ الفكر هائمًا في تَخيّل مُتع الطعام وسواها.

وبالإجمال، تبيّن لغاندي أنّ التزامَ البراهماشاريا يقتضي تحوُّلاً جذريًّا في العقليّة والمسلك، إذ إنّ بين من ينهج البراهماشاريا، ومن يُعرِض عنها، عالَمًا من الفوارق الواضحة المحقّقة، فعلى حدّ قوله: "**كلاهما يَستخدم عينيه، ولكن، في حين يستخدمها البراهماشاري (منتحل البراهماشاريا) لتَبيُّنِ مجد الله، لا يتطلّع سواه إلاّ إلى أباطيل العالم المحيقة به. وكلاهما يستخدم سمعَه، ولكن، في حين لا يصغي أحدهما إلاّ إلى تمجيد الله، يُشنّف الآخر أذُنيه بالتُّرّهات الفاجرة وكلاهما يتمادى في السهر، غير أنّ أحدهما ينفق سهره على الصلاة، في حين يبدّده الآخر على مزيجٍ مُريبٍ من ابتهاجٍ أحمق. كلاهما يُغذّي الإنسانَ الداخليّ، ولكن، فيمَا يتوخّى أحدهما، من وراء ذلك، صَون هيكل الله، يبتغي الآخر التخمة، وتحويل الإناء المقدّس إلى مستنقعٍ أَسِنٍ**".

وكان يترسّخ لدى غاندي اليقينُ بأنَّ آفاق البراهماشاريا، مثل طاقات التجرّد، غير محدودةٍ، فهي محيطٌ لا شُطآن له، وهدفٌ أقصى يستلزم جُهدًا أَقصى. وممارسها لا يني يتبيّن مدى إخفاقه، ويترصّد، أَبدًا، أهواءً خبيثةً كامنةً في حنايا نفسه، يتعيّن عليه مصارعتها بلا هوادَةٍ، بحيث يبدو الوفاءُ للبراهماشاريا، أَحيانًا، مستحيلاً، لولا الإيمَان بعَون الله الثَّاوي في أعماق الكيان البشريّ. وقد اعترف هو نفسه بأنّه، "**في مَعزِلٍ عن الاستسلام التامّ لعمل النعمة الإلهية، كلُّ سيطرةٍ على الفكر مستحيلةٌ**".

وقد قادته تأمّلاته في "البراهماشاريا" إلى القناعة الأُخرى التي غدت محرِّكه، ومحورَ نضاله، وجوهر حياته، إلاّ وهي "الساتياغراها" أي الالتزام الصُّلبُ بالحقيقة والدّفاع عنها في عزيمةٍ لا تلين، ولكن في منأى عن كلّ عنفٍ.

وسُرعان ما تجلّى التحوّلُ الجوهريّ في مسيرة غاندي، الذي كان قد جاء أفريقيا الجنوبيّة التماسًا للرِّزق، وفرارًا من الفشل والدسائس، فأصاب النجاح والمال والنفوذَ معًا، غير أنّ حركةً روحيّةً داخليّةً كمينةً قد صرفته عنها جميعًا، وقادته، في تُؤدةٍ وإصرارٍ، إلى نُشدان الله والحقيقة، عن طريق الانقطاع للخدمة المجانيّة، وقد أَفضت به، في نهاية المطاف، إلى جعله سياسيًّا قدّيسًا، منقطعَ النظير.

اختبار "الساتياغراها"

ما كاد غاندي يعودُ من مُهمّته الإنسانيّة في حرب الزولو، ويُحيط زوجتَه عِلمًا بنَذره البراهماشاريا، حتّى اضطُرّ إلى تلبية دعوة الجالية الهنديّة المُلتَئِمة في المسرح الأمبراطوريِّ في جوهانسبورغ، بتاريخ ١٩٠٦/٩/١١ لمناقشة مشروع قانونٍ استعماريٍّ جديدٍ، يحمل في طيّاته نُذُر القضاء على الوجود الهنديّ في أفريقيا الجنوبيّة. فقد كان ذلك القانون يفرِضُ على جميع الهنود المقيمين في الترانسفال، من رجالٍ، ونساءٍ، وأَحداثٍ، الحصولَ، من دوائر الأَمن، على بطاقات هويّةٍ وإقامة، بعد تسجيل بَصَمات أصابعهم العشر؛ وكان القانون يُخوّل رجال الأَمن توقيف كلّ هنديٍّ لا يحمل بطاقةً كهذه، وسَجنه وطردَه، واقتحام منازل الهنود للتأكُّد من امتلاك أصحابها البطاقات المطلوبة، حتّى ولو لم يكن في تلك المنازل سوى النساء.

لقد كانت نيَّةُ الإذلال المبيَّتة في ذلك القانون جليّةً؛ فمن قبلُ، كان البَصم بالإبهام يُطلَب فقط من الأمّيّين العاجزين عن التوقيع، في حين أنّ البَصم بالأصابع العشر كان مقصورًا على المُجرمين. وفي جميع الأحوال كانت تُراعى حرمة النِّساء.

وفي جوٍّ محمومٍ، أعلن الهنود المُلتئمون في المسرح الأمبراطوريّ رفضَهم لتلك التدابير الزجريّة الرامية الى تصفية وجودهم تدريجيًّا، في الترانسفال، وأقسموا على عصيان القانون، في حال إقراره.

وهكذا وُلدت فكرة العصيان المدني، التي حَرِص غاندي، منذ البداية، على إضفاء مضامينَ أخلاقيّةٍ وروحيّةٍ عليها. وعلى هذا النحو، تبلورَت: لديه، حركة "الساتياغراها"، وهي تعبيرٌ مصوغٌ من دغم لفظتَي "ساتيا" التي تعني الحقيقة، وتعني، أيضًا، الحبّ،

و"أغراها" التي تعني القوّة والصلابة، بحيثُ تعبِّر كلمة "ساتيا غراهـا"، عـن مناعـة الحقيقة، والصَّلابة في الذَّوْد عنها، في جوٍّ مشبعٍ بالحبّ. لقد كان غاندي حريصًا علـى تجريد القوّة من كلِّ دلائل العُنف البهيميّ، وإبراز طاقات الشّرارة الإلهيّة التي تنطـوي عليها القوّة الحقّة الجديرة بالإنسان. ومن ثَمَّ، فإنّ سلاح الـساتياغراهي (مـن يمـارس الساتياغراها) يثوي في نفسه، في سيطرته على ذاته، وفي استعداده للتألّم والتضحية من أَجل إصلاح أخطاء الآخرين، ولافتدائهم. وإذن، فالدِّفاعُ عن الحقيقـة لا يـتمّ لإيـلام الخصم، بل يفرض الأَلم على الذات بحيث ينثني الخصمُ عن الخطأ، بفـضل الـصَّبر والأناة والعطف؛ ينثني من غير أن يُسحَقَ، ويتحوَّل طَوعًا من غير أن يُقـضى عليـه. وبالتالي فالساتياغراها حركةٌ سلميّةٌ نابعةٌ من الحبّ، تنبذ كلَّ صنوف العنف، وتهدف إلى إشاعة نور القلب والضمير، وتناهض سنّة "العين بالعين" التي تُفضي في نهاية المطاف، إلى نشر العمى لدى الأطراف كلّها، وتسمّم أنفسهم بالأحقاد والضغائن المدمِّرة للذّات.

وهكذا تُطهّر الساتياغراها النفسَ، وترسّخ روح التضحية والإيثار، وتسبغ علـى أتباعها قوّةً أدبيَّةً لا تقهر. إنّها، على حدّ تعبير غاندي، "**قطعة نقدٍ يحمل أحد وجهيها شعار الحبّ، والوجه الآخر شعار الحق**".

لقد دعا غاندي مواطنيه في الترانسـڤـال إلى رفض الرضوخ للقوانين المذلّة، وإلى التأهّب للدفاع عن كرامتهم وحقوقهم بثباتٍ لا يلين، ولكن من غير اللُّجوء إلـى أيٍّ من أساليب العُنف، حتّى ترعوي السُّلطات المستعمرة عن موقفها.

غير أنَّ غاندي الذي كان أَبدًا يؤثر التسويات السلميّة، ويتحاشى عن المصادمات المُوجعة، قد رأى معالجة الأمر بدءًا من لندن، إذ كان التاجُ البريطانيُّ ما انفكّ هـو صاحب الكلمة الأخيرة في شؤون الترانسـڤـال، ومن ثَمّ يملك رفض أو إقرار مـا تعرضه حكومته المحلّية من قراراتٍ. فشخص إلى لندن برفقة تاجرٍ هنـديٍّ مُـسلمٍ، وكانت تلك هي زيارته الأولى للعاصمة البريطانيّة، بعد إنهائه دروسه فيها، وبصفته مُمثّلاً عن الهنود. وقد تسنّى له أن يشرح قضيّته في مجلس العموم؛ وسحابة الأسابيع الستّة التي سلخها في لندن، لقيَ لدى عددٍ غفيرٍ من الإنكليز، عَونًا، وصداقةً، ورحابة صدرٍ، وفي نهاية المطاف ظفر، من وزير المستعمرات، بوَعد الحكومة البريطانيّـة

بألاّ تُصادق على أيّ قرارٍ تقترحه سُلطات الترانسڤال، من شأنه النَّيلُ من كرامة الهنود. وخُيِّل إلى غاندي أنّه أحرز نَصرًا مؤزَّرًا، وقد فاته التواءُ الأساليب البريطانيّة، وخِدَعها. فوزير المستعمرات، عندما أعطى وعده، لم يكن ليغرُب عن باله أنَّ سُلطات الترانسڤال ستظفر، منذ مطلع عام ١٩٥٧، باستقلالها، بحيث يغدو الوعدُ البريطانيّ صِفرًا من أيِّ التزامٍ.

وبالفعل أَصدرت سُلطات الترانسڤال، في ٣١ تموز ١٩٠٧، القانون إيّاه، من غير حاجةٍ إلى موافقة حكومة لندن؛ وقد أَطلق الهنودُ على ذلك القانون اسم "القانون الأسود" لأنّه، من جرَّاء دوافعه الأدبيّة المنحطّة، ملطَّخٌ بالقتام، ولأنّه كان يستهدف إذلال الملوَّنين؛ وجديرٌ بالذكر أنَّ غاندي الذي كان أسمر داكنًا، غالبًا ما كان يَعُدّ نفسه من السُّود.

وبانت الفرصة سانحةً لممارسة الساتياغراها. وقد أكّد غاندي لمواطنيه: "**حتّى السياسة الملتوية، ستستقيم إن نحن أَخلَصنا لأنفسنا**". وعليه، رفض كثيرون من الهنود الإذعان للقانون المُجحِف، وهم مُدرِكون لما يعرّضون له أنفسهم، ولا سيَّمَا أَنّ رئيس الحكومة كان قد وصف القرار بأنّه نهائيٌّ، وضرورةٌ لازمةٌ، وأكّد عزمه على تنفيذه بحزمٍ.

واقتيد إلى المحاكمة عددٌ ممّن رفضوا الخضوع، وفي طليعتهم غاندي، الذي مثُلَ إلى قاعة المحكمة بصفته متَّهمًا، بعد أن كان يختلف إليها بصفته محاميًا، وقد أعلن، في ثباتٍ، أمام رئيس المحكمة، أنّه، لكونه زعيمَ المخالفين، يستأهِل العقابَ الأقصى. وكان ردُّ القاضي الحكم عليه بسَجنه شهرين "من غير أشغال".

ومُذَّاك، غدت السجون من الأماكن التي يختلف إليها غاندي بتواتُرٍ، ولا يضيق بها ذرعًا، بل إنَّه كان يُفيد من ذلك الأَسرِ القسريّ، لكي يُعمّق تأمُّلاته الدينيّة، فيطالع الباغاڤادجيتا في الصباح، وترجمةً انكليزيّةً للقرآن عند الظهر، ويُلقّن اللغة الإنكليزيّة لأحد رفاق سجنه، وهو صينيٌّ مسيحيٌّ، بقراءة الكتاب المقدَّس معه. كما كان يُمعِن في تأمّل بعض المؤلَّفات الأثيرة لديه، لسقراط، وراسكين، وتولستوي، وقد اتَّضح له "**أنّ كلّ من تذوَّق المطالعة، هانَ عليه تحمُّلُ الوحدة في أَيِّ مكانٍ**". وأثناء

سجنه الأوّل هذا، عَكَف غاندي على ترجمة أحد كتب كارليل، وكتاب راسكين "إلى هذا المنتهى" إلى اللَّهجة الكوجاراتيّة.

غير أنّ تلك الإجازة كانت قصيرة الأَمَد، إذ ما لبث أن زار غاندي، في سِجنه، رئيسُ تحرير إحدى صحف الترانسفال، موفدًا من السُّلطات، وعارضًا إلغاء "القانون الأسود"، مقابل إقبال الهنود على تسجيل أنفسهم طوعًا، من غير إكراهٍ. وراق العرض لغاندي الذي رأى فيه تسويةً تمكّن السُّلطات من تثبيت قرارٍ كانت، في جميع الأحوال، متشبّثةً به، وتُعيد إلى الهنود الكرامةَ التي كانوا عليها حريصين. واقتيد غاندي، وهو في زيّ السِّجن، إلى مكتب الحاكم العسكريّ في بريتوريا، حيث تحادث الرجلان طويلاً. وأخيرًا وَعَد الحاكمُ العسكريّ بإلغاء "القانون الأسود" بَعدَ أن يُقبِل عددٌ كبيرٌ من الهنود على تسجيل أنفسهم طوعًا، وفي نهاية اللّقاء، أَبلغَ غاندي بأنّه طليقٌ، ولكنَّ غاندي أبى إلاّ أن يطلَقَ سراح جميع رفاق سجنه معه، فتمّ له ما أراد.

وبات على غاندي أن يخوض تجربة "ساتياغراها" أُخرى أشدّ قسوةً، يواجه فيها المعارضين والمتشدّدين من بني قومه، الذين أخذوا عليه ثقتَه بوعود الحاكم العسكريّ الذي كانوا يخشَون نقضَه لعهده. إلاّ أنَّ غاندي ردّ بأنَّه يتحتّم على الساتياغراهي إلاّ يخشى الثقة بخصمه. ولئن خدعه الخصم عشرين مرّةً، فعليه أن يُوليه ثقته للنوبة الحادية والعشرين، فالثقة هي جوهر الإيمان.

ولكنَّ الأمر تعدّى حيّز النقاش والنظريّات. ففي اجتماعٍ للجالية الهنديّة، حاول فيه غاندي بَسط موقفه، هبَّ هنديٌّ جبليٌّ، من قبيلة الباتان، جسيم القامة، عريض المنكبَين، متَّهمًا غاندي بخيانة الجالية الهنديّة، وببيعها لسُلُطات بريتوريا، لقاءَ رشوةٍ قَدرُها خمسة عشر ألف جنيهٍ. ثمّ هدّد – مُدعِّمًا تهديده بقَسَمٍ – بقتل كلّ من يقدم على تسجيل نفسِه وبَصماته.

الأنقياء لا يخشَون وعيدًا أو افتراءً. وهكذا كان غاندي. وإنّما كان عليه أن يختَبِرَ بنفسِه ما يُكال للرِّجال المستقيمين الذين يتبعون وحي وجدانهم، ولا يهتمّون لدغدغة أهواء الجماهير، من أضرى صنوف الافتئات؛ وقد أعلن، في هدوءٍ، أنّه سيكون أوّل من سيسجّل بصماته، وأضاف:

"الموت هو النهاية المحتومة لحياتنا. والموت بيد واحدٍ من إخواني، عوضًا عن الموت نتيجة سُقمٍ، أو بعلّةٍ أُخرى، لا يُمكن أن يكون لي مدعاة حُزنٍ. ولئن أنا واجهتُ مثلَ هذه المنيّة، متحرّرًا من كلّ غضَبٍ وحقدٍ حيال المعتدي، فإنّني لواثقٌ بأنّ ذلك سيُسهم في سعادتي الأبديّة، ولن يلبث قاتلي أن يتبيّن براءتي المُطلَقَة".

هل كان غاندي يتنبّأ بمصرعه، بعد أربعين عامًا!

في الحادي عشر من شباط ١٩٠٨، وهو الموعد المضروب لتسجيل غاندي، تَجمهَر عند باب مكتبه، شرذمةٌ من أفراد قبيلة الباتان، وقد اكفهرّت وجوههُم بنوايا العدوان. وعندما انطلق إلى مكتب التسجيل لحقوا به، وقبل أن يَلجه، انهال أحدُهم بضربةٍ صاعقةٍ على رأسه، هوى على إثرها فاقدَ الوعي، وهو يتمتم "**هي، راما! يا إلهي**"، على نحو ما سيفعل، يومَ مصرعه، عام ١٩٤٨.

وهرع أصدقاءُ غاندي فأَسعفوه، وقبَضَت الشُّرطة على المُعتدين، ولكن ما إن استعادَ غاندي وَعيَهُ حتّى التَمَسَ الإفراج عنهم، بحجّة أنّهم إنّما قد تصرّفوا عن حُسن نيّةٍ؛ ثمّ استدعى، في الحال، موظّف السجلِّ المدني، لتسجيل بصماته. وحذا حذوه بضعةُ آلافٍ من مواطنيه، الذين أقدموا على التسجيل، طَوعًا.

غير أنّ اختبارًا قاسيًا آخر كان في انتظاره، عندما تنكّر حاكم الترانسفال العسكريّ لوعده، وقرّر تصديق شهادات التسجيل الطَّوعيّة فحسب، وتطبيق "القانون الأسود" بحقّ كلِّ من أحجم عن التسجيل. فانصبَّت على رأس غاندي حِممُ الشماتة والتجريح؛ غير أنَّه، هو، قد بيّن لمعارضيه أنّ من حسنات الساتياغراها، الكَشفَ عن النوايا المبيّتة، وإجلاء المواقف، وفرز المُحقِّ عن المخطئ.

وتعيّن على غاندي مواجهةُ الموقف الجديد، ولا سيّمَا بعد أن بلغ توتُّرُ الهنود ذُروتَه، في أعقاب اجتماعٍ حاشد، انعقد في السادس عشر من آب ١٩٠٨، في مسجد الحميديّة في جوهانسبورغ، حيثُ لُمّ من الحضور نحو ألفَي شهادة تسجيلٍ، أُحرقَت جميعُها، وسط صيحات الحماس، والتأَهُّب للنضال.

وتحوَّل مكتب غاندي في جوهانسبورغ، على صِغَره وضيقه، إلى مقرّ قيادةٍ. وكان ذلك المكتب يتألّف من غرفتَين ضيّقتَين، مؤثّثتَين أثاثًا مُغرقًا في البساطة، وازدانت

جدرانهما بصور بعض الزعماء الهنود، وصور لغاندي برفقة فريق الإسعاف، الذي كان قد تَرَأَّسهُ، وبلوحة تُمثِّل السيّد المسيح. إلاّ أنّ حِرصَ غاندي على التفكير الهادئ، في مَعزِلٍ عن ضُغوط الأَهواءِ كان غالبًا ما يدفعه للانتقال إلى مُستَوطنة "فينكس" حيثُ يعيش حياةَ الزاهد المتنسّك المتأمّل، وكان يُردّد: "**على الساتياغراهي أن يكون، ما أمكن، أكثر تركيزًا على هدفٍ واحدٍ من الراقص على الحبال**".

وقد ألهمته تأمُّلاتُه رفضَ مقترحاتٍ كانت تدعوه إلى إثارة جميع المظالم التي يتعرّض لها الهنودُ في أفريقيا الجنوبيّة، دفعةً واحدةً، وآثر الاقتصار، في تلك المرحلة، على حلِّ قضيّة إقامة الهنود في الترانسفال، ودعاهم إلى الانضمام إليه في اجتياز حدود الترانسفال، وهم غيرُ مزوَّدين بشهادات تسجيلٍ، فأُلقيَ القبضُ على عددٍ منهم، وحُكم عليهم بالسَّجن مدّةَ ثلاثة أشهرٍ، وكان غاندي نفسُه واحدًا من الذين صدر بحقّهم مثلُ هذا الحكم؛ فولَج السجن، نَوبَةً ثانيةً.

واختار غاندي أن يكون طاهيًا لنحو خمسةٍ وسبعين من رفاق سجنه، كما تطوَّع لتنظيف مراحيض السّجن، وقد تبيّن له أنّ "**نفس السجين طليقةٌ، وأنّ السبيل إلى السّعادة الحقّ هو المُضيُّ إلى السجن، وارتضاءُ الآلام والحرمان، لمصلحة الوطن والدِّين**".

وجديرٌ بالتَّنويه أنّه، أثناءَ فترة سجنه، بين تشرين الأوّل وكانون الأوّل ١٩٠٨، ثمَّ بين شباط وأيّار ١٩٠٩، عومل غاندي معاملة المجرمين، وفُرِضت عليه الأشغال الشاقّة، واقتسم زنزانته مع السُّود، وغالبًا ما شوهد، في شوارع جوهانسبورغ، يُساق مع المجرمين إلى ورشات العمل القسريّ.

تلك المهانةُ التي كانت تتغلغل إلى أغوار كيانه، قد أتاحت له اختبار الساتياغراها، في جسده وروحه. غير أنّه قد عرف، بفضلها، ساعاتٍ من الإرهاق المتناهي، حيث يجنح الفكر إلى الشكّ والارتياب؛ وإذ ذاك، كان يتساءل إن هو كان مُصيبًا في جرِّه جماعات البُسطاء الذين أولوه ثقتهم إلى مثل ذلك المصير البائس. بيد أنّ فترات الوَهَن والحيرة هذه كانت عابرةً، وكان ظهورُه عليها يُفرِغ على إرادة النّضال لديه مزيدًا من صلابةٍ وعزيمةٍ، ولا سيّمَا بعد أن يتملّى، مجدّدًا، من مطالعة الكتب المقدّسة، ومؤلّفات تولستوي، وراسكين، وبعد أن يستلهم مُثل يسوع وسقراط.

ومن سُخرية الأقدار أنّ غاندي قد عَثرَ، في مكتبة السّجن، على كتاب "واجب العصيان المدني"، للكاتب الأميركيّ "ثورو"، الذي كان، هو نفسُه، قد أودع السِّجنَ، في أعقاب رفضه أداء الضرائب، احتجاجًا على القوانين التي كانت تُكرِّس العبوديّة. وقد رسّخ "ثورو" لديه اليقين بأنّه كان يسير على الدرب القويم.

دروس السجن

لم يكُن غاندي يتوانى عن اقتناص كلّ سانحةٍ تتيح له إضافة خِبرةٍ جديدةٍ إلى خبراته، وإحكام سيطرته على نفسه. وقد اكتشف في السِّجن، أنّ بعضًا من التدابير المفروضة على السجناء خليقةٌ بأن يتبنّاها طَوعًا كلُّ براهماشاري، وكلُّ من توخّى ممارسة السيطرة على ذاته. ومن تلك التدابير، الفراغ من وجبة العشاء، قبلَ غروب الشمس، والعزوفُ عن تناول القهوة والشاي، واستبعاد الملح من الطَّهو والطَّعام، وكذلك جميع صُنُوف التوابل؛ وفي أعقاب خروجه من السِّجن، ظلَّ حريصًا على سُلوك ذلك النَّهج، بعد أن استقرَّ في خَلَده اليقينُ بأنّ في تلك التدابير سلامةً للجسم، ومِنعةً للنفس، وسَندًا للبراهماشاريا.

وفي وقتٍ لاحقٍ، حرَّضَ زوجته المعتَلّة على استبعاد الملح والبقوليّات من غذائها، بعد أن قرأ أنّ في البقوليّات ضررًا للضعيفي البنية؛ وعندما لحظَ تردُّدَها، ولكي يحملها على الأخذ بنصيحته، نَذَر إلاّ يتناول بقوليّات طوالَ عامٍ كاملٍ، رغم شَغَفه بها، فكان ذلك النّذر امتحانًا لإرادته، وسندًا أدبيًّا لزوجته، ساعدها على الأخذ بمَا رأى فيه خيرًا لصحّتها. وقد أفاد، هو، من تلك التضحية مِنعةً لصحَّته، وصلابةً لعزيمته. وطوال العام، لم يخطر له النكوص عن نَذره، وفي نهايته اتَّضح له أنّه غدا أشدَّ سيطرةً على ذاته. وقد استمرّ، من بَعدُ، يتجنّب البُقوليّات والمِلح طوال حياته؛ ثمّ، في فترةٍ لاحقة، أعرض عن تناول الحليب، لقناعته باحتوائه على عناصر مهيّجةٍ. وشيئًا فشيئًا أخذ يقصر غذاءه على أكثر الفواكه شعبيّةً ورخْصَ ثمنٍ.

ومضى غاندي تَوغُّلاً في ضَبط حاسّة الذوق لديه، وفي ممارسة الأصوام التي غدت تحتلُّ مكانةً خطيرة الشأن في فلسفته واستراتجيّته، سواءً في ميدان الكمال الروحيّ، أو في

مجالَي التربية والسياسة، وبات يلقى مُتعةً كُبرى في مشاركة المُسلمين صيامَهم، في شهر رمضان، ويُهيب بأصدقائه الهندوسيّين والمسيحيّين والفارسيّين أن يحذوا حَذوَه.

زعامةٌ صعبةٌ

دَربُ الزَّعامة الذي انتهجَه غاندي كان وَعرًا، فغاندي كان يقتضي من أتباعه التضحيةَ بلا حسابٍ ولا حدودٍ، ولا يُلوِّح لهم بغير الكرامة والحقّ لإغرائهم بالانضمام إلى حركته. ولكنّ قُوّتَه كانت كامنةً في تأهُّبه للتضحية قبل الجميع، وأكثر من الجميع، وفي مشاطرته، بصِدقٍ وقلبٍ مُشرَعٍ، همومَ إخوانه وشدائدَهم، وفي إيمَانه الصلْب بالنصر، مهما تراكمت دونه العقَبات، وانتشرت على جوانبه أشلاء الفشل.

كان، في الترانسفال، آنذاك، نحو ثلاثة عشر ألف هنديٍّ، أُودع نحو ألفَين وخمس مئةٍ منهم غياهبَ السُّجون، في حين اضطرّ زهاء ستّة آلافٍ آخرين إلى الالتجاء لمقاطعاتٍ أُخرى مجاورةٍ من أفريقيا الجنوبيّة، وتعرّض الباقون للطَّرد وانتزاع مُلكيّتهم، إن هم لم ينصاعوا للقوانين الجائرة التي تمتهن كرامتهم. وكان على غاندي أن يقود هؤلاء جميعهم، وِفق مبادئ الساتياغراها، مبادئ الحبّ، والتضحية، واللاعنف، وقد أَفلح إلى حدٍّ كبيرٍ.

غير أنّ خَطرًا أدهى كان يُهدّد الوجود الهنديّ في القارّة الأفريقيّة، متمثّلاً في مشروع الاتّحاد الفيدراليّ بين مختلف مقاطعات جنوب أفريقيا، ما كان يُخشى، معه، أن يتبنّى الاتّحادُ مقرَّراتِ الترانسفال المُناوئة للهنود.

اتّقاءً لهذا الخَطَر الدّاهم هرع غاندي إلى لندن، حيث كان قد سبقه الجنرالان بوتا وسموتس، بَطَلا اضطهاد الهنود في الترانسفال؛ وقد لمس، ثمّةَ، قلقَ السُّلطات البريطانيّة، من جرّاء صيحات الاستنكار المتصاعدة سواء من أفريقيا الجنوبيّة، أو من الهند ذاتها، حيالَ التدابير التعسُّفيّة التي يُسامُها الهنود، في منطقةٍ ليس البيضُ فيها سوى أقلّيّةٍ ضئيلةٍ، ولكنّها أقلّيّةٌ مستبدّةٌ. وقد أفضت ضغوط وزارة المستعمرات على الجنرال سموتس إلى تنازلاتٍ جزئيّةٍ، رفضها غاندي الذي كان يُطالب بتحوّلٍ جذريٍّ في الموقف يُؤدّي إلى إزالة "دمغة النقص" أو "العاهة العرقيّة

المُضمرة"، وإلى مساواة الهنود بسواهم فيمَا يتعلّق بحقّ الهجرة؛ وبالتّالي فقد وطّد العزم على استئناف حركة العصيان المدنيّ.

بيد أنّ سفر غاندي إلى إنكلترا، قد أسهم في إضفاء أهمّيةٍ بالغةٍ على قَضيَّةِ الوُجود الهنديّ في أفريقيا الجنوبيّة، وفي تأمين نجاحها، في نهاية المطاف. كما أنّ وجودَه في إنكلترا أتاح له الاتّصال بهنودٍ يقيمون فيها، ويمثّلونَ اتِّجاهاتٍ شتّى، متباينةً حتّى التناقُض. ومن خلال جلسات نقاشه معهم، التي كانت تستغرقُ ليالي كاملةً، أحيانًا، تبلوَرَت آراؤه وخطَطُه السياسيّة المستقبليّة، والتَمعت، في ذهنه، فكرة استقلال الهند، التي وقف على تحقيقها ما تبقّى من حياته، مراعيًا مبادئ الساتياغراها واللاعنف، التي باتت لديه ثوابتَ مقدَّسةً.

مزرعة تولستوي

إثر عودته من إنكلترا، كان غاندي يتوقَّع، بوُضوحٍ، ما ينتظر مناضِليه من سَجنٍ وتشريدٍ، وعَنَتٍ، إن هم واكبوه على دَرب العصيان المدنيّ. فكان لا معدى له عن تأمين أوَد أُسَرِهم، والعناية بها. ولكي يَتمَّ ذلك، في عدلٍ، ارتأى أن تتجمّع أسَر المناضلين في منطقةٍ ريفيّةٍ، يعمل فيها الجميع، وينالون بالتّساوي نصيبَهم من كلّ ما يتوفّر للجماعة. وقد جال بخاطره، أوّل الأمر، أن يجعل من مستوطنة "فينكس" مقرًّا لتلك الجماعة، بَيدَ أنّ "فينكس" كانت بعيدةً عن جوهانسبورغ، وعن ساحة النضال، إذ إنّ بلوغها يقتضي أربع ساعات سفرٍ بالقطار. وقد أوتيت تلك القضيّة حلاً ملائمًا، بفضل تدخُّل "هيرمان كالينباخ"، وهو مهندسٌ ألمانيٌّ يهوديٌّ، واسعُ الثّراء، كان قد التقى غاندي، لسنواتٍ خلَت، فسُحِر بشخصيّته، وسرعان ما هجر حياته المُترَفة، ليُقاسم غاندي حياة الشَّظَف والتجرُّد، والنِّضال من أجل الحقّ، وفقَ جميع مبادئ الساتياغراها واللاعنف.

"هيرمان كالينباخ" هذا بادرَ إلى ابتياع قطعة أرضٍ رحبةٍ، على بُعد واحدٍ وعشرين ميلاً من جوهانسبورغ، ثمّ وَهَبها، في الثلاثين من أيّار ١٩١٠، لأتباع غاندي، وأنصار الساتياغراها. وقد أطلق غاندي، عليها، اسم "مزرعة تولستوي" تَيَمّنًا بالكاتب الروسيّ الكبير، الذي كانت بعضُ كتاباته، ولا سيَّمَا مؤلَّفهُ "ملكوت الله

في داخلكم"، قد حفرت أبلغ أثَرٍ في نفس غاندي، وطبعت، في الأعماق، مسيرته السياسيّة والدينيّة. وجديرٌ بالذكر أنّ الرجلين قد تبادلا الرسائل بين أواخر عامَي ١٩٠٩ و١٩١٠، وكانت رسائل غاندي إلى تولستوي ثلاثًا، استشاره، فيها، حَولَ أسلوب نضاله السياسيّ، واستمدّ مؤازرة نفوذه، لدعم مبادئ اللاعنف، ومناصرة استقلال الهند. وردّ تولستوي، مؤكّدًا إعجابه وتأييده، برسائلَ ثلاثٍ أيضًا، وَصَلت الأخيرة منها، ثلاثة أيّامٍ بعد وفاته.

كان تولستوي قد دنا من أَجَلِه، وأَرهقت السنون والتجاربُ كاهلَه، فأمسى متشائمًا تُفعم نفسَه المرارةُ، وهو يشهد البشريّة تَغرق في مستنقعات التعاسة، لتنكّبها عن تعاليم الإنجيل، أو لتنكّرها لها. وكان غاندي يُشاطر تولستوي تحليلَه لأسباب ضلال اَلْبَشَرِيَّة، ويرى، نظيرَه، في تنكّب الحضارة الغربيّة عن شِرعة الإنجيل منشأَ البُؤس البشريّ. غير أنّه كان مُؤمنًا بقُدرته على إصلاح نفسه، وإصلاح الآخرين، وعازمًا على وقف حياته على تحقيق ذلك الإصلاح، ومستمدًّا من هذا الإيمان، وتلك العزيمة، سعادتَه.

كانت مزرعة تولستوي مُغطّاةً بأكثر من ألف شجرةٍ مثمرةٍ، وتحتوي بئرين، ونبع ماءٍ، وبيتًا، وقد أُنشئت عليها بيوتٌ عديدةٌ من الصَّفيح المتموّج. وقد استقرّ فيها كلٌّ من غاندي وكالينباخ، بصُحبة أسَر المناضلين، أنصار الساتياغراها.

وفي تلك المزرعة، تولّى غاندي، بنفسه، إعداد الخبز الفطير، ومربّيات الفواكه، وبعض الحلوى، والمشروبات الطبيعيّة، ممّا كان يستمدّه من ثمار المزرعة. أمّا كالينباخ فقد سَلَخَ فترةً من الزمن في ديرٍ للرهبان، حيث تلقّن صُنع الأحذية والخِفاف، ثمّ لقّن غاندي تلك المهنة، ودَرَّبَ غاندي الآخرين عليها، بحيثُ غدت الجماعة تصنع من الخِفاف ما يلزمها لسدّ احتياجات أفرادها، وتبيعُ الفائض منها. وفضلاً عن ذلك، كان غاندي يخيط بنفسه لزوجته كثيرًا من ثيابها، وكان فخورًا بقبولها ارتداء تلك الثياب.

وكان كالينباخ، أيضًا، ملمًّا بالنجارة، فتلقّن غاندي، منه، مبادئها، وعَكف على صُنع ما يلزم من أثاثٍ ومقاعد للطلاّب؛ بيد أنّ المزرعة لم تستخدم، يومًا، أَسرّةً أو كراسي، وكان كلّ فردٍ فيها يكتفي بغطاءَين رقيقَين، وبوسادةٍ خشبيّةٍ، وفي مَا خلا أيّام الشتاء، كان الجميع يفترشون اليابسة، ويرقدون في العراء.

كان غاندي يُعنى بشؤون المزرعة، عناية أبٍ بمنزل أسرته؛ وغالبًا ما كان يُراقب أمور المطبخ، حُؤولاً دون نُشوب الخصام بين النساء.

التبغ والكحول كانت محظورةً، أمّا من كان راغبًا في تناول اللَّحم فكان يظفر به؛ ولكن سُرعان ما احتذى الجميع حَذوَ غاندي، وتبنَّوا نظامًا نباتيًّا. أمّا غاندي وكالينباخ، فقد مضيا في تبسيط عَيشِهما شأوًا بعيدًا جدًّا، إذ امتنعا عن كلّ طعامٍ مطهوٍّ، واجتزآ بالفواكه كالموز والتَّمر، والبرتقال، وبفستق العبيد، والزيتون وزيته.

وبالإجمال، كانت حياةُ المزرعة تسيرُ على مِثل إيقاع حياة الأديرة، وفق توقيتٍ دقيقٍ: فالإفطار في السابعة صباحًا، والغداء في الحادية عشرة، أمّا العشاء ففي السابعة عشرة والنصف؛ والوَجَبات، كلُّها، زهيدةٌ متقشّفةٌ. وفي التاسعة عشرة والنصف تُتلى الصلوات الجماعيّة، ثم تطفأ الأنوار في الحادية والعشرين.

وكان على من يُنتَدب لمُهمّةٍ ما، في جوهانسبورغ، أن يستقلّ، لهذا الغرض، عَربةَ قطارٍ من الدَّرجة الثالثة. أمّا النزهات التي تستهدف إمتاع الأطفال، فكانت تتمّ سيرًا على الأقدام، مهما طال المشوار، وكان على المتنزّهين أن يصطحبوا زادَهم، تفاديًا لنَفَقاتٍ نافلةٍ تُرهق كاهل ميزانيّة الجماعة.

أما غاندي نفسه، فكثيرًا ما كان يضطرّ إلى الشخوص إلى جوهانسبورغ، لملاحقة القضايا في المحاكم، وكان يقطع مسافة الواحد والعشرين ميلاً ذهابًا، ومثلها إيابًا، سعيًا على قدميه. ومن أجل ذلك، كان ينطلق في الثانية، صباحًا، ثمّ يقفل عائدًا في الليل التالي، وغالبًا ما قطع ثمانين كيلومترًا في اليوم الواحد؛ وإلى تلك المشاوير الطويلة كان يعزو متانة بنيته، وطاقته على الاحتمال.

كوخلي وغاندي

الزعيم الهنديّ الكبير كوخلي كان مفكرًّا، وأستاذ علومٍ اقتصاديّةٍ، ورئيس "جمعيّة خدّام الهند" وقد وافى أفريقيا الجنوبيّة، في تشرين الثاني من عام ١٩١٢، وقضى، ثمّة، شهرًا، متفقّدًا أوضاع الجالية الهنديّة، وكان من الطبيعيّ أن يُنفق معظم وقته بصحبة غاندي، وقد طلب منه، يومًا، ثَبتًا بعدد أنصار الساتياغراها الموثوقين،

فنظّم غاندي قائمةً تضمّ ستّةً وستّين اسمًا، ولم يُخفِ أنّ هذا العدد يمثّل الحدّ الأقصى، الذي قد ينخفض إلى ستّة عشر فقط، يُمثّلون "جيش السلام" على حدّ تعبيره. ولم تكن ضآلة عدد أتباعه، هذه، لتُفزِعَه، إذ لم يَغرُب، قطّ، عن باله، أنّ "النبيّ كان وحيدًا، ولم يكن ليسوع سوى حفنةٍ من التلاميذ". ومن ثمّ، فقد كان تجرّده يُغذّيه بالثّقة، وتنكّبه عن نشدان أيّ متعةٍ أو نفوذٍ يحرّره من كلّ شعورٍ بالذّنب أو بالخوف، فلا يتردّد في الدفاع عمّا يُؤمن به، في وجه الجميع، وتحت كُلّ ظَرفٍ، ما حمل كوخلي على أن يقول له: "**ستسير، أنت، أبدًا، في الدّرب الذي انتهجتَه، ولن أستطيع، أنا، يومًا، إلاّ أن أكون رهن إشارتك**".

صحيحٌ أن كوخلي لم يكن، آنذاك، يُشاطِر غاندي جميعَ آرائه، ولكنّه كان يُقدِّر، أعمق تقديرٍ، دوافعه، وسموّ نفسه، وقد أعلن، على الملأ، في كانون الأوّل ١٩١٢: "**إنّ غاندي يتمتّع بطاقةٍ مدهشةٍ على تحويل من يُحيطون به إلى أبطالٍ وشهداء**". **وأضاف**: "**إنّ المرء، في حضور غاندي، يخجل من القيام بأيّ عملٍ حقيرٍ، ويخشى حتّى التفكير بأيّ خاطرةٍ دنيئةٍ**".

أوَليس هذا هو الشعور الذي ينتاب من يقف في حضرة القدّيسين النيّرين، الذين غدت صدورُهم هياكلَ حيّةً للرُّوح؟

غاندي المربّي

إلى جانب مشاغلِه السِّياسيّة والاجتماعية كان غاندي يعتبر نفسه ربّ الأسرة في مزرعة تولستوي؛ وبمَا أنّه كان يُلقي تَبِعةَ التربية والتثقيف، في المقام الأوّل، على الوالدَين، فقد اضطلع، بنفسه، بتربية الأَولاد المقيمين في المزرعة، ولم تكُن تلك مهمّةً يسيرةً، فالأولاد، من كلا الجنسَين، مُتفاوِتو الأعمار، مُتباينو المشارب والبيئات، ومنهم الهندوسيّ والمُسلم والفارسيّ والمسيحيّ.

وكان غاندي يُؤمن، إيمانًا راسخًا، بأولويّة تربية النفس والخُلُق، التي يجب أن ينشأ عليها الجميع، من غير تمييزٍ ولا تفريقٍ، وفي سبيل ذلك كان حريصًا على القيام بمهامّ الأب أربعًا وعشرين ساعةً في اليوم.

وفضلاً عن تلك التربية الأساسيّة، كان بالتعاون مع صديقَيه كالينباخ وديساي، يُوَفِّر للأحداث ما استطاع من علومٍ، غير مُهمِلٍ التربيةَ البدنيّة والمهنيّة، فيُوكل إلى الأولاد مُهمّاتِ التنظيف والبستنة، ويَحمِلُهُم على تأدية ما يُطلَب منهم، قارنًا الرقّة والدماثة، بالدقَّة والصرامة، ومُتذرِّعًا أبدًا بالإقناع والقدوة، إذ إنّه لم يكُن يحيد عن مبدئه القائل أنّه لا يسوغ أن يُطلَب من الأحداث القيام بأعمالٍ يأبى المعلّمون أداءها، فكان المعلّم هو دائمًا البادئ بكلّ عملٍ موكلٍ إلى الطلاّب، فيحذون حَذوَه في جوٍّ من الفرح والقناعة.

وكان يتجنّب، ما استطاع، استخدامَ الكتب من أَجل التعليم؛ ويقول، بهذا الشأن: "**لقد راودني دائمًا الشّعور بأنَّ المعلِّم نفسه هو للطالب خيرُ كتاب**"، وكان يؤمن أنَّ ما يتلقّنه الحَدَث بالسَّمع أنفذ رسوخًا في ذهنه ممّا يتعلّمه بالقراءة، وبالتّالي فقد كان يتمثَّل الدُّروس، ويلقيها من غير اللجوء إلى الكتب.

وكانت التربية الروحيّة هي التي تحظى بالقسط الأوفى من اهتمامه، لإيمَانه بأنَّ "**تربية الحسّ الروحيّ تُمثّل تكوين الخلُق، وتمكين كلّ فردٍ من السعي نَحوَ رؤية الله، وتحقيق الذَّات. وكنتُ أرى، في ذلك، عُنصُرًا أساسيًّا من عناصر تربية الأحداث، وأوقن أنّ كلّ تربيةٍ هي باطلةٌ، لا بل وبيلةٌ، إن لم تُواكبها تربيةُ الروح**".

وكان مُؤمنًا بأنَّ التربيةَ الروحيّة تعتمد، في المقام الأوّل، على القُدوة الحيَّة، وأنّ للمربّي، بالتالي، شأنًا خطيرًا قي ترسيخ المبادئ الأخلاقيّة لدى طُلاّبه، ممّا يلقي على كاهله مسؤوليّةً جُلّى، ويقول غاندي، في هذا السِّياق:

"**بوسع مُعلِّمٍ تفصله عن تلاميذه كيلومتراتٌ، التأثير فيهم بفضل أسلوب عيشه؛ فما الجدوى من تلقيني الأحداث فنَّ قول الحقّ، إن كنتُ، أنا نفسي، كَذوبًا؟ إنّ معلِّمًا رِعديدًا لن يُفلح يومًا في جعل تلاميذه شُجعانًا. ولن يقوى إنسان لا يمتلك زمامَ نفسه على تلقين قِيَم العفَّة. ومن ثمَّ فقد أَدركتُ أنّ عليّ أن أكونَ درسًا عمليًّا متواصلاً، للصِّبيان والفتيات الذين كانوا يُشاطرونني حياتي، بحيثُ غدوا هم لي معلّمين، وتيقّنت أنّه يتوجَّب عليّ انتهاج حياةٍ صالحةٍ ومستقيمةٍ، أقلَّه إكرامًا**

لأولئكَ الأحداث. ويسَعُني القول إنَّ ما فرضتُه على نفسي من تَمرّسٍ مطرَّدٍ بصرامة العيش ومن سيطرةٍ على ذاتي، في مزرعة تولستوي، كنتُ، إلى حدٍّ بعيدٍ، مدينًا به لأولئكَ المُربّين الصِّغار الذين اتّخذتُهم لي معلِّمين".

ولم يكُن غاندي، من جرّاء مبادئه، في مأمَنٍ من التساؤلات المُحيِّرة المُقلقة التي تقضّ مضاجع المُربّين، حول الأساليب المُثلى التي يتوجّب انتهاجُها، حيالَ بعض المواقف المحرجة، ولنسمعه يسرد رواية واحدٍ من تلك المواقف حُمِل فيه على انتهاج أسلوبٍ ظلّ، طويلاً، في مَا بعدُ، يتساءَل، في قَلَقٍ، عن صوابه وسلامته:

"أَحدُ الطلاّب كان مُتهوِّرًا، فوضويًّا، كذوبًا، مشاكسًا؛ وذاتَ يومٍ تمادى في ضلاله تماديًا رهيبًا، بحيث نَفَدَ صبري؛ ومع أَنّني لم أعاقِب، يومًا، تلاميذي، بَلَغَ منّي الغَضَبُ، في تلك النَّوبة، أقصى مبلغٍ؛ وحاولتُ إعادة الصبيِّ إلى جادّة الصواب، إلاّ أَنَّهُ ظلّ سادرًا في غيّه، لا بل حاول أن يجعل منّي أضحوكةً. وأخيرًا تناولتُ مسطرةً كانت بمُتنَاول يدي، وانهَلتُ بها على ذراعه بضربةٍ، كنتُ أرتجف وأنا أضربه؛ وأتخيّل أنّه قد لمح ارتجافي. وكان ذلك بدعةً مُستهجنةً في نظر الجميع؛ وانخرط الصبيُّ في البكاء ملتمسًا صفحي. إنّه لم يبكِ لأنَّ الضربةَ أوجعته، ولو هو شاء، لكالَ لي الصاعَ صاعَين، من غير عائقٍ، فقد كان فتىً شديدًا، في السابعة عشرة من عمره؛ إلاّ أنّه قد تبيَّن، مدى الحُزن الذي انتابني، وأَلجأني إلى العنف. ومنذُ ذلك الحادثِ لم يَعْصَ لي، يومًا، أَمرًا. غيرَ أنّني نادمٌ على عَمَلي العنيف، فأَنا أخشى أن أكون، في ذلك اليوم، قد أسفرتُ له لا عن وجهِ الرُّوح فيَّ، بل عن وجه البهيمة.

"لقد ناهضتُ، أبدًا، العِقاب الجسديّ... ومن ثمّ، فأنا ما زلتُ، حتّى اليوم، غير قادرٍ على التَّقرير إن كُنت مُحِقًّا آنذاك في استخدام المسطرة".

مُشكلةٌ تربويَّةٌ أُخرى، لفتَ انتباهَه إليها صديقُه كالينباخ، وكانت تتمثّل في مُجاورة أبناء غاندي، في مزرعة تولستوي، لأحداثٍ يتَّسمُونَ بالكَسَل، وسوء السُّلوك. إنّها مشكلة تعايُش القمح والزؤان، الخير والشرّ. كان كالينباخ يرى في ذلك

التعايُش خَطرًا على تربية أبناء غاندي، ومَن ماثَلَهم حُسنَ تربية. غير أنَّ غاندي لم يُشاطره الرأيَ، فمسؤوليّته عن أبناء الغير، القاطنين في المزرعة، تتساوى ومسؤوليّته عن أبنائه أنفُسِهم. وبمَا أنَّ المُقيمين في المزرعة كانوا يخضعون لشتّى ضروب الشظَف والتضحيات، فكان لا بُدَّ له أن يتحمّل، هو، منهم، بعضَ مُنغِّصاتٍ، فضلاً عن إيمانه بأنَّ ذلك الاختلاط يُولِّد لدى الأولاد الخيّري الجَوهر، مناعةً على الشرّ، ويُتيح لهم نشرَ عدوى الخير إلى أترابهم، على أن يظلّ المُربُّون يَقِظين، مراقبين للتجربة بعنايةٍ.

لقد كانت مسؤوليّة التربية الباهظة ترين بكلّ ثقلها على كاهل غاندي. ونَدَعُ له الكلامَ ليُعبِّر عن شعوره إزاءها:

"يومًا فيومًا، كنتُ أتبيّن، بوضوحٍ أوفر، صعوبةَ تنشئة فتياتٍ وصبيانٍ، وتربيتَهم التربية السَّليمة. فقد كان عليّ، لِكي أكونَ حقًّا لهم مُعلِّمًا ومُربيًّا، أن ألمس شَغَاف قُلوبهم، وأقاسِمَهم أفراحهم وأحزانهم، وأساعدهم على حلِّ مشاكلهم، ودَفع سيل تَطَلّعاتهم الشابّة الجيّاشة، في المنحى السويّ".

وقد عبَّر، عمليًّا، عن شعوره بتلك المسؤوليّة، بأسلوبٍ فريدٍ، يومَ وافاه صديقُه كالينباخ إلى جوهانسبورغ ليبلغه بأنّ اثنَين من الفتيان، في مزرعة "فينكس"، قد ارتكبا عَملاً مُشينًا. وقد نزل عليه النَّبأ نزولَ الصَّاعقة، وخُيِّل إليه أنّه يتحمّل إلى حدٍّ كبيرٍ، وِزرَ تلك الفِعلة النكراء، ولا سيَّمَا أنّ زوجته كانت قد أنذرته مُسبقًا بخَطَر حدوثها، غيرَ أنَّ مُغالاته في الثقة بالنّاس، جعلته يُعرِض عن إنذارها ذاك.

لقد هَجَرَ كلَّ أعماله، لدى سماعه ذلك النبأ، واستقلّ القطارَ عائدًا إلى "فينكس"، تتنازع فكرَه ونفسَه شتّى الهواجس والاضطرابات، ويُرهِقُه الشُّعور بالذَّنب. وفي غَمرةِ تلك المشاعر، ومَضَ في وِجدانه الحلُّ الذي أعاد إلى صدره السَّلام، وأزاحَ عنه كابوسًا مُضنيًا. فقد وطَّن العزمَ على صَومٍ تكفيريٍّ، بحيثُ ينقطع انقطاعًا تامًّا عن الطَّعام طوال سبعة أيّامٍ، ثمّ يقتصر على وجبةٍ واحدةٍ في اليوم، مدَّة أربعة أشهرٍ ونصف الشهر، لقناعته بأنّ ذلك الأسلوب كفيلٌ بجعل المذنبين يلمسون، في آنٍ معًا،

مدى حُزنه، وفداحة ذَنبهم. وقد أسهم قراره هذا، فعلاً، في تطهير الجوّ، وفي ترسيخ الشُّعور ببشاعة الخطيئة.

كانت تلك هي المرّة الأولى يستخدِم فيها غاندي الصِّيام سلاحَ تطهيرٍ وتكفيرٍ، وقد أُلجِئ إلى استخدامه، مرّةً أُخرى، بعد فترةٍ وجيزةٍ، للغَرَض عينه، ثمّ أصبح الصِّيام واحدًا من أمضى أسلحته السياسيّة.

إلاّ أنّ غاندي كان يرى أنّ الصيام، في الميدان التربويّ، قد يغدو نافلاً، لا بل وبيلاً "**إن لم تَقُمْ أواصر محبّةٍ عميقةٍ وصادقةٍ بين المعلّم والتلميذ، وإن لم تخلّف خطيئةُ التلميذ أثرًا نفّاذًا إلى أعماق كيان المعلّم، وإن لم يكُن التلميذ يُضمر لأستاذِه الاحترام**".

العصيان المدني

كان الزَّعيم كوخلي قد استطاع انتزاعَ وعدٍ من الجنرال سموتس بإلغاء الضريبة المفروضة على كلّ هنديٍّ جاءَ إلى أفريقيا الجنوبيّة بموجِب عقد عملٍ، ثمَّ رغِبَ في البقاء هناك، بعد انتهاء مُدَّة عقده.

ولكن، ما كاد كوخلي يقفُل عائدًا إلى الهند حتّى أعلن سموتس استحالة إلغاء تلك الضَّريبة، بحجّة إصرارِ الأوروبّيين البيض على استيفائها. وقد رأى العمّالُ الهنودُ في ذلك النّكوص طعنًا لكرامتهم، وانتقاصًا لحقوقهم، فقرّروا الانضمام طوعًا إلى حركة الساتياغراها.

وأُغلقت مزرعة تولستوي، وتوجّه مَن فيها إلى مستوطنة "فينكس"، وقد تأهَّب الرجالُ لدخول السجن. وممّا زاد النارَ استعارًا قرارٌ أحمقُ اتَّخذته سُلطاتُ الناتال، اعتُبِر، بموجبه، كلُّ زواجٍ غيرِ مسيحيٍّ، في البلاد، غيرَ شرعيٍّ، بحيثُ باتت كلُّ امرأةٍ هندوسيّةٍ أو مسلمةٍ تتزوّج وفق شرائع ديانتها، في أفريقيا الجنوبيّة، تُعَدّ خليلةً، ما حدا بطائفةٍ كبيرةٍ من النساء إلى الانضواء تحت لواء الساتياغراها، وفي طليعتهنّ كاستورباي، زوجة غاندي.

وإذ كان غاندي مؤمنًا بأنّ السَّجن التعسُّفيّ كفيلٌ بإضرام الروح النضاليّة لدى الجماهير، أَوعز إلى عدَدٍ من "الأخوات" المتطوِّعات، باجتياز الترانسفال إلى

الناتال، وهنَّ لا يحملن شهادات التسجيل، ممّا قد يحمل السُّلطات على زَجّهنَّ في السّجن. أمّا في حال إعراض السُّلطات عن سجنهنّ، فكان عليهنّ المُضِيّ إلى نيوكستل، وتحريض عُمّال المناجم الهنود على الإِضراب، وبالمقابل، طُلِبَ من بعض "الأخوات" في الناتال اجتياز حدود الترانسڤال غير مزوَّدات بتصريحٍ لذلك، بحيثُ يَحملنَ السُّلطات على توقيفهنّ وسَجنهنّ؛ وقد حدث ذلك فعلاً، ما أشاع موجةً من الاستنكار، ومن تطوُّع المزيد من المناضلات. أمّا "الأخوات" القادمات من الترانسڤال، فلم تتصدّ لهنّ سُلطات الناتال، وهكذا بلَغنَ "نيوكستل"، وباشرنَ تحريضَ عُمّال المناجم الهنود على الإضراب؛ وحينئذٍ اعتقلتهنّ السُّلطات، وحكمت عليهنّ بالسَّجن لمدة ثلاثة أشهرٍ، ما أسهم في نشر حركة الإِضراب، إلى أبعد مدى.

وخفّ غاندي إلى "نيوكستل"، حيثُ اتَّضح له أن العُمّال المُضربين كانوا يقيمون في بيوتٍ تملكها شركةُ المناجم، وأنّ الشركة، إثر إضرابهم، قد قطعت عنهم النورَ والماء. وإذ كان غاندي يتوقّع أن يطول الإضراب، دعا العُمّال إلى هَجر منازلهم، والتزوّد ببضعة أغطيةٍ وأَدثِرةٍ، والانتقال إلى الحقول المجاورة لمنزل أسرةٍ من البيض المسيحيّين، تعاطفت مع حَركة غاندي، رغم ما كان ذلك يُمثّله لها من مُخاطرةٍ.

وسُرعانَ ما بلغ عدد العمّال المضربين خمسة آلاف عاملٍ، كانوا يبيتون في العَراء، وقد تبرّع لهم عددٌ من تجّار "نيوكستل" بالطَّعام ولوازم الطهو؛ غير أنّ ذلك العددَ الهائل الذي كان لا ينفكّ يتضخّم كلّ يومٍ، كان يُقلق غاندي، ولا سيَّمَا أنّه كان يخشى أن يتمادى إضرابُهم أشهرًا، وقد يتعذّر عليه إعالتهم طوال تلك الفترة، بحيثُ بدا له أنّ سُجون الترانسڤال قد تكون آمن لهم. وبَسَط الأمر أمام العمّال المضربين واستفاض في بيان مُنغّصات السجن وعَنَتِه، داعيًا المتردّدين إلى العودة للعمل في المناجم، غيرَ أنَّ الجميع قد آثروا السِّجن، وهم على بيّنةٍ ممّا ينتظرهم فيه.

كانت الخُطَّة تقضي بأن يسير المُضربون ستّةً وثلاثين ميلاً حتّى يجتازوا حدودَ الترانسڤال، فيُحكمَ عليهم بالسَّجن. وقد طالبهم غاندي بالحِرص على سلامة سُلوكهم الأخلاقيّ والصحّيّ، وبالتزام الموقف السلميّ، فلا تستفزّهم سِياطُ رجال الشرطة وقسوتهم، ولا يقاوموا إذا ما تعرّضوا للاعتقال.

وانطلقت المسيرة، في الثالث عشر من تشرين الأوّل ١٩١٣، وكان غاندي هو القائد، وهو الخادم، إذ كان يتولّى توزيع الكفاف من الطعام المتوفّر بالتساوي، محاولاً، بدماثته، الحدَّ من شكوى بعضهم من شحّ الزاد.

وقبلَ اجتياز "جيش السلام" الحدود، أبلغ غاندي سُلطات بريتوريا بأنّ ما يتوخّاه، مع رجاله، هو الدّفاع عن كرامتهم المُستباحة، واستنكار حَنَث الجنرالَين سموتس وبوتا بوعدهما. وبالتّالي، فقد دعا السُّلطات إلى توقيفهم في الحال، فتُوفّر عليهم المزيد من المعاناة، كما وَعَدَ بعَودة العُمّال المُضرِبين إلى عَمَلهم في المناجم، إذا ما ألغيت ضريبة الجنيهات الثلاثة المفروضة على كلٍّ منهم، وعلى كلٍّ من أفراد أسرته. غير أنّ السُّلطات ظلَّت صمَّاء، فلا هي أوقفت المُتظاهِرين، ولا هي ألغت الضَّريبة. وقرَّر غاندي أن يمضي بجيشه إلى مزرعة تولستوي، على أن يجتازوا عشرين ميلاً كلَّ يومٍ. وهكذا، في السادس من تشرين الثاني ١٩١٣، وفي الساعة السادسة صباحًا، يقول غاندي "قد تلونْا صلواتنا، وباشرنا مسيرتنا باسم الله".

وفي مساء اليوم الأوّل، فيمَا كان المُتظاهِرونَ يتأَهّبون للنَّوم في العراء، داهَمَ شُرطيٌّ غاندي واقتاده إلى المحكمة التي قضت عليه بالسَّجن. غير أنّ رغبتَه في عَدَم التخلّي عن رفاقه قد حملته على قُبول الإفراج عنه بكفالة صديقه كالينباخ. وتكرّر التوقيف والإفراج في اليوم التّالي، في حين أودع خمسةٌ من رفاقه السجن. وفي اليوم الرابع أوقف غاندي للمرة الثالثة، وفي الغداة قُسِر المتظاهرون على استقلال ثلاثة قطاراتٍ خاصّةٍ، عادت بهم من الترانسقال إلى الناتال، في حين أُلقي القبض على بولاك الذي كان غاندي قد أنابه في قيادة الجماعة.

وفي الرابعَ عشر من تشرين الثاني جيءَ بغاندي إلى المحكمة، فاعترف بأنَّه مُذنبٌ وطالب بأن يُسجَن، غير أنّ المحكمة رفضت إدانته بناءً على إقراره وحده، فَشَهِد عليه كلٌّ من صديقَيه كالينباخ وبولاك؛ ثم شَهِدَ هو وكلٌّ منهما على ثالثهم، بحيثُ حُكم على الثلاثة بثلاثة أشهرٍ من الأشغال الشاقّة، في سجن "فولكراست".

أمّا المُضربون فقد أعيدوا إلى مناجمهم قَسرًا، وتعرَّضوا لأضرى صُنُوف التنكيل التي لم تُفلح في إجبارهم على استئناف العَمَل.

وحيالَ تلك المظالم، أعلن المزيدُ من العُمَّال المتعاقدين الإضراب. وإذ كانت السُّلطات تَعُدّ تلك الفئة من العمّال بمثابة أرقّاء لا يمتلكون الحقّ في الإضراب، فقد أوكلت إلى الجنود السَّيطرة عليهم، فقتلوا منهم بعضًا، وجرحوا آخرين، ما زاد من استعار نار المقاومة في كلّ مكانٍ من أفريقيا الجنوبيّة؛ وسُرعان ما أربى عدد المُضربين من الهنود على خمسين ألفًا، وبلغ عدد المسجونين الألوف.

وتناقلت البرقيّات ووسائلُ الإعلام أنباء مظالم الهنود في أفريقيا الجنوبيّة، وتعالى زئير الغضب في الهند التي أَمدَّت أبناءَها المضطهدين بسيلٍ من المساعدات الماليّة؛ وانتابَ القلقُ السُّلطات البريطانيّة، فراحت تُندِّد عَلنًا بتعسُّف السُّلطات المحليّة في أفريقيا. وفي الثامن عشر من كانون الأول ١٩١٣، أفرج فجأةً عن غاندي ورفيقَيه كالينباخ ويولاك، حين لم يتوقَّعوا ولم يتمنّوا ذلك الإفراج، إذ كانوا يُوثرون أن تمتدّ أكثر فأكثر، وإلى أقصى مدى، رقعة العصيان المدنيّ. وكان من شأن سجنهم خدمةُ قضيَّة الهنود المظلومين.

وفي تلك الأثناء، كانت قد أُلِّفت لجنةٌ مُهمّتها التحقيق في مظالم الهنود؛ غيرَ أنّ الجنرالَين سموتس وبوتا، هما اللَّذان كانا قد عيَّنا أفرادَها؛ وما أن أعيدت إلى غاندي حرّيّته حتّى بادر إلى الطَّعن في تلك اللّجنة، التي لم تكن سوى "لمامة أشخاصٍ هدفُهم خِداع الحكومة والرأي العامّ في إنكلترا وفي الهند على السواء". لقد اعترف غاندي بنزاهة رئيس اللجنة. غير أنّه أثبت أنّ اثنَين من أعضائها كانا يُضمران أشرسَ عداءٍ للهنود، وكان أَحدُهما هو الذي قاد حملة العداء على الباخرتَين اللتين ألقيتا مراسيهما في مرفأ دوربان، في كانون الثاني ١٨٩٧، وكان غاندي وأسرته في إحداهما، كما أنّه قاد حملةَ الاعتداء على غاندي نفسه، لدى نزوله إلى اليابسة، وما انفكّ طوال السنوات التّالية يُلاحق الهنودَ بكُرهِه وعَدائه.

وثلاثة أَيَّامٍ بعدَ إطلاق سراحه، ترأَّس غاندي اجتماعًا حاشدًا في دوربان، وقد تخلّى عن الزيّ الغربيّ، وارتدى ثوبًا قطنيًّا أبيض، وسروالاً أبيض، وانتعل خفًّا من صنعه. وكان، بذلك الزيّ، يُعبِّر عن حداده على الشهداء من عمّال المناجم؛ وأبلغ

الحضورَ ما ينتظرهم من آلامٍ مُطهِّرةٍ تتعاظم باطِّرادٍ، "إلى أن تُقرِّر الحكومة إطلاق الرَّصاص علينا" ثمّ سألهم: – "أَمُستَعدُّون أنتم لذلك؟".

– "أجل، أجل!" هتف الجمهور في حماسٍ مدوٍّ.

– "هل أنتم مُستعدّون لمشاطرة مصير مواطنينا الذين تجثم فوقَهم الآن بلاطةٌ باردةٌ.

– "أجل، أجل!".

– "آمل، إذن، إلاّ يعبأَ أحدٌ منكم، رجلاً كان أم امرأةً أم غُلامًا، بشأن أَجرِه، وأعماله، أو حتّى بأسرته، وبجسده. فنحن نناضل ذَودًا عن الحرّيّة الإنسانيّة، وبالتّالي عن الدِّين".

وكان الجنرال سموتس ما انفكّ يرفُضُ كلَّ اعتراضٍ على لجنة التَّحقيق، وكلَّ اقتراحٍ بتعديلها؛ فأعلن غاندي عن القيام بمسيرةٍ جماهيريّةٍ تنطلق من دوربان إلى الناتال، في الأوّل من كانون الثاني ١٩١٤، مُتحدِّيةً القوانين التعسّفية، ومُلتمسةً توقيف القائمين بها، وسجنهم، وهو على رأسهم.

وفي غمرة التأهُّب لتلك المسيرة، التي كانت تقضُّ مَضجعَ الحكومة، أعلن جميع موظّفي سكك الحديد البيض الإضراب، بدورهم. وكان من شأن أيّ سياسيٍّ محترفٍ، أن يستغِلّ مثلَ تلك الفُرصةَ ليزيد من إرباك السُّلطات، ولكنَّ غاندي حَرِصَ على الإفادة من تلك السانحة ليُسفِرَ عن وجه الساتياغراها الحقّ. فالساتياغراها تأبى، مبدئيًّا، تحطيم الخصم، أو إحراجه، أو إذلاله، أو الانتصار عليه بإضعافه، إذ إنّ منهجها هو تحمُّل الآلام طوعًا، في سبيل النفاذ إلى قلب الخصم وعقله. وهي بالتّالي تتنكّب عن استغلال ارتباكه لأغراضها، ومن ثمَّ فقد قرَّر غاندي تأجيل المسيرة إلى أن تنهض الحكومة من ورطتها مع عمّال سكك الحديد.

وانهالت شهادات الإعجاب بذلك الموقف الشَّهم الفذّ، من كلّ صوبٍ: من إنكلترا، ومن الهند، ومن أفريقيا الجنوبيّة.

ولانت قناة الجنرال سموتس حيالَ نُبل غاندي، وطلبَ التفاوُض معه. وقَبِلَ غاندي، رغم تحذير أصدقائه الذين حاولوا تذكيره بتاريخ الجنرال سموتس الحافل بنقض العهود، وأجاب غاندي مُتمثّلاً بقولٍ هنديٍّ مأثورٍ: "**النسيان زينة الشجعان**".

وفي صراحةٍ ووضوحٍ تامّين، استمرَّت المفاوضاتُ عدَّة أشهرٍ، وأفضت إلى معاهدةٍ بين الجانبَين، اعترفت بموجبها سُلطات أفريقيا الجنوبيّة بشَرعيّة الزواج وفقًا للشرائع الهندوسيّة والإسلاميّة والفارسيّة، كما ألغت ضريبة الجنيهات الثلاثة المفروضة على العمّال المتعاقدين، الرّاغبين في البقاء في أفريقيا، وتنازلت عن المطالبة بالضرائب المتأخّرة. ولكنّها بالمقابل، فرضت قُيودًا على تنقُّل الهنود بين مختلف مقاطعات أفريقيا الجنوبيّة، وعلى هجرتهم من الهند إلى أفريقيا، اعتبارًا من عام ١٩٢٠.

وقد أعلن الجزال سموتس، على الملأ، وَعدَه بتطبيق تلك الاتّفاقيّة تطبيقًا عادلاً، والاعتراف للهنود بحقوقهم المكتسبة. أمّا غاندي، فقد أبرز ما انطوت عليه المعاهدة من إقرارٍ بالمساواة بين الأجناس، ومن محوٍ "للوصمة العرقيّة"، وعلى نحوٍ خاصٍّ، من انتصار العصيان المدنيّ، تلك "القوّة التي إن هي اتَّخذت حجمًا عالميًّا، لَقَلَبت المثُل الاجتماعيّة، وقضت على القُوى المستبدّة، والعسكريّة الداهمة المتفشّية..."

شهادةُ الخَصم

بعد أن انتهت معركة الساتياغراها بانتصار مبادئ غاندي ومُثُله، كتب إليه كوخلي يُهيب به بالعودة إلى الهند عن طريق لندن. فاستجاب غاندي لطلبه. وقُبيل سفره، أَودع لدى معاونيه خُفًّا كان قد صنعه بيدَيه، وأوعز إليهم إهداءَه للجنرال سموتس. وقد انتعل الجنرال ذلك الخفّ سنواتٍ طويلةً، وفي عام ١٩٣٩، بمناسبة الذكرى السادسة والستّين لمولد غاندي، أعاده له، تعبيرًا عن صداقته وتقديره. وقد اعترف آنذاك بقوله: "**لقد انتعلتُ هذا الخُفّ طوال فصول صيفٍ عديدةٍ، مع يقيني بأنَّني لستُ جديرًا بالسَّير في حذاء رجُلٍ في مثل عظمة غاندي**".

وفي تلك المناسبة عينها قال الجنرال سموتس في مَن كان له، ذاتَ يومٍ، خصمًا صُلبًا: "**إنّ رجالاً من أمثال المهاتما ينقِذوننا من المشاعر التافهة النافلة، ويعلّموننا إلاّ نكلّ، يومًا، عن عمل الخير... لقد كان قدَري أن أقف خصمًا لرجلٍ أضمَرتُ له، أبدًا، أعمق احترامٍ... إنّه لم يُغفِل، قطُّ، من تلك القضيّة، خلفيّتَها الإنسانيّة، ولا هو**

تخلّى، يومًا، عن سكونه، ولا استسلم للضغينة، بل حافظ دائمًا على كياسته، حتّى في أشدّ المواقف عَنَتًا. إنّ موقفه وتفكيره، في تلك الحقبة، وبعدها، أيضًا، كانا يتعارضان، تعارضًا جليًّا، مع القسوة، والطاقة البهيميّة السائدتَين في أيّامنا".

أمَّا عن نهج غاندي السياسيّ فقال: "**لقد انتهج غاندي تقنيّةً جديدةً... تتمثّل في خَرقه القانونَ عمدًا، وفي تنظيم أنصاره ضمنَ حركاتٍ جماهيريّةٍ... وقد تحقّق له كلّ شيءٍ، وفقًا لما كان قد خطّط له**".

وأخيرًا اعترف الجنرال سموتس بأنّه قد استسلم، لا افتقارًا إلى القدرة على مُقاوَمة غاندي، بل لأنَّ قلبه كان يحولُ دون استمراره في مقاومته.

فلا جَرَم أنَّ قِسطًا وفيرًا من قوّة غاندي يكمن في استثارته خيرَ ما في خصمه من غرائز، تلك التي تحاكي غرائز الحقّ والخير الراسخة فيه. وقد انتهج غاندي في الزعامة والسياسة، أسلوبًا فريدًا مبنيًّا على الأخلاق والتجرّد، فصَحّ فيه قول البروفسور جيلبرت موري، من جامعة أكسفورد: "**كُن حَذِرًا عندما تتعامل مع رجُلٍ لا ينشُد المُتعات الجسديّة، ولا الرَّفاه، ولا الثناء، ولا النفوذ، والذي لا يبتغي سوى عمل ما يرتئيه صحيحًا. إنّه خصمٌ خطيرٌ مزعجٌ، إذ إنَّ جسده الذي بوسعك، في أيّ وقتٍ، السيطرة عليه، لا يُمكّنك من نفسه بشيءٍ**".

وشرعَ من عرفوا غاندي، في تلك الحقبة، يتساءلون إن هو كان سياسيًّا أم قدّيسًا. وجاءَ الجواب على لسان غاندي نفسه، إذ قال: "**يُؤكِّد البعضُ أنّني قدّيسٌ تائهٌ في عالم السياسة؛ في الواقع، أنا سياسيّ يجهَد، بكلّ طاقته، أن يُصبح قدّيسًا**".

لقد ظلّ غاندي، في عمله السياسيّ، مُخلصًا، أبدًا، لاعتباراتٍ دينيّةٍ وأخلاقيّةٍ. بيد أنّ توخّيه القداسة لم يُوهِمْه، يومًا، أنّ مكانه مغارةٌ مهجورةٌ أو ديرٌ خفيٌّ، بل كان قانعًا أنّ مكانه هو وسط صَخَب نضال شعبه في سبيل الحقّ والعدالة. ومن ثمّ، يتعذّر الفصل بين تديُّن غاندي وسياسته، إذ إنَّ تديُّنه قد دفعه إلى ميدان السياسة، وهي في نظره خدمةٌ مجّانيّةٌ، وسياسته كانت، أبدًا، قائمةً على مُثُل الدِّين والحقّ.

مزيدٌ من التجرّد

في ١٨ تمّوز ١٩١٤، ونزولاً عند رغبة كوخلي، استقلَّ غاندي وزوجته وصديقه كالينباخ، باخرةً ميمّمةً شطر إنكلترا، في طريق العودة إلى الوطن. وتعكس مذكّراته عن تلك الرحلة حرصه على توخّي الكمال الروحيّ، في كلّ دقائق سلوكه اليوميّ.

فهو قد أبى إلاّ أن يحتلّ مكانًا في الدرجة الثالثة من الباخرة، تمثّلاً بأشدّ الناس فَقرًا وحرمانًا، وعملاً بالتجرُّد، وبساطة العيش اللذَين اتخذهما إمامًا لحياته ونبراسًا. وقد حزَّ في نفسه أن تكون السفُن البريطانيّة أكثر توفيرًا لمرافق الصحّة والرفاه لركّاب الدرجة الثالثة من السُّفُن الهنديّة، حيثُ يلقى مواطنوه شتّى ضروب المعاناة.

ويحسن بنا أن نورد طرفةً ذات دلالةٍ حدثَت أثناءَ تلك الرّحلة. فقد كان صديق غاندي ورفيقه، كالينباخ، مولَعًا باقتناء المناظير المزدوجة الغالية الثمن. وكان يحمل معه، آنذاك، زوجًا منها. ورأى غاندي أنّ اقتناء مثل تلك الأجهزة يتنافى وبساطة العيش التي كانا يهدفان إلى تحقيقها، فتباحثا في الأمر، وتجادلا، واحتَدَم بينهما النقاش، فيمَا كانا واقفَين أمام نافذة مقصورتهما في السفينة، فقال غاندي:

- "لِمَ نتيح لهذه المناظير أن تكون عامل نزاعٍ بيننا؟ أليس من الأفضل أن نُلقي بها في البحر، ونضع للجدَل حَدًّا؟"
- "بالطبع – أجاب كالينباخ – هيّا، اِقذِف بهذا الشَّيء المُرِيع إلى اليمّ".
- "إنّني جادٌّ في ما أقول"، ردّ غاندي.
- "وأنا كذلك" أجاب كالينباخ.

ولم يتردّد غاندي في إلقاء النواظير من النافذة. وقد علّق، في مذكّراته، على تلك الحادثة بقوله:

"كلُّ يومٍ كان يأتينا بدرسٍ جديدٍ، من هذا القبيل، إذ كنّا نجهَد، كلانا، في انتهاج دروب الحقِّ. وفي تلك المسيرة صوب الحقّ، يتحتّم على مشاعر الغَضَب، والأنانيّة، والحقد، الخ... أن تتلاشى، وإلاّ ظلّ الحقُّ مُتعَذِّر المنال. قد لا يفتقر من هو فريسة

أهوائه إلى استقامة الطّويّة، والصّدق في القول؛ ولكنّه لن يظفر بالحقّ يومًا. فالنّجاح، في نُشدان الحقيقة، يقتضي التحرُّر الكامل من مثل تلك المشاعر المزدوجة الكثيرة: كالحبّ والبغض، والسعادة والتعاسة، الخ..."

القرار الصعب

وصل غاندي وصحبُه إلى إنكلترا، في السادس من آب ١٩١٤. وكانت الحربُ العالميّة الأولى قد أُعلنت قبل يومَين. وقد اضطر غاندي إلى التريّث في إنكلترا، حتّى عودة الزعيم كوخلي، الذي كانت الحرب المفاجئة قد حبسته في باريس. إلاّ أنّه لم يهدُر وقته جزافًا، بل باشر، في الحال، اتّصاله بالهنود المقيمين في إنكلترا، من أجل تحديد موقفٍ موحَّدٍ من الحرب المستجدّة. وتضاربت الآراء، بين مُطالبٍ باستغلال ظروف الحرب لانتزاع تنازلاتٍ من الحكومة البريطانيّة، كفيلةٍ بتأمين المزيد من الحُرّيَّة والحقوق لشعب الهند، وبين معارضٍ لاستغلال محنة الخصم. وقد تزعّم غاندي هذه النزعة الثانية، واستطاع إقناع بعض مواطنيه بها. وعلى الأثر عرض على المسؤولين البريطانيّين تشكيل فرقة إسعاف من الهنود، تُساهم في الجُهد الحربيّ البريطانيّ. وقد تشكّلت تلك الفرقة فعلاً، بقيادة غاندي. إلاّ أنّ موقفه هذا، قد استجلب عليه سيلاً من النقد والتجريح، حتّى من قِبَل بعض الزعماء الهنود؛ ولكنَّ ذلك لم يزعزعه عن عزمه؛ فهو لم يحِد يومًا، تحت أيّ ظرفٍ أو ضغطٍ، عن السبيل الذي كان يهديه إليه ضميرُه.

غير أنّ غاندي كان لا يزال يُعاني من هُزالٍ شديدٍ انتابه في أعقاب صِيامٍ لمدّة أربعة عشر يومًا، كان قد فرَضه على نفسه، قُبَيل مغادرته أفريقيا الجنوبيّة. وسُرعان ما تحوّل هذا الهزال، بفعل الإرهاق، وجَوِّ بريطانيا الرَّطب، إلى التهابٍ رئويٍّ ألزَمه الفراش. وهرع الزعيم كوخلي، والدكتور مهتا لمعالجته وإسعافه، ولكنَّهما اصطدما برفضه تناوُل مُعظم الأطعمة التي كانت تُوصف له علاجًا، ولا سيَّمَا كلّ مشتقّات اللحوم والألبان؛ وقد كان رفضُه هذا سببًا لتمادي مَرضه وتَعَذُّر شفائه؛ وأخيرًا لم يَجِد أصدقاؤه خَيرًا من حثّه على العودة إلى الهند، علّه ينجو، على الأقلّ، من رطوبة الجوّ الإنكليزيّ.

كان غاندي راغبًا في أن يصطحب معه، إلى الهند، صديقه، ورفيق دربه، وشريكه في كلّ محاولاته الروحيّة والاجتماعيّة، كالينباخ، غير أنّ جنسيّة هذا الأخير، الألمانيّة، كانت، في أيّام الحرب، آنذاك، سببًا كافيًا لحمل السُّلطات على منعه من دُخول الهند؛ فكان الفراق الموجع بين رجلَين قد عزما على ربط مصيريهما بوشائج أبديّةٍ.

ومع ذلك، غمرت البهجة صدر غاندي، عندما لامست قدماه أرض بومباي؛ وقد كتب في مذكّراته: "**ما أعظم فرحي، بأن ألتقي، بعد عشر سنواتٍ من الانتظار، أرض وطني، التي تطلّعتُ إلى العودة إليها، منذ عام ١٩٠٥**".

كان ذلك، في التاسع من كانون الثاني ١٩١٥. وكان في استقبال غاندي، على أرض الوطن، صديقٌ آخر، وزعيمٌ وطنيٌّ كبيرٌ، هو كوخلي.

كان غاندي، آنذاك، في الخامسة والأربعين من العمر، وقد نضجت شخصيّته، وتبلورَت أساليب عمله السياسيّ.

كان يتلهّف إلى تطبيق الساتياغراها في الوطن الأمّ، فهي، في نظره، العلاج الأكيد لجميع العلَل التي تعاني منها الهند، والسلاح الوحيد الكفيل بإبراز عبقريّتها الفذّة.

لا بل إنّه كان يتطلّع إلى آفاقٍ أرحب، ويشعر بأنّ عليه رسالة نشر الحقّ واللاّعنف في البشريّة كلّها، بحيثُ تحلّ في كافّة مناحي الحياة، محلّ العنف والكذب والخداع.

الفصل الثالث

المهاتما غاندي في الهند

"هند سواراج"

عاد غاندي إلى أرض الوطن، وقد اختمَر، في عقله ووِجدانه، الهدفُ الذي كان عازمًا على أن يقِفَ على تحقيقه جميعَ طاقاته، وما تبقّى من حياته، إلاّ وهو استقلال الهند استقلالاً حقًّا، يحرّرها، لا من الإنكليز فحسبُ، بل من جميع الأسقام الروحيّة والمادّيّة والاجتماعيّة التي ترهقها، وتُعيق ازدهارها. وقد تَبلورَت، لديه، في هذا المضمار، آراءٌ واضحةٌ، كان منذ عام ١٩٠٩، قد تبسّط بشرحها، في كُرّاسٍ من ستٍّ وسبعين صفحةً، دعاه "هند سواراج" أي استقلال الهند، أجملَ فيه أسسُ عقائده السياسيّة، التي تميّزت تميّزًا بيّنًا عن سائر الاتّجاهات السياسيّة الرائجة، بل تعارضت وإيّاها، في نواحٍ عديدةٍ. وكانت تلك الاتّجاهات تتمثّل في فئتين أساسيّتين: إحداهما تدعو إلى التذرُّع بالدبلوماسيّة، والتفاوض مع الإنكليز، من أجل إِجلائهم عن البلاد، أو على الأقلّ، من أجل الظَّفَر بالحُكم الذاتيّ، في ظلّهم؛ وكانت الفئة الأُخرى ترمي إلى الهدف عينه، ولكنّها ترى أنّ الوسيلة المُثلى إليه هي السلاح والعنف.

في المقابل، كان غاندي يرى أنّ علّة الهند الحقّة، ليست حكم البريطانيّين لها، بقَدر ما هي التخلّف والجهل، والفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وهُزال الكرامة الوطنيّة، واهتزاز الثقة بالنفس، وجهل الهنود أو تجاهلهم لعراقة تاريخهم، أو خَجلهم منه، وانبهارهم ببريق الحضارة الغربيّة؛ ومن ثمَّ، كان مؤمنًا بأنّ أيّ استقلالٍ لا يبدأ بالقضاء على هذه العِلَل الجوهريّة، لن يُصلح من الوضع شيئًا؛ فما الجدوى، مثلاً، من استقلالٍ يُبقي خمسين أو ستّين مليونًا من الهنود يعانون من لَعنة المنبوذيّة، ويبقي

سواد الهنود يلهثون وراء بهارج الحضارة الغربيّة، وأقنِعَتها الزائفة، ويُغفلون نفوسَهم، وعراقةَ حضارتهم، وأخلاقيّاتهم المميّزة؟!

كان غاندي يرفض استقلالاً يُمثّل استمرارًا للحُكم الإنكليزيّ، من غير إنكليز، استقلالاً يُلبِسُ الهند ثوبًا فُصِّل لها في الخارج، ولا يلائمها؛ مثلما هو كان يرفض اللّجوء إلى السّلاح للظَّفَر بالاستقلال، فالعنف يتنافى وكلّ معتقداته، فضلاً عن يقينه بأنّ البريطانيّين يمتلكون من وسائل القتال ما يُمكِّنهم من إفشال كلّ محاولةٍ لإجلائهم عُنوةً، وبقوّة السلاح. وكان يردّد على مسامع مواطنيه القول: "**إنّ الإنكليز يريدون قسرنا على وَضع النضال في موقع الرشّاشات، لأنّهم يمتلكون أسلحةً لا نمتلكها. إنّ فُرصَتَنا الوحيدة تَكمُن في وضع النضال في موقعٍ نمتلك فيه أسلحةً لا يمتلكونها**".

ذلك الموقع النضاليّ الذي اختاره غاندي، هو موقع "الساتياغراها" التي تُلزِم أتباعَها بمكابدة كلّ صنوف العذاب، من أجل إحقاق الحقّ، وجرّ الخصم إلى حياض العدل، بإقناعه لا بإيذائه.

وكان لا يني يؤكّد: "**ليس الإنكليز هم الذين استولَوا على الهند، بل نحن من سلّمها لهم**"، باعتناقنا حضارتهم، تلك الحضارة الإبليسيّة التي لا تعبأ بأخلاقٍ أو بدينٍ، وتنحدر بالعُمَّال إلى وضعٍ أسوأ من وضع البهائم، وتجعل من الأوروبيّين المساكين أنفسهم شبه معتوهين، مُصابين بأمراضٍ يتعذّر تخيّلها، يعنون، خانعين، لسيطرة الآلة، ولرجال القانون، والأطبّاء، وهؤلاء جميعهم، إنْ هم إلاّ أوكارُ أفاعٍ، ومسؤولون عن تدمير الأجساد والنفوس، فضلاً عن إسهام الاختراعات الحديثة في إنماء مَواطن الشرّ، في الطبيعة البشريّة.

ومن ثمّ، فالهند لا ترزح تحت أقدام الإنكليز، بل هي تئنُّ بين براثن وحش الحضارة الحديثة، التي يتفاقم خطرها، بقَدر ما هي تصبح موضع إعجابٍ أعمى لا يميّز حسناتها من سيّئاتها. وقد حضّ غاندي مواطنيه، في حرارةٍ، على العودة إلى الجذور، والتشبّث بأصالة حضارة الآباء وعراقتها، وحكمتها، قائلاً:

"لم نكن، نحن أيضًا، عاجزين عن ابتداع الآلات. بيد أنّ أجدادنا كانوا على يقينٍ من أنّ رغبتنا في امتلاك مثل تلك الآلات خليقةٌ بتحويلنا إلى عبيدٍ، وبإفقادنا جوهرنا الخلقيّ. ومن ثمّ، وبعد إمعان التفكير، قرّروا الاقتصار على ما يسعنا صنعه بأيدينا وأرجلنا، إدراكًا منهم بأنّ سعادتنا الحقّة، وصحّتنا الحقّة، تكمُنان في استخدام أيدينا وأرجلنا استخدامًا سليمًا. وكانوا واثقين، من جهةٍ أُخرى، من أنّ المدن الكبرى، إن هي إلاّ شرِكٌ، وورطةٌ لا طائل تحتها، إذ فيها يفتقر الناسُ الى السعادة، وإليها تفزع عصابات اللّصوص وقطّاع الطرق، وفي أرجائها يزدهر البغاء والرذيلة، وينهب الغنيّ الفقيرَ؛ ولذلك آثروا القرى الصغيرة واكتفوا بها".

وبالإجمال، كان غاندي يوضح لمواطنيه أنّ البريطانيّين إنّما يحكُمون، حقًّا، من كان فريسةَ الحضارة الغربيّة الزائفة، أمّا من انعتق من ربقتها، فلا سُلطانَ لأحدٍ عليه... ومن هنا يُشرق الأمَل في الخلاص. فإذا ما التزم كلُّ هنديٍّ بالمُثُل الأخلاقيّة، وأدركَ معنى الحياة الحقّ، وفاءَ الى ينابيع الحضارة الهنديّة الأصيلة، التي على كلّ محِبٍّ للهند أن يتشبَّث بها، تشبُّثَ الطفل بصدر أمّه، وأخلص لمعتقدات أجداده الصافية، عاكفًا على تحريرها من شوائبها كلّما طالها فسادٌ؛ وإذا ما ثاب الى بساطة الحياة القرويّة، ودأب على الغَزل والنسيج اليدويَّين، مُعرضًا عن المنتجات الغربيّة؛ وإذا ما قطع كلّ صلةٍ بالأنظمة الاستعماريّة، وبكلّ ما يستعبده، فهو سيكون حرًّا في أعماق نفسه، وحرًّا من جور جميع الشرائع الخارجيّة، حرًّا سياسيًّا. وإذن، فالحرّيّة الداخليّة هي المدخل والأساس لكلّ حرّيّةٍ سياسيّةٍ، والاستقلال الوطنيّ إن هو إلاّ سيطرةُ كلّ مواطنٍ على ذاته.

فعلى سبيل المثال، لو أدرك المحامون والقضاة أنّ مِهنتهم تنطوي على عوامل الانحطاط، مثلما تنطوي عليها مهنة البغاء، فتخلّوا عنها، إذن، لانهارت، تلقائيًّا، القوانين البريطانيّة. ولو أدرك كلّ فردٍ أنّ خضوعه لشرائع جائرةٍ يتعارض وكرامته الإنسانيّة، لعجز أيّ طغيانٍ عن استعباده.

أمّا الإنكليز فبوسعهم المكوث في الهند، إن هم تخلّوا عن حضارتهم الزائفة، وقوانينهم الجائرة، وعاشوا كما يعيش الهنود، وأصبحوا للشعب خدّامًا. أمّا إن هم رفضوا ذلك، فليس لهم في الهند مكانٌ، فالهنود قد عزموا على إلاّ يكونوا، بعد اليوم،

خاضعين أذلاّء، بيد أنّهم لن يستخدموا، في كفاحهم، أسلحة العنــف، فهـــي أســـلحة الحضارة الغربيّة؛ بل سيُشْهرون أسلحة المقاومة السلبيّة، والعصيان المدنيّ، بحيــثُ ستنتهي قوّةُ الروح بالتخلّص من الإنكليز المتمسّكين بحضارتهم، ومن تلك الحضارة نفسها، في آنٍ معًا. قوّة الروح هذه، هي، وحدَها، ضروريّةٌ، ولا مُعادِلَ لها، ومـــن امتلكها امتلك الحرّيّة.

وأمّا دافع غاندي الى الاستقلال، فلم يكن ينطوي على أيّ قصد انتقامٍ، بل كـــان اضطلاعًا بواجبٍ. فنُشدان الاستقلال الحقّ يتجاوز الأغراض الشخصيّة والـــسياسيّة الحقيرة، ويتحوّل النضال، في سبيله، الى حربٍ مقدّسةٍ، تمثّل ثورة الوِجدان على كلّ ما يُعيق أهدافه السامية.

وبالتالي، بات بوسع غاندي أن يُخاطب الإنكليز بكلّ إبـــاء الإرادة المتحـــرّرة، وكبريائها، وبكلّ كرامة الوِجدان الطليق فيقول: "**ليس علينا، نحـــن، أن نفعـــل مـــا تريدون، بل عليكم أنتم أن تفعلوا ما نُريد. ولو لم يكن، في الهند، سوى رجلٍ واحدٍ قادرٍ على التكلّم، على هذا النحو، فهو سيتكلّم، وعلى البريطانيّين أن يُنصتوا إليه؛ وليس في ما أقول أيُّ توسّلٍ، بل هو تعبيرٌ عمّا عقدنا عليه العـــزم... ونحـــن لـــن نظفر بأيّ شيءٍ نتوسّل من أجله، بل علينا أن ننتزع ما نبتغيه انتزاعًا**".

لقد كان غاندي هو ذاك الرجل الوحيد الذي استطاع التكلّم على هذا النحو، وأبى الإنكليز، أوّلَ الأمر الإنصات إليه، بل استخفّوا به وبأقواله، ولكن كان علـــيهم، فـــي نهاية المطاف، أنْ يسلّموا للهند باستقلالها، الذي انتزعه لها غاندي، بأسلوبه الفذّ، بعد أن أبرز للعالم أجمع طاقات الحبّ اللامحدودة، وقُدرات الألم الطـــوعيّ، وثَـــروات "الساتياغراها" الثَرَّة، وأثبَتَ أنّ للحضارة الهنديّة رسالتَها السامية في العالم.

لقد أخذ البعض على غاندي غلوَّه في انتقاد الحضارة الغربيّـــة، والـــشطط فـــي تطلّعاته وأساليبه؛ بل إنّ "صديقًا عزيزًا" قد وصف كرّاسه "هند سواراج" بأنّه "عمـــلٌ مجنونٌ"؛ ولكن الواقع أثبت أنّه كان عمل إنسانٍ نيّر البصيرة، نقيّ النفس، يُدرك مـــا يريد، ويمضي، حتّى الموت، في سبيل تحقيقه.

فالإنكليز ما كانوا يستمدّون قوّتهم من عَدَدهم – وهم، في الهند المترامية الأطراف، حفنةُ رجالٍ – ولا من سلاحهم، بل ممّا كانوا يوحونه للهنود من إعجابٍ بهم، وبحضارتهم، وصناعتهم، ذلك الإعجاب الذي كان ينخر عزّة الهند الوطنيّة ويُقصي نخبتها عن تقاليدها وحضارتها الأصيلة، بحيث غدا مفهوم التقدّم لديهم يعني التمثّل بالنِّظام الاستعماريّ، والذوبان في البوتقة البريطانيّة.

تلك الركيزة هي التي عمل غاندي على تقويضها، بادئًا بالنَّفس الهنديّة التي شخّص أمراضها، ووصف لها العلاج، وعندما تمّ له القضاء على الأساس، انهار الصرح الاستعماريّ تلقائيًّا.

ولكن بينَ الكأس والشّفاه، كان البَونُ شاسعًا، ودون استقلال الهند كان الواقع يُقيم صعابًا "بحجم الهيمالايا".

فالهند تمتدّ على مساحة ٣٨٠٠٠٠٠ كم^{٢}، أي ما يساوي مساحة أوروبا بأكملها – خلا روسيّا – وتتألّف من مزيجٍ عجيبٍ متباينٍ من الأجناس والإثنيّات، التي تتكلّم مئات اللغات التي يستَغلق فهم معظمها على غير الناطقين بها؛ وقد صاغ المناخ من مئات ملايين قاطني تلك البلاد الشاسعة، أنماطًا شديدة التبايُن، فهناك، مثلاً، من تأثّروا بقَسوة مناخ جبال الهيمالايا؛ وهناك من طغى عليهم تأثير الشواطئ الرطبة؛ فضلاً عن الفُرَق والانقسامات التي قد تبلغ حدّ العداء، والتي كانت تولّدها وترسّخها الطائفيّة المتعدّدة الفروع، والأنظمة الطبَقيّة الدهريّة، بحيثُ بدت الهند وكأنّها اسمٌ جغرافيٌّ فحسب، ومستودعٌ هائلٌ للطّاقات والموارد الطبيعيّة، ولكنّها، مع ذلك، تفتقر الى مُقوّمات الأمّة الواحدة، لولا طرق المواصلات التي أحدثها المستعمرون، ولولا لغتهم الإنكليزيّة التي فرضوها، والتي كانت تُمثّل عوامل الجمع الوحيدة بين تلك الفئات المتنافرة والمتنابذة أحيانًا. غير أنّ المستعمرين، بالمقابل، كانوا يشَحذون النَعَرات الطائفيّة، ولا سيّمَا بين الهندوس والمسلمين، ويُذكون نار المنافسة بين المدن التي يحكمونها مباشرةً، والمقاطعات التي كانوا قد أولوها شبه استقلالٍ ذاتيٍّ، وعهدوا بحُكمها الى مهراجاتٍ موالين لهم.

أمّا الساحة السياسيّة، فكانت تحتلّها قُوَّتان رئيستان: الاستعمارُ، مُتَمثّلاً في نائب الملك الذي كان، في واقع الأمر، الحاكم المطلق، الذي يحرّك جميع الخيوط، وبفرض إيقاع حياة البلاد، في أدقّ تفاصيلها؛ وفي الجانب الاَخر كان "المؤتمر الهنديّ"، وهو التجمّع السياسيّ الوطنيّ الذي أوحى المستعمرون أنفسهم بتأسيسه، وباركوا مولده، علّه يغدو مُتنَفّسًا للقوى الوطنيّة الصاعدة؛ وقد اقتصرت عضويّته، في أوّل عهده، على حَفنةٍ من المتشبّعين بالثقافة الإنكليزيّة، والملتزمين بالولاء للتاج البريطانيّ، وهم، في الغالب، من المحامين والأساتذة اللامعين، والأطبّاء ذائعي الصيت، أو من البورجوازيّين، والملاّكين، وكبار التجّار. غير أنّ ريحًا جديدةً قد أخذت تهبّ على المؤتمر، بعد أن اقتحم بعض مقاعده مثقّفون متحدّرون من الطبقة المتوسّطة، ومعهم أخذت المقاومةُ للاستعمار تشتدّ، وتتصلّب؛ ومن بين هؤلاء، برز مُعتدلون، أمثال "فيروزيشاه مهتا" (أسد بومباي) و"غوبال كريشنا كوخلي" (مؤسّس جمعيّة خدّام الهند)، والمحامي المسلم طيبجي؛ ومتطرِّفون، أمثال "تيلاك" الذي ما لبث أن أمسى معبود الشبيبة المتحمّسة وملهمها. ولكن، منذ انضوى غاندي الى المؤتمر أصبح هو قائده وموجّهه وروحه، سواءً احتلّ فيه مركزًا رسميًّا، أو تنحّى عن كلّ منصبٍ فيه.

وفي غمرة هذه الأجواء، اقتحم غاندي الحلبة السياسيّة بآراءٍ حدّدها في نشرته "هند سواراج"، وبأسلحةٍ باتت لديه ثوابتَ مقدَّسةً لا يَحيد عنها تحت أيّ ضغطٍ، وفي أيِّ ظرفٍ: اللاعنف و"الساتياغراها"، ومُثُل الدين والأخلاق. وهو، وفاءً لهدفه وأسلوبه، كان قد وطّد العزم على التشبّث باستقلالٍ تامٍّ، حيالَ شتّى التيّارات والأحزاب، ولو أدّى به ذلك الى "عزلةٍ رائعةٍ"، وقد كتب في هذا السياق:

"كيف يمكن لمن يروم الخدمة أن ينتسب الى حزبٍ؟ إنّني أبتغي خدمة المعتدلين والمتطرّفين على السّواء؛ وعندما سيتعذّر بيني وبينهم الوفاق، سأوضح لهم مواقفي في احترامٍ، ثمّ أمضي قُدُمًا في ميدان الخدمة".

هذا الموقف ظلّ نبراسه طوال أَمَد نضاله السياسيّ، فقابل جميع خصومه باحترامٍ، وباحترامٍ مضاعَفٍ حظي منهم جميعًا.

وقد وصف جواهر لال نهرو صلابة غاندي في التشبُّث بمبادئه الثابتة التي اتَّخذ منها ركائز لعمله السياسيّ، بقوله:

"إنّ التحوّل الذي عاشه غانديجي، في مستَهلّ عهد إقامته في أفريقيا الجنوبيّة، كان تجربةً مدهشةً هزّت أعماقه، وغيّرت كلّ نظرته الى الوُجود؛ وقد أسبغت، فيمَا بعدُ، على مُجمَل آرائه صلابةً كانت تمنع ذهنه من الانفتاح بسُهولةٍ على آراءٍ أُخرى. كان يصغي، في جمٍّ من الأناة والانتباه، الى المقترحات الجديدة التي تُطرَح عليه. ولكن، كان يعتري مخاطبه انطباعٌ بأنّه، خَلفَ ذلك الانتباه المهذّب، كان يقرعُ بابًا مُحكَم الإغلاق. إنّ بعض آرائه من الرُّسوخ في أعماقه، بحيثُ يبدو كلُّ ما سواها عديمَ الشأن".

وكان الزعيم الوطنيّ "كوخلي" قد استشفّ، بحدسه الثاقب، أنّ مصير الهند مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بذلك الرجل الضئيل الجسم، الذي يحمل بين جوانحه قوةً داخليّة فريدةً، هائلةً، وهو، بالتالي، قد نصح غاندي، قبلَ مباشرة حياته السياسيّة العامّة، أن يقضي سنةً "مُطبَق الفم، مُشرَع الأذنين" متأمّلاً، مراقبًا، جاسًا نبض البلاد التي ستصبح ميدان عمله، متثبّتًا من نجاعة الوسائل التي كان عازمًا على استخدامها في كفاحه. فقليلون، في الهند، كانوا، آنذاك، يعرفون غاندي، وهو كان يعرف، عن الهند، القليل. ولم تكن الهند، في فلسفته، هي المؤتمر، ولا هي المدن الكبرى، بل هي القرى النائية المبعثرة، هي جموع الفلاّحين والعمّال والفقراء؛ هي فئة المنبوذين والمسحوقين الكثيفة، المُهمَلة؛ فهؤلاء هم القُوّة الفعليّة التي يمكن أن يُشاد عليها استقلال الهند، استقلالاً راسخَ الأركان؛ وإليهم انطلق غاندي، في زيّ فلاّحٍ هنديٍّ، فقيرًا بين الفقراء؛ راح يجوب الهند ليتعرّف ترابَ وَطَنه، ويتملّى من روح الهند الدهريّة،وحكمتها العريقة، متيحًا لتلك الأرض الطيِّبة أن تبعث في عروقه نُسغَها المُحيي، وموثّقًا مع الجماهير، التي سيصبح لها، عمّا قريبٍ، الأبَ والملهِم، والقائد غير المنازع، أواصر الحبّ والثقة، ومختبرًا، على الطبيعة، وميدانيًا، سلاح "الساتياغراها"، الذي كان عازمًا على إلاّ يستخدم سواه؛ وحيثُمَا حلّ، كان يدعو الى بَعث المثل الأخلاقيّة، والشجاعة، وعزّة النفس، والتجرّد، وروح الخدمة، والجَلَد في الكفاح، مكررًا أنّ الحريّة لن تكون أبدًا

هِبَةً تمنح، بل هي انتصارٌ يُنتَزَع انتزاعًا، كما كان يدعو الى توثيق عرى الوحدة الوطنيّة، ويجهد كي يرسّخ في نُفوس مواطنيه مشاعر العزّة، واليقين بأنّهم يحملون دَمغَة الهند الخاصّة، ومجموعةً من الخِصال تُميّزهم، وتُمثّل "الساتياغراها" زبدتها، وتعبيرَها البليغ.

صِدقُه المُطلق، ورغبته في الخدمة المجّانيّة، وقُربُه الحميم من قلوب الجماهير، وصلابتُه في اعتناق الحقّ، والذَّود عنه، فضلاً عن امتلاكه سرَّ التفاهم مع كلّ جمهورٍ، مُدهشًا البعض، صادمًا الآخرين، ومُلهبًا في الجميع مشاعرَ الكرامة الوطنيّة، كلّ ذلك كان يَخلعُ على حضوره تأثيرًا فذًا، تأثيرًا ما لبث أن جعل منه زعيمًا فريد الطراز.

لقد كانت تحدو عمله السياسيّ صوفيَّة نبيٍّ شرقيٍّ، وتطلّعاتِ الروّاد الغربيّين المؤمنين بإمكانيّة تحقيق أشدّ الأحلام غرابةً، وأكثرها عن خيال الجماهير بُعدًا.

ومن الطريف ذكرُه أنَّ بعض أصدقاء غاندي قد أهدوه، غداةَ عودته الى الهند، عام ١٩١٥، رِقًّا مخطوطًا، في صندوقٍ من فضّةٍ، أقفالُه ومفاتيحه من الذهب. ولكنّ غاندي وَصَف تلك الهديّة بأنّها غير لائقةٍ بمَن لا سَقفَ فوق رأسه، ولا أبوابَ تُقفَل على منزله، فالأقفال، سواءٌ هي كانت من ذَهَبٍ أو حديدٍ، ترتدي، في نظره، معنًى واحدًا، معنى القيود، وهي، من ثمَّ، ذاتُ وظيفةٍ يمقتُها.

وعندما احتفت النخبة الاجتماعيّة، في بومباي، بقدومه، لم يُخفِ إحساسه بأنّه كان أشدّ ارتياحًا وسط العمّال الهنود، في أفريقيا الجنوبيّة، فهم أبطالُ الهند الحقيقيّون. وتمنّى أن يستمرّ الحبُّ الذي أعرب له عنه مُضيفوه بعد أن يروه يعمل، ويفشلُ أحيانًا.

"أشرم" سابارماتي

جماعةُ "أشرم فينكس" كانوا، هم أيضًا قد عادوا الى الهند، بُعَيدَ مغادرة غاندي أفريقيا الجنوبيّة، على أن يستأنفوا جميعُهم نَهجَ حياة "الأشرم" التي ألِفُوها. ولكن، عندما اضطرّ غاندي الى التلكُّؤ في إنكلترا، أوعَزَ الى صديقه "أندروز" أن يرعى

الجماعةَ، ويهتمّ بإقامة أفرادها؛ فحلّوا، أوّل الأمر، في جامعة "كانغري" حيث عاملهم رئيسها "سوامي شِرادهانانجي" معاملةَ الأبناء، ثُمَّ انتقلوا الى جامعة "شانتينيكتان" التي كان يرأسها مؤسّسها شاعر الهند المجلّي "رابندرانات طاغور".

طاغور وغاندي قِمّتان سامقتان في تاريخ الهند المعاصر، وقد طبعه كلٌّ منهما بطابعه الخالد الخاصّ. كان كلٌّ منهما يُجلّ الآخر. وخليقٌ بالذّكر أنّ طاغور هو الذي أطلق على غاندي اللقب الذي لازمه، مُذَّاك، إلاّ وهو "المهاتما" أي النفس الكبيرة؛ إذ كان يدعوه "**المهاتما في أثمال متسوّلٍ**". لقد افترقت، فيمَا بعدُ، طُرُقُهما، وتباينت اتجاهاتهما، وتبادلا النقاش على صفحات الصحف. فقد كان طاغور يطمح في أن يجعل من جامعة "شانتينيكتان" موئلاً للإشعاع العالميّ، منفتحًا على جميع الآفاق، مُشرَعًا على رياح الحضارة الغربيّة، كما أنّه كان مَعنيًا، في المقام الأوّل، بنُشدان الجمال، ونَثر الأنغام العذبة، في حين كان غاندي يتوخّى إيقاظ الكرامة الوطنيّة الهنديّة، وإقناع مواطنيه بعراقة حضارتهم وتميُّزها، ودَفعَهم الى تنقينها من شوائبها وتعميق قِيَمها الفذّة، والاقتصار، في تأمين حاجاتهم اليوميّة، على ما يُنتجون بأنفسهم، مُعرِضين عن إنتاج المصانع الأجنبيّة؛ ولم يتردّد، في سبيل ذلك، عن الدعوة الى مقاطعة جميع البضائع المستورَدة، بل وحرق الموجود منها، ولا سيَّمَا البضائع الإنكليزيّة؛ وكان اهتمامه، في المقام الأوّل، يَشدّه الى المحرومين والمسحوقين يُخفِّف عنهم أعباء بؤسهم، ويُبَلسم جراح انكسارهم، ويوفّر لهم ما يملأ بطونَهم الجائعة.

يقول لويس فيشر، في مقارنةٍ بين غاندي وطاغور: "**كان غاندي حقلَ القمح، وطاغور حديقة الورود؛ كان غاندي الساعدَ الذي يعمل، وطاغور الصَّوتَ الذي يُنشِد، غاندي كان القائدَ، وطاغور الرسولَ المنادي، غاندي الناسك النحيل، وطاغور الارستقراطيّ المثقّف، المديد القامة، البهيَّ الطَّلعة... غاندي كان مثالاً للتجرُّد الجبّار، في حين كان طاغور يشعر "بعناق الحرّيّة بألف قيدٍ من المُتعَ"**.

بَيدَ أن تباين نَهجَي الرجُلَين لم يَنَل من إجلال كلٍّ منهما للآخَر؛ وقد ظلّ طاغور يُعلن على الملأ أنّ غاندي قيمةٌ روحيّةٌ جُلّى، تُغني لا الهند وحدَها، بل البشريّة كلّها جمعاء.

وقد تجلّى تبايُن نهجَي الرجلَين، عندما قَدِم غاندي الى "شانتينيكتان" ليتفقّد أحــوال أبنائه "جماعة فينكس"، فألفى تلاميذ طاغور يزجُّون أوقاتهم في الرقص والغناء، ونسج عقود الورود، ونُشدان أكثر مُتعَ الحياة إرهافًا؛ فراح يحثّهم على الاعتماد على ذواتهــم في مجال إدارة المطبخ، والعناية بالنظافة، ممّا يوفر مزيدًا مــن الــصحّة والــسلامة، ويمكّن من التمرّس بالاتّكال على النّفس، في شتّى مناحي الحياة، وذلك أسوةً بجماعــة "فينكس" الذين كانوا قد احتلّوا، في "شانتينيكتان" جناحًا خاصًّا، واصــلوا فيــه تجربــة "الأشرم"، في حِرصٍ شديدٍ على حياةٍ مغرقةٍ في البساطة. وقد وافق "الــشاعر" علــى المُضيّ في تلك التجربة، آملاً أن تكون رمزًا لــ "هند سواراج"، أي الاستقلال الوطنيّ الهنديّ، الذي كان يبشّر به غاندي. وقد بذل الكثيرون من الأساتذة والطــلاّب جهــودًا دؤوبةً، في سبيل إنجاح تلك التّجربة، التي استمرّت طالما ظلّ حضورُ غاندي حــافزًا لها ومُلهِمًا. بيدَ أنّ ذلك الحضورُ لم يَطُل أمَدُه، إذ، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، فُجع غاندي بنبأ وفاة الزّعيم كوخلي، فغادر "شانتينيكتان" إلى "پــونا" لكي يشترك في وَداع من كان له بمثابة أبٍ وأخٍ أكبر، ومُرشِدٍ في ميدان السياسة الهنديّة.

وعلى أيّة حالٍ، كان غاندي ما يزال يتطلّع الى تأسيس "أشرم"، له مُستَقِلٍّ، يستطيع أن ينصرف فيه، مع أسرته وأصدقائه وأعوانه المقرَّبين، الى حياةٍ قائمةٍ علــى التجــرُّد والخدمة. وكان الزعيم كوخلي، قبيل وفاته، وبمناسبة استضافته غاندي قد دعــاه الــى الانضمام الى "جمعيّة خدّام الهند" التي كان يرأسها، غير أنّ غاندي، بعد تحدُّثــه الــى أعضاء الجمعيّة، قد تبيّن مدى التبايُن بين أساليبه وأساليبهم، ورؤاه ورؤاهم فــي حَلبــة العمل السياسيّ، ومن ثَمَّ أبلغ كوخلي أنَّه يُوثر الحفاظ على استقلاله، ويرغب في إنــشاء "أشرم" خاصٍّ به، يستطيع، منه، الانطلاق الى الأهداف التي كان يتوخّاهــا، وبــالطُرُق التي كان يرتئيها، وفي منطقة الكوجارات، حيثُ يبدأ بخدمة أهله وقومــه. وقــد خــفّ الزعيم كوخلي، فى جمٍّ من الأريَحيّة، الى مساعدته على تحقيق رغبته هذه، ووفّر لــه الاعتمادات الماليّة اللازمة. وقد أثلَجَت تلك المبادرةُ صدرَ غاندي، إذ تحرَّر مــن هَــمّ البحث عن الأموال الضروريّة، وأنعشَه الشُّعورُ بأنّه لن يُضطرّ الى مباشرة العمل، في الهند، وحيدًا، فهناك من يُكاتفه ويهرع الى نجدته ونُصحه كلّما احتاج الى نَجدةٍ أو نُصحٍ.

وفي تلك الحقبة، أعرض غاندي عن مهنة المحاماة، بل أغفل أسرته نفسَها، فلم يعبأ باتّخاذ مكتبٍ له، بل ولا منزلٍ يُظلّل حياتَه الخاصّة مع ذويه؛ وقد اتّفق أن سأله أحدُهم: "كيف حال أسرتك؟! فأجاب: "**الهند كلُّها أسرتي**"، مُسفرًا عن توجُّهه النفسيّ والفكريّ، آنذاك.

كان لا يني يُطوّف في قرى الهند وأريافها. وأيّ مكانٍ ينتهي إليه كان يغدو له منزلاً ومكتبًا. إلاّ أنّه ما انفكّ يبحث، دائمًا، عن مكانٍ مُلائمٍ يرسي فيه أسس أشرمه، مَعقِل الحقّ والكفاح الذي كان حلمَه، ومَشتَل "الساتياغراها" التي أمست نسيج فكره وحياته، الى أن وقع اختيارُه على منطقة "سابرماتي" الى جوار الساقية التي تحمل نفس الاسم، والتي تفصل الموقع عن مدينة "أحمد آباد".

دوافعُ ذلك الاختيار لم تكن خفيّةً: فالمكانُ يقع في الكوجارات، منبت أجداده، حيث اتّصاله بروح الهند الأصيلة كان حميمًا وثيقًا؛ فضلاً عن أنّه يُتقن اللّهجة الكوجاراتيّة، وبها كان يستطيع أن يُخاطب الهند بلهجةٍ تفهمها، لغةٍ أصيلةٍ غير مستورَدَةٍ، ولا مفروضةٍ من الاستعمار. أَضف إلى ذلك أنّ مدينة "أحمد آباد" المجاورة كانت قلعة صناعة النّسيج في الهند، وهي، بالتّالي، حَقلٌ ممتازٌ لتحقيق حُلم غاندي في بعث حِرفة الغزل والنسيج اليدويَّين.

كان هناك دافعٌ آخر لاختيار "سابرماتي"، وهو أنّ صناعيّي أحمد آباد وأثرياءَها، ودهاقنة الملاحة في بومباي، قد خفّوا إلى مدِّ يد العون إلى ابن منطقتهم العائد من أفريقيا الجنوبيّة، مُثقَلاً بصيت البُطولة في مقارَعة الاستعمار، وإعلاء شأن الهنود، وأخذوا على عاتقهم توفير قسطٍ وافرٍ من نَفَقات تأسيس الأشرم، وتعهّدوا بتوفير المال الكافي الذي يُتيح لقاطنيه ممارسة عيشةِ الفقر والكفاف التي اختاروها.

وتناقش غاندي وإخوانه في الاسم الذي سيعمّد به أشرمُهم، فاقتُرح اسمان "أشرم الخدمة" و"أشرم التقشّف". وبدا هذا الأخير لغاندي مُنطويًا على ضربٍ من التبجّح، فمعَ أن شَظَفَ العيش كان قاعدةً أساسيّةً من قواعد الأشرم، إلاّ أنّه لم يكن الصفة المميّزة له، وكان ذلك الأشرم، في هذا المجال، دونَ الكثير من أمثاله تزهُّدًا وقسوةً. أما اسم "أشرم الخدمة" فكان يروق لغاندي، إذ إنّ الخدمةَ كانت مُحرِّكَه وهدفَه. غير

أنّ غاندي كان راغبًا في أن يبرز لأبناء وطنه المبادئ الجديدة التي أنضجتها وبلوَرَتها تجربته النضاليّة في أفريقيا الجنوبيّة؛ فهو وإخوانه طلاّب حقيقةٍ، في المقام الأوّل، ومن ثَمّ، فقد أجمعوا على اسم "أشرم الساتياغراها" الذي كان يُوضح، في آنٍ معًا، هَدَفَهم وأسلوبَهم المميّز في الخدمة.

ثمّ تناقش غاندي ورفاقه في نظام الأشرم، وقواعد العيش فيه، وهي، في مُجملها، قواعد العَيش في الأديرة، تُنَظِّم بدقّةٍ مَوَاعِيد الاستيقاظ والنَّوم والطَّعام والصَّلوات الجماعيّة، كما أنّها تفرِض على الجميع الأعمال اليدويّة، وتلحَظُ الإدارة الروحيّة، وتسلسلاً في السُّلطات، ونذورَ العفّة والفقر. وتأكيدًا للساتياغراها، أضيفَ إلى النُّذور: نَذْر الوفاء للحقّ، واطّراح الخوف، ومكافحة المنبوذيّة. وقد أكّد الأشرميُّون على أولويّة فضيلة التواضُع، التي كثيرًا ما يفتقر إليها الجيل الناشئ: وقد اقترح بعضهم أن تُصبح ممارستها موضع نَذر؛ ولكنّ غاندي اعترض لأنّه كان يرى أن التواضُع، إن هو فُرِض بنذرٍ، ما عاد تواضعًا، فالتواضُع، أو الامّحاء الذاتيّ، يجب أن يكون بَدَهيًّا، وملازمًا لكلّ فضيلةٍ، وكلّ سعيٍ إلى الكمال والخلاص، فلا خلاصَ من غير تواضُع؛ والخدمةُ، إن هي خلت من التواضُع الحقّ، غدت رئاءً وأنانيّةً. وقد سادت الأشرم حياةُ الأسرة الواحدة، إذ كان الجميع يتناولون وجبات الطعام معًا، ويتعاونون في الاضطلاع بشتى المهامّ اليوميّة. وقد انطوى الأشرمُ أيضًا على مدرسةٍ تدريبيّةٍ لتنشئةِ الأحداث على المبادئ التي يتعيّن على الجميع الالتزام بها...

كانت الأديرة أو "الأشرم" منتشرةً في شتّى أرجاء الهند، وكانت معظمها تتّصف بالإغراق في العُزلة والتنسُّك وإماتة الذات؛ وقد تميّز عنها "أشرم الساتياغراها" بانفتاحه على العالَم، وخاصّةً على المسحوقين والمحتاجين، وبتذرّعه الخدمة سبيلاً إلى الكمال، وبإعراضه عن كُلِّ ما يُوهن الجَسَد، ويجعله غيرَ مؤَهّلٍ للخدمة. وقد ضرب غاندي نفسُه، في ذلك، المثَلَ، فهو، مع كلِّ ما طبَع حياتَه من تجرُّدٍ وتقشُّفٍ، كان حريصًا على الاحتفاظ بلياقة جسده، بحيثُ يكون له أداة طيّعةً في خدمة مُثُله العليا، وهكذا تمكّن، حتّى مصرعه، وهو في الثامنة والسبعين من العمر، من تجشّم المشاقّ، والعمل المتّصل، والصوم الطويل، ممّا لا يقوى عليه إلاّ من تمتّع بلياقةٍ بدنيّةٍ فائقةٍ.

كان "أشرم الساتياغراها" يتألّف من أكواخٍ واطئةٍ مبيّضةٍ بالكلس، وسط أشجارٍ مبعثرة على مقربةٍ من الساقية. وكانت غرفة غاندي بحجم زنزانة سجنٍ، وقد سَدَّت نافذتَها الوحيدة قضبانٌ حديديّةٌ. وكانت مُشرَعةً على شرفةٍ ضيّقةٍ، حيث كان غاندي يعمل نهارًا، وينامُ حتّى في أشدّ اللّيالي برودةً. وقد ظلّت تلك الغرفة هي مأواه سحابةَ ستّ عشرة سنةً، خلا الفترات التي كان يحلّ فيها ضيفًا على السجون، وما عتّم أن غدا ذلك المنسك الضيّق قلبَ الهند وروحها وعقلَها، في أشدّ فترات تاريخها خطورةً.

ومن تلك الشُّرفة حيثُ كان يتربّع على الأرض العارية، نصفَ عارٍ، لا يُغطّي جسمَه سوى مئزرٍ قُطنيّ، أعادَ غاندي للهند روحَها وكرامتها، من غير أن يستجدي من المُستعمرين الاستقلالَ بلُغةٍ إنكليزيّةٍ مرهَفةٍ، على نحوِ ما كان يفعل المثقّفون من أعضاء المؤتمر، ومن غير لجوءٍ إلى العُنف أو التهديد به، على حدّ ما فعلت جماعاتُ المتطرّفين، بل في هدوء القدّيس المتجرِّد، المتعبِّد للحقّ، المتشبّث بقِيَم الرُّوح، الوفيّ لها، وفي إخلاص الوطنيّ الذي ضَبَط إيقاعَ قلبه وفكرِه على نبَضات السَّواد الأعظم من أبناء الهند المحرومين.

البريطانيّون في الهند وغاندي

غالبًا ما تَتمَخَّضُ دوافعُ زريّةٌ تافهةٌ عن عواقبَ خطيرةٍ مدوّيةٍ؛ وعن مثل تلك الدوافع، نشأ الوجود البريطانيُّ في الهند، في أعقاب إصرار تجّار التوابل الهولنديّين على رفع سعر رَطل الفُلفُل بمقدار خمسة شيلينات، ما أثار كبرياء بعض التجّار البريطانيّين، فألّف نحوُ مئةٍ وخمسةٍ وعشرين منهم "شركة شرقيّ الهند التجاريّة"، برأسمالٍ متواضِعٍ، هَدَفُها استيرادُ التَّوابل مباشرةً من الهند، والاستغناء عن الوساطة الهولنديّة. وقد تأسّست تلك الشركة في اليوم الأخير من القرن السادس عشر. وفي شهر آب من عام ١٦٠٠، أرست سفينتها الأولى على مقربةٍ من شواطئ بومباي؛ وقد حالفَ قبطانَها حسنُ طالعٍ منقطع النظير، إذ أفلح في النَّفاذ إلى قلب آخر أمبراطورٍ موغوليٍّ كان يحكم الهند آنذاك، فعيّنه قيّمًا على قصره، وأهداه إحدى أفضل محظيّاته، ثم أصدر فَرَمانًا بمنحه حقّ افتتاح مراكز تجاريّةٍ على شواطئ

بومباي. وانطلقت سُفن الشركة تُفرغ، باطّرادٍ، على أرصفة التاميز، تِلالاً من الفلفل والتوابل، والسكّر، والصّمغ، والحرير، وتعود مثقلةً بالسِلع البريطانيّة المُصنَّعة، وبين روحاتها وغدواتها كانت أرباحٌ تتعدّى أرقامُها حدودَ الخيال، تتدفّق على خزائنِ الشركة وجيوبِ مُساهميها؛ وشرعت سُفُنٌ جديدةٌ للشركة ترود شواطئ مدراس، وخلجان البنغال، ثمَّ أسّس بعضُ الروَّاد من ممثّلي الشركة مركزًا تجاريًّا، سرعان ما تحوّل فأصبح مدينة كلكتّا. وطالما كان أولئكَ التُجَّار متقيّدين بشعارهم "تجارة، لا استعمار أراضٍ"، لم يقابلُهم سكّان البلاد بأيّ عداءٍ.

غَيرَ أنَّ مصالح "شركة شرقيّ الهند التجاريّة" ما لبثت أن غدت من الجسامة، بحيثُ حملت ضرورةُ حمايتها ممثِّلي الشركة على التدخّل في الخلافات الناشبة بين شتّى الفئات والقبائل الوطنيّة، جاهدةً في حسمها لصالح المُوالين لهم؛ وشيئًا فشيئًا، أخذ البريطانيّون يقحمون أنفسهم في شؤون البلاد، ويُحكِمون قبضتَهم عليها، وقد دفعهم إلى التوغّل في هذا المنحى محاولةُ تغلغل الفرنسيّين في الهند، تحدوهم مطامعُ منافسة الإنكليز على استراق خيراتها، ونجاحُهم في استمالة عددٍ من الأمَراء النافذين، بحيثُ كادوا يُشيدون أمبراطوريّةً فرنسيّةً في الهند، راسخةَ الأركان، مترامية الأطراف، لولا أن استعجلهم البريطانيّون بضربةٍ قاضيةٍ، وتمكّنوا من طردهم.

ومُذَّاك، وسحابةَ القرنين اللَّذَين تليا ذلك النَّصر، تحوّلت المغامرة التجاريّة البريطانيّة إلى حملةٍ استعماريّةٍ واسعةِ النِّطاق، وحلّ مُؤسّسو الأمبراطوريّة محلّ التجّار، وانقلب المدراء والمحاسبون والسماسرة قوَّادًا وحكّامًا وضبّاطًا، وانقلبت نشوةُ جَني الأرباح الطائلة إلى نشوة سيطرةٍ وسُلطانٍ، إلى أن امتدّت عدوى الحمَّى الاستعماريّة إلى الملكة فيكتوريا نفسها، فأعلنت ذاتَها، فِي الثاني عشر من آب ١٨٥٨، أمبراطورةً على الهند، مستهِلّةً، بذلك، حقبةً استعماريّةً متماديةً، حافلةً بالأحداث؛ وهكذا نهضت الأمبراطوريّة البريطانيّة على أنقاض الأمبراطوريّة الموغوليّة التي كانت قد أشرعت للبريطانيّين باب الهند.

وفي سبيل ترسيخ أقدامهم، وبسط نفوذهم عَمدَ المُستعمرون البريطانيّون إلى إقامة شبكة اتّصالاتٍ متشعّبةٍ تربط مختلف أطراف أمبراطوريّتهم الشاسعة، وإلى

فَرض اللُّغة الإنكليزيّة التي بها يستطيعون إملاء إرادتهم ورغباتهم على الثلاث مئة مليون هنديٍّ، الذين يكادون يُكوِّنون، وحدَهم، قارّةً كبرى.

إلاّ أنّ شبَكة المواصلات تلك قد انقلبت عاملَ وحدةٍ تضُمّ شتات الشَّعب الهنديّ، ذلك النسيج المُزَركش العجيب من نحو ثلاثة آلاف طائفةٍ وفئةٍ، متعدّدة الإثنيّات والمشارب والمذاهب، مبثوثةٍ في ٥٦٠ ألف قريةٍ، فضلاً عن عشرات المُدُن؛ كما غدت اللُّغة الإنكليزيّة وسيلةً للتعبير عن التطلُّعات الوطنيّة المشتركة لشعبٍ يتكلّم خمس عشرة لغةً رسميّةً، وينطق بثماني مئةٍ وخمسٍ وأربعين لهجةً. وكانت تلك التطلُّعات قد تجلّت من خلال تمرُّدٍ عسكريٍّ جبّارٍ نشب في عام ١٨٥٧، وكاد يُودي بالوجود البريطانيّ في الهند، لولا خيانة قَبضةٍ من المهراجات الموالين للمستعمرين، ممّا مكّن هؤلاء من سحق التمرّد في وحشيّةٍ مريعةٍ، ومن إحكام سيطرتهم بقبضةٍ فولاذيّةٍ.

ومضى شاعر الحلم الأمبرياليّ "روديار كيبلينغ" يُشيد بأولئك "السادة البيض" الذين خُلِقوا ليسوسوا "تلك الشعوب البائسة المحرومة من شرائعها" مؤكِّدًا أنّ "عنايةً إلهيّةً خفيّة المرامي، قد ألقت على كاهل الجنس البريطانيّ مسؤولية حكم الهند".

بيد أنّ جُذوة الثورة الوطنيّة ظلَّت متّقدةً تحت الرماد، وقد أسهمت عنجهيّة المستعمرين وأنانيّتهم في شبّ نيرانها، إلى أن حوَّل غاندي تلك الجُذوة إلى ثورةٍ عارمةٍ التهمت الوجود البريطانيّ المُصطَنع في الهند.

فقد كان البريطانيّون في الهند يعيشون في عزلةٍ عن الشعب الهنديّ، وفي عالَمٍ خاصٍّ بهم، لا يمتُّ إلى الهند بصلةٍ؛ كانوا يُحيطون أنفسَهم بتَرَفٍ فاضحٍ، وبَذْخٍ صارخٍ، وَسطَ بؤس الشعب الهنديّ الذي يندّ عن الوصف؛ كانوا يتبجّحون بتقاليدهم الديمقراطيّة، وينهجون، في الهند، أشرسَ ضُروب التسلُّط اللاأخلاقيّ كانوا يتحرّكون على إيقاع حياة لندن البورجوازيّة، وقد أصمُّوا آذانهم عن أنين شعبٍ مسحوقٍ هَصَرَه الظلم، وطحنته الفاقة، يعيشون بين ظَهرانيه.

وفي مذكّرات جواهر لال نهرو مقاطع موثِّرةٌ تُبرز مدى تعامي البريطانيّين، في الهند، عمّا كان يُحيق بهم، وانصرافهم عن هُموم الشعب الهنديّ المرهِقَة، إلى تَرَفهم المخزي، وجشعهم الاستعماريّ، مُنعَزلين في أبراجهم العاجيّة. يقول نهرو:

"كان البريطانيّون رجعيّين في نظرتهم وفي أهدافهم، وربَّمَا كان ذلك ناجمًا، بعضَ الشيء، عن مَحتِد القادمين الاجتماعيّ؛ ولكنّه، إلى حدٍّ بعيدٍ، كان نابعًا من رغبةٍ في توجيه التقدُّم، لا نحوَ خِدمة الشعب الهنديّ، بل صوبَ الحؤول دونَ المساس بمستَقبَل السَّيطرة البريطانيّة على الهند؛ وكانت جميع مواقفهم وسياساتهم تُعبِّر عن خَشيتهم من الشعب الذي أبوا الاندماج به، أو عجزوا عن ذلك الاندماج، وعن إيثارهم البقاء، جماعةَ حكّامٍ مُنعزلين، غُرباء، محاطين بإنسانيّةٍ مختلفةٍ عنهم كُلَّ الاختلاف، ومعاديةٍ لهم كلّ العداء...

"إنّ مدى جهل البريطانيّين للهند - خلا بعض أُولي الاختصاص، وقبضةٍ من سواهم - لا يُصدَّق. وإن هم لم يُفلحوا في الإحاطة بالوقائع ذاتها، فمَا أبعدهم عن اكتناه روحها! لقد تمكَّنوا من الهند، وامتلكوها جسديًّا، لا بل اغتصبوها. ولكنّهم ما فهموها، ولا هم حاولوا فهمَها، ولم يستطيعوا يومًا التحديق في عينيها: فعيونهم كانت شاردةً، وعيونها كانت مُطرِقةً خزيًا وذلاً؛ وفي أعقاب قرونٍ من الاتّصال، ظلّ البريطانيّون والهنود، وجهًا لوجهٍ، يُفعمهم بغضٌ متبادَلٌ". ويضيف نهرو:

"كان يبدو مُريعًا أن تُكبَّل بلادٌ في مثل اتِّساع الهند، وفي مثل غنى تاريخها المُوغِل في العَراقة، بيدَيها ورجلَيها، وتقيَّد بجزيرةٍ نائيةٍ تفرضُ عليها إرادتها؛ وبدا لي أشدَّ رَوعًا ما نَجَمَ عن هذا الارتباط القَسريّ من فَقرٍ وانحطاطٍ لا محدودَين".

ولدَينا عن ذَينك الفقر والانحطاط، وعن معاناةِ الشَّعب الهنديّ في تلك الحقبة، أمثلةٌ تُثير الدُّوار، وتقاريرُ تبعث على الغَثَيان.

ففي الثلاثينات من هذا القرن، ورغم إصلاحاتٍ جمّةٍ كانت قد طرأت على الأوضاع الاجتماعيّة في الهند، ورغم ارتفاعٍ محسوسٍ في مستوى العيش، اكتشفت لجنة تحقيق، في بومباي، داخل غرفة مساحتُها خمسةَ عشر قدمًا بطول عشرين قدمًا، ستَّة أسَرٍ بكامل أفرادها البالغ عددهم ثلاثين نفسًا من مختلف الأجيال والأعمار، منهم ثلاث نساءٍ مُشرفاتٍ على الولادة، ولكلٍّ أسرةٍ، داخلَ الغرفة موقدُها الخاصّ.

مثلُ ذلك الاكتظاظ الوبيل لم يكن استثنائيًّا نادرًا، بل كان يُمثِّلُ وضعًا شائعًا، ولئن كانت تلك هي الحال في الثلاثينات، فإنَّ تخيُّل ما كانت عليه في القرن السَّالف يغدو تخيُّلاً ليوم الحشر.

ويروي نهرو في مذكّراته: "**أذكر أنّني زرتُ بعض ضواحي البُؤس تلك، وبعضَ أكواخ عمَّال المعامل، فكدتُ أختنق من جرّاء الافتقار إلى الهواء، وخرجتُ مخبولاً، مُرتاعًا، ثائرًا**".

أمّا مدير الصحَّة العامّة في البنغال فقد أوضح في تقريرٍ له عن فترة ١٩٢٧/١٩٢٨، أنَّ فلاّحي تلك المنطقة كانوا "خاضعين لنظامٍ غذائيٍّ لا يقوى على العيش، معه، حتّى الفئران، أكثر من خمسة أسابيع".

لقد كان الفلاّح الهنديّ يَنفُق جوعًا، بيد أنّ قرونًا من النِّضال غير المتكافئ مع محيطه قد لقّنه المجالَدَة، فبات، في فقره، ورغم جوعه المُزمن، يحتفظ بشيءٍ من الكرامة المطمئنّة، وبشعورِ الخضوع لقَدَرٍ لا يُقاوَم.

وجاءَ غاندي ليستحثّ تلك الكرامةَ ويُعزّزها، ويوفِّر لها دواعي الأنفَة والكبرياء، وليُحوِّل الشُّعور بالاستسلام إلى نِضالٍ رائعٍ، عنيدٍ، مُصَمِّمٍ على تحقيق مراميه، بعيدًا عن العنف، بأساليبَ تستقي من حكمة الهند العريقة، ومن تعاليم بوذا ويسوع في الحبّ والتسامُح، أسلحةً لا تُفَلّ ولا تُقاوَم.

ومرّةً أُخرى، فلنستمع إلى أفضل شاهد عيانٍ على اقتحام غاندي ميدان السياسة الهنديّة، ولنتخيّل، معه، تلك الثورةَ الهادئةَ الجبّارة التي استنهضها في النفوس، قبل أن ينتقل بها إلى مواقع الصِّراع مع المستعمرين، ولنُنصِت إلى نهرو يقول:

"**وحينئذٍ جاء غاندي، مثل تيَّار هواءٍ مُنعِشٍ جبَّارٍ، أيقظنا وأتاح لنا أن نتنفَّسَ ملءَ رئتَينا، مثلَ شُعاع نورٍ مزَّقَ الظُّلمات، وأزاح عن عيوننا الغشاوة؛ مثلَ زوبعةٍ تقلب الأشياء، وتقلب، على الأخصّ، نهجَ العقول. لم يكُن ينحدر من علُ، بل بدا مُنبثقًا من وسط ملايين الهنود الذين كان يعي لغتَهم، ولا يني يلفِتُ الانتباهَ إليهم وإلى ما يعانُون من ظروفٍ شنيعةٍ، ولا يكفّ يردِّد على مسامعنا: لا تُرهقوا ظهورَ**

هؤلاء الفلاّحين والعمّال، أنتم الذين يعيشون من استغلالهم، وتخلَّصوا من النِّظام الذي يُولِّد هذا الفقر وهذا البؤس.

"ومذّاك، ارتَدَتِ الحُريَّةُ السياسيّةُ شكلاً قشيبًا، وتجدّد محتواها. لم نكُن نشاطر غاندي سوى جزءٍ من آرائه، وكنّا نرفُض بعضَها رفضًا قاطعًا، ولكن لم يكن لذلك كبير شأنٍ، إذ إنّ زبدة تعليمه كانت تتمثّل في الإقدام والحقيقة المقرونة بالعمل، والتي لا تَذهَل أبدًا عن النُّهوض بمصير الجماهير. كُتُبنا القديمة كانت قد لقَّنتنا أنَّ الجرأة "أبهايا" هي أمثَلُ خصال الفرد والأمّة؛ وهي ما كانت تعني الجرأَةَ الجسديَّة فحسبُ، بل جرأة الروح المتحرّر من الخوف. وكان "ياناكا" و"يانيفاكا" قد قالا، في فجر تاريخنا، إنّ مُهمّة قادة الشعب تكمُن في تحريره من الخوف، في حين أنّ المبدأ المُحرِّك، تحت الهيمنة البريطانيّة، كان الخوف، الخوف النفّاذ السَّاحق الخانق، الخوف من الجيش والشرطة، وأجهزة الاستخبارات السرِّيَّة المتخفِّية في كلِّ مُنعطفٍ، والخوف من الطبقة الرسميّة، ومن القوانين التي تستَهدِف الإعدام والسَّجن؛ والخوف من عملاء كبار الملاَّكين، ومن المُرابين؛ الخوف من البطالة والجوع المتربِّصَين أبدًا عن كثَبٍ. ضدَّ هذا الخوف الشائع الشامل، ارتفع صوتُ غاندي الهادئ الصَّامدُ مردّدًا: لا تخافوا! ولم يكُن ذلك على قدرٍ كبيرٍ من البساطة، مع أنَّ الخوف يستفزّ أشباحًا أشدّ إرهابًا من الواقع، فالواقعُ، عندما يُحلّل في هدوءٍ، وتُقبَل عواقبُه في حُريَّةٍ، يفقِد الكثير من مظاهره المُخيفة.

"وعلى هذا النحو، وبشكلٍ شبه مُباغتٍ، انزاح ستار الخوفِ القاتم الجاثم على كواهل الشَّعب، انزياحًا، وإن لم يكن كاملاً، إلاّ أنّه كان مُذهلاً إلى حدٍّ بعيدٍ. وكما أنَّ الخوفَ صديقٌ حميمٌ للكَذِب، كذلك تنبعُ الحقيقةُ من الجرأة.

"صحيحٌ أنّ الشَّعب الهنديّ لم يأخُذ، آنذاك، يمارس الحقيقةَ على نحوٍ أكثر تميّزًا، ولم تتبدّل طبيعتُه بين ليلةٍ وضحاها؛ بيد أنّ تحوّلاً في توجُّهه بات واضحًا بقدر ما تناقصت حاجته إلى الكَذِب والتكتُّم. لقد كان تحوُّلاً بسيكولوجيًّا يُمكِنُ عزوُه إلى طبيبٍ نفسيٍّ أرِب، يَسبُر ماضي المريض، ويكشف جذور عُقَدِه، ويجعله يعيها، ويُعتقُه من عبئها.

"كان، ثَمّة، موقفٌ بسيكولوجيٌّ آخر، وشعورٌ بالخجل، لكَوننا قد طالما خنعنا لسُلطةٍ أجنبيّةٍ كانت تُمعِنُ في الحطّ من قدرنا، وفي إذلالنا؛ مثلما كانت، ثمَّة، رغبةٌ في إلاّ نعودَ إلى الخُضوع أَبدًا، تحت أيّ ظرفٍ.

"ربّمَا لم نُصبح أكثرَ صدقًا ممّا كنّا، بيد أنّ غاندي، كان، أبدًا، ماثلاً، رمزًا لحقيقةٍ لا تساوِم، ليَحُول، في الوقت الملائم، دون شَطَطنا، ولينقُلَنا من موقعِ الخِزي إلى موقع الحقيقة... لست أعهَدُ أحدًا يتشبَّثُ بالحقيقة مثل غاندي، وإنّها لَخَصْلَةٌ تنطوي على خَطَرٍ لسياسيٍّ يَجهَرُ عَلنًا بمَا يجول في خاطره، ولا يستطيع حتّى إخفاء أنّه يُغيّر رأيه.

"ملايينُ من الناس، في الهند تأثَّروا بغاندي، بمقاديرَ مُتباينةٍ. فمنهم من تَبَدَّل نسيجُ وجودهم بأكمله، في حين أنّ تأثيره في آخرين كان أَقلَّ شأنًا، أو إنّه امّحى؛ ولكنّه لم يمَّحِ أبدًا بشكلٍ كاملٍ، إذ إنّ، ثمَّةَ، حقائق يتعذَّر تجاهُلها".

هذا التطوُّر الجَذريّ في النفوس والمواقف أتاح لنهرو أن يُعلن بلسان مواطنيه: "إنكلترا بلادٌ عظيمةٌ بجيوشها وأساطيلها، ولكنّها تجابهُ، اليوم، ما هو أشدُّ بأسًا. فعلى جيوشها وأساطيلها أن تُجابِهَ الأَلمَ الطَّوعيّ، والتضحيةَ بالذات، لدى أمّةٍ بأكملها، عازمةٍ على الظَفر بحُرِّيّتها؛ ولا يَسعُ أحدًا الارتياب في مصير مثل هذا الرِّهان. إنّنا نُناضل في سبيل حرّيَّاتنا، وحريّةَ وطننا ومعتقداتنا".

وأخيرًا تجدُر الإشارة إلى أنّ لمُنشِدِ أمجاد الاستعمار البريطانيّ في الهند، الشاعر "روديارد كيبلينغ"، قصيدةً ذائعةَ الشُّهرة يُعدّد فيها صفات الرجل الحقّ، فيقول:

« "إذا استَطَعتَ أن تشهَدَ انهيارَ ما قضَيتَ، في بنائِه، العمرَ كلَّه، فلم تنبُس بكلمةٍ، بل أكببتَ على البناءِ من جديدٍ،

"إذا خَسِرتَ، دَفعةً واحدةً، غنائمَ مئة معركةٍ، فلم تضطَرب ولم تتأَوّه،

"إذا احتمَلتَ سَماع أَقوالكَ يُشوِّهُها أوغادٌ من أجل استفزاز أغبياءٍ، وسمعتَ ما تُطلقُه عنكَ أفواههم الحمقى من افتراءٍ، وظَللتَ تأبى الكَذِب بكلمةٍ واحدةٍ،

"إذا استطعتَ أن تكون شعبيًّا، من غير أن تتخلّى عن وَقارك،

"وأن تكون من الشَّعب فردًا، وللمُلوكِ مُشيرًا،

"إذا استطعتَ أن تُحبّ الأصدقاء أجمعين، مثلما تُحبّ إخوةً لك، من غير أن يستأثر أحدُهم بقلبك كلِّه،

"إذا استطعت أن تكون عاشقًا من غير أن يذهبَ العشق بعقلك،

"إذا استطعتَ أن تكون قويًّا، من غير أن تتخلّى عن الرقّة،

"وإذا واجهتَ البُغضَ، فلم تُبغِض، بل كافحتَ ودافعتَ،

"إذا استطعتَ أن تكونَ صُلبًا، من غير أن تقودك الصَّلابةُ إلى الشَّراسة، يومًا،

"إذا استطعتَ أن تكون جريئًا، من غير أن تهوي إلى التهوُّر أبدًا،

"إذا امتلكتَ الخيرَ والحكمة، من غير أن تُصاب بالتزمُّت والتَحذلُق،

"إذا استطعتَ أن تتأمّل، وتُراقب، وتعرِف، ولم تَغْدُ ريَّابًا ولا هدَّامًا،

"إذا حلمتَ، ولم تستبدّ بك أحلامُك،

"إذا فكّرتَ، من غير أن تُصبح مُفَكِّرًا فحسْبُ،

"إذا استطعتَ تَلقّي النصر إثرَ الهزيمة، ومواجهةَ ذَينكَ المخادعَين بموقفٍ واحدٍ،

"إذا احتفظتَ بجُرأتك ورُشدك، حين يفقد الجميع جرأتهم ورُشدَهُم.

"حينئذٍ يغدو المُلوكُ والآلهةُ، والحظُّ والنَصرُ، عبيدًا لك طيّعينَ، إلى الأبد.

"لا بل إنَّك ستَظفر بمَا هو أرفعُ من المُلوك والمجدِ شأنًا:

"ستصبح رجلاً، يا بنيّ!" »

أوَليسَ من غريب المفارقات أنَّ "الرجل الحقّ، الذي قلّما تجمَّعَتْ لمثلِه كلُّ صفات الرُّجولة تلك، حتّى الكمال، هو ذاك الذي أفلحَ في تقويض الأمبراطوريّة البريطانيّة في الهند، وتحويل أسطورة رسالتها الإلهيّة، التي أَفاض في إنشادها روديار كيبلينغ، هباءً منثورًا، أعني به "مهنداس غاندي"؟!

امتحان الأشرم الأول: غاندي والمنبوذون

لم يُخفِ غاندي عن أصدقائه الهندوسيّين الذين خفُّوا إلى تقديم العَون الماليّ

لأشرمه الناشئ، أنّه كان يَتَطلّع إلى ضَمّ أسرةٍ من المنبوذين إليه، وأنّه لن يتورّع عن قبول أيِّ مُنتَسِبٍ إلى الأشرم، من المنبوذين الذين يَعُدُّ الهندوسيُّون ملامستَهم رِجسًا ودَنسًا.

ولم يعترض أصدقاءُ غاندي ومُموِّلوه، آنذاك، لقناعتهم باستحالة وُجود منبوذين تتوفّر لديهم الشُّروطُ المطلوبةُ للانضمام إلى الأشرم. غير أنّ فرصة الامتحان سُرعان ما سنحت، إذ وَرَدت إلى غاندي رسالةٌ من صديقٍ يبلغه فيها أنّ أسرةً وضيعةً من المنبوذين تودُّ الانضمامَ إلى الأشرم.

وقد كان لتلك الرسالة، في نفس غاندي، وقعٌ بليغٌ، إذ لم يتصوَّر أن تتحقَّقَ رغبتُه في مثل تلك السُّرعة؛ وناقش الأمرَ مع إخوانه، فأجمعوا على القُبول، في حماسٍ. وبادر غاندي إلى إبلاغ مُراسله ترحيبَه بأسرة المنبوذين، على أن يتقيَّد أفرادُها بنِظام الأَشرم وقواعده.

وما كادت الأسرةُ، المكوَّنةُ من مُدرِّسٍ وزوجته وطفلتهما، تحتلُّ مكانَها في الأَشرم، حتّى انهالَ على القاطنين فيه وابلٌ من العداء والمقاومة. وقد جاءت بادرةُ العِداء الأولى من شخصٍ يُقيم إلى جوار الأشرم، ويتقاسم مع أصحابه الحقَّ في بئر ماءٍ، وقد أخَذَ يشتمُهم، ويُقذِعُ لهم القَولَ كلّمَا حاولوا امتياح بعض الماء، بحُجَّة أنَّ الدَّلْوَ الذي كانوا يستخدمونه قد يكون قد لامَسَ أسرةَ المنبوذين، بحَيثُ يغدو له سببَ رِجسٍ وتدنيسٍ. إلاّ أنّ غاندي قد أهاب برفاقه، وبأسرة المنبوذين على السواء أن يَبتلِعوا الإهانات التي يُقذَفُون بها، ويتذرَّعوا بالصَّبر والحِلم.

حَملةُ المقاومة الأُخرى، والأَدهى خطورةً، قادَها أصدقاءُ الأَمس والمُحسِنون إلى الأشرم، إذ أوقفوا، بغتةً، كلَّ عونٍ، لا بل خطّطوا لمقاطعة الأشرميّين مقاطعةً اجتماعيّةً كاملةً؛ إلى أن جاء يومٌ أَنذَرَ فيه القيِّم على شؤون الأشرم الماليّة بأنّ الصُّندوقَ قد بات خاويًا، وبأَنَّ المؤونَةَ قد نفدت، ولم يبقَ، ثمَّةَ، ما يقوم بأوَد الجماعة في الأيّام المُقبلَة. وإذّاك، أعلنَ غاندي لأتباعه أنَّهم عندما لن يجدوا ما يطعمونَه، سينتقلونَ إلى أحد أحياء المنبوذين كي يعيشوا بين ظَهرانِيهم، مضطَلِعين بأيِّ عملٍ وضيعٍ يضمَنُ لهم لُقمةَ العيش.

غير أنّ العنايةَ الإلهيّة لم تتلكّأ في تداركهم بغَوثها، عندما وقف بباب الأشــرم، في غمرة تلك الأزمة، شيخٌ مجهولٌ يمتطي سيَّارةً فارهةً، وطلب مقابلــة غانــدي، وأبلغه بعزمه على تقديم مساعدةٍ للأشرم، إن كان غاندي موافقًا. ورحّــب غانــدي بالمساعدة، ولم يُخفِ أنّ الأشرم كان يقف، فعلاً، على شفا إفلاسٍ تامٍّ. ووعَدَ المُحسنُ المجهول بالعودة في مثل نفس الساعة من اليوم التالي. وفي الموعــد المــضروب، أوقف سيّارته عند باب الأشرم، وألقى بين يدَي غاندي رزمةً من الأوراق النقديّــة، بلغت قيمتُها ثلاثة عشر ألف روبيّةٍ، كانت تكفل للأشرم ما يعيله سحابة حَولٍ كاملٍ.

وبعدَ أن تولَّت العنايةُ الإلهيّة إخماد تلك العاصفة التي هبَّت على الأشــرم مــن الخارج، كان على غاندي أن يُواجه عاصِفةً داخليّةً أشدّ خُبثًا، وأكثر إقلاقًا له. إذ قــد أخذ يَلحَظ أنّ نساءَ الأشرم الهندوسيّات كنَّ يُقابلنَ الأسرةَ المنبوذة بشيءٍ من الجفاء، ينمُّ عن عَدَم تقبُّلهنَّ لوجودها بين ظهرانيهنّ. فدعا الأسرة الضَّيفة إلى التَحلّي بالأنــاة والحلم، كما عَمِلَ، من جهتِه، في كثيرٍ من الصَّبر والمثابرة، على اجتثاث مــا فــي نفُوس زوجته، وزوجات أصدقائه من نُفورٍ كمينٍ حيالَ المنبوذين، وتطيُّــرٍ مــنهم، رسّخته أوهامٌ منسوبةٌ إلى الدِّين. وبعدئذٍ عَمَدَ غاندي إلى تبنّي ابنة الأسرة المنبــوذة، واسمها "لاكشمي" التي باتت لا تبارحُه حتّى ساعة وفاته، وغدت له بمثابة عكّازٍ في شيخوخته. وبهذا التبنّي جعل من زوجته "كاستورباي، أمًّا لمنبوذةٍ.

وشيئًا فشيئًا، اندمجت الأسرة المنبوذة بالأَشرم، وعاد المُحسنون يَمُدُّون يَدَ العَون إلى مؤسَّسةٍ أعلنت تحدّيها الصَّريح لتقاليد المنبوذيّة، وبذلك استطاع غاندي أن يُحدِثَ شَرخًا رَحبًا في صَرح تقاليدَ دهريَّةٍ كان، هو، يرى فيها انتهاكًا للإنــسانيّة، وتنكّــرًا للدِّين، باسم الدين.

لقد غدا نِضال غاندي في سبيل مَحو لعنة المنبوذيَّة أحدَ أهدافه الأساسيّة؛ وقــد صرَّح، في هذا الصدد: "أنا لستُ راغبًا في التقمُّص والعيش من جديدٍ؛ ولكن إن كان عليّ أن أتقمّص فأودّ التقمُّص في شخصٍ منبوذٍ، كي أشــاطر المنبــوذين بُؤســهم وآلامهم، والإهاناتِ التي يواجهونها، ولكي أستطيع النِّضال في سبيلِ تحرير نفــسي

وتحريرهم من وضعهم البائس". وقال أيضًا: **"لو أُثبِت لي أنّ المنبوذيّة عُنصرٌ أساسيٌّ من الهندوسيّة، لأعلنتُ تنكُّري للهندوسيّة"**. فقد كان مُؤمنًا بأنّ المنبوذيّة بِدعَةٌ، بل وَرَمٌ خبيثٌ تغلغل في الهندوسيّة، فكان لا بدّ من تطهيرها منه.

ولكي يُبرهن عن صدِق شعوره حيالَ المنبوذين، لم يتورَّع، هو وأتباعُه، من الاضطلاع بالمهامّ الوضيعة أو القَذِرَة، التي كانت وقفًا على المنبوذين، مثل تنظيف المراحيض وما إليها.

كما أنّ غاندي قد ابتكر اسمًا مُفعمًا بالمغزى، أطلَقَه على تلك الفئة من الهندوسيّين المسحوقين، إذ دعاهم "هاريجان" أي أبناء الله، وقد أطلق، لاحقًا، هذا الاسم عينَه على الصحيفة التي اتَّخذها مِنبرًا لعمله السِّياسيِّ والاجتماعيّ.

لا مِريةَ أنَّ موقف التَحدّي هذا، الذي وقفَه غاندي من "المنبوذيّة"، قد أكسبَه حَنَق الكثيرين من الهندوسيّين المتعصّبين. ويبدو أنّ بعضَ الزعماء الذين اضطرّوا، في السنوات اللاّحقة إلى زيارة الأشرم، لاستشارة غاندي، لم يكُن يروقُ لهم ملامسة شخصٍ يُعاشر منبوذين، ويقوم بأعمالٍ مثل أعمالهم القَذِرة، لا بل إنّه تبنَّى طِفلةً من أطفالهم؛ وبالتَّالي فإنّهم كانوا يعمدون إلى الاغتسال والتطهُّر، في أعقاب اجتماعهم به. غير أنَّ مثل هؤلاء كانوا قلّةً شاذّةً؛ أمّا السَّواد الأعظم من الشعب الهندوسيّ البسيط، فكانوا رغم تعاطف غاندي مع المنبوذين، يَعُدُّونه قدّيسًا فذًّا، يلتمسون بَرَكَتَه، ويُقبلون، زَرافاتٍ، ليتبرَّكوا بالنَّظَر إليه، ويعتبرون مسّ رجلَيه حُظوةً فريدةً، لا بل إنّ بعضَهم كانوا يقبّلون آثار قدميه في التراب. وينبغي إلاّ يغرُب عن بالنا الجوّ المتزمّت المغرقُ في التعصُّب، الذي كان سائدًا، آنذاك، بين الهندوسيّين، كي نُدرِكَ أنّ إقدامَ غاندي على ضمِّ أسرةٍ من المنبوذين إلى أشرمه، بلهَ تبنّيه طفلتَها، كان بمثابة ثَورةٍ مزلزِلَةٍ أحدثت دويًّا هائلاً في كلّ أرجاء الهند. قد يكون أَحَدُ المُصلحين، من قبلُ، قد تجرّأ فانتقدَ مغالاة الهندوسيّين في إذلال المنبوذين، ولكنّ أَحدًا منهم لم يجسُر، قَطُّ، على نقل النقد إلى موقع التنفيذ العمليّ. أمّا غاندي، فقد أثبَتَ، مرّةً أُخرى، بالدَّليل المحسوس القاطع، أن لا فَرقَ لديه بين النَظرِيَّةِ والتَطبيق.

طريق التحدّي

يتَّضحُ من موقف غاندي من المنبوذين أنّ الزعامةَ جاءتهُ طائعةً، مع أنّه لم يسعَ قطُّ إليها، ولم يتوانَ يومًا عن انتهاج الدُّروب التي تُبعده عنها، فاختلاطُه بالمنبوذين وتبنّيه لهم، واضطلاعه بأعمالهم الوضيعة، في بَلَدٍ مُعظم سكّانه من الهندوسيّين المحافظين، المتشبّثين بالتقاليد الراسخة في أغوار العقول والنفوس، منذُ قرونٍ سحيقةٍ، كلُّ ذلك لم يكُن ليُقدم عليه سياسيٌّ محترفٌ يبتغي الوُصول.

صحيحٌ أنّ غاندي لم يكُن قد أصاب، بعدُ، شُهرةً ذائعةً، في الهند، غير أنّ صيتَ بُطولته، من جرَّاء مُقارعته لأَساطين الاستعمار في أفريقيا الجنوبيّة، وظهورهِ على الجنرالَين "سموتس" و"بوتا"، كان قد سبَقَهُ إلى الوَطن الأمّ، وكان من شأنه أن يضمَنَ له زعامةً سهلةً، لو هو توخّى انتهاز الفُرَصِ، ولا سيَّمَا في أَعقاب وفاة الزعيم كوخلي، وخُلوِّ السَّاحة. ولكنَّ الذين كانوا يقصُدونه مُتوقِّعين رُؤية أسدٍ جبّارٍ، أو سياسيٍّ عاتٍ مفوَّهٍ خبيرٍ باستفزاز المشاعر الوطنيّة، كانوا يفاجَؤون حين يُطالعهم رجلٌ ضئيلُ الحجم، زَريُّ الهندام، شبهُ عارٍ، يتكلّم بجرسٍ خافتٍ، مُبَشّرا بالمُثل الأخلاقيّة، وعوَضًا عن شَتم الإنكليز وتحميلهم وِزرَ كُلّ مآسي الهند وأوهانها، يُبرز ما فيهم وفي نظامهم من خِصالٍ، ولكنّه يزدري ما في حضارتهم من بريقٍ يخلُب ألباب الجماهير، ويضَعُ يدَه، بثِقَلٍ وتَبَصُّرٍ، على جروح الهند وأسقامِها التي يقعُ مُعظَمُ تَبعاتِها على الهنود أنفسهم.

كان غاندي لا يني يُطوِّفُ في شتّى أرجاء الهند، مستقِلاً عَرَبات قطارٍ من الدرَجة الثالثة، ويعاني في جسده ما يُعانيه سَوادُ الشعب الفقير؛ ويكتُبُ إلى السُّلطات شاكيًا إهمالَ المسؤولين عن سكَّة الحديد ولامبالاتهم، ومطالبًا بتحسين شُروطِ النَّقل في الدَّرَجة الثالثة، بحيث تليق بالبشر. وفي نفس الآن، يدعو المسافرين أَنفسَهم إلى التقيُّد بالنّظام والنَّظافة، والإقلاع عن البصق والتمخُّط في الأماكن المُعَدَّة لجلوسهم أو وُقوفهم، موقظًا فيهم احترامَهم لأنفسهم ولإخوانهم.

وفي عام ١٩١٦، سنَحت لغاندي فُرصةُ التكلُّم في اجتماعٍ عامٍّ كان يضمّ نُخبة

المجتمع السياسيّ في الهند، فلم يحدِ قَيدَ أنمُلةٍ عن نهجه القائم على عدم مداراة ذوي السُّلطان والمراكز، ولا مداهنةِ من يملكون مفاتيح الوُصول. وتعمّد الصراحةَ في النقد الذاتيّ مهما كان مُؤلمًا.

كان الاجتماعُ قد دعت إليه السيّدة "آنّ بيزانت" وهي إنكليزيّةٌ ربطت مصيرَها بمصير الهنود، وتبنّت تطلُّعات الشعب الهنديّ إلى الاستقلال، وأنشأت رابطةً للحكم الذاتيّ الهنديّ، تولّى رئاستَها الزعيمُ دادابهاي. كانت السيِّدة "بيزانت" قد أنشأت عام ١٨٩٢ مدرسةً في مدينة "بينارس" الهنديّة، ثُمّ تحوّلت تلك المدرسةُ، عام ١٩١٦، إلى معهدٍ مركزيٍّ تابعٍ للجامعة الهندوسيّة. وبتلك المناسبة أقيمت احتفالاتٌ استمرّت ثلاثة أيّامٍ، وقد حضرها نائب الملك، والمهراجات، وكبارُ الموظَّفين، فضلاً عن دهاقنة السياسة الهنديّة، وقد ازدانوا، جميعُهم، بأفخر الملابس، وأثمن الجواهر، وأَشدّها توهّجًا.

ودُعي غاندي إلى الكلام، في اليوم الثاني، فسَمِع الحضورُ لهجةً غريبةً لم يألفوها قطّ، تنطوي على صراحةٍ جارحةٍ، خاليةٍ من كلّ تبرُّجٍ أو تزويقٍ، خدشت أسماعَهم المرهَفَة، وهزّت رئاءهم المقنّع، فأرغموا غاندي على السكوت.

استهلّ غاندي خطابَه بقوله:

"إنّ صاحب السموّ، المهراجا الذي ترأّسَ أمسِ مناقشتَنا، قد تكلَّم عن فَقر الهند؛ وقد تبسَّطَ خطباءُ آخَرون حول نفس الموضوع. ولكن، ما الذي شَهِدناه، أثناءَ هذا الاحتفال الضَّخم؟ لقد شهدنا، بالتَّأكيد، استعراضًا مُغرِقًا في البذخ، ومهرجانًا للجواهر، كفيلاً بأن يُعَدّ مُتعةً فريدةً لعينَي أكبر صائغٍ قادمٍ من باريس. ولا يَسَعني إلاّ أن أقيم مقارنةً بين هؤلاء الارستقراطيّين المُثقلين بالزينةِ الثمينة وملايين المُعدَمين الذين أشعرُ بشُعورهم، وأعبّر عن لسان حالهم بالقول: 'لن يُكتَبَ للهند خلاصٌ، ما لم تنتزعوا هذه الجواهر، وتودعوها أمانةً لخِدمة مُواطنيكم الهنود الفقراء".

وفي حين جأرَ الطُّلابُ الذين كانوا يحضرون الحفلَ بصَيحات الاستحسان، تعالت من صفوف السياسيّين هَمهماتُ استنكارٍ. أمّا الأمراء، فأخذوا يتسلّلون إلى الخارج. وتابعَ غاندي خطابَه، في ثباتٍ:

"كلّما تنامى إلى سمعي أنّ قصرًا يُشاد في إحدى كُبريات المُدن الهنديَّة، سواءٌ في الهند البريطانيّة أو في تلك التي يحكمها زعماؤنا الكبار، تتولاّني الغيرةُ، وأقولُ: "إنّ هذا المالَ آتٍ من فلاّحينا". إنّنا لن نعرف، يومًا، شُعورًا عميقًا بالاستقلال، طالما نحن ننتزع من الفلاّحين. أو نَدع البعض ينتزع منهم مُعظَم نتاج عملهم. إنّ خلاصَنا لا يُمكن أن يأتيَ إلاّ من الفلاحين، فلا المحامون، ولا الأطبّاء ولا الملاّكون الأغنياء قادرون على توفيره لنا، والمؤتَمر أقلُّ قُدرةً من سواه على إنقاذنا... ما من إعلانٍ مكتوبٍ يستطيع أن يهبَنا استقلالَنا، وليست كمّيّةُ الخطابات هي التي ستُؤهِّلنا لأن نحكُم أنفسنا، بل سلوكنا وحدَه هو الكفيل بتأهيلنا لذلك، فكيف نحن نحكم ذواتِنا؟".

وبعدَ أن اعتذر غاندي عن اضطراره إلى التكلُّم بلغةٍ أجنبيّةٍ، هي الإنكليزيّة، قال إنّه قد زار، في الأَمس معبد "ڤيزوanاث" الهندوسيّ، وقد هالَهُ ما شاهدَ فيه من قذارةٍ، وفي المدخَل المؤدّي إليه من فوضى، ومن تراكم الأبنية الذي يجعل النفاذ إليه عسيرًا، فضلاً عن مظهر البشاعة الذي يُضفيه، وخلُص إلى القول:

"إن لم تكُن معابدُنا أنفسها نماذجَ للانفتاح والنَّظافة، فما الذي سيكون عليه استقلالنا؟ هل ستغدو معابدُنا موئل قداسةٍ ونظافةٍ وسلامٍ، بمجرَّد أن ينسحب البريطانيّون من الهند؟".

ثمّ هاجم بمرارةٍ عادات القذارة الرائجة في الهند، في طُرقاتها، وقطاراتها، وأنهُرِها. ولم يتورّع، في النهاية، عن توجيه النَّقد إلى السُّلطات الاستعماريّة بسبب التدابير الأمنيّة الزجريّة والقامعة التي رافقت زيارةَ نائب الملك إلى المدينة، وقال: **"إن نحن آمنّا بالله وخشيناه، فلن نخشى أحَدًا سواه، لا مهراجات، ولا نائبَ الملك، ولا مباحثَ، ولا حتّى الملكَ جورج"**.

وليس من العسير تصوُّر الصَّخَب الذي علا بين المجتمعين، ممّا حدا بالسيِّدة "آن بيزانت" إلى مخاطبة غاندي بقولها: "أَرجوكَ أن تتوقّف". فالتفت إليها وقال: **"إن كنتِ ترَين أنّني بكلامي هذا لا أخدُم وطني والأمبراطوريّة، فسأتوقّف حتمًا. أنا بانتظار أوامرك"**. وردّت السيّدة "بيزانت" مُحرجَةً: **"ابسُط موضوعك"**.

ولكنّ صَخَب الحاضرين طغى على صوت غاندي، في حين شرعت بعض الشخصيّات تنسحب من القاعة، وبات الجوّ مشحونًا بالنُّذُر، فآثر غاندي التوقُّف عن متابعة خطابه، وعاد إلى مكانه.

مثلُ هذه الصَّراحة غير المألوفة قد تُعدّ حماقةً لدى سياسيٍّ ما انفكّ في مُستَهلّ مشواره، غير أنّ ما كان يُميّز دوافعَ غاندي من صدِقٍ، وتشبُّثٍ بالحقّ، وإخلاصٍ لوطنه، وما كان يقوم بين أقواله وأفعاله من تطابُقٍ متَحرّرٍ من أيّ نفاقٍ أو رياءٍ، كلُّ ذلك قد ساعد ذلك الصَّوتَ الرقيقَ الذي ارتفع، فجأةً، في الحلبة الهنديّة، بنغمةٍ مُنفرَدةٍ، على النّفاذ إلى أقصى أرجاء البلاد، وعلى هزّ قلوب جماهير الهنود، الذين راحوا يتطلَّعون، في حُبٍّ وتقديرٍ، إلى ذلك الرجل النحيل، المتسلِّح بالجرأة والصَّراحة، الرافع راية الفقراء والضُّعفاء، في مواجهة الأَغنياء وأُولي النُّفوذ، من غير خَشيةٍ ولا مُواربةٍ، والذي يعيش في أَشرم، عيشةَ النُسَّاك والقدّيسين.

ومرّةً أُخرى، أثبتَ الشعبُ الهنديُّ أنَّه ربّمَا يَرهَبُ السُّلطانَ والثَّروة، غير أنّه يحترم الصِّدق والتضحية والتجرُّد، ويُحبُّ خادِمَ الفقراء المتواضع، الذي يعاني مثلَ بُؤسهم، ويخفق قلبُه بمثل مشاعرهم، ويتألّم لآلامِهِم ولا عَجَب، بالتالي، إن انهالت عليه، مذَّاك، طلباتُ الاستغاثة من كلِّ حَدبٍ وصَوبٍ.

وحريٌّ بالتّنويه أنّ غاندي، مع مُبادراته السياسيّة، لم يُغفِل مسيرتَه الروحيَّة، ولا هو كفّ، لحظةً، عن إحكام سيطرته على ذاته. فخلالَ تجواله في مختلَف مناطق الهند، كان يلقى، لدى بعض مُضيفيه حفاوةً تتَّصف بالمغالاة. وبمَا أنّ طعامه كان مقتصرًا على الفواكه الطازجة والمجفّفة، فقد كان مُضيفوه يبذلون قصارى وِسعهم ليُوفّروا له منها أفخرها وأشهاها وأفضلها إصلاحًا، بحيث كانت نساءُ المنازل التي يحلُّ فيها يقضينَ ساعاتٍ طويلةً من اللَّيل في تقشيرها وإعدادها. ولكنّ غاندي، في سبيل قطع دابر ذلك الإسراف النافل، والمتعارض مع نزعته إلى تبسيط عيشه إلى أبعد حدٍّ، ولكي لا يشغل الناس بخدمته، وهو المعنيُّ بخدمتهم، أعلن عن نَذره بألاّ

يتناول، في اليوم الواحد، من الأطعمة أكثر من خمس موادّ غذائيّةٍ[1]، وأن ينقطع عن أيّ طعامٍ، بعد غروب الشمس؛ ولكيلا يَدَع أَيّة ثغرةٍ تفسح للتأويل مجالاً، في المستقبل، عدّ أيّ دواءٍ قد يُضطرّ إلى تناوله من الأصناف الخمسة التي التزم بعدم تجاوزها في اليوم الواحد. وقد ظلّ وفيًّا لذلك النَّذر، حتّى رَمَقِه الأَخير.

محامي الفلاّحين

فيمَا كان غاندي، عام ١٩١٦، يحضَرُ إحدى جلسات "المؤتمر" السَّنوية، وافاه فلاّحٌ يُدعى "ريكومار شوكلا"، من ناحية "شامباران"، التابعة لمملكة "بيهار"، والجاثمة عند أقدام الهيمالايا. ولم يكن اسمها قد طرق، قطُّ، سمعَ المهاتما، من قبلُ.

كان ذلك الفلاّحُ قد فَزِعَ إلى "المؤتمر"، مُلتَمِسًا آذانًا تُصغي إلى ظُلامته، وظلامات إخوانه، فلاّحي "شامباران"، وقلبًا يتعاطف مع قضاياهم، وأَيديًا تمتَدُّ لمساعدتهم. وربُّمَا أُبلغ أنّ غاندي، وحدَه، كان كفيلاً بتوفير كُلّ ما كان ينشُدُه. بيدَ أنّ غاندي، كان، آنذاك، مُرتبطًا بالتزاماتٍ شتّى في مختلف أرجاء الهند، فما كان من "شوكلا" إلاّ أن لازمَه ملازمةَ ظلّه. وعندما عاد إلى الأشرم، كان ما انفكّ يتعقّبه، ومَكَثَ يُحاصره، أسبوعَين، مُطالبًا بإلحافٍ أن يصطحبه إلى "شامباران". وكان لذلك الإلحاف وقعٌ بليغٌ في نفس غاندي، الذي ضرب له موعدًا في كلكتّا، حيث كان عليه أن يمثُل بعدَ بضعة أشهرٍ.

وفي الموعد المحدّد، أي في مطلع عام ١٩١٧، كان "شوكلا" قابعًا في كلكتّا، ينتظر غاندي، ومن هناك استقلاّ القطار معًا إلى "شامباران"؛ وسرعان ما ذاع نبأ وُصول نصير المظلومين، فتقاطر فلاّحو المنطقة بُغيةَ رُؤيته والتحدّث إليه. كما شخص من محلّة "مظفّر بور" المجاورة، وفدٌ من المحامين ورجال القانون، وافوا غاندي ناصحين. وقد بادر غاندي إلى تبصيرهم بأنَّ رفع قضايا الفلاّحين إلى المحاكم لن يُؤدّي إلاّ إلى إرهاق كواهل أولئك القوم المُعدَمين، بنفقاتٍ وأجورٍ لا قِبَل لهم على

(1) جديرٌ بالتنويه أنّ طبق "سَلَطة" غالبًا ما يحتوي أكثر من خمس موادّ غذائيّة.

تحمّلها، من غير أن يظفر لهم بشيءٍ من حُقوقهم المهضومة، بحيثُ لا معـدى عـن انتهاج أسلوبٍ آخر. ثمّ استجوبهم غاندي عن الموقف الذي سيقفونه، إن هو زُجَّ به في السِّجن، فأجابه كبيرُهم: "إنّما نحن جئنا لكي نُسدي لك المشورة؛ أمّا إذا زُجّ بـك فـي السِّجن، فلن يبقى لمشورتنا شأنٌ، وسنقفلُ عائدين إلى منازلنا". وحينئذٍ سألهم غانـدي: "وما عساكم فاعلون إزاءَ ما يتعرَّض له فلاّحو منطقتكم من جَـورٍ وافتئـاتٍ؟". وقـد باغتهم السؤال فاختلوا للتشاور، وقد اتّضح لهم كلّ ما ينطوي عليه موقفُ غاندي مـن تَحَدٍّ، فإن كان، وهو الغريب عن المنطقة، يُجابه السِّجن برباطـة جـأشٍ، ذودًا عـن فلاّحيها، فإنّ تخاذلهم، وهم أبناءُ المنطقة، الذين يدَّعون رفع لواء الدّفاع عن الفلاّحين، لن يكون سوى خيانةٍ مُخزيةٍ، فعادوا إليه وأبلغوه تأهّبهم لمرافقته إلى الـسجن. حينئـذٍ هتف غاندي: "الآن كُتِب النَّصر لمعركة "شامباران". ثم سارع إلـى تنظـيم برنـامج سَجنهم، على التّوالي، اِثنين اثنَين، عندما يدعو إلى ذلك داعٍ.

"شامباران" منطقةٌ زراعيّةٌ كان يمتلك مُعظَمَ أراضيها إقطاعيُّون كبار، جُلُّهم من البريطانيّين، وكانوا يفرضونَ على الفلاّحين زراعةَ نسبةٍ تبلغ ١٥% مـن حقـولهم بالنيلة، على أن يَستَوفوا كاملَ المحصول لقاء أجرة الأرض، كما كـانوا يـستغلُّونهم أَبشعَ استغلالٍ، ويعامِلونهم بشراسةٍ.

وكان غاندي حريصًا على انتهاج أساليب الساتياغراها؛ فـسعى إلـى تحـرّي الحقيقة، كاملةً، من جميع منابعها، وإلى محاولة التَّوفيق بين الخُصُوم قبل اتخاذ أيّمَـا خُطوةٍ. فشرَع بمقابلة أمين سرّ اتّحاد الملاّكين البريطانيّين، الذي ردّه بفظاظةٍ، مُدَّعيًا أنّه يأبى الإدلاء بمعلوماتٍ إلى غريبٍ دخيلٍ. واكتفى غاندي بتبيان أنّ تلك الـصفاتِ لا تنطبق عليه. ثُمّ التجأ إلى مفوَّض المقاطعة البريطانيّ الذي أشبعه شتيمةً، وأوعـز إليه بمغادرة المنطقة في الحال؛ ولكنّ غاندي لم يَحفَل بأَمره، وانطلق إلى "موتيهاري" وهي حاضرةُ مقاطعة "يدهوت" التي تَقعُ فيها "شامباران" حيثُ كان جمع غفيرٌ مـن الفلاّحين في استقباله، وكان يرافقه رَهطٌ من المحامين المتطوِّعين لمـساعدته. وقـد حلّ، هو ورفاقه، في منزل واحدٍ من أبناء المدينة، وسُرعانَ ما تحوّل ذلك المنـزل، غرفةَ عمليّاتٍ.

ومنذُ اللَّيلة الأولى، ورَدَ تقريرٌ يُفيد أنّ أحد الفلاّحين، في قريةٍ مجاورةٍ، قد تعرَّضَ للإهانة والضَّرب. فعزم غاندي على المُضيّ، في صباح الغد، لتقصّي الأمر بنفسه، وامتطى لهذا الغرض ظهرَ فيل. ولكنّه ما كاد يقطعَ من الطريق سوى مسافةٍ قصيرةٍ، حتّى لَحِقَ به أحدُ رجال الأَمن، وأمرَهُ بالعودة معه، في سيّارته، ثُمَّ أبلغَه إنذارًا رسميًّا بوُجوب مغادرة المنطقة، في الحال، فكتب غاندي على الإنذار نفسه رفضَه الامتثال.

وفي اليوم التّالي، استُدعي إلى المحكمة بتُهمة العصيان، وذاع بين أهالي المدينة أنّ المهاتما، نصير الفلاّحين، يُجابه الحكومةَ، فزحفوا إلى قصر العدل، وأَحاقوا به، أُلوفًا ازدحمت بهم الطُّرُقَات؛ وكانت تلك المبادرةُ الجماهيرية العفويَّةُ، إنذارًا للحكومة، يُنبئ بأنّ كابوسَ الخوف الذي كانت تُرهِب به المواطنين قد اضمحلّ، إذ قد بات الشعب متأَهّبًا، في غير وَجَلٍ، لمساندة محاميه الذي عصى أمرًا تعسُّفيًّا. **"لقد انتبذ الشَّعب، آنذاك،** على حدّ قول غاندي، **خوفَ العقاب، وعزم على إلاّ يخضع لأيّة سُلطةٍ غير سُلطة صديقه الجديد، وكان هذا الأخير حبًّا صافيًا". ويضيف غاندي: "من خلال علاقاتي مع الفلاحين، كنتُ أجد نفسي وجهًا لوجهٍ مع الله واللاعنف والحقيقة".**

وقد زادَ غاندي من الإسقاط في يد الحكومة، عندما دعا الجماهير إلى التزام الهدوء والنّظام وضبط الذّات، كما أنّه، هو نفسه، كان يُقابل الموظّفين الحكوميّين ورجالَ الأمن في كثيرٍ من الكياسة والاحترام، بحيثُ تبيّن للسُّلطات أنّ التعاون معه أجدى من التصدّي له، فأوعزت إلى القاضي بإرجاء النظر في الدعوى، إلاّ أنّ غاندي رفض هذا الإرجاء، وحَرِصَ على الاعتراف جهرًا بعصيانه الأمرَ الصادرَ إليه بمغادرة المنطقة، وتلا بيانًا كان قد أَعدَّه، آناء اللّيل، علَّلَ فيه عصيانه الأَمر الحكوميّ بقوله:

"ثَمّة تباينٌ في الرأي بين الإدارة المحليّة وبيني. لقد وافيتُ هذه المنطقة بُغيةَ إسداء خدمةٍ إنسانيّةٍ ووطنيّة؛ وإنّما فعلتُ ذلك تلبيةً لدعوةٍ مُلحَّةٍ، وُجّهت لي، لكي أَمُدَّ يَدَ العون إلى فلاّحين يؤكِّدون، على نحوٍ قاطعٍ، أنّ الملاّكين لا يعاملونهم وفق قواعد العدل. ولم يكُن بمكنتي أن أُسدي لهم أيّما خدمة، ما لم أشرع بتقصّي

القضيّة، وقد أقبلتُ على تقصّيها آملاً الاعتماد، ما أمكن، على مؤازرة السُّلطة والمزارعين. ليس لمبادرتي أيّ دافعٍ آخر، ولا يسعُني الاعتقاد أنّ مِن شأن مجيئي تعكيرَ صَفو الأمن في شيءٍ، أو تسبيب خسائر في الأرواح البشريّة... بصفتي مواطنًا يحترم القوانين، كان واجبي الأَوّل الامتثال للأَمر الصادرِ إليّ، ولكن لم يكن بمُكنتي الخضوعُ له إلاّ بالتَنكُّر لواجبي تجاهَ مَن هم سبب وجودي ههنا. ويبدو لي أنني لا أقوى، في الوقت الراهن، على خِدمتهم خدمةً لائقةً إلاّ بمكوثي بين ظَهرانيهم، وبالتّالي لا يسعُني مبارحتهم عن طيبِ خاطرٍ؛ وإذ يَتَجَاذَبنِي واجبانِ متناقضان، لا يُمكِنُني سوى أن أُلقيَ على الإدارة المحلّية تَبِعَةَ انتزاعي عن هؤلاء القوم. وإنّني أعي وعيًا كاملاً أنّ رَجُلاً يحتلُّ، في حياةِ بلادنا العامّة، مثلَ ما أحتلّه من مركزٍ، يتعيّن عليه أن يكونَ شديدَ التيقُّظ للقُدوَة التي يُمثِّلها في نَظَر الآخرين. وإنّني راسخ القناعة بأنّه، في ظلِّ القوانين المُعقَّدة التي تسوسُ حياتَنا، ما من دَربٍ آمنٍ وكريمٍ يسع امرءًا حريصًا على كرامته انتهاجُه سوى ما عَزَمتُ أنا على سلوكه، أعني: الخضوع، من غير اعتراضٍ، لما يطال العصيانَ المدنيّ من عقابٍ.

"ولئن أنا أتحتُ لنفسي تلاوة هذا البيان، فإنّني لم أتوخَّ منه التماسَ تَخفِيضٍ للحُكم الذي ينبغي أن أناله، بل أردت أن أوضح أنّني قد رفضتُ الانصياعَ للأمر الذي أُنفذَ إليّ، لا انتقاصًا من الاحترام المتوجّب حيالَ السُّلطة الشَّرعيّة، بل امتثالاً لشريعةٍ أسمى كامنةٍ في كياننا: إلاّ وهي صوتُ الضمير".

لقد أخذ هذا البيانُ المباغِتُ المحكمةَ على حين غِرَّة، فلم يعُد بوسعها إرجاء النظر في القضيّة، غير أنّ حيرة القاضي قد حملته على تأجيلِ القرار. ثم إنّه ما لبِثَ أن كتب إلى غاندي يُحيطه علمًا بأنّ نائب الحاكم قد أمر بوقف ملاحقته، كما أبلغه رئيسُ الجُباة رفعَ جميع القُيود عن مواصلته التحقيق وتَقَفّي الأمور، ووَعَده بتوفير كُلّ مؤازرةٍ حكوميّةٍ قد يحتاجُ إليها.

وقد عقَّب غاندي على ذلك التَحوّل بقوله: **"لم يتوقَّع أحدٌ منّا أن تُفضي القضيّةُ إلى مِثل تلك النهاية السريعة والسعيدة".**

كان غاندي سعيدًا، حقًّا، لأنّه ألقى على البلاد بأسرها درسًا حيًّا في العصيان المدنيّ، بأسلوب الساتياغراها، وأثبت "**أنّ خدمة الشعب بتَجرّدٍ، في أيّ مجالٍ، تؤدّي، في نهاية الشَّوط، إلى توفير عونٍ سياسيٍّ للوطن**". وقد احتدم النقاش، في طول البلاد وعرضها، حول تلك الخُطوة، وتناولتها الصُّحف بفيضٍ من التعليق، غَيرَ أنّ غاندي الحريصَ على الحقيقة المجرَّدة، والذي كان يخشى أن يؤدّي تمادي الصحافيّين في نَشر أنباءٍ تتّسم بالمغالاة، أو في تعليقاتٍ تُثير حفيظةَ الموظَّفين الحكوميّين، فتدفعهم إلى الاثّئار من الفلاّحين المساكين، أهاب بالصحافة أن تُمسِكَ عن نَشرِ أيِّ شيءٍ يتعلّقُ بتلك القضيّة، عدا ما يُزوِّدها هو نفسه به من بياناتٍ.

وقد سعى الملاّكون إلى تلطيخ سُمعةِ غاندي ورفاقه بتُهَمٍ باطلةٍ مسمومةٍ، غيرَ أنَّ التزامَ غاندي بالحقيقة في أَدقِّ التفاصيل، وتنُكّبه عن المُهاترات، ونَصاعةَ مسلكه، وتجرّدَه، ومقابلتَه جميع خصومه بالمحبّة، كلُّ ذلك قد أعاد كَيد الكائدين إلى نحرهم.

وهكذا عَقدَ غاندي مع نائب الحاكم، لقاءاتٍ متكرّرةً، شُكِّلت، في أعقابها، لجنةٌ تضمُّ ممثِّلين عن الملاّكين، وموظّفين حكوميِّين، وغاندي ممثِّلاً وحيدًا عن الفلاّحين.

ومن جهة أُخرى عَمَدَ غاندي وأعوانُه إلى استجواب ألوف الفلاّحين بحضور ممثِّلٍ عن المباحث الجنائيّة، حِرصًا على مصداقيّة الإفادات، التي تجمّع منها أكوامٌ هائلةٌ كانت، كلُّها، تَدين الملاّكين، الذين لم يجدوا، في نهاية المطاف، بُدًّا من تعويض الفلاّحين عمّا اغتصبوه منهم افتئاتًا. كان بوسع غاندي قَسرُهم على ردّ جميع المبالغ التي سبق أن استوفُوها من الفلاحين، إلاّ أنّه قَبِلَ الاجتزاءَ بقسطٍ منها، إذ إنّه لم يتوخَّ إجراء عمليّةٍ حسابيَّةٍ دقيقةٍ، بل استهدف مرمًى أَدبيًّا واجتماعيًّا. وقد أفلح، فعلاً، في كَسرِ شَوكة غلواء الملاّكين وَصَلَفهم، وادّعاءهم التفوّق على القانون، وفي بَعثِ روح الثِّقة والشَجاعة في قلوب الفلاّحين، وطمأنتهم عن مكانة حقوقهم وصلابة الذّائدين عنها. وكان، من جرّاء هذا الانقلاب في العقليّات، أن شرَع الملاّكون البريطانيّون، بعد سنواتٍ قليلةٍ، يهجرون أراضيهم، ويُعيدونها إلى أصحابها الشرعيّين، الفلاّحين الهنود.

وفضلاً عن تلك المكاسب، أثبَتَ غاندي للبريطانيّين أنّهم لا يملكون أن يُصدروا إليه أوامرَ، في وَطَنه، أو أن ينتقصوا من حرِّيَّته. وكانت تلك خطوةً أولى، على درب الاستقلال الطويل الشّائك.

وكانت خطوتُه التالية، انسجامًا مع المنطق الذي التزمه، دأبَه على تأهيل مواطنيه للاستقلال، بتحريرهم من الجهل والقذارة، ولا سيَّمَا أنّهم كانوا، من كِلَيهما، على قِسطٍ وفيرٍ، بل مأسويٍّ.

فقد كان غاندي راسخ القناعة بأن لا نهوضَ للهند ما لم يتحرَّر ريفها المترامي الأطراف من الجَهل والمَرَض والتخلُّف. وقد هالَه ما شَهِد، في تلك البقعة، من استفحال القذارة، التي كانت تغصّ بها الأَزِقَّة؛ إذ كانت الحمأة والنَتَن تغزو الآبار، وتسطع روائحُها الكريهة في الساحات، بحيثُ شاعت الأمراض الجِلديَّة؛ هذا، فضلاً عن انتشار الأمِّيَّة، واستخدام الأولاد الصِّغار في أعمالٍ شاقّةٍ لقاءَ قرُوشٍ زريَّةٍ.

لم يكُن، ثمَّة، مَفرٌّ من إنشاء مدارس، لمكافحة الأمِّيّة، كما أنّ ضرورة نشر الوعي الصحّيّ، والقضاء على القذارة بدَت مُلحَّةً لازبةً. وإذ لم يكُن في مُكنَة الفلاّحين الفقراء الاضطلاع بأجور معلِّمين وأطبّاء، اكتفى منهم غاندي بتعهُّد تَوفير حاجات هؤلاء الأساسيّة من طعامٍ وإقامةٍ. وأعلَنَ عن حاجته إلى مُعلِّمين متطوّعين يرضَون بالعمل مجّانًا، لقاءَ أَوَدِ عَيشهم وسكنهم فحسبُ. وقد لاقى نداؤه استجابةً واسعةً، وتقاطَرَ المُتَطوِّعون، كما خفَّ إلى "شامباران" كلٌّ من "كاستورباي" زوجةُ غاندي، وأحدُ أبنائهما، وبعض أفراد "أشرم فينكس". وقد شدّد غاندي على أنّ تلقين مبادئ النظافة والسُّلوك القويم، يأتي في المقام الأوّل، ويسمو شأنًا على تعليم القراءة والكتابة والحساب. وقد عَمِلَ الجميع، بإشراف أطبّاءٍ متطوِّعين معنيِّين برسم خُطَط الإصلاح الصحّيّ، ومراقبة تنفيذها.

وقد أتيح لغاندي أن يشهد نماذجَ أوضاعٍ بائسةٍ لم يكُن حتّى لِيَتخيَّلَها. فقد استرعى انتباهه، في إحدى القرى، مدى قذارة ثياب نسوتها، وأوعَزَ إلى زوجته أن تحثَّهنّ على الاغتسال، وغسل ألبستهنّ. فما كان من إحدى نساء القرية إلاّ أن سحبت

"كاستورباي" من يَدِها واصطحبتها إلى منزلها الوضيع الخاوي، المُصفِرِ من كلِّ أثاثٍ، فإذا بالثَّوب الذي كانت ترتديه هو الوحيد الذي تمتلكه، بحيثُ لا سبيل إلى غسله أو تبديله، وقالت لها: "**فليأتني المهاتما بثوبٍ آخر حتّى أغسل ثيابي كلَّ يومٍ**".

مشاهدُ المعاناة هذه كانت تستأثر بمشاعر غاندي؛ وسَعيُه إلى تخفيفها كان يستنفدُ وقتَه وجُهدَه. فقد أعلن لأهالي شامباران: "**كنتُ أَعتقدُ أنّ باستطاعتي قضاءَ يومَين، لا غيرَ، في بلدكم، ولكنّني أدرك الآن أنّ العمل قد يستغرِق سنتَين، وأنا مستعدٌّ للمكوث معكم، هذه المدَّة كلَّها، إن اقتضى الأمر**".

وبالفعل سلَخ غاندي سبعةَ أشهرٍ مُتواصلةٍ في "شامباران"، ثمّ عاد فقضى فيها فتراتٍ متقطّعةً، متابعًا مشاريعه التعليميّة والصحيّة. وهكذا، حملته استغاثةُ فلاّحٍ أمّيٍّ على إنفاق سنةٍ كاملةٍ في تلبيتها. وإنّما هو، بذلك، كان يُلبّي نداءَ الخدمة المجّانيّة اللاّمحدودة الذي كان يضجّ في أعماقه، وفي آنٍ معًا، يُبرز نهجَه السياسيّ الفذّ، الذي لا يرى في السياسة نظريّاتٍ وأقوالاً، بل وقائع ناشبةً في حياة النّاس اليوميّة، وأعمالاً تخفّف وطأة بُؤس الملايين من المسحوقين؛ وهو بذلك، أيضًا، قد أوضح معالم السبيل الذي آلى على ذاته سلوكَه إلى استقلال الهند، بخَلق جيلٍ جديدٍ من المُواطنين الأَحرار، الواعين لكرامتهم: فقد تساوى، عنده، الاستقلالُ الوطنيّ، وخدمةُ الفلاّحين.

وخليقٌ بالتَّنويه أنّ غاندي، طوالَ إقامته في منطقة "شامباران"، كان يعيش عيشة فلاّحيها، ويرتدي مثلَ لباسهم، بل أَشدّ منه إزراءً؛ وقد اتّفق له أن حلّ، يومًا، ضيفًا على بيتٍ غريبٍ، وإذ لم يكُن هندامُه لينبئ بهويّته، ظنّه أهلُ البيت شحّاذًا مَتَشرّدًا، ومنعوه من امتياح ماء البئر، ومن استخدام المراحيض الداخليّة.

ويعلّق غاندي، في مذكّراته، على تلك الحقبة قائلاً: "**كان بودّي مواصلةُ عَمَلِ البناء هذا، طيلةَ بضع سنواتٍ، وافتتاح مدارس أُخرى، والتوغّل، بجدوى أوفر، في أعماق الرّيف، وكان الحقلُ، لذاك، مُعدًّا. ولكن، على نحو ما جرى، غالبًا، في ظروفٍ أُخرى، لم يأذَن لي الربُّ أن أمضيَ بمشاريعي إلى نهاية شَوطها**".

مهامٌّ أُخرى كانت تستدعيه لتزجّه، بعمقٍ وشدَّةٍ، في معمعان السياسة الاجتماعيّة، وتُتيح له إبرازَ وُجوهٍ أُخرى من تعامله مع قضايا النّاس.

إضرابٌ وصيامٌ

بارَحَ غاندي "شامباران" إلى "أحمد أباد"، حيث استدعاه خلافٌ مَستَحكِمٌ، ناشبٌ بين أرباب معامل النَّسيج وعُمّالهم الذين كانوا يشكون من ضآلة أجورهم، ومن شُروط العمل المُرهِقَة المفروضةِ عليهم.

وكان الأمرُ ينطوي على قَدرٍ وفيرٍ من الإحراج لغاندي، فهو، بِكلّ مشاعره وجوارحه، مع العُمّال المظلومين، مندفعٌ، بلا هوادةٍ، إلى الذَّود عن حقوقهم، ورَفع الضَّيم عنهم، في حين أنّ زعيم أرباب عمل النسيج، "أمبلال ساربهاي"، كان من أصدقائه المخلصين، وممّن يُمِدُّون أشرمَه ومشاريعَه بعَونٍ سخيٍّ، وكانت زوجته، هي أيضًا، تكنّ لغاندي من المحبّة والتقدير، أكثرَ ممّا تكنّ لأَخٍ عزيزٍ؛ أمّا شقيقته "أَنا سويا" فقد كانت تناصر غاندي بلا تحفُّظٍ، وقد غدت، فيمَا بعد، من أَخلص أعوانه، كما أنّها، في تلك القضيّة بالذات، قد وقفت مع غاندي إلى جانب العُمّال، في مواجهة أرباب العمل الذين يتزعّمهم شقيقها.

لقد اقترح غاندي، حِفاظًا على حُقوق الجميع، أن يتولّى تحكيمٌ محايدٌ فَصلَ الخلاف بين الطرفَين، وخليقٌ بالتَّنويه أنّ مبدأ التحكيم يُمثّل رُكنًا أساسيًّا من أركان فلسفة غاندي الاجتماعيّة، فالتحكيمُ يَنفي العُنف والإكراه، اللَّذَين قد تنطوي عليهما حتّى الصِّراعاتُ السلميّة؛ غيرَ أنّ أرباب العمل قد أبَوا مبدأ التحكيم في عنادٍ لا يلين، بحيثُ لم يجِد غاندي مَفرًّا من دعوةِ العمّال إلى الإضراب الشّامل؛ إلاّ أنّه، حرصًا على تأمين جدوى الإضراب، تباحث مُطوّلاً مع ممثِّلي العُمّال، وأقنعهم بالتزام الشُّروط التالية:

١- التنكُّب عن كُلّ ضربٍ من ضروب العنف.

٢- عَدَم التعرّض لمن يُخالفون حَركَة الإضراب، ويؤثرون مواصلةَ العمل.

٣- رفض أيّ إحسانٍ، والامتناعُ عن أيّ استعطاءٍ، طوالَ فترة الإضراب.

٤- الصُّمودُ، مهما طال أمَد الإضراب، وحثّ العمّال على تأمين أوَد عيشهم، في غضون ذلك، بأيّ عملٍ آخَر.

وضمانًا للالتزام بهذه الشروط، دعا غاندي جميعَ العُمّال، الذين آمنوا بضرورتها وجدواها إلى أن يُقسِموا بألاّ يستأنفوا العمل قبل الظَّفر بمطالبهم، وقبول أرباب العمل بمبدأ التحكيم. ولكي يشُدّ من عَضُدهم، ويؤازرَهُم على الثَّبات في ما عَزَموا عليه أمرَهم، كان يلتقي بهم كل يومٍ، تحت ظلال شجرةٍ وارفةٍ، على ضفاف نهر "سابرماتي"، ويدعوهم إلى تجديد قَسَمهم.

وهو، في غُضون ذلك، كان لا يني يَجهَدُ في إقناع أرباب العمل بقُبول مبدأ التحكيم، بيدَ أنّ محاولاتِه قد طالما قوبلت برفضٍ قاطعٍ. وقد ضرب غاندي، بموقفه من هذه القضيّة، مَثَلاً رائعًا فذًّا على الخصومة القائمة، في آنٍ معًا، على الوفاء للمبادئ، واحترام الخَصم، بعيدًا عن العِداء والضغينة؛ إذ إنّ صلابته في الذَّود عن العُمّال لم تُغيّر شيئًا من صداقته الحميمة لزعيم أرباب العمل، "أمبلال ساربهاي"، الذي، حتّى في حُميًّا احتدام الخلاف، لم يكفّ عن الاختلاف إلى الأشرم، حيثُ غالبًا ما كان يتناولُ وغاندي العشاء، وتقومُ بخدمتهما "أناسويا"، التي كانت قد أعلنت انضواءَها تحت لواء غاندي في دفاعه عن العمّال وحقوقهم.

وفي الرّسالة التالية التي أنفذها غاندي، آنذاك، إلى أمبلال، نموذجٌ عن أسلوبه في إقناع الخصم باستثارة أنبل كوامن نفسه، وكان قد كتب إليه قائلاً:

"إن أنت انتصرتَ، فالفقراء الذين يعانون، الآن، من الانسحاق سيزدادون انسحاقًا، وسيتضاعف شقاؤهم، وسيتأكّد الانطباعُ السائد بأنّ المالَ كفيلٌ بإذلال أيِّ إنسانٍ. أمّا إذا أفلح العُمّال في الظَّفر بمَا يطالبونَ به من علاوةٍ، رغم محاولاتكم، فأنتَ وآخرون معك، قد ترَون، في هذا المآل، إخفاقًا لكم. أيسعني، والحالة هذه، أن أتمنّى لك النَّجاح، وإصابة النتيجة الأولى؟ أوَترغب، حقًّا، في استفحال صلَف المال، وفي انتهاء العمّال إلى أقصى تُخُوم الخُنوع؟ أَو هل بلغ شعورُك نحوَهم من القسوة إلاّ تَعُدّ انتصارًا لك ظَفرهم بمَا هو حقّهم، وربّمَا ببعض قِطع نقودٍ، فوق ذلك؟ أوَلا ترى أنّ إخفاقك هو نصرُك الحقّ، وأنَّ انتصارَكَ هو خطرٌ عليك؟... أرجوكَ إنعام النَّظر، في أَغوار قلبك، والإصغاء المرهَف إلى الصوت الضئيل الذي يهمس فيه، والامتثال له. وبعد، هل لك أن تقاسمني العشاء؟".

وتمادى الإضراب، وأخذ الوَهَن والتراخي ينالان من عزيمة العُمّال المُضربين، فبات عددٌ منهم، منذ أسبوع الإضراب الثالث، يتقاعسون عن المشاركة في اللّقاءات اليوميّة، كما غدت نبرةُ الحاضرين، وهم يردّدون القَسَم، تنمُّ عن فتورٍ في الحماس؛ وأَوجَس غاندي خشيةً من أن تتحوّل أماراتُ الوَهَن هذه مدرجةً إلى نكثِ العُمّال لقَسَمهم، وتنازلهم عن حقوقهم، وكان ذلك الاحتمالُ أَجسمَ من أن يتحَمَّلَه، إذ كان من شأن الفَشَل الذي قد تُمنى به تلك المحاولة الرائدة ثَنيُ العُمّال والمظلومين، في شتّى أرجاء الهند، عن انتزاع حقوقهم المشروعة، بحيثُ تظلّ مَوازينُ القِوى الغاشمة هي السائدة.

وذاتَ صباحٍ، أَثناءَ اجتماع غاندي بالعُمّال، ومَضَت، في ذهنه، خاطِرَةٌ عبقريّةٌ، وألفى نفسَه، بَغتةً، يُعلن أنّه سينقطع عن تناول أيِّ طعامٍ، ما لم يُواصل المُضربون إضرابهم، بثباتٍ، حتّى الظَّفرِ بمطالبهم؛ وكان وقعُ المفاجأة حاسمًا، إذ تفجّرت الدموعُ من المآقي، وتعالت، من الصُّدور، صيحاتُ التَّصميم، مؤكِّدةً تشبُّث العُمّال بفحوى قَسَمهم، حتّى النصر، أو الموت.

ولا مِريَةَ أنّ قرار الصّيام كان ثَمرة تأمّلٍ طويلٍ، وشعورٍ راسخٍ بالتَّضامن مع العُمّال المظلومين، إذ كان غاندي قد كتَب، في تلك الفترة: "**نحن أنفسنا لن نُصيبَ طعامًا ولا كساءً، قبل أن نُوفِّر الغذاء واللِّباس للعمّال الذين أَلجأَهم تمادي النّضال إلى البؤس**".

كان غاندي، من قبلُ، قد أَلِف الصيامَ، بدافعٍ دينيٍّ، إلاّ أنّ ذاك كان صيامه الأوّل بدافعٍ اجتماعيٍّ، وقد أوضح لأرباب العمل الذين وفدوا لمقابلته إلاّ يروا في صيامه سِلاحًا مشهرًا في وجههم، أو وسيلةَ ضغطٍ عليهم، فهو يَعُدُّ نفسه عاملاً مُضربًا، ويعتبرُ صيامه تضامُنًا مع إخوانه المُضربين؛ وهكذا دأب، طوالَ حياته، على أن يكون صيامُه سندًا لأصدقائه، ووسيلةً لإصلاحهم، لا سلاحًا موجّهًا إلى الخصوم.

غيرَ أنّ منزلة المهاتما، لدى أرباب العمل، كانت من السموّ بمكانٍ، وتضحيتُه المجرّدة من كلِّ غايةٍ شخصيّةٍ قد فَضحت ما في موقفهم من أنانيّةٍ مُشينةٍ؛ ومن ثَمَّ فقد أعلنوا عن قبولهم بالتحكيم، بعدَ مُرور ثلاثة أيّامٍ على صيامه، وبعد أن شاعت بين الجانبين رغبةٌ مُخلصةٌ في التَّلاقي والتفاهم. وهكذا انتهى إضرابٌ استمرَّ أسابيعَ

ثلاثةً، بانتصار "الساتياغراها"، وكرَّسَ التحكيم شريعةً تُنظِّم علاقة العمّال بأرباب العمل، مدى عقودٍ طويلةٍ، في الهند.

وقد شَهِدَ مُفوَّض الحكومة البريطانيّة الاحتفالَ بانتهاء الإضراب، فتوجَّه إلى العمّال ناصحًا: "**عليكم إلاّ تحيدوا عن مبدأ العَمَل، دائمًا، وفِقًا لنصائح السيِّد غاندي**".

ولكن سُرعان ما تحوّل موقفُ ذلك المفوّض عينه، عندما اضطرّ غاندي إلى مخاصمته، دفاعًا عن فلاّحي منطقة "خيدا". وحينئذٍ، لم يتورَّع مفوّضُ الحكومة عن الإهابة بالفلاّحين إلاّ يُصغوا إلى غاندي؛ فقد كانت منطقة "خيدا"، التي تضمّ نحو ستّ مئة قريةٍ، تئِنُّ تحت عبء مواسمَ زراعيّةٍ رديئةٍ، بحيثُ تعذّر على فلاّحيها أداءُ ضريبة الدخل الزراعيّ. وقد تولّى بعضُ زعماء المنطقة التماسَ الحكومة كي ترجئ استيفاء تلك الضرائب، أو تعفي منها أكثر الفلاّحين تضرّرًا، بيدَ أنّ الحكومة قد أصمّت، دون التماسهم، آذانها. وإزاءَ ذلك التعنُّت، خاض غاندي، الذي كان، آنذاك، يشغل منصب رئيس مجلس منطقة الكوجارات، تلك المعركة، فحثّ الفلاّحين على رفض أداء الضرائب، حتّى لو أقدَمَت الحكومة على مُصادرة أَراضيهم.

المصلحة والواجب

رغم تصلُّب الحكومة في رفضِها التماسَ فلاحي "خيدا" وممثِّليهم، استجابَ غاندي لَطَلَبها تجنيد عَدَدٍ من أبناء المنطقة للمُساهمة في المجهود الحربيّ البريطانيّ، إذ كانت الحربُ العالميّة الأولى في حُميّا اندلاعها وقد أثارت استجابة غاندي تلك انتقادًا لاذعًا من قبل مواطنيه، الذين كانوا يأبَون مدَّ يد العون إلى دَولةٍ مُستعَمِرةٍ تُمسِك عنهم استقلالهم، وتهضم الكثيرَ من حُقوقهم؛ فضلاً عن أنّ بعضَهم كانوا يستنكرون إسهام غاندي في مجهودٍ حربيٍّ، وهو رسولُ اللاعنف.

بيدَ أنّ دوافع غاندي كانت تنبعُ من مجموعة قناعاتٍ مبدئيّةٍ؛ فهو على الصَّعيد السياسيّ، كان لا يزال يرجو أن تصبح الهند شريكةً لبريطانيا، كما كان هو حال كندا وأفريقيا الجنوبيّة، وبالتّالي فعليها أن تتعلّمَ الدفاعَ عن نفسها، وأن تضطلع بجميع

المسؤوليّات المترتّبة على شريكٍ في الأمبراطوريّة. ومن جهةٍ أُخرى، كان يرى، أنّ اللاعنف يُمثّل قمّة الشجاعة، وبمَا أنّ الشعب الهنديّ كان يُرشَق بتُهمة الجُبن، فقد تراءى له أنّ إقبالَ فئة من شبّانه على تقلّد السّلاح، للدّفاع عن الوَطن، كفيلٌ بغَسل الهند من وَصمة تلك التُّهمة.

وكان غاندي، على نحوٍ خاصٍّ، يُعارض فكرةَ استغلال محنة الخصم لانتزاع تنازُلاتٍ منه، تلك الفكرة التي كانت تنادي بها فئةٌ من السياسيّين الهنود.

ثمَّة دافعٌ آخر، رُبّمَا كان حاسمًا في تكوين قرار غاندي، إلاّ وهو رغبتُه الصَّادقةُ في مَدّ يَد العَون إلى المُسلمين، والتعبير لهم عن تَوقه إلى توثيق عُرى الوحدة الهندوسيّة الإسلاميّة؛ فهو قد شرَط مساهمته في التعبئة للمجهود الحربيّ بالإفراج عن الأخوَين شوكت ومحمّد علي، الزعيمَين المُسلمَين الوطنيّين البارزَين، اللّذين كانا، آنذاك، معتقلَين، وبتبنّي بريطانيا لمطالب المسلمين في مَا يتعلّق بحقوق "الخلافة"، والحفاظ على أماكن المُسلمين المقدّسة، في أعقاب الحرب.

ويقول غاندي، في هذا السِّياق: "**كنتُ أَنشدُ صداقةَ المُسلمين الطيّبين، وكنتُ توّاقًا إلى الإحاطة بكُنه الفكر الإسلاميّ، من خلال اتّصالي بأصغر مُمثّليه، وأخلصهم وطنيّةً. ولم أكن بحاجةٍ إلى من يدفعني كي أجتاز برِفقَتهم أطول شوطٍ من الطَّريق، طالما كان ذلك يُتيح لي النّفاذ إلى أَعماقهم الحميمة.**

"**في أفريقيا الجنوبيّة، سرُعانَ ما أَدركتُ أنّه لم تكن، ثمّةَ، صداقةٌ صادقةٌ بينَ الهندوسيّين والمُسلمين، وإنّني لم أفوّت، يومًا، فرصةً من شأنها إزالةُ العوائق من الطريق المؤدّي إلى وحدتهم. ولم أكُن أنزع، بالسَّليقة، إلى طمأنة أَحدٍ، باستخدام وسائل التملّق، أو على حساب الكرامة الشخصيّة. وقد أقنعتني تجاربي، في أفريقيا الجنوبيّة، أنّ قضيَّة الوحدة بين الهندوسيّين والمُسلمين هي التي ستعرّض مذهبَ "الأهيمسا" (اللاعنف) الذي أنتحله إلى أعسر اختبارٍ، وأنّ تلك القضيَّة، بالذات، ستُمثِّل أرحبَ حَقلٍ لتجاربي في مضمار "الأَهيمسا"؛ وهذه القناعة لم تتبدَّل، قطُّ، وليس، هناك، لحظةٌ، في حياتي، لا أَتبيَّنُ فيها أنَّ الربَّ يمتحِنُني**".

وحريٌّ بالتنويه، أنّ غاندي قد شرَط، أيضًا، لحضوره الجلسةَ التي دعا إليها نائبُ الملك، بُغيَةَ تعبئة قِوًى هنديّةٍ تُسهِم في المجهود الحربيّ، أن يتكلّم باللَّهجة الهندوستانيّة. وقد استجاب نائبُ الملك إلى طلبه على أن يُعقب خطابَه بكلمةٍ بالإنكليزيّة. وقد لاقت كلمةُ غاندي، الشديدة الاقتضاب، بالهندوستانيّ، ترحيبًا عارمًا، وتهنئة الجمهور الحارّة؛ بيد أنّ تلك التهنئة ذاتَها قد خلَّفت، في نفس غاندي، طَعمَ العلقم، إذ كشفت له مدى حرمان أبناء الهند من حقّ استخدام لُغاتهم الوطنيّة، في المحافل العامّة، ودَركات المهانة التي انزلقوا إليها.

على أيّة حال، أخفقت مساعي غاندي في سبيل تعبئة اثني عشر ألف جنديٍّ، حسبمَا كان قد توخّى؛ وكان، هو ذاتُه، نَهبًا لصراع نفسيٍّ مُضنٍ، تمزّقه نوازعُ متباينةٌ، متنابذةٌ: بين تَطلّعه إلى استقلال الهند التامّ، وولائه للأمبراطوريّة البريطانيّة، وبين اللاعنف، والرغبة في بعث روح الشجاعة لدى مُواطنيه، فضلاً عن أنّه، طوال فترة منافحته عن حقوق فلاّحي "خيدا"، واستفزاز متطوّعين للإسهام في الجُهد الحربيّ، كان قد قَصَر غذاءَه على زُبدة فستق العبيد واللَّيمون فحسبُ، فابتُليَ بعلّةٍ معويّةٍ حادّةٍ، وخارت قواه، بحيثُ استولى عليه الشُّعور بأنّه مُشفٍ على الهلاك؛ إلاّ أنّه كان لا يزال يرفُض جميعَ أنواع الطِبّ الحديث، وعلى نحوٍ خاصٍّ، الزّرقات الدوائيّة، ممّا ضاعَفَ انهيار صحّته، وكاد يُودَى به، لولا أن تداركَه مُداوٍ يمتهن المعالجة الطبيعيّة، وقد اقترح معالجتَه بالجليد، وقَبِل غاندي ذلك العلاج الخارجيّ، بلا تحفُّظٍ، ولحُسن طالعه، استعادَ، بفضله، بعضَ قِواه، وشهيَّته للطعام؛ غير أنّ المداوي قد حثَّه على تناوُل البيض غيرِ المُلقّح، والحليب، فنهضت، بذلك، مشكلةٌ مباغتةٌ، إذ كان غاندي يأبى، من مُنطَلَقٍ مبدئيٍّ دينيٍّ، تناوُل البيض، ملقّحًا أو غير ملقّحٍ، كما أنّه كان مرتبطًا بنَذرٍ يحرّم عليه تناوُل اللّبن، تعاطُفًا مع الأبقار، التي تُسام، في اعتقاده، شتّى ضروب العُنف، أثناء استحلابها.

وقد باءَت بالفَشَل جميعُ المساعي التي بَذَلها أصدقاء غاندي، مستشهدين بالكُتب الدينيّة الهندوسيّة، كي يبرّروا له تناوُل البيض غير الملقّح، واللّبن؛ وقد فسّر غاندي رفضَه العنيد بقوله:

"إنّ قضيّة النِّظام الغذائيّ كانت قد امتزجت امتزاجًا حميمًا بمسيرة حياتي، التي كانت تهديها مبادئ متحرّرةٌ من كلّ سُلطةٍ خارجيّة، بحيث بتٌّ عازفًا عن الحياة، إن هي كانت تعني التضحيةَ بتلك المبادئ، وكيف لي أن أتنكَّر - عندما يتعلّق الأمرُ بي شخصيًّا - لأيٍّ من المبادئ التي قد طالما قسَرتُ، بلا هوادةٍ، زوجتي، وأصدقائي، وأبنائي، على الوفاء لها؟".

وفي نهاية المطاف، لم يكن بُدٌّ من تدخُّل زوجته "كاستورباي" التي أبدت لـه أنّ نَذره لن يُضار، إن هو تناوَل حليب الماعز؛ ومع أنّ هذه الحجّة لم تنفذ إلى أغوار قناعته، إلاّ أنّ رغبتَه في مُواصلة الخدمة العامّة قد حملته على الأخذِ بها؛ وقد ظلّ حليبُ الماعز، حتّى آخر يومٍ في حياته، من ركائز غذائه الأساسيّة، ولكن، ظلّ تساؤلُه الدائم حول سلامة وفائه لنَذره بشأن تناوُل الحليب، يُراوده، ويُنغّص عيشَه.

فريق الاستقلال

في تلك المرحلة، أخذ يلتفُّ، حَولَ غاندي، فريقٌ من الأعوان الذين سَحَرهم ذلك السياسيُّ الفريدُ الطراز، بشخصيّته، وأسلوبه، وصدقه، ورُؤيته القشيبة؛ وقد جاؤوا من آفاقٍ مختلفةٍ، ومعظمهم من أوساطٍ بورجوازيّةٍ؛ وللمرَّة الأولى، رأوا، بعَيني غاندي، الصورةَ الحقَّة للهند، وطن العري، والانسحاق، والبُؤس الذي لا يُحيط به وصفٌ، وحذَوا حذوَه، فتعلّموا محاورة الفلاّحين، وخدمتَهم ومساندتهم، وبذلك اكتشفوا، في آنٍ معًا، طاقاتهم الكمينة، ومسؤوليَّاتهم الجسام. ونذكر من هؤلاء:

- "مهاديف ديساي"، الذي سيظلّ، طوالَ أربعين عامًا، أمين أسرار غاندي، وذراعَه اليمنى.
- "راجندرا براشاد" الذي سيغدو رئيسًا لجمهوريّة الهند المستقلّة
- الشاعرة "ساروجيني نادو" ذات العبارات الملتهبة.
- "أناسويا بهْن" شقيقة أكبر صناعيّي أحمد آباد، وقد أسلفنا ذكرَها.
- الصحفيّ البريطانيّ "هورنيمان" رئيس تحرير "نيوكرونيكل" الصادرة في بومباي.

غير أنّ أبرزهم كان "ڤالابهاي باتل"، المحامي المتألّق، الذي هجر مكتبه ومهنته، كي يربُطَ مصيره بمصير غاندي، ويتأَثَّر خُطاه، وقد غدا من أعضاء المؤتمر البارزين، ووزيرًا في حكومة الاستقلال الأولى، التي رئسها نهرو، إلاّ أنّه غالبًا ما انحرف عن جادّة اللاعنف التي انتهَجها والتزمَها غاندي.

وقد التفَّ حول غاندي، أيضًا، العديد من الزُّعماء السياسيّين الهنود، ونخبةٌ من الأوروبيّين الذين تبنّوا القضيّة الهنديّة، وفي طليعتهم السيّدة "آنّ بيزانت"، ورجلُ الدّين المسيحيّ "تشارلز اندروز"، الذي اعتنق رؤى غاندي، وأسلوبَه، بلا تحفُّظٍ، ولازَمَه ملازمة ظلّه، وقاسَمه آماله وأحلامه، وآلامه وخيباته، وكفاحه، وبذَلَ، في خدمته وخدمة القضيّة الهنديّة، كلَّ طاقاته. وكان غاندي قد أطلق على "تشارلي"، كما كان يدعوه تودُّدًا، لقب "السامريّ الرؤوف"، ملمّحًا إلى ذلك الغريب الذي ضرَبَ به يسوع مَثلاً على الإخاء الإنسانيّ الصادق، وأَلِفَ أن يقول فيه إنّه له خيرٌ من أخٍ. إنّ غاندي، الهندوسيّ القدّيس، لم يلقَ أَفضلَ قداسةً من المسيحيّ أندروز، كما أنَّ رجل الدِّين المسيحيّ، أندروز، لم يعهد أصدقَ مسيحيّةً من الهندوسيّ غاندي. وقد توثّقت وشائج الإخاء بينهما، لأنّ كلاً منهما كان صادق التديُّن.

وفي تلك الحقبة، أيضًا، شرع غاندي يُعيد النَّظر في ولائه للأمبراطوريّة البريطانيّة، ولا سيَّمَا في أعقاب انتهاء الحرب العالميّة، وتنكّر بريطانيا للوعود التي كان كبار مسؤوليها قد تعهّدوا، بموجبها، منح الهند من الحرّيّات، والسُّلطات الذاتيّة ما يجعل منها شريكةً، على غرار أوستراليا، وكندا، وسواهما، مثلما تنكّروا لوعودهم بمناصرة مطالب المسلمين.

لقد أخذت تتجلّى لغاندي حقيقة السياسة البريطانيّة في الهند: مزيجًا من مداراة آمال الهنود في التحرّر، وفي آنٍ معًا، سعيٍ إلى إجهاض تلك الآمال، وذريعتُهم الأَثيرةُ إلى ذلك، إذكاءُ نَعَرات العِداء بين الهندوسيّين والمُسلمين، ومناصرةُ هؤلاء حينًا، وأولئك حينًا آخر.

فقد كان البريطانيّون، في الهند، يؤلّفون، في واقع الأمر، طبَقةً خامسةً ممتازةً، تسمو فوق جميع الطبَقات الاجتماعيّة وتتطاول عليها، طبقةً تنظُر شَزرًا إلى جميع الهنود، حتّى المثقَّفين منهم والأثرياء، نظرةً أكثرَ ازدراءً من نظرة الهندوسيّين إلى المنبوذين، لقد كانوا أَسيادًا صلِفين، في بلدٍ ليس بلدهم، وكان مجرَّدُ وجودِهم فيه إذلالاً للهند.

مُذّاك، وسحابةَ السّنوات الثلاثين التي تبقّت من حياته، طفق غاندي يشنّ حَربًا ضروسًا على جبهاتٍ ثلاثٍ: على نفسه، وعلى كلّ مَوطن وهنٍ فيها؛ وعلى تخلُّف الهند وتمزُّقها، وعلى الاستعمار البريطانيّ اللامشروع.

"هارتال"

كان غاندي ما برح يحبو نحو التماثُل والعافية، عندما أُحيط علمًا بمشروع قانون "رولات"، الذي كانت السُّلطات المستعمرة تعتزم إقراره، متذرّعةً بحجّة بعض أعمال شَغَبٍ تنشُب هنا أو هناك، في مختلف أرجاء الهند، لكي تفرِض على البلاد بأسرها نظام الطوارئ، والسُّلطات الاستثنائيّة.

وقد استشفّ غاندي، في مثل هذا القانون، انتقاصًا مفضوحًا من حرّيّة الهنود وكرامتهم، فاستفزّ أصدقاءه لمقاومته بأسلوب "الساتياغراها"، بعد أن أقسموا على عصيان ذلك القانون، إن هو أُقِرَّ، وعصيان أيّ قانونٍ آخَر مستوحًى منه، وعلى تحرّي الحقيقة بإخلاصٍ، والتنكّب عن كلّ عُنفٍ حيالَ الأشخاص والممتلكات. ثمّ أطلع غاندي الصحافة على رأيه في هذا الشأن، وعمّا عَزَمَ عليه أمرَه، هو وصحبه؛ وإذ لم يكن يتوقّع إقدام المؤسَّسات السياسيّة القائمة على ممارسة أساليب "الساتياغراها"، التي لم تكن قد ألِفَتها، فقد لجأ إلى تأسيس "جمعيّة الساتياغراها"، التي اتّخذت لها بومباي مقرًّا، وغاندي رئيسًا. ولم يَخفَ عن غاندي أنّ أساليب "الساتياغراها" لم تكن لتجتذبَ مُحترفي السياسة، وأنّ سَوادَ المُثقّفين ما كانوا ليستسيغوها؛ ولكنّ ذلك الواقع لم يردعه عن المُضيّ قُدُمًا في كفاحه المرسوم.

في غضون ذلك، كانت التعبئةُ الشعبيّة في مواجهة مشروع قانون "رولات" تكتسب شيوعًا مطّردًا، وكثافةً متزايدةً، وأخذ الزعماء السياسيّون يُنذرون الحكومةَ

المستعمِرة بالإحجام عن إقرار ذلك القانون. وكانت الحكومة تتصنّع الإصغاء إليهم، في حين هي كانت قد أقرّت القانون فعلاً، ومضَت تسعى إلى خلع صيغة الشرعيّة عليه، وما لبثت أن أعلنته في الجريدة الرسميّة.

وبلغ سُخط الهنود ذروتَه. غير أنّ أحدًا لم يهتدِ إلى النَّهج الأمثل لمواجهة الموقف؛ وانشدّت الأبصار إلى الزعيم الجديد، غاندي، صاحب المبادرات المُدهشة.

وعشيّة نشر القانون في الجريدة الرسميّة، تناقش غاندي وأعوانه نقاشًا مستفيضًا، لم ينجُم عنه أيُّ إجماعٍ على خطّةٍ محدَّدة؛ وأخلد غاندي إلى النوم، وهو نهبٌ لصراعٍ نفسيٍّ مضنٍ، تتناوشه مذاهب شتّى؛ وأفاقَ، باكرًا، عند الفجر، وفيمَا ذهنه ما انفكّ يتأرجح بين الصحو والسُّبات، بادرته خاطرةٌ متوهّجةٌ، مثل حُلمٍ متألّقٍ، كشف عنه النقاب لصحبه، في الصَّباح قائلاً: "**علينا أن ندعو البلاد بأجمعها إلى التزام "هارتال"[(١)] شاملٍ. إنّ "الساتياغراها" حركة تَطَهّرٍ ذاتيٍّ، والمعركة التي نقودها إنّما هي كفاحٌ مقدَّسٌ؛ ومن ثمّ لا شيء، في نظري، أكثرُ ملاءَمةً من استهلال تلك الحركة بفعل تطهُّرٍ للذات. فلينقطع شعب الهند بأجمعه، إذن، عن كلّ نشاطٍ، في ذلك اليوم، وليلتزم بالصَّلاة والصَّوم طوال أربعٍ وعشرين ساعةً**".

كان غاندي واثقًا من أنّ مقاطعات بومباي ومدراس والبيهار والسند لن تتقاعس عن الاستجابة لنداء "الهارتال"، وكان من شأن تلك الاستجابة، حتّى لو لم تَحذُ حذوَها أيَّةُ مقاطعةٍ أُخرى، أن تُسبغَ على حركة "الساتياغراها" طابعًا مؤثّرًا، يلفت إليها اهتمام الهنود والبريطانيِّين، على السواء.

بيدَ أنّ استجابة البلاد بأسرها، يوم الثلاثين من آذار ١٩١٩، في بعض المقاطعات، ويوم السادس من نيسان في المقاطعات الأُخرى، للنداء الذي كان غاندي قد أذاعه في الثالث والعشرين من آذار، قد تجاوزت كلّ توقّعاته، وكانت لها أصداءُ مدوِّيةٌ هزّت كبرياء الهنود، طَرَبًا، وهزّت أركان الأمبراطوريّة المستعمرة، قَلَقًا.

---

(١) ليس "الهارتال" إضرابًا فحسْبُ، وفق مفهومنا الرائج، بل هو وِقفة تطهُّرٍ نفسيٍّ وانقطاعٍ، وصلاةٍ وصيامٍ، وتمرّسٍ بضبط النفس، وتشبّثٍ بالحقّ واللاعنف، وحدادٍ، ومعارضةٍ صامتةٍ.

لقد ردّت الهندُ بأكملها على تحدّي سُلطات الاستعمار بصمتٍ وسُكونٍ يُحاكيان صمتَ الموت وسكونَه؛ وفجأةً اكتشف الهُنود أنّهم يُشكّلون وحدةً متماسكةً في مواجهة الدَّخيل الذي يعمل على إذلالهم، وأَبصرت النورَ قوّةٌ قشيبةٌ جبّارةٌ.

وكان أوّل المذهولين زعماء سياسيّون ومثقّفون هنودٌ ممّن استخفّوا بنداء غاندي، لا بل سخروا من أسلوبه الذي تخيّلوه واهمًا، لا واقعيًّا، عديمَ الجدوى؛ لقد فاتهم ما كان يُلهب صدرَه من حُمّى النبوّة التي لا تتقاعس ولا تتهاون، تلك الحُمّى الشديدة العدوى، الكفيلة بالتفشّي بين صفوف الجماهير المقرورة المتطلّعة إلى شمس الحرّية والكرامة؛ كما فاتهم ما كان يتمتّع به من عبقريّةٍ في النَّفاذ إلى قلوب الجماهير وعقولها بأفكارٍ بسيطةٍ، يُمكن شرحُها بكَلماتٍ معدوداتٍ تُدرِكها أكثرُ الأذهان بدائيّةً، ولا يحتاجُ تنفيذها سوى إلى قَدرٍ يسير من الجهد؛ فهو لم يدعُ مواطنيه إلى انتهاك القوانين انتهاكًا صارخًا، ولا إلى التصدّي لهراوات رجال الشُّرطة وبنادقهم، بل إنّه دعاهم إلى الامتناع عن أيّ عملٍ، وإلى التزامِ السكون فحسبُ، فكان السكّونُ حركةَ عِصيانٍ مُزَلزلةً؛ لقد أعطاهم ما كانوا يفتقرون إليه: الإيمان بذواتهم وبقُدراتهم، فجعل منهم قوّةً هائلةً.

وفي يوم "الهارتال" المشهود، عُقدت اجتماعاتٌ حاشدةٌ في كبريات المُدن الهنديّة، على تآلفٍ ووئامٍ واندفاعٍ؛ ودُعي بعض الهندوسيّين إلى الخطابة في كبريات المساجد، على حدّ ما فعل غاندي نفسه، والشاعرة "نادو" في "مسجد الجمعة" في بومباي؛ كما أَمَّ المسلمون المعابدَ الهندوسيّة، وتدارَس المجتمعون وسائل الإعراب عن العصيان المدنيّ، وقد انطوت قراراتهم، فيمَا انطوت، على استخراج الملح، للاستخدام الشخصيّ، تحدّيًا للقوانين الجائرة التي كانت تجعل من المِلح حِكرًا على سُلطان الاستعمار، وتفرِض عليه ضرائبَ باهظةً؛ وقد صدرت الدعوة أيضا إلى توزيع بعض الكتب ذات النفحة الوطنيّة التي كانت السُّلطات قد حظرتها، ومنها كتابا غاندي "هند سواراج" و"شارڤودايا" اللذين طُبعت منهما، على الفَور، ألوف النسخ، فنفدت جميعُها، في غُضون ساعاتٍ معدوداتٍ، مع أنّ تعليمات غاندي كانت تقتضي بأن يُلفَتَ نَظر كلِّ شارٍ لأحد تلك الكتب إلى أنّه قد يتعرّض، من جرّاء ذلك، للسَّجن؛

ولكن، في غمرة الاندفاع، لم يكُن السَّجن يُرهِبُ أحدًا؛ وبمَا أنّ ريع الكتُب المباعة كان سيوظّف في دَعم حركة العصيان المدنيّ، فقد أَقبلَ الشّارون على أداء أضعاف ثمنها المعلَن، بل مئات الأضعاف أحيانًا.

هذا، وكان غاندي قد أَخطر نائب الملك بأنّ حملة "الساتياغراها" تمثّل محاولةً لإحداث ثورةٍ في السِّياسة، وإعادة القوة الأدبيّة إلى موقعها الأصيل.

كما أنّه قال، في رسالةٍ إلى الرئيس الأميركي ويلسون، أحدِ مؤسّسي جمعيّة الأمَم: "**إنّنا نأمل أن نُظهِر بعملنا هذا أنّ القوَّة البهيميّة ليست بشيءٍ إذا ما قورنت بالقوّة الأَدبيّة، وأَنَّ القوّةَ الأدبيّة لا تفشَل أَبدًا**".

إلاّ أنّ بعض السياسيّين الذين لم يرتاحوا إلى بروز غاندي قائدًا سياسيًّا قد أَلمحوا، ماكِرين، إلى أنّ حركة الساتياغراها إنّما تُمهّد لنشر البلشفيّة؛ فرَدَّ غاندي، في خطابٍ أَلقاه في "مدراس": "**إن كان، ثمّةَ، حاجزٌ كفيلٌ بدرء كارثة البلشفيّة عن بلادنا، فهو "الساتياغراها". فما البلشفيّة سوى نتيجةٍ حتميّةٍ للحضارة الماديّة الحديثة التي، بمغالاتها المأفونة في عبادة المادَّة، قد أَسهمت في إنشاء مدرسةٍ تَعُدّ التقدّم المادّيَّ غايتَها القُصوى، وفقدت كلَّ صلةٍ بغايات الحياة الأخيرة. إنّني أتنبّأ بأنّنا، إذا ما عصينا شريعة تفوّق الروح على المادّة، وتفوّق الحرّيّة والمحبّة على القوّة البهيميّة، ففي غضون سنواتٍ سنرى البلشفيّة تغزو هذه البلاد التي كانت، من قبلُ، مقدَّسةً**".

كان ذلك "الهارتال" هو أوّل عملٍ سياسيٍّ، على نطاق الهند بأسرها، يضطلع به غاندي في وطنه، وبه استهلَّ ثمانيةً وعشرين عامًا من مُقارعة الاستعمار البريطانيّ، الذي لم يَجِد، في نهايتها، بُدًّا من الاستسلام والرحيل.

وقد عقّب نهرو، في مُذكّراته، على خطوة غاندي تلك:

"**لم يكن غاندي يُبرِز، أبدًا، من المشكلة وجهَها العقلانيّ، بل كان يؤكّد على مِنعة الخُلُق، والتقوى. وهكذا نَجَح، نجاحًا باهرًا، في حَمل شعب الهند، على تقويم ظَهرِهِ المُنحني، واستعادة هويّته... وبغتةً هبّ شعبٌ بائسٌ، متأخِّرٌ، محطَّمٌ، وأسهَم**

في عملٍ جماعيٍّ منظَّمٍ، على مستوى البلاد بأسرها. وقد اتّضح لنا أنّ ذلك العَمَلَ، في ذاته، كان كفيلاً بأن يُخوِّل الجماهير قُدرةً لا تُقاوَم".

ولكن، سُرعانَ ما اتَّضح أنّ نجاح "الهارتال" لم يكن دليلاً كافيًا على نُضوج الشعب الهنديّ لأَساليب "الساتياغراها" واللاّعنف، بل رُبّمَا استفزّ ذلك النجاحُ نفسُه أَهواء بعض المتهوِّرين، فنَشِبت أعمال عُنفٍ في أرجاءٍ شتّى من الهند، وأُريقت دماءٌ غزيرةٌ؛ كما أنّ ممثّلين عن السُّلطات المستعمرة، وقد أذهلهم شمول "الهارتال" وإجماعه، استفرسوا، واضطرمت في صدورهم غرائزُ التنكيل والاثّأر، فأطلقوا النارَ على تجمُّعات المُضربين في كلٍّ من بومباي، ولاهور، واقترفوا، في "أمريستار" مجزرةً وحشيّةً، ما انفكّ المؤرّخون يستشهدون ببشاعتها حتّى يومنا هذا. فقد كان الحاكِمُ العسكريّ، في تلك المدينة، الجنرال "داير"، قد أصدر أمرًا بحَظر التجمُّعات، ووضَعَهُ، في الحال، موضِعَ التنفيذ، قبلَ أن يُحيطَ به المواطنين عِلمًا؛ ثمَّ اعتَقَل زعيمَي تلك المنطقة، وكان أحدُهما مُسلمًا والآخر هندوسيًّا، مُعربًا، بذلك عن حماقةٍ رعناء، ورغبةٍ كمينةٍ لئيمةٍ في التحدّي، بغيةَ التنكيل. فقد كان بمُكنة ذَينك الزعيمَين، وحدَهما، ضبطُ الجماهير، في حين أنَّ اعتقالهما قد استفزّها فتداعت إلى لقاءٍ عامٍّ في إحدى ساحات المدينة، حيثُ تجمهر بضعةُ آلافٍ، في تظاهرةٍ سلميّةٍ.

وإلى تلك الساحة توجّه الجنرال "داير" بفرقةٍ من جنوده المدرّبين على القتل، وسدَّ بمصفّحاته وعرباته المنافذَ القليلة الضيّقة المفضيةَ إليها، وأَمرَ الجنودَ بقتل أكبر عددٍ من الهنود الملتَئمين هناك. فكانت كلُّ طلقةٍ تُسدَّدُ إلى فردٍ معيَّنٍ، وإذ كان الفرارُ عسيرًا، حاول بعضُهم تسلّق الجدران، علَّهم، من فوقها، يقفزون خارجًا، ولكنّ القتَلة كانوا يقتنصونهم اقتناصًا، ويتداركونهم برصاصاتهم قبل أن يتمكّنوا من النَّجاة بأنفسهم؛ وعلى هذا النحو، وبطلقاتٍ بلغ عددها ١٦٥٠ طلقةً، أردوا ١٥١٦ قتيلاً هنديًّا، محقّقين، في الضراوة والوحشيّة، سبقًا قلّما يُضاهى.

ويبدو أنّ تلك المجزرةَ المُغرِقةَ في الهَول لم تُفلِح في إشباع قَرَم الجنرال "داير"، وظمئه إلى الدِّماء، ولا هي هدّأت الغرائز الوحشيّة الضاجّة في حناياه، ونوازع العنجهيّة التي كانت تحرّكه، فأَضاف الإذلالَ إلى القتل. وإذ كانت جماهير "أمريستار"

الهائجة قد اعتدت بالضَّرب على مُدَرِّسةٍ بريطانيّةٍ، أَصدر الجنرال أمرًا يَقضي بأن يجتاز جميعُ الهنود الحيَّ الذي تمّ فيه الاعتداءُ عليها، زحفًا على بطونهم و"على قوائمهم الأربع". ولم ينجُ من ذلك الأمر حتّى قاطنو الحيّ أَنفسُهم؛ ثمَّ إنّه نَصَبَ، في موقِع الاعتداء على المُدَرِّسة، عامودًا يوثَق إليه ويُجلَدُ كلُّ من يُخالف أَمرَ الزَّحف. وَفَضْلاً عن ذلك، أَمَرَ بأن يترجَّل كلُّ هنديٍّ عن دابّته، أو ينحدرَ من مركبته، وينكِّسَ مِظلَّته، كلَّما شاهَدَ ضابطًا بريطانيًّا، وأَن يُقَدِّمَ له التحيَّة.

ولا عَجَب إن أَدمت أنباءُ مجزرة "أمريستار" قلبَ غاندي، وغَمَرت نفسَه بالأَسى؛ غيرَ أنّ الإذلالَ الذي أُخضعَ له أبناءُ المدينة كان، له، أكثر إيلامًا، واستفزَّ لديه استنكارًا أَشدّ.

وفي غَمرة اندلاع العُنف اتّجهت الأَبصارُ شَطر غاندي، وتقاطرت عليه الدَّعوات، من شتّى المناطق، كي يُعيد إليها هدوءَها. وكان قد استُدعي للحضور، على عَجَلٍ، إلى دلهي لوضع حدٍّ للاضطرابات الناشبة فيها، غيرَ أنّ حماقة السُّلطات البريطانيّة قد حملتْها على توقيفه عند تخوم دلهي، وإعادته، قَسرًا، إلى بومباي، فضاعف نبأ تصدّي السُّلطات له الاضطرابَ احتدامًا، في حين كان من شأن حضوره إخمادُ النيران المُستَعرة، وقد حُظِر عليه، كذلك، المُثول إلى مناطق أُخرى من الهند.

وقد جابه غاندي الوضعَ بكلّ ما كان يتّصف به من نزاهةٍ، وحرصٍ على محاسبة النفس، فألقى باللَّوم على مُواطنيه، قبلَ لوم البريطانيّين، وخاطب مواطنيه، في أَحمد آباد، قائلاً: "**لو أنّ سيفًا اجتازَ جسمي، لتعذّر عليه إيلامي أكثر**" من أعمال العُنف التي نشبت هناك؛ كما إنّه أَوضح لمستمعيه، في بومباي، أنّهم، إن لم يكونوا، بعدُ، قادرين على الالتزام بمقتضيات الساتياغراها، والتنكّب عن كلّ عنفٍ، فهو لن يُحجم عن التضحية بالساتياغراها نفسها، والتخلّي عن العصيان المدنيّ إلى حين. ولم يقتصر على الإنذار، بل أقدم، فعلاً، على إيقاف حركة العصيان، غير عابئٍ بالمكاسب السياسيّة التي كانت قد وفّرتها له، في أعقاب يوم "الهارتال"، ولا حافلٍ بتُهَم الجُبن والتراجع التي رشقه بها مناوئوه، فكلُّ تلك الاعتبارات كانت عديمة الثّقل في ميزان مبادئه. ففي فلسفة غاندي، ليسَ النجاحُ هو مَبعَث الرضى، بل الشعورُ

بأداء متطلَّبات صوت الضمير. والنجاحُ الوحيد الذي نشَدَه، في حياته، هو ذاك الذي تُقرُّه معاييرُ الأَخلاق والدِّين. ومن ثمّ فهو لم يخشَ، يومًا، الاعترافَ بخطأٍ، أو التراجع عن خطّةٍ انتابه في وسائل تنفيذها ارتيابٌ، ولو هي كانت كفيلةً بالارتقاء به، مثلَ مَوجةٍ عارمةٍ، إلى ذرى الشهرة والتقدير. وعندما تراءى له أنّ أعمال العُنف التي اقتُرفت، ربّمَا، نَجَمَت عن دفعه الجماهيرَ إلى العِصيان المدنيّ قبل تمرُّسها بمبادئ اللاّعنف، لم يتحرّج من الإعلان، على رؤوس الملأ، أنّه ارتكبَ خطأ تقديرٍ "بحجم الهيمالايا". وقد شاعتْ، مُذّاك، تلك العبارة للدَّلالة على جَسامة الخطأ وفداحته.

وتدليلاً على تحمُّله قسطًا وفيرًا من وِزرِ تلك الأعمال، قرّر الصِّيامَ ثلاثةَ أيّامٍ، كما إنّه دعا مواطنيه إلى الصيام أربعًا وعشرين ساعةً، وأهاب بمن ارتكبوا أعمال عُنفٍ أن يُعلنوا عليها نَدَمَهم.

بيدَ أنّ إيقاف حركة العصيان، مؤَقّتًا، لم يَصرِف غاندي عن حركة "الساتياغراها"، بل إنّه استنهض نخبةً من المتطوّعين، أشدّاء النفوس، أنقياء القلوب، وانتَدبهم لغَرس مبادئها في قلوب الجماهير، بحيث ينبع من تلك المبادئ، ومن التمرّس باللاعنف، سلوكُها.

وقد تسنّت لغاندي فُرصَة نَشر تلك المبادئ، على أَوسع مدًى، في أعقاب اعتقال "هورنيمان" رئيس تحرير "ذي بومباي كرونيكل"، وتولّي غاندي رئاسة تحرير صحيفة "الهند الفتاة"(*) الأسبوعيّة، والتي باتت تصدر مرّتين في الأسبوع، لسدّ الفراغ الناجم عن غياب "الكرونيكل".

بيدَ أنّ رئاسة تحرير "الهند الفتاة" لم تُفلح في إرضاء صبُوّ غاندي إلى النفاذ لقلوب الجماهير وعُقولها، فهي كانت تصدُر بالإنكليزيّة، وهو كان توّاقًا إلى مُخاطبة الجماهير البسيطة بلُغَتها اليوميّة، ومن ثمّ، لم يتقاعس عن الجَمع بين رئاسة تحرير "الهند الفتاة"، وصحيفة "ڤايـڤان" الشهريّة، التي كانت تصدُر بالكوجاراتيّة. ولكي يتمتّع بحرّيّةٍ تامّةٍ في إدارة الصحيفتَين، نقل مقرَّهما إلى أحمد آباد، حيث استقرّ، هو أيضًا، وأنشأ،

(*) YOUNG INDIA

لهما، مطابعهما الخاصّة، ليَظَلّ في منجًى من تحَفُّظَات أَصــحاب المطــابع التجاريّــة، ويضمن نَشرَ كلِّ ما يؤمِنُ به من غير قيودٍ ولا اعتراضٍ؛ وأخيرًا، رفض كلّ إِعــلانٍ تجاريٍّ في كلا الصحيفتَين، لكي يبقى في منأًى عن أيّ ضربٍ من الضُّغوط. ومع ذلك، ارتفعَ معدَّلُ توزيع الصحيفتَين، ولا سيَّمَا "الهند الفتاة"، عدّة أضعافٍ، وتــوفّر لغانــدي، عِبرَهما، منِبرٌ بعيدُ المدى والأثر، لنشر مبادئه، وترسيخها في صدور مواطنيه وأذهانِهم.

"اللاتعاون"

لم يَحُل امتهانُ الصَّحافة دونَ انغماس غاندي في لُجَّة الجماهير التي كانت هــي مُحيطه الطبيعيّ، ومجاله الحيويّ.

وكانت معظمُ المقاطعات التي أمست مَسرحًا للعُنف والمآسي تلــتمس حــضورَه وإرشادَه؛ وهو كان توّاقًا، على نحوٍ خاصٍّ، إلى زيارة البنجاب الذي شهِدَ، أكثرَ من سواه، انفلاتَ العنف. غيرَ أنّ حَظر السُّلطات المستعمرة ظــلّ يــنهض حــائلاً دون تحقيق رغبته، إلى أن أُلغي، في أواخر عام ١٩١٩، وفي الحال شَخَص غاندي إلــى تلك المقاطعة. وكانت لاهور محطّته الأولى، فإذ بالجماهير، هناك، تُحــاكي بحــرًا هائجًا، في انتظار صديقٍ غالٍ، وعلى حدّ تعبير غاندي، كانت "تغلي وتهذي فرحًــا". كيف لا، وغاندي يُمثّل رمزًا للمقاومة الوطنيّة، في وجه المكر الأجنبيّ والطُّغيان؟

هذا، وكانت أصداءُ مجزرة "أمريستار" قد دَوّت حتّــى العاصــمة البريطانيّــة، فانتدبت الحكومة لَجنةً من الموظَّفين للتَّحقيق في أَمرها، وعُرفَت تلك اللجنــة بلَجنــة "هنتر"؛ غيرَ أنّ الزُّعماء الهنود قد قاطعوها، وآثروا تقصّي القضيّة بأنفسهم، فــألّفوا لجنةً خاصّةً أسندوا رئاستها إلى غاندي الذي قــاد التحقيــق بموضــوعيّةٍ ونزاهــةٍ متناهيتَين.

وحريٌّ بالتنويه أنّ لجنة، "هنتر" قد أدانت سلوكَ الجنرال "داير"، إلاّ أنّها بــرّرت دوافعَه، مدَّعيةً أنّه كان يتصرّف بدافع الولاء لحكومته، وقد أرغم الجنرال "داير" على الاستقالة، غير أنّ كثيرين من البريطانيّين استقبلوه استقبال الأبطال، كمــا أنّ الجاليــة الأوروبيّة، في الهند، عدَّته "مخلّصها"، وأهدته عشرين ألف جنيهٍ، وسيفًا فاخرًا.

وفي عام ١٩٢٠، انضمّ غاندي إلى عصبة الحكم الذاتيّ لعُموم الهند، وغدا رئيسَها، وذلك قبل أن يشرَع المؤتمر يُطالبُ باستقلال الهند.

كانت الحكومة البريطانيّة، آنَذاكَ، قد منحت الهنودَ بعض الصلاحيّات، في مضمار الإدارة المحلّيَّة، من غير أن تتخلّى عن شيءٍ من سُلطانها المهَيمن. وارتأى غاندي، أوّلَ الأمر، الترحيبَ بتلك الإصلاحات، مع المطالبة بالمزيد منها، ولكنّه سرعان ما تبيّن أنّها لم تكُن سوى قناعٍ زائفٍ. كما إنّ خيبةَ أمَل مُسلمي الهند من تَنَكُّر بريطانيا للعُهود التي كانت قد قطعتها لتركيّا العثمانيّة، في شأن "الخلافة"، قد حدت بغاندي إلى التضامُن معهم، فكتب إلى نائب الملك يقول: "لقد دعوتُ الهندوسيّين إلى الانضمام إلى المُسلمين"، ملمحًا، بذلك، إلى حركة "اللاتعاون" مع السُّلطات المستعمِرة، التي كانت فكرتُها قد ومَضت في ذهنه، أثناء اشتراكه في مؤتمر التضامن مع مُسلمي الهند، والتي كان قد دعا بلادَه إلى انتهاجها. وقد ردّ نائب الملك واصفًا "اللاتعاون" بأنّه أكثر المشاريع السخيفة مدعاةً للسُّخرية.

ولكنّ غاندي قد مضى في تنفيذ عزمه، وأَعلن أنَّ حركة "اللاتعاون" ستدخل مرحلة التنفيذ، في مطلع شهر آب من عام ١٩٢٠، على أن يُمَهَّد لها، في الحادي والثلاثين من تمّوز، بيوم صلاةٍ وصَومٍ وتطهُّرٍ نفسيٍّ.

لقد كان وِجدانُ غاندي يدفعه نحو "اللاتعاون" دفعًا، بعد أن استقرّت لديه القناعة بأنَّه يمثّل حركةً منطقيّةً، تنتبذ العنف، غنيَّةَ الإمكانيّات، أكيدةَ الجدوى، وهي، في آنٍ معًا، تنفي التخاذُل الذي قد يبرّر أعمال الناقمين؛ ومذ ترسَّخت، في أغوار نفسه، تلك القناعة بات موقنًا أنّ "**من يمتلك إيمانًا لا يتزعزع في عملٍ أو في سياسةٍ معيّنة، فمن الخَطَل قبوعُه في انتظار تأييد المؤتمر، بل عليه أن يعمل كي يحمل الأمَّة على تبنّي تلك السياسة**".

وقد بَسط، على صفحات "الهند الفتاة"، أَساليب "اللاتعاون"، والتي كانت تنطوي على:

- التخلّي عن جميع الأوسمة والأَلقاب، والمناصب الفخرية، الممنوحة من الحكومة البريطانيّة.
- مقاطعة الانتخابات، ومجالس الحكم المحلّي، المنشأة بموجب مشروع الإصلاح البريطانيّ.

- مقاطعة المحاكم، بحيث يهجُر المحامون مهنتَهم، والقضاةُ مناصبَهم، وتُحَلّ القضايا بالتَّسويات الوِديّة أو بالتحكيم.
- مقاطعة المشروبات الكحوليّة التي تُمِدُّ الدولةَ بواردات ضريبيّةٍ طائلة.
- مقاطعة الأقمشة البريطانيّة. والاستعاضة عنها بالقماش القطنيّ الوطنيّ "الخادي"، الذي يُغزل خيطُه، ويُنسَج، يدويًّا.

وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، كان اللاّتعاون يفرِضُ الامتناعَ عن أداء الضرائب، وفرارَ الجنود ورجال الأمن الهنود من ثكناتهم وقطعاتهم.

وقد أوضح غاندي للمسؤولين البريطانيّين مغزى اللاّتعاون ومراميه، فقال: "**البسالةُ في ساحة الوغى متعذّرةٌ على الهند، بيدَ أنَّ بسالةَ النَّفس متاحةٌ لنا. اللاتعاون لا يعني سوى التدرُّب على التضحية بالذات، وإنّني لأَتوقّع أن أظهرَ عليكم بآلامي**".

وكان غاندي السبَّاقَ إلى العمل بمَا دعا إليه مُواطنيه؛ ففي الأوّل من آب ١٩٢٠، أعاد إلى نائب الملك الأوسمَة التي كان قد مُنِحها مكافأةً على خدماته الطبّيّة في معارك أفريقيا الجنوبيّة؛ وحذا حذوَه زعماءُ كبار، من أمثال المحامي الذائع الصيت "موتيلال نهرو" (والد جواهرلال)، الذي كان تنفيذُ اللاتعاون يعني له، شخصيًّا، انهيارًا اجتماعيًّا وماليًّا مُحَقَّقًا.

ولا مِراءَ أنَّ الاستجابة الشاملةَ التامَّة لنداء المقاطعة، لم تكن أمرًا يسيرًا، في جميع المجالات. ولكنّ غاندي، ذلك الحالمَ الواقعيّ، لم يكن ليُثبّطه عائقٌ عن تنفيذ ما آمنَ بضرورته وجدواه؛ وكان خبيرًا بالقدرة على فتح محافظ الأغنياء والميسورين، في سبيل دَعم المشاريع الوطنيّة، بحيث دعا نفسه، ذاتَ مرّةٍ، "**أمير الشحَّاذين في خدمة المصلحة العامة**". وبفضله تدفّقت مئات ألوف الروبيّات من أجل توفير العَون الضَّروريّ لمن حَرَمَهم اللاتعاونُ مواردَ رزقهم، ومن أَجل بناء المدارس والجامعات الوطنيّة، وخصوصًا من أجل شراء مليوني مِغزَلٍ يدويّ لتكون مُنطلقًا لحرفة الغزل والنسيج اليدويَّين، والتي ما لبثت أن غدت رُكنًا أساسيًّا من أَركان "السواراج"، أو الاستقلال، بل طقسًا مقدَّسًا يُعادل الهواءَ والماءَ ضرورةً حيويّةً. فقد غدا المغزل هو الرمز الذي يتوسَّط علم الاستقلال، وأَمسى لزامًا على كلّ "لامتعاونٍ"، وكلّ

"ساتياغراهي" أن يقف بضعَ ساعاتٍ، كلّ يومٍ، على غَزل الخيوط القطنيّة. وغاندي نفسه قد أقسم إلاّ يتناول أيّ طعامٍ، قبل أن يكون قد أمضى نصف ساعةٍ وراءَ مغزله. وعلى رنين المغزل كان يُردّد اسم الله "راما" وتتألّق في مخيّلته أحلامٌ زاهيةٌ: فالمغزل كفيلٌ بتوفير عَمَلٍ شريفٍ، ورزقٍ حلالٍ، لملايين الرّجال والنساء، وتأمين لقمة العيش لجماهير الجياع، وتصنيع الرّيف الهنديّ، كما كان من شأنه وقف نزف الأموال المتدفّقة من الهند لابتياع الأقمشة البريطانيّة، والتمهيد للاستغناء عن تلك الأقمشة؛ وأخيرًا، كان شمول استخدام المغزل يُمثّل سلسلةَ وحدةٍ ينتظم في حلقاتها جميع الهنود، فقراءَ وأغنياء، مثقّفين وأمّيّين.

وحَريٌّ بالتنويه أنّ غاندي كان قد فرض على نفسه، وعلى جميع أفراد أشرمه، الاقتصار على ارتداء "الخادي"، أي القماش القطنيّ المصنّع بخيوطٍ غُزِلَت يدويًّا، ونُسِجَت على أنوالٍ يدويّةٍ؛ وبمَا أنّ نظام الأَشرم كان قائمًا على الاكتفاء الذاتيّ، كان لا مندوحة عن استخدام المغازل والأنوال اليدويّة، فيه؛ وبالتّالي، أكبَّ غاندي ورفاقُه على البحث الدائب عن أفضلها، وعن الخبيرين في تشغيلها، وعكفوا على تطويرها بحيثُ تغدو في مُتَناول كلّ يدٍ، وبذلوا، في هذا السبيل، جمًّا من العناء والوقتِ والمال؛ وقد يَسَّرت لهم الخبرةُ التي اكتسبوها، في هذا المضمار، تعميمَ تلك الحرفة في شتّى أطراف الهند، وانقلب الأشرم مركزًا لتوزيع المغازل الخشبيّة، وقطَعها، ومدرسةً في تشغيلها.

وكان من البَدَهيّ أن يستفزّ مشروع "الخادي"، والمغازل القطنيّة اليدويّة، مقاومةَ بعض التُجّار الذين كانوا يعُبُّون، من استيراد الأقمشة البريطانيّة، مغانمَ طائلةً، ومقاومةَ بعض كبار الصناعيّين الهنود، الذين عدّوا العودة إلى الغزل والنسيج اليدويّين، ضربًا من الوهم الأخرق، الخليق بالسُّخرية. ولكنّ غاندي لم ينثنِ عن عزمه، فمعاييره كانت تتعارض ومعاييرهم القائمة على "الجدوى الاقتصادية القصوى" لمنفعة قَبضةٍ من المستثمرين، في حين كان، هو، ينشدُ خيرًا عميمًا يتقاسَمُه كلُّ فقراء الهند، ولا يفقدون، معه، شيئًا من حرّيّتهم، وكرامتهم، وروحانيّتهم.

ومن جهةٍ أُخرى، لم تكن سياسة غاندي في منجاةٍ من معارضة وتجريح حفنةٍ من الزُّعماء التقليديّين الذين رأوا في "اللاتعاون" "هدرًا للطاقات في إصلاحاتٍ

أخلاقيّةٍ، وصرفًا للأنظار عن الوجه السياسيّ للمُشكلات القائمة، ومشروعًا خاليًا، خُلوًّا مُطلَقًا، من العناصر البنّاءة". إلاّ أنّ دافع مقاومتهم الأساسيّ الكمين، كان توجّسهم وقلقهم إزاء ذلك السياسيّ الغريب الأطوار، الذي بَرزَ بغتةً على المسرح، وهو لا يرتدي حلّة السياسة، والذي كان يبدو، للوهلة الأولى، حالِمًا مأفونًا، ولكنّه، على تظاهره بالوداعة والتواضُع، كان يمتلك قدرةً رهيبةً، ويجرّ، في إثره، الجماهيرَ، ويَبسُطُ آراءه ومعتقداته على البلاد، في غير مُهادَنةٍ ولا مُساومةٍ.

وكان حَسبُ غاندي تأييد صوت ضميره الخافت الذي كان يُذكي، في صَدره، إيمانًا ملتهبًا، فراح يجوبُ أَرجاءَ الهند، يحدوه حُلُمٌ زاهٍ متوهّجٌ في وطنٍ مستقِلٍّ كريمٍ، حُلُمٌ كان يتطلّع إلى غرسه في حنايا نفوس جميع مواطنيه؛ وأثناء تجواله هذا، كان قد حَلقَ شعر رأسه، تعبيرًا عن الحداد على وطنٍ مستَعمَر، واكتفى من اللِّباس بمئزرٍ من القطن الخاميّ حولَ حقوَيه، وبكيسٍ من نفس القماش في يده. وقد عبّر، آنذاك، عمّا كان يجيش في نفسه. بقوله: "**إنّ خلاصنا ثاوٍ بين أيدينا... أَجَل، سنضرب في الفيافي، إذ إنّ الطريقَ المؤدّية إلى الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً... بعيدًا عن العبوديّة، تجوز عِبر الصَّحراء، وسنُوكل أمرَ قيادتنا إلى موسى جديدٍ أو هارون جديدٍ، كفيلَين بالعبور بنا من الكَذب إلى الحقيقة، ومن الظُّلمات إلى النُّور، ومن المَوت إلى الخلود**".

وبات جليًّا لكلّ مراقِبٍ أنّ الشَّعبَ قد شَرعَ يَقبِض على مقاليد الأمور، وأنّ غاندي، بقوّة الشعب الذي أُخذَ بسحره، وبفضل الثقة التي كان يوحيها له ويستمدّها منه، استطاع أن يفرض على البلاد فلسفته السياسيّة والروحيّة.

لقد أَشرع غاندي، أَمام أبصار جماهير مواطنيه، آفاقًا قشيبةً، زاهيةً، مُشرقةً بالأَمل في مستقبَلٍ كريمٍ، ووَطَّدَ العزمَ على جعل ذلك الأمَل واقعًا ماثلاً، كما إنّه بثّ، في صدورهم، بُذورَ الكرامَة والعزّة المبنيّتين على مبادئ الرّوح، والثّقة بالنفس النابعة من الإِيمان الراسخ بالحقّ.

وقد وَصَفَ جواهر لال نهرو تلك المشاعر الجديدة التي أَخذت تموج بها قلوبُ الشبيبة الهنديّة آنذاك، بقوله إنّ عام ١٩٢١ "**كان عام نشوةٍ ... كان التفاؤل والاندفاع والحميَّةُ تختمر في صدورنا... لقد تحرَّرنا من كُلِّ ارتيابٍ وتردُّدٍ، ومضَينا**

قُدُمًا، يحفِزنا حماسُ بعضهم، ونستفزّ الحماسَ لدى آخَرين. كان يستحوذ علينا، فوقَ كلِّ شيءٍ الشُّعورُ بالحرّيّة، والزَّهوُ بأنّنا كائنون أحرار، وقد انزاح عنّا شعورٌ بالقهر طالما لازَمَنا. لقد اندثر عهدُ الهمس الخافت، وبتنا نجهَرُ بمَا يجول في خاطرنا، لا بل نصيح به فوق الأَسطحة، غير عابئين بالعواقب. السجن؟ كنّا نتطلّع إليه بلهفةٍ، إذ إنّ من شأنه أن يرفد قضيّتنا بدفعٍ. لقد كُنّا فخورين بزعيمنا، وبالسِّياسة العبقريّة التي ابتدعها".

غاندي زعيم "المؤتمر"

كان غاندي، حَتَّئذٍ، حريصًا على الجُلوس على المقعد الأَخير، في الصفِّ الأخير، من قاعةِ المُؤتمر؛ ولكنّ الوقت أَذِنَ لكي يُدفع به دفعًا إلى المقام الأوَّل، وإلى مركز الصَّدارة؛ فعشيّةَ الموعد المضروب للشّروع بتنفيذ "اللاتعاون"، والعمل به، في الأوَّل من آب ١٩٢٠، لقي الزعيم تيلاك وجهَ ربّه. وقد هتَفَ غاندي، عندما أُبلغ النبأ: "**ها قد انهار الصرحُ الذي كنتُ أَستند إليه**". غير أنّ ذلك الحَدَث، في الواقع، قد دفع به إلى واجهة المسرح السياسيّ، إذ أجمعت الهند على تنصيبه رئيسًا للمؤتمر، بلا منازعٍ. وفي جلسة المؤتمر الأولى التي تلت ذلك التنصيب، أي بين الرابع والتاسع من شهر أيلول ١٩٢٠، أيّد المؤتمرُ حركة "اللاتعاون"، وحذا حذوَه مجلسُ المؤتمر القطريّ للهند الوسطى، في جلسته السنويّة المنعقدة في شهر كانون الأوّل من العام نفسه؛ وقد عرض غاندي على أعضاء المؤتمر الخيارَ بين الحُكم الذاتيّ، في إطار الأَمبراطوريّة البريطانيّة، – إن أمكَنَ ذلك – وكان محمّد علي جناح هو حامِل لواء ذلك الاتّجاه، أو الاستقلال، خارِج نطاق الأمبراطوريّة، إن اقتضى الأمرُ؛ وقد آثر المؤتمرُ الخيارَ الثاني، وغدا هدفَه الأَوّل الظَّفرُ بالاستقلال "بجميع الوسائل المشروعة".

وكانت من أولى المقرَّرات التي حَمَل غاندي المؤتمرَ على تبنِّيها، تلك التي كان يرى فيها مُقدّمةً لا غنى عنها للاستقلال، إلاّ وهي:

– إلغاء المنبوذيّة من التقاليد الهندوسيّة

– تعميم "الخادي"، أي النسيج القطنيّ المصنوع يدويًّا.

– توثيق أواصر الوحدة الهندوسيّة الإسلاميّة.

وعكف غاندي على وضع نظامٍ جديدٍ للمؤتمر، بأسلوبه الفذّ، الذي وصفه، هو نفسه، بقوله: "**كنت أَتمتّع بموهبة التعبير عن فكرةٍ ما، بأقلّ قدرٍ من الألفاظ**"؛ كما إنّه دَأَبَ على تحويل المؤتمر من صَرحٍ مُذَهَّب الجُدران، رَثِّ الأساس، إلى مؤَسّسةٍ ديمقراطيّةٍ، جماهيريّة، تبسط تَشعُّباتها على شتّى القُرى والمناطق الهنديّة.

وبات المؤتمرُ يتأَلَّف من مجلِسٍ مركزيٍّ لعموم الهند يضُمُّ ٣٥٠ عضوًا، ولجانٍ فرعيّة مبثوثةٍ في جميع المناطق، وتتولّى إدارتَه لجنةُ عَملٍ أو لجنةٌ تنفيذيّةٌ من خمسة عشر عضوًا يتمتّعون بتفويض المجلس لمتابعة تنفيذ مُقرَّراته. وبعد أن ظلَّت عُضويَّة المؤتمر، سنينَ طويلةً، حِكرًا على الأثرياء والمتنَفِّذين، غدا المتحدِّرونَ من الطبقات الوُسطى يُمثّلون أكثريَّة أعضائه؛ وشيئًا فشيئًا، حلَّ الزيُّ الهنديُّ محلَّ الزيّ الأوروبيّ، وفي فترةٍ لاحقةٍ، غدا المئزرُ القطنيّ والطاقيّة القطنيّة البيضاءُ التي شاع اعتمارها بين أنصار غاندي، هي الزيّ السائد؛ وحلَّت أيضًا اللّغة الهندوستانيّة محلَّ الإنكليزيّة؛ واتّضح لبعض الزعماء السابقين أنّ نجمَهم قد أفَل فبارحوا المؤتمر، في حين انضوى آخَرون تحت لواء غاندي، بعد أن تبيّنوا ما كان يُمَارسه على الجماهير من سُلطانٍ وسِحرٍ، ومن ثقةٍ بالنَّفس وبالهند، وإسعة العَدوى.

وأَخذ غاندي يبرزُ، في بَلَدٍ مُهَلهَل الطَّاقات، رمزًا للقوَّة، ووسطَ أمّةٍ من المستَعبَدين، قُدوةً للرّجل الحرّ، وفوقَ هذا وذاك، رجلَ الله المُفعَم إيمانًا والذي تنبع جميع أعماله من شُعوره الرَّاسخ بحضور الله. وقد أدرك الشَّعب الهنديُّ، بغريزته المُشبَعَة بالروحانيّة، أنّ ذلك السياسيّ المتجرّد، إنّمَا هو لهم صخرةُ الخلاص، فأولَوه كلَّ ثقةٍ، حتّى إنّ أوامرَه غَدَت بمثابة وصايا إلهيّةٍ.

إلاّ أنّ خُطُواته الأولى في ميدان السِّياسة كانت ما برحت مُتعثِّرةً، من جرَّاء التَّناقضات العميقة الغَور والغنيّة التي كانت تَسكنه. فهو، أبدًا، متأَهِّبٌ للموت ذَودًا عن مبادئه، ولكنَّه، أَبدًا، يُؤثر التحكيم والوفاق. إنّه، بالسَّليقةِ، مناضلٌ حادٌّ، ولكنّه في آنٍ معًا، وسيطٌ بارعٌ في حَسم الخلافات. وصدرُه، دائمًا، ساحةُ معركةٍ يتصارع فيها

هوى الاندفاع والحيطةُ الحكيمة. ولا عَجَب، بالتّالي، إن ظلَّ شيءٌ من الغموض يكتنف سلوكَه، طوال حياته السياسيّة، بحيثُ غالبًا ما تعذَّر، حتّى على أقربِ أعوانه، تكهُّن خُطُواته المقبلة.

لقد تصدّى غاندي لمهمّةٍ تفوق قدرةَ البشر، تقتضي منه التوفيق بين الاعتدال وسموّ الفكر، بين الإنصات إلى رغبات الجماهير الملحّة وأهوائها الجامحة من جهةٍ، وجِرْس الضمير الهامس الخافت المرشد إلى سويّ السبيل، وَسط العواصف، من جهةٍ أُخرى.

ولا عَجَب، بالتّالي، إن اهتزَّت يدُه، وهو يقود سفينة الهند العملاقة، رهبةً من المسؤوليّة الجسيمة، إلاّ أنّ أنظاره المُثبتة، أَبدًا، على الله كانت ترفُده بالعزم والصَّلابة، وتدرُّعه الدائم بتواضُعٍ سحيقٍ، ونأيَه عن كلِّ كبرياءٍ وادّعاءٍ وأنانيّةٍ، قد وَقَياه من التردّي في وِهاد الضَّلال والتَّهلكة.

خطواتٌ متعثّرةٌ على درب العصيان المدنيّ

في تلك المرحلة من نضاله، تخلَّى غاندي عن زيّه التقليديّ المُتَمثِّل في العمامة البيضاء، والسترة والبنطال الفضفاض، واقتصر لباسه، كما أسلفنا القول، على مِئزَرٍ وشالٍ من القُطن الخاميّ، وعلى كيسٍ من قماشٍ قطنيّ كان يودعه لوازم الكتابة والاغتسال، وسبحته، وقبضةً من الجَوز والفواكه المجفّفة؛ وفي "عدّة الشحّاذين" هذه، راح يجوب القرى الهنديّة، جارًّا قدمَيه لمنهكتَين، تارةً في الحمأة اللَّزجة، وطورًا فوق الحجارة الحادّة، ومزجّيًا معظم لياليه فوق مقاعد خشبيّةٍ قاسيةٍ، في عربات قطارٍ من الدرجة الثالثة، وناشرًا في كلّ مكانٍ رسالتَه، داعيًا إلى اللاّتعاون، مُردّدًا على مسامع مواطنيه: "**عليكم إلاّ تُدَعِّموا أسوارَ السِّجن الذي يحتويكم، وإلاّ تصوغوا بأيديكم السلاسل التي تكبّلكم**".

وكانت بساطتُه الصَّادقة، وفقره الطَّوعيّ، وتواضُعه السحيق تُضفي عليه مسحة قدّيسٍ حقٍّ، يُجسّد روح الهند العريقة الأَصيلة ليبعَثها في هندٍ جديدةٍ متحرّرةٍ.

سحابة سبعة أشهرٍ، ما انفكّ يتنقّل، بلا كللٍ، في شتّى أرجاء الهند، غير عابئٍ لا

بالقيظ الحارق الذي كان يُحوّل القطار الذي يستقلّه إلى تنُّورٍ مُستعرٍ، ولا بالرطوبة الخانقة؛ وفي كلّ مكانٍ، كانت تُحاصره جماهير متراصَّةٌ، صاخبةً، متلهّفةً إلى رُؤيته وسماعه، وكان يربو عددها أحيانًا على مئات الألوف. وكثيرًا ما اضطر إلى إلقاء ستِّ خُطَبٍ في ستّة أماكنَ مختلفة، في اليوم الواحد.

وقد اتّفق، ذاتَ مرّةٍ، أنّ قطاره كان سيجتاز قريةً صغيرةً تائهةً، فأعلنَ أهل تلك القرية عن عزمهم افتراش قُضبان سكّة الحديد، مُعرِّضين أنفسَهم للموت تحت العجلات، ما لم يتوقّف القطار في محطّة بلدتهم، كي تُتاح لهم رُؤية المهاتما. وعندما توقّف القطار، في تلك المحطّة، كان الليل قد انتصف، وأوقظ غاندي، فهرع إلى نافذة مقطورته، وإذا بالجماهير، التي كانت للحظاتٍ مَضَت، تلْغَطُ وتصخب، تجثو راكعةً، مذرِّفةً الدموع.

في مثل هذا الجوّ المفعَم بالمحبّة والتعاطف، كان غاندي يخاطب عقولَ مواطنيه وقلوبهم، ويبثُّهم روحَه وأفكارَه؛ وعلى هذا النحو، في حقبةٍ كانت وسائلُ الاتِّصالات ما انفكَّت بدائيّةً، استطاع، بمُجرَّد حضوره، النفاذَ إلى نفوس ملايين الهنود.

وخلال تلك الفترة كلّها، كان طعامُه مُقتَصِرًا على اليسير من لبَن الماعز، وكسرة خُبزٍ، ونحو عشرين حبَّة عنبٍ أو زبيبٍ، وبرتقالتَين، في اليوم.

وغالبًا ما كان يُرافقه في جولاته تلك الزعيمُ المُسلم، مولانا محمّد علي؛ وكانا، معًا، يدعوان إلى انتباذ الأَقمشة والأَلبسة الأَجنبيّة المُستوردة؛ وكثيرًا ما كانت دعوتُهما تلقى تصفيقًا مُدوّيًا، واستجابةً عفويّةً سخيّةً، وكثيرًا ما تجرَّد رجالٌ من كلّ ألبستهم، حتّى العري التامّ، وسُرعان ما كانت الأَدثرة والقمصان والقبعات والجواربُ والأحذية، وأحيانًا أَجواخٌ إنكليزيّةٌ فاخرةٌ، تتكدّس أكوامًا كثيفةً، يُبادر أحد الزعيمَين إلى إضرام النَّار فيها، مُضرمًا معها حماسًا مقدَّسًا عارمًا؛ وقد قُدِّرَ عَدَدُ قِطع الجوخ التي أصبحت، على هذا النحو، طعمًا للنار، وتحوّلت، في لَحظاتٍ، إلى رمادٍ، بالملايين. وكانت تُواكب ذلك التدميرَ دعوةٌ ملحّةٌ إلى البناء، إذ كان الزعيمان يُؤكِّدان أنّ الكرامةَ الوطنيّة والرغبةَ في الاستقلال تقتضيان إلاّ يرتدي الهنود إلاّ ما يصنعون بأيديهم، ممّا يؤكِّد الحاجةَ إلى الغزل والنسج اليدويَّين، وتعميمَ استخدام القماش القطنيّ الخاميّ، الذي عُرِف باسم "الخادي"، وسُرعانَ ما غدا زيًّا وطنيًّا يزهو به كلّ وطنيٍّ توّاقٍ إلى

الاستقلال، لا بل باتت الهنديَّاتُ الأَنيقات تتباهَينَ باستصناع أزياءٍ جذّابةٍ منه، وراجَ زيُّه حتّى خارج الهند، حيث انصَبَّ الطَّلَبُ على استيراده. وشتّانَ ما بين زيّ الغانديّين البسيط هذا، الذي به عبَّروا عن تصميمهم على التحرُّر والاستقلال، بأَساليب الحبّ، واللاعنف، والتشبُّث بالحقّ، وأزياءَ أُخرى، شاعت، بعد سنواتٍ من ذلك، في بعض الدُّول الغربيّة، كالقُمصان السوداء، والقمصان البنّية، والتي كانت ترمُزُ إلى التعصُّب العُنصُريّ، وشهوةِ السَّيطرة، والقَرَم إلى الدماء، والتي سيظلُّ التاريخ يذكرُها باللَّعنة.

ولكن لا مندوحةَ من الإشارة إلى أنّ الحماس الذي كان غاندي يُلهب سعيرَه، بإضرامه النارَ في البضائع البريطانيّة، لم يمتدَّ لهيبُه إلى كلّ عقلٍ وقلبٍ في الهند؛ فقَد تعالت صيحات استنكارٍ من بعض مُناوئيه، الذين وَصَفوا سياسته هذه باللّاواقعيّة، والديماغوجيّة، لا بل من بعض أصدقائه، وفي طليعتهم الشاعر المبدع طاغور، ولا سيّمَا أنّ هذا الأَخير كان، في تلك الحقبة عينها، عاكفًا على إنشاء جامعةٍ عالَميَّةٍ، في ممتلكاته في "شانتينيكيتان"، وكان طَموحًا إلى أن يجعل منها رمزًا للتّعاوُن بين الشَّرق والغرب؛ وإذا بسياسة "اللاتعاوُن"، التي راح يُبَشّر بها غاندي، تبدو وكأنَّها تحطيمٌ للجسور بين الشرق والغرب؛ ولم يشكّ طاغور، يومًا، في اتّساع نفس غاندي لمحبّة البشر أجمعين، وهو الذي أَطلق عليه لقب "المهاتما" أي "النفس الكبيرة"؛ ولكنّه كان يخشى الغانديّين المتطرِّفين الذين لا يمتلكون مِثلَ نفس غاندي، بحيثُ يتعرَّضون للانزلاق في وِهاد التعصُّب؛ وفوق ذلك، كان طاغور يرى في غاندي كنزًا روحيًّا ثمينًا نادرًا، يجعل من الهند مَنارةَ إشعاعٍ روحيٍّ في العالم بأسره، وهو، بالتالي، كان يُشفق عليه من دهاليز السياسة التي فيها تتيه المُثُل، ومن أعاصيرها الصاخبة القمينةِ بخَنق نَفَحات الروح الرقيقة.

بيد أنّ غاندي كان، حقًّا، أَوفر واقعيّةً من جميع مُعارضيه، فبفضل التصاقه بالأرض وبالقرويّين والفلاّحين، كان يُحسّ، حتّى الأَعماق، بمَا يعيشه سوادُ مواطنيه من مأساةٍ يوميَّةٍ فاجعةٍ؛ فقد كان سماسرة الاستعمار قد حَمَلوا فلاّحي الهند على التخلّي عن الكثير من الزِّراعات الغذائيّة التي توفِّر الأَوَد الغذائيّ الأساسيِّ لملايين الفقراء، وشجّعوا زراعة القطن الذي كانوا يبتاعونه، بل يسلبونه، بأبخس الأثمان

ليُزوِّدوا به مصانعَهم في "لانكاشير"، ثم يُعيدونه إلى الهند أقمشةً مصنَّعةً فاخرةً يمتَصُّونَ بأثمانها ما تبقّى لدى الهنود من مالٍ، ولا سيَّمَا أَنّ أسواق الهند كانت وَقفًا على البضائع البريطانيّة، مُغلَقَةً دون سواها.

لقد رأى غاندي، بأمّ عينَيه، ما يربو عن عشرةٍ بالمئة من مُواطنيه يَنفُقون جوعًا، ورأى معظم الآخرين يفتقرون افتقارًا مفجعًا إلى الغذاء اللاّئق؛ ورأى الفلاّحين يُزَجُّون نحو تسعة أشهرٍ، كلَّ سنةٍ، في فراغٍ قاتلٍ، يجترُّون مرارة الإحباط، والاستسلام اليائس إلى قَدَرٍ مُدمّرٍ. وما الذي فعلته بريطانيا، حيالَ تلك المأساة، سوى إحكام أساليب استغلالها، والمُضيّ في امتصاص خيرات الهند، حتّى النخاع، غير عابئةٍ بأهلها؟. وأنّى لغاندي أن يُساير أحلام طاغور، فيكلّم مواطنيه المسحوقين عن التعاوُن الثقافيّ مع جلاّديهم، أَو كيف له أن يخاطبهم في أمور الرُّوح وهم يتضوّرون جوعًا؟

لقد اضطرّ غاندي إلى تذكير طاغور، وفي قلبه حسرةٌ، إذ إِنَّهُ كان يُضمر لشاعر الهند الكبير حبًّا جمًّا، وعرِفانًا بالجميل وفيًّا، أنّ نظريّاته الزاهية تتجاهل الواقعَ المُوجعَ الذي تكتوي البلاد بناره، بحيث يتعذّر عليها التيهُ معه في مجاهل الخيال، وقال بألفاظٍ واضحةٍ قاسيةٍ تقطُر ألمًا: "**عندما يموت جميع من هم حواليّ، من جرّاء افتقارهم إلى الطَّعام، فالنشاطُ الوحيد الذي يسوغ لي القيام به هو إطعام الجائع: الهند منزلٌ يحترق، وهي تموت جوعًا لأنّها تفتقرُ إلى عملٍ يُوفّر لها الطعام. إنّها تزدادُ فقرًا يومًا إثر يومٍ.**

"إنّ الله لا يتراءى لشعبٍ جائعٍ بطَّالٍ، إلاّ في صورة وعدٍ بالعمل، وطعامٍ مضمونٍ؛ لقد خلق الله الإنسان ليعمل، وعدَّ من لا يعملون لُصوصًا. علينا أن نفكّر، اليوم، في ملايين من هم دون مستوى البهائم، ويقاسون من وضع أشبه بالموت! إنّ الجوع هو الذي دفع الهند إلى المغازل اليدويّة".

وقال أيضًا مخاطبًا طاغور: "**إنّ ملايين الجياع يُطالبون بقصيدةٍ واحدةٍ: طعامٌ يردُّ لهم العافية. وهم لن يوهَبوه، بل عليهم كسبُه، ولن يستطيعوا الظفر به إلاّ بعرق جبينهم**".

كان غاندي مُوقنًا أنّ تعميم المغازل سيقضي على البطالة، وسيُوفّر للجميع، رجالاً ونساءً، أحداثًا وكهولاً، عملاً مُنتِجًا، ولُقمَةَ عيشٍ مغمّسةً بالكرامة، فضلاً عن أنّه يشغل الفلاّحين في أَشهر السُّبات، ورجالَ الدِّين خارج أوقات العبادة؛ ولا عجب، بالتالي، إن جعل غاندي من الغَزل اليوميّ، ولو لفترة ساعةٍ على الأقلّ، طَقسًا مقدّسًا، على كلّ هنديٍّ ممارسته، كما فرض على الطُّلاب تسديدَ نَفَقات دراستهم، بالعمل بضعَ ساعاتٍ، يوميًّا، في الغزل اليدويّ.

ولم يكن غاندي يرى، في المغزل، مُنقِذًا للريف فحسبُ، بل أيضًا أَداة تطهُّرٍ روحيٍّ لسُكّان المدُن، الذين، وهم يديرون دولابه، يصوغون سلسلة تضامنٍ ومحبّةٍ، مع الفلاّحين والقرويّين، لا بل مع روح الهند الأصيلة العميقة، الكامنة في سكّان أكثر من سبع مئة ألف قريةٍ هنديّةٍ. وعلى هذا النحو يُصبح المِغزَل ملاطَ وحدةٍ تتماسك بهِ البلاد وتشتدُّ بجميع أرجائها وأطرافها.

تلك الرُّؤية كانت تبعثُ النشوةَ في صَدر غاندي، فيُصبح شاعرًا وهو يتكلّم عن المغزل، وتسري كلمَاتُه كالعدوى في نفوس السَّواد الأَعظم من مُواطنيه؛ وبوحيٍ من تلك الرُّؤية، رَسَمَ غاندي، آنذاك، علَم الهند المستقلّة الذي يحتلُّ المغزل "الشاركا" منه مَوضِع القلب، وعندما كان يَقدحُ نار الدَّمار في البضائع الأجنبيّة، كان يرى صرحَ الصناعة اليدويّة الوطنيّة يتسامق فوق رمادها، بحيث يغدو هذا الدَّمارُ ضرورةً لازبةً لبعث البناء الجديد؛ ولقد أثبت الواقعُ أنّ ذلك الحالِمَ الكبير كان يَقِظًا، نيِّر البصيرة، بعيد الرّؤية، فبالمغزل اليدويّ، تُديرُه ملايينُ الأيدي الهنديّة، وببضعِ عيدانِ ثِقابٍ أحرقت بضائعَ إنكليزيّةً، قد استطاع نَخر اقتصاد أكبر أمبراطوريّةٍ آنذاك، وحَمَلَها، مُرغمةً، على التسليم للهند باستقلالها، بعد أن كان دهاقنتها، أَوّل الأَمر، قد استخفّوا بأساليبه، وسخروا من أحلامه الأوطوبيّة.

بيد أنّ غاندي لم يقصد، قطُّ، أن يمسّ البريطانيّين شخصيًّا بأذًى مباشرٍ، لا بل إنّه كان واثقًا بأنّ حرق البضائع الإنكليزيّة كفيلٌ بتحويل نقمة مواطنيه عن البريطانيّين إلى بضائعهم؛ إلاّ أنّه، في هذا المضمار، كان مُغرِقًا في التفاؤل، إذ قد غاب عن فطنته أنّ الجماهير – في سوادها – كانت بعيدةً عن التمتّع بمثل ما كان

يعمُر نفسَه من تسامُحٍ وطُهرٍ وتسامٍ؛ وسُرعانَ ما اتّضح له أنّه، فيمَا كان يضرم النار في البضائع الإنكليزيّة، كان، في بعض الأحوال، ومن حيثُ لا يدري، يلعب بالنــار لعبًا خطيرًا؛ ففي حين كان، هو، حريصًا على أن تتمَّ جميع خُطواته، وفــقَ مبــادئ الأهيمسا والساتياغراها، كان بعض الزعماء الآخرين يُحرِّضــون الجمــاهيرَ علــى المُضيِّ في العِداء للبريطانيّين بحيثُ تبلغ مبالغ العنف، والقتل، والتدمير، والــسلب، ممّا يستفزّ بالمقابل، قَمعًا بريطانيًّا شرسًا. إزاء ذلك، اضطرّ غاندي، وهــو الأكثــرُ تَلَهُّفًا إلى إطلاق القِوى الثوريّة، من أجل الظَّفَر بالاستقلال، إلى التــذرُّع بالحيطــة والتريّث، بحيثُ بات يُردّد: "**فلنُسرع بتُؤَدَةٍ**".

إلاّ أنّ بعضَ الأحداث الطارئة كانت تُرغمه، أَحيانًا، على اتّخاذ قراراتٍ حاسمةٍ لا مفرّ منها؛ فقد اتّفق، مثلاً، أنّ صديقَه، الزعيمَ المُسلمَ محمّد علي، قد أهاب، في الثــامن من شهر تمّوز ١٩٢١، ومن غير استشارته، بجميع الجُنود المُسلمين، إلى الفرار مــن الجيش، عادًّا خائنًا كلَّ من يستمرُّ في الخدمة العسكريّة، أو يُسهم فــي التعبئــة؛ وقــد أفضى ذلك إلى اعتقال كلٍّ من الزعيمَين المسلمَين الأَخوَين محمّد وشوكت علي. فلــم يعُد بوسع غاندي، رسول التّضامن بين المسلمين والهندوسيّين، أن يقف متفرّجًا. فدعا، بدوره، الجنودَ الهندوسيّين إلى الفرار، غير أنّه شَفَعَ دعوتَه بتحفُّظٍ، فلم يعتبــر الفــرار واجبًا إلاّ على القادرين على إعالة أنفسهم بممارسة الغَزل والنسيج يدويًّا.

وكانت الضُّغوط تشتدّ وتتكاثف على غاندي، من أجل المبــادرة إلــى إعــلان العصيان المدنيّ، والامتناع عن أداء الضرائب. وانعقد المؤتمر، ففوّض كلَّ مقاطعةٍ هنديَّةٍ باللجوء إلى العصيان، على مسؤوليّتها الخاصّة، وعلى أن تتّخذ للأمر عدّتــه؛ وقد آثر غاندي قيادة العصيان المدنيّ في مقاطعة "باردولي"، التابعة لبومباي، وقــد وقع خيارُه على تلك المحلّة، لصِغَر حجمها، وتَمرّسِ أهلها بأساليب اللاعنف، بحيث يسَعُه السَّيطرة عليها، ويجعل منها نموذجًا خليقًا بالاحتذاء. وقد حرص غاندي علــى اتّخاذ مُهلةِ تأَهُّبٍ تستمرّ ثلاثة أســابيع، وحــدَّد موعــد الــشروع بالعــصيان فــي ١٩٢١/١١/٢٣؛ ولكن، قُبَيل حلول ذلك الموعد، أمَّ بومباي أَميرُ ويلز، فــي زيــارةٍ رسميّةٍ توخّى منها الإبهارَ والإرهابَ؛ غير أنّ القِوى الوطنيّة جمعت أمرَهــا علــى

مقاطعة استقباله، وقد التزم بذلك القرار سَوادُ الشعب، بحيثُ أقفَرت الشوارعُ والساحات، وقتَ تجوُّل مُمثِّل التاج البريطانيّ فيها. ولكن فئةً من الأغنياء، المعروفين بالفارسيّين قد بادروا إلى الترحيب بالأمير، ومُداهنته، مثيرين، بذلك، حفيظة الجماهير عليهم، فداهمت منازلَهم وأعملت فيها تدميرًا وسلبًا، وأوسعت أصحابَها ضربًا وتنكيلاً؛ وعَصَرَ الحزنُ قلبَ غاندي، فخفَّ إلى موقع الصدام مؤنِّبًا، مهدِّئًا، مُصالحًا؛ ولكنّ الصدمة التي هزّته، من جرّاء موجة العنف تلك، كانت من الحدّة، وخيبة الأمل التي عصفت بأحلامه كانت من الشِّدّة، بحيثُ خُيِّل إليه أنّه لن يقوى على العيش، بعد ذلك، سوى أيّامٍ معدوداتٍ. وأَعلنَ عن الصيام، خمسة أيّامٍ، تكفيرًا عن الجرائم التي اقترفَها بعض مواطنيه؛ وقد أثبتت له تلك الأحداث أنّ الجماهيرَ لم تكُن بعدُ ناضجةً لعصيانٍ خالٍ من العُنف، فقرَّر إرجاء الشروع بالعصيان المدنيّ حتّى آخر كانون الأول، غيرَ حافلٍ بحملات التجريح والسُّخرية التي شنّها عليه بعضُهم، متّهمين إيَّاه بالتخاذُل والمماطلة.

وربَّمَا أجَّجت نيرانَ النَّقد التي انصبّت على غاندي حملاتُ الاعتقالات الواسعةُ النِّطَاق التي عمدت إليها السُّلطات المستعمرة، بحيث غصّت السجون بمئات الزعماء، وبعَشرات ألوف المواطنين؛ ولا سيَّمَا بعد أن تفاقمت حَرَكَةُ هَجر الجنود لقطعاتهم، والموظّفين لمراكزهم، وإقلاع الفلاّحين عن أداء الضَّرائب؛ وقد واكبت الاعتقالاتِ ممارساتٌ ضاريةٌ، إذ راح استخدامُ السِّياط والمجالد، في السُّجون وخارجها؛ وقد وَصَفَ غاندي ذلك القمع بأنَّه "وحشيٌّ، أحمق، جامحٌ، همجيٌّ، شرسٌ، وأنّه أسوأ من الأَحكام العرفيّة".

وفي هذه الأجواء المعبَّأة، وبتاريخ ١٩٢١/١٢/٢٤، زار أميرُ ويلز مدينة كلكتّا، فاجتاز مدينةً مُقفِرةً يَلُفُّها الصَّمتُ، في حين كانت الثورة تزأرُ في الصُّدور؛ وانعقد المؤتمَر من جديدٍ، فدعا المواطنينَ إلى التأهّب للسِّجن في أيّة لحظةٍ، وتدافع ألوف المُتطوِّعين لولوج السِّجن، ثمنًا للاستقلال، وإذ كان أعضاء مجلس المؤتمر أنفسهم يتوقّعون الاعتقال، فقد تنازَلوا عن كلِّ صلاحيّاتهم لغاندي الذي أصبح، في الواقع، سيِّدَ الهند، بلا منازعٍ. وما كان ذلك إلاّ ليزيدَهُ شُعورًا بعبء المسؤوليّة الباهظ المُلقَى على كاهله. فالشَّعب كلّه، وقد ضاق ذرعًا بانتظار "سواراج" لا يتحقّق، كان يُلحف

في مطالبته بإعلان العِصيان على قوانين المستعمرين، وبانتزاع الاستقلال عُنوةً؛ وغاندي كان، إلى هذا الهَدَف الأَقصى، أشدّ تَوقًا من الجميع؛ ولكنّه كان يأبى أيَّ مَظهَرٍ من مظاهر العُنف سبيلاً إليه وذريعةً، فيتريّثُ، ويتلكّأ.

إلاّ أنّ الأَحداث تجاوزته، مرّةً أُخرى، وأرغمته على حزم أمره، بعد أن أعلنت خمسُ مقاطعاتٍ هنديّةٍ رفضَها أداءَ الضَّرائب؛ ولكن، قبلَ أن تحذوَ محلَّةُ "باردولي" حَذوَها، حَرِص غاندي على استنفاد جميع الوسائل السلميّة، فوجّه إلى نائب الملك، في التاسع من شباط ١٩٢٢، كتابًا مفتوحًا، جَمعَ إلى التهذيبِ الوُضوحَ والجرأةَ، وأعلنَ فيه أنّه قائدُ حركة اللاتعاون التي يتحمَّلُ كاملَ مسؤوليّتها، ثمّ تناول بالقَدح سياسة بريطانيا المتمادية في امتهان حرّيَّة الصَّحافةِ، والكلامِ، والتجمّع، امتهانًا شرسًا؛ وأمهل نائب الملك أسبوعًا للعدول عن تلك السياسة، وإلاّ لن يكون لديه من مخرجٍ سوى إعلان العِصيان المدنيّ، في مُقاطعة "باردولي"، إيذانًا بعصيانٍ يشمل جميع أرجاء الهند. وأكّد غاندي أنّ قراره هذا، هو، في تلك النَّوبة، قرارٌ حاسمٌ.

هذا، وكان غاندي، في غروب عام ١٩٢١، قد أنذَر سُلطات الاستعمار "بكلّ تواضُعٍ" ومن على منبر رئاسة المؤتمر قائلاً: "**مهما عملتُم، وأيّةً كانت أساليبُ قمعكم، فسننتزع، يومًا، منكم النَّدَمَ على ما جنته أيديكم؛ وإنّنا لندعوكم إلى إعمال الفكر، ما دام لديكم من الوقت متّسعٌ، فتُحيطوا أعمالكم بالحكمة، لئلاّ تُحوّلوا ثلاثَ مئة مليون هنديٍّ أعداءً لكم**".

لا بل إنّه مضى في هجومه على أساليب القمع البريطانيّة إلى حدٍّ بعيدٍ من التحدّي، عندما قال في برقيّةٍ إلى السّلطات المستعمِرة: "**أيُّ تفاهُمٍ ممكنٌ مع الأَسَد البريطانيّ، الذي لا يني يُلوّحُ في وجهنا بمخالبه الدَّامية؟ إنّ العرشَ البريطانيّ القائمَ على استغلالٍ منظّمٍ للشعوب الأضعف جسديًّا، وعلى استعراض القوَّة البهيميّة المستمرّ، لن يُكتَب له البقاء، إن كان، ثمّةَ، إلهٌ يُديرُ الكونَ. لقد آن للشَّعب البريطانيّ أن يُدرك أنّ نضالنا، الذي بدأ عام ١٩٢٠، هو نضالٌ حتّى النهاية، سواءٌ استمرّ شهرًا أو سنةً أو أشهرًا أو سنوات؛ وإنّني إنّما أرجو الربّ وأدعوه أن يهب الهند قدرًا كافيًا من التواضُع والمنِعَة، بحيثُ تقوى على الالتزام باللاعنف حتّى آخر الشوط...**".

كما أنّه كان قد عقد ستّ جلساتٍ، استمرّت ثلاث عشرة ساعةً، مع نائب الملك، "اللورد ريدنغ" القادم إلى الهند حديثًا، وجَهِدَ في إقناعه بانتهاج سياسةٍ تُوفِّرُ للهند استقلالها، ولبريطانيا كرامةَ الانسحاب الطّوعيّ. ومنَ الطريفِ إيرادُ بعض ما كتبه "اللورد ريدنغ" إلى ابنه، في أعقاب تلك اللقاءات، إذ قال:

"لقد جاءَ... يرتدي مئزرًا أبيض وقبّعةً منسوجةً على نَولٍ يَدَويٍّ، حافيَ القدمَين، عاريَ الساقين. كان انطباعي الأوّل، عندما رأيتُه داخلاً أنّ لا شيء في منظره الخارجيّ من شأنه إثارةُ الانتباه، بحيثُ كنتُ سأَمُرُّ بجانبه، في الشّارع، من غير أن ألتفت إليه. ولكن، ما إن هو يشرع يتكلّم، حتّى يتبدّل الانطباعُ. فهو يتحدّث بصراحةٍ، وبلُغَةٍ إنكليزيّةٍ ممتازةٍ، وبإحساسٍ مُرهَفٍ بالألفاظ التي يستخدمها. كلامُه خالٍ من التردُّد، والصِّدقُ يطبعُ كلَّ عباراته، إلاّ عندما يناقش بعض القضايا السياسيّة. آراؤه السياسيّة صادقةٌ، حقًّا، في اعتقادي، ولديه قناعةٌ تلامِس التعصُّبَ بأنّ اللاّعنفَ والحبَّ سيُكسِبان الهندَ استقلالَها، ويُمكّنانها من مُقاومة الحكومة البريطانيّة. إنّ آراءَه الدينيّة والأخلاقيّة رائعةٌ، وهي في الواقع، على قدرٍ كبيرٍ من السُّمُوِّ، ولو أنّي أعترفُ بأنّه يعسُر عليَّ إدراك تطبيقها سياسيًّا... لقد اتَّسَمَت أحاديثنا بقسطٍ وافرٍ من الصَّراحة، وكان، هو، أبدًا مُهذّبًا، لَبِقًا، مُرهف السُّلوك، وخلالَ مُختَلَف النِّقاشات التي دارت بيننا، ظلَّ وفيًّا لأقواله على كلّ صعيدٍ".

ما كادَ يَجفُّ مِدادُ حبر كتاب غاندي إلى نائب الملك، حتّى نشبت في محلّة "شوري شورى" التابعةِ لمُقاطعة "كواركبورو"، أحداثٌ على جانبٍ مُريعٍ من العُنف والبربريّة، إذ تصدّى حَرَس الحكومة لجماعةٍ من الهندوسيّين كانوا يقومون بتطوافٍ دينيٍّ، ونكّلوا بهم، فثارت ثائرة المتظاهرين الذين حاولَوا الدفاعَ عن أنفسهم، فأطلق عليهم حَرَس الحكومة النَّار، وأَردوا عَدَدًا منهم، من غير أن يُفلحوا في إرهابهم؛ ولمّا نفدت من الجُند الذخيرةُ، فَزِعوا إلى نَزلٍ صغيرٍ، فلحق بهم المُتظاهرون، وأضرموا النارَ بالنزل، وعندما حاولَ بعضُ الجند الفرارَ من الحريق تلقّفتهم الجموعُ الهائجة، وأوسعتهم ضربًا وتمزيقًا، وألقت بهم طُعمةً لأَلسنة اللَّهب، وهكذا لقي منهم اثنان وعشرون جنديًّا أبشعَ مِيتةٍ.

صحيحٌ أنَّ جنود الحكومة كانوا البادئين بالغَدر، وأنّ المتظاهرين لم يكونوا من أتباع غاندي، ولا كانوا ينتمون إلى أيّة حَرَكةٍ نضاليّةٍ وَطَنيّةٍ. ولكنّ غاندي – وهو ضمير الهند – كان يَعُدُّ نفسَه مسؤولاً عن وِزر كُلّ خطيئةٍ يقترفها هنديٌّ؛ ولم يجد وسيلةً للتكفير عن تلك الفِعلة الشنيعة سوى الصَّوم خمسةَ أيّامٍ، وإعلان رجوعه عن قرار إعلان العِصيان المدنيّ، الذي كان، لأَيّامٍ معدوداتٍ خلت، يعتبرُه نهائيًّا، وهو مدركٌ، كُلَّ الإدراك، ما سيجُرُّه عليه تراجُعه هذا من اتِّهامٍ بالتخاذل والتأرجح والوَهَن، وما سيستفزّه لدى مواطنيه عليه من حفيظةٍ وازدراءٍ. غير أنّ تلك المخاوف لم تكن لتثني غاندي عمّا كان يُمليه عليه وِجدانه، فهو قد رأى في ما حدَث، صوتَ إبليس، صوتَ الكبرياء، الذي لا يُقاوَم إلاّ بالتواضُع. لا بل إنّه مضى إلى أبعدَ من ذلك، فأقدَمَ على ما لم يُقدِم على مِثله سياسيٌّ، قطّ، حين نشر في صحيفة "الهند الفتاة" مقالاً شكر فيه الربّ لأنّه حقَّره وأذلّه وأرشده إلى حقيقة أنّ الهند لم يكن يسودها، بعدُ، جوُّ الحقيقة الذي، وحدَه، يُتيح عصيانًا جماهيريًّا مَدَنيًّا، بكلّ ما تنطوي عليه لفظةُ المدنيّة من معاني الانضباط: أي رفيقًا، متواضعًا، حكيمًا، طوعيًّا، يتّسم بالمحبّة، ويتنكّب عن كلِّ صفاتِ الجريمة المقيتة. وممّا جاء في مقاله:

"أستميح لنفسي التَّأكيدَ بأنَّ البلاد قد أفادت من مَذلّتي، ومن اعترافي بالخطأ... إنّ الاعتراف بالخطأ مِكنَسةٌ تَذهبُ بالأوضار، وتنشرُ النَّظافة والتألّق... إنّني أشعر أنّني بتُّ أشدَّ مِنعةً بسبب اعترافي... فما بلغ، قطّ، إنسانٌ هَدفَه بعناده على مواصلة انحرافه عن سويّ السبيل... عليَّ أن أمارس تطهّرًا شخصيًّا، بحيث أغدو مِصفاةً كفيلةً بتسجيل أدنى تَحوّلٍ في الجوّ الأخلاقيّ المُحيق بي، وينبغي أن تتَّسم صلَواتي بمزيدٍ من الحقّ والتواضُع...".

لقد أكَّد غاندي أنَّ مقاطعةَ "باردولي" التي كان مسؤولاً شخصيًّا عنها، هي أكثر مقاطعات الهند سَلامًا والتزامًا باللاعنف؛ ولكن طالما كانت هناك مقاطعةٌ هنديَّةٌ تتذرَّع بالعُنف، فالهند كلُّها موبوءةٌ، شأنها شأنُ كأس لبنٍ اندسَّت فيها قَطرةُ سُمٍّ؛ وقد اعترفَ بأنَّ التراجع عن خطَّة العصيان قد يكون وبيلاً وغيرَ حكيمٍ، سياسيًّا، ولكنَّه، بلا مِراء، صحيحٌ، دينيًّا، وفي موقع الدّين لم يكُن بمُكنَةِ أحدٍ زحزحةُ غاندي، الذي أضاف:

"أن نُتَّهَم بالجُبن أَهونُ من أن نتنكّر لمبادئنا ونخطأ تجاه الله... إنّه لأفضل، مليونَ مرّةٍ، أن يبدو المرءُ، في نَظَر العالَم، خائنًا بعهدِه، من أن يكون، فعلاً، كذلك في نظَر نفسِه... إنّني على أهبةٍ لتحمُّل الإهانة، بل كلِّ صُنوف التعذيب، والنفي، والموت ذاته، لضمان الحؤولِ دونَ انتهاج حركتنا طريق العُنف، أو التمهيد له".

لقد كان غاندي متيقّنًا أنَّ من شأن الكفاح المُسَلَّح أن يَجلبَ إلى مراكز القيادة، في كلا الجانبَين، أكثرَ الناس استهتارًا بالمُثُل الأَخلاقيّة، وأقدرَهم طاقةً على البُغض والقسوةِ والفسادِ والاستبداد؛ وحينئذٍ، أيًّا كان الغالبُ، فالإنسانيّة ستُمنى بالهزيمة. وأردَفَ: **"إذا ما تبنَّتِ الهندُ مبدأ السَّيف، فقد يكون بوسِعها تحقيقُ نصرٍ مؤقَّتٍ، ولكنّها لن تعود هي ما يزهو به قلبي. إنّ دِيني لا يعرفُ حدُودًا جغرافيّةً، ولئن أنا آمنتُ به إيمَانًا حيًّا لتخطّى حتّى حبّي للهند نفسها".**

كانت صيحاتُ الاستنكار لتراجع غاندي عن إعلان العصيان المدنيّ تتعالى وتشتدّ، إلاّ أنّ غاندي قد أصمّ أذنَيه عن كلّ صوتٍ خلا صوت وجدانه الذي كان يهمس له ما يحتّمه عليه الدِّين من واجبٍ وسلوكٍ. فضرب، بذلك، في الأَخلاق السياسيّة، مَثَلاً قلّمَا داناه سواه من القادة، في التاريخ. ولكن، على أَرض الواقع الشعبيّ، كانت ردود الفعل، على نحو ما توقَّعها غاندي، عنيفةً في نقدها، لا بل إنَّها تخطَّت، في عُنفها كلَّ توقّعاته. فقد ساد ما يُشبه الشعورَ بالهزيمة، وانهمرت على غاندي رسائلُ تقطر خيبةَ أملٍ؛ وكان أَشدَّها مرارةً تلك التي عبّر، بها، السجناءُ السياسيّون عن اتّهام زعيمهم بالخيانة.

في هذا الجوّ المحموم، انعقد المؤتمر، بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٢٢، فأعرب غاندي، في هدوءٍ ورباطة جأشٍ، مقرونَين بحُزنٍ بالغٍ، عن استنكاره للهَجَمات التي تناولت سياسته، والدالَّة على أنّ اللاعنف إنّما كان لا يزال، في الهند، سطحيًّا، وكأنّه لا عنفٌ مفروضٌ قسرًا على أناسٍ ضُعفاء، يمارسونه مرغمين، بحيثُ لا يتحرَّجون من اللُّجوء إلى العُنف والانتقام، لدى أَوّل سانحةٍ؛ ورغم المعارضة الحادَّة لسياسة غاندي التي كانت قد أَخذت ترتسم، جدَّدَ المُؤتمَر لزعيمه ثقته المطلقة، بل أطلق يدَه في تنفيذ السِّياسة التي يرتئيها، مُعتبرًا إيّاه الممثِّلَ الوحيدَ للسُّلطة التنفيذيّة في البلاد،

بعد أن اتّضح للجميع أنّه ما انفكّ الزعيمَ الأَوحدَ القادرَ على استقطاب محبّة الجماهير التي غدت لها كلُّ كلمةٍ من كلماته دُستورًا مُقَدَّسًا، وباتت لا تتحرّك إلاّ بإشارةٍ منه، بحيثُ أَمسى الزعماءُ المتطرِّفون لا يجسُرون على القيام بأيّ عملٍ جماعيٍّ لا يحظى بتأييده، ليقينهم بأنّ من شأن اعتراضه على خطواتهم مَنيَها بفَشَلٍ ذريعٍ مُحتّم.

لقد استطاع غاندي، بتواضُعه وتجرُّدَه، إقناعَ شعبه بمَا كان يُؤمن به، وبأنّ المُهمَّةَ الجديرةَ بالأَولويَّة المُطلَقَة تكمُن في تطهير النفس الهنديّة، والسياسة الهنديّة، من الفساد والازدواجيّة والإرهاب، ومن كابوس تفوُّق العِرق الأبيض، وتكمُنُ، أيضًا، في تمرُّس الهنود بسِلاح الروح الذي، إن هم أَحسَنوا استخدامَه، كان خليقًا بالإفضاء بهم إلى غاياتهم المنشودة، وقد رسخ في خَلَدِ غاندي أنَّه، متى تَمَّ للهند ذلك، تحقَّقَ استقلالُها تلقائيًّا، وهو، بالتالي، قد عكفَ، في الحال، على رَسمِ الخُطُوات التمهيديّة العمليّة الكفيلة بإصابة ذلك الهدف، وفي طليعة تلك الخُطوات، تَوطيدُ الوحدة الهندوسيّة الإسلاميّة، ومكافحة المنبوذيّة، وإنعاش الرِّيف وتوعيته، وإعادةُ تنظيم المؤتمر، وإلى كلّ تلك الاهتمامات، بل في مُقَدَّمتها، تعميمُ المِغزَل والنَّول اليدويَّين.

وكان غاندي يتوقَّع أن تعتقلَه السُّلطات البريطانيّة، في أيّة لحظةٍ، ولم يكُن السِّجن ليُرهبَه، بل هو كان أمنيّته؛ وإنّمَا كان يخشى، إن هو سُجِن، أن ينحرف شعبُه عن نَهج اللاعنف والساتياغراها الذي اختطَّه له؛ ومن ثمّ، فقد راح يُشَدِّدُ، في ندائه إلى الشعب، على ضرورة الالتزام بتلك المبادئ، مهما حدث له، فيُثبت، بذلك، للمستعمرين، أنّ تلك المبادئ قد غدت تراثًا هنديًّا راسخًا، وأنّه، هو، غاندي، إنّما كان يستمدّ قُوَّتَه من شعبه.

وفي أشرمه، اختلى غاندي ونخبةٌ من أَعوانه المُخلِصين، حيث وضع خطَّةَ عَمَلٍ يتوجّب اتِّباعُها، في حال توقيفه، كما تَرَكَ لهم تعليماتٍ مُسهَبَةً، وتفاصيلَ دقيقةً، تُفصِّل دَورَ كلٍّ منهم، في نشرةٍ وصيّةٍ، عنوانها: "**إذا ما اعتُقلتُ**".

وعندما مَثُلَ رجال الأمن البريطانيّون، في الساعة العاشرة والنصف، من ليلة يوم الجمعة، العاشر من آذار ١٩٢٢، كان غاندي متأهّبًا، وقد أعدّ للسِّجن عدّته، فتلا، وبعض أصحابه، صلاةً وجيزةً، ورنّموا، معًا، نشيدًا دينيًّا، ثمّ، بخُطًى رشيقةٍ، اتَّجه إلى السيّارة التي أقلّته إلى سجن سابارماتي.

ولا بدَّ، هنا، من التساؤل عن الدافع الذي حدا بالسُّلُطات البريطانيّة إلى اعتقاله، بعد أن ظلَّت، سنوات، تُراقبه في خَشيةٍ واحترامٍ، وتصانِعُه، وتتحاشى الصِّدامَ معه، شخصيًّا، ولا سيَّمَا أنَّه كان الحاجزَ الوحيدَ الكفيلَ بدرء سيل العُنف الجارف. أهي جَنَحت إلى الاصطياد في الماء العكِر، بعد أن تبيّنت ما استفزَّه تردُّده في إعلان العصيان المدنيّ من مقاومةٍ لسياسته، فاستغلّت ذلك الظَّرف لتتخلّص من خصمٍ كانت تخشى تأثيرَه الوبيلَ، في المستقبل البعيد، من غير أن تُثير ضجّةً هادرةً؟ أم هي توخَّت، بتوقيفه، إفساحَ الفرص لاستفحال أعمال العُنف، ممّا يوفِّرُ مُبرّرًا لتدخّلها الكثيف، وبطشها، وإحكام قَبضتها على الهند؟

يذكر ابن اللورد ريدنغ، نائب الملك آنذاك، أنّ حكومة لندن كانت لا تني تُمارس على والده ضُغوطًا شديدةً، بُغيةَ حمله على اعتقال غاندي بصِفَته الداعيةَ إلى اللاتعاون مع الأمبراطوريّة؛ غير أنّ نائب الملك، الذي كان قد لَمَسَ لدى غاندي نَقاءً غَيرَ أرضيٍّ، تبدو، حيالَه، كل الاعتبارات الأُخرى سخيفةً، كان يُمَاطل، مُؤثرًا إلاّ يقبضَ عليه، إلاّ بعد تنفيذه العصيان المدنيّ، في مقاطعة "باردولي". وربَّمَا عيل صبرُه من الانتظار، وضاق ذَرعًا، شأنه شأن هنودٍ كثيرين، من إرجاء غاندي إعلان العصيان، كرَّةً تِلوَ كرّةٍ، فرضخ أخيرًا لضغوط لندن.

وجديرٌ بالتنويه أنّ غاندي كان قد نشر، عشيّةَ توقيفه، في صحيفة "الهند الفتاة" مقالاً بعنوان "أنا معتقلٌ"، جاء فيه: "**إنّ سواقي الدّماء التي تسفحها الحكومة، لعاجزةٌ عن إرهابي، ولكنّي سأتكدّر، حتّى أعماقي، إذا ما تمرّد الشَّعبُ على الحكومة، دفاعًا عنّي، أو باسمي، وسيُحزِنني أن أرى شعبي يفقد اتّزانه، من جرّاء اعتقالي**".

وجرت محاكمة غاندي في ١٨ آذار ١٩٢٢، بتُهمة التحريض على الحكومة، وسط تدابيرَ أَمنيّةٍ شديدةِ الصَّرامة، واسعةِ النطاق، سُرعان ما اتّضح أنّها كانت نافلةً، ولا مبرّر لها: فالجماهير لم يَعُد يُرهبها القَمعُ، غير أنّها التزمت، تلقائيًّا، بالهدوء، نُزولاً عند رغبة زعيمها، وتكريمًا لرسول اللاعنف.

وكانت مُحاكمةً فريدةً، تبارى فيها المتّهمُ والقاضي في كَيل عبارات التقدير أحدُهما

للآخر؛ ولما سُئل غاندي عن مهنته، أَجابَ: "**مزارعٌ وحائك**"؛ ثُمَّ وقف مدافعًا عن نفسه، فاعترف بالتُّهمة المنسوبة إليه، وتبنّى مسؤوليّة جميع أعمال الشَّغَب والعُنف، حتّى "الشيطانيّة" منها، التي نشبَت في أيّ مكانٍ من الهند. وقد جاء في مرافعته:

« "إن المدّعي العامّ مُحِقٌّ الحقَّ كلّه بادّعائه أنَّه كان عليّ توقُّعُ عواقب كُلِّ عمل من أعمالي، لِكَوني أتَبوّأ مركز المسؤوليّة، ونلتُ قِسطًا وافرًا من الثقافة، وخبرتُ العالم خبرةً واسعةً. أَجل، لقد كنتُ مُدركًا أنّني ألعبُ بالنار، ومع ذلك عَزَمتُ على المُضيّ في تلك المغامرة؛ ولو أنّه أُفرجَ عنّي، لكرّرتُ عملي هذا. ولقد راودني هذا الصَّباحَ شُعُورٌ بأنّني سأخون واجبي، إن لم أقُل ما أَقولُه في هذه اللَّحظة.

"لقد توخّيت تلافي العنف، وأبتغي أبدًا تلافيه؛ فاللاعنف هو المادّة الأولى، وهو المادّة الأخيرة من قانون إيماني. ولكن كان عليّ أن أختار: فإمّا الخُضوع لنظامٍ أعتبر أنّه ألحَقَ ببلادي أذًى لا شفاءَ منه، أو مواجهة خَطَر انفجارٍ شعبيٍّ، بعد أن يسمع شعبي الحقيقة من شفتيّ. إنّني أَعلم أنَّ شعبي قد جُنّ جنونه، أَحيانًا، وإنّي لآسف على ذلك أعمق الأسف...

"لستُ، وأنا أمثُل هنا، طامعًا بعقابٍ خفيفٍ، بل إنّني أطلُب أقصى عِقابٍ. إنّني لا ألتمس الرحمةَ، ولستُ أدَّعي أيّة أعذارٍ أو مُبرّراتٍ، بل أنا هنا لأدعوكم – وأنا خاضعٌ للحكم بسرورٍ – أن تحكموا عليّ بأقسى عقابٍ، على ما يراه القانونُ جريمةً مدبّرةً، وأراه أنا واجبًا وطنيًّا أسمى. وليس لديكَ، يا سيادة القاضي، مِن خِيارٍ، سوى الاستقالة، أو الحُكم عليَّ بأشدّ العقوبات صرامةً ».

ثم تلا غاندي بيانًا مُسهبًا بيّنَ فيه الدوافعَ التي حوّلته من مواطنٍ مُخلصٍ للأمبراطوريّة، مُتعاونٍ معها، إلى مُقاومٍ لها، يدعو إلى اللاتعاون بلا هوادةٍ ولا مُساومةٍ.

وأوضح أنّه قد لَقِيَ الكثيرَ من العَنَت في تعامله مع البريطانيّين طوالَ خمسةٍ وعشرين عامًا؛ وقد حاولَ جاهدًا إصلاحَ الأَخطاء، أَمَلاً في الحِفاظ على الوشائج بين الهند وبريطانيا؛ ولكن اتَّضح له أنّ بريطانيا كانت عازمةً على المُضِيّ في استغلال جماهير الهند، وهَدرِ كرامتها، واغتيال رُجولتها، وتفتيتِ اقتصادِها، وأنّها تُمالئ

المُستَغِلّين والمُفسِدين، وتكافئُهم وتُطوّعُ قوانينها لخدمتهم؛ وخلصَ إلى الإعلان عن إيمانه الرَّاسخ بأنّ اللاتعاون مع الشّرّ واجبٌ سامٍ، وأنّه إنّما أَدّى ذلك الواجب؛ وأَخيرًا دعا شعبَه إلى الالتزام بالسِّلاح الذي لا يُقهر، سلاح اللاعنف.

وقد مهّد القاضي للحكم بقوله لغاندي: "**إنّ القانونَ لا يُعير الأَفرادَ اعتبارًا ولكن يستحيلُ إغفالُ حقيقةِ أنَّك من نَمَطٍ مُغايرٍ لكلِّ من حاكمتُهم يومًا، ولمن قد أُدعى يومًا لمحاكمتهم، مثلما يستحيل إغفالُ أنّك، في نظر الملايين من مُواطنيك، وطنيٌّ كبيرٌ، وزعيمٌ عظيمٌ؛ فحتّى الذين لا يشاطرونك آراءَكَ السياسيّة، يعتبرونك إنسانًا تحدوه مُثُلٌ ساميةٌ، وسلوكٌ نبيلٌ يتّسم بالقداسة**".

ثمّ سأل غاندي رأيه في أن يحكم عليه بمثل ما كان قد حكم، لسنواتٍ خلت، على الزعيم تيلاك، أي بالسّجن ستَّ سنواتٍ، وأردف: "إن رأت الحكومة، فيمَا بعدُ، تخفيض هذا الحكم، فلن يُسعد هذا التخفيضُ أَحدًا أكثرَ منّي". وردّ غاندي أنّه لشرفٌ جليلٌ يُحاط به، أن يُقرَنَ اسمُه باسم تيلاك، وأنّ هذا الحكم هو أَخفُّ ما يمكن لقاضٍ أن يحكُم بمثله.

حينئذٍ ارتمى مُحبُّو غاندي على أقدامه منتحبين؛ بيدَ أنّه ودَّعَهم مُبتسمًا. إذ قد طالما اعتبر السِّجنَ من مُقوّمات النّضال ومن أركان سياسة اللاتعاون، وقد طالما توقّعه، بل تمنّاه؛ وفي كُلِّ مرّةٍ كان يُعتَقل أحدُ أصدقائه، كان يُسارع إلى الإبراق له مهنّئًا، وكثيرًا ما ردّد: "**علينا أن نُوسّع شبكات السُّجون، وأن نَشخَصَ إليها شُخوص العريس إلى مخدَع عروسه؛ وعلينا إلاّ ننشُد الحرّيّةَ إلاّ بين جُدران السُّجون، لا بل عند مِنَصّات المشانق أحيانًا، لا في قاعات المؤتمرات، والمحاكم، والمدارس**".

وأُوصدَت دونَه أَبوابُ سجن "ييراڤدا" في "پونا" حيث عُومِلَ معاملةَ المُجرمين، ولَقِيَ مَهانةً لم تكن صحّته مؤهَّلةً لاحتمالها، ومع ذلك، وفَّر له السّجن استراحةً كان يستأهلها ويفتقر إليها، وقد أفاد منها في تدوين مُذكّراته، و"قصّة تجاربه مع الحقيقة" وفي التأمُّل، وتحرّي أمثل أساليب اللاعنف، وفي صياغة أسلحة "الساتياغراها" التي كان عازمًا على المحاربة بها، من معدنٍ أشدّ صلابةً وأوفر نقاءً. وقد اعتبر السجن فُرصةً للمزيد من التطهّر الذاتي، وللتفرّغ للصَّلاة، بحيثُ يكون أكثر فائدةً للهند.

لقد طالما تاق غاندي إلى السِّجن، تحقيقًا للمُساواة بينَه وبين سائر السُّجَناء السياسيّين من مواطنيه، ولا سيَّمَا أنّه لم يألف، قطّ، أن يطلب من الآخرين تضحيةً لا يكون أوّلَ المُقدمين عليها. وقد حقّقت له حماقةُ البريطانيّين تلك الأمنيّة.

وقد أكسب السِّجنُ غاندي مزيدًا من الشعبيّة، والمحبّة والتقدير، كما أسهم في كَبح جماح العُنف الذي كان يتوجّس منه خَشيةً فوق كلّ خَشيةٍ؛ فلئن كُتِم صوتُ الرَّسول، وحُشِرَ جسده في ما يُشبِهُ اللحد، إلاّ أنّ فكره وروحه ظَلاّ يُحرّكان جَسَد الهند الكبير، وكانت رسالتُه، من قلب غياهب السجن لا تني تُردّد: "**السلام، اللاعنف، المعاناة**". وقد انحفرت تلك الشعارات، عميقًا، في مطاوي النفوس.

وقد وصف رجُل الدِّين الإنكليزيّ "أندروز" وهو أكثر أصدقاء غاندي وفاءً، ومن أشدّهم إعجابًا به وبسياسته، ما شاهده من تحوّلٍ، آنذاك، بأنّه إيذانٌ بفجرٍ قشيبٍ يُبشّر بفتحٍ جديدٍ، في حرب الروح. فقد رأى كيف باتت جماعة "الأكالي"، في البنجاب، وهي فئةٌ من السِّيخ المشهورين بعنفوانهم، وممارساتهم الحربيّة، تقاوم الحكومة، إذ كان عشراتٌ منهم، كلَّ يومٍ، يَنذُرون نَذرَ الفداء، ويتقدّمون، زرافاتٍ، من حَرَس الحكومة، وعلى مقربةٍ منهم، يشرعون في صلاةٍ صامتةٍ، فيوسعهم الحَرَس ضربًا بسياطٍ رُبطت أطرافها بكتُلٍ من الحديد، إلى أن تنثال دماؤهم، ويُغمى عليهم، فينهارون على الأرض، وحينئذٍ، تحلّ محلّهم جماعةٌ أُخرى، تلقى نفس المصير، وهكذا، فيمَا الشَّعب واقف يُصلّي، في خُشوع، من غير أن تُسمع له صيحةٌ أو نأمةٌ. ويعلّق "أندروز" بقوله: "لم أقوَ، وأنا أراقب المشهد، على الامتناع عن تخيُّل طيف المصلوب".

وكان من الطبيعيّ أن يَستغِلَّ بعضُ المتخاذلين غيابَ غاندي فيطرحوا بديلاً لسياسته، ويَدعُوا إلى التخلّي عن اللاتعاوُن، وعن مقاطعة البضائع البريطانيّة، وإلى استئناف التعاون مع الحكومة المستعمِرة؛ بيدَ أنّ القضيّة التي كافح من أجلها غاندي وسُجِن، كانت ما تزال تعتلج في أفئدة سَواد الشَّعب وعقوله.

ولكن بِقَدر ما كان غياب غاندي عن الساحة يطول، وتأثير حضوره النفّاذ يتضاءَل، كانت قُوى الشرّ تنهض، وتتنفّس، وتشتدّ ساعدًا، وتعيثُ فَسادًا.

صيام المصالحة

مَكَثَ غاندي، في سجن ييراڤــدا، اثنَين وعشرين شهرًا، تحت ظروف اعتقــالٍ قاسيةٍ، ولكنَّه كان يكتُب إلى أصدقائه، خارج السجن، مؤكّدًا أنّه "سعيدٌ كالعــصفور". ولا مِراءَ في ذلك، فهو كان قد أَلِفَ شَظَفَ العيش، ولم تكن الحياة الخشنة لتُوجعَــه؛ وقد أتاحت له خَلوةُ السِّجن الانصراف إلى مطالعة كتُبِه المُفَضَّلة، وتدوين مُذكّراتــه، والتأمّل، والصلاة.

وكان غاندي قد أبى أيّةَ حُظوةٍ تُميِّزه عن سائر السجناء، باستثناء امتيازٍ خــاصٍّ وحيدٍ، أفعم نفسه حُبورًا، إذ جيء إليه بمغزلٍ كان يُزَجّي، في الغزل عليــه، أربــعَ ساعاتٍ كلّ يومٍ، في حين لم يكن يستطيع أن يُخصّص له، خارجَ السجن، أكثرَ مــن ساعةٍ واحدةٍ في اليوم. وعلى تَكتَكَتِه كان يُردّد اسمَ الله: "راما"، ويَحلُم بهنــدٍ تحــرَّر فقراؤها من قيودٍ كثيرةٍ.

إلاّ أنّه، في مطلع عام ١٩٢٤، مُنيَ بالتهابٍ حادٍّ بالزائدة الدوديّة هدَّد حياته، وخَشي معه البريطانيّون أن تلتهبَ الهندُ بأسرها، إن ما هو أصابه مكروهٌ، وهو سجينُهم، فنقلوه إلى مستشفى "ساسون" من أَجل إجراء عمليّةٍ فوريّةٍ، بعد أن وقّع، بنفسه، على بيانٍ أعلنَ فيه موافقتَه على المُداخلة الجراحيّة، وأهاب بالجماهير التزام الهدوء.

كان الهُزال والوَهَنُ قد نالا من غاندي أثناءَ سَجنه؛ ومن جهــةٍ أُخــرى، تمَّــت المداخلة الجراحيّة في ظروفٍ سيّئةٍ، فتقــيّح جرحُــه، وتباطــأ شــفاؤه؛ وارتــأى البريطانيّون الإفراج عنه، في الخامس من شــباط ١٩٢٤؛ فــشَخَص إلــى إحــدى ضواحي بومباي، لقضاء فترة نقاهةٍ، عكف أثناءَها على معالجة أصدقائه المرضــى، بوسائلَ ووصفاتٍ بدائيّةٍ، وغالبًا ما كان يُفلح في شفائهم، بفضل ما كان يُشيعه مــن مَرَحٍ، وما يتحلّى به من دماثة مَعشَرٍ.

وتقاطر أصدقاؤه لعيادته، ولكنّه أبلغهم أنّه يُؤثر زيارتهم له، بين الساعة الــسادسة عشرة والسابعة عشرة، كلَّ مساءٍ، بحيثُ يشتركون معه في الصَّلاة الجماعيّة اليوميّة. وكان في عداد زائريه بعضُ زعماء المؤتمر، الذين رسموا أمامه صورةً قاتمــةً عــن

التدهور المُريع الذي انزلقت إليه سياسةُ الهند أثناءَ سجنه. لقد كان جليًّا أنَّ ذلك التدهورَ ينهض دليلاً على أنّ التهاب الزائدة الذي داهَمَ غاندي كان التفاتةً من العناية الإلهيّة أنقذت الهندَ من وبالٍ عميمٍ، وتداركت كلَّ ما بناه من انهيارٍ تامٍّ، لا يُبقي ولا يَذَر، لو أنّه قُيّض لغاندي أن يمكثَ في السّجن السنواتِ الستّ التي حُكم عليه بها.

كان المؤتمر الهنديّ، آنذاك، نهبًا بين اتّجاهَين متباينين، أحدُهما يُمثّلُ اللامتعاونين "اللامتبدّلين" الأَوفياء لسياسة غاندي تجاهَ الحكومة البريطانيّة؛ بَيدَ أنّ هؤلاء، ولئن هم تمسّكوا بحرفيَّة اللاّتعاون، قد انحرفوا، إلى حدٍّ بعيدٍ عن روحه، وفَقَدوا، على نحوٍ خاصٍّ، إيمانَهم باللاعنف؛ أمّا الاتِّجاه الآخر فكان يُمثّله أولئك الذين، تخلّوا، صراحةً، عن سياسة اللاتعاون، وآثروا العودة إلى الاشتراك في المجالس الحكوميّة المحليّة، بحجّة التمكّن من استقراء مقرَّرات الحكومة ومعارضتها وتفشيلها؛ وربُّمَا كان هذا الدافع، أوّلَ الأمر، يُحرّكهم، حقًّا، بيدَ أنَّ معارضة بعضهم، التي كانت، أصلاً، مبدئيّةً، سُرعان ما تحوّلت إلى معارضةٍ عابرةٍ، عاجزةٍ، وغدت، في نهاية المطاف حُجّةً زائفةً تُقنّعُ رغبةً كمينةً في استعادة مناصبَ ووظائف ومصالح، وهكذا عاد محامون إلى الترافُع أمام المحاكم، وربّمَا ندم بعضهم على انقطاعهم عنها؛ وثاب موظّفون إلى وظائفهم، وطُلاّبٌ إلى مدارسِ الحكومة المستَعمِرة.

وكان يتزعَّم هذا الاتجاهَ الثّاني "موتيلال نهرو"، الذي هرع لعيادة غاندي شارحًا ومُبرِّرًا موقفَه؛ وإذ كان غاندي لا تُخامره أيّةُ ريبةٍ في صدِق وطنيّة موتيلال نهرو، وكان، بالسَّليقة، صارمًا على ذاته، مُتسامحًا مع سواه، فقد وافَقَ على أن يتعايش الاتّجاهان، داخلَ المؤتمر؛ بَيدَ أنّه، بعدما تبيّنَ، أثناءَ إحدى جلَسات المؤتمر، المنعقدة في شهر حزيران ١٩٢٤، مدى فقدان أعضاء المؤتمر إيمانهم باللاعنف، لم يستطع إمساكَ نفسه عن البُكاء، تحت أنظار جميع الحاضرين.

لقد اتّضح له أنّ المؤتمرَ قد خوى من الرّوح الذي قد طالما جَهِد من أجل بثّه فيه، كما أنّه استشفّ مدى خطر اعتماد البلاد على شخصٍ واحدٍ، إن لم يكن الجميعُ يُشاطرونه إيمانَه مشاطرةً صادقةً. ومن جهةٍ أُخرى كان مُوقنًا، أبدًا، بأنّ خلاص الهند لن يأتيها من زعمائها وحدَهم، بل من القاعدة الشعبيّة العريضة، التي، متى

تحقّق تطهّرها ونضوجُها، باتت ثَمَرةُ الاستقلال يانعةً؛ ومن ثَمَّ، تخلّى عن رئاسة المؤتمر، بضعَ سنواتٍ، تاركًا لزُعمائه وأعضائه أن يتدبّروا أمورَهم بأنفسِهم، وانصرَفَ إلى مُهمّة البناء الأساسيّة، بناءَ نفسٍ هنديّةٍ نقيّةٍ، منيعةٍ.

كان توثيقُ عُرى الوحدة الإسلاميّة الهندوسيّة المتفكّكة هو العبء الأوّل والأخطر الذي تحتّم عليه الاضطلاع به، بعد إذ شجّعت السُّلطات المستعمِرة تأسيسَ الأحزاب الصغيرة ذاتِ الصِّبْغَة الطائفيّة، الكفيلةِ بزرع الشِّقاق الداخليّ، وصَرفِ الهنود عن مطلبهم الأساسيّ المشتَرك: الاستقلال؛ وبعد أن أجّجت عنعناتُ الزعماء الأنانيّة النزاعاتِ الدينيّة، بحيثُ غدت الصِّدامات يوميّةً، داميةً، ولا سيَّمَا في المُدن الكبرى. كانت غضبة المسلمين الهنود على بريطانيا لتنكُّرها لوعودها بشأن "الخلافة" قد أفلَحت، فترةً من الزَّمن، في رصّ التضامُن بين المسلمين والهندوسيِّين، في كفاحهم ضدّ عدوٍّ مشتركٍ؛ ولكنّ قضيّة "الخلافة" قد تلاشت في أعقاب ثورة أتاتورك العلمانيّة في تركيّا؛ وعادت الطائفتان الكبيرتان في الهند تتواجهان، وتتصارعان، وتَختلِقان، للصدّام، أتفهَ الذّرائع.

لقد كانت القُرى، عمومًا، في مأمَنٍ من تلك النِّزاعات المُشينة؛ أمّا في المدن الكبرى المكتظّة، حيث السكّانُ محشورون حَشر أسماك السّردين في عُلَب الصَّفيح، يعيشون في ضَنَكٍ وتقتيرٍ، عيشةَ السائمة، وحيث وسائلُ الرِّزق شحيحةٌ، وأَبوابُها مستعصيةٌ، وحيثُ الضِّيقُ والحرُّ القائظ كثيرًا ما يُنهكان الأعصاب، فأعمالُ العُنف تنشب في أيّة لحظةٍ، ويُذكيها زعماءُ طائفيّون تحدوهم أغراضٌ خسيسةٌ؛ وبالتّالي، كان "لاعنف" غاندي، ووحدة الطوائف التي لا يني يدعو إليها، تصطدمان بعواملَ طبيعيّةٍ واجتماعيّةٍ شاقّةٍ، خاضعةٍ لدوافع يعسُر دائمًا القبض على زمامها.

وكانت معظم الصِّدامات تنشبُ عندما يتظاهر الهندوسيّون، وهم يُرتّلون ويدقّون الطبولَ، وينشُرون الصخَب، أمام الجوامع، ساعةَ الصَّلاة، أو عندما يعمَدُ المسلمون إلى ذبح الأبقار في تحدٍّ سافر لمشاعر الهندوسيِّين.

وكان غاندي مُدرِكًا لعوامل الصِّدام بين الطائفتَين، التي تبدو مستعصيَةَ الحلّ، ولكنَّها ما كانت لتثنيَه عن عَزمه. فهو، أبدًا، متحفّزٌ للتصدّي للمهامّ الشائكة، بلهَ المستحيلة، ومتأهِّبٌ لوَقف حياته، بل للتَّضحية بها، في سبيل القضايا التي يستقرُّ

عليها إيمانُه. وهو فضلاً عن إيمانه بالإخاء بين البَشَر أجمعين، كان يرى في تعــدُّد الطوائف، في الهند، ما يُحاكي تعدُّد الخيوط المتباينةِ الأَلوان في سُجَّادةٍ شرقيّةٍ رائعةِ الاتّساق والانسجام، حيثُ لكلّ خيطٍ مكانُه، فلا يستقيمُ للسجَّادة رَونَقٌ في مَعزِلٍ عنه.

لقد باشر غاندي حَملَةَ محبّةٍ ومصالحةٍ، وكانت الصحافةُ وسيلتَه الأولى، فعكَف، في افتتاحيّاته في صحيفة "الهند الفتاة"، على تحليــل أســباب النزاعــات الطائفيّــة، ووصف العلاج لها؛ وهو، في سبيل إشاعة السلام، لم يكُن يحجِمُ عن القسوة في نقده لبعض مواقف الهندوسيّين، إلاّ أنّه ما كان ليلين في القضايا المبدئيّة، مثــل توزيــع الوظائف على أساسٍ طائفيٍّ، الذي كان يطالبُ به بعض الزُّعماء المسلمين، والــذي تصدّى له غاندي بصلابةٍ، حُؤولاً دون تكريس الطائفيّة وترسيخها، وحِرصًــا علــى مصلحة الهند العليا، التي تقتضي إسنادَ الوظائف إلى من هــم أوفــر جــدارةً بهــا، وبصرفِ النَّظر، إطلاقًا، عن انتمائهم الطائفيّ؛ فهو لم يكن ليعترضَ، مــثلاً، علــى تسنُّم مُسلمين يتمتّعون بالكفاءة، أسمى المراتب، وعلى أوسع نطاقٍ.

وكان غاندي، ما يكاد يضَعُ القَلَم جانبًا، إلى حينٍ، حتّى يُمسك بعصا الترحــال، ويمضي في جولاتِ مُصالحةٍ مُرهِقَةٍ، رغم الوَهَن الذي كان قــد دبّ إلــى جــسمه، وزاده تفاقمًا حزنه لشقاق الهنود، والعنفُ الذي ساد علاقاتهم؛ وفي سبيل وحدة جميع الهنود، وتمتين وشائج الحبّ فيمَا بينهم، ما كان الخَوَر عائقًا دون مساعيه، ولا الحياةُ نفسها كانت أغلى من أن يُضحّي بها. وقد صرّح: "**رغبتي هي أن أجمع، بملاطٍ من دمي، إن اقتضى الأمر، الطائفتَين معًا**"، وفي سبيل هذا الهدف، أَعلن في ١٦ أيلــول ١٩٢٤، عن عزمه على الصيام، ثلاثة أسابيع؛ وقد ورد في إعلانه:

"**من الواضح أنّ لا شيء ممّا أقول أو أَكتُب قادرٌ على لمّ شمل الطائفتَين؛ ولــذلك أَلزِمُ نفسي بالصَّوم واحدًا وعشرين يومًا، منذ هذا اليوم، وحتّى يوم الأربعاء، السادس من تشرين الأوّل. إنّني أحتفظ لنفسي بحقّ شرب الماء، صرفًا أو مملّحًا. إنّ صيامي، في آنٍ معًا، تكفيرٌ وصلاةٌ... إنّني أدعو، بكلّ احترامٍ، زعماءَ جميع الطوائــف، حتّــى الإنكليز، إلى التَّلاقي من أَجل وضع نهايةٍ لخصامٍ هو جريمةٌ بحقّ الدّين والإنــسانيّة. يبدو وكأنّ الله قد خُلِعَ عن عرشه، فَلْنُعِدهُ كي يتربّع على عروش قلوبنا**".

كان من الجليّ أنّ صيامًا كهذا قد يُودي بحياة غاندي، وهو على ما عليه من هُزالٍ، بيدَ أنّ الصيام كان يبدو له واجبًا، وهو قد أَلِفَ، عندما يهمس صوتُ الواجب، أن يُصِمّ أذنَيه عن كلّ صَوتٍ آخَر، ولا يُحجم أمام أيّ ثمنٍ مهما غلا.

فضلاً عن ذلك، كان غاندي يمتلك سرّ الأفعال المؤَثّرة المُدهشة، التي تحمل رمزًا كبيرًا، وتهزُّ الضمائر؛ ومن ثمّ، فقد اختار أن يقضي فترة صيامه، في منزل الزعيم المُسلم، صديقه محمّد علي، الذي كان ينادي، هو أيضًا، آنذاك، بالصَّداقة الإسلاميّة الهندوسيّة، حتّى إنّ كثيرين من المُسلمين الذين أَخذوا عليه موقفه هذا، شرعوا يَنفَضُّون من حوله. وقد توخّى غاندي، باختياره الصَّوم، في منزل محمّد علي، وبتكليفه طبيبَين مُسلمَين بالإشراف على صحّته، أثناء الصيام، أن يُدَعِّم موقف صديقه في نظر المسلمين، وفي آنٍ معًا، أن يضرب للهندوسيّين مَثَلاً في الإخاء، بوضعه حياتَه أمانةً بين أيدي مسلمين، وأن يُقنع الجميع بخطر شأن القضيّة التي أقدم على التضحية بحياته من أجلها، والتي كان يَعُدُّها شرطًا لحريّة الهند واستقلالها.

في اليوم الثاني عشر لصيامه، أصدر غاندي البيان التالي الذي طلب نشره:

"**حتّى الآن قد كافحنا تطلُّعًا إلى تَحوّل قلوب البريطانيّين الذين يؤلّفون حكومةَ الهند؛ بيدَ أنّ ذلك التحوّل لم يتحقّق. أمّا الآن، فيجب أن نغيّر موقع كفاحنا، في سبيل تحوُّلِ قلوب الهندوسيّين والمُسلمين، الذين قبل أن يتطلَّعوا إلى الحُرِيَّة، عليهم أن يَتَّصفوا بقَدرٍ كافٍ من النُّبل، فيُحبّ بعضهم بعضًا، ويسود التَّسامُح بين الديانتَين، فتتقبّل كلٌّ منهما ما لدى الأُخرى، حتّى من أحكامٍ مُسبقةٍ، وتقاليدَ خرافيّةٍ، وتتوطّد الثِّقة المتبادَلة بينهما**".

وفي اليوم العشرين لصيامه، أملى الصلاةَ التالية: "**عمّا قريب سأَعبُر من عالَم السلام إلى عالم الصِّراعات، وكلّما فكّرتُ في ذلك، تولاّني اليأس... أدرِك أنّني لا أستطيعُ شيئًا، ولكنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ. فيا الله اجعل منِّي أداةً بين يدَيك، واستخدمني كما تشاء**".

عشيّة إنهاء صيامه، كان المهاتما مُشرقًا بِشرًا وحُبورًا، وعادَه بعض أصدقائه المقرَّبين، وهو مستلقٍ على شُرفة المنزل المكشوفة، التي يغمرها ضوءُ القمر؛ فصلّوا، ثمّ سادَ الصّمت، وانسلُّوا على مَهَلٍ كي يَدَعوه يخلد إلى النوم.

عند فجر اليوم الحادي والعشرين، استيقظ جميع المقرَّبين من غاندي للصَّلاة، وقد سرّهم أن يلحظوا أنّ صوته كان أقوى نبرةً منه في اليوم السابق؛ وفي أعقاب الصَّلاة تجمهَرَ جمعٌ غفيرٌ للتمتّع برؤية غاندي، والتبرُّك به.

وقبيل الظُّهر، موعدِ إنهاء الصِّيام، حدَّد غاندي نفسُه مراسيمَ الاحتفال بتلك المناسبة، فطَلَبَ أن يَستهلّ إمامٌ مسلمٌ الاحتفالَ، بتلاوة الفاتحة، ثم طَلَب من صديقه أندروز أن يُرتّل ترنيمةً مسيحيّةً كان غاندي شغوفًا بها، تقول:

« "عندما أتأمَّل الصليبَ الرائع
"الذي، عليه، ماتَ مَلِكُ المَجد،
"تبدو لي أعظمُ مكاسبي خَسارةً،
"وأزدري ما كنتُ، به، أتباهى.
"لو كنتُ أمتَلكُ الدُّنيا بأسرها،
"لكانت تضحيتي بها زريّةً ضئيلةً.
"فيا أيُّها الحبّ المدهش الإلهيّ
"خذ نفسي وحياتي، وكلّ كياني ».

وبعدَ ذلك طَلَب من أحد الهندوسيّين إنشادَ مقاطع من "الأوبانيشاد".

وعندما آذن وقتُ الظُّهر، جيءَ غاندي بكوب عصيرِ برتقالٍ، ارتشَفَه على مَهلٍ، مُختتمًا صيامه.

في تلك الأثناء، كان صيامُ غاندي قد هزَّ الجماهيرَ الهنديَّة حتّى أقصى قُرى البلاد، لا بل حتّى أوضع أكواخها، وقد أثبتَت تلك الجماهير إكبارَها اللاّمحدود للمهاتما، وتعلّقها بكلّ كلمةٍ تخرُج من شفتَيه، أو يسيل بها قلمه، ومتابعتها لكلّ حركاته بمَا يُشبه العبادةَ؛ وسواءً هو كان زعيم المؤتمر أو بعيدًا عنه، في السُّلطة، أو "خارج السُّلطة"، كان، أبدًا، في نظر الجماهير هو السُّلطة الفعليّة الوحيدة، وهو كان يستمدُّ تلك السُّلطة الأَدبيّة من روح الهند الأصيلة التي تقمَّصها، ومن القداسة السامية التي طبعت سُلوكه.

حبُّ الجماهير هذا لغاندي قد دفعَ بالزعماء السياسيّين، من كلا الطائفتَين، للتقاطر إلى منزل محمّد علي، والتحلُّق، على الأرض، حول فراش المهاتما، في آخر

لَحَظات صيامه، يبكون ويُصلُّون معًا؛ وراح غاندي يحثُّهم على التَّضحية بحياتهم، إن اقتضى الأمر، في سبيل الإخاء بين الطوائف؛ ولكنّه كان من الانفعال والوَهَن، بحيثُ لم يسمع صوتَه سوى الذين كانوا مُلتَصِقين به.

ثم اجتَمع ثلاث مئةٍ منهم، في دلهي، حيثُ عقدوا اتّفاقًا يـضمَنُ الـسَّلام بـين الطوائف؛ ولكنّه كان من الواضح أنّ دافعهم كان الخَشيَةَ على حياة المهاتمـا، إذ لـم يكن أَحدٌ يتخيّل الهند بلا غاندي، في تلك الظروف العصيبة، كمـا كـانَ اسـتجابةً لرغبات الجماهير التي كانت تُقدّسه؛ وقد اضطرّوا إلى إسكات صراعاتهم ونزاعاتهم إلى حين، على غير إيمانٍ مثل إيمان غاندي، ولا صدِقٍ مثـلِ صـدقِه، لا بـل إنّ كثيرين منهم كانوا، في قرارة نفوسهم، قد ضاقوا منه ذَرعًا بمثاليّةٍ عَدُّوها لاواقعيّةً، وبُطولةٍ تخيّلوها عقيمةً جوفاء.

ولم تكن نوايا السياسيّين الكمينة لتخفى على بصيرة غاندي، مثلما كـان يُقلقـه، فوقَ كلّ شيءٍ، "قسوة قلوب المثقّفين" الذين قابلوا حركة "الخادي" والغزل اليـدويّ، بكثيرٍ من اللامبالاة، ولم يستسيغوا سياسة غاندي في الانطلاق من القاعدة إلى القمّة، وقد قال فيهم "إنّ الهند المثقّفة تُؤثر فَصْمَ العلاقة المرئيّة الملموسـة الوحيـدة التـي تربطها بالجماهير".

وإلى تلك القاعدة، إلى قلب الجماهير، مضى غاندي من جديدٍ، غيرَ حافلٍ بهُزالٍ أَو إرهاقٍ، وترك السياسيّين يغوصون في مناوراتهم، وراح يتصدّى للمُهمّة البنّـاءة العاجلة الرئيسة، الممهّدة لاستقلالٍ حقٍّ، والمُتمثّلة في توطيد الوحدة الوطنيّة، وتنقيـة الأَجواء، والنفاذ إلى أعماق الجماهير، وإعدادها للاعُنفٍ صادِقٍ فعَّالٍ، فـضلاً عمّـا كان شاغلَ غاندي: القضاء على المنبوذيّة، وتعميم "الخادي" والغَزل اليدويّ؛ كان لا يفتأ يُردّد "الخادي، الخادي، وأيضًا الخادي" غير عابئٍ بالناقدين الساخرين الذين كانوا يرَون في محاولة إعادة إحياء تلك الحِرفة، مهزلةً حمقاء، ومشروعًا رجعيًّا عـاجزًا عن المنافسة، وضئيلَ الجدوى الاقتصاديّة؛ في حين أنّ غاندي كان يرى فيها خلاص الهنود وكلّ هنديٍّ، وجدوًى أدبيّةً واجتماعيّةً تتخطّى جميعَ الاعتبـارات الاقتـصاديّة

التي تستعبِد الجموعَ لمصلحة أفرادٍ، وكان لا يني يُردِّد: "إنّني أَعُدُّ المِغزَل هو الباب المُؤدّي إلى خلاصي الروحيّ" وكان يؤيّده جواهر لال نهرو بقوله: "إنّ الخادي هو زيٌّ حرّيَّتنا".

ومرَّةً أُخرى راح غاندي يُجرّ أقدامَه المُقرّحة المنهكَة على دروب قُرى الهند الوَعرة القَذِرة، يزرعُ السَّلام والمحبّة، ويوطّد أسُسَ الاستقلال؛ فجاب مطارح لم تطأها، يومًا، قدما سياسيٍّ، محتملاً سعير القَيظ، والغُبار الخانق، والمَطَر المُتهامر، والغوصَ في الحمأة، مخاطبًا الجمَاهير، في كلّ مكانٍ، بلا مَلَلٍ، وباللُّغة البسيطة التي تُدركها، حتّى إنّه كان يضطرّ، أحيانًا، إلى عقد خمسة عشر لقاءً في اليوم الواحد؛ وأينما حلَّ، كانت الجماهير تُحاصره كالجراد، تذرّ عليه البخور، وتلتمس رؤيتَه ولمسَه، للتَّبرُّك به، فتخمش جسدَه، وتُصِمُّه بصَيحاتها الصَّاخبة، وقرع طبولها، تفترش سِكّة الحديد لتَقسر القطارَ الذي يُقلّه على التوقّف ولا تُتيح له لحظةً من ليلٍ أو نهارٍ يُصيب فيها بعض الراحة، وغالبًا ما تعرّض لدهس الجموع المتراصّة حواليه، ولئن شكا غاندي أحيانًا من تلك المحاصرة بقوله: "**إنّهم يأبون أن يَدَعوني وشأني، حتّى عندما أستحمّ**"، إلاّ أنّ الإرهاق لم يكُن لينال من عزيمته؛ ولكنّه كان يشعر بالضِّيق من مظاهر التكريم المفرطة التي كان يُحاطُ بها، وقد عبَّر، بمرارةٍ بالغةٍ، عن حُزنه عندما تنامى إليه أنّ إحدى القبائل اتّخذته إلهًا، وأقامت له معابد تتصدّرها تماثيله؛ وقد كافح تلك الظواهرَ بكلّ ما أُوتي من صلابةٍ وإباءٍ، وفي كثير من الحُزن، لا بل غدا يتبرَّم بلَقَب "المهاتما" نفسه، الذي غدا له مُلازمًا. وقد تمنَّى لو أنّ النَّاسَ، عِوَضًا عن تأليهه، قد حاولوا فهمَ رسالته البسيطة، والعملَ بموجبها.

وفي جَولاته تلك، كان مِغزَلُه رفيقَه الدائم، يغزل به منذُ الفجر، عند استيقاظه، ويغزل أثناء الاجتماعات، ويغزل في فترات الانتظار في محطَّات السكك الحديديّة، ويضرِبُ للجميع مَثَلاً في العَمَل الكريم الذي يُحقِّقُ الاستقلال، ولا يني يردّد: "**أجل،**

الاستقلال هو حقّنا بالولادة، ولكنّنا لن نظفَر به إلاّ بالخادي"؛ وقد عَمِلَ، آنذاك، على تأسيس "اتّحاد الحائكين لعموم الهند" المرتبط بالمؤتمر، والذي كانَ له، في الأوساط الشعبيّة، نفوذٌ بالغٌ، وفي سبيل تدعيمه، كان ينتهز كلَّ سانحةٍ لاستجداء التبرُّعات؛ وكم قد أثلجت صدرَه رُؤية ألوف النّساء والفتيات يتخلّين، بطيبِ خاطرٍ، عن حلاهُنّ الذهبيّة، ويقذفن بها بين يدَيه، دعمًا للخادي! وكان يروق له أن يستثير لدى الفتَيات الصغيراتِ كُرهَ المجوهرات، ورغبةَ التنازُل عنها، لصالح الفقَراء، ولا يكفّ يُردّد على مسامعهن: "**الجميل هو من كان سلوكُه جميلاً**".

وقد أَلِفت بعض القرى استقبالَه بتقديم خزائنَ صغيرةٍ مزخرفةٍ تحتوي حصيلة تبرّعات أهاليها، وغالبًا ما كان يبيع تلك الخزائن المُفرَغة من محتواها، بالمزاد العلنيّ، فيتضخّم، بذلك، دَخل "الخادي".

إصلاحٌ داخليٌّ، وغَزوُ قمَم الروح

لقد كان ابتعادُ غاندي عن المؤتمر وبيلاً على مجرى السِّياسة في الهند، التي اتَّسَمَت أجواؤها، في أواخر عام ١٩٢٤، بالشِّقاق والخُمول، وشيوع الشَّكّ والقُنوط، محلَّ الإيمان ورُوح الكفاح، ممّا حدا بمختلف الجهات إلى تشديد الضُّغوط على غاندي من أجل حمله على ترؤّس المؤتمر، من جديدٍ، في عام ١٩٢٥، وقد استجاب لِطَلَبِهم، خَشيةً منه على المؤتمر أن ينفرط عِقدُه، وتمضي النّزاعات في شَقِّه، إلاّ أنّه شرَط قبولَه، بارتداء جميع أعضاء المؤتمر زِيًّا مصنوعًا من "الخادي" والتزامَهم بالغزلِ اليدويّ، ولو فترةً قصيرةً، كلّ يومٍ.

قد يبدو أنَّ غاندي كان يُغالي في دعوته إلى المِغزل و"الخادي"، بَيدَ أنّ دافعَه إلى ذلك كان البلوغَ إلى أهدافٍ اجتماعيّةٍ وروحيَّةٍ سامِيةٍ خطيرة الشأن، فهو كان يرى، في المِغزل، جسرًا بين الدِّماغ والعضلات، وحلقَةَ اتّصالٍ بين القرية والمدينة، ومَدرجةً إلى مشاركة الأغنياء للفقراء، وأداةً لتفهُّم أوضاع المقهورين، وهو بالتّالي، فعلُ محبّةٍ، ويدٌ ممدودةٌ، ومحاولةٌ لتوثيق الوشائج، فضلاً عن كونه وسيلة تنظيمٍ، تُمهّد للتمرُّس بالمعاناة، والعصيان المدني والاستقلال، ومدرسةً لتثقيف رجال

السياسة، توقظ فيهم وعيًا حِسيًّا للهند المُعدَمة المفتقرة إلى الثقافة، وإلى السياسة الحقّة، وتقرِّب الأمة من زعمائها، فتطمس الصورةَ الدهريّة النّكراء التي كانت تُبرز تباينًا مخْزِيًا بين القُصور المغرقَة في التَرَف والصلَف، الغارقة في الذَّهب والديباج، والأكواخ الزريّة المُوغلة في فقرٍ مدقعٍ بهيميٍّ.

وتلك، لعمري، خدمةٌ جُلّى كان يُسديها غاندي لبَلَدٍ متفكّك الأَوصال، ولحضارةٍ متناثرة الأَشلاء.

وربَّمَا لم يُفلح أعضاءُ المؤتمر كلُّهم في اكتناه فلسفة "الخادي"، التي كانت تنير فكر غاندي، وتَشعّ في حنايا صدره، إلاّ أنّهم لمسوا حرارةَ إيمانه، وشدَّة تشبُّثه بها، فلم يَعُد أحدٌ ممّن يدَّعونَ الوطنيَّة يجرؤ على الظهور في لباسٍ أجنبيٍّ، أو في لباسٍ مصنوعٍ من قماشٍ نسجته المعامل الآليّة، مثلما لم يَعُد يجرؤ أحدٌ منهم على التكلّم بالإنكليزيّة، في المحافل العامَّة؛ ولا عَجَب، بالتالي، إن عَمَدَ زعيمٌ مثلُ موتيلال نهرو إلى الغزل اليدويّ، وإلى بيع "الخادي" على قارعة الطَّريق، على غرار المهاتما.

ويُلحظ أنّ غاندي، في تلك السنة، وفي السنوات القليلة التالية، قد أغفل مُقارعة الاستعمار البريطانيّ لينصرف إلى الإصلاح الداخليّ، وإلى ترميم المنزل الهنديّ المتداعي، وإلى إعداد قواعد شعبه العريضة لمعركة الاستقلال الكبرى. وقد طالما صرَّح: "**لستُ راغبًا في تحرُّر الهند من نير بريطانيا فحَسبُ، بل من كلّ نيرٍ، أيًّا كان...**". وقد قال أيضًا، وفي قَوله درسٌ مثقلٌ بالعِبَر التي يجدُر بكلّ بَلَدٍ حديث العهد بالاستقلال، أو متطلّعٍ إليه، أن يفقهها ويسير بهَديها: "**لن يتمّ لنا الاستقلالُ بفضل استيلاء قلّةٍ منّا على مقاليد السُّلطة، بل بفضل تمكّن كلِّ واحدٍ منّا من مقاومة السُّلطة كلّما هي انحرفت أَو زاغت**".

مُهمّات الإصلاح كانت باهظةً، ولا حدودَ لاتّساعها، بحيثُ بات غاندي يرزَح تحت عبءٍ من العمل يعجز عن الاضطلاع به عشراتُ الرجال؛ ومع ذلك قرَّر، في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٢٥، مُباشرةَ صيامٍ لمدَّة سبعة أيّامٍ؛ وتصاعدت صَيحات الاحتجاج، من كلِّ صوبٍ: لمَ الصِّيام، وهل لصحّة غاندي قِبَلٌ باحتماله؟ وقد ردّ غاندي على حملات الاحتجاج هذه بقوله: "**على الجمهور أن يُقلع عن**

الاهتمام بأصوامي والقَلَق بِشأنها؛ فهي جزءٌ منّي، ولا غنى لي عنها، إلاّ بقدر ما لي غنًى عن عينيّ. إنّها للعالَم الداخليّ، ما العُيون للعالَم الخارجيّ... ولئن أنا كنت مُخطئًا في ممارستها، فلا بأسَ في أن يُكتَب على شاهدة قبري: "سليم الطويّة، ولكنّه أحمق..." ليس للجمهور علاقةٌ بهذا الصيام... قد يُقال إنّني ملِكُ الجميع. حسنٌ. ولكن، إن كان الأمر كذلك، وَجُبَ قبولي على علاّتي. إنّني باحثٌ عن الحقيقة، وأعتبر تجاربي أخطرَ شأنًا من محاولات غَزو قِمَم الهملايا".

ولا غروَ في ذلك، فهو أيضًا كان ماضيًا في اقتحام قِمَم الروح السَّامقة، وقد أَوحَت له قناعاته الداخليّة أنّ الأصوامَ هي الكفيلةُ بالسموّ به فوقَ أوهان الجسَد، فأَقدَمَ عليها بلا تَوانٍ ولا تردّدٍ.

خلال ذلك الصِّيام، كان يعكِفُ على الغزل، يوميًّا، ويشترك في الصَّلَوات الجماعيّة، وفي اليوم السابع، كتَب بيدٍ ثابتةٍ، مقالاً في الصَّوم بسَط فيه قواعدَه كما يراها، وقد جاء فيه:

١- حافظ منذ البدء على طاقتك الجسديَّة والفكريّة

٢- كُفَّ عن التفكير في الطّعام، ما دُمتَ صائمًا.

٣- أكثِرْ ما استطعتَ من تناوُل الماء البارد.

٤- ادعَك جَسدَكَ كلَّ يومٍ بالماء السَّاخن.

٥- اغسِل أمعاءَك بانتظام أَثْنَاء صَومِكَ، وستدهش لكميّة الأقذار التي ستُفرزها، كلَّ يومٍ.

٦- نَمْ، ما استطعتَ، في الهواء الطَّلْق.

٧- استحمَّ بنسيم الصَّباح. إنّ حمّام الشَّمس والهواء يُنظّف، على الأَقلّ، بقَدرِ ما يُنظّف حمَّام الماء.

٨- فَكِّر في كلّ شيءٍ خلا صيامك.

٩- أيًّا كان داعي صيامك، استخدم هذا الوقتَ الثمين للتَّفكير بخالقك، وبعلاقاتِك به وبسائر مخلوقاته، وإذن ستكتشفُ أمورًا ما كنتَ لتَتَخيّلَها.

في سبيل مثل هذه الاكتشافات، كان غاندي يصوم.

وما إن مال عام ١٩٢٥ إلى الغياب، حتّى بادر غاندي إلى التنازُل عن رئاسة المؤتمر للشاعرة المبدعة "ساروجين نايدو"، مُقسمًا التزامَ سَنَةِ صَمتٍ، في كلّ ما يتّصل بالسياسة، والاعتكاف في "أشرمه" بأحمد آباد. لقد كان جسمه وذهنه في حاجةٍ إلى اَلرَّاحَة، وقد أضناه، أكثرَ من العمل المُرهِق، تمزُّقُ الهند لأَسبابٍ دينيّةٍ.

سنة الصمت

لم يقتصر غاندي، سحابةَ عام ١٩٢٦، على الإمساك عن الخَوض في القضايا السِّياسيّة، بل إنّه قرّر التقيُّدَ بصمتٍ كاملٍ مُطبِقٍ، كلَّ يوم اثنَين، ما كان يُوفِّر له، كلَّ أسبوعٍ، يومَ تأَمُّلٍ، وعُزلةٍ مُريحةٍ، وكان، إذا ما طُرِحَ عليه، في ذلك اليوم، سؤالٌ مُلحٌّ، يدوِّن، بقلم رَصاصٍ، على قَصاصةٍ من وَرَقٍ، جوابًا مُقتَضَبًا. وقد ظلَّ، من بعدُ، وفيًّا لنذر الصَّمت، كلَّ يوم اثنين حتّى آخر أيّامه.

سحابةَ تلك السَّنة لم يقُم غاندي بأَيّة رحلةٍ، ولم يلفُظ أيَّ خطاب في مَحفلٍ عامٍّ، بَيدَ أَنَّه استقبل في أَشرمه، ربواتٍ من الزَّائرين، وعَقَدَ مُراسلاتٍ كثيفةً مع أُلوفٍ من الناس، في الهند وخارجها؛ ودبَّج العديدَ من المقالات؛ ولكنّ اهتمامه كان ما انفكّ منصبًّا، في المقام الأوّل، على الإصلاح الداخليّ، عازفًا عن الكثير من الأمور الأُخرى، بحيثُ لم يأتِ، في صحيفة "الهند الفتاة" على ذكرٍ لنائب الملك الجديد، في الهند، اللورد "إيروين" الذي حلَّ، عام ١٩٢٦، محلَّ اللورد "ريدنغ".

إلاّ أنّه لفت الأنظارَ إلى نَزعةٍ جديدةٍ مُقلقَةٍ في السّياسة البريطانيّة، قائمةٍ على الانحياز إلى جانب المُسلمين، بُغيةَ تعميق الشّقاق، والفُرقَةِ الطائفيّة؛ وقد استشفَّ أنّ الوحدةَ الوطنيّةَ لن يُكتب لها أن تَتحقَّق، ما دامَ، ثمّة، "طرَفٌ ثالثٌ" بين الطائفتَين؛ وهو بالتَّالي قد دعا الهندوسيّين إلى معاملة الأقلّيّة المسلمة بالحسنى، وأَلحَفَ في دعوته هذه، حتّى إنّ بعضَ الهندوسيّين اتَّهموه بالانحياز، هو أيضًا، إلى جانِبِ المُسلمين.

وقد تصدَّى غاندي، في تلك السّنَة، إلى العديد من القضايا الاجتماعيّة الشائكة، ولم يخشَ تحدّي الكثير من الأَحكام المُسبقَة الشائعة، والتقاليدِ الرَّاسخة المتلبّسة بلباس الدِّين

أَحيانًا. فهو، على سبيل المثال، قد عرَّض نفسَه لمَوجةِ نَقدٍ عارمةٍ، عندما أيّد صناعيًّا كبيرًا في أَحمد آباد، أقدَم على إعدام ستّين كَلبًا شارِدًا مسعورًا؛ وكذلك لمّا وافق على قَتل بقرةٍ، في الأشرم، كانت معتلّةً وتُقاسي آلامًا مبرِّحةً، ولم تُجدِ في شفائها حيلةٌ، ولا خفّف من أوجاعها سَهَرُ "كاستورباي" زوجته، عليها، ومؤاساتها الحانية.

وقد عالجَ، في صراحةٍ، وعلى صفحات الصحيفتَين اللَّتَين كان يُديرهما، أَسئلةَ الشبّان، حولَ مشاكلهم الجنسيّة؛ وكان يشغله، آنذاك، التفجُّر السكّانيّ الذي شرَع يذرُّ قرنَه، في الهند، على نحوٍ مُقلِقٍ؛ فدعا، بحزمٍ، إلى الحدِّ من الإنجاب، بمكافحة الزَّواج المبكِّر، الذي كان في الهند آفةً شائعةً، وبضبط النَّفس، وممارسة العفّة، ما أَمكن، بين الأزواج، فمن شأن كلّ ذلك خلقُ جيلٍ سليم الجسم، منيع الإرادة؛ وكان يُقاوم، بشدّةٍ، استخدام وسائل منع الحمل الاصطناعيّة، التي كان يرى فيها أَحد مَواطنِ وَهَن الغرب، وامتهانًا لِقيَم الدِّين، وإفساحًا لانفلات الغرائز البَهيميّة.

وقد جعَل من "الأَشرم" نَموذَجًا، حيثُ حدَّد سنَّ الزواج الدُّنيا للفتيات بإحدى وعشرين سنةً، وللشّبان بخمسٍ وعشرين، وما انفكّ يحرِّضُ سكّان الأَشرم على التمرُّس بالعفّة، بفضلِ طعامٍ متقشِّفٍ، خالٍ من التوابل، ولباسٍ محتشمٍ، وبالعمل الدؤوب، والرّياضة البدنيّة، والقراءات السامية المستوى، وانتباذ المناظر الإباحيّة في الأَفلام.

وتصدَّى، بحزمٍ أيضًا، لمُشكلة الفتيات الأَرامل، اللائي زوّجهنّ آباؤهنّ – رسميًّا – بعيدَ ولادتهنَّ، وِفقًا لتقاليدَ باليةٍ مجرمةٍ، تم توفّي أزواجُهنّ، وهنَّ، بعدُ، دونَ الخامسة أو العاشرة من عمرهنّ. وكانت الإحصائيّات تدلُّ، آنذاك، على وجود نحو اثني عشر أَلف أرملةٍ دون الخامسة، ونحو خمسٍ وثمانين أَلفًا بين الخامسة والعاشرة، ونحو مئتين واثنين وثلاثين ألفًا بين العاشرة والخامسة عشرة. كُنَّ، معظمهنَّ، ما زلنَ عذارى، ومع ذلك اعتُبرنَ أرامل، وحُرِّمَ عليهنَّ الزواجُ من جديدٍ، وِفقًا للتقاليد الهندوسيّة. وفي هذا المضمار، أيضًا، لم يتحرَّج غاندي من مُناهضة أكثر التقاليد الدينيّة رُسوخًا، عندما تبدو له لاإنسانيّةً.

وفي تلك الفترة، كان صيتُ غاندي، مُقارع أكبر أَمبراطوريّةٍ، بسلاح اللاعنف، قد ذاعَ في شتّى أَرجاء المعمورة، وشعَّ نَجمُه في كلّ سماءٍ. وكان الكاتب الفرنسي

"رومان رولان" قد أصدرَ، عام ١٩٢٤، كتابًا عن "المهاتما غاندي". وفي عام ١٩٢٦، وافى الهند وفدٌ من الولايات المتَّحدة لدعوة المهاتما إلى العالَم الجديد، للتَّبشير برسالة اللاعنف. غير أنّ تواضُعه وواقعيّته قد منعاه من تلبية تلك الدعوة؛ فهو، مع إيمانه الرَّاسخ بحتميّة انتصار اللاعنف، لم يكن يملِك، بعدُ، أيَّ دليلٍ على ذلك الانتصار، بعد أن مُنيت بالفَشل معظمُ تجاربه في ذلك الميدان.

عودةٌ إلى العصيان المدنيّ

انقضت سنة الصَّمت، ولم تُبدِّل شيئًا من الأهداف التي كان يُلاحقها غاندي الذي عاد إلى التجوال، في شتّى أرجاء الهند، مُبَشِّرًا بها، وكثيرًا ما كان، في المحافل العامَّة، يرفع يَدَه اليُسرى، باسطًا أصابعها الخَمس، ثمّ يُنَقِّل يده اليُمنى على تلك الأَصابع، واحدةً فواحدةً، قائلاً: "**هذه من أَجل وحدة الهندوسيّين والمُسلمين، وهذه من أَجل مَحو المنبوذيّة، وهذه من أَجل "الخادي"، وهذه من أجل مقاطعة الكحول، وهذه من أجل مساواة النّساء بالرّجال في الحقوق، كلّ ذلك تحت راية اللاّعنف**".

وكانت الاستجابة لمُعظم تلك الأهداف تتَّسع وتكتسب عمقًا وشمولاً، وتتَّصف غالبًا بالأَريحيّة والاندفاع؛ فقد غدا، على سبيل المثال، كثيرون من القصَّارين، يرفُضون غَسل أيّ لباسٍ أو قماشٍ غير "الخادي"؛ واتّفق أنّ طلاَّبًا أثرياء باعوا ساعاتهم الذهبيّة، ليبتاعوا بأثمانها "الخادي".

هدفٌ واحدٌ من أهداف غاندي ظلّ مُتعذِّر التَّحقيق، وبقيَ غمامةً تلقي على سماء الهند، وسماء نفس غاندي، ظِلالاً قاتمةً، هو وحدةُ الطائفتَين، التي ما انفكّت تحول دونها أسبابٌ نفسيّةٌ، وتقاليدُ عميقة الجذور، بحيث ما فتئ الصّدام والتوتُّر بين المُسلمين والهندوسيّين متَّصلَين. ولم يعد لغاندي سوى الله يُوكل إليه أَمرَ تحقيق وحدةٍ كانت تبدو مُتَعذّرةً.

وعاد المهاتما يُرهق نفسَه في التجوال، ولقاء الجماهير، والدعوة إلى بناء الهند الجديدة، على أسُس المُثُل التي كان مُؤمنًا بها. وقد اتّفق، ذاتَ يومٍ، أن اضطرّ، في مقاطعة "ريكان"، إلى عقد سبعة لقاءاتٍ متعاقبةٍ في يومٍ واحدٍ، إذ كان المنبوذون قد

التمسوا اجتماعًا به خاصًّا، واصطحبوه إلى مدارسهم، ثُمّ طالبَتهُ جمعيّةٌ نسائيّةٌ بلقاءٍ مستقلٍّ معها، وكذلك فعل أولادٌ صغارٌ، وطلاّبٌ، وجماعةٌ من المسيحيّين، وعمّالُ "الخادي"، وفي نهاية الجلسة الأَخيرة، انهار غاندي، وأُغميَ عليه، إعياءً وإرهاقًا. ومع ذلك، واصلَ، في اليوم التّالي تجواله؛ وعندما كان يتعذّر عليه التحدُّث إلى الجماهير، كان يجلس عند عتَبَة البيت الذي يستضيفه، ويكتفي بتحيّة الجموع، في صمتٍ؛ وحين كان عليه تلقّي تبرُّعاتٍ لمشروع "الخادي" في مكانٍ ما، كان يُقتاد إليه بسيّارةٍ.

وأخيرًا فرض عليه الأطبّاء الراحة، على تلّةٍ يَعبَثُ بها نسيم البحر، ونزل غاندي عند رغبة صديقه الدكتور "مهتا" الذي أشار عليه بالتزام سكونٍ تامٍّ طوالَ شهرَين، إلاّ أنَّه رَفَض، رفضًا قاطعًا، الإمساك عن الغزل، يوميًّا؛ وعلى اعتراض طبيبه، ردّ قائلاً: "**أيّة ميتةٍ مجيدةٍ تلك التي سأموتها وأنا أغزل!**".

يبدو أنّ نوبةً قلبيّةً عابرةً كانت قد انتابت غاندي، في شهر آذار ١٩٢٧، غير أنّ أطبّاءه قد أكَّدوا سلامة قلبه ومناعته، كما لاحظوا أنَّ ضغطه الدمويَّ طبيعيٌّ ومُستقرٌّ، لا يُؤثّر فيه إرهاقٌ، ولا نقدٌ وتجريحٌ، حتّى عندما ينصبّان عليه أمام ألوف الحضور؛ بيدَ أنّ ذلك الضغط يرتفع عندما ينشب في صدره صراعٌ داخليٌّ، ويترتّب عليه اتّخاذ قرارٍ وطنيٍّ خطيرٍ؛ وغالبًا ما يشتدُّ ارتفاعه في المساء، ثم يعود إلى حدودٍ طبيعيّةٍ في الصباح، بعد أن يكون قرارُه قد نضج، آناء الليل. ولا ريب أنَّ النَّوبة القلبيّة العارضة التي ألمَّت به، والوَهَن الذي استولى عليه، وأمارات ارتفاع ضغط الدم المتكرّرة التي لحظها أطبّاؤه، آنذاك، كانت، جميعها، ناجمةً عن صراعٍ نفسيٍّ متمادٍ؛ فهو، منذ خروجه من السجن عام ١٩٢٤، كان يتوق إلى استئناف حملة اللاّتعاون، ويُعدّ لها العدّة، ويتحرّق لتحقيق الظُّروف المؤاتية لمباشرتها. وهو، رغمَ تسامحه مع الزعماء الذين اختاروا العودة إلى التَّعاوُن مع الحكومة المستعمِرة، وتأَكّده من سلامة نوايا الكثيرين منهم، إذ كان بعضُهم يتبرَّع لمشاريعه بكامل الراتب الذي يتقاضاه من الحكومة، كان راسخ اليقين بأنَّ التعاوُن هَدرٌ للوقت والطاقات، وأنَّ العصيان المدنيّ، وحدَه، كفيلٌ بتنحية البريطانيّين عن السُّلطة، وبإجلائهم عن الهند.

وكان يُؤلمه، حتّى أعماق نفسه، استمرارُ وضعٍ مُشينٍ من الفرقة والتوتّر بين

الهندوسيّين والمُسلمين؛ فلئن هم ظلّوا عاجزين عن تسوية الأمور فيمَا بينهم، فما عساهم يتوقَّعون من البريطانيّين؟ وكان غاندي يلتمس إشارةً من الله للقيام بعملٍ يؤثّر في قلوب الطائفتَين.

في غضون ذلك، كان قد عُيِّن، عام ١٩٢٦، نائبُ ملكٍ جديدٌ، على الهند، هو اللورد "إيروين"، الشديدُ التديّن؛ وربّمَا توسَّم بعضهم خيرًا من تديّنه الكفيل بإقامة جسور تفاهمٍ مع زعيم الهند، المهاتما القدّيس. إلاّ أنّ نائب الملك هذا قد تجاهَلَ وجودَ غاندي تجاهُلاً تامًّا، طوالَ تسعة عشر شهرًا، إلى أن أبلغه رغبته في لقائه، بتاريخ الخامس من تشرين الثاني ١٩٢٧؛ وكان قد دعا إلى نفس اللقاء، الزعيم "باتل"، رئيس المجلس التشريعيّ، آنذاك، ورئيس المؤتمر لعام ١٩٢٧، "سرنيفازا"، ورئيس المؤتمر المنتَخَب لدورة عام ١٩٢٨، الدكتور أنصاري؛ ووزّع نائب الملك على مدعوّيه رسالةً تُنبئ بقرب وصول لجنةٍ برئاسة "السير جون سايمون"، وقد عُرِفَت، فيمَا بعد، بلجنة سايمون، بُغيةَ وضع تقريرٍ عن الأوضاع في الهند، تمهيدًا لاقتراح إصلاحاتٍ سياسيّة. وسأل غاندي: "أهذا هو غرَض اجتماعنا؟" – "أجل"، أجاب نائب الملك؛ وفي الحال نهض غاندي وعاد إلى تجواله في قلب الهند.

وأجمع الهنود على مقاطعة "لجنة سايمون"، المُوكل إليها إصلاحُ الأوضاع السياسيّة في الهند، من غَير أن تضمَّ، بين أعضائها هنديًّا واحدًا، ما كان ينهض دليلاً على استمرار العقليّة المستعمِرة المتغطرسة، التي ترى في البريطانيّين أسيادًا على شعبٍ من العبيد. وكانت سانحةٌ ليسأَل غاندي "المتعاونين" مع الحكومة، بمرارةٍ، عمّا أسفر عنه تعاوُنهم. لقد تجاهل غاندي وجودَ "لجنة سايمون"، ولم يأتِ يومًا على ذكرها، في حين قاومها زعماء آخرون، أمثال "لاييات راي" الملقَّب بـ "أسد البنجاب"، الذي ضربه جنديٌّ، أثناء اجتماعٍ سياسيٍّ، بعصًا غليظةٍ، ضربةً أودَت بحياته، وجواهر لال نهرو الذي ضرب، هو أيضًا، بسبب مُقاومته للجنة سايمون. ومن الجدد بالذِّكر أنّ تلك اللجنة، طوال إقامتها في الهند، لم تُقابَل إلاّ بمظاهرات الْعَدَاء، ولم تسمع سوى شعارات "اِرحل عنّا يا سايمون"، ولم يكن لتحرّيّاتها، وتقاريرِها، واقتراحاتها، أيُّ أثَرٍ على الإِطلاق.

في غضون ذلك، كان غاندي، القدّيس المتسلّح بدرع الاستقامة، وبالمُثُل الأَخلاقيّة العُليا، يواصل عمله الدؤوب الصامت، في أعماق النفوس، إلى أن أفلَحَ، عام ١٩٣٠، في قلب الموازين، إذ تحرّرت الإرادة الهنديّة، وبات خنوع الهنود للإنكليز - ولئن كانت القُيودُ الخارجيَّة ما انفكّت مُحكمةً - من مخلّفات ماضٍ مندثرٍ.

في شباط ١٩٢٨، عاد غاندي إلى استخدام سلاح العصيان المدنيّ، في مقاطعة "باردولي"، بعد أن كان، لستِّ سنواتٍ خَلَت، قد تنكَّب عنه، في أعقاب نُشوب أعمال العُنف في "شوري شورى"، إلاّ أنَّه، في هذه النَّوبة، قد آثر إلاّ يقود العصيان بنفسه، مكتفيًا بكَونه له مُلهِمًا وموجّهًا، فيمَا تولّى قيادته المباشرة المحامي "ڤلابهباي باتل"، رئيس بلديّة أحمد آباد، والزعيم المسلم عبّاس طيبجي. وكان الدافع المباشر إلى العصيان قرار الحكومة الأَخرق بزيادة الضرائب الزراعيّة بنسبة ٢٢%؛ قرارٌ رفض المزارعون الامتثال له، فحجز الجُباةُ جواميسهم التي كانت تعينهم على حراثة أراضيهم، وتوفّر لهم الغذاء، وطردوهم من مزارعهم، واقتحموا مطابخَهم، فسلبوا قُدورهم وأَدَوات طهوِهم، ودمَّروا عرباتهم؛ ومع ذلك اعتصم الفلاّحون باللاّعنف، وظلّوا رافضين أداء الضرائب الغاشمة.

ووقف غاندي مقالاته في "الهند الفتاة" على الذَّود عن فلاّحي "باردولي" ومساندتهم، مؤَكِّدًا لهم أنّهم، حتّى لو هم فقدوا كلَّ ممتلكاتهم، إلاّ أنّهم أنقذوا أغلى ما يملكه الشرفاء: الكرامة، "**ومن كانت سواعدهم مفتولةً، وقلوبُهم صامدةً، عليهم إلاّ يخشوا، مُطلقًا، فقدانَ ممتلكاتهم المادّية**".

مرّةً أُخرى، كان غاندي يتكلّم، وكأنّ كل فلاّحٍ هنديٍّ جائعٍ هو غاندي آخر، ولكنّه، في هذه المرَّة، كان مُحقًّا، إذ إن قبَسًا من روحه قد تغلغل في نفوس الفلاّحين، وجعلهم متأهّبين للتضحية بلا حساب.

وتصرّمت أشهرٌ عديدةٌ، والفلاّحون صامدون، منضبطون، واعتقلت الحكومةُ مئاتٍ منهم، كما أنّها جرّدت عدّة قرى، من كل أثاثها، وهوت إلى أوضع دركات اللاشرعيّة؛ وسرت ريح كبرياءٍ وطنيّةٍ، إكبارًا لبطولة فلاّحي "باردولي"، وانهمرت عليهم التبرُّعات، من الهند ومن خارجها، لتمكينهم من مُواصلة النضال.

وكَتبَ رئيس الجمعيّة التشريعيّة إلى نائب الملك متّهمًا الحكومة باستخدام "أساليب قد انتهكت، في حالاتٍ كثيرةٍ، القانون والنظام واللّياقة"؛ فَحَيّى غاندي تلك البادرة التي حطَّمت "تقليدًا وبيلاً وحقيرًا" كان، حتّى ذاك، يلتزم الحيادَ حيالَ تحدّي الشعب للحكومة.

وتلبيةً لدعوة غاندي أعلَنت البلاد بأسرها يومَ "هارتال"، فانقطعت عن كلّ عَمَلٍ، في الثاني عشر من حزيران ١٩٢٨، تضامنًا مع مزارعي "باردولي". وشَخَص غاندي إلى تلك المقاطعة، في زيارةٍ مساندةٍ وتشجيعٍ، فاستقبلته مظاهراتُ التكريم، في كلّ مكانٍ.

وتناولت الصحف البريطانيّة أنباءَ تلك الثورة الفريدة، وتعالت، من لندن، صيحات تهديدٍ لم تُرهب، في الهند، أحَدًا.

واشتدّت الضُّغوط على غاندي كي يُعمّم العصيان بحيث يشملُ جميع المقاطعات الهنديَّة، ولكنَّه آثر التريّث، وقال: "**لم تثبت "باردولي"، بعدُ، كلّ شجاعتها؛ فلو استطاعت هذه المقاطعة احتمالَ أشدِّ الممارسات ضراوةً، بعد أن تمضي الحكومة في قمعها حتّى نهاية المطاف، إذن لن يقوى أَحدٌ على إيقاف امتداد الساتياغراها أو الحدِّ من عواقبها... إذ لا حدَّ لها سوى طاقة الهند، في مجموعها، على التَّضحية والمعاناة**".

واستسلمت الحكومةُ، أخيرًا، في السَّادس من آب، واعدةً بإعادة كلّ ما احتجزته لأصحابه، والتعويض عمّا أتلفته من بهائمَ ومتاعٍ، وفوق كلّ ذلك، تراجعت عن قرارها بزيادة الضرائب. وأَثبتَ غاندي لبريطانيا، وللهند كلِّها، أنّ سلاحه كان ماضيًا. ولكن، هل هو كان مُقدِمًا على استخدامه، على نطاقٍ واسعٍ؟

كان، ثمّة، حواجزُ تحول دون ذلك الاستخدام؛ فعلى سبيل المثال، كان زعيم حركةٍ شيوعيّةٍ، يُدعى "سوبهاس شاندرا بوز" يستفزُّ المُتَطرّفين، ولا ينِي يُردِّد: "أَعطوني دماءً، أُعطِكم الحريّة". كما أنّ أحد مقاتلي السِّيخ اغتالَ مُعاوِن مدير الشرطة في لاهور، فبات، في عيون كثيرين من مواطنيه، بَطَلاً، في حين وصف غاندي هذا العمل بالجُبن.

صحيحٌ أنّ غاندي، كان، آنذاك، أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، مُؤمنًا بأنّ النظام

البريطانيّ، في الهند، "شرٌّ مُطلَقٌ"؛ ولكنّه كان يخشى مَواطِنَ الضُّعف لدى الهنود، وبين أعضاء المؤتمر، ويُؤثر إرجاء المعركة الحاسمة، حتّى يتأكّد من سلامتها، على كلّ صعيدٍ.

وسطَ هذه الحيرة، وفي جوٍّ مشحونٍ بالتوتُّر، انعقدَ المؤتمرُ الهنديُّ، في كلكتّا، مع غروب عام ١٩٢٨، وهبَّ الزَّعيمُ الشيوعيُّ "بوز"، وجواهرلال نهرو، ولكلٍّ منهما نفوذُه في أوساط الشبيبة، يُناديانِ بوُجوب إعلان الاستقلال الفوريّ، الذي سينجم عنه، لا مَحالةَ، حربُ تحريرٍ. وحاول غاندي إقناعَ المؤتمر بإمهال حكومة بريطانيا سنتَين، كي تهب الهندَ استقلالها التامَّ، ولكنَّ التنازُل الوحيد الذي رَضيَ به المؤتمر كان إمهال الحكومة سنةً واحدةً، وحتّى نهاية عام ١٩٢٩.

وبعد أن "أحرق سفنه" على حدّ تعبيره، راح غاندي يُعدّ العُدَّة للموعد الحاسم، وقضى عام ١٩٢٩، يجوب الهند، من جديدٍ، ولكنَّه أبى، هذه المرّة، أن يستقلَّ عربات الدَّرجة الأولى أَو الدرجة الثانية، وثاب إلى حبّه القديم، إلى عرباتِ الدَّرجة الثالثة حيثُ يذوب وَسط الفقراء.

وفي شهر أَيّار من ذلك العام، تولَّى الحكم في بريطانيا حزبُ العمّال، وشَخَص نائب الملك إلى لندن للتَّشاور مع الحُكَّام الجُدُد؛ وإذ كان غاندي يحلمُ، أبدًا، بالحُلول السلميّة، راوَدَهُ أملٌ بتبدُّلٍ في السياسة البريطانيّة، يُوفِّر على الطرفَين الصِّدامَ. ولكن، وإن كان رأسُهُ يسبح في الغمام أحيانًا، إلاَّ أنّ قدمَيه العاريتَين كانتا، أَبدًا، ملتصقتَين بالأرض الصُّلبة، ولم يكن للأوهام مكانٌ في تفكيره. وقد عبَّر عن تمنّيه بأَنْ تُلبّي الحكومةُ، بشهامةٍ، وفي الوقت الملائم، المطالب الهنديّة الوطنيّة؛ ولكنْ، "**ليس لهذا الرجاء أملٌ في التَّحقّق؛ فلكي تتصرّف الحكومةُ على هذا النحو، ينبغي أن يتمّ تبدُّلٌ في القلوب، ولا يكفي تحوُّلٌ بسيطٌ في السِّياسة. وليس، في الأفق، ما يُوحي بأنّ هذا التحولَ وشيكٌ**".

وقَفَل نائب الملك، في تشرين الأوَّل، عائدًا إلى الهند، برفقة رهطٍ من كبار السياسيّين البريطانيّين، واعترف بأنّ الوضعَ، في الهند، يُنذر بالانفجار، كما أعلن عن نيّة عَقد مؤتمر طاولةٍ مستديرةٍ، يتحلّق حولَها ممثّلو الحكومة البريطانيّة مع

ممثّلي الهند، وأَضاف بأنّ النتيجة الطبيعيّة لتطوُّر الهند، دستوريًّا، يجب أن تفضي إلى حصول الهند على وضع "الدومنيون"، أي الدولةِ المستقلّة المرتبطة بعلاقاتٍ مميّزةٍ مع بريطانيا.

في أعقاب هذا التَّصريح، اجتمع غاندي بطائفةٍ من الزُّعماء الهنود، وأَصدروا "بيان القياديّين"، فرحّبوا بإعلان نائب الملك، وطالبوا بتوفير جوٍّ أكثرَ سكونًا وسلمًا، يُمهَّد له بالإفراج عن الموقوفين السياسيّين، وبإشراك ممثّلي "المؤتمر" الهنديّ، على أوسع نطاقٍ، في لقاء الطاولة المستديرة.

هذا البيانُ السلميّ لم يَرق للمُتطرّف "بوز"، ولا للمندفع جواهر لال نهرو، الذي كان قد انتُخِب لترؤّس المؤتمر عام ١٩٣٠؛ ومع ذلك قرّر غاندي، وكبار الزعماء لقاء نائب الملك، عَصرَ يوم الثالث والعشرين من كانون الأول ١٩٢٩؛ وتولّى غاندي الحديثَ باسم الهنود، فطالب نائب الملك بجوابٍ صريحٍ يُؤَكّد أنّ مهمّة مؤتمر الطاولة المستديرة هي وضعُ دستورٍ جديدٍ للهند يَهبها، فورًا، وعلى نحوٍ كاملٍ، وضعَ "الدومنيون" بمَا فيه حقّ الانفصال عن الإمبراطوريّة البريطانيّة. ولكنّ نائب الملك كان عاجزًا عن التعهّد بمثل ذلك الوعد، لا بل إنّ الحكومة البريطانيّة نفسها، كانت عاجزةً عنه، بسبب المُشادَّات العنيفة النَّاشبة بين أعضائها.

حيالَ ذلك، لم يعُدْ بوسع المؤتمر المُنعَقد في الدقيقة الأولى من عام ١٩٣٠ سوى رَفع عَلَم الحُرِّيّة، وإعلان الاستقلال التامّ، وإقرار الانفصال عن الإمبراطوريّة.

وإذ كان الجميعُ يعترفون بغاندي عَقلاً، وقَلبًا، ويَدًا مُحرّكةً لكلّ عصيانٍ مدنيٍّ، فقد عهِد إليه المؤتمر باختيار السَّاعة والمكان، وأسلوب العصيان.

مسيرةُ الملح

على نقيض السِّياسيِّين، حتّى الدكتاتوريّين منهم، الذين يَدَّعون محبَّة شَعبٍ مُغفَلٍ، كان غاندي يُحبّ الأَفراد، وقد برهَنَ طوال حياته على حَدَبه على كلّ إِنسانٍ عايشه، بحيثُ كان يُغدق عليه كنوزَ عطفه، ويذكر كلّ احتياجاته بدقّةٍ، ويجهد في تلبيتها، باذلاً وقته وطاقاته بلا حسابٍ.

وكان يُحبّ إصلاحَ الأفراد، ويُدرِكُ أنَّ ذلك الإصلاح عَمَلٌ دؤوبٌ وئيدٌ، وهو، بالتالي، لم يكُن عجولاً، إلاّ عندما كانت الظروفُ تُرغمه على الاستعجال.

وهو، في قرارة نفسه، لم يكن متلهِّفًا لإعلان الاستقلال، في مطلع عام ١٩٣٠، إذ كان يُؤثِر الإعداد لهذا الحَدَث بمزيدٍ من التُّؤَدة. ولكن، بعد أن أصدَرَ "المؤتمر" قراره، – تحوّلَ القائدُ إلى جنديٍّ، وتعيّن عليه الامتثالُ للأوامر. وقضى أسابيعَ يُعمل فكره في ابتكار صيغة عصيانٍ مدنيٍّ ينتفي معها كلُّ عُنفٍ.

وقد زاره، آنذاك، الشاعر طاغور، في الثامن عشر من كانون الثاني ١٩٣٠، وسأله عَمَّا يُعدّ للبلاد في العام الجديد، فباح له غاندي بحيرته قائلاً: "**تنتابني حمَّى من التساؤل ليلَ نهارٍ، ومع ذلك لستُ أَلمَحُ أيّ ضوءٍ ينبثق من الظُّلمات المُحيقة بي**".

كان يُصغي، بإمعانٍ، إلى "الصوت الداخليّ"، مُلتمسًا منه حلاًّ. وبغتةً بدا، من خلال مقالٍ نشره في السابع والعشرين من شباط، في صحيفة "الهند الفتاة"، تحت عنوان "إذا ما أُوقفتُ"، وتناول فيه ما تنطوي عليه ضريبةُ الملح من جَور، أنّ "صوته" قد همس له بالحلّ، وأنَّ النورَ قد انبلج في ذهنه. ثمَّ أَعقب ذلك المقالَ بآخر تبسّط، خلاله، في بيان العُقوبات التي ينُصُّ عليها قانون الملح؛ وفي الثاني من آذار ١٩٣٠، وتقيُّدًا بمبادئ "الساتياغراها" التي تُوجب مصارحةَ الخصم بكلّ خُطوةٍ، أَنفذ إلى نائب الملك رسالةً مستفيضةً، عرض فيها موقفَه وقرارَه بمباشرة العصيان المدنيّ، ودوافعه، وقد جاء فيها:

« "**أيّها الصَّديق العزيز،**

"**قبل إبحاري في حملة العصيان المدنيّ، وإقدامي على مخاطرةٍ توخّيتُ تفاديها طوالَ السَّنوات الفائتة، يتوجَّب عليَّ أن أحاول الاتّصال بك بحثًا عن مَخرجٍ. إنّ قناعتي الشخصيّة في منتهى الوضوح. فأنا لا أستطيع تعمُّد إيذاء أيّ كائنٍ حيٍّ، وبالأحرى، أيّة جماعةٍ، حتّى لو هم ألحقوا بي، وبأهلي، أفدحَ الأضرار. ومع أنّي أعُدّ السّيطرة البريطانيّة لَعنةً، لا تُراودني أَدنى رغبةٍ في إيذاءِ إنكليزيٍّ واحدٍ، أَو في مسِّ أيٍّ من مَصَالحِه المشروعة، في الهند**".

"**... ولئن أنا كنتُ أَعُدُّ السَّيطرةَ البريطانيّة لَعنةً، فهذا لا يحملني على اعتبار عموم الإنكليز أَسوأ من أَيّ شعبٍ آخر من شعوب المسكونة. لا بل إنّه من حُسن**

طالعي أنّ بريطانيّين عديدين هم من أصدقائي، وفي واقع الأمر، إنّني مدينٌ بالكثير ممّا تعلّمتُه حَول مَكر البريطانيّين، لكتّابٍ إنكليزٍ يتحلَّون بالصِّدق والشجاعة، بحيث لم يخشَوا الجَهرَ بالحقيقة حول هذا الموضوع...

"إنْ لم يكُن بدٌّ من استمرار وُجود الأمَّة الهنديّة، ومن وضع نهايةٍ لإفناء شـــعبها جوعًا، فلا مفرّ من إيجاد وسائلَ فوريَّةٍ لمعالجة هذا الوضع... إنّ بريطانيـــا العُظمـــى تذُود عن تجارتها ومصالحها، في الهند، بكلِّ ما تمتلكه من قوّةٍ. ومن ثمّ يتعيّن علـــى الهند أن تُنمّي قوّةً غير عنيفةٍ، قادرةً على تحريرها من ربقة ذلك الطَّوق القاتل.

"إنّني أدرك أنّني، بانتهاجي مسالكَ اللاعنف أُقدم على مخاطرَ يمكـــن وصـــفُها بالحمقاء، غير أنّ الحقيقة لم تُحرز، يومًا، انتصارًا مـــن غَيـــرِ ركـــوب المخـــاطر الجسيمة في أغلب الأحيان...

"إنّ هذه الرسالة لا تنطوي على أية نيَّة تهديدٍ، ولكنّها تُعبِّر عن واجبٍ مقدَّسٍ مفروضٍ على واحدٍ من دُعاة العصيان المدنيّ ».

هذا، وكان غاندي قد تعرَّض، في رسالته، لوصف البُؤس السَّحيق الذي يئنُّ منه الشعبُ الهنديُّ، في حين ينعم البريطانيّون في الهند بتَرَفٍ صَلِفٍ، وذكّر نائبَ الملـــك بأنَّ راتبَه الشخصيّ يُعادل دَخل خمسة آلاف هنديٍّ.

لقد تولّى أحدُ أصدقاء غاندي البريطانيّين تسليم تلك الرسالة، باليد، إلى أَمين سرّ نائب الملك، وردّ هذا الأخير ببرقيّةٍ رسميّةٍ، عبّر فيها عن أَسفه لأنّ "السيّد غانـــدي يعتزم القيام بعملٍ يَنطوي، بلا مِراءٍ، على انتهاكٍ للقانون، ويُهدِّد النِّظام العـــامّ". وردّ غاندي بالبرقيّة التَّالية: "**إنّني أُنكرُ القانون، وأرى واجبًا مقدَّسًا عليَّ أن أحطّم رتابة النظام القسريّ الذي يخنق قلب أمّتي**".

لقد كان غاندي قد حَزَم أمرَه على تحدّي القانون البريطانيّ، ومصالحِ بريطانيـــا الاقتصاديّة، بَدءًا بتحطيم امتياز الملح، الذي كانت الحكومة البريطانيّة تحتفظ لنفـــسها بحقّ تصنيعه وتسويقه، وتفرِض عليه ضريبةً، وإن هي لم تكن جـــسيمةً، إلاّ أنّهـــا كانت ترهق كاهل الشعب الهنديّ الفقير، إذ كانت تُمثّل، لكلّ هنديٍّ، أجـــر أســـبوعي عملٍ، في السنة. والملح هديّة العناية الإلهيّة، وعطاءُ البحار الممتدَّة بين الأراضـــي

الهنديّة، إلى شعبٍ تشتدّ إليه حاجته، حاجةٌ حيويّةٌ أَساسيّةٌ، من جرّاء ما يعانيه من قَيظٍ وتعرُّقٍ، فالملح لكلّ هنديٍّ، ولبهائمه، في مثل ضرورة الماء والهواء؛ هديّةٌ ربّانيّةٌ، وعطاءٌ مجانيٌّ، سلبتهما المصالح الاستعماريّة.

ومن الطريف، بل من غريب المفارقات، أنّ غاندي الذي اتّخذ من الملح سلاحًا يُقارِع به الأَمبراطوريّة، ويقود به حملة العصيان المدنيّ، كان، لسنواتٍ عديدةٍ خلت، قد نَذر الإمساك عن استخدامه في طعامه، كذريعةٍ للسَّيطرة على حاسَّة الذوق لديه، وبالتالي لإحكام سيطرته على ذاته.

كان الموعد المضروبُ لمباشرة العصيان يدنو، والفُضول يستبدّ بالهنود وبشعوب الأرض كلّها، تلهُّفًا لمعرفة خطوات غاندي العمليّة. وقد هُرع عشرات الصحفيّين والمراسلين الأجانب إلى "أشرم سابارماتي"، يرصُدون حركات غاندي وسكناته، وانهالت على المهاتما برقيَّاتُ التأييد من شتّى بلدان العالم، وحتّى من الولايات المتحدة الأميركيّة، وشَخَصَت إليه أبصار الدنيا.

كان غاندي يمتلك سرَّ الأعمال البسيطة التي تُثير مشاعر كلّ فردٍ، و يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يُدرِكَها وينفّذها، ويؤدّيها بيُسرٍ، ومع ذلك، كان يعرف كيف يُسبغ عليها مغزًى عميقًا، ويُخْرِجُها في قالبٍ يُدهِشُ الخيال، ويُذهل العقولَ، ويهزُّ الضمائر. وهو، بالتالي اختار، مسرحًا لانتهاكه قانون الملح الجائر، مدينة "داندي" الساحليّة، الواقعة على مسافة نحو أربع مئة كيلومترٍ جنوبيَّ "أشرم سابرماتي". وكان بوسعه المُثول إلى "داندي" بالسيّارة أو بالقطار، ولكن لكي يُضفيَ على عَمَله أكبر قدرٍ من الإدهاش، ولكي يحيطه بأوسع حملةٍ إعلاميّةٍ، ويُشرِكَ به أوفر عددٍ من مواطنيه، قرَّرَ اجتيازَ تلك المسافة، سَيرًا على الأقدامِ، في مَوكِبٍ من سبعين شخصًا، رجالاً ونساءً، من سُكَّان "أشرم سابرماتي". سبعون شخصًا: جيشٌ فريدٌ، أَعزل من السّلاح، يتصدّى لأَعظم إمبراطوريّة في العصر الحديث، وسيُكتَبُ له النصر عليها.

كانت الحرب التي يخوضها غاندي على الاستعمار البريطانيّ، حربًا بين طائفةٍ من النَّمل، وفيلٍ يستطيع بقدَم واحدةٍ أن يدوس منها الألوف. ولكنَّ غاندي لم يكن لينظر إلى جسامة خصمه، بقَدر ما كان نظره شاخصًا إلى النّير المُوجع المسلَّط على رقاب بني جلدته.

كان يقود جيشًا هزيلاً قِوامُه عشرات الرجال، لا عدَّة له ولا سلاح، ولكنَّه، هو، كان يمتلك إيمانًا يُزحزح الجبال، وهذا الإيمان كان يُوليه ثِقَةً لا حدود لها، على حدّ قوله: "**ما قد ينقصنا، من جرّاء عَدَدنا، سنستعيض عنه حميّةً وعزمًا لا يُقهران، ويسع الأقلّيّة التحلّي بهما. سواءٌ كنّا، في نضالنا، خمس مئةٍ، أو خمسين، أو واحدًا، فالنَّصر لنا**".

في الساعة السَّادسة والنّصف من صباح الثاني عشر من آذار ١٩٣٠، أقام "حجّاج الاستقلال" الصلاةَ في "الأشرم"، ورتّلوا الأَناشيد الدينيّة، و"باسم الله" انطلقوا. وقد صرَّح غاندي، قُبَيل انطلاق المسيرة، تدليلاً على تصميمه قائلاً: "**أنا ماضٍ لأدمّر نظام هذا الحكم؛ لقد بات الشَّعْب دِيني، وسأعود بمبتغاي، أو ستطفو جثّتي على مياه المحيط**". لقد كان عازمًا، هذه المرّة، على المُضيّ في العصيان المدنيّ، حتّى لو لم يبقَ في الهند سوى رجلٍ واحدٍ يُؤمن باللاعنف. لقد كان شديدَ التلهُّف لتذوُّق مِلح الاستقلال!

كان المهاتما، البالغ الواحدة والستّين من العمر، يتوكّأ على عصًا من الخيزران، وقد اجتاز مسافة الأربع مئة كيلومترٍ، مع صَحبِه، عِبر الدُّروب المُتعرِّجة، خلال أربعةٍ وعشرين يومًا، سَيرًا على قدمَيه المنهكتَين، رافضًا ركوب حصانٍ كان قد أُعدَّ ليمتطيَه، عندما تخور قواه، في حين أنَّ بعض صحبه عجزوا عن مواصلة السير، واضطرّوا إلى ركوب عربةٍ يجرُّها ثَورٌ، وقد علّق غاندي على ذلك مازحًا: "**إنّ السيرَ أقلّ من اثني عشر ميلاً، في اليوم، مع حِملٍ خفيفٍ من الأمتعة، إن هو إلاّ عَبَثُ أولاد!**" وأمّا عن عجز بعض صحبه عن متابعة السَّير فقال: "**إنّ الجيل الحديث مُرهَفٌ، هزيلٌ، ومدَلَّل**".

صُورةُ غاندي الحاجّ إلى "داندي" قد ترسَّخَت في أَذهان ملايين البشر، وقد رسمها نهرو رَسمًا مُؤَثِّرًا مستمدًّا من ذكرياتٍ ماثلةٍ انحفرت في أغوار نفسه، فكتب: "**تراود ذهني صُوَرٌ عديدةٌ لذلك الرَّجل، ذي النظرة الضاحكة، في أغلب الأحيان، في حين هي بُحيرةُ حزنٍ لا محدود. بيد أنّ الصورةَ التي تطفو فوق كلِّ ما سواها، والمثقلة، دون غيرها، بالعِبَر، هي تلك التي رأيتُه فيها، وقد توكّأَ على عصاه، ماضيًا شطر "داندي"، أثناءَ مسيرة الملح، عام ١٩٣٠. لقد كان حاجًّا ينشُد الحقيقة، هادئًا، مُسالمًا، عازمًا، غير هيّابٍ، مُصممّا على مواصلة بحثه، وحَجّه، أَيّةً كانت العواقب**".

كان الموكب يجتاز بين خمسة عشر وعشرين كيلومترًا، كلَّ يومٍ، وتتخلّل سيرَه فتراتُ استراحةٍ متعدِّدةٌ، كان غاندي يُزجّي قِسطًا منها في غزل الكتّان، ويدعو رفاقه إلى الحذوِ حذوَه. وكان أهالي القُرى التي يجتازها الموكب يرشُّون الطريقَ بالمـاء، ويفرشونها بأفنان الأشجار، ويرفعون أعلام الاستقلال، فيمَا كـان محبُّـو غانـدي، وأنصارُه، بل "عابدوه" يتقاطرون من القُرى النائية ويجثُون خاشـعين لـدى عُبـور الموكِب. وغالبًا ما كان المهاتما يتوقّف ليُحدّثَ الجموعَ المتراصَّـة، وينتهـز تلـك السانحة كي يحثَّهم على ارتداء "الخادي" والإقلاع عن الكحول والتبغ والمخـدّرات، ونبذ تقليد زواج الأطفال، وعلى انتهاك قانون الملح، عندما سيشير إليهم بذلك.

ومثلما يجذِبُ المغنطيسُ بُرادةَ الحديد، كان غاندي يجتذب الأتباع، بحيثُ كـان موكبُه يتضخّم، في كلّ مرحلةٍ؛ وكان أهالي كلّ قريةٍ يُواكبونه حتّى القرية التاليـة، وبعضهم ينضمّون إلى موكبه حتّى نهاية المطاف. وكان تأثير مبادئه ينتشر انتـشار النار بالهشيم؛ وكانت النار، في كلّ مكانٍ يجتازه، وكلّ مطرحٍ تتنـامى إليـه أنبـاء مسيرة الملح، تلتهم المزيدَ من الأقمشة والبضائع البريطانيّة. وقد أعلن ثلاثُ مئةٍ من زُعماء القرى التي عَبر بها موكبُ غاندي عن تخلّيهم عن وظائفهم الحكوميّة، واقتفى أَثَرَهم مئاتٌ آخَرون، في سائر القرى.

وعندما انتهى غاندي وصحبُه إلى "داندي"، في الخامس من نيسان، كان موكبُـه الذي انطلق بسبعين شخصًا، قد غدا جيشًا صغيرًا قِوامُه بضعةُ ألوفٍ.

وفي العالَم أَجمع تصدَّرت صوَر موكب التحدّي الصفحاتِ الأولى من الصُّحف، وعرضتها الأفلام الإخباريّة في دور السينما، وردَّدت أنباءَها الإذاعات.

قضى غاندي وصحبُه سحابة ليلة الخامس من نيسان في الصلاة، وعنـد انـبلاج الفجر، واكبَهُ الأشرميّون إلى الشاطئ حيثُ غطس في الماء، وقام باستحمامٍ دينيٍّ، ثـمّ سار خارجًا، وانحنى فأمسك بحفنةٍ من ملحٍ كان المحيطُ قد أودعه على الرِّمال، ورفع يده عاليةً، ليُشعِر شعبَه بأنّ القبضةَ التي انتهكت امتيازَ الملح البريطانيّ الجائر، هـي صرخةُ تَحَدٍّ في وجه الوُجود البريطانيّ في الهند، وإيذانًا بحملة تحـرُّرٍ مـن ربقتـه.

وصاحت الشاعرة "ساروجيني نايدو" الواقفة إلى جوار غاندي: "**عاش المحرّر، عاصي القانون**"؛ صيحةٌ ردَّدتها حناجر آلاف الحاضرين، وقلوبُ ملايين الهنود.

لقد بات غاندي في نَظَر قانون المستعمِرين مُجرمًا؛ ومن ثَمَّ، فبعد أن أطلق شرارة العصيان المدنيّ، ودفع آلة الاستقلال الجبّارة، دفعًا لم يَعُد بوسعه أو بوسع أيِّ هنديٍّ لجمُه، انسحبَ من واجهة المسرح، واعتكف، منتظرًا اعتقاله، ولكنَّه أعلن قَبل ذلك لشعبه: "**إنّ كرامةَ الهند قد رمزت إليها حفنةُ ملحٍ في يَدِ إنسانٍ يُؤمن باللاعنف. إنّ القبضةَ التي أمسكت الملح قد تُحطَّم، ولكنَّ الملح لن يُعاد**".

لقد كان عمل غاندي إيذانًا بانتفاضةٍ شعبيَّةٍ على أوسع مدًى، وتمرُّدٍ جبَّارٍ أعزل إلاّ من سلاح الإرادة المصمِّمة، إذ تدافعَ الناسُ إلى الشواطئ يجمعون منها ما يستطيعون من الملح. وراحوا يصنعون الملح بأنفسهم وبوسائلهم البدائية، بحيث بات يُرى، في كلّ مكانٍ، قدورٌ مليئةٌ بمياه البحار لاستصناع الملح. ويروي جواهر لال نهرو، كيف حاول هو وزملاؤه من زعماء المؤتمر، تصنيع الملح بأنفسهم، فحصلوا على مِلحٍ رديءٍ، كريه الطَّعم، ولكنّه يُضيف معلّقًا: "**لم يكُن لنوعية الحصيلة أيّةُ قيمةٍ، في ذاتها؛ إذ إنّ الهَدَف الأَساسيَّ كان يكمُنُ في انتهاك قانون الملحِ البغيض، وفي هذا المجال كان عملنا موفّقًا، ولو أنّ الملح الذي حَصَلنا عليه كان رديئًا؛ وحيالَ الاندفاع الشعبيّ، وانتشار تصنيع الملح الصّاعق، تولاّنا الارتباكُ والخَجَل، لكَوننا قد أعربنا عن ارتيابنا بنجاعة أسلوب غاندي، عندما بَسَطَه أمامنا؛ ولقد أذهلتنا عبقريّة هذا الرَّجُل، وحِذقه في التأثير على الجماهير، وفي حَملِها على العَمَل المنظَّم المنضَبِط**". ومنَ الجدير بالذِّكر أنَّ نهرو نفسه ما عتّم أن اعتُقِل بتُهمة مخالفة قانون الملح، وهو، آنذاك، رئيس المؤتمر، وحكم عليه بالسَّجن ستّة أشهرٍ.

كثيرون آخَرون من أعضاء المؤتمر تطوَّعوا لتلقين الناس صناعة الملح، ولبيع الملح على قارعة الطريق، تحدّيًا للقانون، فاعتُقل كثيرون منهم، واتّسعت، على خطّين متوازيَين، رقعةُ مخالفة قانون الملح في كُلّ أَرجاء الهند، وحركةُ الاعتقالات التي أَطبقَت على ألوف المخالفين؛ وكثيرًا ما لجأ جنود الحكومة إلى العنف، بل إلى

الشراسة، في ضرب المخالفين، بل في عضّهم لانتزاع الملح من أيديهم، ولكنّ المخالفين ما كانوا يقاومون لا الضَّرب، ولا الضراوةَ، ولا السَّجن، إلاّ أنّهم كانوا يرفضون التخلّي عن الملح الذي صنَعوه أو جمعوه.

في كلكتّا قامت جماعةٌ بتصنيع الملح، جهرًا، تحت أنظار خمسين ألف متفرّجٍ متحمِّسٍ، بحيثُ لم يجرؤ رجالُ الحكومة على التعرُّض لهم؛ وفي بومباي، عكَف أعضاءُ المؤتمر على استخراج الملح مستخدمين مئات القدور التي انتشرت على أسطحة المنازل، فاقتحم الجندُ مركز المؤتمر، فتجمهر نحوُ ستّين ألف مواطنٍ اقتيدت فئةٌ منهم إلى السُّجون، بعد أن كُبِّلت أيديهم، أو أُوثقوا بالحبال. وفي أحمد آباد وزّع المؤتمر الملح على زُهاء عشرة آلاف مواطنٍ، بعضهم أَدُّوا ثمنه، وبعضُهم لم يكونوا يملكون له ثمنًا، فأُعطُوه مجّانًا.

وقد بيعت حفنةُ الملح التي جَمَعَها غاندي على شاطئ "داندي" بالمزاد العلنيّ، فنقد ثَمَنَها طبيبٌ هنديٌّ ألفًا وستّ مئة روبيّةٍ.

بالإضافة إلى ذلك، أسهمت حملةُ الملح في تدعيم شتّى أشكال اللاتعاون التي قد طالما بشَّر بها غاندي، فتضاعف عدَدُ كبار الموظّفين الذين هجروا مراكزَهم؛ وسرت أَلسنة اللَّهيب في المزيد من الأقمشة والألبسة البريطانيّة. وفقد جند الحكومة رباطة جأشهم، فتمادوا في التذرّع بأساليب قمعٍ مُنكرَةٍ وحشيَّةٍ؛ وغصَّت السجون بالموقوفين السياسيِّين الذين أربى عددهم على المئة ألف معتَقلٍ؛ وردّت الجماهير على القمع بالإضراب، و بمزيدٍ من العصيان المدنيّ الخالي من العُنف، إكرامًا لرسول اللاعُنف. إذ لم يَغرُب عن بال الهنود كيف اضطُرَّ غاندي إلى إرجاء العصيان المدنيّ، لسنواتٍ خلت، بسبب نشوب أعمال العُنف.

وفي الساعة الأولى من اليوم الخامس من أيّار، دَاهَم فريقٌ من شرطة الحكومة المُخيّم الذي كان غاندي ينام فيه في العراء، مع أَتباعه، على مَقرُبةٍ من شاطئ "داندي" وأبلغوه أمرَ اعتقاله الاعتباطيّ. فاستمهلهم بضع دقائق ريثما يغتسل، ويتلو صلواته، ثُمَّ مضى معهم إلى سجن "بيراقدا"، حيث توفَّرت له، مرّةً أُخرى، فترةُ راحةٍ كان يفتقر إليها.

في الأسبوع السابق لاعتقاله، كان غاندي قد أخطر نائب الملك أنّه يعتزم، "إن شاء الله"، بصحبة بعض رفاقه، اقتحام معمل ملح "دارا سانا"، الواقع على مسافة نحو

مئةٍ وخمسين ميلاً شماليَّ بومباي. وفي أعقاب اعتقاله، أَخَذَ أتباعه على أنفُسهم تنفيذَ ما كان قد عَزَم عليه زعيمهم، فانتظم ألفان وخمس مئة مُتطوّعٍ في مسيرةٍ قادتهم إلى "داراسانا"، بقيادة الشاعرة "ساروجيني نايدو". وهناك وقفوا للصَّلاة، وجميعُهم بزيّ "الخادي" الأَبيض؛ ثم أَخطرتهم الشاعرة نايدو أنّهم قد يتعرَّضون للضرب الضاري، الذي يتعيّن عليهم إلاّ يُقاوموه، بل إلاّ يرفعوا أيديَهم لاتّقائه.

وارتكب رجال الحكومة، إذَّاكَ، مجزرةً بربريّةً، كان شاهدَ عيانٍ عليها مراسلُ "اليونايتد بريس"، "ويب ميلر"، الذي كتب، فيها، وصفًا يُبرز، في آنٍ معًا، وحشيّةَ بريطانيا "المتحضّرة"، وبطولةَ الغانديّين اللاعنفيين، الفريدة، المُذهِلة:

"انتظمَ المُتظاهرون في صفٍّ، وفي صمتٍ تامٍّ، على بُعد مئةِ ياردةٍ من السُّور المُحيق بمعمل الملح، وبالخندق الذي يطوف بالعمل. ثمّ انفصل عن الصفّ عَدَدٌ من المُتظاهرين، تقدَّموا بتُؤَدَةٍ وخُطًى ثابتةٍ، فاجتازوا الخندق، ودنوا من السياج الشائك؛ وأَمَرهم ضابطٌ انكليزيٌّ بالابتعاد، فرفضوا الامتثالَ، وإذَّاك أَمَرَ الضابطُ عشرينَ من رجاله، مسلَّحين بعصيٍّ غليظةٍ أُثبتت في أطرافها كتَلٌ من الفولاذ، بمهاجمتهم، فانهالوا عليهم ضربًا عَلَى رؤوسهم، ولم يرفع أحدٌ من المُتظاهرين يدًا، اتقاءً للضَّربات، ولكنَّهم انهاروا جميعُهم، وقد أُغميَ على بعضهم، فيمَا راح آخَرون يتلوَّون أَلمًا، بسبب تحطّم جماجمهم أو انخلاع أكتافهم، في حينَ كان رفاقُهم يلهثون ويَتَنَهَّدون تعاطُفًا مع إخوانهم، من غير أن يتسرَّب إلى قلوبهم الخوفُ، منتظرين، بثباتٍ، دورَهم كي يقتربوا من السّور، ويلقوا نَفسَ المصير".

ويضيف "ويب ميلر" قائلاً: **"مع أنَّ كُلاً منهم كان مُدرِكًا أنَّه في غضون دقائق سيُصرَع، وقد يُقتل، لم أَلحظ أيّة أَمارةِ تردُّدٍ أَو خوف. لقد كانوا يتقدّمون بشجاعةٍ، مرفوعي الهامات، من غير أن تستفزَّهم موسيقى ولا صيحاتُ تأييدٍ، أو أيُّ أملٍ في الإفلات من جُرحٍ خطيرٍ أو من الرَّدى. وهرع رجال الشرطة، وبانتظامٍ، وبحركاتٍ آليّةٍ، وسحقوا الرَّتل الثاني. لم تكُن، ثمّة، معركةٌ، ولا مناوشةٌ: بل كان المتظاهرون، بكلِّ بساطةٍ، يستمرّون في السير إلى أن يُصرَعوا".**

وهكذا، رتلاً إثر رتلٍ، وفيمَا كانت الشمس تسكُب أَشعَّتها الحارقةَ، تجندلَ المئات من الغانديّين، واكتظَّت المشافي بالقتلى والمحتَضِرين، والمحطّمين؛ وتوالت المجزرة، على ذلك المنوال، أيّامًا عديدةً.

لقد ضرب الغانديّون مَثَلاً سنيًّا في تحويل الخدِّ الأَيسر، لمن كانوا يصفعونهم على الخدِّ الأيمن، فبات الضَّاربون وُحوشًا، جُبَناء، وتسنَّم المضروبون أسمى قِمَمَ الشجاعة والمروءة والبُطولة.

وهُرِع إلى مسرح المجزرة بعض الزعماء، مثل "باتل"، الذي كان، لأَشهرٍ قليلةٍ خلَت، من دعاة "التَّعاون"، ثمّ استقال، في أَعقاب مسيرة الملح، من رئاسة المجلس التّشريعيّ الهنديّ، احتجاجًا على سياسة الحكومة؛ وإزاءَ ما شهد، صرَّحَ:

"**إنّ أيَّ أملٍ في المصالحة بين الهند والأمبراطوريّة قد قُضِي عليه. أَستطيع أن أفهم لجوءَ حكومةٍ إلى توقيف من يُخالفون القانون، ومعاقبتِهم، ولكنَّني لستُ أَستطيع أن أدرك كيف تقدر حكومةٌ تدَّعي الحضارةَ، التصرُّفَ بمثل هذه الوحشيَّة والضراوة، مع رجالٍ ينبذون العنف، ولا يُبدون أَيَّة مقاومةٍ، على نحو ما فعله البريطانيّون هذا الصباح**".

عند الظُّهر اعتُقِل مانيلال غاندي، ثمّ تقدَّم ضابطٌ بريطانيٌّ من الشاعرة "ساروجيني نايدو"، ووَضع يَدَه على ساعدها قَائِلاً: "إنّك موقوفة"، فانتفضت وقالت: "**إنّي ماضيةٌ إلى السجن، ولكن ارفَع عنّي يدك**".

ذلك الحَدَثُ المأساويّ كان نذيرًا بانهيار الحُكم البريطانيّ، وببزوغ فجرٍ حرّيةٍ قشيبٍ في الهند؛ يقول "لويس فيشر" مُعلّقًا عليه: "**كان البريطانيّون يضربون الهنود بالعصيّ وقنادقِ البنادق. ولكنَّ الهنود لم يَنحَنوا، ولم يَشكُوا، ولم يتقهقروا؛ وهذا ما جعلَ بريطانيا عاجزةً، والهندَ قوةً لا تُقهَر**".

أمّا طاغور، فقد علّق على ذلك الحَدَث، في مقالٍ له نُشر في ١٧ أيّار ١٩٣٠ في صحيفة "مانشستر غارديان" فكتب: "**إنّ أوروبا قد فقدت، إلى الأَبد، هيبتَها الأَدبيَّة في آسيا. فهي لم تَعُد تُعتَبر بَطَلَة الصِّدق في العالَم، وحاملةَ لواء المُثُلُ العُليا، بل تجلّت كالمُدافِعة عن هَيمنة العِرق الغربيّ، وكمستغِلّةٍ للشُّعوب القائمة خارجَ حدودها.**

"ثمّة، في الواقع، هزيمةٌ أَدبيّةٌ ذريعةٌ مُنِيت بها أوروبا. فلئن كانت آسيا مــا انفكّــت ضعيفةً، ماديًّا، وعاجزةً عن الدفاع عن نفسها ضدّ أيّ اعتداءٍ يُهدِّد مصالحَها الحيويَّة، إلاّ أنّ ذلك لا يُفقدها الحقَّ في النظر إلى أوروبّا، من علُ، بعد أن كانت تتطلّع إليها من أسفل".

وقد عزا طاغور ذلك النصر المبين إلى سياسة غاندي الفريدة. ولكن، من المُؤكّــد أنّ غاندي ما كان ليرضى بعبارات طاغور، فهو يأبى أن تنظُر الهندُ إلى سواها من فوقُ أو من تحت. بل يريدُ لها أن تُحدّق في عَينَي أوروبا، والعالَم بأسره، بكلّ بساطةٍ وثقةٍ، وحبٍّ.

غاندي في لندن

لقد خَلَق سَجن غاندي لبريطانيا وضعًا لا يُطاق، وسُرعانَ ما اتَّضَحَ أنّ المهاتما في مُعتَقله أكثرُ إرباكًا للحكومة ممّا هو كان في أشرمه، أَو حتّى فــي ذُروة مــسيرة الملح. ففي داخل الهند شُلّت الإدارة، إثرَ هَجر أَعدادٍ كبيرةٍ من الموظَّفين لمراكزهم، وعصيان الجنود للأوامر الصَّادرة إليهم بقَمع مُواطنيهم. وقد استفحلت الأَوضاع، في بعض المحافظات، حيثُ فرَّ رجال الشرطة، فأعلن الأهالي الاستقلال، ورفعوا العلَــم الوطنيّ. وجفّت موارد الحكومة من جرّاء امتناع المزارعين والمنتجــين عــن أَداء الضرائب؛ وتقلَّصت واردات المكوس على الكحول، بنسبة ٧٠%، وانخفــض مبيــع السجائر إلى سُدس ما كان عليه، وانحسَرَ استيراد الأَقمشة البريطانيّة إلى الهند بنسبة الثُلثَين؛ وتخلخَلَ اتّزان البلاد بأكمله، وأُسقط في يد نائب الملك.

أمّا في بريطانيا، فقد كان على رئيس الوزراء الجديد، زعيم حــزب العمّــال، "رمسي ماكدونالد" أن يُجابهَ التَّصريحات الواضحةَ التي أَلِف إِطلاقَها إبَّــانَ تزعّمــه المعارضة، مُناديًا بمنح الهند الاستقلال. فإذا بمطلع عهده يتميَّــز بتفــاقم الطُّغيــان البريطانيّ، في الهند، تفاقمًا خطيرًا، يُكذِّب جميع أقواله السَّالفة، إذ غُصّت الــسجون بالموقوفين السِّياسيّين، وعمَّت النقمة.

وبالإجمال، أَدركت الحكومة البريطانيّة أنّ ساعة المفاوضات قد أَذِنَت، فأَوعزت إلى مراسل صحيفة "ديلي هيرالد" بمقابلة غاندي في سجنه، للوقوف علــى مطالبــه، وقد جرَت تلك المقابلة يومي ١٩ و٢٠ أيّار، أسبوعين بعدَ توقيف المهاتما. ثُمّ، فــي

شهر تمّوز أَوفَدت إليه الحكومة اثنَين من الزعماء الهنود المعتدلين للتفاوُض معه، غير أنَّه أبى مباشَرةَ أيّ نقاشٍ، إلاّ بعد التشاوُر مع لجنة المؤتمر التنفيذيّة، فجاءَت السُّلطاتُ بموتيلال نهرو، وبابنه جواهر لال، وبسيّد محمود، أَمين سرّ المؤتمر، من السِّجن الذي كانوا معتقَلين فيه، إلى سجن "بونا"، حيثُ كان غاندي، والشاعرة نايدو، وباتل؛ وعلى هذا النحو التمّ شمل أقطاب لجنة المؤتمر، وفي أعقاب يومَين من التباحُث والتداوُل، أَصدروا بيانًا أكّدوا فيه أنّ الهوَّة الذي تفصلهم عن موقف الحكومة يتعذّر تخطّيها.

وحاولت الحكومة التفاوضَ مع زعماء هنودٍ، من خارج "المؤتمر"، دعتهُم إلى لقاء طاولةٍ مستديرةٍ في لندن بتاريخ ١٩٣٠/١١/١٢، وكان في عدادهم محمّد علي جناح، وبعض المهراجات، وزعماء طوائف شتّى. ولكن، رغمَ الجهود التي بذلتها الحكومةُ، ومع سَعيِها إلى إضفاء جوٍّ ودّيٍّ متعاطِفٍ على المؤتمر، تبيّن لها، في نهاية المطاف، أن لا حلّ في معزلٍ عن غاندي، و"المؤتمر" الهنديّ. وأَعرب رئيس الحكومة عن تمنّيه بأن يُوفد "المؤتمر" ممثّليه إلى جلسة المنضدة المستديرة الثانية، وأَدرك نائب الملك مرمى تلميح رئيس الوزراء، فبادر إلى إطلاق سراح غاندي ورفاقه، بلا قيدٍ ولا شرطٍ، في ١٩٣١/١/١٦، وأُلغيت الأحكامُ التي كانت تَصِمُ المؤتمرَ باللاشرعيّة.

وقد وَصَفَ تشرشل، رئيس الوزراء المهزوم، وبطلُ الاستعمار المسعور، حَرَجَ الحكومة البريطانيّة آنذاك، وموقفَها من غاندي، بقوله: "**كانت الحكومة رابضةً عند باب السجن، تتوسّل غاندي إنقاذَها من متاعبها**". ولئن انطوى هذا القول على نقدٍ للحكومة جارحٍ، ونقمةٍ على غاندي مُترعةٍ بالكراهية، إلاّ أنّه اعترافٌ، يقطرُ مرارةً، بخَطَر شأن غاندي، وبجدوى سياسته الفذّة.

وبادر غاندي، الذي كان يُؤثر، أبدًا، الحلولَ السلميّة، إلى لقاء نائب الملك، بعد ظهر السابع عشر من شباط ١٩٣١، وامتدّ الحديث بينهما أربع ساعات، وعقبته لقاءاتٌ أُخرى متعدّدةٌ، كانت متقَلَةً بمغزًى سياسيٍّ لم يُدرك، ربّمَا، أَبعادَه الحقيقيَّةَ أَحدٌ مثلما أدركَه تشرشل. فقد استشفّ ذلك السِّياسيّ العَجُوز، بحَدسه الثاقب، أنّ ذلك اللقاءَ

كان يطوي، إلى الأبد، صفحةَ أمجادِ الأمبراطوريّة البريطانيّة، وأنّ غاندي ما جاءَ نائب الملك مُستجديًا، مُستعطِفًا، على حدٍّ ما أَلِفَت الهند، من قبلُ، الاستجداءَ والاستعطاف، بل هو جاء بصفته زعيم أمّةٍ، ليُفاوض، من موقع المساواة، ممثِّل أمَّةٍ كُبرى. فبريطانيا، ولا سيَّمَا في أعقاب مسيرة الملح، قد باتت عاجزةً عن حكم الهند، في معزلٍ عن غاندي، وغدت تحت رحمة ذلك المتنسّك، نصف العاري.

وقد عبّر تشرشل عن حنقه العارم، بعباراتٍ وَقحةٍ مُفعمةٍ عنجهيّةً، ومقتًا، وبُعدَ نظرٍ، في آنٍ معًا، مُعربًا عن اشمئزازه لذلك "**المشهد المقزّز المهين، مشهدِ ذلك المحامي السابق، الذي انقلب ناسكًا مشاغبًا، وهو يرتقي أدراجَ قصر نائب الملك، نصفَ عارٍ، ليُفاوض، نِدًّا لندٍّ، مُمَثِّل الأمبراطوريّة والملك...**" وأَردف تشرشل، وكأنَّه يتنبّأ: "**إنّ فقداننا للهند سيوجّه إلينا الضربةَ القاضية الأَبديّة. إنّه مرحلةٌ من مسيرةٍ ستُحوّلنا أمّةً تافهةً!**".

لسنواتٍ خلت، كان غاندي المحامي الناشئ، في زيّ الجنتلمان الإنكليزيّ الأنيق، لا يُثير سوى ازدراء البريطانيّين واستخفافهم، وها هوذا غاندي الزّاهد نصف العاري، يبثّ في قلوب عظمَائهم مشاعرَ تتراوح بين الخَشية والرهبة والإجلال والتقدير.

ومن سُخرية الأقدار أنّ المفاوضات بين غاندي ونائب الملك قد أُجريت تحت أسقف قصرٍ حديثٍ مُنيفٍ، باهظ التكاليف، منتصبٍ بشمُوخٍ، فوق سهل دلهي، ووسط آثار المساجد والقلاع الدارسة، وقد توخّى مشيدوه أن يقيموا منه رمزًا للسيطرة البريطانيّة، فإذا بأُولى الأحداث التي واكبت تدشينه، تُمهِّدُ لتقويض تلك السيطرة، وللقضاء على الحكم البريطانيّ، في الهند، إلى الأبد.

كانت المفاوضات عسيرةً، وجرت في جوٍّ مثقَلٍ بالضُّغوط: ضغوطٍ متنابذةٍ على غاندي من المُسلمين ومن الشيوعيّين، وضغوطٍ على نائب الملك الذي كانت حكومته تحرّضه على قَمع العصيان، في الهند، بضراوةٍ. ومعَ ذلك، أَفلحَ الرجُلان، بتاريخ الخامس من آذار ١٩٣١، في توقيع "معاهدةٍ" عُرفت باسم "معاهدة إيرون- غاندي" أو "معاهدة دلهي". كانت كلّ عبارةٍ فيها قد دُقِّقت، وأُشبِعَت نقاشًا ورَوزًا: ولا ريب أنّ غاندي قَد أَقدم، في سبيل توقيع تلك المعاهدة، على بعض التنازلات التي أثارت عليه حفيظة بعض المتطرّفين، حسيري النّظر، ولكنَّها، عمومًا، أكسبته، في الأوساط الجماهيريّة، التي هزّتها

رؤية زعيمها يفاوض مُمثِّل الأَمبراطوريّة، ندًّا لندٍّ، محبّةً وتقديرًا عارمَين. لقد وضع غاندي، بمُرونته، وبُعد رؤيته، بتلك المعاهدة، أُسُسَ الاستقلال الحقّة، فالمعاهدة قد ولَّدت، بين الهند وبريطانيا، علاقاتٍ من نَمَطٍ جديدٍ، سينبعُ منها الاستقلال تلقائيًّا. وفي الواقع، لقد ظفرت الهند، باستقلالها التامّ، سبعة عشر عامًا بعد تلك المعاهدة، ولَعَمري، ما تلك بفترةٍ طويلةٍ في حياة أمّةٍ، جذورُها ضاربةٌ في غياهب التاريخ، وفي حقبةٍ كان، فيها، الانفلات من ربقة السَّيطرة البريطانيّة يُعدُّ ضربًا من الخيال.

وممّا نصّت عليه تلك المعاهدة: الإفراج عن الموقوفين السياسيّين، والسماح لسكّان المناطق الساحليّة بإنتاج ما يحتاجون إليه من ملحٍ بأنفسهم، واشتراك مندوبين عن "المؤتمر" الهنديّ في جلسات مؤتمر الطاولة المستديرة الثانية، في لندن.

والتَأم المؤتمر الوطنيُّ الهنديّ، في جلسته السنويَّة العامَّة، في كراشي، فانتُخِبَ غاندي مُمثّلاً له وحيدًا في مؤتمر لندن. وقد أبحر المهاتما، من مرفأ بومباي، ظُهرَ يوم التاسع والعشرين من آب ١٩٣١، وصرّح قُبَيل استقلاله الباخرة: "**كلُّ الظروف مهيأَةٌ لكي أعود خاليَ الوفاض**"، فقد كانت أحوال الهند الداخليّة مُدلَهِمّةً، وبريطانيا التي لم تكن، بعدُ، متأَهّبةً لمنح الهند استقلالها، قد خطّطت، بمكرٍ، لإفشال المؤتمر. وفي الواقع، كان وضع غاندي، في مؤتمر لندن على جانبٍ كبيرٍ من المفارقة والحرج، فهو، مبدئيًّا كان يمثّل المُؤتَمَر الهنديَّ الوطنيّ الذي يَنبُذ كلَّ تفرقةٍ طائفيّةٍ أو فئويّةٍ، غير أنّ البريطانيّين، كانوا قد دعَوا إلى المؤتمر ممثّلينَ عن كلِّ الطوائف والفئات التي تحفل الهند بالعديد منها، فكان، ثمّة، ممثّلونَ عن المُسلمين وعن الهندوسيّين، والسّيخ، والفارسيّين، والمسيحيّين الهنود، والمنبوذين، والملاّكين، والنساء، والبريطانيّين المستوطنين في الهند، والخلاسيّين...؛ وقد راحت كلُّ فئةٍ تُطالب بحقوقٍ لها مستقلّةٍ، ولا سيَّمَا بحقّ اقتراعٍ خاصٍّ يُخوِّلُ كلَّ طائفةٍ ترشيحَ ممثّلين عنها فحسبُ، وانتخابهم؛ وهكذا، عوَضًا عن مواجهة كتلةٍ موحّدةٍ متراصّةٍ من الهنود تطالب بالاستقلال، تمتّع البريطانيّون بمشاهدة طوائف شتّى تتصارع، وأَثبتوا، مرّةً أُخرى، براعتَهم في استخدام سياسة "فرّق تسُدْ" التي باتوا من أَئمَّتها؛ وقد أَفعمَ الأَسى قلبَ غاندي، عندما اتّضح له أنَّ الجُسور التي قد طالما جَهد في مدّها بين الهندوسيّين والمُسلمين، لم تستطع رَدمَ الهوّة

السحيقة بين الطائفتَين، وأنَّ جهودَه في سبيل خَلقِ جيلٍ من الهنود الذين يربطهم حبُّ الوطن الواحد، في مَعزلٍ عن الانتماءات الطائفيّة، ما انفكّت بعيدةً عن إيتاء ثمارِها.

وجديرٌ بالذكر أنّ رئيس الوزراء البريطانيّ، ماكدونالد، في جلسة المؤتمر الختاميّة، بتاريخ الأوّل من كانون الأوّل ١٩٣١، قد وصف غاندي بالهندوسيّ، فاعترض غاندي بحدّةٍ، وقال: "**بل أنا هنديٌّ**". فهو كان هندوسيًّا في علاقته بربّه، أمّا في المؤتمر، وفي المجتمع، فهو هنديٌّ فحسب؛ ولكنْ، ما كان أضأل عدد "الهنود"، من أمثال غاندي، في المؤتمر، بلهَ في الهند! وقد وصف "نهرو" وضعَ غاندي في مؤتمر الطاولة المستديرة بلندن بقوله: "**في الرُّدهة الفسيحة المذَهَّبة المزدحمة، كان غاندي يجلس في عُزلةٍ رهيبةٍ؛ وكان زيُّه (لا بل يتوجّب عليّ أن أقول شبه عريه) يُميّزه عن جميع الآخرين، بيد أنّ الهوَّة التي كانت تفصل تفكيره عن تفكير أولئكَ السادة، الحَسني الهندام، المُحيقين به، كانت أَوسع، إلى حدٍّ بعيدٍ**". ويمضي "نهرو" في وصف مُمثّلي شتّى الطوائف بقوله: "**مُمثِّلون ثانويُّون صامتون لا دَورَ لهم، خيالاتٌ باهتةٌ لأسيادٍ خلقوهم، مُنكبّون على ثرثرةٍ زريّةٍ لا تنتهي، لا تعني سوى فئةٍ من الناس ضئيلةٍ، ولا تمسّ سوى فئةٍ أَشدّ ضآلةً، اهتمامهم الأكبر: الحفاظ على مصالح هذه أو تلك من المجموعات والطبقات؛ ومتعتُهم الكبرى، فضلاً عن التسلية: التباهي**".

ومع ذلك، حرص غاندي على حضور جميع جلسات المؤتمر، رغم ما كانت تبعثُه فيه من سأَمٍ وضيقٍ. أمّا إذا تكلّم، فكانت فصاحته الصادقة تطغى على كلّ نقاشٍ؛ بيدَ أنّ أسلوبه الواضح، الصريح، المباشر، في طرح قضيّة الاستقلال، لم يكن ليروق لممثّلي صاحب الجلالة الذين يُؤثرون، أبدًا، العباراتِ المقنّعة التي تُلمح ولا تُفصح، وتفسح مَجالاً للتأويل، حسبَمَا تقتضي الظُّروف. وقد أعرب غاندي عن خيبته أَمَله بقوله: "**يؤسفني، حقًّا، القولُ إنّني حتّى الآن، لم أستطع الوقوفَ على تحديدٍ مشترَكٍ للألفاظ التي تبادلناها طوال هذه الأسابيع المرهقَة**".

ولا عَجَب، والحالة هذه، أن يُفضي المؤتَمر، هنديًّا، إلى فَشَلٍ ذريعٍ، خَطَّط له البريطانيّون ببراعةٍ، لا بل أفادوا منه في إذكاء نار الصِّراع الطائفيّ، وزَرع الشّقاق، ما يُمكنّهُم من إعادة إحكام قبضتهم على كُبرى مستعمَراتهم التي كادت تُفلِتُ منهم.

غير أنّ غاندي قد أدرك، منذُ وصوله إلى لندن، أنّ مجال مهمّته الأساسيّة، هو خارج رُدهة المؤتمر، فراح يحاور الشعب البريطاني وينثرُ، في عقله ووجدانه، البذورَ التي ستُنبتُ للهند استقلالَها؛ وقد أصابَ، في هذا المِضمار، من النّجاح قسطًا وفيرًا، وغزا قلوبَ البريطانيّين بسرعةٍ مُدهشة، كما أنّه – من غير أن يبتغي – قد أضفى على صورته الشخصيّة في الغَرب، تألُّقًا فريدًا، وسُرعان ما غدا أسطورةً حيّةً.

كان غاندي قد وافى لندن في الثاني عشر من أيلول، في زيِّه القطنيّ المعهود، يُرافقه بعض معاونيه وأصدقائه المقرَّبين، وثالث أبنائه ديفاداس، وعنزته الهنديّة التي كانت تؤمّن له كوبَ حليبه اليوميّ، ومكثَ في العاصمة البريطانيّة، حتّى الخامس من كانون الأوّل ١٩٣١؛ وقد حَرِص على الإقامة في منزلٍ مُتداعٍ، في حيّ "إيست ايند"، وهو من أفقر أحياء لندن، ويبعد نحو خمسة أميالٍ عن مركز المدينة، وعن قصر "سانت جيمس" حيث كان ينعقد مُؤتمر المنضدة المستديرة. ولم تُفلِح حججُ أصدقائه في إقناعه بالانتقال إلى فندقٍ في وسطِ المدينة، ممّا كان سيُوفّر عليه ساعاتٍ من السير كلَّ يومٍ، يستطيع استغلالها لنَومه وراحته؛ فهو كان ضنينًا بمَال الشعب الهنديّ، يأبى إنفاقه على راحته، مثلما كان يأبى أن يحُلَّ ضَيفًا على أثرياءٍ من الهنود أو البريطانيّين، مؤثرًا المكوث بين ظَهْراني الفقراء أمثاله، ولو اضطرُّه ذلك إلى العودة، مُنهكًا، في ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، أو في ساعات الصباح الأولى، إلى كوخه في "ايست إيند". وكان يروق له التنزُّهُ في ذلك الحيِّ الفقير، ومحادثة سُكّانه، وزيارتهم، ومداعبة أطفالهم الذين كانوا يَسعَدون بالشدّ على يده، ويدعونه "العمّ غاندي".

وتنافست الصحف البريطانيّة والأميركية والأوروبيّة في تناقُل دعاباته وأخباره؛ وقد اتّفق، يومًا، أن دبّج الصحافيّ البريطانيّ "جورج سلوكومب" مقالاً عن غاندي، وفي سبيل إبراز تواضُعه، ادَّعى أنّ زعيم الهند قد انحنى أمام أمير غال، لدى زيارته للهند، وبعدَ أيّامٍ، التقى غاندي الصحافيّ "سلوكومب" هذا، فبادره بالقول: "**إنّ ما رويتَه في مقالك لا يُبرِزُ سوى قُصور خيالك. إنّني مستعدٌّ للركوع أَمام أفقر منبوذٍ في الهند، لأُكفّر عن إسهامي في معاناته طوالَ قرونٍ؛ لا بل قد أَمسحُ الغُبار العالق بقدمَيه، ولكنَّني لن أَنحني، أَبدًا، لا أمام الملك، ولا بالأَحرى أمام أَمير غال، لمجرَّد كَونه ممثّل حكمٍ وَقحٍ**".

ودُعي غاندي إلى تناوُل الشّاي في القصر الملكي، مع الملك جورج الخامس والملكة ميري، فتساءلت بريطانيا بأَجمعها عن الزيّ الذي سيتدثّر به غاندي، بهذه المناسبة، وقُضّت مضاجعُ المُشرِفين على بروتوكول القصر، إذ إنّ التقاليد تقضي على الماثلين في حضرة أَصحاب الجلالة ارتداء زيٍّ معيّنٍ، والتزامًا به صارمًا. ولكنّ غاندي لم يكن ليتخلّى عن زيّه نصف العاري، ولا عن المثول بقدميه العاريتَين، المنتعلتَين خفًّا بدائيًّا من صنع يديه، إكرامًا لأيّ مَلِكٍ، أَو صاحب سُلطان في الدُّنيا. ولكنّه تلفّع بشاله الدَّهريّ، بعد أن قَلَبَهُ على الوجه الآخر، ليُخفي الجانب الذي رسمت عليه الأيّام آثارها المدمّرة؛ وكانت ساعته العتيقة مربوطةً بحبلٍ قصيرٍ تتدلّى من خصره. وعند خروجه سأَله أحد الصحفيّين إن كان لباسُه كافيًا لإدفائه فأجاب: "**لقد كان الملك يرتدي من الثياب ما يكفي كلَينا**".

وممّن زارهم غاندي، في لندن "لويد جورج" الذي كان رئيسًا للوزراء أَثناء الحرب العالميَّة الأولى، والذي روى، فيمَا بعد، أنّ خُدّامه فعلوا ما لم يفعلوه قطُّ حيالَ أيّ زائرٍ، إذ خرجوا جميعُهم للتَّرحيب بغاندي، بل للتبرُّك بمن اعتبروه قدّيسًا.

وطلب شارلي شابلن مقابلةَ غاندي الذي لم يكُن قد سمع باسم الهزليّ الشهير؛ ولم يوافق المهاتما على لقائه، إلاّ بعد أن علم أنَّ شابلن يتحدَّر من أسرةٍ فقيرةٍ كانت تقطن في حيّ "ايست إيند" عينه الذي هو يَحُلُّ فيه، وكانت مناسبةً بهيجةً لتبادل البسمات الساخرة بين الرجلَين؛ وربّمَا اقتبس شابلن من حديثه مع غاندي، ومن آرائه في الآلات الحديثة، فكرةَ أحد أشهر أفلامه.

وحَرِص "جورج برنارد شو" أَيضًا على مقابلة غاندي، وبتواضعٍ غير مألوفٍ لديه، عرّف عن نفسه بقوله إنّه "غاندي مصغّر"؛ وفي أعقاب المقابلة سُئل شو عن انطباعه فقال: "**وكأنّكم تستطلعون رأيي في جبال الهمالايا**".

واجتمع غاندي، كذلك، بعَدَدٍ غفيرٍ من السِّياسيّين والمُفكّرين ورجال الدِّين البريطانيّين، وزار أكسفورد مرَّتَين؛ وقد كتب البروفسور "لندسي"، الذي أصبح، فيمَا بعد، لوردًا وعضوًا في البرلمان: "**زوجتي وأنا نُؤَكِّدُ أنَّ زيارة غاندي لمنزلنا كانت لنا بمثابة زيارةِ قدّيسٍ. لقد تجلَّت لديه خِصالُ الرجل الذي يقرنُ العَظَمَةَ بالبساطة، ويعامِل**

الناس سواسيةً، بنفس القَدر من التهذيب والتقدير، سواءٌ كان محدِّثه رجلَ دولةٍ بارزًا أو طالبًا نكرةً. كلُّ مَن كان يوجّهُ له سُؤالاً جدّيًا كان واثقًا من الحصول منه على إجابةٍ".

ويذكر الدكتور إدوارد تومبسون، الذي استقبله في منزله في أُكسفورد، حيثُ تجمّع رهطٌ من الأساتذة والمفكّرين، وأمطروا غاندي بوابلٍ من الأسئلة المُحرجة: **"طوال ساعاتٍ ثلاث، تعرَّضَ لاختبارٍ صارمٍ، ولا ريب أنّ ذلك كان امتحانًا عسيرًا، ولكنَّه لم يرتبك قطُّ، ولم يفقد اتّزانه لحظةً واحدةً، ما رسّخ قناعتي بأَنّ العالَمَ، منذ سقراط، لم يشهد إنسانًا يساويه في سيطرته المُطلَقَة على ذاته، وفي رباطة جأشه...".**

وكان غاندي يهتبل تلك المناسبات كي يشرح لمستمعيه من البريطانيّين معاني اللاّعنف والعصيان المدنيّ، والاستقلال الذي تنشُده الهند، وتتمنّى معه استمرار علاقات تعاوُنٍ مع بريطانيا على أُسُسٍ من المساواة، وضمان الكرامة والحقوق، مؤكّدًا على ضرورة أن يكون الحبُّ هو أساس العلاقات بين الدول.

وزار غاندي منطقة لانكاشير، حيثُ تتركّز صناعاتُ النسيج التي كانت قد تلقّت ضربةً قاصمةً أصابتها بالشَلَل، من جرّاء حركة اللاتعاون، التي قادها المهاتما في الهند، وما واكبَها من إحراق للبضائع البريطانيّة، والتنكُّب عن استيرادها إلى الهند؛ وقد خَشِيَت السُّلطاتُ البريطانيّة من غَضَب العُمَّال الذين باتوا يُعانون، في أعقاب ذلك، من البطالة؛ ولكن، على نقيض تلك التوقّعات، لقيَ غاندي في كلّ ساحةٍ وكلِّ مُنعَطَفٍ، جُموعًا متراصَّةً جَذِلَةً برؤية "مستر غاندي"، وبتحيّته، ما حَمَل أحد الحرّاس المُكلَّفين بحمايته على التصريح بأنّ العائلة المالكة نفسها لم تحظَ، يومًا، بمِثل هذا الاستقبال الحاشد الحارّ؛ وقد كان غاندي صريحًا ومقنِعًا في حديثه مع عُمّال لانكاشير، إذ قال:

"ربّمَا أَنتم تُعانونَ من البطالة الآن، وإنّي، لذلك، شديد الأَسَف، بيدَ أنّكم لا تُعانون افتقارًا إلى الغذاء، ولا المجاعة، في حين نحن نعاني منهما بالإضافة إلى البطالة. إنّني أَتمنّى لكم كلّ خيرٍ، ولكنّني لستُ أَظنّ أنّكم تريدون بناء ازدهاركم على قُبور ملايين الهنود المُعدَمين"؛ إثرَ ذلك سُمع العديد من العمّال البريطانيّين يردّدون: **"الآن فقط قد فهمنا؛ إنّها لحُظوةٌ**

كُبرى أن رأينا وسَمِعنا مستر غاندي"، وكانت نساؤهم تتسابقنَ إلى وضع أطفالهنّ بين يدَي المهاتما التماسًا لبركته. ولا بدعَ في ذلك، فهو قد عرف كيف يُوقظ في قلوب الشعب البريطانيّ أَعمقَ وأنبلَ اَلْمَشَاعِر المسيحيّة، التي ترى، في جميع سُكّان الكرة الأَرضيّة، إِخوةً.

تلك الاتّصالات المباشرة بالشَّعب البريطانيّ، بكلّ فئاته، كانت تُفعم غاندي سعادةً، وقد صرّح: "**إنّ مُهمّتي هي خارج المؤتمرات. هذه اللّقاءات هي، لي، مؤتمر المنضدة المستديرة الحقّ**".

ومن الطريفِ ذكرُه أنّ الحكومةَ كانت قد عَهِدَت بمُهمّة حماية غاندي، أثناءَ إقامته في بريطانيا، إلى إثنَين من أَشدّ ضُبّاط سكوتلاند يارد بأسًا، وكلاهما من حَرَس العائلة المالكة؛ ولكنَّ غاندي، على نقيض الشخصيّات السِّياسيّة الأُخرى، لم يتجاهل ذَينكَ الرجلَين، ولم يُقِم بينه وبينهما حواجز، بل غدا لهما صديقًا، وزارهما في منزلَيهما؛ أمّا هما فقد شُغفا بذلك "الرجل النحيل"، ورافقاه في طريق عودته حتّى مرفأ برانديزي الإيطاليّ، حيثُ استقلَّ الباخرةَ قافلاً إلى بلاده؛ ومن الهند أَرسل إلى كُلٍّ منهما ساعةً، نُقِشت عليها عبارة: "مع محبّة م. ك. غاندي".

والواقع أنّ المهاتما كان قد يسّر على حارسَيه، إلى حدٍّ بعيدٍ، الاضطلاعَ بمُهمّتهما، بعد أن غزا قلوبَ البريطانيّين، الذين سَحَرَهم ذلك الرجلُ الضئيل الجسم، القادم من الشرق، في مثل زيّ المسيح، وأَسَرَهم ببساطته واستقامته الشفّافتَين، وحبّه الصادق لكلّ من يُصادفه. لقد قَدِمَ حاملاً رسالة المحبَّة، فذَهِلوا عن مواطن الخلاف التي تجعله في مَوقعِ خِصامٍ مع حكومتهم، وجاء بدافعٍ سياسيٍّ، ولكنّه بشخصيَّته الفَذّة، وسلوكه المتميِّز، كان، أبدًا، يُحلّق فوقَ مُستنقعات السياسة وأَجوائها؛ وكان يُعامل سواسيةً وبنفس القَدر من العفويَّة والصِّدق كبارَ القوم ودهماءَهم، مفكّريهم وعمّالَهم، الملك والملكة وأسقف كانتربري والأَولاد في الأزقّة الفقيرة، ويحادثهم جميعًا في عذوبةٍ آسرةٍ، ووداعةٍ جمّةٍ، ومَرَحٍ فيّاضٍ، غالبًا ما يعبّر عنه بضحكةٍ رنّانةٍ متفجّرةٍ من أعماقه.

وقد برّر غاندي، من بعد، عِبرَ حديثٍ له من الإذاعة الأَميركيّه، سرّ اهتمام العالم الغربيّ به، وبكفاح الهند من أجل استقلالها بقوله: "**إنّ الوسائل التي اخترناها للظَّفَر بهذا الاستقلال هي وسائل فريدةٌ. إنّ رُؤية الدماء المراقة تُصيب العالمَ**

بمَرَضٍ يكاد يقضي عليه، والعالَم ينشدُ الخلاص، وإنّني لأعتزّ بالاعتقاد أنّه قد يكون من امتياز أَرض الهند العريقة هَديُ العالَم المتعطِّش للسَّلام، إلى المخرج".

وفي طريق عودته إلى وطنه اجتاز غاندي كلاًّ من فرنسا وسويسرا وإيطاليا؛ فتقاطرت جماهير الناس إلى محطّات السِكَك الحديديّة يحدوها حُلُم رُؤيةِ الرَّجل الأسطورة، ولو من بعيدٍ، عبرَ نافذة إحدى عَرَبات الدّرجة الثالثة.

لدى وصوله إلى "محطّة الشمال" في باريس، كان حشدُ النَّاس من الكثافة بحيث اضطُرَّ المهاتما إلى اعتلاء عَرَبة نقلِ أَمتعةٍ ليتمكّن من مُخاطبتهم، ثمّ تحدَّث إلى جماهير متراصَّةٍ في إحدى دور السينما في العاصمة الفرنسيّة، وفي الغد يمَّم شَطر سويسرا حيث حَلّ ضَيَفًا على الكاتب الفرنسيّ "رومان رولان" الذي كان، في عام ١٩٢٤، أصدر كتابًا عن المهاتما، وَصفَه فيه بالقدّيس، وقال: "**إنّ غاندي يحتلُّ، في القداسة، مركزًا موغلاً في السُّموّ. إنّه شديدُ الطُّهر والتجرُّد من الأَهواء البهيميّة الغافية في حنايا كلّ إنسان**". وكان "رولان" قد وضع أبحاثًا حَولَ عِدَّةِ شخصيّاتٍ بارزةٍ، وقارَن، مثلاً، بين غاندي وتولستوي، فكتب: "**لدى غاندي كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ، متواضِعٌ، بسيطٌ، طاهِرٌ. وكلُّ معاركه يُقدِّسُها سكونٌ نفسيٌّ نابعٌ من التديّن، في حين أَنَّ كلّ شيءٍ لدى تولستوي ثورةٌ متعاليةٌ على الكبرياء، وحِقدٌ على الحِقد، وهوًى يُقارع الأَهواء. كلُّ شيءٍ لدى تولستوي عنيفٌ حتّى مذهبُه في اللاعنف**".

وقارن "رولان" أيضًا بين غاندي وطاغور، وكان هذا الأخير قد باح له بأن لا مكانَ له بين الجماهير، فصيحاتها تُصيبه بالدُّوار؛ أمّا إذا ما هو سَمِع نشيدًا فقيثارته تلتقط نغمة النَّشيد، فينضمّ إلى الجوقة، لأَنّه، بفطرته، مُنشِدٌ. أمّا غاندي فكانت صيحات الجماهير وآلامها هي التي تهزّ أَوتارَ نفسه، وعلى خدمة الجماهير وَقَفَ حياتَه.

وأثناء إقامته في سويسرا، خطب غاندي في جماهير محتشدةٍ، في كلٍّ من لوزان وجنيف، وقد حاصره المستمعون بالأَسئلة المُحرِجة، ولا سيَّمَا تلك التي كان يوجهّها إليه ملحدون، ولكنَّ غاندي ظلَّ أبدًا ساكنًا، "ولم تختلجْ عَضَلَةٌ واحدةٌ من عضَلات وجهه".

ومن الطَّريف ذكرُه أنّ اتّحاد مُنتجي الأَلبان في منطقة الليمان قد طالب بشرَفِ إطعام "ملك الهند" أثناءَ إقامته في ديارهم.

ثمّ عرّج غاندي على روما، حيثُ كان قد رفَض استضافة الحكومة له، إلاّ أنّه التقى موسوليني، بضعَ دقائق، وأَنذَرَه، بلا موارَبَةٍ، أنّ الفاشيَّة لن تلبث أن تنهار انهيارَ قَصرٍ من وَرَقٍ؛ وقد خلّف ذلك اللقاء في نفسه انطباعًا مُزعجًا. وكان المهاتما راغبًا في مقابلة البابا بيوس الحادي عشر، غيرَ أنّ أسبابًا مُبهَمةً قد حالت دون ذلك اللقاء. ولكنّه زار الـڤاتيكان، وتوقّف طويلاً أَمام صورة المصلوب، في "المصلّى السكستيني"، وبكى، وقد أَفضى لأمين سرّه، مهاديف ديساي، "إنّ المرء لا يقوى على مقاومة تأثّرٍ يبلغ حدَّ البُكاء" أمام منظر الصَّليب؛ وقد أعرب، لاحقًا، عن تمنّيه قضاءَ ثلاثة أشهرٍ في التملّي من مشاهدة لوحات الـڤاتيكان وتماثيله.

وعندما حطّ، أَخيرًا، قدميه، على أرض الهند، في صباح الثامن والعشرين من كانون الأوَّل ١٩٣١، صارح الجماهير التي خفّت لاستقباله: "**لقد عدتُ صِفرَ اليدَين، ولكنّني لم أُلوّث شرف بلادي**"، مُعبِّرًا بذلك عمّا خلّفه مُؤتَمر الطَّاولة المستديرة، في نفسه، من خَيبة أَملٍ، ولكنّه لم يكن يتخيّل أنَّ الأمور، في الهند، كانت على قَدرٍ من التجهُّم يتخطّى كلَّ توقُّعاته.

رسائل إلى الأشرم من "معبد يراڤدا"

لم يرجع غاندي من لندن حاملاً الاستقلال في راحتَيه، ولكنّه عاد بالكرامة الواثقة الشامخة: فهو أمام أرفع ممثّلي الأمبراطوريّة البريطانيّة، ظلَّ محافظًا على زيّ "الفقير" الناسك، وعلى إباء الحرّ الذي لا يتذلّل، ولا ينحني، ولا يساوم على استقلال بلاده؛ فغمرت نفوسَ الهنود مَوجةُ عزّةٍ كانت مسيرة الملح قد لقّنتهم طَعمَها، وأَثملتهم بنشوتها؛ ولا عَجَب، بالتَّالي، إن استقبلت جماهير الهند الكثيفة، بحماسٍ هادرٍ، رُجوعَ زعيمها، مع ما مُنِيَ به مؤتمر لندن من فَشَلٍ.

ولكن سُرعان ما أَطاحت بحرارة الاستقبال الصُّورةُ القاتمةُ عن الأحوال المُتَردّية التي سادت الهند، أثناءَ غياب غاندي، والتي بادر أصدقاؤه إلى رَسمها له، مذ حَطّ قدمَيه على رصيف بومباي، ففي غضون تلك الفترة كانت حكومة "ماكدونالد" قد ضمَّت إلى أعضائها عددًا من الوُزراء المنتمين إلى حزب المحافظين المتكالبين

على الاستعمار، ومنهم وزير الداخليّة، ووطَّدت العَزمَ على "قصم ظهـــر المـــؤتمر الوطنيّ الهنديّ"، ودبّرت، لذلك، خُطّةً مُحكَمةً، شرسةً، مُجدِيةً، استفادت من تجارب الاستعمار الطويلة في خَنقِ الحركات الوطنيّة؛ وكانت خُطوتهم الأولـــى إلـــى ذلـــك المرمى، استدعاءَ نائب الملك "إيروين"، الذي كان قد وقَّع مـــع غانـــدي علـــى أوّل معاهدةٍ استشفّ من خلالها الهنود ظَفَرهم بشيءٍ من حقـــوقهم، واســـتبداله بـــاللورد "ويلنجتون"؛ وأعقبوا ذلك بإعلان حالة الطوارئ، وبتَطبيق قوانينَ استثنائيّةٍ في عـــددٍ من المناطق الهنديّة، وشنّ حملة اعتقالاتٍ واسعةٍ تناولت العناصر الوطنيّة، وطالت، فيمن طالتهم، جواهر لال نهرو، والزعيم المسلم تصدُّق شرواني – الذي كان آنذاك رئيس فرع المؤتمر في المقاطعات المتَّحدة – فيمَا كانا في طريقهما إلـــى بومبـــاي لاستقبال غاندي، وذلك، يومَين قبلَ وُصوله إلى الهند، وكذلك الزعيم عبـــد الغفّـــار خان، وكثيرين آخرين من السَّاسة والزعماء وأعضاء المؤتمر البارزين؛ وفضلاً عن ذلك خوّلت السُّلطاتُ الاستثنائيّة الجيشَ حقَّ مصادرة الممتلكـــات والحـــسابات فـــي المصارف، والاعتقال التعسّفي، وعلَّقت صلاحيّات المحاكم، وحَظَـــرت التجمّعـــات والأَحزاب السياسيّة، وقيَّدت الصَّحافة وعرقلت نشرَها وتوزيعَها.

ومساءَ عودته من لندن، هاجَمَ غاندي، بعُنفٍ، أَمامَ مئات أُلوف مستقبليه، تلـــك التدابيرَ الهمجيّة، وتساءل، إن كانت تلك هي هدايا عيد الميلاد التي جادَ بهـــا نائـــبُ الملك المسيحيُّ، عَمَلاً بالتقاليد القاضية بتبادل الهدايا، في تلك المناسبة. ولـــم يكُـــن يعلَمُ، بعدُ، أنّ هدايا أُخرى، أَشدَّ مَكرًا، كانت ما تزال في طريقها إليه. وفي الغد بادَرَ إلى الإبراق إلى نائب الملك محتجًّا على تلك التدابير التعسُّفيّة، ومُقتَرِحًا لقاءً للتباحُث في أمرها؛ وقد أجاب نائب الملك أنّ تلك التدابير، المتَّخذة، بالاتّفاق مع حكومة لندن، لا سبيلَ إلى مناقشتها؛ ومن ثَمّ، أعلن غاندي للأمّة، في الثالث مـــن كـــانون الثـــاني ١٩٣٢، أنّ الحكومة قد صفقت البابَ في وجهه، وذلك قُبَيل أن تصفُقَ دونـــه بـــابَ سجن يراقـــدا، مرّةً ثانيةً، من غيرِ قرار اتّهامٍ، في اليوم التالي، الرابع مـــن كـــانون الثاني ١٩٣٢.

مثالٌ آخَر من مهازل السِّياسة: فَلأَسابيعَ خَلَت، كـــان مَلِـــكُ بريطانيـــا يـــستقبل

غاندي، في قصر بكنغهام، بحفاوةٍ وحرارةٍ، ويشربُ معه الشاي، وإذ بنائبه، في الهند، يزجُّ به في السِّجن، حالما يَعودُ إلى وَطَنه!

وعَقِبَت ذلك حملةٌ ضاريةٌ على المؤتمر، فأُغلقَت مؤسَّساتُه، واعتُقِل زعماؤه، وبلغ عدد المعتَقَلين السياسيين ١٤٨٠٠ في شهر كانون الثاني، و١٧٨٨٠ في شهر شباط، وفاضَ صدرُ تشرشل جَذَلاً!

ممّا خفّف من وطأة سجن غاندي وجودُ صديقه "باتل"، وأمين سرّه "مهاديف ديساي" إلى جواره، وهذا الأخير كان قد نُقِل من سجنٍ آخر ليمكث على مقربةٍ من معلّمه؛ وكم زجّى الرفاقُ الثلاثة من ساعاتٍ، في أحاديث ذات شُجونٍ، أصغى إلى بعضها رفاقُ السجن، بل بعض الحرّاس البريطانيّين أحيانًا، في جَمٍّ من المُتعة والتشوُّق! ساعاتٌ أُخرى طويلةٌ قضاها غاندي في المطالعة والتأمُّل، والكتابة، ما أتاح له الفراغَ من وَضع كتابٍ، على شكل رسائلَ موجّهةٍ إلى "أشرم سابرماتي"، أطلق عليه عنوانًا" من معبد يراڤدا". ولا بِدْعَ إن هو دعى السِّجنَ معبدًا، إذ كان حضورُ الله يملأ عليه، ثمَّة، ذِهنَه، وقلبَه، ووقتَه، ويشغل تفكيره؛ ومن تلك التأمُّلات خلص المهاتما إلى اليقين بأنَّ الله هو الكائن، وأنَّه الحقيقة الوحيدة، وأنّ كلّ ما سواه وَهمٌ: **"فيمَا لا ينفكّ كلّ شيءٍ من حَولي يتحوّل، ويموت، فإنّ كلّ تلك التحوُّلات تُخفي قدرةً حيّةً لا تتغيّر، تمسك بكلّ شيءٍ، تخلُقُ، وتُميتُ، وتخلُق من جديد. هذه القُدرة الخلاّقةُ هي الله. وسطَ المَوت، الحياةُ تستمرّ، ووسطَ الكَذِب، الحقيقةُ تستمرّ، ووسط الظُّلمات، النورُ يستمرّ. من ذلك أستخلص أنّ الله هو الحياة والحقيقة والحبّ. إنّه الحبّ. إنّه الخيرُ الأسمى"**، وعن إيمانه بالله كتب: **"إنّ الله أدنى إلينا من أظافرنا إلى جلدنا... قد تستطيعون اقتلاع عينيَّ، ولكنّ ذلك لن يقتلَني، وتستطيعون جدْعَ أنفي، ولكنّ ذلك لن يقتلني؛ أمّا إذا دمَّرتُم إيماني بالله، فإنّني سأموت"**. ولكأنّني بتلك العبارة صدًى لقول الإنجيل: **"لا تخافوا من الذين يَقتُلون الجَسَد، ولا يستطيعون أن يقتلوا النَّفسَ؛ بل خافوا بالحريِّ ممّن يقدر أن يُهلِكَ النفسَ والجسدَ كلَيهما في جهنّم"** (متى ١٠: ٢٨).

وراح غاندي يُقيِّم إنجازاته السِّياسيَّة، فاتّضح له أنّ جميع الأعمال التي قام بها،

وكان لها على الهند أَثَرٌ خيرٌ، إنّما كانت استجابةً "للصَّوت الخافت أبدًا"، الكامن في سريرة النفس، والذي هو الله. لقد كان يُلبّي نداءَه، وهو جاهلٌ بمَا سيُفضي إليه من عواقب، ولكن على ثقةٍ بالله الذي يدفعه، والمسؤولِ عن النتائج التي غالبًا ما جاءت مذهلةً، على حدِّ ما حَدَثَ في أعقاب مسيرة الملح.

أمّا الذريعة إلى توثيق العلاقة بالله، وإلى سماع همسه، فيكتشفها غاندي في الصلاة: "**الصلاة مفتاح الصباح، ومزلاج المساء... إنّها للنَّفس في مثل ضرورة الغذاء للجسد. لم أقم، قطُّ، بعَمَلٍ من غير صلاةٍ؛ وليس لصيغة الصَّلاة كبيرُ شأنٍ، بل كلُّ امرئٍ هو قانون نفسه في هذا المجال... ولكن الأفضل أن يُصلّي المرءُ بقلبه من غير كلامٍ، من أن يصلّي بكلامٍ، القلبُ عنه غائبٌ**".

بيدَ أنّ الطَّريق المؤدّية إلى الله لا مفرَّ لها من المرورَ عبر العمل؛ وقد أكّد، بهذا الشأن، لرجلِ دينٍ أميركيٍّ: "على من ينشُد الخلاصَ، أن يكون، في الصَّبر، مثلَ رجلٍ قابعٍ على شاطئ المحيط، جاهدًا في إفراغه، بواسطة قَشَّةٍ، يغترف بها قطرةً قطرةً". وهو، في ذلك، يخالف نظرة فئةٍ من المسيحيّين الذين يرون أنّ الخلاص ليس مكافأة جهدٍ فحسب، بل هو، في المقام الأوّل، نعمةٌ من الله مجّانيّةٌ، ورحمةٌ منه لا يستأهلها إنسانٌ مهما فعل.

إلاّ أنّ غاندي يلتقي بصميم تعليم المسيح الذي مثَّل نفسَه بالفقير والبائس والجائع والعريان والسَّجين: وهو يقول بهذا الصدد: "**لو كنتُ أستطيع إقناع نفسي بأنّني سأجد الله في أحد كهوف الهيمالايا، لخففتُ إليه في الحال. ولكنّني واثقٌ بأنّني لن أَستطيعَ العُثور عليه خارج البشريّة... وأَظنُّ أنّني أعرف ملايين إخواني. إنّني معهم في كلّ ساعات يومي؛ إنّهم همّي الأوّل والأَخير، ولستُ أعترف بإلهٍ سوى ذلك القابع في قلوب أولئك الملايين الصامتين**".

أمّا واجب عبادة الله الأَساسيّ، فيتمثّل في التزام الحقيقة "**الحقيقة في الفكر، والكلام والعمل... فالإخلاص للحقيقة هو مبرّر وجودنا الوحيد**". والقناعة الكبرى التي أفضى إليها غاندي، في أَواخر أيَّامه، هي أنّ "**الحقيقة هي الله**"، والسبيل إلى بلوغ الحقيقة هو التجرُّدُ من الأَهواء والأنانيّة والكبرياء: "**إذا ما ادَّعينا أنّنا شيءٌ ما،**

أقمنا حاجزًا بين الله وبيننا؛ ولن نتّحد بالله، إلاّ بإقلاعنا عن ذلك الادّعاء. إنّ قطرة ماءٍ في المحيط تشترك في عظمة من هي منه، ولو هي لم تُدرِك ذلك؛ ولكنَّها سُرعانَ ما تجفّ حالما هي تُباشر وجودًا مستقلاً عن المحيط".

والوفيّ للحقيقة لا يستطيع اِدِّعَاء احتكارها؛ ومن ثَمَّ يتعيّن عليه التنكّب عن العُنف في تعامله مع الآخرين، لا بل يتعيَّنُ عليه حبُّهم؛ والحبُّ السامي لا يتحقّق إلاّ بالعفّة، فالحبُّ الجنسيّ لا يخلُص أبدًا من الأَنانيّة، إلاّ ما كان منه يستهدف الإنجاب فحَسبُ.

إلى مثل تلك الفضائل كان غاندي يدعو إخوانَه في الأَشرم، ويُضيف إليها انتباذَ السَّرقة؛ والسَّرقةُ، في مهذبه، هي امتلاك كلِّ نافلٍ لا تدعو إليه حاجةٌ ماسّةٌ: "**إنّ الحضارة، في المعنى الحقّ للكلمة، لا تتمثَّل في مضاعفة الحاجات، بل في الحدّ منها حدًّا واعيًا طوعيًّا**". وقد طالما ردّد غاندي: "**إنّ القَلَق بشأن المُستقبل ضربٌ من الإلحاد... إنّ توفير المال لصالح أبنائنا لدليلٌ على انعدام ثقتنا بهم وبالله**". وأنّ التعلّق بالمال وبالممتلكات ناجمٌ عن الخَوف، والخَوف يُولّد أيضًا العُنف والسُّلوك الذَّميم، ومن ثَمَّ، فإنّ انتباذ الخوف هو مفتاح الحقيقة، والدربُ إلى الله، وإلى الحبّ، بل هو مَلِك الفضائل.

قليلون، في الأشرم وخارجه، أَفلحوا في تحقيق هذه المُثُل، التي دَأَبَ غاندي على بلوغها، وَوَقَفَ على ذلك الهدف كلَّ لحظةٍ من حياته، في جهدٍ دائبٍ متَّصلٍ.

صيامٌ حتّى الموت، من أجل "أبناء الله"

إلى جانب تأَمُّلاته، ورسائله إلى الأشرم، وعُكوفه على الغَزل عدّةَ ساعاتٍ كلَّ يومٍ، كان غاندي، في السجن، يستقرئ باهتمامٍ، ما تحمله الصحف من أنباءٍ. ومن الصُّحُف علِمَ، في مطلع شهر أيلول ١٩٣٢، أنّ الحكومة مُقدِمةٌ على إقرار دستورٍ جديدٍ للهند يقضي بانتخاباتٍ مستقلَّةٍ لكلّ طائفةٍ، مُرَسِّخةً بذلك نزعات التفرقة التي جهدت في تشجيعها، أثناء مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن. كان ذلك يحزّ في قلب غاندي المتلهّف إلى صهر الهند كلّها في بوتقة الوحدة والمحبّة المنزّهتين من كلّ طائفيّةٍ وفئَويّةٍ، ولكنّه كان يتقبّل ذلك التشريع على مَضَضٍ، طالما كانت تلك هي رغبة الطَّوائف المختلفة؛ غير أنّ ما رفضَ قبولَه رفضًا قاطعًا هو أن يُخصَّص

اقتراعٌ مستقلٌ للمنبوذين، الذين كان حريصًا على دمجهم بجماعة الهندوسيّين، من غَير تفرقةٍ ولا تمييزٍ، في حين أنَّ الدستور المقتَرَح كان قد حدَّد ٧١ مقعدًا للمنبوذين يحتلُّها مرَشَّحون منهم، ينتخبهم المنبوذون وحدهم. وقد رأى غاندي، في هذا التشريع، تكريسًا لوضع المنبوذيّة، وللخطيئة المميتة التي ارتكبتها الهندوسيّة بحقّهم سحابةَ قرونٍ طويلةٍ، وعاهد، هو، نفسَه على محوها، ولو دفع حياته ثمنًا لذلك.

وجديرٌ بالتذكير أنّ غاندي كان قد أطلَق على المنبوذين لقب "هاريجان" أي "أبناء الله" تعبيرًا عن حبّه وإيثاره لهم. كما يجدر بالتذكير، أَيضًا، أنّ عدد المنبوذين في الهند كان يربو على ستّين مليونًا، أي ما يناهز خُمس مجموع سكّان الهند. وكانوا يقاسون من الهوان أَلوانًا، ومن الظُّلم ما لا يُطاق؛ فلَمسُهم أَو الاقترابُ منهم كان يُعدّ رِجسًا، بل إنّ حتّى ظلّهم، إن وقع على إنسانٍ، كان يُنجّسه ويقتضي طقوسَ التطهُّر. وبالتالي فقد حُرّم عليهم ارتياد الأماكن التي يختلف إليها سائر الهندوسيّين مثلِ مدارسهم، ومشافيهم، ومعابدهم، بل حُظر عليهم استخدامُ الآبار التي يمتاح منها الهندوسيُّون ماءَهم، والسير في الطرقات التي يسلكونها؛ وليس من العسير تخيّل ما كانوا يُسامون من حَيفٍ، في وَسَطٍ مهووسٍ بطقوس التطهُّر. لقد كانوا يؤدّون الضرائب كاملةً أسوةً بالآخرين، ولكنّهم يُحرمونَ من كافّة الخدمات والامتيازات التي ينعم الآخرون بها؛ وقد فرِضت عليهم الأَعمالُ الوضيعةُ القَذِرةُ التي يأبى الهندوسيّون تعاطيها.

وكانت العقائدُ الهندوسيّة السائدة تُصوِّرُ المنبوذيّة مرحلةً ضروريَّةً من مراحل التطهُّر تمرّ بها النّفوسُ المتقمِّصة، فتكفّر بها عن خطايا ارتُكبت في حياةٍ سالفةٍ، وتتأهَّل بها للارتقاء إلى مرحلةٍ أسمى، ما جعل الهندوسيّين يتقبّلونها من غير أن يتوجّع لهم ضميرٌ، وكثيرين من المنبوذين أنفسهم يتقبّلونها أَيضًا على أنّها قَدَرٌ مرحليٌّ لا مفرَّ من اجتيازه من أجل العبور إلى مرحلةٍ أفضل.

ولكنَّ غاندي كان مُؤمنًا بأنّ كلّ تلك التقاليد لم تكن من صميم الهندوسيّة في شيءٍ، بل كانت وَرَمًا خبيثًا نشب في جسمها وتأَصّل واستشرى مع الأيّام، حتّى غدا واقِعًا ماثلاً، قلَّ مَن يُجادل في سلامته؛ وقد استولى عليه شعورٌ مُلازِمٌ بواجب استئصاله.

إلى مؤتمر الطاولة المستديرة بلندن، كانت الحكومة البريطانيّة قد استدعت مُمثِّلاً عن المنبوذين، هو "الدكتور أمبيدكار"، وهو رجلُ قانونٍ ضليعٌ، يتمتّع بخبرةٍ دوليّةٍ، جبَّار الجسم والعقل، شديد المراس. كان أبوه وجَدُّه قد خدما في الجيش البريطانيّ وأَورثاه حِقدًا مستعرًا على الهندوسيّين، لِمَا قد طالما ألحقوه بأسلافه وإخوانه المنبوذين من حَيفٍ وهوانٍ، حِقدًا تراكم طوال أجيالٍ، وتعاظم إلى أن أمسى بحجم الهيمالايا؛ ولا بدع، بالتَّالي، أن يكون "الدكتور أمبيدكار" يُؤثر السَّيطرة البريطانيّة على السَّيطرة الهندوسيّة؛ وقد جال بخَلَده، يومًا، أن يدفع طائفةَ المنبوذين بأكملها إلى اعتناق الإسلام، اثّارًا من الهندوسيّة، ونقعًا لغلّه من مظالمها.

وفي مؤتمر الطاولة المستديرة كان الدكتور أمبيدكار قد دافعَ ببلاغةٍ وحرارةٍ عن حقّ المنبوذين في اقتراعٍ مستقِلٍّ عن الهندوسيّين، وقاومَه غاندي، لا انتقاصًا من حقوق المنبوذين، بل لأَنّه كان يتوخّى لهم وضعًا أَفضل، واندماجًا كاملاً بالطائفة الهندوسيّة، يزيلُ، إلى الأبد، وصمةَ العار التي تُذِلُّهم، وتَدين الهندوسيّة معًا.

وللحؤول دون إقرار تشريعٍ كان خليقًا بتخليد عار المنبوذيّة، كان غاندي، بتاريخ الحادي عشر من آذار ١٩٣٢، قد سارع إلى الكتابة، من سجنه، إلى وزير الدولة البريطانيّ لشؤون الهند، مبيّنًا المخاطر الأَدبيّة التي ينطوي عليها إقرار انتخابٍ مستقلٍّ لكلٍّ من المنبوذين وسائر الهندوسيّين، ومؤكِّدًا أَنّه، لو أُقِرّ ذلك التشريع، لاضطرّ إلى الصَّوم، حتّى الموت، ومُضيفًا أنّ هذه الخطوة ليست، من قِبَله، أسلوبًا سياسيًّا، بل هي جزءٌ صميمٌ من كيانه وإيمانه. وقد ردَّ عليه الوزير بأنّ أيَّ قرارٍ نهائيٍّ بذلك الشأن لم يُتّخذ، بعدُ، وأَنّ اقتراحَه سيكون موضعَ بحثٍ واهتمامٍ. وظلّ الأمرُ على هذه الحال من الإبهام، إلى أن أَعلنَ ماكدونالد، رئيسُ الوزارة، في السابع من آب ١٩٣٢، أَنّ حكومته عازمةٌ على إقرار نظام الاقتراع المستقِلّ لجميع الفئات والطَّوائف، بمَا فيها فئة المنبوذين.

وفي الحال كتب غاندي إلى ماكدونالد: "**إنّني مضطَرٌّ إلى مقاومة قراركم بحياتي، وسيلتي الوحيدة إلى ذلك هو إعلاني عن صَومٍ يستمرُّ حتّى الموت، بامتناعي عن كلّ طعامٍ باستثناء الماء الصِّرف أو الممزوج بالملح أو بكربونات الصوديوم**". وحدَّد ظُهرَ يوم العشرين من أيلول موعدًا للشروع بذلك الصوم.

وجاءَ ردُّ رئيس الوزراء البريطانيّ مستفيضًا ومؤكِّدًا أنَّ التشريع المقترَح إنّمَا هو يستهدف الحفاظ على حقوق المنبوذين في التمثيل، على قدم المساواة مع سائر الفئات، وفقًا لما قد طالما سعى إليه غاندي نفسه، وناضل من أجله، رفعًا للحيف اللاّحق بتلك الفئة المسحوقة. وأَجابَ غاندي مُوضحًا، للمرَّة الأَخيرة، أنَّه لا يُعارض تمثيلَ المنبوذين في المجالس التشريعيّة، على أَرفع مستوًى وأوسع نطاقٍ، وإنّما هو يُقاوم تأكيدَ عَزلهم عن صميم الهندوسيّة، بتشريعٍ من شأنه القضاءُ على جهود الإصلاح الرامية إلى دمجهم بالهندوسيّين دمجًا كاملاً لا أثر فيه للتفرقة؛ وأَوضح أنّ القضيّة، بالنِّسبة له، هي قضيّةٌ دينيّةٌ صرِفٌ، لا أَثرَ فيها للمُناورات والحسابات السياسيّة.

لقد كان جليًّا أنّ الحكومة البريطانيّة، حتّى لو فُرضت فيها سلامة النوايا حيال تمثيل المنبوذين، كانت عاجزةً عن فَقهِ دوافع غاندي العميقة؛ وهي لم تكن، في ذلك، الوحيدة، إذ أَصاب موقفُ غاندي الكثيرين من الهنود بالحَيرة؛ وقد عبَّر جواهر لال نهرو نفسه، الذي كان، هو أيضًا، آنذاك، نزيل السجن، عن تبرّمه من سلوك غاندي الذي يُقحم الله والدِّين، في كلّ شيءٍ، ويُخاطر بحياته في سبيل قضيّةٍ ثانويّةٍ مثل تمثيل المنبوذين، ذاهلاً عن القضيّة الأساسيّة، قضيَّة الاستقلال.

وربّمَا كان من دوافع تبرّم نهرو، موجةُ التشاؤم والتخاذُل التي اجتاحت صفوفَ المناضلين، في أعقاب حملة القمع الضارية، الواسعة النطاق التي شنَّتها الحكومة، فضلاً عن استمالتها زعماء بعض الأَقلّيّات الذين أَغدقت عليهم وعودَ الامتيازات، كي تزيد من الشقّة بين أبناء الوطَن الواحد، وتعمِّقَ هُوى الفُرقة الكفيلة بتمكينها من إحكام سيادتها.

وهذا ما كان قد عبَّر عنه نهرو في مزيجٍ من الألم والأَمل، ومن المرارة والرجاء، إذ كتب:

"إن كان، ثمّة، من ينحاز إلى جانب العدوّ أو يفاوضه، فهذا الواقع يُبرز مقدار الأذى الأَدبيّ الجسيم الذي تتحمّل وزرَه السَّيطرةُ البريطانيّة، تلك التي أقنعت أولئكَ الممالئين لها بتقبيل العصا التي تهوي عليهم، والقيودِ التي في أغلالها يرسفون. بعضُ أولئك المواطنين المخدوعين، السادرين في غيّهم، قد آثروا التخلّي عن وطنهم، آنَ هو في حاجةٍ إليهم، وراحوا يفاوضون الأمبرياليّة البريطانيّة. ولكنّ

الوطن بقيادة غاندي، وبوحي منه، قد اختار دَربًا آخَر سيواصل عليه المسير حتّى النّصر النهائيّ. فبينَ العُبوديّة والحرِّيَّة، بين الحقيقة والخِداع، ليس من حَلٍّ وسَــطٍ مُمكنٍ. إنّنا نُدرِك أنّ ثمن الحرّيّة هو الدماءُ والآلام: دمـــاءُ إخواننـــا، وآلامُ أنبــل مواطنينا. وهذا الثمن سنؤدِّيه بالكامل.

"**إنّ العالَم يقف شاهدًا على آلام شعبنا وتضحياته على مذبح الحرّيّة، وعلى ما تبديه نساؤنا من جُرأةٍ رائعةٍ، وفلاّحونا البواسل من عزيمةٍ لا تُقهر. لقد تمرّســوا بالإيمان الذي أوحاه إليهم قائدنا، وبالثّقة بأَنفسهم وبقضيّتهم، وحَرَمــوا أنفــسهم، طَوعًا، الملذّات المادّيّة، وممتلكاتهم، كي يُدوِّنوا أبلغَ الفصول تأثيرًا، وأوفرها تألُّقًا، في تاريخ الهند الطويل**".

وحِرصًا على بقاء جُذوة النِّضال متّقدةً، ومنارةِ غاندي مُشعّةً، أَعربَ نهرو عن تبرُّمه، لتوهُّمه أنّ المهاتما التهى، بالجزئيّات، عن قضيّة الاستقلال الكُبرى، وعرَّض نفسَه للموتِ في سبيل هدفٍ هزيلٍ.

ولكن سُرعانَ ما تبيّن نهرو، ومن حذَوا حَذوَهُ في اتّهام غاندي، أنَّهم كانوا على ضلالٍ في ما ذَهَبوا إليه، وذَهِلوا عن أيّ ساحرٍ فريدٍ كان المهاتما، الخبير في مــسّ أوتار النفوس، وفي اختيار أكثر المناسبات النفسيّة مؤاتاةً لإحداث انقلابٍ في الأَذهان والقلوب والإرادات. فها هو صيامُه قد جاء ليُوقظ مُواطنيه من صدمتهم، بصدمةٍ أَشدَّ عنفًا، ويشدَّ أوتار إراداتهم المتخاذلة، في طول البلاد وعرضها.

لقد كان بوسع غاندي، في مؤتمر المنضدة المستديرة في لندن، الاتّفاق مع أكثر ممثّلي المنبوذين تشدُّدًا، مثل الدكتور أمبيدكار، على منح المنبوذين ما يطلبونه مــن مقاعدَ في المجالس التشريعيّة، وامتيازاتٍ انتخابيّةً، ولكنّ مثل هذا الاتّفاق لم يكن من شأنه أن يُبدِّل شيئًا من المواقف الدهريّة المتجمّدة لدى الهندوسيّين، حيالَ المنبــوذين. كما كان بمُكنَةِ غاندي القُبول بمشروع التشريع المقترَح، الذي كان، في ظاهره، يُوفّر للمنبوذين بعضَ الحقوق التي قد طالما حُرموا منها. بيدَ أنّ غاندي كان واثقًا مــن أنَّ مثل هذا التشريع القَسريّ، فضلاً عن تعميقه للهُوَّة القائمة بــين المنبــوذين وســائر الهندوسيّين، من جرَّاء إقرار اقتراعٍ مستقلٍّ لكلٍّ من الجماعتين، كان سيُفــضي إلــى

مُضاعفة تصلُّب الهندوسيّين حيالَ المنبوذين، وإسعارِ ضغينة المنبوذين على الهندوسيّين. وإنّما غاندي كان يتوخّى إعتاقَ المنبوذين من اللّعنة اللاّحقة بهم، ومن الحَيف الذي قد طالما لازَمَهم، وإعتاق الهندوسيّين أنفسهم من وَصمة الخِزي التي تمهر سُلوكهم، لدَأَبهم على سَوم فئةٍ عريضةٍ من إخوانهم خَسفًا مهينًا، مدى قرونٍ طويلةٍ، بحجّة ذريعةٍ دينيَّةٍ يُنكرها كلّ دينٍ صحيحٍ.

مثل ذلك التحوُّل الجوهريّ، لم يكن لاتّفاقٍ بين زعيمَين، أو لقرارٍ حكوميٍّ، قِبَلٌ بتحقيقه؛ بل كان لا مندوحةَ من انفجاره من مَطاوي النفوس، ومكَامن الوِجدان، وعلى أَوسع نطاق. كان لا بدَّ له أن ينبعُ من انقلابٍ نفسيٍّ؛ وغاندي كان عليمًا بالنفاذِ إلى أغوار النفوس بوسائل التضحية، والحبّ، والصوم حتّى الموت. "**غاية صيامي،** قال غاندي، **هي حثُّ ضمير الهندوسيّين على القيام بعملٍ دينيٍّ حقٍّ**".

وفي ١٣ أيلول ١٩٣٢ أعلن المهاتما أنّه، ظُهرَ يوم العشرين من أيلول سيشرع بصيامٍ حتّى الموت إلى أن يُلغى كلّ ما يُعَبِّر عن تفرقةٍ بين المنبوذين وسائر الهندوسيّين. وفي الحال، نشطت، بين مختلف الزعماء، اتّصالاتٌ لم تكن الهندُ قد شهِدت، قطُّ، لها مثيلاً من قبلُ، بُغيةَ تحقيقِ ما توخّاه غاندي من إصلاحٍ يمحو، إلى الأَبد، وَصمةَ المنبوذيّة. وأعلنت فئاتٌ عديدةٌ يومَ العشرين من أيلول يومَ صومٍ وصلاةٍ، توسُّلاً لإنقاذ حياة الزعيم الغالي؛ كما أنَّ السُّلطات استجابت لسَيلٍ من المطالبات بإفساح الفرصة لزيارة المهاتما، فأَشرعت باب السِّجن للزعماء الراغبين في التفاوُض معه، وللصحافيّين الذين يَودّون مقابلته.

يومَ العشرين من أيلول ١٩٣٢، أَفاقَ غاندي في الساعة الثانية والنصف صباحًا، واستهلَّ نهارَه بكتابة رسالة إلى الشاعر طاغور، مُلتَمسًا تأييدَه، في ما عَزمَ عليه أمرَه، ولكنّه ما كاد يفرغُ من كتابة الرسالة حتّى جيءَ إليه ببرقيّةٍ من طاغور يقول فيها: "**إنّ وحدة الهند وتكامُلَها الاجتماعيَّ لجديران بتضحية حياةٍ ثمينةٍ... أَرجو بحرارةٍ إلاّ يُفضي تصلُّبنا بمثل هذه المأساة الوطنيّة إلى نهايتها القصوى. قلوبُنا القَلِقَة تُتابع، في احترامٍ وحبٍّ، تكفيرَكم السَّامي**"؛ وردَّ غاندي شاكرًا للشاعر: "**برقيّتكم الودّية الرائعة التي ستكون لي سَنَدًا وسط العاصفة التي أوشك أن ألج في معمعانها**".

وفي ذلك اليوم أَلقى طاغور خطابًا في مدرسة "شانتينيكيتان"، قال فيه: "**إنّ ظلالاً تُخيِّم اليومَ فوق الهند، تحاكي ما يُحدثُه كسوفُ الشمس. لقد استَحوَذَ على شعب البلاد بأكمله قلقٌ مُمِضٌّ يُمثِّل، بشموله، عزاءً كبيرًا وجليلاً. إنّ مهاتمانا العزيز، الذي، سحابةَ حياته، قد جعل من الهند قضيَّتَه، حقًّا، قد باشر بالتضحية القُصوى التي كان قد أعلن عنها... إنَّ التكفيرَ الذي فرضه المهاتما على نفسه ليس طَقسًا من طُقوس العبادة، بل هو رسالةٌ، موجَّهةٌ إلى الهند بأجمعها، وإلى العالَم... ليس بوسع أيِّ مجتَمعٍ مُتحَضِّرٍ أَن ينهض فوق ضحايا امتُهنت إنسانيّتهم امتهانًا مستمرًّا... إِنَّنَا نمتَهنُ إنسانيّتنا عندما نذِلُّ إنسانًا لا يقوى على الدفاع عن نفسه، ويختلف عنّا... لقد طالما أكّد مهاتمانا العزيز، وبلا هوادةٍ، على ما تنطوي عليه مظاهر الشِّقاق تلك من أخطارٍ على بلادنا... وفي وجه هذا الوَهَن الأخلاقيّ، العميق الجذور في مجتمعنا، قد أَطلق مهاتمانا العزيز إنذارَه وتحدّيه**"...

وقد أوضح طاغور أنّ البريطانيّين عاجزون عن إدراك معنى سلوك غاندي لأنّ منطقه غير منطقهم؛ وذكَّر الإنكليز بحمّامات الدِّماء التي سفكوها حُؤولاً دون انفصام إيرلندا عن بريطانيا، في حين أنّ غاندي، رسولَ اللاعنف، قد أَقدمَ على التضحية بحياته فحسبُ، توثيقًا لعُرى الوحدة بين فئات الهند.

وأَكَّد طاغور أنَّ القُشَعريرة تسري في ظهر الأمّة، لمجرَّد التفكير في احتمال موت غاندي، من جرَّاء الصّيام. وبالتالي فإنّ كلَّ هندوسيٍّ سيُعَدُّ قاتلَ المهاتما ما لم تُبذَل كلُّ الجهود في سبيل إنقاذه.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من العشرين من أيلول، كان غاندي قد تناول وجبةَ طعامه الأَخيرة، قبل الصيام، وقوامُها شيءٌ من عصير الليمون، وبعض العسل الممزوج بالماء الساخن، في حين أنّ ملايين الهنود، في شتّى أرجاء الهند كانوا يصومون سحابةَ أربعٍ وعشرين ساعةً، تضامُنًا مع مهاتماهم، وابتهالاً لإنقاذ حياته الثَّمينة.

وطوالَ صيامه، كان غاندي مستلقيًا على سريرٍ حديديٍّ أَبيض، في باحة السِّجن، تحت ظلّ شجرة مانجا صغيرةٍ، وإلى جواره أَمينُ سرّه "مهاديف ديساي"، والزعيم

"باتل" والشاعرة "نايدو" التي جيء بها من سجن النِّساء للعنايـــةِ بـــه؛ وإلـــى جانبـــه انتصبت مِنضَدَةٌ تعلوها بعض الكتُب، وأَوراقٌ للكتابة، وزجاجةُ ماءٍ، وبعض الملـــح وبيكربونات الصوديوم.

خارجَ السِّجن كان زُعماءُ شتّى الفئات دائبين على مفاوضات حثيثةٍ ســعيًا وراء مخرجٍ للأزمة؛ وكان مُمثّلو الهندوسيّين يقبلون، ساعةً فساعةً، مزيدًا من التّنـــازلات التي لم تكن، لأيّامٍ خلت، تخطر لهم ببالٍ. أمّا مُمثّلو المنبوذين فكانوا فئـــاتٍ رئيـــسةً ثلاثًا: منهم أتباع غاندي وهمُّهم الأَوحد إنقاذ نصيرهم، والمعتدلون السَّاعُون إلى حلٍّ وسطٍ، والمتصلِّبون، بزعامة الدكتور أمبيدكار، الذي كـــان يتـــوخّى الاتّئـــارَ مـــن الهندوسيّين وإذلالَهم غير حافلٍ بحياة غاندي أو بموته، بحيثُ كان كلّما ظَفِر بتنازلٍ، طالبَ بالمزيد.

كان غاندي، حتّى عشيّةِ صيامه، يُعارِض مبدأَ تخصيص عدَدٍ معيَّنٍ من المقاعد للمنبوذين، لأَنَّه كان حريصًا على اعتبار المنبوذين والهندوسيّين كُتلَةً واحدةً مُتضامنةً ينبغي أن تخلو من كلّ أَثَرٍ للتفرقة. ولكنّه، قُبَيل صيامه، تماشى مع رغبـــة بعـــض زعماء المنبوذين، الذين كانوا يخشون الضَّياع، وَسط أَكْثَرِيَّة الهندوســيّين، بحيـــثُ يذوب تمثيلهم؛ كما كانوا يخشون، في حال اقتراعٍ موحّدٍ يشترك فيه المنبوذون مـــع سائر الهندوسيّين أن يُستَبْعَد المُرشّحون من المنبوذين المعروفون بمواقفهم المتـــشدّدة في مكافحة المنبوذيّة. ومنذُ أوّل صوم غاندي تفتّق ذهن "ســـابرو" – وهـــو زعـــيمٌ للمنبوذين معتدلٌ – عن حلٍّ وسَطٍ يقضي بأَن تكونَ، ثمّةَ، قائمتان؛ قائمـــة مـــشتَركة تضمُّ هندوسيّين ومنبوذين، وينتخبُها هندوسيّون ومنبوذون معًا، وأُخرى من المنبوذين فحسب، يُحدّد أفرادَها المنبوذون وحدَهم، في اقتراعٍ تمهيديٍّ، ويرشّحونَ، فيها، لكـــلّ مقعدٍ مخصَّصٍ لهم، ثلاثةً من مُناضليهم الأَشدّاء، ويُحتّمَ على المقترعين الهندوســيّين والمنبوذين، في الاقتراع الموحَّد النهائي، انتخاب أحد هؤلاء الثلاثـــة، لكـــلّ مقعـــدٍ. وهرع الزعماء السياسيّون إلى سجن براقـــدا، للظَّفَر بموافقة غانـــدي علـــى ذلـــك المشروع، فطالبهم بعرضِه خطّيًّا، للتمكّن من بحثه بإمعـــانٍ، كمـــا طالـــبَ بمقابلـــة الدكتور أمبيدكار، وزعيمٍ آخَرَ للمنبوذين، قبلَ الإدلاء برأيه.

وفي الثاني والعشرين من أَيلول، شَخَص الدكتور "أمبيدكار" إلى باحة السجن. وجلَس إلى جانب سرير غاندي، وأَعرَب عن رغبته في إنقاذ حياة المهاتما، ولكنّه شرَطَ الظَّفرَ بمكافأة. ولدى سماعه هذا الشَّرط، نَهَضَ غاندي بعناءٍ – وكان الإعياء قد بلغ منه مبلغًا مُقلقًا – وذكَّر الدكتور أَمبيدكار بكفاحه في سبيل "أبناء الله" أو "الهاريجان" وبحِرصه على حقوقهم، وفاجأَ الجميعَ بإعلانه أنَّ مشروع "سابرو" لم يرُق له، إذ إنّه قضى بانتخاب فئةٍ من المرشَّحين المنبوذين من قِبَل المنبوذين أنفسِهم، في حين هو يوكل للاقتراع المشترك الهندوسيّ المنبوذيّ، انتخابَ الفئة الأُخرى منهم؛ وارتأى غاندي، بدلَ ذلك، أن يُعيَّنَ جميعُ المرشَّحين المنبوذين، في الانتخاب التمهيديّ، من قِبَل المنبوذين أنفسِهم، لكي لا يخشى أحدٌ من "الهاريجان" شيئًا من المُقتَرِعين الهندوسيّين، ولا يكون مَدينًا لهم بشَيءٍ؛ بيدَ أنّه ارتأى إلغاء الانتخابات التمهيديّة، في غضون سنواتٍ خمسٍ، لأنّه كان يتلهّف إلى مَحوِ جميع آثار المنبوذيّة، قبل مُضيِّ خمس سنواتٍ، ودمج الهندوسيّين و"الهاريجان" في كُتلةٍ واحدةٍ مُتراصّةٍ، لا أَثر فيها لتفرقةٍ أو تمييزٍ.

عندما شخص الدكتور أمبيدكار إلى السِّجن، كان يتخيَّلُ أنّ غاندي سيُساومه، وأَنَّ أصدقاء غاندي سيتوسّلون إليه كي يُليِّنَ موقفه، فإذا بغاندي يمضي في مناصرته للمنبوذين إلى أَبعدَ ممّا كان أَحَدٌ يتصوَّر، ومع ذلك، استمهل الدكتور أَمبيدكار، ريثمَا يُشبع اقتراحَ غاندي دراسةً.

في غضون ذلك، كان وضع المهاتما الصحّي يتفاقَم سوءًا؛ وقد لوحظ أنّه، خلافًا لأصوامه السابقة، كان يَصدُف عن تناول الماء بانتظامٍ. ولا يُطيق أن يُمسّد أحدٌ جسدَه، ممّا كان يُضاعف من وَهَنه وإعيائه وآلامه؛ ولكن، في ٢٢ أيلول، جيءَ بزوجته، كاستورباي، من سجن سابرماتي، إلى سجن بيراقدا، كي تُعنى به. وعندما رآها، شاعت البسمة على شفتَيه، ورضيَ أن تُمسِّدَه، وأن يُمَسّدَه، أيضًا، أَخصائيٌّ مُحترِفٌ، إرضاءً لها.

في ٢٣ أيلول فحصه اثنان من كبار أطبّاء بومباي، وأَعلنا أنّ حالته قد أشفَت على الخَطَر المؤكَّد، إذ إنّ ضغطَ دمه قد ارتفع إلى حدٍّ مُقلِقٍ، بحيثُ بات موتُه متوقَّعًا، في كلّ لحظةٍ.

وفي ذلك اليوم عينه، أَخَذَ الدكتور أمبيدكار يُضاعف رهانه، فبدل ٧١ مقعدًا مخصَّصًا للمنبوذين، بموجب مشروع القانون البريطانيّ، طالبَ بمئةٍ وسبعةٍ وتسعين مقعدًا؛ وعوضًا عن ثلاثة مرشّحين لكلّ مقعدٍ، وفق مشروع "سابرو" أو خمسة مرشّحين، وفق اقتراح غاندي، أَصرَّ على الاقتصار على مرشَّحَين اثنين؛ وبدلاً من إلغاء الانتخاب التمهيديّ للمنبوذين، في غضون خمس سنواتٍ، حسبَ رغبة غاندي، أَصرَّ على تحديد تلك المهلة بخمس عشرة سنةً، إذ إنّه لم يكُن يُؤمن بإمكان محو المنبوذيّة، في مثل تلك الفترة الوجيزة. وزار الدكتور أمبيدكار غاندي بعد ظهر ذلك اليوم، إلاّ أنّ محادثاتهما لم تُسفر عن أيّ اتّفاقٍ.

في ٢٤ أيلول، اليوم الخامس مذ باشر غاندي صيامه، استأنفَ الدكتور أَمبيدكار مفاوضاته مع الزعماء الهندوسيّين، الذين وافقوه على رفع عدد المقاعد المخصَّصَة للمنبوذين من ٧١ إلى ١٤٧ مقعدًا؛ ورضي الدكتور أمبيدكار بإلغاء الانتخابات التمهيديّة الخاصة بالمنبوذين بعد فترة عشر سنوات. ووافق غاندي على جميع الحلول التي أَجمعت عليها الآراء، غير أنّه ظلَّ مُتشبّثًا بموقفه من إلغاء الانتخابات التمهيديّة الخاصَّة بالمنبوذين بعد خمس سنواتٍ، لا تزيد، لأنّه لم يكُن يُطيق فكرة بقاء آثار المنبوذيّة، فترةً أطول من ذلك، وأعلن بصراحةٍ: "**خمس سنوات، أو حياتي**"؛ بيد أنّ الدكتور أمبيدكار كان أَشدَّ منه إصرارًا على مدّ تلك المهلة إلى عشر سنواتٍ.

كانت حياةُ غاندي قد أمست على شفا النهاية، والطريق تبدو مسدودة المسالك، عندما ومض الحلُّ في ذهن الزعيم الهندوسيّ "راياجو بالاتشاري"، الذي اتَّفَقَ مع الدكتور "أمبيدكار" على أن يُحدَّد زمن إلغاء الانتخابات التمهيديّة الخاصّة بالمنبوذين أثناءَ مفاوضاتٍ لاحقةٍ، بحيثُ يبقى الأَمر مُعلَّقًا ومُبهَمًا، تفاديًا لتصلُّب الطرفَين. وهرعا، كلاهما، إلى غاندي فأَبلغاه اتّفاقهما، ويبدو أنّ المهاتما كان في ما يُشبه الغيبوبة، فرجاهما أن يُعيدا على مسامعه فحوى ما اتّفقا عليه، فكرّرا القول. حينئذٍ هزّ الصائم الكبير رأسه، إشعارًا بموافقته، وربَّمَا هو لم يفقه قولهما جيّدًا. إلاّ أنّه أبلغهما أنّه لن يَضَع لصيامه حدًّا، حتّى تتبنّى السلطات رسميًّا جميع التّعديلات التي تمّ حولها الاتّفاق.

وفي الحال التَأَم مُمثّلون عن جميع الأطراف، فوقَّعوا على ما سُـمّي "معاهـدة بيراقــدا" وقد خلا منها توقيع غاندي الذي كان روحها وباعثها؛ ثـمَّ أبرقـوا نـصَّ المعاهدة إلى لندن، حيث كان الزعيم الهندي "بولاك"، والمرسَل البريطانيّ، صـديق غاندي "أندروز"، وسواهما، جاهدينَ في دفع الحكومة إلى اتّخاذ خُطُـواتٍ سـريعةٍ، كفيلةٍ بانتزاع أيّام غاندي الثمينة من براثن الرّدى؛ ونشب سباقٌ لاهثٌ مـع الـزمن: فاليومُ كان يومَ أحدٍ، ورئيسُ الوزراء ماكدونالد يقضي إجازتَه في الريـف، وكـذلك وزراؤه؛ ولكنَّهم ما إن أُنبئوا بمعاهدة بيراقـدا، حتّى هرعوا إلى العاصمة، وانكبّـوا على دراستها، حتّى الساعات الأولى من صباح يوم الإثنين.

في تلك الأثناء، كانت حياةُ غاندي تحبو نحو نهايتها، وقـد أشـار المهاتمـا علـى كاستورباي، زوجته، بجمع بعض أشيائه الخاصّة، لتأخذها إثر رحيله، وخفّ شاعر الهند، طاغور، إلى جوار صديقه المُحتضِر، وراح يُنشِد على مسامعه مقتطفاتٍ من قصائده، ما أفاض على نفس المهاتما، غيثًا من الراحة والاسترخاء؛ وسُمِحَ لبعض أصدقاء غانـدي، بالعزف على آلاتٍ موسيقيّة، وبترتيل ترانيم دينيّةٍ، فشاعت بسمة رضًى على وجه الصّائم الكبير الذي شَكرَ لهم صنيعَهم بإيماءةٍ من رأسه. إذ إنّه كان قد بات عاجزًا عن الكلام.

ولكن، صبيحةَ يوم الإثنين، أُعلِنَ في كلٍّ من لنـدن ونيـودلهي عـن تـصديق الحكومة لمعاهدة بيراقـدا، وغدا في مُكنة غاندي إيقاف صيامه. وهكذا، في الساعة الخامسة، والدقيقة الخامسة عشرة من بعد ظهر يوم الاثنين، السادس والعشرين مـن أيلول ١٩٣٢، وبحضور طاغور، وباتل، ومهـاديف ديـساي، والـشاعرة نايـدو، والمفاوضين الهندوسيّين و"الهاريجان"، وعدَدٍ من الصحافيِّين، تناولَ غاندي من يـد كاستورباي، كوب عصير برتقالٍ، فيمَا كان طاغور يُنشِد تراتيل بنغاليةً، والـدموعُ تفيض صامتةً، جَذلى، من عيون الحضور.

وفي ذلك اليوم، عَقدَ الدكتور أمبيدكار مؤتَمرًا صحفيًّا أَعلن أَثناءَه: **"لا بدّ لي من الاعتراف بأنّني قد فوجئتُ، بل فوجئتُ جدًّا، مفاجأةً كبرى، عندما قابلـتُ غانـدي، وتبيّنتُ كم من النقاط المشتركة تجمع بيننا. وفي الواقع، عنـدما عُرضـت عليـه مواضيع الخلاف – وقد أوضح لكم السيّد "تي بيهادور سـابرو" كـم كانـت تلـك**

الخلافات المطروحة شاقّةً – دهشتُ كيف بادرَ الرَّجُلُ إلى مساندتي، مخالفًا مواقف الطَّرَف الآخر، مع أنّه، في مؤتمر الطاولة المستديرة، كان قد عبَّر عن آراء مغايرةٍ لآرائي. إنّني مَدينٌ حقًّا بالشكر لمهاتمانا العزيز لأنّه أخرَجني من مأزِقٍ كان بوسعه أن يكون حرِجًا... ولكنّني آسفٌ لأنّ المهاتما لم يقف هذا الموقف منذ مؤتمر الطاولة المستديرة، إذن لكان وفَّر على نفسه مؤونة هذه المحنة".

كان الدكتور "أمبيدكار"، بذلك، يعترف أنَّ غاندي قد مضى، في مناصرته "أبناء الله" إلى أبعد ممّا كانوا، هم أنفسهم، يتطلّعون؛ ولكنَّ الدكتور أمبيدكار لم يكُن، بعدُ، قد أَدرَك أبعادَ مرمى غاندي من صيامه، ولم يفقَه أنَّ محوَ وَصمة المنبوذيّة الدهريّة لا يتمُّ باتِّفاق زعيمَين، ولا بتشريعٍ يُفرَضُ على الناس من فوق، بل لا بدَّ له من انقلابٍ نفسيٍّ يقتلع الجذور الفاسدة من الأعماق. وحدَها تضحيةُ المهاتما بحياته كانت خليقةً بتحقيق ذلك الانقلاب، وهذا ما كان غاندي قد أَوضحه، في تصريحٍ له، خمسةَ أيامٍ قبل شروعه بصيامه: **"ما من اتّفاقٍ مرتَجَلٍ بين الهندوسيّين من الطبقات العليا، والهندوسيّين من الطبقات المسحوقة، بقادرٍ على الوفاء بالغرض؛ إذ لا بدّ للاتّفاق، كي يكون فعّالاً، من أن يكون حقيقيًّا. وإن لم يكن روح الجماهير الهندوسيّة مهيّأً لنَبذ جُذور المنبوذيّة وفروعها، فما من سبيلٍ سوى التَّضحية بذاتي، بلا تردُّدٍ".**

وقد أثبت الواقعُ صحَّةَ رأي غاندي، وجدوى صيامه؛ ففيمَا كان الزُّعماء السِّياسيُّون غائصين في مماحكاتهم، وجاهدين في تخطّي هناتٍ تافهةٍ، وحساباتٍ خسيسةٍ أَحيانًا، كان الوضعُ على السَّاحة الشعبيّة يشهَدُ تحوُّلاً مذهِلاً، وَصفَه لويس فيشر بقوله: **"منذُ الإعلان عن الصَّوم، في ١٣ أيلول، وحتى بعد ظهر ٢٦ أيلول، ساعةَ تناول غاندي كوب العصير الأوَّل، كان كلُّ تبدُّلٍ في وضعه الصحّيِّ، وكلُّ لفظةٍ يتفوّه بها أَحدُ الذين قابلوه، وكلُّ مُحَرِّكٍ يقوم به أيُّ من المتفاوضين، يُذاع في جميع أَرجاء البلاد.**

"لم يكُن بوسع أمٍّ مُنعطفةٍ على سرير طفلٍ لها، تنتابهُ نَوبةُ حُمّى مرتفعةٌ، أن تكون أَشدّ قلَقًا من الهند، وهي ترقُب السرير الأَبيض حيثُ رَقَدَ غاندي، معانيًا سكرات الموت. ولئن لم يكُن غاندي نفسُه صوفيًّا، إلاّ أنّه كان يمارِسُ على الآخرين تأثيرًا صوفيًّا، فكانوا يتّحدون به اتِّحادَ الأمّ برضيعها... وإذ كانت النهايةُ

الفاجعةُ وشيكةَ الحدوث، في كلّ لحظة، كان الهندوسيّون – في انفعالٍ وتوتّرٍ مشبوبَين – تحدوهم رغبةٌ واحدةٌ مُتَوثِّبة: الحؤول دونَ موت المهاتما".

ومن أجل الحؤول دون موت غاندي، جَهِد مواطنوه في تحقيق رغباته؛ فمنذ أيَّام صيامه الأولى، أشرع معبد "كاليجات" الشهير أبوابَه للمنبوذين، وكذلك فعل معبد "رام مندير" في بيناريس، الذي كان يُعدّ معقِلاً للهندوسيّة المحافظة المتشدّدة. وفي دلهي تبادل "أبناء الله" المنبوذون، وهندوسيُّون ينتمون إلى الطبقات العُليا، تعابيرَ الإخاء في الشوارع والمعابد، على نحوٍ تظاهريٍّ؛ وفي بومباي عمدت منظّمةٌ نسائيّةٌ إلى استفتاءٍ عامٍّ، فوَضَعَت صناديق اقتراع عند أبوابِ سبعةٍ من المعابد، اضطلع مُتَطوّعونَ بحراستها ليلَ نهار، ودُعي المؤمنون إلى الإدلاء بأَصواتهم، والإعراب عن رأيهم في ما يتعلّق باستقبال "الهاريجان" في تلك المعابد، فأبدى ٢٤٧٩٧ مقترِعًا موافقَتهم، مقابل ٤٤٥ معترضًا، وهكذا أُشرِعَت أمامَ المنبوذين معابد لم تطأها، يومًا، قدَم أحدٍ منهم. وهكذا كان في شتّى المَناطق الهنديّة، حيثُ كانت، كلَّ يومٍ، عشراتُ المعابد تُعلِن عن ترحيبها "بالهاريجان"، إكرامًا لنصيرهم، المهاتما الصائم، وكَانَتْ الصحف تنشُر، كلَّ يومٍ، أسماءَ مئات المعابد التي أَعلنت إنهاءَ التفرقة، وانفتاحها للجميع.

وأَعلنت والدة جواهر لال نهرو، المعروفةُ بهندوسيّتها المحافظة المتشدّدة عن تناولها الطعامَ من يد أَحد "الهاريجان"، فحذا حَذوَها أُلوفٌ من النّساء الهندوسيّات المرموقات، ونُصِبتْ موائد المآدب، حتّى في جامعة "بيناريس" معقل الهندوسيّة المتشدّدة، حيثُ جالسَ رجال دِينٍ هندوسيّون – براهمان – جماعاتٍ من كنّاسي الطُّرُق، والحذّائين، وسواهم من المنبوذين، تحت أنظار الجماهير المذهولة، الجَذلى.

وفي قُرًى عديدةٍ، دُعي "الهاريجان" إلى امتياحِ المياه من الآبار التي كانت محظورةً عليهم، وإلى السَّير في الشوارع التي كانت عليهم مُحرَّمةً، وتبارى أبناء الهندوسيّين، في الجلوس على مقاعد "المنبوذين" في المدارس.

وفي كلِّ مكانٍ من الهند نُظّمت العرائض الداعيةُ إلى مَحوِ المنبوذيَّة، وإلى وحدة جميع الهندوسيّين، وذُيِّلت بملايين التواقيع، ثُمَّ أرسلَت إلى سِجن بيراقدا، حيثُ تراكمت منها أكوامٌ كالتّلال.

وساد البلادَ جوٌّ من الصَّوم والتكفير والصلاة، سحابةَ الأيَّام الستّة التي استغرقها صيام غاندي، فأقلع كثيرون عن ارتياد صالات السينما والمطاعم، وأُرجِئت أعراسٌ كثيرةٌ، وبعد أن كان زواج الهندوسيّين من المنبوذين يُعَدُّ رِجسًا، باتَ موضع فَخَارٍ، بل واجبًا مُقَدَّسًا.

أيُّ تشريعٍ كان قادرًا على إجراء مثل ذلك التَّحوُّل؟! إنّ "معاهدة بيراقدا" نفسَها التي نصَّت على أنّه "لا يسوغ أن يُعدّ أيُّ إنسانٍ منبوذًا بسبب مولده "كانت ستظلُّ حرفًا ميّتًا، لولا أن بدَّل صومُ غاندي مضامينَ النفوس والأذهان، وحطَّم سلسلةً متماديةً في الطول، صيغت على مدى قُرونٍ، وحوَّلت عشرات ملايين الأَبرياء عبيدًا بالولادة، من غير ذنبٍ اقترفوه. صحيحٌ أنّ بعض حَلَقاتِ تلك السِّلسلة قد بقيت، وبقيت بعضُ آثارها، ولكنَّ أحدًا، من بعدُ، لن يجرؤ على صَوغ حلقاتٍ جديدةٍ من الظُّلم والاستعباد، أَو يجسر على ربط حَلَقاتٍ قديمةٍ انقطعت، وبات المستَقبَل يُبشِّر بالحُرِّيَّة والمساواة للجميع.

ولو كانت تلك هي مأثرة غاندي الوحيدة، لكانت خليقةً بتبوّئه أسمى مكانةٍ بين المُصلحين في التاريخ!

مرّةً أُخرى، أَثبتَ غاندي أنَّ علاقتَه بشعبه تتخطّى المعاهدات الشرعيَّة والقوانين، كما برهَنَ عن براعته في النفاذ إلى أَغوار القُلوب، وتحريك أَدقّ أَوتَارها؛ فقد تابعَ ثلاثُ مئة مليون هنديٍّ، لحظةً فلحظةً، تطوُّرات صيامه، في قَلَقٍ وترقُّبٍ، مع أنّ معظمهم أمّيُّون، وقلَّةً منهم تُطالع صحيفةً أو تمتلك مذياعًا؛ كانوا، جميعُهم، يتسقَّطون أخباره وأقوالَه ورغباته، وما يهدِّد حياتَه، التي أَحسَّ كلٌّ منهم أنّه مسؤولٌ عن إنقاذها؛ وكيف لا يتوجَّب إنقاذ حياة "النفس الكبيرة"، القبَس الإلهيّ الفذّ، حياة رسول الحبّ، وباعث الحرّيّة والكرامة، ولو كان ثمن إنقاذها تقويض تقاليد دهريّةٍ رسّختها عشراتُ القرون؟

بعيدًا عن مُعتَرَك السياسة

لم يكُن من شأن تعديلٍ دُستوريٍّ شكليٍّ يتعلَّق بالاقتراع، ولا من شأن هبَّةِ اندفاعٍ

لصالح المنبوذين أَلهَبَها الإشفاقُ على حياة المهاتما، إرضاءُ غاندي، أو إيهامُه بأنّه قد بلغ أَرَبَه، بل إنّه رأى في تلك العوامل إيذانًا بحركةٍ يتحتَّمُ تعميمُها وترسيخُها.

وعملاً بنهجه المُتَمثِّلِ في نقل القناعات الفكريَّة إلى موقع التنفيذ العمليّ، في الحال، أسَّس غاندي، عام ١٩٣٣، وهو، بعدُ، نزيلُ السّجن، "جمعيّة مؤازرة الهاريجان"، وصحيفةً أسبوعيّةً بعنوان "هاريجان"، حلَّت محلَّ "الهند الفتاة" التي كانت السُّلطات قد أَغلقتها، وقد صَدَرَ العدَد الأوّل منها في شباط ١٩٣٣، ووقَفَها المهاتما على خِدمة "أبناء الله" المنبوذين، والذَّود عن قضاياهم، وقضايا جميع الفئات المسحوقة في الهند. وأهاب بأَصدقائه وأتباعه أن يحذوا حَذوَه، فينقطعوا لخِدمة "الهاريجان"، والطَّبقات المسحوقة، ويكونوا لهم خُدَّامًا متفانين.

وبديهيٌّ أنّ هذا التوجّه، لم يكُن ليروقَ لعددٍ من الزُّعماء السِّياسيّين، الذين كانوا يأخُذون على غاندي تشتيت وقته، وتبذيرَ طاقاته في شُؤونٍ هامشيّةٍ، ويتمنَّونَ لو هو أنفَقَ كلَّ وقته، وطاقاته الهائلة على السياسة فحسبُ، وقضيَّتها الأولى المُتَمثِّلة في الاستقلال. وعلى ذلك كان المهاتما يَرُدُّ أنَّ "**البرامج البرلمانيّة هي آخِر المُهمّات التي يخلُق بالأمَّة الاضطلاع بها، أمّا المُهمَّة الأَساسيّة، ذات البال، فهي التي تتمّ خارج (السياسة)**". وكان يؤَكِّد أنّ كلَّ يدٍ تمتدُّ إلى الفلاّحين بالعَونِ، وكلَّ إسهامٍ في رفع شأن "الهاريجان" إنّما هي حجر أساسٍ في صرح الاستقلال، الذي لن يتحقّق، فعلاً، إلاّ بتحرير النّفس الهنديّة من كلّ أغلالها الذاتيّة، قبل أن تتحرَّر من رِبقة الاستعمار البريطانيّ.

لقد آثر أن يتّخذ قلوبَ الناس ساحةً لنضاله، وفيها جَعَل مقامه، لقناعته بأنّ نَمَطًا جديدًا من المواطنين هو، وحدَه، الكفيل بتحقيق ثورةٍ اجتماعيّةٍ، في حين أنّ ما من ثورةٍ مفروضةٍ من فوق بقادرةٍ على خَلقِ نَمَطٍ جديدٍ من المواطنين. لقد اختار، إلى تحرير الهند، الطريقَ الوَعرَة الطَّويلة، ولكنَّها الطريقُ الأَمينةُ الوحيدةُ، طريقُ تحرير الإنسان الهنديّ.

أهدافُه الفذّة، هذه، كانت تَقتَضي أَسلحةً فذَّةً، وهكذا، استجابةً لهمس صوتٍ داخليٍّ، باشرَ في الثامن من أيَّار ١٩٣٣، صَومَ تَطهُّرٍ، لمدّة ثلاثة أسابيع، تكفيرًا عن

هفَوات ٍ ارتكبها بعض أفراد الأَشرم، وتأكيدًا لهم بأنّ المحبّة تسمو فوق الذّكاء؛ وقد أعلن أنّ دافعه إلى ذلك الصيام "**رغبةٌ حارّةٌ في التطهّر، لكي نكون، رفاقي وأنا، أشدَّ سَهَرًا واهتمامًا بقضيّة "الهاريجان"**".

كان من الطبيعيّ أن تتعالى صيحاتُ الاحتجاج واللّوم من أَطبّائه وأصدقائه، فرَقًا على حياته، ولا سيَّمَا بعدَما تبيَّنوا إلى أيّة هُوّةٍ من الخطر أفضت به ستّة أيّامٍ فقط من صومه السابق؛ ولكن ما من صوتٍ كان يعلو على صوته الداخليّ.

وأَوجسَت السُّلطات خَشيةً من موته في السجن، وما قد يجرُّه ذلك من قلاقل وكوارث، فأَطلقت سراحَه منذ يوم صيامه الأوّل؛ وانتقل المهاتما إلى منزل أحد أصدقائه، حيثُ واصل صيامَه المقرَّر حتّى نهايته، وخرَج منه سالمًا؛ وكان البَونُ شاسعًا جليًّا بين وضع غاندي النفسيِّ خلال الأَيّام الستّة من صَومه السَّالف، التي كادت تودي بحياته، ووضعِه أثناء صَومه الطويل الثاني الذي لم يُصِبه بأَذى؛ فمَا كان يستنزف قواه، طوالَ صومه الأوّل، على قصره النسبيّ، كانت نارٌ داخليّة تلتَهِمه، نارُ الخشية على مصير ملايين المنبوذين، والرغبة اللاَّهبة في تحريرهم، رغبةٌ عبَّر عنها باستعدادٍ صادقٍ للتضحية بحياته في سبيلهم، ونارٌ تتأكّله، وهو يشهد، في قَلَقٍ، مماحكات زُعماء شتّى الفئات قبل إجْمَاعهمْ على رأيٍ واحدٍ؛ أمّا في أثناء صومه الثاني، فكان ذهنُه وجسمُه في حالة استرخاءٍ، وبدأ وكأنّ إرادته الجبّارة كانت تبعث في جسمه النحيل فَيض حياةٍ جديدةٍ.

ومع أنّه قد باتَ من السِّجن طليقًا، إلاّ أنّه ما انفكّ يعتبر نفسَه سجينًا، إذ إنّه لم يستنفذ كامل مُدَّة الاعتقال التي حُكِمَ عليه بها، فعَزَم عن التنكُّب عن كلّ نشاطٍ سياسيٍّ، وأَعلنَ عن وقف حركة العصيان المدنيّ التي كان مسؤولاً عنها، بَعدَ أن اتَّضح له أنّ أكثر الزُّعمَاء السياسيّين قُربًا منه، والتصاقًا به، غالبًا ما كانوا يُعارضون توجُّهاته الدينيّة، وأساليبه المتمسّكة باللاعنف والساتياغراها، فآثر العمل "خارج العالَم الرسميّ"؛ وانسحب من المؤتمر نفسه، فلم يسدّد رسم اشتراكه فيه عن عام ١٩٣٤؛ لا بل إنّه عمد إلى تصفية "أشرم سابرماتي"، لكي لا يكون مُقيَّدًا بفئةٍ ضئيلةٍ من الناس؛ وأَهدى ذلك الأشرم لجماعةٍ من "الهاريجان"، واتَّخذَ مقرًّا له مؤقّتًا كوخًا في مدينة "وردة"

الصغيرة، الواقعة في المقاطعات الوسطى. إلاّ أنّه، منذ مطلع تشرين الثاني من عام ١٩٣٣، انطلقَ في جولةٍ امتدَّت عشرة أشهرٍ متّصلةٍ، جاب خلالها جميع مقاطعات الهند، من غير أن يَفيء يومًا إلى مقرّه المؤقّت ليُصيب قِسطًا من راحةٍ. وكان يقوم بجولاته سعيًا على الأَقدام – فالسيَّارات والعَرَبات تُعيق عمل الروح – وينامُ على حافّات الطُّرُق، تحتَ أشجار المانغا والموز، كالمشرَّدين، داعيًا إلى دمج "الهاريجان" بالمجتمع الهندوسيّ بلا تمييزٍ، وعاملاً على رفع مستوى عيش القَرويّين.

كان مُؤمنًا بأنّ الهند الحقيقيّة تعيش في قُراها، أكثر ممّا هي تعيش في مُدُنها، وإزاءَ فقر القرى الهنديّة وبؤسها، توطَّد في خَلَده اليقينُ بتعذُّر إظهار الله لشعبٍ جائعٍ عاطلٍ عن العمل، إلاّ في شكل عَمَلٍ كريمٍ، وتوفير طعامٍ وأَجرٍ له: "**إذا ما أفلحتُ في تحرير القُرى من فقرها، أكون قد حقّقتُ الاستقلال**".

وهو، من ثمّ، عكَفَ على تجاربَ وأبحاثٍ ترمي إلى توفير الاكتفاء الذاتيّ للقُرى، بحيثُ تُصنّع، بذاتها، مُعظَم ما تحتاج إليه من ورَقٍ، وثقابٍ، وفَراشٍ، ومعاجينَ لتنظيف الأسنان، وسُكّر، ومكانس، وبالطبع "الخادي" الذي كان يَعُدُّه"رئةَ الهند الثانية". وفي سبيل تحقيق ذلك الاكتفاء الذاتيّ للريف، وقف غاندي من الآلات الحديثة موقفًا مُغايرًا لمواقفِه المعهودة منها، فطالما كانت تلك الآلاتُ مُسخَّرةً لخدمةٍ جماعيّةٍ، يستخدمها ويفيد منها مجموع القُرويِّين، فهو يرحّب بها، إلاّ أنّه يُناهضها عندما تكون أَداةً في أيدي أقلّيّةٍ، لاستغلال أكثريّةٍ مُعوِزةٍ.

كما عكَفَ على إجراء أبحاثٍ تستهدف توفيرَ الغذاء الصحّيّ الوافي لملايين القرويّين، وعقد، في ذلك، المقالاتِ، كما نشر كتيّبًا أسماه "مفتاح الصحّة" طواه على نتائج اختباراته في هذا المضمار، وعلى نصائح تهدي القرويّين إلى نظامٍ غذائيٍّ صحّيٍّ سليمٍ.

وتصدَّى غاندي، في تلك الفترة، لمعالجة طائفةٍ من القضايا الاجتماعيّة الشائكة، ولبلورة الأُسُس الاجتماعيّة والأَخلاقيّة والإنسانيّة التي كان يتوق إلى أن تُبنى عليها الهندُ الحرّة. وكان في طليعة ما تصدَّى له قضايا الغنى والفقر. فقد كان يُؤمن بالتجرُّد والفَقر الطَّوعيّ، سبيلاً إلى سموِّ النفس وكمالها، ولكنَّه كان يُحارب، بلا هوادةٍ، الفقرَ الساحقَ المفروضَ على طبقاتٍ كثيفةٍ من شعبه، والمفضي، لا مَحالة،

إلى الانحطاط الأخلاقيّ؛ كان يُحاربُ، بنفس الاندفاع، الغنى الأنانيَّ المُفرط، والفقرَ البائس، ولا يني يُردّد: "**إن نحن أقلعنا عن تبذير خيراتنا وطاقاتنا، فإنّ ما تَنعَم به بلادنا من مُناخٍ، وما تزخر به من موارد طبيعيَّةٍ، كفيلٌ بجعلنا أسعدَ شعبٍ في العالَم**"؛ وهذا ما كان يصبو إليه ويجهد في سبيله.

كان يُدركُ أنَّ المساواة بين جميع النَّاس متعذِّرةُ التحقيق، ولكنَّه كان يستحثُّ مشاعرَ الإخاء، من أجل رَدم وِهاد اللامساواة: "**حتّى في العالَم الأمثل، لا يسعنا تفادي التفاوُت بين النَّاس، ولكن ما يتعيّن علينا تفاديه هو الصِّراعاتُ، وما ينجم عنها من مرارةٍ: ثَمّة أَمثلةٌ كثيرةٌ عن أغنياء وفقراء مُتعايشينَ في صداقةٍ تامّةٍ، وإنّما يتحتَّم علينا مُضاعفة مثل تلك الحالات**". ويقول أيضًا: "**ليس مُحتَّمًا أن يَنشَبَ صراعٌ بين الرأسمال والعمل**"، واتقاءً لذلك الصّراع كان يناشد كبارَ الملاّكين أن يتنازلوا طوعًا عن بعض ممتلكاتهم لمن لا يملكون شيئًا، ويدعو أربابَ العَمَل إلى توزيع مكاسبهم بالعدل على العاملين، وإن هم لم يفعلوا – ونادرًا ما يفعلون – فهناك سبيلٌ إلى تحقيق العدالة في مَعزِلٍ عن العنف: "**يمكن القضاءُ على استغلال الفقير، لا بإزالة بعض أصحاب الملايين، بل بإزالة جهل الفقير، وبتَلقينه عدمَ التعاوُن مع من يستغلّونه، ومن شأن ذلك هَديُ المستغلّين أنفسهم إلى سويّ السبيل**".

السّلاحُ الماضي الذي كَان يدعو العمَّالَ والفلاّحين إلى شهره، هو قول "لا"، في إباءٍ، هو ضربٌ من اللاّتعاون، فبوسع العامل الإضرابُ عن العمل، وبوسع المزارع الامتناعُ عن أداء إيجار الأَرض.

وجديرٌ بالتَّنويه أنّ غاندي، في أواخر أيَّامه، أصبح أشدَّ نُزوعًا إلى أن تضطلع الحكومة بسَهمٍ أَوفر في الحياة الاقتصاديّة، وفي الحدِّ من اللامساواة، عن طريق الضرائب المباشرة، وضرائب الإرث، كما أنّه أمسى يُنذِر الرأسماليّين الهنود، في لهجةٍ انطوت على وعيدٍ: "**من الجليِّ أنّ نظام حكمٍ ينتبذ العنفَ مُتعذّرٌ، طالما ظلَّت قائمةً الهوّةُ السحيقة التي تفصل الأَغنياءَ عن ملايين النَّاس الذين يَنفُقُون جوعًا؛ ولا يمكن للتفاوت بين قُصور نيودلهي، وأَكواخ الطبقة الكادحة، أن يستمرّ، يومًا واحدًا، في هندٍ حُرّةٍ يتمتّع فيها الفُقَراء بمثلِ ما يتمتّع به أَغنياءُ البلادِ من سُلطاتٍ.**

ولا مفرَّ من أن تَنشَبَ، يومًا، ثَورةٌ عنيفةٌ داميةٌ، ما لم يتخلَّ الأغنياء، طائعينَ راضين، عن ثَرواتهم، وعمّا تُوفِّره تلك الثَّروات من سُلطانٍ، وما لم يتمَّ توزيعُ الثروات والسُّلطات لصالح الجميع".

وبالإجمال، كان غاندي يرى أنّ الاقتصاد السَّليم ينبغي أن يكون ذريعةً لرُقيِّ الإنسان المادّيّ والروحيّ، لا مدرجةً إلى جَني الأَموال بلا وازعٍ، إذ إنّ "**الاقتصاد الذي يُعلِّم عبادةَ "مامون"، والذي يُتيح للأقوياء جمعَ الثروات على حساب الضعفاء، علمٌ باطلٌ وبيلٌ، يُفضي إلى الموت. الاقتصاد الحقُّ يقتضي العدالة الاجتماعيّة، والقِيَم الأَخلاقيّة**". وكان يُناهض كلَّ نزعةٍ اقتصاديّةٍ تتوخّى مضاعفةَ حاجات الناس، والعملَ على إيجاد وفرةٍ من السِّلع الاستهلاكيّة من أَجل إرضاء تلك الحاجات المصطنَعة الزّائفة. لقد كان يُؤمن أنّ الإنسان سعيدٌ بقَدرِ ما تتضاءل حاجاته، وغنيٌّ بقَدر استغنائه عن أشياء كثيرةٍ، وكان يضرب مَثَل الإمبراطوريّة الرومانيّة التي أشادت حضارةً باذخةً، ما لبثت أن انهارت بعد أن تكدَّست خيراتها، وانغمس الرومانيّون في مُتعتِها ورَحراحها، ذاهلين عن قِيَم الروح. وقد طالما استشهد بقَول يسوع الخالد: "**وما نفع الإنسان إن هو امتَلَكَ العالَم، وخَسِر نفسه؟**".

كان، بعدَ الله، يُؤمنُ بكرامة الفرد البشريّ وبحرّيّته، ويُنكر كلَّ مجتَمعٍ يقوم على انتفاء الحرّية الفرديّة، وما أكثر أَقوالَه في هذا المعنى: "**إن لم يعُد للفرد قدرٌ، لم يبقَ من المجتمع شيءٌ...**"، "**لا وجودَ لإنسانٍ لا يتمتّع بحريّة الفكر**"، "**دولةٌ يتصرّف فيها الناس كالخراف، لا تمتُّ إلى الديمقراطيّة بِصِلَةٍ**".

وما كان غاندي، في دعوته إلى الديمقراطيّة، غَوغائيًّا، بل قد طالما أكَّد أن لا ديمقراطيَّة في مَعزلٍ عن النظام والانضباط، وكان يدعو كلَّ فردٍ في المجتمع إلى التوفيق بين فرديّته ومقتضيات المجتمع. فالفرديّة، بلا قيودٍ، هي شريعةُ الضواري في الغابات؛ غير أنّ النِّظامَ الأَمثل يكمُن في ما يفرضه الفردُ على نفسه من انضباطٍ، كيلا يضطَرَّ الدولة إلى فرضه قَسرًا، ممّا يُهدّد الديمقراطيّة.

ولكنّه كان شديد الحِرص على تشبُّث كلّ فردٍ بحُرِّيَّة ضميره، "**ففي مضمار الضمير، ليس لقانون الأكثريّة أيُّ وزنٍ**" والانقيادُ لمثل ذلك القانون، إنّما هو ضَربٌ من العبوديّة.

هذا، وإنّ كَلَف غاندي باللاعنف والحرّية الفرديّة، وحرّية الضمير، قد جعل منه عَدُوًّا للشُّيوعيّة، من غير أن يكون عَدُوًّا للشُّيوعيين أنفسهم: "**ليس كلُّ الشيوعيّين أشرارًا، مثلما ليس كلّ أعضاء المؤتمر ملائكةً، ولكن طالما ظلّت الشيوعيّة قائمةً على العُنف ونُكران الله، فإنّني أستنكرها. إنّني أعارض، بلا هوادة، وسائلَ العُنف، حتّى لو هي ادّعت خدمةَ أنبل الأهداف**"، ومثل استنكاره للعنف والقَسر، كان يستنكر في الشّيوعيّة أساليب الكذب الخداع.

بَيدَ أنّ غاندي، ولا سيَّمَا في أيّامه الأخيرة، قد أمسى أشدَّ تمرُّدًا على مظاهر اللامساواة الصارخة، وأكثرَ نُزوعًا إلى اشتراكيّةٍ ملتزمةٍ بمُثُل الأَخلاق؛ ولكنّه، أبدًا، أَبى الانضواء إلى أَيّ حزب، بحيثُ لم تستطع أيّةُ مُنظّمةٍ سياسيّةٍ، أَو مَذهَبٍ فكريٍّ، ادّعاءَ انتمائه إلى أيٍّ منهما؛ حتّى المؤتمر الوطنيّ الهنديّ، الذي رئسه عدَّة سنواتٍ، لم يتردَّد في الانسحاب منه، عام ١٩٣٤، كي ينصرف إلى العمل الاجتماعي، في حُرّيةٍ مُطلَقة.

وعلى نحو ما كان متحرِّرًا من قُيود المذاهب والأَحزاب، كان حريصًا على إلاّ تغدو له آراؤه نفسها قُيودًا تكبِّلُه، وتَغُلُّ حرّيّة تفكيره؛ فإذا ما تبيَّنَ، يومًا، وَهَنها أَو خَطَلَها، لم يتردَّد في تنكُّره لها وانتباذها، والانتقال إلى نقيضها؛ وأَقطع دليلٍ على مُرُونتِهِ الفكريَّة هذه، موقفُه من تعدُّد الطَّبقات، داخلَ الهندوسيّة؛ فهو عام ١٩٢٠ – إذ كان لا يزالُ متأثِّرًا بنشأته الهندوسيّة – أَعلَنَ أنّ الحواجز القائمة بين طبقات الهندوسيّين الأربع، والتي تحظر، فيمَا بينها التزاوجَ والمشاركةَ في الطَّعام، أمرٌ حيويٌّ، من شأنه تسريعُ التطوّر النفسيّ؛ إلاّ أنّه، في عام ١٩٣٢، وبعد أن استقرَّت في وِجدانه القناعةُ بأنَّ تلك التفرقة كانت بعيدةً عن الدِّين الحقِّ الذي يجب أن ينهض على الحبّ والمساواة، لم يخشَ التَّصريح بأَنّ تلك الحواجز بين الطَّوائف لم تكُن من صميم الهندوسيّة في شيءٍ، بل إنّها اندسَّت فيها، في فتراتِ انحطاطها.

أمّا في عام ١٩٤٦، إذ كان رَفع شأن، "المنبوذين" يحتلُّ من اهتمامه أسمى مكانٍ، فقد حَظرَ أيَّ زواجٍ يتمّ في "أشرم سيفاغرام" ما لم يكُن أَحَدُ الزوجَين من "الهاريجان".

هذا التحوُّلُ في المواقف يُبرِز، بجلاءٍ، المشوارَ الذي قَطَعَه غاندي خلالَ مسيرته الفكريّة والوجدانيّة، حيالَ قضيّةٍ تمسُّ صَميمَ معتقداته، كما أنّه يوضح موقفَه

من الدِّين. فقد كان الدِّين هو محرّك غاندي وهاديَه، وكانت مُثُل الدِّين العُليا هي معايير كلِّ أعماله؛ إلاّ أنّ الدِّين لم يكن عندَه طُقوسًا محدَّدةً، ولا تقاليدَ جامدةً، أو تعاليمَ مفروضةً، بل كان بَحثًا جاهدًا عن الحقيقة التي هي الله، وعن الله الذي يُمثّل الحقيقة، بحثًا لا يُحجم عن هَتك كلّ قِناعٍ يحجُب رؤيةَ الله، وتَخَطّي كلِّ عائقٍ يحول دون اعتناق الحقيقة وتكييف السلوك وفقًا لوَحيها؛ وبالتّالي كان تديُّنه خاليًا من كلّ تعصُّبٍ وتحجُّرٍ، منفتحًا، مُشرَعًا على كلِّ مكامن الحقّ، حيثُمَا وُجِدَت، بحيثُ لم يكُن ليتوانى عن مناهضة كلِّ ما يراه في ديانته، الهندوسيّة، من انحرافٍ، كالمنبوذيّة التي كانت تُعتَبَرُ ركيزةً من ركائز الهندوسيّة، وقد مضى في مناهضته لها حتّى أَعلن أنه يتبرّأ من الهندوسيّة ويجحدُها، إن كانت المنبوذيَّة جزءًا صميمًا منها. ومن جهة أُخرى، لم يكُن ليتقاعس عن تبنّي كلّ ما في الديانات الأُخرى من مواطن حَقٍّ وجمالٍ، وقد برهن على ذلك بتوفيق سُلوكه وتفكيره مع مُقتضيات "خطبة الجبل"، تلك الموعظة التي استهلَّ بها يسوعُ تعليمَه، وأودَعَها جوهَر رِسالته.

وقد لخَّص غاندي موقفه من الدِّيانات بقوله: "**كلُّ الديانات تُمثّل كشفًا عن الحقيقة ولكنّها، جميعها، مشوبةٌ بالنَّقص، ومعرَّضةٌ للخطأ. ينبغي ألاّ يُعمينا احترامُنا للدِّيانات الأُخرى عمّا تنطوي عليه من شوائب؛ وعلينا أن نعي، بعمقٍ، نقائصَ عقيدتنا أيضًا، على ألاّ نقتصر على ذلك الوعي فحسبُ، بل نتعدّاه إلى محاولةِ تجاوُز تلك النقائص؛ لو أنّنا كنّا ننظر إلى جميع الدِّيانات نظرةً متكافئةً، لما تردّدنا، بل لرأينا من واجبنا أن نضُمّ إلى إيماننا كلَّ ما في الدِّيانات الأُخرى من حسنات**". موقفٌ مسكونيٌّ، استبقَ الزمن!

ويعلّق لويس فيشر على القول السالف: "**إنّ هذا المقطع يُبرز صورةً عن فكر غاندي: فهو، معًا، محافظٌ غير مستعدٍّ لتبديل دينه، ومُصلحٌ جاهدٌ في إصلاحه، وفكرٌ مُنفَتحٌ يعدُّ كلَّ الدّيانات مظاهرَ للألوهة. لقد كان مخلصًا ونقّادًا في آنٍ واحدٍ، وفي آنٍ معًا ملتزمًا ومتحرّرًا من الأَحكام المسبقة، مرتبطًا ومُتجرّدًا، هندوسيًّا، ومسيحيًّا ومسلمًا ويهوديًّا**".

ويروي لويس فيشر الحادثة الطريفة التالية: "**عام ١٩٤٢ لبّيت دعوة غاندي**

وحَلتُ عليه ضَيفًا في بيته طيلةَ ثمانية أيّامٍ. على جُدرانِ كوخه المطليَّة بالطين، لم يكن سوى صورةٍ ليسوع المسيح مطبوعةٍ بالأَسود والأبيض، وقد دُوِّنَت تحتَها عبارةُ "إنّه سلامُنا"، واستوضحتُ غاندي معنى ذلك فقال: "إنّني مسيحيٌّ" وسُرعان ما أَردَفَ: "إنّني مسيحيٌّ، وهندوسيٌّ، ومُسلمٌ، ويهوديٌّ".

وهكذا بين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٩، نأى غاندي عن معتَرَك السِّياسة بمفهومها الشائع، ناقلاً، بلا كَلَلٍ، أقدامَه المُتعَبَة في شتّى أَرجاء الهند الشاسعة، مندمجًا بقرويّيها وفقرائها، باحثًا، على أرض الواقع، عن وسائل رفع شأنهم، وإنهاضِهم معيشيًّا، وصحّيًّا، واجتماعيًّا، وفكريًّا، ودينيًّا، مُعِدًّا إيّاهم لمرحلة الاستقلال، ومؤهّلاً إيّاهم لحقبةٍ جديدةٍ لم يكُن من شأن النضال السياسيّ أن يهيّئ لها، في أفضل الأَحوال، سوى الإطار الخارجيّ، في حين كان هو، يجهَدُ في غرس الأساس الوطيد، الذي، في معزلٍ عنه، لا يصمُد بناءٌ.

وإلى كلّ ذلك، بل فوقَ كلّ ذلك، كانت تطلُّعاتُه تسمو، باستمرارٍ، شَطرَ غاية كُلِّ وُجودٍ، وعلَّةِ كلِّ عَمَلٍ وجُهدٍ وبحثٍ، شَطرَ الله، الحقيقةِ الوحيدةِ الخالدة.

غاندي والحرب

عامَي ١٩٣٦ و١٩٣٧، ترأَّس جواهر لال نهرو المؤتمر، في فترةٍ من أَشدِّ فترات تاريخ الهند حَرَجًا؛ ولكنّ نهرو كان يعترف بأَنّ غاندي كان، في واقع الأمر، هو "رئيس المؤتمر الأَعلى والدائم"، بفضل تأثيره النافذ في كافّة طبقات الشعب، ومعظم قادة المؤتمر، بحيثُ كان بمُكنتِه إفشالُ أيٍّ من أعمال المؤتمر ومقرّراته، إن هو شاء.

وقد أَذِنَ غاندي للمؤتمر بخَوض الانتخابات الإداريَّة، في مطلع عام ١٩٣٧، على أن يتولّى المنتَخَبون الهنود إدارة مقاطعاتهم بأنفسهم، في معزلٍ عن أيّ تدخّلٍ بريطانيٍّ، ويُعدّوا، بذلك، البلاد للاستقلالِ المنشود؛ وقد أَحرز المؤتمر انتصارًا ساحقًا في معظم المقاطعات – خلا السند والبنجاب – ونما عدد المنتمين إليه من ثلاثة ملايين ومئة ألف مُنتَسبٍ تقريبًا، في مطلع عام ١٩٣٨، إلى نحو أَربعة ملايين ونصف مليون مُنتَسِبٍ، في مطلع عام ١٩٣٩.

ولكن، لم يكُن للأرقام، يومًا، قدرةٌ على إبهار غاندي، إذ كان يتــوخّى "إيمــان" المنتسبين، قبل عددهم، وقد حذَّرَ المؤتمرَ من نَشوة الغرور، ومن الفساد الذي تعيثــه السُّلطة في النفوس، ومن تَفَشّي الانتهازيّة؛ وظلَّ مقيمًا على عزمه إيقــاف حركــة العصيان المدنيّ، لأنّه، لم يعثُر، في صفوف الجماهير، إلاّ على نُدرةٍ من المُخلصين للاّعنف، ولم يُلفِ بين المتنطّحين لقيادة الجماهير أَحدًا من الأَوفياء له. فقد كان لــه ملايين من الأَتباع، ومئاتُ الملايين من المُحبِّين، ولكنَّ قبضةً، فحسبُ، من الأَوفياء، كانت تنهج نَهجَه، ولا سيَّمَا أَنّه، في تلك المرحلة من نضاله وتطوّره النفسيّ، كان قد بات أكثر تشبُّثًا بالسِّلم، ومناهضةً لكلّ أَلوان العُنف.

وكان المهاتما يُدرك أنَّ المؤتمر يجهَدُ في استغلال نفوذه على الجمــاهير، مــن غير أن يلزم نفسَه بالمبادئ والوسائل التي غزا بها، هو، قلوبَ الجماهير؛ ومن ثــمَّ، فهو لم يكن متأهّبًا لمباشرة عصيانٍ مدنيٍّ بالتعاون مع مؤتمرٍ غير منضبطٍ، يشيع فيه الفساد، وتمزّقه الخلافات بين الطائفتَين الكُبريَين في البلاد: الهندوسيّين والمُــسلمين. غير أَنّ إدراكَه المُتبصّر لذلك الواقع، لم يَفُتَّ في عضده، ولــم يَنَــل مــن طاقاتــه البُركانيّة، وإرادته الفولاذيّة.

كان يستشفّ نُذرَ الحرب قادمةً تُهدّد العالَم، ومع ذلك صرّح في شــباط ١٩٣٩: "**إنّ إيماني يزداد تألُّقًا ووضوحًا وَسط الظُّلمات المدلهمّة**".

لقد كان، أثناءَ الحرب العالميّة الأولى، قد أسهم في استنفار مُتطوِّعين للاشتراك في الجُهد الحربيّ، غير أنّ ما صار إليه من تطوُّرٍ نفسيٍّ، ومن توغُّلٍ في اللاّعنف، وتشبُّثٍ بالسلم، عند نشوب الحرب العالميّة الثانية كان يمنعه من مُجرَّد التفكير بــأيٍّ إسهامٍ في الحرب، ويُبرز له بشاعتَها مُجسَّمةً مُروِّعةً، وتجلّى له اللاّعنــف، ســلاح الأَبطال، شاهقًا في سموّه؛ وهو، بالتالي، قد دعا الحبشة، مثلاً، إلى التنكُّب عن أَيّــة مُقاومةٍ مسلَّحةٍ في وجه الغزو الفاشيّ، وفي نفس الآن، الامتناع عن كلّ ضَربٍ مــن ضروب التعاون مع الغازي، الذي سيجد، هكذا، نفسه، وقد غزا صحراءَ خاويةً، فيمَا امتنعت عليه النُّفوس، فتَتَحقَّقُ بذلك هزيمتُه؛ ودعا الأوروبيّين إلى انتهــاج موقــفٍ

مُماثلٍ من الغزو النازيّ، مؤكِّدًا أنَّ انتصارات العُنف إن هي إلاّ أَوهامٌ زائلةٌ لا تجلب على مكتسبيها سوى الخِزْي: "**بوسع هتلر وموسوليني، وبوسع ستالين، أيضًا، إثبات جدوى العُنف الفوريّة. بيدَ أنّ هذه الجدوى عابرةٌ، شأنها شأن مجازر جنكيزخان**".

وعندما امتدَّ الغَزو النازيّ، وبات يُهدّد إنكلترا، وراح تشرشل يستفزّ حميّة شعبه، واعدًا إيَّاه "بالدّماء والعَنَاء والعَرَق والدُّموع"، لم يتوانَ غاندي عن نُصح البريطانيّين أن "**دَعُوا هتلر وموسوليني يستولون على جزيرتكم الجميلة، وعلى كلّ ما يرتفع على أَرضها من أبنيةٍ رائعةٍ، دعوا لهم كلَّ ذلك، وامنعوا عنهم ذهنَكم ونفسَكم**"، علَّ الغازين يرعوون ويُدرِكون عقمَ انتصارهم.

وتساءلَ غاندي، في إحدى مقالاته: "**ماذا ربحت دَولتا ألمانيا وإيطاليا؟ وهل هما جاءَتا بأيّ مكسَبٍ أخلاقيٍّ يُغني البشريّة؟**" وحدَها المكاسبُ الأَخلاقيّة كانت، في نَظره، العملَ الإنسانيَّ الخالد الجدير بالتقدير. وقد أكَّد، في مقالٍ آخر: "**إنّ علم الحرب لا يقود إلاّ إلى الدكتاتوريّة البحتة، ولكن، وحده، علم اللاعنف يستطيع أن يقودَ إلى الديمقراطيّة الحقّة... في روسيّا دكتاتور يحلم بالسِّلم، ويتخيّل بلوغه، عبر بحرٍ من الدِّماء**". وقد بعث غاندي برسالتَين إلى هِتلر، مناشدًا إيّاه انتباذ العُنف والطُّغيان، وكان من البَدَهيّ إلاّ يتلقّى من الطاغية جوابًا.

وحيال المتشبِّثين بأَساليب العُنف، تساءَلَ غاندي: "**هل وفّرت وسائل العنف ضماناتٍ أقوى من وسائل اللاعنف؟**". فقد كان يرى الحرب تحصد الملايين من غير جدوى، فلا يفيد مَوتُهم لا في جعل العالَم أَفضل، ولا في ردع المعتدين، في حين كان من شأن تطوُّع بعض الأَبطال لإبراز معاني اللاّعنف، ضربُ أمثلةٍ أجدى وأَبقى.

وفي هذا السّياق، أَخَذَ غاندي على ضحايا النازيّة من اليهود إحجامهم عن الإقدام بأَنفسهم على الموت، في تظاهرةٍ جماعيّةٍ تهزّ ضمير العالَم، كأن يلقي أُلوفٌ منهم أنفسهم في البحر من شاهقٍ، بعد أن تيقّنوا أنّهم صائرون إلى هلاكٍ لا محيد عنه، وإذا لم يكن من الموت بدٌّ، فلمَ لا يموتون ميتةَ الأبطال، فيستفزّوا العالَم كلّه على الطغيان، ويقيموا برهانًا ساطعًا خالدًا على قُدرات اللاعنف؟ ولا بِدعَ إن جلبَت تلك

الأقوال على غاندي انتقادَ اليهود والنازيّين على السواء؛ ولكنّه لم يحفل، يومًا، بنقدٍ، عندما كان ضميره يُملي عليه قَولاً أو عملاً.

وعندما باتت اليابان تُهدِّد بغزو الهند، راح غاندي يحلم بمقاومةٍ لا عنيفةٍ، تتجلّى من خلالها بطولةُ الهنود، ومزايا اللاعنف، فيتصدّى ألوف الهنود لحــراب الغــزاة، عُزّلاً إلاّ من سلاح الإيمان والصُّمود، ويُقدِمون على الموت الطَّوعيّ، رتلاً إثر رتلٍ، إلى أن تطغى جسامةُ تضحيتهم على شراسة المُعتَدين، وتُرغمهم على إلقاء السلاح، فيُثبتون بذلك أفضال اللاّعنف، ويُبدِّلون مجرى التاريخ.

كان غاندي مُدرِكًا أنّ العالَم لن يأخُذ بمِثل تلك الأَقوال غير المألوفة،. ولكنَّه كان واثقًا من أنّ الواجِب يفرض عليه الإفصاح عنها، وكانت كلماتُه بذورًا نثَرَهــا مــع الرّياح ووقعت حبّاتٌ منها في أرض بعض الضمائر، فانهمرت عليه، عشيَّةَ الحرب، البرقيّاتُ من شتّى أرجاء العالَم، وقد جاء في إحداها: "نرجوك المبادرة إلى العمــل، فالعالَم يفتقر إلى قيادةٍ". وقالت أُخرى: "**إنّها لضرورةٌ ملحاحةٌ أن تعبّروا فورًا للقادة وللشُّعوب كلِّها عن إيمانكم الصَّامد في العقل، لا في القوّة**".

إلاّ أنّ خيرَ من أَبرز سُموَّ موقف غاندي هو الجنرال عمر برادلي، رئيس أركان جيش الولايات المتحدة، في أعقاب الحرب، إذ صرّح: "**لدينا فــيضٌ مــن العُلمــاء، ولكنَّنا نفتقر إلى رجالِ الله. لقد انتزعنا من الذَّرَّة، سرَّها، وتنكّبنــا عــن "خطبــة الجبل". لقد حقَّق عالَمُنا الرَّوعةَ في معزلٍ عن الحكمة، والقدرةَ فــي معــزلٍ عــن الوجدان. عالَمنا عالَم جبابرةٍ ذرِّيِّين، وصِبيةٍ في الأخلاق. إنّنا أكثرُ إلمامًا بــشؤون الحرب من شؤون السِّلم، وأوفر براعةً في فنّ القتل منّا في فنّ الحياة**".

في مثل هذا العالم السادِر في غيّه، كان غاندي، على حدّ قول لويس فيشر: "**قــد نبذ الذرَّة وتشبَّث بخطبة الجبل، كان طِفلاً ذرّيًّا وعملاقًا أخلاقيًّا؛ كــان يجهــل كــلَّ شيءٍ عن فنِّ القتل، ويُلمُّ بالكثير من فنِّ العيش في القرن العشرين**".

غاندي وتشرشل

لم يرَ سَوادُ البريطانيّين، وفي طليعتهم زعيمُهم تشرشل الذي كان يُضمر لغاندي

كُرهًا جمًّا، في دعوة رسول اللاّعنف السلميّة، سوى تُرَّهاتِ مأفونٍ يتحتَّم الحَجرُ عليه؛ لا بل إنّ غاندي قد عَجِزَ عن إقناع أصدقائه من قادة المُؤتمر أنفسهم بالتزام اللاعنف إزاءَ الحرب.

وكانت بريطانيا، بدخولها الحرب، قد أقحمت الهند فيها، من غير اسشارتها، ما بدا للهنود استهتارًا مُهينًا؛ واستدعى نائب الملك غاندي إلى مقرِّه الصَّيفيّ في جبال "سيملا"، فشَخصَ إليه المهاتما وَسط صيحات الجماهير: "لا نُريد أيَّ تفاهُمٍ مع الإنكليز". كان نائب الملك يرغب في وَضع خُططٍ حربيّةٍ مشتركةٍ، ولكنّ غاندي اقتصر على الإعراب عن مشاعره حيالَ الحرب، وعن آرائه الدِّينيّة، وقد روى، في هذا السياق: "**فيمَا كنت أَصِفُ لنائب الملك ما قد يلحق بصرح البرلمان، وبدَيرِ ويستمنتسر، من دمارٍ، أُغمي عليّ. لقد كنتُ يائسًا، وفي قرارة نفسي كنتُ في صراعٍ دائمٍ مع الله، الذي كنت آخذ عليه إذنَه بمثل تلك الأمور**". لقد كان المهاتما في نقاشٍ يوميٍّ مع الله، إزاءَ فشل اللاّعنف، وفَشَل الله. إلاّ أنّه، في نهاية كلِّ نقاشٍ، كان يعترف بأنّ لا الله ولا اللاعنف كان عاجزَين، وإنّما العجز في الناس أنفسهم، وبالتالي كان يتحتّم عليه مواصلةُ نضاله، متشبّثًا بإيمانه

وقد أعلن غاندي، غداةَ دخول بريطانيا الحرب، أنّه لن يُقيم في وجهها العراقيل، بل سيُقدّم لها ولحلفائها تأييدَه الأَدبيّ، إذ لا بدّ من التمييز بين المُعتدي والمعتدى عليه، إلاّ أنّه لن يمضي إلى أبعد من ذلك، ولن يُسهم في أيّ مجهودٍ حربيٍّ؛ ومع ذلك، تابع، صامتًا، جلسات لجنة المؤتمَر التنفيذيّة، التي امتدَّت أربعة أيّامٍ، وأَصدرت، في أعقابها، وبتاريخ ١٤ أيلول ١٩٣٩، بيانًا أَدانت فيه الاعتداءَ على بولونيا، غير أنّها أَوضحت أنّ الديمقراطيّات الغربيّة لم تكن بريئةً، فهي قد طالما سكتَت عن اعتداءاتٍ مماثلةٍ في شتّى أقطار العالَم، فضلاً عن استعمارها لأَجزاء شاسعةٍ من المسكونة، وانتهت إلى الإعلان: "إنَّ هندًا ديمقراطيّة حرّةً سيسرُّها الاشتراكُ مع سائر الأمَم الحرّة، في مجابهة العدوان، وفي التعاون الاقتصاديّ".

أمّا غاندي فقد آثر الاقتصارَ على ضَربٍ من العصيان الفرديّ، مستوحًى من مبادئ الساتياغراها، فانتدَبَ بعض أتباعه، وبعض زعماء المؤتمر البارزين،

وأوفدهم، فردًا، فردًا، إلى المدُن والقرى الهنديّة، داعين إلى اللاّتعاون مع المجهود الحربيّ، سواءٌ بالمال أو بالرجال، وأَوعز إليهم أن يضطّلعوا بتلك المُهمّة، في هدوءٍ، ومن غير استثارة الجماهير التي لم تكُن متأهّبةً لعصيانٍ، على نطاقٍ جماعيٍّ واسع المدى. ولكنَّ البريطانيّين خفّوا إلى اعتقال دُعاة اللاّتعاوُن، واحدًا في إثر الآخر، فاعتقلوا نهرو، وقضوا عليه بالسَّجن أَربعَ سنواتٍ؛ تم اعتقلوا "أبو الكلام أزاد"، رئيس المؤتمر آنذاك، وسواهم، واتّسَعت حركةُ الاعتقالات بحيثُ غدت سُجون الهند تضمُّ زُهاءَ خمسةٍ وعشرين ألف سجينٍ سياسيٍّ، في ربيع ١٩٤١.

وفي غروب تلك السَّنة، إثر تطوُّرات الحرب التي غدت تُقلق بريطانيا، أَفرج نائبُ الملك عن أتباع الساتياغراها، وأَهاب بهم إلى التعاون مع الحكومة، في حين كان غاندي يحثّهم على استئناف الدَّعوة إلى مقاطعة المجهود الحربيّ البريطانيّ، مدعّمًا رأيه بالتدليل على أنّ اضطرار الحكومة إلى الإفراج عنهم، وجملة التطوُّرات في العالم، تسير كلّها في اتّجاه تحقيق المطالب الهنديّة: "**ها نحن ندنو من هدفنا من غير أن نطلق رصاصةً واحدةً**".

ولكنّ زعماء المؤتمر كانوا قد ضاقوا ذرعًا باللاعنف، في تلك الأجواء المتفجِّرة، وما عادوا يَجِدون للإقامة في السُّجون أيَّة جدوى؛ ومن ثَمَّ، أعلنت لجنة المؤتمر التنفيذيّة، مُجَدَّدًا، استعدادَها للإسهام في الجهد الحربيّ البريطانيّ، إذا ما مُنِحت الهندُ استقلالَها وحقَّ تقرير مصيرها بحُريَّةٍ.

ومرَّةً أُخرى انشقَّت هُوَّةُ التباين بين زعماء المؤتمر وغاندي الذي عارَضَ بشدَّةٍ موقف اللَّجنة التنفيذيّة واصفًا إيّاه بالمُساومة على المبادئ؛ فالاستقلال حقٌّ للهند ينبغي أن تناله بلا مقابلٍ، والحربُ شرٌّ لا تُسوّغه أيّة غايةٍ مهما سمت. وكان ذلك التبايُن في المواقف من اتِّساع الشِّقَّة، والعناد، بحيث أفضى إلى القطيعة بين غاندي والمؤتمر؛ وقد أَورَدَ نهرو، فيمَا بعدُ، في مذكّراته: "**للمرّة الأولى انتهج غاندي طريقًا، في حين اختارت اللّجنة التنفيذيّة طريقًا آخَر**". أمَّا غاندي، فقد اعترف قائلاً: "**لقد كنتُ سعيدًا وتعيسًا لأنَّ كلامي بدا وكأنَّه فَقَد القدرةَ على اجتذاب من أُوتيتُ امتيازًا واعتزازًا باجتذابهم طيلةَ كلِّ تلك السنوات**".

لم يكُن ليخفى على أحدٍ أنّ غاندي كان يمتلك من السَّطوة والسُّلطان ما يُمَكِّنه من إلغاءِ مقرَّرات لجنة المؤتمر التنفيذيّة بإيماءَةٍ من إصبعه، لو هو شاء، غير أنَّه كان أكثر كَلَفًا بالحرّيّة، واحترامًا للديمقراطيّة، من أن يلجأ إلى مثل ذلك السلوك؛ ومن ثمّ، فقد آثر مقاطعة المؤتمر، على تحطيم قادته.

غيرَ أنّ تلك القطيعة لم يطُل أمَدُها، وكان لتشرشل الفضلُ في دفع المؤتمر إلى أحضان غاندي من جديدٍ؛ فتشرشل كان قد تقلَّد، في غمرة الحرب، رئاسة وزارةٍ ائتلافيّةٍ في بريطانيا، وصرَّح، في الحال، عن عزمه القضاءَ على "الغانديّة وكلّ ما تمثّله"، وردًّا على مساعي الولايات المتَّحدة، التي قد طالما عانت، في فجر تاريخها، من الاستعمار البريطانيّ، وخَبَرت ما يخلّفه في نفس المواطنين من إحباطٍ، والتي كانت، بالتالي، تحثُّ بريطانيا على منح الهند استقلالَها كي توفّر لها الدافع النفسيَّ للمُشاركة في الحرب، والإسهام في انتصار الديمقراطيّة، أعلن تشرشل أمام حُلفائه: "أنا لم أصبِح رئيس حكومة صاحب الجلالة لكي أشرفَ على تصفية الأمبراطوريّة البريطانيّة".

ومرّةً أُخرى، لجأَت السُّلطات البريطانيّة إلى انتهاج سياسة "فرِّق تَسُد"، فشجَّعت الرابطةَ الإسلاميّة، وأغدقت عليها وعودًا خُلَّبًا لفترة ما بعد الحرب، وحرَّضت عناصرَ إسلاميَّةً على احتلال أيِّ منصبٍ حكوميٍّ يشغُر باستقالة أحد الوطنيّين منه، أو باعتقاله؛ ثمّ اتَّخذت من مظاهر الفُرقَة، التي هي خَلَقتها بين الطائفتين الهندوسيّة والإسلاميّة، ذريعةً لتبرير إحجامها عن منح الهند استقلالَها؛ ولم تَخفَ تلك المناوراتُ الخسيسةُ على المؤتمر، فانتقدَها بعُنفٍ واشمئزازٍ.

ولكن مع غروب عام ١٩٤١، كانت قوّاتُ اليابان الغازية قد غَدَت على أبواب الهند، وتوجَّس العالَم خَشية تلاقي الألمان واليابانيّين في الهند، فاشتدَّت ضُغوط روزفلت على تشرشل لحمله على وَعد الهند بالاستقلال، بُغيةَ تمتين جبهة القِوى الحليفة. وتعالت دعواتٌ مماثلةٌ من جهاتٍ دوليّةٍ شتّى، ولم يتردَّد وزراءُ حزب العَمَل المشتركون في الحكومة البريطانية في إسماع صوتهم المؤيِّد لاستقلال الهند.

واضطُرّ تشرشل، تحت وطأة الضُّغوط المتشابكة إلى إيفاد أحد أعضاء حزب العمّال، "السير ستافورد كريبس" إلى الهند، وفي جُعبته مقترحاتٌ صيغت في كثيرٍ من

الحِذق الماكر، بحيثُ كانت، في ظاهرها، تحمِلُ وعدًا باستقلال الهند، في أعقاب الحرب، ومنحِها صفةَ الدومنيون، مع حقّ الانسحاب من الكومنولث، وفقًا لمطالب غاندي والمؤتمر؛ بيدَ أنّ تلك المقترحات، فضلاً عن كونها شيكًّا مؤجّل الدَّفع، مشكوكًا في صلاحيّته، انطوت على نُصوصٍ تمثِّلُ قنبلةً موقوتةً كفيلةً بنسف استقلال الهند الموعود، وعلى ثُغرةٍ عريضةٍ تتسرّب منها بريطانيا للعودة إلى العَبَث بشؤون الهند كلّما اقتضت مصلحتُها ذلك، إذ قد نصّت على أن يؤلّف المهراجاتُ والأمراءُ، الخاضعون للنُّفوذ البريطانيّ ثلثَ أعضاء المجلس التأسيسيّ الهنديّ، كما نصَّت على أن تنعَم كلُّ مقاطعةٍ هنديّةٍ بحقّ رفض دستور الهند المستقلّة العتيد، والانسحاب من الاتحاد الهنديّ ساعةَ تشاء، والحصول على دستورٍ خاصٍّ مستقلٍّ بالاتّفاق مع حكومة صاحب الجلالة.

وبعد أن أطلعَ "كريبس" غاندي على تلك المقترحات، بادره الزَّعيمُ الهنديّ بالقول، من غير مُواربةٍ: "إن كان هذا هو كلّ ما جئتَنا به، فنصيحتي لك أن تستَقِلَّ أوّلَ طائرةٍ تعود بك إلى بلادك". فقد كان غاندي يأبى تشريح جثّة الهند، ويعتبر كلّ مساسٍ بوحدتها خطيئةً مُميتةً. وانضمَّ إلى رأي غاندي كلٌّ من المؤتمر، والرابطة الإسلاميّة، وجماعات السيخ والهاريجان، وشتّى الفئات والطوائف، وعاد "كريبس" خاليَ الوفاض.

ولكن، إنصافًا "لكريبس" يجدُر التنويه بأنّه قبل عودته، خائبًا، إلى بلاده، كان قد جَهِد في التقرُّب من وُجهات النَّظر الهنديّة، وأَجرى، في هذا السياق، مفاوضاتٍ مع نهرو، من غير استشارة نائب الملك، ولا حكومة لندن؛ فاستشاط تشرشل غَيظًا، وأَبرقَ آمِرًا إيّاه بالعودة في الحال؛ ونمت تلك التفاصيل إلى روزفلِت، فأَبرق بدوره إلى تشرشل مُستنكرًا تشدُّده، فكان جواب الزعيم البريطانيّ أنّه، إرضاءً للرأي العامِّ الأميركيّ، يُؤثر الانسحاب من الحكم على الاستجابة لمطالب غاندي.

لقد كان واضحًا أنَّ أيَّ تلاقٍ بين غاندي وتشرشل مستحيلٌ، فهما يُمثِّلان جيلَين يفصل بينهما بَونٌ شاسعٌ، ونزعتَين على طرفَي نقيضٍ. فتشرشل كان يَعُدّ الهندَ ملكًا لبريطانيا، ويؤكِّدُ عزمًا لا يلين على الاحتفاظ بذلك الملك؛ في حين كان غاندي يؤمنُ بكلّ جوارحه أن لا حقَّ لبريطانيا في الهند. تشرشل كان ما انفكَّ يعيش في عقليّة

القرن التاسع عشر، قرنِ "السِّلم البريطانيّ"، والأمجاد البريطانيّة؛ وغاندي، من غير حقدٍ ولا عنفٍ، وبدافع حبّه لوطنه وإخلاصه للحقّ، كان جاهدًا في تحطيم تلك الأمجاد؛ تشرشل كان يحبّ، من الهند، تعدّد طبقاتها، ويحبّ من بريطانيا، أَرستقراطيّتها، في حين كان غاندي يقضي على نظام الطبقات في الهند، ويعدُّ الناسَ أجمعين سواسيةً، بحيث لا يسمو إنسانٌ إلاّ بأخلاقه وإخلاصه للحقيقة. وكان تشرشل، بقَدر ما يتقدّم في السنّ، يُوغل في نزعته المحافظة، وفي تشبُّثه بالتقاليد، وفي الانعزال داخل عالَمه الخاصّ، في حين كان غاندي يزداد، مع الأَيَّام، ثوريّةً، ودأبًا على تدمير التقاليد البالية الفاسدة، وذَوبانًا في محيط الجماهير الفسيح. وكان يرى في أَوضع جنديٍّ هيكلاً للربّ، في حين كان يرى تشرشل في الهنود أجمعهم مدارجَ للعرش البريطانيّ، وربَّمَا كان متأَهّبًا للموت في سبيل عظمة بريطانيا، ولكنّه كان يجهَد في القضاء على كلِّ راغبٍ في تحرير الهند. كان تشرشل يستشفّ في التسلُّط والسُّلطان ملحمةً رائعةً، في حين كان غاندي، القدِّيس الهادئ، يناهض كلَّ سيطرةٍ ويجهَدُ في تقويضها.

لقد حارب تشرشلُ غاندي، بكلّ ما أُوتي من ضراوةٍ، مُذ تقلّد الحُكمَ عام ١٩٤٠ حتّى طُرِدَ منه عام ١٩٤٥؛ وكانت تلك، في الواقع، حربًا بين ماضي بريطانيا الغارِب، ومستقبَل الهند المُؤذن بالشُّروق؛ وقد كُتِبَ النَّصر لغاندي، وظَهرَ الحقُّ.

سجنٌ وصومٌ وأَحزان

عَقبَ فَشَل مُهمّة "كريبس"، ساد الجمودُ العلاقاتِ الهنديَّة البريطانيّة، وشاعَ التشاؤم، في حين كان الغَزوُ اليابانيّ يمتدّ، ويكاد يقرَعُ أبواب الهند، والهند لا تملك القُدرة على تقرير مصيرها، ولا النَّهجَ الذي يتعيّن عليها سلوكهُ.

في تلك الأثناء، كان غاندي، من على منِبَر صحيفة "هاريجان" يُهيب بمواطنيه، إن ما احتلَّ اليابانيّون ديارَهم، أن يُخلوا لهم الأَرض، وإلاّ يقيموا معهم أيّة علاقة تعاونٍ؛ وفي نفس الآن، كان يُندّد باليابانيّين ويحذِّرهم: يُندّد بانجرافهم في تيَّار الأمبرياليّة الذي دَفَعَهُم إلى غَزوِ الصِّين، ممّا أفضى إلى اغتيال حُلم وحدةٍ آسيويّةٍ، كان من شأنها أن تضمن للعالَم السِّلم والازدهار، ويُنذرهم بأنّهم، إن سوّلت لهم

نفسهم مداهمةَ الهند، سيلقون مقاومةً صامدةً لا تلين ولا تنثني.

أمّا سائر الزعماء، فكانوا ما انفكّوا توّاقين إلى الإسهام في الجُهد الحربيّ، وإلى مُقارعة الفاشية والنازيّة، ولكنَّهم ما كانوا يستطيعون، ولا هم كانوا يريدون فعلَ ذلك، إلاّ بقرارٍ حرٍّ منهم، وبصِفَتهم دولةً مُستقلّةً. وبين الفينة والفينة، كانت اللّجنة التنفيذيّة للمؤتمر تجدّد التعبير عن رغبة الهند في الانضمام إلى المجهود الحربيّ البريطانيّ، شرط تمتُّعها بالحكم الذاتيّ؛ ولكنّ بريطانيا، بزعامة تشرشل، كانت صَمَّاءَ عن نِدائهم، مُعرِضَةً عن رغباتهم، مُمسكةً عنهم حقَّهم المشروع.

وانتهى بهم الأمرُ إلى أن ضاقوا ذَرعًا بالشّلَل الذي فرضَته عليهم بريطانيا مُتَوخِّيةً النَّيلَ من رجولتهم، والفتَّ في عَضُدهم، ورأَوا في ذلك الشّلَل، إن هو طال، انتحارًا، فأَنذر المؤتمرُ الحكومةَ بعزمه على إعلان العصيان المدنيّ، بقيادة المهاتما غاندي، إن هي ظلَّت متنكّرةً لحقوقهم ومطالبهم.

وأَوجَس غاندي السُّخط يجيش في النفوس، مُنذرًا بانفجار بُركان العُنف، وهو، أيضًا، كان قد ضاق ذَرعًا بعنجهيّة تشرشل وحكومته، وبامتهانه شعبًا بأكمله، وبات أَشدّ إنصاتًا لهمس "صوته الداخليّ"، ولا سيَّمَا أيّام الاثنين، حيثُ كان يلتزم بصَمتٍ تامٍّ؛ وعندما حضر جلسة المؤتمر، ليلةَ الثامن من آب ١٩٤٢، كان "صوته" قد أوحى إليه ما يتعيَّن عليه قوله. فاستمهل المؤتَمرَ أسبوعَين، ريثمَا يتمكّن من مقابلة نائب الملك، ويستنفذ جميع الوسائل الودّية السلميّة، قبلَ إعلان العصيان المدنيّ، ولكنّه، أكثَرَ من أيّ وقتٍ سلَف، ورُغم لهجته الهادئة الوديعة، كان يقذِف حممًا تنبئ بمَا يموج في صدره من عزيمةٍ وتصميمٍ. وقد جاءَ في خطابه قوله: "**إنّني أبتغي الحرّيةَ، في الحال، في هذه اللَّيلة بالذات، وقبلَ بزوغ الفجر، إن أمكنَ ذلك. إنّني أقدّم لكم شعارًا مقدَّسًا شديد الإيجاز: العمل أو الموت. سنُحرِّر الهند، أو إنّنا سنموت. ولكنّنا لن نعيش لنرى عبوديّتَنا تمتدُّ إلى الأَبد... على كلٍّ منكم أن يَعُدّ نفسَه، منذ هذه اللحظة، رَجُلاً حرًّا، أو امرأةً حرّةً، وأن يتصرّف على أنّه حرٌّ، لم تعد الأمبرياليّة تدوسه بنعالها**". وفي تلك الليلة أَطلق الشِّعارَ الذي ردّدته الهند بأكملها: "**أيُّها البريطانيّون، غادروا الهند**".

ولكن، عوضًا عن الحرّية التي كان يصبو إليها، كان السِّجنُ من نـصيبه، فـي ذلك الفجر عينه، ومن نصيب سَوادِ أعضاء المؤتمر وعَشَرات ألوف الوطنيّين. فقـد تسنّت لتشرشل السانحة التي قد طالما تمنّاها كي يحقّق حُلمه في قَصم ظهر "الغانديّة، وكلّ ما تمثّله"، ويُثبت قدرتَه على إجهاض العصيان المدنيّ؛ كما أنّه قد توخّى كـتمَ صوت الهند بسَجنه زعماءَها طيلةَ فترة الحرب، بحيثُ يُريح نفسه من إزعاجهم؛ لقد آثر الإبادة على التفاوض، وخُيّل إليه أنّه، بذلك، قد استتبَّت له الأمور.

بيد أنّه قد أخطأَ الحساب، فما كادت أبواب السّجون توصد على غاندي ورفاقـه حتّى اندلعت سيول العنف، فهبَّت الحرائـق فـي مراكـز الـشرطة، والمؤسّـسات الحكوميّة، وقُطعت وسائل الاتّصالات، واقتُلِعت السكك الحديديّة، وهوجم موظّفـون بريطانيّون، وفرّ آخرون في مناطق عديدةٍ، حيث ارتجل الهنود الثائرون حكومـاتٍ محليّةً مستقلّةً، وغدا زعماء المتمرّدين أبطالاً قوميّين، ومعظمهم ينتمون إلى حـزبٍ يساريٍّ كان يتعذّر عليه البروز إلى النور، بوجود غاندي، وفي إطار سياسة اللاّعنف التي كان ينشر لواءَها في البلاد.

كان غاندي يُدرك أنّ شعبه غير مُتأَهّبٍ لعصيانٍ خالٍ من العنف، ومن ثمّ كـان قد أَعلن عن عزمه استنفادَ جميع الوسائل السلميّة، وآثَرَ التفاوُض مع نائب الملـك، قبل إعلانه العصيان؛ ولو هو أُلجئ إليه لربَّمَا كان استنبط له نَمَطًا سلميًّا على غرار مسيرة الملح؛ وقد اعترف نهرو نفسه بأنّ قرار المؤتمر، ليلة الثامن من آب، "لم يكن تهديدًا، بل محاولةَ انفتاحٍ على التّفاهُم، وعَرضًا للتعاوُن"؛ ولكنّ استعجال تشرشل في تحطيم غاندي قد جَلَب الأهوال على البريطانيّين والهنود معًا. وهكذا، بدافع العنجهيّة الأمبرياليّة، والحِقد الشخصيّ، الذي كان يُضمره لغاندي، فوَّت تشرشل فرصةً ثمينةً فذّةً، لو هو كان قد تحلّى بصفاء النوايا فاهتبلها، لوفَّر على الهنـد كـلّ مـا رافـق استقلالَها وتقسيمها، عام ١٩٤٧، من سُيول الدماء، وملايين الضحايا، ومآسٍ مفجعةٍ تندّ عن الوصف. ففي تلك المرحلة من الحرب، كان غاندي نفسه، وجميـع زعمـاء المؤتمر راضين، في إطار دولةٍ مستقلّةٍ، بأن تَستخدم القوّاتُ البريطانيّـةُ والحليفـة أَراضيَهم وموانئَهم؛ ولو مُنِحت الهند الحكم الذاتيّ، آنذاك، لتمّ انتقال الـسُّلطات فـي

هدوءٍ ورِفقٍ وسلامٍ، بإشراف القوّات الحليفة، ولغنمت بريطانيا الثَّناء والتقدير، وحُجِبَت دماءُ الهنود، وأُخمدت نيرانُ الأحقاد.

ولكن، لا بُدّ من الاعتراف بأنّ البريطانيِّين قد جَهِدوا في إسباغ أسباب الرفاه على سجن غاندي، فأنزلوه قصرًا كان يمتلكه الآغا خان، في بيراقدا وضمّوا إليه أصدقاءه المُقرَّبين، "مهاديف ديساي"، والشاعرة "نايدو" والآنسة "ميرا بين"، وهي ابنة أميرالٍ بريطانيٍّ، كانت قد انضمّت إلى أشرم غاندي، واعتنقت مبادئه وأساليب عيشه، وانتدبت نفسها لخدمته؛ وفي اليوم التالي لسَجن غاندي، إذ كانت زوجته كاستورباي تُعلِن عن عزمها الخطابة في اجتماعٍ في بومباي، كان من المقرَّر أن يتولّى، هو، فيه الكلام، أُلقي القبض عليها، أيضًا، واقتيدت بصحبة الدكتورة "سوشيلا نجّار" إلى جوار المهاتما السَّجين كي تُعنيا به.

بيدَ أنَّ فخامة القصر، وعناية الأصدقاء لم تَصرِفا غاندي عن أسباب القَلَق ودواعي الثَّورة، ولا سيَّمَا بعد أن حاولت الحكومةُ تحميلَه تَبِعات أعمال العُنف التي نشبت في البلاد. وعَبَثًا حاول المهاتما ردّ ذلك الاتهام الباطل، عِبرَ رسالةٍ إلى نائب الملك أوضح فيها أن تَبِعة العنف تقع، في المقام الأوّل، على الحكومة، من جرّاء إغلاقها باب النِّقاش، وإيثارها القمعَ على التفاوض، بحيث وقعت في جريرة ما جَنَت أيديها. وقد أكّد غاندي أنّه، لولا اعتقالُه لما صارت الأمور إلى ما آلت إليه، ولتذرّع العصيانُ المدنيّ نفسه بوسائل تنتبذ العنف. ولكنّ "الحكومة هي التي دفعت الشعبَ إلى التمادي في الجنون". إلاّ أنّ نائب الملك، مع عميق احترامه لغاندي، كان يرزح تحت ضغوط حكومة لندن، فردَّ بعباراتٍ مقتَضَبَةٍ، رافضًا النقاش، وآخذًا، من جديدٍ، على المهاتما، سكوتَه عن أعمال العنف، في حين لم يكن غاندي السَّجين يملِكُ عليها سلطانًا، ولا يستطيع إصدار حكمٍ عادلٍ فيها قبل الإلمام بجميع ظروفها، والإصغاء إلى كافّة أطرافها.

وإزاء هذا الموقف المُزري بالحقيقة، أَعلن غاندي عن اعتزامه الصِّيامَ واحدًا وعشرين يومًا؛ ولكنَّه لم يكن راغبًا في الموت، وإذ كان جسمه يرفُض الماءَ الصِّرف ويمجُّه، فقد أَباحَ لنفسه إضافةَ بضع قطراتٍ من اللَّيمون إلى الماء الذي أَلِف رشفَه

أثناء صيامه، وأكّد استعداده لإنهاء صومه إن ما غيّرت الحكومةُ موقفها من مطالب الهند العادلة.

ولم تكن الحكومة آبهةً بحياته، ولكنّها، تحسّبًا لما قد يُسبّبه موته داخل السجن، عرضت إطلاق سراحه، وسراح صحبه، طيلةَ فترة صيامه؛ وإزاء رفض غاندي لذلك العرض، أعلنت الحكومة أنّه يتحمّل، وحدَه، مغبّةَ كلّ ما قد ينجم عن صيامه، وأَذِنت لأصدقائه وأَطبّائه بزيارته والمكوث إلى جانبه.

ويبدو أنّ تشرشل قد استطار جَذَلاً عندما نمى إليه نبأ صوم غاندي، وتمنّى، في قرارة نفسه، أن يذهب ذلك الصَّومُ بخصمٍ مُزعجٍ، وأَمَرَ باتّخاذ جميع التدابير الآيلة إلى حَرقِ جُثمانه، خِلسةً، تحت جنح الليل، إذا ما أَودى به صيامه، وفورَ وفاته.

وقد باشر غاندي صيامه، في العاشر من شباط ١٩٤٣، وسحابةَ الأَيّام الثلاثة الأولى ظلَّ مَرِحًا ومثابرًا على نزهاته الصباحيّة والمسائيّة في حدائق القصر السجن؛ بيد أنّ قُواه قد خارت منذ اليوم الرابع، وأَخذ وضعُه الصحيّ ينهار؛ وفي اليوم السادس أَعلنَ بيانٌ طبيٌّ عن تدهورٍ مُقلِقٍ في حاله، فانهمرت على الحكومة عرائض تُندِّدُ بمَا نُسب إلى المهاتما من مسؤوليّةٍ عن أعمال العُنف التي كان سَجنه قد أفلتها من عقالها، وتُطالب بالإفراج عنه؛ ولكنّ الحكومة لم تأبَه بها، مثلما ردّت، بفظاظةٍ، جميعَ الوساطات التي قام بها بريطانيّون وسواهم، دفاعًا عن غاندي؛ واندفعت الجماهير القَلِقَةُ تحاصِرُ القصر السجن، وقد أُذِن للألوف منهم بإلقاء نظرةٍ على زعيمهم وهو يُصارع الموت.

وجال في خاطر بعض الأَطبّاء تغذية المهاتما اصطناعيًّا، ولكنّه كان يأبى الحقن، وهكذا عانى من الضِّيق ألوانًا قبل انتهاءِ صومه، ولكنّه صمد؛ وفي يوم الثَّاني من آذار، تناولَ من يد كاستورباي كوبَ عصير فواكه؛ واقتصر غذاؤه، في الأَيّام التَّالية، على عصير الفواكه والحليب، إلى أن استعادَ بعض قواه.

لم تكن محنة الصِّيام وحدَها هي التي أوهَت جسمَ غاندي، فقد كُتِب له أن يعاني، في قلبه، طعناتٍ أَليمةً، خلال فترة سَجنه هذه، كانت أولاها نوبةً قلبيّةً مباغتةً حادّةً، اختطفت، في لَحَظاتٍ، أَمينَ سرّه الوفيّ، "مهاديف ديسّاي"، وهو، بعدُ، في الخمسين من عمره. وقد

صاح المهاتما، من أعماق قلبه الملتاع: "**مهاديف! مهاديف! افتح عينَيك وحدِّق فيَّ، وأنا واثقٌ بأنّك لن تموت!**". ولكنّ الموت كان أقوى شوكةً من حبّ غاندي لمن كان له بمثابة الابن والصديق الذي رافقه كظلّه سحابة ربع قرنٍ، وأنِس إليه، وكان له المخبِر والمؤرِّخ والساعدَ اليُمنى؛ وقد حطَّم غيابُه نفسَ غاندي، الذي بات، كلَّ يومٍ، يختلف، مرارًا، إلى موقع حديقة القصر الذي أودع فيه رماد "مهاديف"، وكأنّه يحاول معانقةَ ذكرى حميمةٍ غاليةٍ. وقد أُقيم لمهاديف ضريحٌ مؤقّتٌ في حديقة السجن، فالتمس غاندي من أَصدقائه أن يرسموا فوقه رمزًا هندوسيًّا، وصليبًا، وهلالاً، ونجمةً، وأوكل إلى كلٍّ منهم أن يزيّن بالزهور واحدًا من تلك الرُّموز باطّرادٍ، محتفظًا لنفسه بتزيين الصّليب، فقد كان الصليب حاجةً جوهريّةً في نفسه، وغدا، في أَعقاب تلك الفاجعة، أشدّ التصاقًا به.

وكما قيل، قلّما تأتي الفواجع فُرادى؛ فقد كان الجُرحُ الذي خلّفه موت مهاديف ما انفكّ نازفًا، عندما ضربت المنيّةُ طعنتَها الثانية في قلب المهاتما، وانتزعت منه شريكة عمره، كاستورباي، في أعقاب صراعٍ مع الموت امتدّ نحو ثلاثة أشهر. وقد قضت نحبها في ٢٢ شباط ١٩٤٤، ورأسها ملقى على ركبتَي غاندي؛ ولا ريب أنّ أصدقاءه لم يملكوا حبس دموعهم، لمّا عاد المهاتما الملوَّع من طقوس حرق جثمان زوجته، وجلَسَ إلى جانب سريرها الخاوي، واجمًا، ثمّ طفق يُكلّم نفسه: "**لستُ أستطيع تخيّل العيش من غير "با"... لا شيءَ يستطيع ردم الفراغ الذي خَلَّفَه موتُها... لقد عشنا معًا اثنين وستّين عامًا... لقد انطفأَت على ركبتيّ...**".

وتروي "ميرا بن"، وكانت شاهدةَ عيانٍ على وفاة كاستورباي، أنّه، عندما دنا أجَلُها، احتضنَها غاندي بين ذراعيه، وعندما تبيّن له أنّ وتيرة لُهاثها قد اختلفت بغتةً، هَمَس في أذُنها مستطلعًا: "ما الأمر؟" فأجابت بجرسٍ رقيقٍ واضحٍ، كانت نبرته تنمّ عن الدَّهشة، وكأنّها تعيش تجربةً قشيبةً رائعةً: "لستُ أدري ما هذا الذي يجري". ولكن لم تبدُ عليها أمارات خوفٍ أو قلقٍ.

بضعةَ أسابيع، بعد وفاة كاستورباي، اعترت غاندي الملاريا، والتهاباتٌ معويّةٌ حادّةٌ؛ وفي الثالث من أيّار، أَعلن بيانٌ طبّيٌّ عن معاناته من فقرٍ دمويٍّ خطيرٍ، وانخفاضٍ في الضّغط الشريانيّ، وأَنّ حالتَه، عمومًا، تدعو للقَلَق؛ وهبَّت الهند تُطالب

بإطلاق سراحه، فأُحيط سجنُه بحراسةٍ شديدةٍ. ولكن، في صبيحة الثامن من أيّار، أُفرج عنه وعن رفاقه المقرَّبين. كان ذاك هو سجنَه الأَخير، وبه، كان، منذ مطلع حياته السياسيّة قد قضى ٢٠٨٩ يومًا في سجُون الهند و٢٤٩ يومًا في سجون أفريقيا الجنوبيّة؛ وقد خلّف سجنه الأخير ذاك فيه جُرحًا مُزدوِجًا لا يندمل، وأسًى سحيقًا باقيًا، إذ فقد، فيه، أعزّ كائنَين على قلبه.

خرج المهاتما من السجن مُحَطَّمَ الفؤاد، واهيَ الجسم، في حين ما انفكّ معظمُ زعماء المؤتمر نزلاء السجون، والبلاد تعمُّها الفوضى، والجماهير تئنّ من المجاعة، وعيون الهند والعالم شاخصةٌ إليه، توّاقةٌ إلى ما سيقول ويفعل.

كان عليه الشُّروع باستعادة قواه، فمكث عند أحد أصدقائه، قريبًا من شواطئ بومباي، حيثُ عكف الأَطبّاء على علاجه، فيمَا كان هو يُعالج نفسه بالصَّمت الذي دعاه "الصمت الطبّي"، والذي كان مُتواصلاً أوّل الأمر؛ ثمّ غدا يقطعه بين الساعة الرابعة والثامنة مساءً، لدى حلول موعد الصلاة الجماعيّة التي يثوب، في إثرها، إلى الصمت من جديدٍ.

وبعد بضعة أسابيع قضاها في النَّقاهة والتأمّل، عادَ فانغمس في معمعان العمل. في تلك الأثناء، كان نائبُ الملك قد أَبرق إلى حكومته يُحيطها علمًا بمَا آلت إليه الهندُ من مجاعةٍ، فجاءه ردّ تشرشل، ينمّ، في اقتضابه، عن هَلوَسةٍ وسماجةٍ، وإِغراقٍ في الحِقد والقِحَة: "**ولمَ لم يَمُت غاندي بعدُ؟**".

كان غاندي يأبى الموت إلاّ في هندٍ حرّةٍ. أمّا تشرشل فكان عليه أن يُعفّر جبينَه برَغام الهزيمة. كان تشرشل قد أحرز لبلاده النَّصر في الحرب، أمّا غاندي فكان يتطلّع إلى سِلمٍ حقٍّ يعمُّ العالَم أجمع، والسِّلم، عنده، تَوأم الحرِّيَّة، ممّا يُحتِّم على المنتصرين التنكُّب عن الشُّرور التي تُفضي إلى الحرب، وفي مقدَّمتها الاستعمار.

وقد أوضح المهاتما للصحافة العالميّة التي توافد مندوبوها، في شهر نيسان ١٩٤٥، للظفر منه بتصريحٍ، عشيّةَ مؤتمر سان فرنسيسكو، الذي كان مقبلاً على وضع ميثاقِ الأمَم المتَّحدة قائلاً:

"لن يكون للحُلفاء سلامٌ في العالَم، ما لم ينتبذوا الإيمَانَ في نجاعــة الحــرب، ومـا يُواكبها من خَيبات أَمَلٍ مُريعةٍ ومن أراجيفَ، وما لم يوطّنوا العزمَ على بناء سلمٍ حقٍّ قائمٍ على حرّيَّة جميع الأجناس والأمَم، وعلى مساواتها... إنّ حرّيَّة الهنـد سـتُثبت لـشعوب الأرض المُستَغَلَّة أنَّ حرّيّتها باتت قريبةً، وأنْ لا أحدَ سيقوى، بعد، على استغلالها".

غاندي وجناح

خَرَجت بريطانيا من الحرب مُرهَقَةً، خائرةَ القِوى، خاويةَ الخزينة؛ وكان مـن الجليّ أنّها لن تقوى على المُضيّ في مصارعة الهند التي أثبتت أنّها لن ترضى عن الاستقلال بديلاً. وشاعَ، بين البريطانيّين أنفسهم، التبرُّمُ من تَعنّـتِ تـشرشل، وقـد عبّروا عن تبرّمهم ذاك بأصواتهم في انتخابات شهر تمّوز ١٩٤٥، التي، بها، خذلوا تشرشل، وأحلُّوا، في الحكم، محلَّه، حزبَ العمّال، بقيادة كليمنت أتلي. وسُرعان مـا أعربت الحكومة الجديدة عن رغبتها في تحقيق الحُكم الذاتيّ للهند، في أَقصر مهلةٍ.

وكان نائب الملك قد برهن عن هذه الرغبة منذ شهر حزيران، إثرَ عودته مـن لندن حيثُ لمس انهيار سَطوة تشرشل، فَشَرعَ يُبدي اللِّينَ والمُصانعة في تعامله مـع الوطنيّين الهنود، وأطلقَ سراح قادة المؤتمر الذين كانوا ما برحوا رَهن الاعتقال منذ التاسع من آب ١٩٤٢، ومنهم أبو الكلام أزاد، وجواهر لال نهرو؛ وفـي الخـامس والعشرين من حزيران ١٩٤٥، استدعى إلى مركزه الصَّيفيّ فـي "سـيملا" القـادة السياسيّين وبَسَط أمامهم مشروعه الهادفَ إلى الشُّروع في منح الهند الحكمَ الذَّاتيّ.

ومع أنّ غاندي كان مستقيلاً من المؤتمر، إلاّ إنّه شَخَصَ إلى "سيملا" واشـترك في جميع جلسات النِّقاش.

كان مشروعُ "ويــڤــيل"، نائب الملك، يقضي بتأسيس مجلسٍ تنفيذيٍّ، لا يضمُّ من البريطانيّين سوى نائب الملك نفسه، والقائد العامّ العسكريّ، في حين يَتَقلَّد الهنود جميع المناصب الأُخرى، بمَا فيها السياسة الخارجيّة، والماليّة، والأَمن، على أن يُعيِّن نائـبُ الملك الأعضاءَ الهنود من قوائمَ تقدّمها له مختلفُ الأَحزاب والهيئات.

ولكن سُرعان ما اتّضح لنائب الملك وللزّعماء المشتركين في اللّقـاء أنّ ذلـك

المشروع صائرٌ إلى فَشَلٍ مُحتّمٍ، من جرّاء موقف زعيم "الرابطة الإسلاميّة"، محمّد علي جناح، الذي شرَط أن تُقَسَّم مناصب المجلس مناصفةً بين المسلمين الذين يعيّنهم هو بنفسه، ويختارُهم من أعضاء الرابطة الإسلاميّة التي يتزعّمُها، وهندوسيّين من الطَبَقات العليا، باستثناء المنبوذين.

وبَدَهيٌّ أن يصطدم هذا الشرط بالرفض، لتعارضه مع الواقع الجغرافيّ والاجتماعيّ ومع المبادئ الأَساسيّة التي كان غاندي يعمل على إرسائها. فالرابطة الإسلاميّة لم تكن تمثّل جميعَ المسلمين، الذين كان يتبوّأ عددٌ كبيرٌ من زعمائِهم مناصبَ مرموقةً في المؤتمر، فضلاً عن أَنّ عدد المُسلمين البالغ زُهاءَ مئة مليون نسمةٍ كان يُمثِّل نحو رُبع مجموع سكَّان البلاد، ويقابله ثلاث مئة مليون هندوسيٍّ؛ وربّمَا كان المؤتمر متأهّبًا لإبداء المرونة في هذا المضمار، رغبةً منه في تحقيق الحكم الذاتيّ، ولكنّه كان يأبى أن يتمّ التمثيل على أَساسٍ طائفيٍّ، وكان يرفض، أكثر من ذلك، أن يمثّل المؤتمرُ بعض الهندوسيّين، باستثناء المنبوذين والمُسلمين، وهو الذي قد طالما طَمح في تمثيل الوحدة الوطنيّة، وكافَح جميعَ أشكال التفرقة بين الطوائف وبين الطَّبقات الهندوسيّة.

ولكن، بدا واضحًا أنّ البريطانيّين كانوا راغبين في مُمالأة محمّد علي جناح، وهم الذين، أثناء سجن زُعماء المؤتمر، قد شجّعوا إنشاء "الرابطة الإسلاميّة" ووفّروا لها عواملَ الانتشار والمِنعة.

ثمَّ مضت بريطانيا، بحكومتها العمّالية، قُدُمًا في إبراز حُسن نواياها حيال الهنود، فأفرجت عن المزيد من المساجين السياسيّين، وأَجرت، في خريف عام ١٩٤٥، انتخاباتٍ للمجالس التشريعيّة، ففاز المؤتمرُ بمعظم المقاعد المخصّصة لغير المسلمين، وكانت المقاعدُ المخصّصة للمُسلمين، بأكثريَّتها الساحقة، من نصيبِ الرابطة الإسلاميّة، ما جعل محمّد علي جناح أكثر تَصلّبًا، وأَشدَّ لجاجةً في المُطالبة بتأسيس دولة الباكستان المستقلّة، قبلَ ظَفر الهند باستقلالها.

وهكذا أَلفت بريطانيا نفسَها مُرتَطِمةً بمأزقٍ حَرِجٍ، كانت هي التي خلقته بنَفخِها في نار الفِتنة الطائفيّة؛ فقد كانت الدولة التي اندفع جناحُ يُطالب بإنشائها تبدو

استهتارًا بالواقع الجغرافيّ، واستهانةً بالمنطق السليم؛ فالمناطق التي كـــان يُرشّـــحها لتكوين الباكستان، وذات الأغلبيّة السكّانيّة المُسلمة، تضمُّ نحوَ ستّين مليـــون مـــسلمٍ، ولكنَّها تضُمّ أيضًا نحو أربعين مليون هندوسيٍّ، في حين أنّ نحو أربعين مليون مُسلمٍ كانوا سيبقون في مناطق يَطغى فيها عدد الهندوسيّين، وكان ذلك التداخل كفيلاً، فـــي حال إنشاء دولتَين طائفيَّتين، بإضرام الحرائق الطائفيّة، وإراقة أنهرٍ من دماءٍ، وهـــذا ما حدث فعلاً، فضلاً عن تقطيع أوصال البلاد الاقتصاديّة، وعن تكـــوُّن الباكـــستان المقترَحة من منطقتَين متباعدتَين، لا يجمع بينهما، فيمَا خلا الطابع الإسلاميّ الغالب، أَيُّ عاملٍ جغرافيٍّ أو تاريخيٍّ أَو ثقافيٍّ أو لُغويٍّ، ويفصُل بينَهما زُهاءَ ألفٍ وخمـــس مئة كيلومترٍ تمرّ بأراضي الاتّحاد الهنديّ وتخضع لرحمته. وقد أثبت الواقع، في ما بعد، أنَّ الزواج بين ذينك الجناحَين كان قسريًّا منافيًا للطبيعة، فلم يكن من طلاقهمـــا بدٌّ، وانسلخ القسم الشرقيّ من الباكستان عن قسمه الغربيّ، عام ١٩٧١، ليُكوِّنَ دولة بنغلاديش المستقلّة.

وقد عرضت لَجنةٌ أوفدتها الحكومة البريطانيّة حَلاً يُرضي جميع الأطراف، كان يقضي بتأليف حكومةٍ مركزيّةٍ تضطلع بالدفاع والشؤون الخارجيّة، وثلاث مقاطعاتٍ رئيسيَّةٍ تتمتّع بالحكم الذاتيّ، إحداها ذات أَغلبيّةٍ هندوسـيّةٍ، وأُخـــرى ذات أَغلبيّـــةٍ مُسلمةٍ، وثالثة شبه متوازنةٍ، ولكلٍّ منها مؤسّسات إدارةٍ محلّيةٍ. وبعد كثيرٍ من التردّد، رضيَ غاندي بذلك الحلّ، مع ما كان يصطبغ به من طائفيّةٍ، تفاديًـــا لتقـــسيم الهنـــد وتشريحها؛ إلاّ أنّ "الرابطة الإسلاميّة" أقسمت على إيجاد دولة الباكستان المنفـــصلة المستقلّة، ولو بالقوّة، وهتف جناح: "سنقاتل، وســـنموت إن اقتـــضى الأمـــر ذلـــك، وسيكون لنا النَّصرُ أو الموت".

كان محمّد علي جناح يَعُدّ نفسه موازيًا لغاندي، وحريصًا على إثبات ذلـــك بكـــلّ الوسائل. كان يَصغُر غاندي بسبع سنواتٍ، ولكنّه، مثلَه، كان قد وُلد في شـــبه جزيـــرة كاثياور الهنديّة، ومثلَه، كان، في صباه يتكلّم اللَّهجة الكوجاراتيّة؛ كان الابنَ البكر لأسرةٍ من التُّجَّار تنعم بالثروة، وكانت أسرته تلك هندوسيّة الأصل، اعتنقت الإســـلام حـــديثًا، ولكنَّها حافظت على الكثير من التقاليد الهندوسيّة؛ وجناح، أيضًا، تلقّى علومه العليا فـــي

إنكلترا، حيث نال إجازةً في الحقوق، وأَصبح مُحاميًا بارعًا، ناجحًا، أصاب مالاً وفيرًا، وعاش في بحبوحةٍ وتَرَفٍ. وكان قد ابتنى لنفسه قصرًا منيفًا، على شكل هلالٍ، على شاطئ بومباي، تجلّت فيه مظاهر الإثراء الباذخ، والأَناقة المرهفة؛ وكان شديد العناية بهندامه، أرستقراطيَّ السلوك، معتَدًّا، متكبّرًا، حريصًا على الشكليّات التي تضمن تفوّقه وسطوته، فهو، على سبيل المثال، كان يشرط أن تتمّ اللقاءات بينه وبين غاندي في منزله، وكان غاندي الذي لا يُقيم للشكليّات وزنًا، يحضر إليه راضيًا مسرورًا.

في مطلعِ مسيرته السياسيّة، كان جناح عضوًا بارزًا في المؤتمر الوطنيّ الهنديّ، وظلّ عضوًا عاملاً فيه سنين طويلةً، وترأّس إحدى دوراته؛ وكان يدعو إلى تكاتُف الطائفتَين الكبيرتَين ويحذّر المُسلمين من الدعوات الباطلة الدَّاعية إلى الصراع بينهما.

إلاّ أنّه منذ عام ١٩٢٠، عندما أخذ غاندي يبرز على ساحة السّياسة الهنديّة، هَجَر محمّد علي جناح الهند إلى إنكلترا حيثُ استقرّ، وأَصاب في ممارسة مهنة القانون نجاحًا متألّقًا. وسحابةَ خمس عشرة سنةً، أَي حتّى عام ١٩٣٥، لم يطأ أرض بلاده، حتّى لقضاء مهامّ شخصيّةٍ هامّةٍ، مثل تصفية أملاكه في الهند التي فوّض أَمرَها إلى أحد العُمَلاء.

لم يكن جناح يستسيغ سياسة غاندي، ولا سيَّمَا أساليب اللاعنف، والتشبُّث بمُثُل الدِّين؛ وكان يأخذ عليه إشراعه أبواب المؤتمر للفقراء، وأبناء الطَبَقات المسحوقة من الشعب، لتحلَّ محلَّ الأرستقراطيّين والمثقّفين، وكان يسخر من دعوته أعضاء المؤتمر إلى ممارسة الغَزل وارتداء "الخادي"، ويرى في كلّ ذلك مَهزَلةً سخيفةً.

لقد عُهدت، في جناح، أناقةٌ مفرطةٌ، كانت تدفعه إلى تبديل ملابسه ثلاث أو أربع مرّاتٍ يوميًّا، وهو، بالتالي، لم يكن متأهّبًا للاقتصار على التلفعُّ بقماشٍ قُطنيٍّ خاميٍّ رديءِ الصُّنع، إرضاءً لغاندي، ولا هو كان مُستعدًّا للتعفُّن في السجون كي يُثبت أنّه من أَتباع "الساتياغراها". كلّ تلك العوامل، مؤتلفةً، حملته على هجر المؤتمر، بل الهند كلّها.

وفضلاً عن ذلك كان جناح يُضمر لنهرو بُغضًا جمًّا، ويُقال إنّ ما حمله على العودة إلى حلبة السِّياسة الهنديّة، كلمةٌ تنامت إليه منسوبةٌ إلى نهرو، ادَّعى فيها أنَّ جناح لم يَعُد له، في الهند، وُجودٌ؛ وقد عاد كي يُثبت لنهرو أنّه ما زال موجودًا، ومتمتّعًا بنفوذٍ بليغٍ، وقادرًا على التحدّي. سببٌ تافهٌ أفضى إلى عواقبَ جسيمةٍ، وما أكثر أحداث التّاريخ المدَوِّية أو مآسيه المروّعة التي انبثقت من نَزوة غَضَبٍ، وكم من الدّماء قد أُريقت إرواءً لكبرياء فردٍ!

وعلى نقيض حال غاندي، كان بين التديُّن وجناح شِقّةٌ سحيقةٌ، فهو لم يكن له من الإسلام سوى صِفَته الرسميّة، وتحدُّره من أسرةٍ مُسلمةٍ، أمّا فروض الدين فقد أَلِف الإعراضَ عنها، وعُهِد عنه إدمانه على الخمرة، ومواظبته على معاقرة الويسكي حتّى آخر أيّامه.

أمّا فكرة دولة الباكستان فهي من ابتكار طالبٍ مُسلمٍ، يُدعى رحمت علي، مقيمٍ في إنكلترا، قد طالما جَهِد، عبثًا، في إقناع جناح بتبنّيها، يومَ كان مهاجرًا في بريطانيا؛ ولكنَّ جناح، آنذاك، وصفها بالحماقة، ولم يرضَ حتّى مجرَّد بحثها، ولكنّه، بعد أن قفل راجعًا إلى الهند، يحدوه التحدّي، باتت الباكستان فكرةً مسيطرةً على ذهنه وخياله، بحيثُ لم يعد بمُكنَة أية حجّةٍ زحزحته عنها قيد أَنملةٍ.

ولم يكن لجناح، بين المُسلمين، أصدقاء ولا تلاميذ، فقد عاش، أبدًا، في عزلةٍ عن الجماهير، في مثل برجٍ عاجيٍّ، ولكنّه، بعد أن تبنّى مشروع الباكستان، بات له ذلك المشروع قضيّةً عزمَ على ربحها، وقد أثبت، آنذاك، حِذقه في استنهاض المتحزّبين والأَتباع، وأمسى الدِّين سلاحَه السِّياسيّ.

وغنيٌّ عن التذكير أن الفرقة الطائفيّة كانت مجهولةً في قرى الهند التي تضمُّ زُهاء ثمانين بالمئة من مجموع السكَّان، وحيثُ يتعايش الهندوسيّون والمُسلمون في وئامٍ وانسجامٍ؛ وكذلك في ثكنات الجيش حيثُ كان يشترك أَبناءُ الطائفتَين في الطَّعام والنوم، وسائر مرافق العيش، من غير حَرَجٍ ولا تطيّرٍ. ولم تكن الفرقة الطائفيّة تبرز إلاّ في المُدُن، حيثُ تغدو ذريعةَ السياسيّين لاقتناص المغانم، وحجَّةَ طلاّب الوظائف.

وقد طالما بذل المؤتمر جُهودًا حميدةً في سبيل إزالة الطائفيّة، وتوطيد عرى الوحدة الوطنيَّة، بحيثُ تطغى على نزعات الفرقة، إلاّ أنّ قوى الشرّ ومساعي التقسيم، كانت أوفرَ حظًّا في النجاح من قوى الخير وجهود التوحيد.

وقد كان جناح بارعًا في استثارة النزعات الدينيّة المتطرّفة، وقد انضوى إلى حزبه، في المقاوم الأوّل، كبارُ ملاّكي الأراضي، ومعظمُهم من المُسلمين، إذ كانوا يخشَون، في إطار هندٍ مستقلّة، وقوفَ الحكومة إلى جانب الفلاّحين المتمرّدين، ومعظمهم من الهندوسيّين، ويتحسَّبون من قوانينَ إصلاحيّةٍ تجرّدُهم من ممتلكاتهم. وقد انضمّ، أيضًا، إلى حزب جناح فئاتٌ عريضةٌ من الطَّبقات المتوسّطة ممّن كان قد آزرهم على الظَفَر بوظائف قد طالما ظلَّت أبوابُها موصدةً دونَهم؛ ثمَّ إنّ جناح قد أفلح في التسلُّل إلى قلوب أفراد الشَّعب المُسلم، بشعاراتٍ أخّاذةٍ، كان، بها، يحرِّكُهم في الوُجهة التي يبتغيها. وقد برهن عن قُدرته على استفزاز الجماهير التي صوَّر لها أنّ المؤتمر، خلافًا لادّعاءاته، إنّما كان مؤسّسةً هندوسيّةً، وأنّ سياسة اللاّعنف التي كان المؤتمر، بإيحاءٍ من غاندي، يُنادي بها، منافيةٌ لتعاليم القرآن.

وهنا يبرز التباين الجوهريّ بين غاندي المتديّن بكلّ جوارحه، والحريص على بعث هندٍ علمانيّةٍ موحَّدةٍ، يشُدُّ عناصرَها وطوائفَها المختلفة ملاطُ الوطنيّة الشاملة، ومحمّد علي جناح، اللاّمتديّن، المتذرّع بالدّين ديناميتًا لنَسف وحدة الهند، وإنشاء دولةٍ ذات صبغةٍ دينيّةٍ.

وحيالَ إصرار جناح، وافق غاندي، فَرَقًا منه على أبناء الهند، المُتساوين في حُبّه، من شرور الطائفيّة، على انسلاخ الباكستان عن الهند، وتكوينها دولةً مسلمةً مستقلّةً، على أن يتمّ ذلك في تؤدةٍ ورفقٍ، في أعقاب الاستقلال، الذي كان يَضعَه في رأس أولويّاته. ولكن محمّد علي جناح كان حريصًا على تقسيمٍ فوريٍّ يتمّ أثناء وجود البريطانيّين، الذين كانوا نَزوعين إلى دعم مطالبه، على ما فيها من غُلوٍّ ومفارقاتٍ؛ فهم الذين كانوا قد فرَّقوا ليسودوا، وعندما قرّروا الانسحاب، كان عليهم حصدُ ما زرعوا.

صحيحٌ أنّ نائب الملك قد ناشد الشَّعب الهنديّ، في غروب عام ١٩٤٥، أن يتخطّى الخلافات، ويتنكَّبَ عن العُنف، ولا سيَّمَا أنّ الهند قد غدت على عتبة هدفها الأكبر الذي طالما ناضلت في سبيله. غير أنّ السياسة البريطانيّة كانت ما انفكّت تصطبغ بألوان الصِّراعات الداخليّة، وتتعاطف مع مطالب محمّد علي جناح.

أمّا رغبة غاندي في التُّؤَدة والأَناة فكانت نابعةً من إيلائــه الاســتقلال أولَويَّــةَ اهتمامه، ومن حِرصه على أن يتمّ التقسيمُ، إن لم يَكُنْ منه بدٌّ، بمشرط جرّاحٍ حَــذِقٍ يقطعُ ولا يُتلِف، ويتفادى النَّزف المُميت بعد أن يبضعَ، في حين أنّ التقسيم المرتجَلَ كان سيتمّ بمثل سكّين جزّار تُحَطّم العظامَ، وتمزّق الأَوصالَ، وتنثُر الدّماغَ، وتُــشرِع نزفًا يذهبُ بأسباب الحياة.

طوبى لصانعي السلام

مع أنّ غاندي كان قد آثَرَ الابتعادَ عن المُعتَرَك السياسيّ، إلاّ أنّه، في ربيع عــام ١٩٤٦، لبّى دعوةَ اللّجنة البريطانيّة المُكلّفة بالتمهيد لاستقلال الهنــد، والتــي كانــت تتباحث مع مختلف الأَطراف، بهذا الشأن، ورغم الحرِّ القائظ الذي كان يَسودُ دلهــي، في ذلك الفصل، شَخَص إلى تلك المدينة ومكَثَ فيها، متابعًا المفاوضات عن كثَبٍ.

وقد اتّخذ لنفسه مقرًّا أحدَ أكواخ المنبوذين المنثورة في حواشي المدينة، وبالتَّالي فرض على أعضاء اللّجنة البريطانيّة، وعلى زعماء المؤتمر الراغبين في زيارته أو استشارته، الحجَّ إلى تلك البؤر التعيسة التي لم يطأ مثلها، قطّ، أَحدٌ منهم، حيثُ كانت تسطع، بحِدَّةٍ، روائح الأَقذار العائمة في الأَنهر والمستنقعات المكشوفة، وحيث تحمل الوجوه سِمَات المرض ومخايل الشَّقاء. وقد توخّى غاندي، من ذلك، التأكيد علــى أنّ الكفاح في سبيل القضاء على البؤس والمنبوذيّة يعادل النِّضال من أجل الاستقلال.

وإذ كان المهاتما، حينئذٍ، واثقًا من صدق رغبة بريطانيا في منح الهند استقلالها، انصَبَّ اهتمامُه على محاولة التَّوفيق بين المؤتمر والرابطة الإسلاميّة.

وسُرعانَ ما اتَّضح لكلّ مُتبَصِّرٍ أنّ دَولة الباكستان المُزمع إنشاؤها، بحجّة حماية الأَقلّيات، كانت، في الواقع، تزيد أزمة الأَقلّيّات حدّةً. وتفاديًا لهذا المصير، جَهِــدت اللَّجنة البريطانيّة كي توفِّر للمُسلمين، في إطار اتّحادٍ هنديٍّ، كلّ الضَّمانات التي كانوا ينشُدونها من إنشاء دولتهم المستقلّة، وفي آنٍ معًا، تجنُّب ما قد ينجم عن إنشاء تلك الدولة من سلبيّاتٍ ومخاطر؛ وسعى غاندي في هذا المنحى، أيضًا، فعرض أن يتولّى محمّد علي جناح رئاسة حكومة الاستقلال ويُسند جميع الوزارات إلى مُسلمين، حِفاظًا

على وحدة الهند. ولكنّ اقتراح غاندي عَجزَ عن إغراء محمّد علي جناح، كما إنَّه اصطدم برفض المؤتمر، والشارع، في كلا الجانبين.

وقد أخفقت جميع الحلول المتعاقبة التي اقترحتها اللَّجنة، بسبب تصلُّب كلٍّ من الرابطة الإسلاميّة والمؤتمر؛ ففشل، على سبيل المثال، مسعى نائب الملك، الهادف إلى تأليف حكومة مؤقّتة من الوطنيّين الهنود، من جرّاء اعتراض "جناح" على ترشيح المؤتمر أحد أعضائه المُسلمين لتولّي منصبٍ وزاريٍّ، إذ كان يُصرّ على أن يكون جميع المسلمين في الوزارة ممّن يعيِّنُهم هو بنفسه، ومن أعضاء الرابطة الإسلاميّة؛ حينئذٍ اقترح نائب الملك أن يضع كلٌّ من المؤتمر والرابطة الإسلاميّة قائمةً بمرَشَّحيه، لتأليف الحكومة المؤقّتة، على إلاّ يحقّ لأيّ من الطرفَين الاعتراضُ على مرشَّحي الطَّرَف الآخر؛ إلاّ أنّ "جناح" رفض هذا الشرط أيضًا. ومرّةً أُخرى، تجمَّدت المساعي، بعد أن ارتطمت بمسالكَ مسدودةٍ.

وربَّمَا جال في خاطر بعضهم، آنذاك، أن تُفوّض سلطاتٌ استثنائيَّةٌ إلى حاكمٍ مطلقٍ، يُخرج البلاد من تلك الأزمة المستعصية، وفي هذا السياق سأل أحد الصحفيّين الغربيّين غاندي:

- "ماذا أنت بفاعلٍ، لو أنّك عُيّنت ديكتاتورًا على الهند لمدَّة يومٍ واحدٍ؟
- **"سأرفض بالتأكيد. ولكن على فَرَض أنّني قبلت، فسأصرف يومي في تنظيف أكواخ المنبوذين في نيودلهي، وفي تحويل قصر نائب الملك إلى مستشفى، فهو ليس بحاجةٍ إلى منزلٍ بهذا الحجم.**
- "ولو أنّ سلطاتك الدكتاتوريّة امتدَّت يومًا ثانيًا، فماذا ستفعل؟
- "**سأواصل عمل اليوم السابق**".

وأخيرًا، وفي ١٢ آب ١٩٤٦، حَسمًا للمماطلة، كَلَّفَ نائبُ الملك جَواهِر لال نهرو بتأليف حكومةٍ ائتلافيّةٍ مؤقّتةٍ؛ وعرض نهرو على جناح عددًا من المناصب الوزاريّة يُعيّن لها من يشاء من الرابطة الإسلاميّة، إلاّ أنّ جناح رفض أيّ تعاونٍ؛ فاضطُرَّ نهرو إلى تأليف وزارةٍ ضمّت ستّة هندوسيّين، أحدهم من المنبوذين، واثنين

من المسلمين غير منتمين إلى الرابطة الإسلاميّة، وممثّلاً عن كلٍّ من السيخ والفارسيّين والمسيحيّين، وبقيت خمس وزاراتٍ شاغرةً يتولاّها أعضاء من الرابطة الإسلاميّة، ساعة يشاؤون.

وردّ محمّد علي جناح على ذلك بإعلانه يوم السادس عشر من آب "يوم عملٍ مباشرٍ" ولم يفسّر مقصده من ذلك، تاركًا للجماهير المُستَفزَّة أن تفسّر الأمر كما يحلو لها؛ فاندلعت، في كلكتّا أعمال عُنفٍ جامحةٌ مجنونةٌ، تمادت أربعة أيّامٍ، مخلّفةً، وفق التقارير الرسميّة، خمسة آلاف قتيلٍ، وخمسة عشر ألف جريحٍ؛ بيد أنَّ الأرقام الحقيقيّة كانت أشدّ هولاً، وأبلغ تعبيرًا عن فظاعات ما سُمّي "المجزرة الكبرى".

وفي الثاني من أيلول ١٩٤٦، باشر نهرو رئاسةَ أوّل وزارةٍ هنديّةٍ؛ واستهلّ غاندي ذلك النهار، قُبَيل الفجر، بالكتابة إلى نهرو وأعضاء وزارته، مُذَكّرًا بالواجبات الأَساسيّة التي يتعيّن على مُمثّلي الهند الحرَّة الالتزام بها: فلا يستخدموا في لباسهم سوى "الخادي"، ويُقيموا في منازلَ وضيعةٍ خاليةٍ من الأَثاث الأَجنبيّ، ولا يقوم أيُّ خَدَمٍ على العناية بها؛ فعلى زُعَماء الهند المستقلّة إلاّ يتوانَوا في تنظيف مراحيضهم بأنفسهم، وينهضوا، بذلك، قُدوةً للجميع؛ وعلى الوزير إلاّ يمتلك سيَّارةً، وإلاّ يصطحب، في تنقّلاته حَرَسًا، وأن يكون متحرّرًا من تقاليد التّفرقة الطبَقيّة والطائفيّة، وأن يقف، أقلَّه، ساعةً من يومه على عملٍ يدويّ كالغزل أو زراعة الخضراوات، للإسهام في تخفيف وطأَة الفاقة الوطنيّة.

وذكَّر غاندي أَعضاءَ الوزارة الوطنيّة الأولى بجسامة مسؤوليّتهم عن إنجاح الاستقلال، بالإخلاص للمبادئ التي منها انبثَقَ الاستقلالُ، وبالتَّسامح الدينيّ، وبِتَمتين وشائج الإخاء مع المسلمين.

نصائح قد تبدو، في بعض جوانبها، ساذجةً، ولكنّها تموج بحكمةٍ صاغتها حياةٌ من التجرُّد وضبط النفس، ومراقبة خلجات روح الشعب الهنديّ العميقة؛ غير أنّ وجه المأساة، في حكمة غاندي، انطِواؤها على مفارقةٍ حادَّة: فهي دليل الكمال، لأناسٍ ليس الكمال غايةَ مرتجاهم.

فمعظم الزعماء، شأنهم شأن سواد الجماهير الهنديّة، كانت تُجِلّ غاندي وتقدّسه، ولكنّها كانت عاجزةً، أو غير راغبةٍ في اقتفاء أَثَره، وفي احتذاء قُدوته. ونهرُو كان خير مثالٍ على تلك المفارقة، فهو كان يعارض الكثير من نزعات غاندي السياسيّة، ويضيق ذرعًا بمُثُله الدينيّة، ولكنّه غالبًا ما كان يُلفي نفسه متأثّرًا خطاه، بدافعٍ سرّيٍّ، وكثيرًا ما اعترف بأنَّه قد أصاب من اتّباعِه المهاتما خيرًا جمًّا؛ فالمهاتما قد أَعادَه إلى هنديّته التي كان يَذهَل عنها أثناءَ إقامته في بريطانيا، ودَفعَهُ دفعًا إلى القرى الهنديّة، فلَمَسَ آلامَها ومظالمَها، وخَبرَ الكثيرَ من حاجاتها الجوهريّة؛ وكلّما كان الإرهاقُ والحيرةُ يغشيان نفس نهرو، كان يهرع إلى مُلهِمه، الذي كان يدعوه، تَحبُّبًا، "بابو" أو "غانديجي"، فيقبع عند قدميه، ويُنصِتُ في خشوعٍ إليه، فينعم بفتراتٍ روحانيّةٍ كثيفةٍ تغمُر، فيها، قلبَه الملحدَ نفحاتُ الروح.

بيدَ أنّ نهرو، رئيس الوزراء، كان يطمح للهند بغَيرِ ما قد طالما حَلُمَ غاندي، إذ كان يتوق إلى إقحامها في تيّار التقنية الصناعيّة، وفق النموذج الغربيّ، والخُطَط الخمسيّة على غرار الخُطَط الروسيّة، بعيدًا عن روحانيّة الهند الدهريّة التي جسَّدها المهاتما في حياته اليوميّة.

ردًّا على تأليف نهرو الوزارة المؤقّتة الأولى، في تاريخ الهند الحديث، أَعلن محمّد علي جناح يوم التاسع من أيلول، يومَ حدادٍ، وأَمَرَ المُسلمين برَفع الأَعلام السوداء، لا بل إنّه أهاب، في إحدى خُطَبه، بالسوفيتيّين أن يبادروا إلى شَدّ أزر المسلمين، وارتسمت، في الأُفُق، نُذُر حربٍ أهليّةٍ؛ وامتدّت نيران العُنف إلى القرى الهنديّة، واكتست الصّدامات الطائفيّةُ حَجمًا مُرَوِّعًا، على نحوٍ خاصٍّ، في منطقتَي "نواخلي" و"تيپيرا" اللَّتَين تَضمَّان أكثريّةً إسلاميّة، وفي منطقة "بيهار" ذات الأغلبيّة الهندوسيّة، حيثُ اقتُرِفت جرائمُ وحشيّةٌ على أوسع نطاقٍ، فالتهمت النيرانُ البيوتَ والمزارعَ والسكّانَ والبهائم، وغمَرَ الدمارُ مناطق شاسعةً، وقد بلغت الصدامات ذُروَتَها في العاشر من تشرين الأوّل ١٩٤٦، واستمرَّت زُهاءَ أسبوع؛ إلاّ أنّ التعتيم الذي فرضته السُّلطاتُ على الصّحافة قد أَسهمَ في إسدال ستارٍ من الكتمانِ على تلك الأَحداث إلى أن أفشى أَمرَها شهود عيان.

لا مِراءَ أنَّ موجةً من السَّعادة كانت قد غَمَرَت قلبَ غاندي، بعدَ أن خطت الهند خطوتَها الأولى على درب الاستقلال الفعليِّ، ولكنّها كانت سعادةً كَدِرةً، عكَّرتها الخلافاتُ الطائفيَّة، والصداماتُ العنيفة الدامية؛ ولا بدعَ، بالتالي، إن عَزَفَ غاندي عن الاهتمام بدقائق السِّياسة التي لم تكُن، يومًا، غايتَهَ، كي ينصرف إلى إعادة السَّلام إلى النفوس المهتاجة، وإطفاءِ نيران الضَّغينةِ والثَّأر؛ وكان قلبُه يرقص جَذَلاً عندما تنمى إليه أنباء أحداثٍ تنمُّ عن مشاعر الإخاء والإيثار، التي، في بساطتها، ترقى إلى ذُرى البطولة الحقَّة، وتدعم الإيمان في الإنسانيّة. وكان ينشر مثل تلك الأنباء في صحيفة "هاريجان"، في كثيرٍ من الحماس؛ وفي هذا السياق، روى كيف وَفَّرَ هندوسيٌّ الملجأَ، في منزله، لصديقٍ مُسلمٍ، كي يحميَه من الجموع الهندوسيّة الهائجة، فقَضت الجموعُ على كلَيهما معًا؛ وكيف كان مُسلمون، في كلكتّا، في غمرة اندلاع العُنف، يجازفون بحياتهم من أجل حماية أصدقاء لهم هندوسيّين، وبالمقابل كيف كان هندوسيُّون يُضَحُّون بذواتهم لإنقاذ حياة مسلمين، ويعلّق على تلك الأمثلة الرائعة بقوله: "**إنّ الإنسانيّة لخليقةٌ بالزَّوال، لو لم تبرُزْ بين الفَينة والفَينة، وفي كلِّ مكانٍ تقريبًا، معالِمُ الألوهة الكامنة في أعماق الإنسان**".

أمّا التضحية الجلّى، والمثل الأَسمى في المحبّة والتَّسامُح والمُسالمة، والدليل السَّاطع على الألوهة الكامنة في قلب الإنسان، فقد تجلّت جميعها، على أَروع وجهٍ، لدى غاندي نفسه، الذي، ما إن تنامت إليه أنباء الفظائع التي دنّست أقاصي الهند، حتّى عَزَمَ على المُضيّ إلى هناك، كي يُحِلَّ السَّلامَ محلَّ الحرب، والصفحَ محلَّ الثأر، والمحبَّةَ مكانَ الشَّحناء. ولم يستطع ثَنيَهُ عن عَزمه، لا أَعضاءُ الحكومة الّذين أَعربوا عن حاجتهم الماسَّة إلى مساندته وحضوره، ولا أصدقاؤه الذين ارتعدوا فَرَقًا على حياته، وهو قد تخطّى الخامسة والسبعين من العمر، وأَعيَتهُ خمسون سنةً من الجهاد المتَّصل، ومن السجون، وزعزعت قواه الفاجعة الحديثة العهد التي انتزعت منه زوجتَه وأَمين سرّه. "**لن تعرف نفسي السلام، ما لم أمضِ إلى هناك**"، هكذا كان يَردّ على جميع من حاولوا التأثيرَ على قراره؛ فالحياةُ نفسها لم تعد تعني له شيئًا، إن هو لم يدرأ سيلَ العُنف الجارف؛ كان يُدرِكُ مدى صعوبة مُهمّته، بيد أنّ داعي العمل كان يدفعه بلجاجةٍ، وكان متأَهّبًا للموت في سبيل أَداء تلك المهمّة.

قُبَيلَ مباشرته رحلتَه الطويلة الشاقّة، رجا الجماهير أن تُقلع عن عادة الاحتشاد لاستقباله. والتبرُّك به، لأنَّ نفسه كانت "حزينةً حتّى الموت". ومن أجل تفادي مثل تلك الحشود، رضيَ باستخدام القطار الخاصّ الذي وضعته الحكومة تحت تصرّفه؛ فلو هو استقلّ القطار النظاميّ البطيء، لكانت الجماهير قد أوقفتهُ في كلّ محطّةٍ، ساعاتٍ طويلةً، وحالت دون اضطلاعه بمُهمّته؛ ومع ذلك، فلدى توقّف قطاره الخاصّ، في المدن الكبرى، كانت الجموع تُحاصِر المحطَّات، وتنتشرُ فوق السِّكَك الحديديّة، وتتسلّق سَقفَ القطار، وتحطِّم نوافذَه، وكثيرًا ما اضطرّ رجال الأمن إلى استخدام خراطيم مياه الحريق لتفريق الحُشود الهائجة، وغالبًا ما أصابوا، منها، غاندي نفسه بالبَلَل.

غداةَ وصوله إلى كلكتّا، تجوّل المهاتمَا في المدينة، برفقة رئيس وزارة المنطقة المُسلم، السيّد سهروردي، وراعه ما رأى من معالم التّدمير والسَّلب. ورانَ عليه "شعورٌ مرهِقٌ لدى رؤية جنون الجموع القادر على الانحدار بالإنسان إلى أدنى من مستوى الوحوش الضارية". ولكنّ تفاؤله الفطريّ كان يُصوّر له أنّ أهالي كلكتّا لا بُدَّ أن يشعروا بالخِزي ممّا جنته أيديهم.

ثمّ، عبرَ مواصلاتٍ شاقّةٍ، وبعدَ كثيرٍ من العناء، انتهى غاندي إلى محطّته الثَّانية النائية، وغايةِ مسيرته، منطقتَي "نواخلي" و"تيـپـيرا"، حيثُ كانت الأكثريّة المُسلمة، في مطلع شهر تشرين الأوّل ١٩٤٦، قد أعملت الدمار في أُلوف المنازل، ودنَّست المعابد، واغتصبت النساء، وقسرت ألوف الهندوسيّين على إعلانِ إسلامهم عُنوةً؛ وما لبثت أن ردّت على تلك الفظائع منطقة "بيهار" المجاورة حيثُ يقطن واحدٌ وثلاثونَ مليون هندوسيٍّ، مقابل خمسة ملايين مُسلمٍ؛ فأُعلِن يوم الخامس والعشرين من تشرين الأوّل "يوم نواخلي"، وأُلقيت الخطابات اللاّهبة، وحمَلَتِ الصُّحف العناوينَ المستَفِزَّةَ، وشاع الهياجُ بين الجموع الهندوسيّة، فراحت تجوب الشوارع وطُرُقات القُرى، وهي تصيح "دمٌ بدمٍ"، وكانت حصيلةُ ذلك الاستفزاز المهووس، أُلوفَ الضّحايا من المُسلمين؛ وهَصَرَ الأسى قلبَ غاندي الذي رأى في تلك المجازر البشعة تبريرًا لمخاوف أتباع محمّد علي جناح من البقاء في هندٍ مستقلّةٍ، ذات أغلبيّةٍ هندوسيّةٍ؛ وكان حُزنه واستنكاره من العُمق بحيثُ خَطرَ له أن يصوم حتّى الموت، لولا أن أقنعه جميع الزعماء بأنّ الهند التي

جُنّت، في افتقارٍ إلى حكمته العميقة، كي تَفيء إلى رُشدها واطمئنانها. وهُـرِعَ نهـرو، وبعض وُزَرائه إلى منطقة "بيهار"، بُغية فرض الأمن وترسيخه، وكان نهرو قـد هـدَّدَ بقَصف المنطقة من الجوّ، إن لم تتوقّف فيها أعمال العنف فورًا، فعارضه غاندي بِحِدَّةٍ، إذ إنّ مثلَ تلك الأَساليب القَمعيّة لا تختلف، في شيءٍ، عن أساليب البريطانيّين، في حين كان غاندي يُريد من الحكومة الوطنيّة أن تمتلك قلبَ الشّعب وذهنه، لا أن تُرهبه.

وفي الخامس من تشرين الثاني، كتَبَ غاندي إلى نهرو، الذي كان قد عزم على المكوث في منطقة "بيهار" إلى أن يسودها السَّلام: **"لقد زعزعتني الأَنباء الواردة من "بيهار"... فلو صحَّ نصفُ ما نسمعه منها، لأثبت ذلك أنّ "بيهار" قد فَقَـدت معنـى الإنسانيّة؛ وإنّ صوتي الداخليّ يقول لي: لا يحقّ لك العيش كي تكون شاهدًا علـى هذه المجزرة الهوجاء... أوَليس يعني ذلك أنّ أيّامك صارت إلـى نهايتهـا؟... إنّ منطق هذه الحجّة يدفعني إلى الصَّوم دفعًا لا أَقوى على مقاومته".**

ولكن، ما لبثت الأنباء أن أكَّدت تخييم السَّلام على كُلٍّ من كلكتّا وبيهار وسـائر مناطق الهند، واستولى على غاندي شعورٌ عارمٌ بأنّ عليه الانصراف عن الـصوم، والمكوث في منطقة "نواخلي"، كي يهدّئ من رَوْع الأَقلّيّة الهندوسـيّة التـي سَـيطرَ عليها الرُّعبُ، واندفعت تفرّ إلى مناطقَ أَوفر أمنًا، وكي يحاول، من جهـةٍ أُخـرى، نزعَ فتيل العُنف من نفوس المُسلمين الذين قد طالما عاشوا في وِئامٍ مـع إخـوانهم الهندوسيّين، إلى أن أوغرَ السياسيّون صدورَهم، واستثاروا فـيهم كـوامن العُنـف والشرّ، كان يتوخّى أن يُلقّن الهندوسيّين أنّ اللاّعنف يتعارض مع الخَـوف، ويثبِـتَ للمُسلمين أنّ الشجاعة الحقّة تتنكّب عن العُنف والقَتل. كان راغبًا في مَسح الـدُّموع من كلّ العيون، وفي نَشر الطُّمأنينة بالمحبّة والإقدام الذي لا يهاب الموت.

وهكذا، منذ السابع من تشرين الثاني ١٨٤٦ حتّى الثاني من شهر آذار ١٩٤٧، يوم بلغ السابعة والسبعين من عمره، ما انفكّ رَجلُ السَّلام العجوزُ يَجرّ قدميه المقرّحتَين العـاريتَين، تعبيرًا عن الرغبة في التكفير، في عشرات القُرى، مبشّرا بالسلام؛ وفي كلّ مكـانٍ كانـت تُطالعه معالِمُ الحِقد والضَّغينة، وآثارُ الفتنة الهَوجاء: عظامٌ مكدَّسةٌ، وأطلالُ منازلَ التهمتهـا النيران، وبُقعَ دماءٍ حديثةٍ لزجةٍ، ما انفكّت تصرخ لاعنةً القَتلة والمُحرِّضين.

إزاءَ تلك المشاهد المُروّعة غَمرَ نفسَه الشعورُ بجسامة التحدّي، وخطورةِ المُهمّة؛ وقد عبَّر عن ذلك، حينَ كتب، في الخامس من كانون الأوّل ١٩٤٦: "**إنّ مهمّتي الحاليّة هي أَعسَرُ مُهمّة تصدَّيتُ لها سَحابة حياتي كلِّها، وأكثرُها تعقيدًا... ولكنّني متأهّبٌ لكلّ طارئ. والشِّعار الذي يجدُر بي رفعُه: اِعمل أو مُت! والعمل، في الظروف الراهنة، يعني أن أُلَقِّن الهندوسيّين والمُسلمين كيف يتعايشون في سلامٍ ومحبّةٍ...**".

لقد جاب، خِلالَ أشهُر المصالحة تلك، زُهاءَ خمسين قريةً، وفي كلٍّ منها كان يمكُث بضعةَ أيّامٍ،، مُبَلسمًا الجروح، مواسيًا القلوبَ المكلومة، ماسحًا الدُّموع الحارقة، مُزيحًا الخَوف المُرهِق، بانيًا جُسور التَّسامح. وكان يختار من كلّ قريةٍ مُسلمًا وهندوسيًّا يتطوَّعان للعَمَل متضامنَين، ويرضيان بالعيش معًا تحت سقفٍ واحدٍ، ضمانًا للأمن والسِّلم، ويتعهّدان بمجابهة الموت، في هذا السبيل، إن اقتضى الأمر، فإذا ما قام هندوسيّون باعتداءٍ، صام الهندوسيُّ حتّى الموت، وكذلك يفعل المُسلم إذا ما اعتدى مُسلمون.

كان عددٌ من وزراء المناطق، ومن أصدقاء غاندي ومعاونيه، قد واكبوه إلى "نواخلي"، ولكنّه وزّعهم على مختلف القرى لمُواصلَة العَمَل الذي بدأه، وآثَر أن يتابع مسيرتَه وحيدًا، مقتَصِرًا على ترجمانٍ يساعده على مخاطبة الناس باللّهجة البنغاليّة، وعلى سكرتيرةٍ مُختزلةٍ، وابنة أخته التي كانت أَبدًا تلازمه.

وكانت المُهمّة العسيرةُ التي انتدب لها نفسَه، تستنزف قواه، إذ كان نهارُه يبدأ في الساعة الرابعة صباحًا، ويستمرّ حتّى ساعاتٍ متأَخّرة من الليل، وفقَ برنامجٍ مُحَدَّدٍ مُحكَمٍ. وقد أوردَت الصحف الصادرة في ١٩٤٧/١/١٧، أَنّ غاندي طوال الأسبوع السَّالف، قد عَمِل عشرين ساعةً يوميًّا، وزارَ في كلّ يومٍ قَريةً.

وكان ارتحالُه من قريةٍ إلى أُخرى يقتضي منه السَّعيَ ثلاثة أو أربعة أميالٍ، عبر طُرُقاتٍ وَعرةٍ، ومُستَنقعات آسِنةٍ، وفوق جُسورٍ من الخيزران مُترجرجةٍ؛ وكثيرًا ما كان سياسيُّون حاقدون يُحرّضون بعض الرَّعاع على زَرع الدُّروبِ التي

كان عليه سلوكُها بحُطام الزُّجاج، وأكوامِ الأَشواك، والأقذار، ممّا كان يُضاعف مشقَّة سيره، على أقدامه المقرّحة التي أوسعها البرد والجفاف شُقوقًا وتفسُّخًا.

وفي كلّ قريةٍ ينتهي إليها، كان يلتجئ إلى كوخ أحَد المُسلمين، ملتمسًا الضيافة، فإذا ما ظَفِرَ بها مكَثَ ثلاثة أيَّامٍ أو أربعةً، قبلَ أن يرتَحِلَ إلى قريةٍ أُخرى، وإن اتَّفقَ أن رَفَض أحدُهم استقبالَه، كان يقرع بابًا آخَر، قائلاً: "**إن أبى الجميع إيوائي فسأكتفي بظلّ شجرةٍ مضياف**". وكان أهل القرى يتقاطرون لسماعه، ومناقشته، فيُبثّونه همومَهم، ويَروُون له مآسيَهم، ويُنصِتون إلى نُصحه وإرشاده، ويشتركون معه، كلَّ مساءٍ، في صلاةٍ، تُتلى أَثناءَها سُورٌ من القرآن، ومقاطع من الباغا فادجيتا، وتراتيلُ مسيحيَّةٌ؛ وفي كلّ اجتماعٍ كان يُردّد، بلا كلَلٍ، دعواته إلى التَّسامح والصَّفح والمحبّة، مُردّدًا وصيّة يسوع: "**أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصَلُّوا من أجل الَّذين يَزدَرونَكم ويضطهدونكم... فإن أَنتم أحبَبتُم من يُحبّونكم، فأيُّ أجرٍ لكم؟**".

وكان المهاتما، لتلك الوصايا أسوةً وقُدوةً، فلا يَدين أحدًا، ولا يتبرّم ممّن يُناصبونه العِداءَ، وممّن كانوا يُقاومون دعوتَه بتحريضهم على الثأر، وعلى محاربته شخصيًّا، سواءً كانوا من المتطرّفين الهندوسيّين الحانقين عليه من جرّاء موقفه المُتَسامح مع المُسلمين، وجُرأته، بل مغالاته، في تحطيم التقاليد الهندوسيّة، ولا سيَّمَا ما يتعلّق، منها، بالمنبوذين، أَو كانوا من المُسلمين الذين غَرَّرت بهم الدَّعاوة السياسيّة. لم يكُن يَدين أَحدًا، بل يُلفي التَّبِعَةَ على نفسه، لأَنَّه عَجِز عن التَّوفيق بين أبناء الوطن الواحد من الديانتَين الكُبريَين، ومن ثمّ كان يُلزم نفسَه بالمزيد من التقشُّف، مع أَنّ طعامَه كان مُقتَصرًا على اليسير المتيسِّر من الفواكه والخضار، ولبن الماعز؛ وكان يُقدِمُ طائعًا على تحمُّل الآلام، علَّها تُطهِّر نفوسَ مواطنيه وتفتديهم.

وكان مثاله في التَّضحية يُلهم بعضَ أتباعه، من أمثال الفتاة المُسلمة "أمتوس سلام" التي أَوفدها إلى إحدى القُرى، فاتّضح لها أنّ المُسلمين، ثمَّة، ما انفكّوا يسيئون معاملةَ الهندوسيّين، فوطَّنت العَزمَ على الصّيام إلى أن يَرعَوُوا عن غيِّهم؛ واستمرَّ صيامها خمسةً وعشرين يومًا، حتّى أشرفت على الهلاك، وكان لتضحيتها أثرٌ بليغٌ في النُّفوس، فتمكّن غاندي من انتزاع عهدٍ بالإخاء بين الطائفتَين.

كانت رغبتُه العارمةُ هي تحويل القلوب، وقد أَسرَّ لأَحد أصدقائه: "**لو تـمّ لـي ذلك، لكان تكليلاً لمساعي حياتي كلِّها... أنا لستُ راغبًا في الابتعاد عن البنغال مهزومًا، بل أُوثر على ذلك، إن اقتضى الأمرُ، الموتَ بِيَدِ قاتلٍ**".

يومَ السادس من كانون الثاني ١٩٤٧، في اجتماع الصلاة المسائيّ، تُليت كلمتُه على الحضور، إذ كان ذلك اليوم يومَ إثنين، حيثُ أَلِفَ غاندي الالتزامَ بالصّمت، وقد علَّل وجودَه في تلك المنطقة بقوله: "**لستُ أبتغي سوى هدفٍ واحدٍ، وهو على قدرٍ كبيرٍ من الوُضوح: أَن يُطَهّر الربُّ قلوبَ الهندوسيّين والمسلمين. كي تَتحرَّر الجماعتانِ من الرِّيبة والخَوف المتبادلَين. أرجوكم الانضمام إليَّ في هذا الدّعاء، والإعلان أنّ الله هو ربُّنا جميعًا، واسأَلوه أن يوفّقنا**".

وقد سأله يومًا مضيفُه المُسلم، في إحدى القُرى، لمَ لا يتّفق ومحمّد علي جناح، فيوفّر على نفسه عناءَ ذلك الارتحالَ الشاقّ، فأَجابه غاندي بأنّ الرعيّة هي التي تصنع الزُّعماء، فمَا على الناس سوى التّدليل عن رغبتهم في التعايش بسلامٍ، كي تنعكس تلك الرغبةُ على زُعمائهم، وأَردف: "**إذا ما مَرِض جارُك، فهل المؤتمر، أو الرابطة الإسلاميّة هما اللذان سيُمليانِ عليك واجبكَ نحوَه؟**".

وكثيرًا ما كانت الاستجابة لدعوة غاندي رائعةً، تبعث على البهجة والتفاؤل. ففي قرية "يانيالا" كانت قد أُقيمت، في ختامِ زيارة غاندي لها، مأدُبةٌ كبرى، ضمَّت هندوسيّين ومُسلمين ومنبوذين جَنبًا إلى جنبٍ؛ ولمّا عاد غاندي إلى تلك القرية في ١٩٤٧/١/٢٢، التفَّ حوله، للصَّلاة، زُهاءُ خمسة آلاف شَخصٍ من شتّى الطوائف والفئات.

إلاّ أنّ أضخم حَشدِ صلاةٍ قد تخلَّق حولَ غاندي يوم ١٩٤٧/١/٢٤، في قرية "موراييم"، حيثُ كانت الآنسة المسلمة "سلام "، قد صامت خمسةً وعشرين يومًا، وبصومها أفلحت في تأليف القلوب.

لقد تأكَّد لغاندي أنّ الجماعات المحلّيّة كفيلةٌ بالعيش في وِفاقٍ وسلام، لولا تعرُّضها لمناورات السياسيِّين من الخارج. وقد اتّضح له أنّ المسلمينَ الكثيرين الذين كانوا يتوافدون للتحدّث معه، ومشاركته الصلاة، كانوا من البُسَطاء والفُقَراء، في حين كان المُثَقَّفون منهم والأَغنياء يُناهضونَه ويَتوَعّدونه.

لقد غادر غاندي منطقة "نواخلي" في الثاني من آذار ١٩٤٧، بعد أن أَسهَمَ في نزع فتيل العُنف، وتصفية النُّفوس، بَعض الشيء. وقد أَثبَتَ، بمسيرته السِّلميّة الشاقّة أنّ نَشر الوِئام كان يسمو لديه فوقَ كلّ هَدَفٍ سياسيٍّ، بل كان الطريقَ إلى كلّ هدفٍ سياسيٍّ سامٍ وسليمٍ، وقد برهن أيضًا على أنّ الأَقوالَ وحدها لا تُجدي فتيلاً، وأنّ الشِقّة بين ما يستطيع الناسُ فعلَه، وما يفعلونَه حقًّا هي التي تفسح لكلّ الشِّقاقات العالميّة مجالاً، فأَعطى كلَّ طاقاته، من غيرِ حسابٍ.

في تلك الأَثناء، كان رئيسُ الوزراء البريطانيّ، أتلي، قد دعا، في شهر تشرين الثاني ١٩٤٦، أربعةً من زعماء الهند، منهم نهرو وجناح، إلى عقد لقاءٍ في مقرّ رئاسة الوزارة البريطانيّة، في مُحاولةٍ لحمل "الرابطة الإسلاميّة" على المشاركة في المجلس التأسيسيّ الهنديّ، تمهيدًا لتنفيذ مشروعه القائم على تقسيم الهند إلى ثلاث ولاياتٍ رئيسيّةٍ، إحداها، في قلب الهند، يَغلب فيها عدد الهندوسيّين، وأُخرى عندَ الحدود الشماليّة الغربيّة، تضمُّ السند والبنجاب حيثُ يطغى عدد المُسلمين، وثالثةٌ مختلَطةٍ، في الشّمال الشرقيّ، تتألَّف من البنغال وأسّام، يُفسحُ فيها لكلّ طائفةٍ حُرّيةُ الانتماء إلى إحدى الولايتَين الأُخرَيَين.

وقد استشفّ غاندي، في تلك التجزئة، توطئةً إلى شَطرِ الهند، فقاوَمَها بحزمٍ، وأَوعز إلى أتباعه بِرَفضِها. وكان مُدركًا أنّ التجزئةَ لن تتمّ بمَعزلٍ عن البريطانيّين الّذين كانوا غير راغبين في الاضطلاع بتلكَ المهمّة بمفردهم، ومن غير موافقة المؤتمر والحكومة الهنديّة. ومن ثَمّ، ناشد غاندي حكومةَ نهرو أن تستقيل، إذا ما تشبّث البريطانيّون بعزمهم على شطر البلاد، واثقًا من أنّ مثلَ تلك الاستقالة كانت كفيلةً بالإسقاط من يد السُّلطات البريطانيّة، وبحملها على نُشدان حلٍّ آخر يَصونُ وَحدةَ الهند. بَيد أنّ مثل تلك الأَساليب التي تقرُنُ البساطةَ بالتحدّي، والمقامرة المحسوبةَ المبنيّة على حَدْسٍ لا يُخطئ التنبّؤ بالعواقب، والّتي قد طالما بَرَعَ غاندي في استِنباطها وانتهاجها، كانت تبدو متعذّرةً على سَواد السِّياسيّين؛ وبالمقابل، كان المؤتمرُ يحمِلُ محمَلَ الجدّ وعيد "جناح" بإضرام نار حَربٍ أهليّةٍ، ما لم تنشأ دولةُ الباكستان؛ ومن جهةٍ أُخرى، كانت الحكومة المؤَقّتة قد ذاقت شيئًا من طَعم الاستقلال فاستمرأته، وخشيت إرجاء

تحقيقه الكامل، إن هي قاومت مشاريع التجزئة؛ وكانت قد خَبَرت السُّلطةَ فانتشت بخمرتها، وباتت مستعدّةً للتَّنازُل حتّى عن وحدة الهند، في سبيل الحفاظ عليها. وبالتالي، فقد صوَّت المؤتمر، بتاريخ السادس من كانون الثاني ١٩٤٧، بأغلبيّة ٩٩ صوتًا مقابل ٥٢ صوتًا، لصالح قبول التجزئة، وكان الباكستان فِديَةَ الاستقلال.

زُهاءَ ستّةٍ وعشرين شهرًا بعد تقسيم الهند، وفي ١٦ تشرِين الأول ١٩٤٩، صَرَّح نهرو في نيويورك أنّه لو كان قد توقّع العواقبَ الوخيمةَ التي نجَمت عن شَطر الهند إلى دَولتَين، لكان قَاوَمَ إنشاءَ الباكستان حتّى النهاية.

ولكنَّ غاندي الذي عايَشَ الجماهير وامتزجَ بها، ونَفَذَ إلى أغوار سرائرها، وبَرعَ في جَسّ نبضها، لم يكُن بحاجةٍ إلى مصداق الواقع الأليم ليَتَوقَّع ما حَدَث، بل إنَّه قد توجّس، بِحَدسه الثَّاقب، وفي تهيّبٍ وارتياعٍ، الكوارث الجسيمةَ التي ستنجُم عن شَطر الهند الواحدة إلى دولتَين تتّسمانِ بطابع الطائفيَّة المقيت، والتي سيتناحر فيها إخوان الأَمسِ، والأَصدقاءُ الجيران، حتّى الإفناء المتبادَل، وقد صرّح: "**لو تعيّن قيامُ هندستان المقتَصرة على الهندوسيّين دونَ سواهم، ودولة الباكستان المقتصرة على المُسلمين وحدَهم، لغدا كلٌّ من الباكستان والهندستان دولةً تفيض سُمًّا**".

وكان الذين خَبَروه عن كثَبٍ يُشبّهونه بذلك النبيِّ الذي تُؤثِر الأساطيرُ الهندوسيّة عنه، أنّه فيمَا كان، ذات ليلةٍ اشتدَّ صقيعُها، يتدفّأ إلى الموقد، اعترَته رِعدةٌ مباغتةٌ، ولم تُفلِح النارُ المشبوبة، ولا الأَدثِرَةُ الصَّفيقةُ الّتي أُلقيت عليه، في بعث الدفء إلى جسمه المقرور. وقد بدّد دهشةَ تلاميذه بقوله: ثمّة، في الخارج، متشرّدٌ بائسٌ يرتعد بَردًا، ولن يُبارحني القرّ، حتّى يُصيبَ ذلك المسكينُ بعض الدّفء. واندفع تلاميذه يجوسون باحثين، في ثنايا اللَّيل الحالك، إلى أن عثروا على ذلك المُتشرّد الذي بعثَت مِحنَتُهُ الرِّعدة في جَسَد النبيّ. على ذلك النحو كان المهاتما يُوجس في أعماقه ما تموج به نفسُ الهند من أهواء، وما يَتَهَدَّدهَا من مهالك.

ويُروى أنّ امرأةً مُسلمةً أخذت عليه، في تلك الفترة، رفضَه المتشدّد لتقسيم الهند قائلةً:

– إن راقَ لأخَوينِ يعيشان تحت سَقفٍ واحدٍ أن يفترقا كي يعيشا مستقلّين، فما اعتراضك على رغبتهما هذه؟

– آه! ليتنا كنّا نستطيع أن نفترق افتراقَ الإخوة! أجاب غاندي. إلاّ أنّ الأمـر، وأسفاه، سيكون على غير ذلك، وسيُمزّقُ أحدُنا الآخـر، فـي أحـشاء الأمّ الواحدة التي تحملنا".

تهيّبُه من ذلك التناحُر بين الإخوة قد دَفعه إلى وقف كلِّ ما بقيَ له من طاقـاتٍ وأيّامٍ على تلافيه، وعلى المُضيّ في توثيق عرى الوحدة الإسلاميّة الهندوسيّة التـي كانت هَدَف حياته.

وفي سبيل ذلك الهدف، لم يُتح غاندي لنفسه فُسحةً يلتقط بها أنفاسَه، بل بـارح "نواخلي" مباشرةً إلى "بيهار" حيثُ كان الهندوسيُّون قد انتقموا لأَبنـاء دِيـنهم فـي "نواخلي"، فردُّوا على الفظاعات بأفظعَ منها، وساموا الأَقلّيّة المُسلمَة المقيمـةَ بـين ظهرانيهم من ضروب الخَسف والتنكيل ألوانًا.

وعلى نحو ما فَعَل في "نواخلي"، جاب غاندي قُرى "بيهار" ومُدُنها، مُبَشرًّا بالمحبَّـة والتَّسامُح والصَّفح، منددًا بأبناء دِينه الذين "في نَوبة جُنونٍ قد نَسُوا أنّهم بشرٌ". كان يُنصت إلى مظالم المُسلمين بقَدرٍ جمٍّ من المؤاساة والتعاطف، ولا يقبل من الهندوسيّين تَوبـةً إلاّ مقرونةً بالتعويض والتكفير، فكان يَقسُرهم على إعادة النّساء المخطوفات إلـى أزواجهـنّ وذويهنّ، وعلى أداء أثمان ما سلبوا وحَرَقوا ودمَّروا من أموال المسلمين وممتلكـاتهم؛ لا بل كان، في أعقاب كلّ اجتماعِ صلاةٍ، يَجبي التبرّعاتِ لِعَون المُسلمين المتضرّرين، غير عابئٍ بمَا كان يثيره عَمَله هذا من نقمةِ الهندوسيّين المترمّتين، وتهديداتهم الوَقحـة. وقـد وَرَدَته يومًا برقيّةٌ تُحَذِّره من مَغبّة إدانة الهندوسيّين لما أقدموا عليه من انتقامٍ، فلم يتـوانَ، أثناءَ صلاة المساء، عن الإشارة إلى تلك البرقيّة، وعلَّق قائلاً: "**سأَكونُ مارقًا، لـو أنّنـي تغاضَيتُ عن شُرور أبناء دِيني، أو شرور أيّ كائنٍ بَشَريٍّ آخر**".

ودَرَج غاندي، لدى انتهائه إلى أيّة مدينةٍ أو قريةٍ في "بيهار"، على المبادرة إلى زيارة منازل المُسلمين المهدَّمة، والأسَر التي فُجعت أو أُصيب أَحدُ أفرادها، مؤاسيًا، مستغفرًا، ثمّ كان يُهيب بالهندوسيّين أن يناشدوا المُسلمين الذين فرُّوا، خَوفًـا، إلـى العودة آمنين، ويحثُّهم على إعادة بناء ما دمَّروا لهم من منازلَ، وتعويضهم ما فقدوا من رِزقٍ ومالٍ، لكي يُزيح عن المُسلمين الخَوفَ من البقاء في الهند المستقلّة، وَسـط

أغلبيّةٍ هندوسيّةٍ؛ وفي هذا السِّياق، أيضًا، غالبًا ما ندَّد بموقف الهندوسيّين الذين كانوا يقاطعون المتاجر والشركات العائدة للمسلمين ويُحرّضهم، بحرارةٍ، على نَبـذِ ذلـك الموقف البغيض، علَّهم يُشيعون الاطمئنان في صُدور إخوانهم المُسلمين.

وغالبًا ما صادَفَت دعوةُ غاندي استجابةً أَثلجت صدره فَرَحًا. فلـدى وُصـوله، مثلاً، إلى مدينة "ماسورهي"، بادَرَ خمسون شابًّا ممّن ضلَعوا في أعمال الشَّغَب، إلى تسليم أَنفسهم للسّلطات. وقد نوّه غاندي، أثناء صلاة المساء، بتلك البـادرة، وأَهـاب بجميع الذين ارتكبوا جرائم إلى احتذاء مثلها، أَو، أقلَّه، الاعتراف بذنبهم بين يدَيه، أو بين يدي مرافقيه في تلك الجولة، الزعيم المسلم "غفّار خان" الملقّب "غاندي المناطق الحدوديّة" والجنرال " شاه نواز".

واتّفقَ، مرّةً، أنّه فيمَا كانت سيّارتُه تهمّ بمغادرة إحدى القـرى، خفَّـت نَحوَهـا جماعةٌ من الهندوسيّين، وأشاروا إلى السائق بالتوقّف، ثمّ أَلقَوا بَينَ يَدَي غاندي مبلغًا من المال جمعوه من أجل التعويض عن المُسلمين المتضرّرين.

وعندما نمى إلى غاندي أنَّ مجازرَ جديدةً قد نَشِبت في البنجاب أودت بحياة عددٍ من الهندوسيّين والسّيخ، وأنّ بعض هندوسيّي "بيهار" شرعوا يُطلقون صيحات الثَّأر، استشاطَ غَيظًا، وصرخ في وجههم: "**إن أنتم عُدتُم إلى جنونكم، فلا بدّ لكم من القضاء عليّ أوّلاً**".

في غضون ذلك، كانت الحكومة البريطانيّة قد حدّدت شهر حزيـران ١٩٤٨ مُهلـةً قصوى لجلائها عن الهند، وانتدبت لتصفية أمبراطوريّتها في الهند، اللورد مونتباتن، الذي منذُ وصوله إلى نيودلهي، في ٢٢ آذار ١٩٤٧، أعرب عن رغبته في مقابلة غاندي.

"طلاقٌ قبل الزواج"

في غُروب عام ١٨٧٦ كانت الملكةُ ڤـيكتوريا قد تُوِّجَت "أمبراطـورةً علـى الهند" في غَمرةٍ من مظاهر الأبّهة، ووَسط مهرجانٍ من البهارج؛ وقـد تمنّـى لهـا المهراجات الذين شهدوا الاحتفالات بأَن يَظَلَّ سُلطانها "ثابتًا ومنيعًا إلى الأبد". وقـد شاء القَدَر، بعد سبعين سنةً بالتحديد، أن يكلِّفَ أحدُ أبناء أحفادها، اللورد مونتبـاتن، بالإشراف على تقويض تلك الأمبراطوريّة، وطيِّ صَفحَتها إلى الأبد. وقد جَهد ذلـك

اللورد، سليلُ الأسر الأوروبيّة المالكة، والأَميرال الأنيقُ الذَّائعُ الصِّيت في الأوساط الاجتماعيّة الراقية، تفاديَ ذلك التكليف الشاقّ؛ بيد أنّ رئيس الوزراء، أَتلي، أبلَغَه أن اختيارَه قد جاءَ تنفيذًا لرغبة ابن عمِّه الملك جورج، ولإجماع جميع النّزَعات السياسيّة في بريطانيا. وعندئذٍ طالبَ مونتباتن بسُلطاتٍ مُطلَقةٍ، لأَداء مهمّته، تُعادلُ، بل تتجاوز سُلطات رئيس الوزراء نفسه، علَّ غلوَّهُ في المُطالبة يَصرِفُ الوزارةَ عن تكليفه؛ ولكنَّ جميع مطالبه لُبِّيت، وقد دبَّج بنفسه كتابَ التكليف، فأَودعه جميعَ شروطه، والسُّلطات المخوَّلة له، فما كان من رئيس الوزراء إلاّ أن مَهَرهُ بتوقيعه، وأَعلنه على الملأ.

كان اللورد مونتباتن نائبَ الملك العشرين والأخير، في الهند، وقد وافاها، في مُهمّة واضحة المعالم، مُحدَّدة الأهداف، تتمثّل في إنهاء الحكم البريطانيّ، في "جوهرة التاج البريطانيّ"، قبل نهاية شهر حزيران ١٩٤٨.

ومن ثَمَّ، فقد قدم، على نقيض أسلافه، لا ليَحكُم ويُسيطر، بل ليُحرّر ويمنح الاستقلال، وإلى تلك الغاية انتهج أسلوب غَزو القلوب، وإقناع العقول، فلم يتوانَ عن مصادقة الزعماء الهنود، وتبنّى، في قصره، العديدَ من التقاليد الهنديّة، وحرص على أن تضمّ جميع الاحتفالات التي يرعاها لا أَقلّ من نصف الحضور من الهنود.

لقد كانت تربطه بنهرو صَداقةٌ قديمةٌ يعتزّ بها. ومذ حطّ رحاله في نيودلهي، بادر إلى دعوة كلٍّ من غاندي ومحمّد علي جناح للتعارُف والتشاور؛ وإذ كان غاندي ما بَرِحَ تائهًا في أعماق "بيهار"، فقد عرَض استقدامَهُ بطائرةٍ خاصّة؛ بيد أنَّ المهاتما قد أبلغَ مندوبي نائب الملك، إيثارَه استخدام وسيلة الانتقال التي يستخدمها ملايين الهنود، أي عربةَ قطارٍ من الدَّرجة الثالثة؛ وفيمَا كان ينتظر القطارَ، في محطّة "باتنا"، اهتبلَ تلك السّانحة كي يجبيَ التبرّعاتِ لصالح "الهاريجان". وقد قُيِّض للُّورد مونتباتن أن يَشهَدَ، في المُقبِل من الأيَّام، نماذجَ كثيرةً من مِثل تلك المواقف غير المألوفة لدى رجال السِّياسة في العالَم؛ ولعلَّ أطرفَ تلك المواقف حَدَث يوم دعا نائب الملك غاندي إلى مائدته العامرة بألوان الطَّعام، والتي اتّسقت فوقَها، في نظامٍ رائعٍ، الأَطباق الفضيّة الفاخرة، وكؤوس الكريستال النفيسة، ولكنّ المهاتما آثر،

معتذرًا، تناولَ طعامه الخاصّ الذي أعدَّته له ابنة أخته، وقوامُه خليطٌ من الخضار المسلوقة، واللبَن الرائب وبعض عصير الليمون، مُستخدمًا صحنَين من الصَّفيح كان يحتفظ بهما ذكرى من سجن بيراقدا، يدسّهما في جعبته حيثُمَا ارتحل، وملعقةً من الصفيح أيضًا كان مِقبضُها قد كُسِر، فاستعاض عنه بقطعةٍ من قضيب خيزران أُثبته إلى الملِعقَة بخيطٍ غليظ؛ وقد دعا غاندي نائبَ الملك إلى مشاركته طعامَه ذاك، وألحف في الدَّعوة حتّى اضطُّر اللورد، وفي حلقِه أَلفُ غَصَّةٍ، إلى تذوّق نزرٍ منه.

تمّ اللقاءُ الأوّل بين الرجلَين، في ٣١ آذار ١٩٤٧، ودام ساعتَين وربع الساعة، عقبته خمسةُ لقاءاتٍ في غضون اثنَي عشر يومًا. وكان لنائب الملك، مع محمّد علي جناح، لقاءاتٌ مماثلةٌ.

وسرعان ما تبيّن لمونتباتن، من هذه اللقاءات وسواها، ومن زيارته لمسارح الصّراع في البنجاب ومُقاطعات التُّخوم الشَّمَاليَّة الغربيّة، تفجُّرُ الموقف المُتَوَعِّد، وبدت له الهند تحاكي سفينةً تغرق في عُرض المحيط، ومستودعاتُها محشوَّةٌ بالمتفجّرات. واتَّضحت له، بالتالي، ضرورةُ القيام بعملٍ فوريٍّ حاسمٍ، قبل حزيران ١٩٤٨، الذي كانت بريطانيا قد ضربَته للجلاءِ عن الهند. وقد وصف، فيمَا بعد، تصوُّره للحلّ، واصطدامه بالواقع الراهن، فقال: "**أنا، شخصيًّا، كنتُ مُقتنعًا بأنّ الحلَّ الأَمثل، في الحاضر وفي المستقبل، كان يتمثَّلُ في الحفاظ على وحدة الهند... ولكنَّ السيّد جناح قد أَوضَحَ، منذُ الوَهلة الأولى، أَنّه، طالما ظلَّ على قيد الحياة، فلن يرضى بهندٍ موحّدةٍ. كان يُطالب بالتقسيم، ويُلحِفُ في إنشاء الباكستان**". وقال أيضًا: "**قبل محادثتي مع محمّد علي جناح، لم أكُن أتخيَّل أنَّ مُهمّتي مستحيلةٌ إلى هذا المدى**". فقد كان جناح "**في موقفٍ فكريٍّ مُغرقٍ في الصَّلَف والبرودة والازدراء...**".

لقد بذل مونتباتن كلَّ سحره، وطاقات منطقه لإقناع محمّد علي جناح بالإبقاء على هندٍ موحّدةٍ تغدو قوّةً يُرهَب جانبُها، وتمثِّلُ تراثًا غنيًّا بتعدُّد قوميّاته ولُغاته وأديانه، وخليقةً بأن تكون رائدة التقدُّم في آسيا. ولكنَّه، حيالَ عناد جناح أَعلنَ في استغرابٍ مقرونٍ بالحُزن: "**لم أَكُن لأصدِّق، يومًا، أنّ إنسانًا في مثل ذكائه، ونشأته، وثقافته... يُمكن أن يكون، إلى هذا الحدّ، أَسيرَ تفكيرٍ مُسيطرٍ. لم يكُن صوابُ حجج**

الجانب الآخر ليخفى عليه، ولكنّ ضربًا من القِناع كان ينسدل على تفكيره. كان هو عنصر الإشكال في القضيّة كلّها، وكان بالإمكان إقناعُ الجميع خلا جنـــاح... كـــان مصابًا بعلّةٍ نفسيّةٍ، وقد لبّدت فكرةُ الباكستان ذهنَه".

ما كان يجهله مونتباتن، مثلما يجهله الجميعُ، هو أنّ محمّد علـــي جنـــاح كـــان مبتلًى، أيضًا، في جَسَده، بعلّةٍ مستعصيةٍ، بسِلٍّ مُزمِنٍ معشّشٍ في صدره، كان قد أفلح في التهام رئتَيه، وجعلَ أيّامه الباقية معدوداتٍ؛ لقد تمكّن جناح من كتمان هذا الـــسرّ بإحكامٍ، وخاضَ سباقًا يائسًا مع الزّمن، جاهدًا في تحويل حُلمه في الباكـــستان إلـــى واقعٍ ماثلٍ، بأيِّ ثمنٍ، قبل أن يُودي به السّلّ الذي كان يقضُم صدرَه وحياتَه.

في الجانب المقابل، كان غاندي لا يُطيق فكرةَ التقسيم التي تُحطِّم كلّ آماله فـــي هندٍ موحَّدةٍ، تضرب للدنيا كلّها، بتعايشِ قوميّاتها ودياناتها على حُبٍّ ووئـــامٍ، مَـــثَلاً أسمى في التسامُح والإخاء؛ وهو، من ثمّ، كان مُتَأَهِّبًا لكلّ التنازلات. بل كان مستعدًّا للتخلّي عن جميع السُّلطات لمحمّد علي جناح والرابطة الإسلاميّة، حرصًا منه علـــى بقاء الهند مُوحَّدةً. وكان يرتعد فَرَقًا من المآسي التي ستنتجم عن تقسيم الهند؛ وإذ كان يُدرِكُ أنَّ البريطانيّين وحدَهم كانوا قادرين على تحقيق ذلك التقسيم، بـــات لا ينـــي يطالب، في لجاجةٍ، برحيل البريطانيّين في الحال، ولو أَفضى رحـــيلُهم إلـــى نـــشر الفوضى في البلاد، فالفوضى خيرٌ من تجزيء البلاد، فهي يمكن التغلُّبُ عليها، فـــي حين يتعذَّرُ العودة عن التقسيم؛ وبالتّالي كان لا ينفكُّ يردّد علـــى مـــسامع زعمـــاء المؤتمر: "**قولوا للبريطانيّين أن يرحلوا عنّا. سنجتاز أَلسنة اللهيب، وستُطهِّرنا النار**".

كان يأمل في الظُّهور على الخلافات الطّائفِيَّة، مهما استفحلت وعمَّت، وكان مُؤمنًا، في حال بقاء الأسرة الهنديّة موحّدةً، بالقُدرة على تبديد أسباب الشِّقاق، ولو اقتضى ذلك جَمًّا من التضحيات، ولكنّ محمّد علي جناح كان يأبى إلاّ "الطلاق قبل الزواج".

ولم يكُن زعماءُ المؤتمر أَنفسُهم يستسيغون تنازلاتِ غاندي، استرضاءً لجنـــاح، بحيثُ بات صوتُ المهاتما، على غرار معظم الأنبياء، صوتَ صارخٍ فـــي القفـــار. وكثيرًا ما كان المهاتما يُردِّدُ بيتَ شعرٍ لطاغور يقول فيه: "**إن لم يستجيبوا لنـــدائك، فامض وحيدًا، امضِ وحيدًا**".

وَمَرَّةً أُخرى، كتبَ مونتباتن إلى حكومته كاشفًا عن كوامن قناعاته: "ما التقسيم سوى ضربٍ من الحُمق الصِّرف، ولم يكُن بمُكنَةِ أَحَدٍ أن يجعلني أَرضى به لولا الجنون العرقيّ والدينيّ الذي استولى على الجميع هنا، وسدَّ المسالك دون أيِّ منفذٍ آخر".

في الخامس عشر من نيسان ١٩٤٧، أَفلح مونتباتن، إثر خمسة عشر يومًا من التفاوض مع كلٍّ من غاندي ومحمّد علي جناح، في حملهما على إصدار بيانٍ مشتركٍ عبَّرا فيه عن أسَفهما ممّا جرى حديثًا من أعمال شغَبٍ وعُنفٍ أَلحقت باسم الهند النبيل أبشع وصمةِ عارٍ"، وأعربا عن معارضتهما المبدئيّة والدائمة لاستخدام القوّة وسيلةً إلى أغراضٍ سياسيّةٍ، ومع ذلك، ما انفكّ محمّد علي جناح، طيلةَ تلك الأيّام الخمسة عشر، يهدِّد بخوض حربٍ أهليّةٍ تمزِّق الهند، إن هو لم يظفر بمطالبه السياسيّة.

أمّا غاندي، فقد كان سحابةَ تلك الأيّام، يُقيم في حيٍّ للمنبوذين، في ضواحي دلهي، حيثُ كان يرئس، كلَّ مساءٍ، صلاةً جماعيَّةً. وفي المساء الأوّل، وقبل الشروعِ بالصَّلاة، استفسر الحضورَ إن كان منهم من يُعارض تلاوةَ سوَرٍ من القُرآن، فرفَع بعضُهم أيديَهم إعرابًا عن معارضتهم، بحجّة أنّه لا يجوز تلاوةُ كتابٍ إسلاميٍّ أثناء صلاةٍ هندوسيّةٍ، فأعرَضَ غاندي عن الصَّلاة. وتكرّر السُّؤال والمعارضة والإعراض في اليومَين التاليَين؛ أمّا في اليوم الرابع، فلم يكُن، ثمّة، معارضون؛ وقد أكّد، إذّاك، المهاتما للحضور أنّه، رغم وجود معارضين، في الأيّام الثلاثة الفائتة، إلاّ أنّه كان عازمًا على تلاوة سُوَرٍ من القرآن، ومتأَهّبًا للموت بأيدي أولئك المعارضين، لو خَطَر لهم قتلُه، فيما اسم الله على شفتَيه؛ ولكنّه آثر تفادي الصِّدام، في مكانِ صلاةٍ؛ وفي نهاية المطاف، تغلَّب اللاّعنف.

ولكنّ ذلك لم يمنع المتطرّفين الحاقدين من تهديده ومهاجمته، برسائل مُغفَلةٍ تارةً، وصريحةٍ تارةً أُخرى، ومن اتّهامه بالمروق، وبالانحياز إلى الإسلام. وقد دعته إحدى تلك الرسائل "محمّد غاندي". أمّا المهاتما، فكان يَدهَشُ كيف يرى البعضُ في تمجيد الله باللُّغة العربيّة، خطيئةً، ويؤَكّد مُجدَّدًا أنّ الوحدةَ الهندوسيّة الإسلاميّة كانت وما انفكّت هَدَفَ حياته، وأغلى أحلامه.

في منتصف شهر نيسان، قَفلَ غاندي عائدًا إلى "بيهار"، حيث كان يرى أنّ

الدعوةَ إلى اللاّعنف ومكافحة البَغضاء هما المُهمَّة السِّياسيّة الوحيدة الجديرة بالاهتمام، إذ ما من سبيلٍ إلى إثبات بُطلان ادِّعاء محمّد علي جناح بضرورة إنشاء الباكستان، وإقناع مونتباتن بلزوم الحفاظ على وحدة الهند، سوى توثيق التَّلاحُم الإسلاميّ الهندوسيّ؛ وما من ذريعةٍ كفيلةٍ ببَعثِ الإيمَان، من جديدٍ، في وحدة الهند، لدى أعضاء المؤتمر الذين فقدوا ذلك الإيمان، إلاّ كَسبُ معركة التسامح في "بيهار" والبنجاب والبنغال. والتَّسامح واقعٌ لا يُثبته الاقتراع، بل يؤَكّده سلوك الجماهير فحسبُ، وغاندي كان يطمح في دفع هذا السُّلوك شَطرَ الوحدة والوئام.

كان محمّد علي جناح يُشهِر سلاحَ الوعيد بإِضرام نيران حربٍ أهليّةٍ، في حين كان نضال غاندي يرمي إلى نزع فتيل مثل تلك الحرب بإشاعة المحبّة، وترسيخ اللاعنف، وقد خاض ذلك النّضال بلا هوادة، ولكنَّه خاضه وحيدًا.

وكانت تتنازعه مشاعرُ متباينةٌ متعاقبةٌ، فتارةً يصهر الأَسى قلبَه حين تتنامى إليه أنباءُ صداماتٍ جديدةٍ في "نواخلي" أو سواها، أو عندما يعلن هندوسيّون تَنَكُّرهمْ لسياسة اللاّعنف، وتارةً أُخرى، يَغمرُ صدرَه الحبورُ عندما يُحاط علمًا بأنّ مسلمين قد شرعوا يعودون إلى منازلهم في بيهار التي كانوا قد فرّوا منها، وأنّ هندوسيّين وسيخًا قد خفّوا إلى مؤازرتهم، وأحسنوا وفادتهم، وأنّ أحد أفراد السيخ قد دُعي إلى مسجدٍ. وحينئذٍ كان تفاؤله الفطريّ يطغى على حُزنه السحيق، وتخامرُه أَحلام الوحدة والوئام:

"لو أنّ الهندوسيّين كانوا هندوسيّين حقيقيّين، ووثّقوا وشائج الصَّداقة بالمسلمين لخمدت النار الآخذة الآن في الانتشار".

ولكن ما لبث نهرو أن انتزع المهاتما من مُهمّته النبيلة عندما أبرق داعيًا إيّاه إلى نيودلهي، في مطلع شهر أيّار، كي يكون إلى جانب المؤتمر، ساعةَ اتّخاذه قرارًا تاريخيًّا حاسمًا.

استقلالٌ غارقٌ في الدماء

عَبَثًا تجشّمَ غاندي عناءَ الارتحال مسافةَ خمس مئة ميلٍ، في عَرَبةِ قطارٍ مُزدَحمةٍ، من الدرجة الثالثة، حوّلها الهجيرُ إلى مَوقدٍ مَتحرِّكٍ، فالشِّقَّة بينه وبين المؤتمر قد غدت من الاتّساع بحيثُ بات ردمُها مُتَعذّرًا.

والتزامًا بعادةٍ باتت لديه مألوفةً، حَلَّ المهاتما في أحد أكواخ المنبوذين في ضواحي نيودلهي، حيثُ صرَّح، أثناءَ لقاء الصَّلاة، مساءَ السابع من أيّار، والحزنُ يَهصُر قلبه: "**لقد وافق المؤتمرُ على إنشاء الباكستان، وعلى تقسيم البنجاب والبنغال. وإنّني أعارض اليومَ، مثلما عارضتُ دائمًا، كلَّ تقسيمٍ للهند. ولكنّ ما حيلتي، سوى تنكُّري لذلك المشروع الذي لا أحدَ سوى الله يستطيع حملي على قبوله؟**".

وقد أَوضحَ غاندي للورد مونتباتن موقفَه، مؤكِّدًا أنّ تقسيم الهند إنّما هو شرٌّ مُطلَقٌ، تهونُ دونَه كلُّ الشرور؛ ولو أنّ بريطانيا عَنَت لهتلر واستسلمت له عام ١٩٤٠، لما كانت فِعلتُها تلك بأَسوأَ من تقسيم الهند الذي أُقِرَّ تحت ضُغوط الرَّعاع والمجرمين الذين عاثُوا في البلاد قَتلاً وتدميرًا، وبذلك فرضوا تقسيمَ البلاد قَسرًا. غير أنّ اللورد مونتباتن، مع تأييده المبدئيّ لرأي غاندي، لم يكُن قد وجد سوى التقسيم مَخرجًا من الأَزمة المُستحكِمة، وفيمَا خلا غاندي، وافقه، على ذلك الحلّ، جميعُ الأطراف.

وفي حين كان المؤتمر والرابطة الإسلاميّة، على السواء، يستعجلان استقلالاً يوطِّد أسُس التقسيم، كان بَطَلُ الاستقلال الأَوّل يُؤثِر إرجاء تنفيذه، أَمَلاً في تحقيق الحرّيّة لبلادٍ موحّدةٍ عوضًا عن استقلال دولتَين تتشآن عن شطرها، وتُناصِبُ إحداهما الأُخرى العداء.

ولا مِراءَ أنّه كان بوسع غاندي إفشال قرار المؤتمر، فقد كان لا يزال صاحبَ السُّلطان الأَعلى في البلاد؛ ولكنّه، التزامًا بقناعاته الديمقراطيّة، كان يأبى فرضَ الحلول، مُؤثرًا الإقناع. وهو، آنذاك، كان يسعى كي يُثبت للجميع خَطَل التقسيم وخَطَره، بجمع شمل الشعب على الوحدة والوئام، وعلى رفض التجزئة؛ بيد أنّ الوقت كان ينساب سريعًا، وجهود غاندي، الوحيدة، لا تُؤتي من الثمار سوى النَزر الضئيل الذي لا يؤثّر في مجرى الأحداث.

بقيّةُ الأَمَل الذي كان يحدوه، وإيمانُه الراسخ برسالته، دفعا بالمهاتما، من جديدٍ، إلى كلكتّا، حيثُ سلَخ عشرة أيّامٍ، داعيًا إلى التسامُح والمحبَّة، ثمّ إلى أقاصي بيهار، حيثُ عاد يجوبُ القرى مُردّدًا: "**لو أنّ الهندوسيّين برهنوا عن روح الإخاء، لَعَمَّ الخيرُ منطقة بيهار، والهند، والعالَم أجمع**".

ومرّةً أُخرى، وفي الخامس والعشرين من أيّار، انتزعَه نهرو من حملته السِّلميَّة، فَقَفل عائدًا إلى دلهي، كي يُحاوِلَ، يائسًا، ردَّ تيَّار التَّقسيم الذي بات جارفًا، "حارقًا الشمعة من طَرَفَيها" على حدّ تعبير الدكتورة سُشلية نجّار، غير حافلٍ بأَثَرِ جهوده المُضنية على صحتّه وأيّامه؛ فقد حملته مشاهدُ العُنف، ورواياتُه المُروّعة، وارفضَاضُ خلاّنه عنه، على العزوف عن الحياة نفسها، فباتَ يشكو بصوتٍ يهدّجه التأثّر: "**لم يَعُد لي، في الهند الراهنة، مكانٌ. لقد تخلّيتُ عن أَمَل العَيش مئةً وخمسًا وعشرين سنةً، وربَّمَا استطعتُ الصمود، بعدُ، سنةً أو سنتَين، ولكنّني عازفٌ عن أيّة رغبةٍ في العيش، إذا ما اندرأَ سيلُ العُنف المتوعِّد**".

من غير مشقّةٍ، أفلحَ مونتباتن في حمل حكومته عَلَى إقرار شَطر الهند إلى دولتَين، مع إفساح بابٍ مُشرَعٍ على وحدتهما إن شاءَ الطَّرفان؛ وبيُسرٍ أيضًا، أقنعَ مونتباتن تشرشل نفسه، بعد أن أَشبعَ طموحَه بتأكيده له بقاء الهند المستَقلّة عُضوًا في اتّحاد دُوَل الكومنولث الذي تُهيمن عليه بريطانيا؛ ثمّ ظَفِر بتأييد المؤتمر والرابطة الإسلاميّة، وزعماءِ كافّةِ الفئات الأُخرى لمشروعه. الزعيمُ الوحيدُ الذي كان يُوجس خَشيةً من رفضه، ومن ردٍّ فعله الكفيل بقَلب كلّ خُططه، هو المهاتما غاندي، الذي كان يُدرِك مدى سُلطانه الأَدبيّ على البلاد؛ ومن ثمّ، فقد سعى إلى لقائه، وعَرَفَ النّفاذَ إلى إقناعه، حين بيَّنَ له أنّه، مثله، كان يرفُض تقسيم الهند، ولكنّه انقادَ، مُكرَهًا، لرغبةِ جميع الأَطراف؛ فإذا ما كان بِوِسعِ غاندي إثبات رغبةٍ حقيقيّةٍ لدى جميع فئات الهند في التعايش في أحضان بلادٍ موحَّدة الأَطراف، فسيكون للهند ذلك.

بهذه الحجّة الدامغة، انتزع مونتباتن من غاندي سلاحَ مقاومته لمشروعه، لمعرفته بمَا كان المهاتما يقيم من وزنٍ لإرادة الجماهير وقناعاتها. وربّمَا كان مونتباتن قد تبيّن أنَّ ملايينَ الناس كانوا يُجلّون غاندي، لا مثلما يُجلّون زعيمًا سياسيًّا بارزًا يُدَغدِغُ رغبات الجماهير كي يُجرَّها في إثره، بل كما يُجلّ الأتقياءُ بوذا أو محمّد أو المسيح؛ كانوا يقبّلون بوَرَعٍ قدمَيه، لا بل الغُبارَ الذي تنغمس فيه تانكَ القَدَمان، ولكنّهم كانوا غير مَعنِيّين باتّباع تعاليمه، وتحقيق رغَباته؛ كانوا يُكبِرون شخصه ويُدنّسون شخصيّته، يؤمنون به لا بمبادئه السَّامية الصَّعبة، يمجّدون منه القِشرة، ويُزرون بالجَوهر.

وهكذا، في الرابع عشر من حزيران، صوّتَ المؤتمر، بأغلبيّة ١٥٣ صوتًا مقابل ٢٩ صوتًا، لصالح مشروع تقسيم الهند، وقد انتابَ زعماءَ المؤتمر شعورٌ بالذّنب، وخامَرهم ضَربٌ من النّدم من جرّاء خيانة زعيمهم وقائدهم، ولكنّهم حاولوا تبريرها بعجز المهاتما عن استفزاز حركةٍ جَمَاهِيرِيَّة تَمنعُ التَّقسيمَ.

كانت، ثمّة حركاتٌ هندوسيّةٌ متطرِّفةٌ تناشدُ غاندي بلجاجةٍ كي يتزعَّم حركةَ مقاوَمةٍ، ولكنّ دافعَهم كان بُغضُهم للمُسلمين، في حين كان دافعُه الإبقاءَ على علاقاتِ المحبّة بين المسلمين والهندوسيّين، وبالتَّالي لم يكُن بين الشَّحْنَاء والمحبّة من لقاءٍ ممكنٍ، أو من تفاهمٍ على تعاونٍ.

وكان يحزُّ في نفس غاندي أن يجيء التقسيمُ نتيجةً حتميّةً لما تُضمره كلٌّ من الطائفتَين الكبريَين من نقمةٍ على الطائفة الأُخرى، فيرتدي، بذلك، صِفَة "مأساةٍ روحيّةٍ". وقد آلمه أن تُفضي اثنتان وثلاثون سنةً من كفاحه المتَّصل إلى نهايةٍ لا مجدَ فيها، وألاّ يأتيه الاستقلال الذي كان هو مهندسه، إلاّ بالحُزن والخيبة الذريعة؛ فالحُلم الذي طالما داعَبَه لم يكن الاستقلالَ، هدفًا في ذاته، بل قدرةَ الاستقلال على إثبات أَنَّ الشَّعب الهنديّ قد تمرّس من اللاعنف والتسامُح، بمَا يؤهِّله لحُكم ذاته، في حين أنَّ الاستقلال الذي تحقَّق لم يكن سوى مُعاهدةٍ سياسيّةٍ باردة، تُؤَكّد الشّقّة بين الطائفتَين اللتَين تؤلّفان جناحَي الهند، وتكرّس البُغض المتبادَل الذي يدفعهما إلى التناحُر. لقد كان الاستقلال، في الواقع، احتلالَ هنودٍ وباكستانيّين مناصبَ كان يحتلّها البريطانيّون، واستبدالَ عَلَم الانتداب بعلَمين متعاديَين، وبالإجمال كان نصرًا مأساويًّا. ومن ثمَّ، فقد حَقَّ لغاندي أن يُعلن رفضَه الاحتفاء باستقلالٍ خيّب آماله. وقد ثبَّته في عزمه على ذلك الرَّفض إقدامُ بعض زعماء المؤتمر، عَشيَّةَ الاستقلال، على الاستعاضة عن عَلَم الاستقلال الذي كان غاندي قد رسَمه، وأَحلَّ فيه المِغزَل محلَّ الصَّدارة، بعلَمٍ آخَر، أزاحوا منه "دمية غاندي الرجعيّة" واستبدلوها برسم "عجلة النظام الكونيّ"، يحيق بها أسَدان، تعبيرًا عن العُنفوان والجُرأة، ما أَفعمَ قلبَ غاندي أَسًى، وحمَلَه على التَّصريح: "**سأَرفُض أَبدًا تحيَّة عَلَمٍ يُمثِّلُ هذه الرِّسالة**".

لقد كان المهاتما الحزين يرى في استبدال العَلَم رمزًا لولادة الهند المستقلّة على غَيرِ الصُّورة التي قد طالما حَلِم بها، وطَمِحَ أن يجعل منها مثــالاً تحتذيــه لا آســيا وحدَها، بل المسكونةُ كلّها، بمَا تُؤكّده، وتبرهن عليه، من مُثُلٍ أخلاقيّةٍ واجتماعيّــةٍ، صورةٍ كان المتحذلقون يَرون فيها تخيُّلات عجوزٍ غوغائيٍّ، في حين كان يكتــشف فيها جميعُ من أمعنوا في تقصّي مراميها، عوّامة نجاةٍ يُلقيها للجنس البشريّ، حكــيمٌ استوعب خبرة الأجيال، وظلَّ، وحدَه، صافي الذهن، بين ظهراني عالَمٍ مسَّهُ الجنونُ.

وكان يُحزنه أن ينجرَّ زعماءُ الهند المستقلّة وراءَ سراب المُجتمــع الاســتهلاكيّ، الذي، إن هو أثبت عجزَه عن إسعاد الغرب، فهو، ولا ريب، سيجلب على جماهير الهند الكوارثَ، إذ سيَدفَعُها إلى السَّعي، لاهثةً، وراءَ سِلَعٍ نافلةٍ، لا حاجةَ بها إليها، وفي سبيل إنتاج هذه السِّلع، ستُقام المعامل الكبيرة التي، في سبيل تشغيلها، ستنتزعُ القرويّين، بــلا رحمةٍ، من أَرضهم ومنازلهم، لتُكدِّسهم في أكواخٍ يطغى عليها البُؤس والهَــوانُ، فــي حواشي المُدن الكبرى، مدمّرةً علاقاتهم العائليّة، مُجتثَّةً جذورَهم العميقةَ التي تشدُّهم إلى بيئتهم الطبيعيّة؛ كلّ ذلك، في سبيل تَوفير سِلعٍ تَكمُن سعادتهُم في الاستغناء عنها.

لقد طالما بشّر غاندي بأنّ الوفرةَ والتَّرف لا يحولان دون القَلَق النفسيّ، والفساد الروحيّ، وأنّ الحضارةَ الحقَّة هي التي تقتصر على الجوهريّ من الحاجات، بحيــثُ يتهيّأ لكلّ فردٍ على الأرض أن يُصيب، منها، أَرَبه؛ وقد طالما أعلن أنَّ حروبًا كثيرةً في آسيا، كان يمكن تفاديها بفضل قبضة أَرزٍّ إضافيّةٍ لكلّ فمٍ؛ فكان المِغــزَل كفــيلاً بتوفير العَمَل والكرامة ورغيف الخبز لكلّ هنديٍّ، فضلاً عن تحقيق حُلم غاندي فــي بقاء روح الهند مبثوثةً في قُراها التي يناهز عددها سبع مئة ألف قريةٍ، متحرّرةً من سيطرة الآلة، وسَطوة قَبضةٍ من المستَغِلّين، دائبةً على تأمين اكتفائها الذاتيّ من كــلّ ضروريٍّ أساسيٍّ، صادفةً عن كلّ نافلٍ، ملتفتةً إلى الله، راضيةً، سعيدةً.

ازوِرارُ زعماء الاستقلال الجُدُد عن تلك الهند التي حَلِم بولادتها غانــدي كــان يوحي للمهاتما الهلع على مصير الجماهير التي وقَف حياتَه على رفع شؤونها الماديّة والروحيّة، ويزيدُه رِعدةً وأسًى منظرُ انشقاقها وتناحُرِها.

ولا عَجَب، بالتالي، إن سمعته ابنة شقيقته، وعكّاز شيخوخته "مانو"، صباحَ يوم الثاني من حزيران ١٩٤٧، ذلك اليوم الذي كان على شتّى الفئات الهنديّة، إعلان قبولها بتقسيم الهند، يُدَمدِمُ، في حزنٍ: "**لقد بتُّ اليوم في عُزلَةٍ تامّة. حتّى نهرو وباتل يظُنّان أنّني مُخطئٌ، ويتوهّمان أنّ السِّلم سيفيء بعد التقسيم**". ثمّ، إثر لحظة صَمت، هَوَت من شفتيَه تلك العبارات التي كانت تَقطُر مرارةً: "**عسى أن أكون بارَحتُ هذا العالَم، فلا أشهدُ ما سيحدث. ولكن، لو اتَّفق أن أَلَمّ بالهند الشرُّ الذي أتوجَّسُهُ، وعرَّض استقلالَها للخَطَر، فلتَعلَم الأَجيالُ القادمة أيّ نزاعٍ ساورَ هذه النفسَ العجوز، وهي تُجيل في خَلَدها هذه الشَّدائد**".

وفي حين كان النِّزاع يُمزِّقُ صدرَ غاندي، كانت النَّشوةُ قد أثملت كُلاً من نهرو وجناح بترؤس كلٍّ منهما دولةً مستقلّةً، كما أثملت اللورد مونتباتن، بمَا أصابه من نجاحٍ سريعٍ وباهرٍ في أداء مُهمّته، فعَمِهُوا، جميعُهم، عن الكارثة الكُبرى المتربّصة بالبلاد، والمتوعّدة في الأفُق، فمَا استطاع أحدٌ منهم تقديرَ مدى الفِتنَة الطائفيّة المُدَمِّرة الموشكة على الانفجار، زارعةً الدَّمارَ، مُريقةً من الدِّماء أنهارًا.

بُعَيد السابعة من مساءِ يوم الثالث من حزيران وَلَج ستوديو إذاعة نيودلهي اللورد مونتباتن، وثلاثةٌ من زعماء الطَّوائف؛ وكان نائبُ الملك أوّلَ المتكلّمين، فتمنّى، بعباراتٍ شديدة الاقتضاب، للدّولتَين العتيدتَين، أوفر حُظوظ النَّجاح. وعَقِبَه نهرو، الذي أعلن، في كثيرٍ من الحُزن، وباللُّغة الهنديّة: "إنّ مصير الهند الحاسم قد بات وشيك التحقّق، في ولادةٍ شاقّةٍ وأليمةٍ"، وبعد أن أَقرَّ بقسوة المحنة التي عاناها لاضطراره القبول بالتقسيم، انتهى إلى القول: "إنّ قلبي خالٍ من أيّ فرحٍ، وأنا أحيطكم علمًا بالاتّفاق الذي عقدناه قبل قليلٍ".

ثم حان دور محمّد علي جناح الذي حقّ له الزهو بمَا أحرزه من نصرٍ جسيمٍ؛ بيد أنّ المُفارقة الكبرى كانت تكمُنَ في عجزه عن مُخاطبة مواطني دولة الباكستان إلاّ باللُّغة الإنكليزيّة، وقد حاوَل تغطية ذلك النَّقص، باختتامه خطابه بعبارة: "باكستان زندباد" باللهجة الأورديّة التي تعني "تعيش الباكستان"؛ ولكن اللَّكنة التي لَفَظَ بها تلك العبارةَ حملت كثيرين من المستمعين على الاعتقاد بأنّه كان يقول بالإنكليزيّة:

"الباكستان غَدَت في الكيس"(*).

وأخيرًا أعلن "بالديف سينغ" لجماعة السيخ عن قبوله بمبدأ التقسيم، ودعا الجميعَ إلى التمسُّك بالمسالمة بين الطَّوائف التي مزَّقَها ذلك التقسيمُ.

وفي اليوم التالي، نمى إلى اللورد مونتباتن أنَّ غاندي قد يَشُنُّ، في مساء الرابع من حزيران، وأثناءَ اجتماع الصَّلاة، حربًا على اتِّفاق التقسيم، وأقَضّ ذلك الهاجِس مضجعه، فاستدعى المهاتما على عَجَلٍ، وما إن رآه داخلاً حتّى أدركَ مدى قَلَقه واضطرابه؛ وجَلَس غاندي "مثلَ عصفور مهيض الجناح" وراح يُدَمدِمُ، في حُزنٍ هاصرٍ: "**يا للهول! يا للهول!**".

وسَرَت خاطرةٌ مُروّعةٌ في ذِهنِ نائب الملك، فمثْلُ ذلك اليأس كان كفيلاً بدفع غاندي إلى حَربٍ على التقسيم لا هوادةَ فيها؛ وحينئذٍ سيقفُ زعماءُ المؤتمر حيالَ خيارَين عسيرَين: إمّا إعلان انفصالهم عن غاندي – وغاندي كان وما انفكّ ضمانَ التعقُّل والسّلم الوحيدَ في بلادٍ تَجثُم على فوهة بركانٍ – أو الرجوع عن اتّفاق التقسيم، وهَدم كلّ ما بناه مونتباتن بصبرٍ ومهارةٍ. لقد كان مصيرُ الهند مُعلَّقًا على كلمةٍ يتلفَّظُ بها ذلك العجوزُ ابن الثامنة والسبعين. وكان على مونتباتن أن يجود بكنوز دهائه وفتنته ليحولَ دون رؤية جميع مخطَّطاته تتحوّل، في لحظةٍ، إلى شظايا متناثرةٍ. فأكَّد للمهاتما مشاركته الأسى على فاجعة التَّقسيم، ولكنَّه أثبتَ له أنَّه، إنَّمَا أفضى إلى ذلك القرار، عملاً بنصيحة غاندي نفسه الذي كان قد ناشَدَه، منذُ لقائهما الأوَّل، أن يحترم مشيئة الشعب الهنديّ، وقد اتَّضح له أنّ مُختلف فئات الشعب، كانت راغبةً في تقسيم البلاد إلى دولتَين؛ فإن كان بوِسع غاندي حَملُ الشَّعب على إعلان رغبته في مُواصلة العيش في أحضان هندٍ مستقلّةٍ، فسيكون هو – نائب الملك – أوّلَ من يُصَفِّقُ لهذه المُعجزة، ويَسعَدُ بها.

ونهض غاندي، باديَ الاضطراب، وهُرِع إلى لقاء الصَّلاة، إذ لم يألَف يومًا التخلُّفَ عن موعدها؛ وكانت جماهيرُ كثيفةٌ قد تراصَّت حَوَالَي المِنصَّة المَبنيّة من الطِّين التي كان سيجلس عليها المهاتما للصَّلاة، في حيّ المنبوذين البائس. وقد وافى

(*) Pakistan is in the bag

مُعظَمُهم لا بُغيةَ الصَّلاة، بل لسماع حكم غاندي على شَطر الهند؛ وقد راوَد الكثيرين من المُتطرِّفين أَمَلٌ في أن يشنّ النبيّ حَربًا على التَّقسيم، ولكنّ حكم غاندي كان إدانةً للهنود أنفسهم، وقد جاء في لهجةٍ خاليةٍ من كلّ نَبرةٍ حربيّةٍ، تقطُر حزنًا ومرارةً وخيبةً، إذ قال: "**لا جدوى من لَومِ نائب الملك على التَّقسيم. بل انظُروا إلى أَنفسكم، وفي أغوار قلوبكم، تجدوا تفسيرًا لما حَدَث**".

بهذه الكلماتِ الحزينةِ الصادقة، أصدرَ غاندي على نفسه حُكمًا بالإعدام، على حدّ ما فعل المسيحُ، لِنَحو أَلفَي سنةٍ خلت، عندما أبى إِقامةَ دولةٍ صهيونيّةٍ عنصريّةٍ تُقارع الاستعمار الرومانيّ، وأدان زعماءَ اليهود لنفاقهم ورِيائهم.

أمّا اللورد مونتباتن، فقد حقَّ له الزهُو بالمعجزة التي أنجَزَها بإيجاده حلاًّ لمُشكلةٍ مُستَعصيةٍ، تتعلَّقُ بمصير خُمس سكّان البشريّة، في غضون أشهُرٍ معدوداتٍ، أَثبتَ خلالها براعته الفائقة في التجوُّل بين الاتّجاهات المتناقِضة، والتوفيق بينها، وإسكات أصوات المعارَضة بالإقناع والبُرهان الدَّامغ؛ ومن ثمَّ، فقد دعا إلى مؤتمرٍ صحافيٍّ ضمَّ خليطًا جمًّا من رجال الصحافة من كُلّ أقطار العالم، كي يُعلِن للمسكونة كلّها نبأ نجاحه، وحينئذٍ فاجأه أحد الصحفيّين الهنود بسؤاله:

– "بمَا أنّ جميع الأَطراف قد أجمعت على ضرورة إعلان استقلال الهند، فهل حدَّدتم لذلك الإعلان تاريخًا؟

– "بالطبع" أجاب مونتباتن، مع أنّ تحديدَ التاريخ لم يكُن قد راوَدَ ذهنَه، ولم يبحثه مع حكومته أو مع أَحدٍ من المعنيّين الهنود. وباتَ عليه أن يُعلن، فورًا، على الملأ، عن تاريخٍ يستطيع التقيّد به؛ وتراقصت أرقامُ الأشهر والأيَّام متسارعةً في ذهنه، إلى أن استقرّ خيارُه على تاريخٍ قريبٍ، كان يُذكّره بأكبر انتصاراته العسكريّة، يومَ حمل الأمبراطوريّة اليابانيّة، بعد جهادٍ طويلٍ مضنٍ، على الاستسلام، فأَردَفَ بعد هنيهةٍ.

– "إنّ إعلانَ استقلال الهند سيتمُّ، رسميًّا، في الخامس عشر من آب ١٩٤٧".

ولكن غَرُبَ عن بال نائب الملك، المزدهي بنجاحِه، أنّ تواريخَ الأحداث الكُبرى في الهند خاضعةٌ لتنبُّؤات الفلكيِّين، وقد بادرَ هؤلاء إلى الإنذار بأنّ يوم الخامس

عشر من آب سيكون يومَ شُؤمٍ، وبالتالي فإنّ إعلان الاستقلال فيه سيَجرّ على البلاد سَيلاً من الكوارث؛ واضطرّ اللورد مونتباتن إلى الامتثال لصانعي السَّعد والشُّؤم، وأَصدرَ أَمرًا بالاحتفاء بالاستقلال، في الرابعَ عشرَ من آب ١٩٤٧، عملاً بنصيحة الفلكيّين؛ بيدَ أنّ تقديم التاريخ، على هذا النحو، لم يضع البلاد في مأمنٍ من سيل الكوارث الذي اندرأ عليها فعلاً.

ليلةَ الخامس عشرَ من آب ١٩٤٧، أَعلن راجندرا براساد، رئيسُ الجمعيّة التأسيسيّة، استقلالَ البلاد، وتسابقَ الخُطباءُ على الإشادة بمهندس الاستقلال، المهاتما غاندي، فهو "**النور الذي قادنا –.. أبو الأمّة الذي، بتجسيده روح الهند العريقة، قد حمل عاليًا مِشعَلَ الحرّيّة، وأَضاء الظّلمات المحيقة**". وتردَّدت في شوارع نيودلهي صيحاتٌ منتصرةٌ هاتفةٌ، على أنغام قرع الطبول "النصر للمهاتما".

في غضون ذلك، كان المهاتما نفسه غارِقًا في غياهب الشَّكّ وقتَامه، يتساءَل في قَلَقٍ وتمزُّقٍ، عن سبب إخفاقه في قيادة البلاد نحو اللاّعنف والتآلف والوئام. كان الاستقلال الذي تحقَّق بشَطر البلاد، وبإضرام نيران الضَّغينة الطائفيّة، يبعثُ في حنايا نفسه الحُزن والشُّعورَ المرهِق بالهزيمة؛ لقد ران عليه إحساسٌ ضاغطٌ بأَنّ، ثمّة، خلَلاً قد أدَّى إلى تلك العاقبة المُفجعة، وكان من شأنِ أَيّ زعيمٍ سواه أن يعزوَ الفَشَل إلى الآخرين، ولكنّ المهاتما كان يَبحث أبدًا عن مكامِن الخَلَل، في داخله، وكان يُخامره الشَّكُّ بأنّه ربّمَا قد أَخطأَ قيادةَ شعبه، ولكنَّه لم يَستسلِم للقُنوط، ولا هو فَقَد إيمانَه في قضيّته، وقد كتبَ لأَحد أصدقائه واصِفًا صراعَه النفسيَّ، فقال: "**كم أنا بعيدٌ عن امتلاك التوازُن...**" ولكنّه أردف: "**إن القضيّةَ العادلة في جوهرها لا يمكِنُ أن تُعدّ، يومًا، خاسرةً... يجب ألاّ نفقد الإيمَان في البشريّة، فالبشريّة محيطٌ، إن فَسُدت بعضُ قطَرات منه، لا يُمسي فاسدًا بأَجمعه**". كان التَّقسيم قد باتَ واقعًا ماثلاً، ولكن "**إذا ما نحن أحسنّا التصرُّف، فمن الممكن دائمًا الحدُّ من حَجم الشرِّ، بل ربّمَا استخلاصُ الخير من الشرّ**".

وبعدَ أن استعاد ثقتَه في الناس، وإيمَانَه في الله، استعادَ، أيضًا، ثقتَه بنفسه، وصرَّح في اجتماع صلاةٍ: "**إنَّني إلى جانب الكفاح، ولستُ أعرف الهزيمةَ... المُهمّةُ شاقّةٌ، ولكنّني أتولاّها بكلّ عزيمةٍ**". وكان يدعم تصميمه بالدعاء: "ربِّ،

انقلني من الظّلمات إلى النّور". كان التصميم على النِّضال يُحـرِّره مـن القُنـوط، والعَمَلُ كان يُشيع في حنايا نفسه السَّلام. ومع أنَّه كان يدلف إلى الثامنة والسبعين من عمره، شرع، في بسالةٍ، يبني من جديدٍ. وقد بدا جليًّا من الافتتاحيّات التي نَـشرَها، آنذاك، في صحيفة "هاريجان"، حيثُ بَسَطَ آراءَه في اشتراكيّةٍ خاليةٍ من العُنف، تُؤمن بالمحبّة والمُساواة، أَنّ ذهنَه ما زالَ في مَيعة الشباب، يَرودُ آفاقًا قشيبةً. كان شـيخًا بجسمه وبواسع خبرته، شابَّ الذِّهنِ والتطلّع، فتيَّ الإيمَان.

وإلى ذلك، كان دؤوبًا على الواجبات اليوميّة، التي كانت تفرضها عليه الظُّـروفُ السائدة في كلكتّا، حيثُ الأرض ما برحت لزجةً من انثيال الدّماء، والجوُّ حادًّا من دُخان الحرائق، والنفوسُ ترزَح تحت وِقر الأَسى والفاجعة، والخوفِ والضَّغينة، وكان غاندي، وَسط كلّ ذلك، المصلحَ، المؤاسيَ، مؤازرَ المهجّرين، الشادَّ من عَضُد المُرهَبين، مكَفكِف الدُّموع، مُبَلسِمَ الجُروح، ناشرَ الحُبّ، وموثّقًا بين الناس أجمعين وشائجَ الإخاء.

وفي حين كانت البلاد غارقةً في أسى الفواجع ودمائها، والمتطرّفـون الهندوسـيّون يأبَون الاحتفاء بالاستقلال الذي شوَّه بلادَهم وشطَرها، وما يزالون يحاوِلون مقاومة التقسيم بأيّة ذريعةٍ، كان حزبُ المؤتمر، خُروجًا على سياسة التقشّف والاشتراكيّة التي عَزَمَ على انتهاجها، قد أَقرَّ إضفاءَ أَوسع قَدرٍ من البَذخ والفخامة على احتفالات الاستقلال؛ ونافَـسَه محمّد علي جناح الذي كان يتطلّع إلى بذّ المؤتمر في مظاهر البَّهجة والبَذخ، احتفاءً بمولد حُلمه، دولةِ الباكستان، وكان حريصًا على أن يتقدَّمَ، أثناءَ الاحتفالات، على نائـب الملـك نفسِه، وقد أَمَرَ بإقامة مأدُبة غداءٍ عامرةٍ، في مقرّه، يوم الثالثَ عَشرَ من آب، فسادَ الوُجومُ أعوانَه الذين اضطرّوا إلى تذكيره بأَنّ ذلك اليومَ كان واحدًا من أيّام رمـضان الأخيـرة، حيثُ يليق بدولةٍ تصطبغ بالإسلام، وتقوم عليه، أن تلتزم بالصيام.

أمّا غاندي فقد أبى المشاركةَ في الاحتفاء بالاستقلال، ورفَض توجيهَ أيّة رسـالةٍ إلى الأمّة بتلك المناسبة، وانتأى عن مسرح الاحتفالات، واعتزل فـي منـزل أحـد المُسلمين في كلكتّا، حيثُ قضى يومَ الاستقلال وحيدًا، صائمًا، متضرّعًا إلى الربّ أن يُجنّب بلادَه الحبيبة، ما كان يتوجَّسُه من نَكبَاتٍ متوعِّدةٍ.

مُعجزة كلكتّا

رُبّمَا لم يَتَخيّل زعماءُ المؤتمر والرابطة الإسلاميّة جسامةَ العواقب المُتَرتِّبة على إقرارهم مبدأ تقسيم الهند إلى دولتَين. إلاّ أنَّ نائب الملك الذي كانت تحدوه الرغبةُ في الفراغ من مُهمّته من غير تلكّؤٍ، ووفق برنامجٍ كان قد أَحكم خُطَطه، بادرَ إلى تسليم كلٍّ منهم وثيقةً خطيرةً تتضمّن الخُطواتِ التنفيذيّة لتحقيق أكبر طَلاقٍ في التاريخ، طلاقٍ يتحكّمُ بمصير أسرةٍ قِوامها أربع مِئة مليون نسمةٍ، ويقتضي تصفيةَ ميراثٍ تكدَّس خلالَ أكثرَ من مئة جيلٍ؛ وتلك، لَعَمري، كانت مُهمّةً لا سابقةَ لها، ولا مُعادِلَ لضخامتها، تقتضي تقسيمًا دقيقًا متوازيًا لممتلكاتٍ شديدة التبايُن، باهظة الثمن، أحيانًا، تافهةٍ، أحيانًا أُخرى، وكثيرًا ما يتعذَّر تجزئتها: كان على الدولتَين اقتسام احتياطيّ المصرف المركزيّ، والعملات المتداوَلة، والطوابع، والدُّيون، وثالثَ خطٍّ حديديٍّ في العالم من حيثُ الطُّول، والسجونَ والمساجين، ومجلَّدات المكتبات، وقرطاسيّة الدواوين، والأقلام والمحابر والمكانس والمناضد والمقاعد، وكذلك اقتسام المشافي والمصحّات، ونزلائها من المرضى والمجانين، والجامعات، ومراكز البُحوث والمدارس، والمؤسّسات الحكوميّة، والجيش، وأَقنية الريّ، ومياه الأَنهر، وما إلى هنالك ممّا لا يَقعَ تحت حَصرٍ، ويتعدّى التخيُّل.

أمّا تخطيط الحدود، فقد فُوّض أمرُهُ إلى رَجُل قانونٍ بريطانيٍّ، كانت ضَلاعته في الحقوق الدوليّة، وجهلُه المطبَق لشؤون الهند، المعيارَين اللّذَين برّرا اختياره، وضمنا عَدَمَ انحيازه لأحد الطرفَين. وقد أَعملَ مِبضَعَهُ في خريطةٍ مجسّمةٍ بين يدَيه، في جهلٍ مأساويٍّ للواقع الحيّ، بحيثُ كثيرًا ما فَصَلَت الحدودُ التي رَسَمها بين المعامل وعمّالها ومصادر موادّها الأَوّليّة، كما فصلت بين الحقول وفلاّحيها وأَسواق إنتاجها، فَضلاً عن احتواء الاتّحاد الهنديّ، بملايينه الثلاث مئة والثلاثين، على ما يناهز اثنين وأربعين مليون مسلمٍ، في حين أنّ دولة الباكستان المحدثة، المتكوّنة من خمسةٍ وأربعين مليون نسمةٍ في الشّمال الشرقيّ، ونحو سبعة وعشرين مليونًا في الشّمال الغربيّ، كانت تضُمّ عِدّة ملايين من الهندوسيّين والسيخ؛ أمّا الجيش فقد تُرِك لكلٍّ من أفراده حرّيّة اختيار الدَّولة التي يُؤثر الالتحاق بها؛ وكان الخيارُ بسيطًا أمامَ

الهندوسيّين والسّيخ، بعد أن أعرب محمّد علي جناح عن رفضه لهم؛ أمّا المُسلمون فكان على كثيرين منهم أن يعانوا من التمزُّق بين الولاء للباكستان بدافعٍ دينيٍّ، أو الولاء لأرضٍ رأَوا فيها النُّور، وفيها أودعوا تراب أجدادهم، ومنها استمدّوا تقاليدهم، وإليها تشدُّهم روابطُ روحيّةٌ وماديّةٌ وعيليّةٌ لا يسهُل فصمُها؛ وكثيرًا ما اختار أحدُهم البقاءَ في مَسقط رأسه، في حين آثر أَخٌ له شقيقٌ الانتماء إلى الدولة الأُخرى، وكان عليهما، بعد حينٍ، أن يتقابلا ويتقاتلا على ساحة الوغى، باسم دولتين توأمَين باتتا عدوّين لدودين.

وبالإجمال، قد قطّع تشريح الهند أوردةً تدفّقت منها الدماء غزيرةً، وتدفّقت معها سمومُ الضغينة الدينيّة، قاتلةً مدمّرةً.

كانت الحركات المتطرّفة، في كلا الجانبين، تعتمد أساليب الإرهاب لحمل أبناء الأقلّيّة الطائفيّة الباقية بين ظهرانيها، على الهجرة، ولم يكن الإرهابيّون يتورّعون، في سبيل نيل أرَبهم هذا، من قتلٍ وسلبٍ واغتصابٍ وحرقِ منازل، ما دفع بزهاء خمسة عشر مليون نسمةٍ، من كلا الاتجاهين، إلى "الهجرة الكبرى" التي لم يسلُف لها في التاريخ مثيلٌ، هجرةٍ قذفت من الاتّحاد الهنديّ إلى الباكستان المسلمين المذعورين، ومن الباكستان إلى الاتّحاد الهنديّ هندوسيّين وسيخًا، تخلّوا عن كلّ شيءٍ للنجاة بحياتهم وحياة أُسَرهم.

قوافل البأساء تلك كانت تمتدّ أحيانًا على مسافاتٍ تنيف عن المئة كيلومترٍ، تتقدّمها أشباح المجاعة والأوبئة والهيستيريا الجماعيّة المروّعة؛ وكانت تضمّ أُسَرًا بكاملها، قلّةٌ منها استقلّت عرباتٍ تجرّها الأبقار؛ أمّا من سُرقت عرباتهم، أو من كانوا من الفقر بحيث لم يمتلكوا قطّ عربةً، فكانوا يهاجرون سعيًا على أقدامهم، يحمل الكبار منهم الأطفال على أكتافهم، كما يحملون مرضاهم في سلالٍ، ويُقلّون آباءهم العاجزين على كواهلهم. كانت الأوبئة تترصّدهم في الطريق، وتحصد منهم المئات، ويُضطرّ الأصحّاء إلى ترك مرضاهم، الذين فقدوا في شفائهم الأمل، على قوارع الطريق، لمصيرهم القائم المحتوم، كما يتركون موتاهم طعمًا لأسراب الغربان المحوّمة الكثيفة، التي باتت غمامةً سوداء تظلّل المواكب المأساوية. وكانت الجثث

التي تفرش الطرقات من الوفرة، بحيث أنّ بعض الغربان قد أصابت من التخمة والسمنة ما غدت معه عاجزةً عن الطيران، وأنّ من الكلاب الهائمة ما بطِر حتّى غدا لا ينتقي من الضحايا سوى أكبادها.

قليلون من النازحين كانون يحتفظون من الزاد والماء بما يكفيهم لاجتياز المسافات الطويلة، وغالبًا ما كان وجود تلك الذخيرة طُعمًا يجذب الجائعين والطامعين والقتلة، وحافزًا على الاقتتال والتناحر.

وكانت تتلاقى أحيانًا قوافلُ قادمةٌ من اتّجاهين متعاكسين، وتضطرّ إلى قضاء الليل في مخيّماتٍ متجاورَةٍ، ثُمَّ تعود إلى الاقتتال الأَرعن، رغم البُؤس الذي كُتِبَ عليها جميعًا. وفيمَا خلا قَبضةً من الشبّان المُتَطوّعين، كانت قد غابت كلُّ عناصر الحماية من رجال أمنٍ وجيشٍ، إذ كان أفراد الشرطة والجيش أنفسهم يُشاركون المعتدين نزعتَهم إلى السّلب والقتل.

ولكن، من خلال سُحُب الجريمة الدّكناء المُخيّمة، كانت تُشرِق، بين فينةٍ وفينةٍ، أشعّةُ بوادرَ إنسانيّةٍ تطغى على لُهاث الأهواء الطائفيّة والشحناء، وتُبرِزُ نُبلَ مشاعر التَّعاطُف والتضامُن في مواجهة صروف الأحداث، فيدلُّ، مَثَلاً فلاّحون نازحون، فلاّحين من الطائفة الأُخرى، ماضين في اتّجاهٍ مُعاكسٍ، إلى المرابع المضيافة حيث يجدون المأوى والطَّعام والأَمانَ، أو يخفُّون إلى مدّ يَدِ العَون لهم. وقد اتَّفق، مرّةً، أنَّ ثُلّةً من الجنود السّيخ ارتطمت برُكامٍ كثيفٍ من جُثَثِ المسلمين القتلى، فأَمر قائد الجماعة عناصرَه بالتوقُّف، وبأَداء التحيّة العسكريّة للجُثَث، وبالقَسَم على بذل كلِّ مُستطاعٍ للحؤول دون مثل تلك الجرائم التي تَصِمُ شعبَ السِّيخ بالخِزي.

وكان بعض النازحين يُؤثرون استخدامَ القطارات التي غدت حُلمهم المؤرِّق، فباتوا يُقيمون على انتظارها الأيّامَ والليالي، فوق أرصفة المحطّات، معانين سعير القيظ والظَّمأ، وعَضّات الجوع، وبعض من لم يتّسع لهم على الأرصفة مرقدٌ، كانوا يفترشون السّكّة، فتعجن العجلاتُ المسرعةُ القاسيةُ المئاتِ منهم بلا شَفَقةٍ ولا مبالاةٍ. وكان تدافعُ المهاجرين من أجل الظَّفرَ بموطئ قدمٍ في العربات، أو التعلّقُ بالنوافذ

ومقابض الأبواب ومدارجها، أو حتّى التكدّس فوق أسطحتها المتّقدة من اللَّظى، مع تعرُّضهم لتحطُّم جماجمهم لدى مرور القطارات في الأنفاق، من المناظر الشائعة المثيرة للشفقة؛ وقد غدت محطّات السكك الحديديّة وقطارات البؤس تلك، ملتقى الأوغاد واللُّصوص والقَتَلة، يَعيثون فيها تنكيلاً وسلبًا وإجرامًا، بحيثُ قُضي على الكثيرين، واغتيلَ حُلم هجرتهم قبلَ أن يَتَسَنَّى لهم استقلالُ عربة قطارٍ؛ وللكثيرين أيضًا غدت القطاراتُ ملتقى الرّدى، وأمست عرباتها نُعوشًا متحرّكةً مروِّعةً، على حدّ ما جرى لركّاب القطار رقم ١٠، الذي توقَّف، يومَ الاحتفال بالاستقلال، في محطّة أمريستار، وكانت نوافذُه كلُّها مُشرعةً، قد أُخفض زجاجُها، ولكنّها كانت خاليةً من أيِّ وجهٍ يُطِلّ، أَو يدٍ تُلوّح؛ وانقَضَت دقائق لم يُفتح خلالها بابٌ واحدٌ، فأَوجس مراقبُ المحطَّة أمرًا مريبًا، واندفع ليستجلي الواقع، فطالَعه مشهدٌ لم يستطع طردَ بشاعته من ذهنه حتّى مماته؛ فقد كانت العربات كلُّها غاصَّةً بالأَشلاء المتناثرة، والجُثَث المشوَّهة المكدَّسة فوقَ مُستنقَعاتٍ من الدِّماء، تسطعُ منها روائحُ التفسُّخ المقزّزة. وقد كُتب بالدِّماء على جدارِ العَربة الأَخيرة: "هذه هديّتنا إلى نهرو بمناسبة الاستقلال!". ولم يكُن حظّ محمّد علي جناح من هدايا مماثلةٍ أقلّ شأنًا!

ولا مِراءَ أنّ تلك الهجرة الجسيمة، في كلا الاتّجاهين، قد أَحرجت كلتا الدولتَين الناشئتين عن التقسيم أفدح إحراجٍ، إذ كانتا، كلتاهما، تصادفان مشقّةً قُصوى في توفير أبسط مُستلزَمات العيش لمواطنيهما؛ ومع ذلك، جَهِدَتا في تأليف فِرَقٍ لاستقبال المهاجرين ومؤازرتهم، ولكنّهما لم تقويا على عَون سوى قسطٍ ضئيلٍ منهم. وكَان قليلون من الوافدين يحتلُّون منازلَ أبناء الطائفة الأُخرى الذين فَرّوا، هم أَيضًا، ناشدين الأَمنَ والحماية؛ أمّا السَّوادُ الأَعظم من المهاجرين فكانوا يَفزعون من الرُّعب إلى البُؤس، ومن الخوف إلى اليأس، وكانوا يفترشون الساحاتِ والأَروقة، وقارعاتِ الطرق، حيثُ يتداعون إعياءً وجوعًا وحُزنًا، مستسلمين لقَدَرٍ قاسٍ، وكثيرًا ما كان سائقون متهوِّرون يدهسونهم غيرَ عابئين. وكانت أعدادٌ وفيرةٌ منهم تتكدّس في مُخيّماتٍ زَرِيَّةٍ، حيثُ تَلقى ما يُتيحُ لها البقاءَ على قَيد حياةٍ مُفعَمةٍ بالشقاء والبؤس والمَرَض والحرمان.

إلى واحدٍ من تلك المخيّمات التي استقبلت طلائعَ المهجَّرين الهندوسيّين والسيخ في البنجاب وافى غاندي، برفقة نهرو؛ كان، ثمَّة، زُهاء اثنين وثلاثين ألفًا ممّن أفلتوا من المجازر الطائفيّة، وقد حُشروا تحت هجرٍ قائظٍ، ووَسط قذارةٍ منفّرة. وما إن أطلّت سيّارةُ الزعيمَين حتّى داهمتها جماهيرُهم الهائجة، جائرةً بِغَضَبِهَا، شاكيةً مأساتها، وقد أترَعَ الحقدُ واليأسُ أنظارَها؛ سُحُبٌ من الذُّباب كانت تغشى جروحَهم المُنتنَة، وزوابعُ من الغُبار كانت تُثيرها أقدامُهم المتَوتِّرة المتزاحمة، بحيثُ كاد المهاتما يختنق من الهجير المتلظّي، ومن كثافة الغُبار، ومن تراصّ الجموعِ فوق رأسه، والأَسى الهاصر الآخذ بمجامع قلبه؛ ومع ذلك، فقد قضى النهارَ كلَّه مؤاسيًا المفجوعين، معالجًا المصابين، ملقِّنًا الجماهير أَساليبَ النظافة، وطُرُق حَفر المراحيض وتنظيفها، ومؤسِّسًا لهم مُستَوصفًا يُوفّر الإسعافات العاجلة.

وفي طريق العودة، كان قد أَعياه النَصَب والحُزن، فاستلقى على مقعد السيّارة الخلفيّ، وأسند قدمَيه النحيلتَين المقرّحتَين على ركبة تلميذه، رئيس الوزراء، واستسلم لسباتٍ ثقيل. وكان نهرو نَهبًا بين مشاعر الغَضَب والأسى والنَدَم على إعراضه عن سياسة المهاتما، ومخالفته الرأي بشأن تقسيم الهند؛ فراح يُمسِّدُ قَدَمي معلّمه الحبيب في حنانٍ وانكسارٍ؛ ولمّا مالت الشمسُ نحو المغيب، انحدر غاندي من السيّارة، وانتحى ركنًا من الطريق، وجثا يُصلّي بصوتٍ أجشّ حطّمه الحزن، داعيًا الربّ أن يُبعد عن بلاده الحبيبة كأسَ المآسي التي كان يراها مُقبلةً.

وفيمَا كانت الاستعداداتُ ناشطةً لتقسيم الهند، والإعدادِ ليوم إعلان الاستقلال، ارتأى الزُّعماء السياسيّون تعيين اللورد مونتباتن حاكمًا عامًّا على كلٍّ من الهند والباكستان؛ ولئن كان ذلك المنصِب لا يُخوِّلُ نائبَ الملك أيّةَ سُلطةٍ فعليّةٍ، إلاّ أنّه كان يقيم منه شبه حكمٍ يفضّ ما قد ينشأ من خلافٍ بين الدولتَين، ورمزًا لاستمرار ضَربٍ من العلاقات بينهما معًا، من جهةٍ، وبينَهما وبين بريطانيا من جهةٍ أُخرى؛ تلك البادرة الفريدة في تاريخ النِّضال ضدَّ الاستعمار، لم يكُن ممكنًا أن تجول إلاّ في خاطر شعبٍ عريق التاريخ، تتلمذ على يدَي غاندي، فانتبَذَ الضَّغينة، وتمرّس بالتَّمييز بين الجريمة والمجرم، شعبٍ كافح بصلابةٍ لا تلين، وعندما ظَفِر بحُقوقه، عرف

كيف يكون كريمًا. وكان نهرو هو رائد تلك المبادرة التي كان لها، في نفس مونتباتن، وقعٌ بليغ الأثر. إلاّ أنّه كان يَجنَحُ إلى الاعتذار عن قبولها، إذ كان توّاقًا إلى العودة سريعًا إلى وطنه، ليهنأ بالراحة، وبأمجاد نجاحه السريع الباهر في مُهمّته الجبّارة. غير أنّ حكومته وزعماء بريطانيا قد ناشدوه، بإلحافٍ، الترحيب بها، وقد رأوا فيها ذريعةً لإبقاء علاقاتٍ طيّبةٍ بين لندن، وكبرى مستعمراتها سابقًا. وجديرٌ بالتّنويه أنّ محمّد علي جناح سُرعانَ ما انقلب على تلك المبادرة، إذ لم يكُن يُطيق في الباكستان سُلطةً غيرَ سُلطته، ولا منصبًا، ولو فخريًّا، موازيًا لمنصبه.

ولم يكُن بوسِع اللورد مونتباتن قبول منصبٍ، ولو فخريٍّ، في الهند، لا يحظى بتأييد غاندي ومباركته؛ وكان غاندي قد أَعلنَ على الملأ أن الشَّخصَ الذي كان يتمنّى أن يراه أوّل حاكمٍ على الهند المستقلّة، وخليقًا بأن يُفرِغَ على ذلك المنصب كلَّ معاني الاستقلال التي كان يحلمُ بها، هو إحدى كنّاسات الشوارع، من المنبوذات، تمتاز بطيب الطويّة، ونزاهة اليد، وبِمثل نقاء البِلَّور؛ ولكن، بعد أن رشّح نهرو اللورد مونتباتن لذلك المنصب، لم يتوانَ غاندي عن تأييده؛ وقد وافى بنفسه نائبَ الملك، ليُبلغه رغبتَه في تولّيه رئاسة دولة بلاده التي ناضل خمسًا وثلاثين سنةً من أجل انتزاعها من ربقة الاستعمار البريطانيّ، وكأنّه، بعد أن غدت الهند حرّةً، مستقلّةً، سيّدة نفسها، لم يَعُد يخشى البريطانيّين، ونَسيَ كلّ ما ألحقته بريطانيا به وبرفاقه من إهانةٍ وسجنٍ، وبشعبه من تنكيلٍ؛ إلاّ أنّ المهاتما، شأن الأنبياء والقدّيسين، كان يحدوه منطِقٌ مُخيفٌ في بساطته، يموج بالتحدّي، ومن ثَمَّ، لم يرَ حَرَجًا في مصارحة نائب الملك أنَّ القصرَ المُنيف المُغرِقَ في التَّرف الذي كان يُقيم فيه لا يليق بأوّل رئيس دولةٍ، سَوادُ شعبها يعيشُ في فَقرٍ ومَترَبَةٍ وبُؤسٍ، فناشده تحويلَ ذلك القصر إلى مستشفى شعبيٍّ، والاقتصار على بيتٍ وضيعٍ، من غير خَدَمٍ، يضطلعُ هو وزوجته بتدبُّر شؤونه والعناية به، وبتنظيف مراحيضه؛ ولم يكُن غاندي، في دعوته تلك، عابثًا أو مازحًا، بل كان يؤمن إيمَانًا راسخًا بمَا للقُدوة التي يمثّلها الزُّعماء من خَطير شأنٍ، وموقنًا بأنَّ السبيل إلى القضاء على الامتيازات التي توسّع الهوّة بين أصحاب الوفرة وأولي الفاقة، تتمثّل في تخلّي مالكي الامتيازات عنها طائعين راضين.

ومنَ المؤكّد أنّه لم يكُن من اليسير على اللورد الأرستقراطيّ، سليل الأسَر الأوروبيّة المالكة، الكَلِف بالتّرف والبَذخ، هَضم تلك الدّعوة الغريبة، كي يكون الاشتراكيّ الأوّل في الهند المستقلّة. وربّمَا كان غاندي هو الاشتراكيّ الوحيد في عصرنا الذي وفّقَ بين أقواله وأفعاله، بين معتقداته وسلوكه اليوميّ. أوَلَم يقتصر طعامُه على الحدّ الأدنى الذي يُتيح له البقاءَ، لكي لا يُبذِّرَ ذرّةً من موارد وطَنِه الجائع، أوَلَم يتجرّد عن كلّ امتلاكٍ، كي يظفرَ كلُّ محتاجٍ بأَوَده الجوهريّ؟

ولكن لا بُدَّ من التنويه، أنّ مونتباتن كان يُؤنس في غاندي سِحرًا لا يُقاوَم، يجذبه إلى ذلك الرَّجُل الفذّ؛ وكان، عندما وافى الهند، قد اعتزم أن يمحُوَ من ذهنه جميعَ الأَحكام المبتَسَرة المُغرِضة التي كان يروّجها، عن غاندي، بعض السياسيّين البريطانيّين، فسعى إلى معرفته عن كثَبٍ، معرفةً مُجرَّدَةً صادقةً، وكان كلُّ لقاءٍ يضمُّهما يَزيدُ كلاًّ منهما ميلاً إلى الآخر، رغم اتّساع الشّقّة بينهما.

ومع دُنُوِّ يوم الاستقلال، كانت الصِّدامات تزداد احتدامًا في المناطق التي تَضُمّ أقليّةً من إحدى الطائفتَين الكُبرَيَين. وكانت كلكتّا والبنجاب بُؤرَتَي الصّدام الرئيستَين، وقد أَنفذ نائب الملك إلى البنجاب قوّةً خاصّةً قِوامها خمسةٌ وخمسون ألفًا من خيرة محاربيه لصَون الأَمن، ولكنّه كان يُدرِك أنّ أَعتى الجيوش ستقفُ عاجزةً عن فَرض الأمن في كلكتّا المُتمرِّدة، حيثُ كانت الأَحقاد تتلظّى منذ يوم "العمل المباشر" الذي أدّى إلى المجزرة الكبرى، لعامٍ خلا، في آب ١٩٤٦؛ وكان يخشى، إذا ما انفجرت كوامنُ الأحقاد من جديدٍ، وعمَّت، إلاّ تُبقي حيًّا، ولا تَذَرَ بناءً، ولم يعثُر على مُنقِذٍ سوى نَبيِّ اللاّعنف، فجاء غاندي مستغيثًا، وتوسّل إليه قائلاً: "**امضِ إلى كلكتا، وكُن، ثَمَّة، بمُفرَدِكَ، جيشي**".

كان غاندي قد اعتَزَم قضاءَ يوم الاستقلال في الصَّمت والصَّوم والصَّلاة والغزل، وسط الأقلّيّة الهندوسيّة المذعورة في "نواخلي" جنوبيَّ البنغال؛ بيد أنّ صوت مونتباتن، الذي انضمَّ إليه توسُّلُ "سيّد سهروردي" زعيم مُسلمي كلكتّا، قد حَمَلَه على المكوث في كلكتّا. كان "سهروردي" يُمثِّل نَمَط السياسيّ الفاسد المُفسد، الذي قد طالما كافحه غاندي؛ وقد عُزِيَ إليه تنفيذُ المجازِرِ الرَّهيبة التي غرّقت أرض كلكتّا بالدِّماء

والنار والدَّمار، في "يوم العمل المباشر" المشؤوم، في شهر آب ١٩٤٦. وقد حقّ له، بالتالي، أن يتحسَّب من ثأر الهندوسيّين، في يوم الاستقلال، ففزع إلى غاندي مستنجدًا، وعرف السبيل إلى إقناعه بقوله: "**للمسلمين حقٌّ في حمايتك بقَدر ما للهندوسيّين، فقد طالما أكَّدْتَ أنَّك مُلكٌ للطرفَين على قدرٍ سواء**".

وقد آنس غاندي، من سهروردي، خَوفًا حقيقيًّا، فما استطاع خذْلَه، إلاّ أنّه علَّق امتثاله لطلبه بشَرطَين: أوّلهما أن يَضمنَ سهروردي، شخصيًّا، سلامةَ الهندوسيّين في "نواخلي"، ويحصل على تَعَهُّدٍ خَطّيٍّ من المسلمين هناك بعدم التعرّض للهندوسيّين، وإلاّ اضطُرَّ المهاتما إلى الصوم حتّى الموت، فيكون سهروردي مسؤولاً عن موته. أمّا شَرطُهُ الثاني، فكان أن يقيمَا، كلاهما، غاندي وسهروردي، معًا، ليلَ نهارَ، من غير حمايةٍ ولا سلاحٍ، في واحدٍ من أكثر أكواخ كلكتّا بُؤسًا، واضعَين حياتهما، رَهنًا للسَّلام.

وهكذا، منذُ التاسع من شهر آب ١٩٤٧، راح غاندي وسهروردي يجوبان شوارعَ كلكتّا وقد اشتبكت أيديهما؛ وحيثمَا مرَّا، كانت تنطفئ نيران العُنف، ويسود السَّلام، ويتصافح المُسلمون والهندوسيّون ويهتفون معًا: "**تحيا الوحدة الهندوسيّة الإسلاميّة؛ يحيا المهاتما غاندي**".

يوم وَصلَ المهاتما إلى كلكتّا، كانت فئاتٌ من الهندوسيّين المتطرّفين قد استقبلتهُ بالحجارة والشَّتيمة، وبرشْقِه بالخيانة. ولكنّ غاندي، في بساطةٍ ورباطة جأشٍ، انحدر من السيّارة، نحيلاً، ساكنًا، وبادَرهم بالقول: "**أنتم تريدون بي سوءًا، ولذلك أنا آتٍ إليكم**". وكانت تلك الكلمات كافيةً لتسكين هياجهم. وأردف: "**إنّني هنا لكي أذودَ عن الهندوسيّين، بقَدرِ ما أذودُ عن المُسلمين، وإنّني أضعُ نفسي تحت حمايتكم. إن شئتم فلكم أن تنقلبوا عليّ، فأَنا قد أشفَيتُ على نهاية شوطِ حياتي، وقد بات الطريقُ أمامي قصيرًا، غير أنّني أوثرُ الموتَ، في الحال، على أن أراكم غارقين في الجنون...**". ثُمَّ أوضَح لهم أنّه لم يَقدُم إلى كلكتّا، إلاّ بعد أن ضمن سلامةَ الهندوسيّين في "نواخلي"، وأنّ عليهم، هم أَيضًا، الإسهام في ضَمانِ سلامة إخوانهم الهندوسيّين في "نواخلي" بتعهُّدِهم عَدَمَ التعرُّض للمُسلمين في كلكتّا.

مرّةً أُخرى كان غاندي يُقدم على التَّضحية بحياته، ولكنّه، في هذه النَّوبـة، لـم يكُن يبتغي، من التَّضحية، تحريرَ مواطنيه من رِبقة الإنكليز، كما فَعَلَ من قبلُ، بـل من قيود الحِقد الذي ينفُث في قلوبهم سُمًّا زعافًا.

ومنذُ يوم غاندي الأوّل في كلكتّا، كان اجتماع الصَّلاة المسائيَّة التـي يؤمُّهـا، ملتقى الألوف، والمِنبَرَ الذي منه يتَّصل بشعبه، ويبثُّه خواطرَهُ التي تنتقلُ من فمٍ إلى فمٍ، وتتناقَلُها الصُّحُفُ والإذاعاتُ، وتبلغ كلَّ هنديٍّ في أقاصي الـبلاد؛ وكـان عـدَدُ حضور تلك الصلاة اليوميَّة يتضاعَفُ ويتضخَّمُ كلَّ يومٍ.

ليلةَ الرابعَ عشر من آب، في حين كانت ألسنةُ الحرائق تلتهم أحياءَ الهندوسـيّين والسِّيخ في لاهور، التي قُطِعت عنها المياه، فتحوَّلت أسَرٌ بكاملها جُثَثًا متفحِّمةً، وفي حين حُرِقَ، ثمَّة، عددٌ غفيرٌ من المُصلّين فـي المعابـد، وسـطَ هتافـات النَّـصر، وصَيحاتِ الثَّأر يجأر بها المهاجمون؛ وفي حين كانت البنجاب، أيضًا، تـشهدُ أشـدَّ المجازر هَولاً، في تلك الليلة، كانت نيودلهي تموج بفرحٍ طافحٍ، ومظاهراتٍ هائجةٍ، وأنوارٍ ساطعةٍ؛ أمَّا في كلكتّا، فبفضل حضور غاندي، كان المُسلمون والهندوسـيّون يتعانقون، وأولادُهم يتبادَلون الحلوى، والجميعُ جَذِلون بتعليق رايات الاستقلال علـى عواميد الشَّوارعِ وفوانيسها: وقد أَثبتَ غاندي نجاحَه في إسكات العاصفة التي كانت تتوعَّد المدينةَ المُتفجّرة.

وفي اجتماع الصَّلاة ذلكَ المساءَ، الذي احتَشَدَ له بضعُ مئاتِ ألوفٍ، أَعلن غانـدي: **"غدًا سنكون قد تحرّرنا من نير بريطانيا؛ ولكن، منذُ منتصف هذا الليل، ستكون الهند مشطورةً... يومَ غدٍ يومُ عيدٍ، ولكنَّه، أيضًا، يومُ حدادٍ... إذا ما التزمتْ كلكتّا بالتعقُّل، وحافظت على علاقات الإخاء، فرُبّمَا ستَخلُصُ الهند بأَسرِها. أمّا إذا التهَبـت الـبلادُ بنيران حربٍ بين الإخوة، فكيف لحُرّيَّتنا، الحديثةِ العهد، أن تبقى حيَّةً؟"**.

وقد أعلن غاندي، في ذلك المساء، أنّه لن يحتفل بالاستقلال، وناشد أصدقاءَه أن يحذوا حَذوَه، ويسلخوا ذلك اليومَ التاريخيّ في الصَّوم والصَّلاة، من أجـل خـلاص الهند، وفي الغَزل قدرَ ما يستطيعون، إذ إنّ "تلك العَجَلة الخشبيّة، هي أكثرُ ما يقوى على إنقاذ البلاد من الكارثة".

كان يومُ استقلال الهند، الذي غيَّرَ مجرى التاريخ، ووَضَعَ حدًّا نهائيًّا لا رجوعَ عنه لفصلٍ من فُصول الاستعمار، في تاريخ البشريّة، خليقًا بأن يكون يومَ تمجيد غاندي، وتتويجًا لحملته الفذّة التي انتزعتْ إعجابَ الدُّنيا قاطبةً؛ إلاّ أنّ ذلك اليومَ كان له، من جرّاء تقسيم الهند، ومَوجةِ العُنف المجنون الذي عَصَفَ بشعبها، طَعمُ الرَّماد في حَلقِ غاندي، الذي غدا نَهبًا للرِّيبة والتَساؤل: أهو زاغَ عن سَويِّ الطريق في قيادة شعبه إلى الاستقلال؟

صباحَ ذلك اليوم، وافى مقرَّ غاندي وَفدٌ يضُمُّ مُسلماتٍ وهندوسيّاتٍ معًا، أَقبلنَ يلتمسنَ التبرُّكَ برؤية المهاتما، مُستَهلاّتٍ، بذلك، فيضًا من الوفود التي كانت تضطرُّ غاندي أن يقطع، كلَّ نصف ساعةٍ، تأمُّلاتِه، ويهجُرَ مِغزَلَه، كي يتيح للجموع التملّي من رؤيته؛ ولكنّه، في ذلك اليوم، كان من الاضطراب بحيث لم يوجّه إلى الشعب أيّة رسالةٍ، إلاّ أنّه حذَّرَ جماعةً من السياسيّين قائلاً: "**احترسوا من السُّلطة، فالسُّلطة تُفسِد؛ لا تَقَعوا في شراكها، ولا تنسوا أنّ رسالتكم تكمُنُ في خدمة فقراء القُرى الهنديّة**".

وطوال ذلك اليوم ظلَّ مُسلمون وهندوسيّون، يطوفون، زُرافاتٍ، معًا، شوارعَ كلكتّا، وقد تشابكت أيديهم، وغمرت قلوبَهم مشاعرُ الوئام؛ وبدا وكأنّ "شمس التعقّل وصفاءَ النوايا قد أشرقت، عَقبَ تراكمُ سُحُبٍ دكناء طوال سنةِ جنونٍ". وفي المساء تحلّق للصَّلاة، أكثرُ من ثلاثين ألفًا، حول غاندي الذي أهاب بهم أن يعملوا على نَشرِ الإخاء والسَّلام قائلاً: "**إنّ من ارتشف كأسَ الضَّغينة المسمومة، لا بدّ له أن يَجِد كَوثَر المحبّة أعذبَ مذاقًا**". تم تجوّل غاندي وسهروردي معًا عبر المدينة، وفي تلك النَّوبة لَم تستقبلهما الحجارة والشتائمُ، بل في كلّ مُنعطَفٍ وزاويةٍ، كانت الجموع ترشُّ سيّارتهما بماء الورد، مُعبّرةً عن امتنانها وهاتفةً: "إنّك منقذنا، يا غاندي".

ذلك الهتاف كان يعكِسُ واقعًا مُذهلاً، فبالمقارنة مع سائر بُؤَر الفتنةِ في الهند، كانت كلكتّا مرشَّحةً لبذِّها جميعًا في العُنف الذي قد طالما ضربتْ فيه أبشعَ مَثَلٍ وأرهبَه وحشيّةً، منذُ يوم "العمل المباشر"، لسنةٍ خلت، ذلك اليوم الذي خلّف في

قرارات النفوس، من كوامن الأحقاد، وغافي الضغائن، ما يعرِّضُ المدينة للاشتعال اشتعالاً لا يُبقي ولا يَذَر، في أوّل سانحةٍ؛ ومع ذلك، برزت كلكتّا، دون سواها من مدن الهند، واحةَ سلامٍ ومَوئل إخاءٍ، على نحوٍ مدهشٍ، وقد وصَفَها الصحفيّون الأَجانب بأَنّها "أعجوبة الهند"، بفضل انقيادها لرسول اللاعنف ونبيِّ الإخاء.

وقد كتب مونتباتن، فيمَا بعد: "لو أنّ الفِتَن اندلعت في كلكتّا، لكانَ كلُّ ما قد يحدُثُ في البنجاب، سيبدو وكأنهُ سرير وردٍ، بالمقارنة مع سيول الدماء التي كان من شأنها التدفّق على كلكتّا".

وكان مونتباتن، تفاديًا لإفساد فرحة البلاد، قد أَرجأَ، إلى غداة يوم الاستقلال، الإعلانَ عن حدود الدولتَين الجديدتَين، إذ كان يوجس خَشيةً من خيبات الأَمل الذَّريعة التي ستُصيب الجانبَين، إثرَ الاطّلاع على تلك الحُدود؛ وبالتَّالي، ففي السادس عشر من آب ١٩٤٧ فقط، وَضَعَ بين يدَي كلٍّ من نهرو، رئيس وزراء الهند، ولياقات علي خان رئيس وزراء الباكستان، مظروفًا يحتوي على حدود الدولتَين، وسُرعانَ ما تبيَّن له، من أمارات الغَضَب والانفعال التي ارتسمت على وجهَيهما، أنَّ رجُلَ القانون البريطانيّ الذي كُلِّفَ بتخطيط الحُدود قد التزَمَ بالنزاهة وعَدَم التحيُّز، وأفلح في إثارة حفيظة الجانبَين على السَّواء، واقترفَ حماقاتٍ ولَّدت مآسيَ مُروّعةً.

وما لبثت نشوةُ الفرحة بالاستقلال أن تبخَّرت، وتجلّى الواقع الجديد مُرعبًا مُشبَعًا بعوامل الانفجار؛ فشَطرُ الهند والباكستان كان أشبَهَ بفَصل تَوأَمَين ملتَصِقين بوَرَمٍ خبيثٍ مستقرٍّ في البنجاب، وقد جاءَ مِبضَع الموظَّف البريطانيّ ففصلَهما، من غير أن يجتثَّ من كلٍّ منهما الخلايا السرطانيّة، إذ ترك، في الجزء الباكستانيّ من البنجاب زُهاءَ خمسة ملايين من السيخ والهندوسيّين، مثلما ترك في الجزء الهنديّ منه نحو خمسة ملايين مُسلمٍ؛ وكان لدَعاوة التخلّص من سَطوة الطائفة الأُخرى التي اندفع يروّجها الزعماء المتطرّفون من كلا الجانبين، أَثَرٌ بليغٌ في دفع كلِّ أكثريّةٍ إلى الانقضاض على الأقليّة التي بقيت بين ظهرانَيها، في هَوَسِ قَتلٍ مأفونٍ، وفي ما اتّصف به قاطنو بُقعة العالم تلك من نزوعٍ إلى الإغراق في المغالاة، في كلّ مجالٍ.

وهكذا، سحابة ستَّة أسابيع اجتاحت البلادَ جائحةُ جنونٍ مُرَوّعةٌ، أغرقتها في حمَّامِ دماءٍ مُذهلٍ في شموله واتِّساعه ووحشيّته، ما عهدت مثلَه البشريّة في أحلك ساعات جنونها؛ إذ استولى على عشرات ملايين الناس قَرَمٌ عارمٌ إلى الدِّماء، ونزوعٌ جامحٌ إلى القتل، لم تنجُ من عدواهما قريةٌ أو أُسرةٌ؛ ففي كلّ مكانٍ، انقضَّ الأمنعُ عُدّةً والأغزرُ عَدَدًا على الأقليّات والمستَضعفين، وقد أطلقوا لغرائز الافتراس الكامنةِ فيهم كلَّ عنانٍ؛ وعلى نحو ما تنهار كتلةٌ متراصةٌ من الأبنية بفعل انفجار قنبلةٍ، انهارت جُدران قِسمٍ واسعٍ من المجتمع الهنديّ، وكأنَّ بُركانًا قد فجَّرها، أو هَزَّةً زَعزَعَت أركانها.

الجريمةُ كانت تنادي الجريمة، والهَولُ يستدعي الهَولَ، والموتُ يولّد الموت، في انفلات وحشيّةٍ من كلّ ضَربٍ ولَونٍ، استوَت فيها جميعُ الطَّوائف بمقاديرَ متوازيةٍ، بحيث باتَ يَعُدُّ نفسه سعيدَ الطالع من يلقى مصرعه بطلقة بندقيّةٍ، أو مسدّسٍ، أو بطعنة صارم، فينجو من ضَرَبات فأسٍ، أو خنجرٍ يُعمل فيه تمثيلاً وتقطِيعَ أوصال، ونثرَ أشلاءٍ؛ ولم يَعد قول "أنهر دماءٍ" تشبيهًا أَو مجازًا، إذ قد اصطبغت، فِعْلاً، السَّواقي بنجيع الصَّرعى القاني.

وقد أقدم كثيرون من الرِّجال على ذَبح نسائِهم وبناتهم بأَيديهم، إشفاقًا عليهنّ من تَعَدٍّ واغتصابٍ، ثم أَقدموا على الانتحار، كما اندفعت أُلوف النسوة إلى زجّ أنفسهنّ في الآبار والأَنهُر، أو أَحرقنَ أنفُسهنَّ وبناتهنّ، صَونًا لشرفهنّ، بالدَّم المراق والموت الطَّوعيّ؛ ومِن المُرضعات مَن كُنَّ يُضرِمنَ النيران، ويُلقينَ بأَطفالهنَّ فيها بعد أن يُرضِعنَهم حتّى الامتلاء، ثمَّ يلحقنَ بهم، طُعمةً لأَلسنة اللَّهب.

وقد مضى جواهر لال نهرو، ولياقات علي خان يتجوَّلان معًا في البنجاب، بحثًا عن وسيلةٍ لردِّ الناس إلى رُشدهم، ولكنّهما حيالَ مظاهر الهيستيريا الشَّاملة، وإزاءَ عجزهما عن نجدة المُستغيثين بهما، استسلما لليأسِ والإحباط؛ وفي إحدى النَّوبات، طمر نهرو وجهَهُ بين راحتيْه، وانخرط في النَّحيب، لاعنًا الساعةَ التي قَبِل فيها تقسيمَ البلاد، مُعرِضًا عن نُصح المهاتما. وفي تلك الساعة القاتمة من حياته، كان عزاؤه الأَكبر أنّ رقعَةً واسعةً من الهند، رقعةَ كلكتّا التي كانت، أكثر من أيّة بُقعةٍ

أُخرى، تُنذِر بالانفجار المُريع، قد بقيَت مَوئل سلامٍ وإخاءٍ، بفضل معلِّمه الذي تقاعَسَ عن اقتفاء أثَره، في الساعة الحاسمة.

"معجزة كلكتا" كانت منارةً مُشِعَّةً في غمرة الظُّلمات المدلهمَّة، وبرهانًا على طاقات الروح الهائلة الجبّارة، التي، بها، استطاع عجوزٌ أعزَلُ وحيدٌ، بسِحر شخصيّته، وكثافة حضوره، وبتجرّده وتضحيته وقداسته، درءَ قوى الشرّ المزمجرة، ولَجم حوافز العنف المُتَوثِّبة. وفي نفس اليَوم الذي انفجرت فيه سُدود العُنف في البنجاب، في السادسَ عشر من آب، كانت الجموعُ المتراصَّةُ، في أكبر ساحات كلكتّا للمشاركة في صلاة المساء، التي يُقيمها غاندي، يربو عددُها على نصف مليون نسمةٍ، وقد تقاطروا منذُ الصباح، ووقفوا ساعاتٍ طويلةً تطلُّعًا إلى رؤية الرجل النحيل الفذّ، الذي ناشدهم قائلاً: "**الآن وقد تدفَّقَت النوايا الطيّبة، من جديدٍ، على كلكتّا، فواجب كلِّ فردٍ أن يُسهِمَ في إطالة أَمَد هذه الصَّداقة المُستعادة**".

وقد وفَّر اليومُ التالي، الذي صادَفَ يومَ عيد الفطر لدى المُسلمين، مناسبةً نادرةً ليُبرهن بها أولئك المحتشدون حولَ غاندي، عن إدراكهم لرسالته، والاستجابة لدعوته، فراح مئاتُ الألوف منهم، هندوسيّين ومُسلمين، يَحتفون بالعيد معًا، يتعانقون في الشَّوارع، ويتبادلون التهاني والهدايا، ويرشُّ بعضُهم بعضًا بماء الزَّهر، ويجوبون في الأَزقّة هاتفين معًا شعاراتِ الوحدة والإخاء.

كان ألوفٌ منهم قد انطلقوا، منذُ الفجر، يجوسون تحت نوافذ منزل غاندي المتصدِّع، ملتمسين بَرَكته، ومُقدّمينَ له الأزاهير والحلوى؛ وإذ كان اليومُ يومَ إثنين، يلتزم فيه غاندي بالصَّمت، وفاءً لنَذرٍ قَديمٍ، فقد أخذَ يُدوّن على مظاريف مستعملةٍ – كان قد أَلِف استخدامَها قرطاسًا لِلْكِتَابَةِ، حرصًا منه على تحاشي التبذير – رسائلَ تهنئةٍ وشكرٍ؛ وعند حلول مَوعِد الصَّلاة، كانوا زُهاءَ مليون نسمةٍ، ينتظرون، متلهّفين لرؤيته وسماعه؛ وبعناءٍ جمٍّ شقَّ المهاتما طريقًا وَسط خِضمِّهم المتموِّج، إلى المنصّة، حيثُ ضمّ يدَيه مُحيّيًا، حسبَ التقليد الهندي؛ وكانت المناسبة أكبرَ من أن يظلَّ، فيها، متدرِّعًا بالصَّمت، فهتفَ بالعربيّة: "عيد مبارك".

وتوالت المعجزة التي كانت تجمع حول المهاتما، كلَّ مساءٍ، أثناءَ الصَّلاة، زُهاءَ

مليون مُسلمٍ وهندوسيٍّ، تُوفّقُ بينهم الاستجابةُ لدعوة نبيٍّ المحبَّة واللاّعنف؛ وقد أبى غاندي، في تواضُعه السَّحيقِ، أن يَعزوَ لنفسه الفضلَ في تلك المُعجزة، بل أَعلنَ: "ما نحن سوى دُمًى بين يدي الربّ الذي يُرقّصنا على وَقع موسيقاه". بيدَ أنّ اللورد مونتباتن الذي تسنّت له فرصةُ تحليل أوضاع البلاد بواقعيّةٍ وتَبَصُّرٍ، صرَّح من غير مواربةٍ: "**لدينا في البنجاب قوّةٌ خاصّةٌ قِوامها خمسةٌ وخمسون ألف جنديٍّ، ولدينا، مع ذلك، فتنٌ واسعة النِّطاق، أمّا في البنغال، فقوّة تدخّلنا تتكوّن من رَجُلٍ واحدٍ، استطاع القضاء على الفِتنة**". ومن ثَمَّ، رأى مونتباتن من واجبه "**التعبير عن تقديره للجنديّ الوحيد في جيشه**".

غَيرَ أنّ قِوَى الشَّرّ لم تستسلم، وظلَّ الحاقدون يعملون على إيغار الصُّدور؛ وهكذا، في حوالَي الساعة العاشرة من ليلة الواحد والثَّلاثين من آب، داهمت شِرذِمةٌ من المُشاغبين الهندوسيّين المنزلَ الذي كان يحلُّ فيه غاندي، وراحوا يُطلقونَ صيحاتٍ صاخبةً غاضبةً، ثمَّ انهالوا على زجاج النوافذ تحطيمًا بالحجارة والعِصِيّ؛ وحاولَ سهروردي، وبعض النّسوةِ من أتباع غاندي تهدئةَ المُهاجمين، فما ارعَوَا، بل اقتحموا المنزل، ومضوا يخبطون على الأبواب بعُنفٍ؛ وخرج إليهم غاندي ضامًّا يدَيه تعبيرًا عن السَّلام، فرماهُ أَحَدُهم بقطعةٍ من آجُرٍّ، أصابت أَحَدَ رفاقه المُسلمين كان واقفًا إلى جوارِهِ؛ ثمّ قَذَفَ آخَرُ بعصًا طويلةٍ كادت تُطيح بالمهاتما الذي كان واقفًا يهزُّ رأسه في حُزنٍ. وكاد المعتدون يقضون عليه، لولا أن خفَّ رجالُ الشّرطة وأنقذوه، هو ورفاقه. وسُرعان ما احتشدت جموعُ المسلمين الصاخبين، مُطلقين صيحات الثأر، بعد أن سَرَت شائعةٌ تُؤكّد أنَّ مُسلمًا في المنزل المداهَم قد أُوسع ضربًا.

وإخمادًا لنار تلك الفِتنة الآخذة في الاضطرام من جديدٍ، عَزَمَ غاندي على الصِّيام، وقد صرَّح للصَّحافة، في اليومَ الأَوّل من أيلول: "**مثولي شخصيًّا في مواجهة جموعٍ صاخبةٍ، ليس، دائمًا، كافيًا، وفي اللَّيلة الفائتة لم يُجدِ فتيلاً. ولكن حيثُ فَشِلَ كلامي وحضوري، قد يُفلح صيامي، وقد يمسُّ أيضًا قلوبَ جميع الفئاتِ المُتصارعة في البنجاب، إن هو مسَّ قلُوب المُتحاربين في كلكتّا. ولذا، سأباشرُ الصَّومَ في الساعة الثامنة والرُّبع من هذا المساء، وسأستمرّ فيه إلى أن ترعوي**

كلكتّا". وكان جليًّا أنَّ المهاتما كان مُقدِمًا على التضحية بحياته، إذ كان من المرجّح أن يُودي به الصيام، قبل أن ترعوي كلكتّا. كان الصِّيامُ هو الملجأ الأخير، يَفزعُ إليه غاندي كلّما نهض في وجهه عائقٌ يتعذّر تخطّيه، وكلّما ابتغى تفتيحَ البصائر وهزّ الوجدان، في من يتوجّه إليهم. ومن المفارقات المُدهشة أنَّ شعبًا كُتِبَ على سواد أفراده مصارعةُ الجُوع المُمضِّ، كان شديدَ التأثُّر بصيام غاندي الذي يُمثّل تضحيةً طوعيّةً بحياته، مثلَمَا كان مُرهف الإحساس بأهدافه ومراميه، ومندفعًا إلى الاستجابة لها. وقد زاد من إحساسهم واستجابتهم أنَّ المهاتما كان، آنذاك، من الإعياء والإرهاق النفسيّ بحيثُ خارت قُواه منذ يوم صومه الأوّل، وغدا كلامُه أشبه بهَمسٍ مُبهَمٍ.

ومنذُ صباح يوم صومه الأَوّل، أخَذَت الوفودُ تتقاطر، وتتحلَّقُ حولَ فراشه، مؤكّدةً تأَهّبها للقيام بأَيِّ عملٍ يُنقذ حياته؛ بيدَ أنَّ المهاتما بادرَهم موضحًا أنّ إنقاذ حياته أمرٌ ثانويٌّ، وأنّه إنّما يستهدف من صيامه، هزَّ الضمائر، وتحريكَ الأذهان البليدة، وتغيير ما في القلوب من نوازع الشَّحناء.

وقد وافاه أحدُ المُسلمين مُتوسّلاً: "إذا ما أصابك مكروهٌ، قُضيَ علينا، نحن معشرَ المُسلمين". ومع ما كان لمِثل ذلك التوسُّلِ من بليغ الصَّدى في نفس المهاتما، إلاّ أنّه لم يفلِح في ثَنيهِ عن تصميمه، وأَجاب: "**لن أضع لصيامي حَدًّا، قبل أن يشيعَ من جديدٍ السلامُ المجيد الذي ساد خمسة عشر يومًا**".

وخفّ زُعماءُ شتّى الجماعات والمنظَّمات لعيادة غاندي، حتّى أولئك الذين كانوا، لأيّامٍ خلت، يرشُقونه بالخيانةِ، والتنكّرِ لهندوسيّته؛ كما هُرعت إلى فراشه شخصيّاتٌ إسلاميّةٌ رفيعةُ الشأن، وجموعٌ غفيرةٌ من المُسلمين الذين كان، لصَومه، في نفوسهم، وقعٌ بعيدُ المدى، بعد أن تبيَّنوا أنَّه إنّمَا كان يستهدف سلامتَهم وإعادةَ بناء منازلهم المهدّمة؛ وزاره أيضًا مُمثّلٌ عن اتّحاد بحّاري الباكستان، مؤكّدًا استعداده للقيام بأَيّ عمل كفيلٍ بنشر السَّلام؛ وقد أكَّد المهاتما لهم، جميعًا، عَزمَه على المضيّ في صيامه حتّى يتوطّد الوئام والانسجام، بين جميع الفئات؛ ومن ثَمّ، انطلق كثيرون حتّى ممّن أَلِفوا التدرّع بالتقيّة والاحتراس، يؤلِّفون، في جرأةٍ واندفاعٍ، "كتائب السلام".

في صباح اليوم الثالث، غدا نبضُ غاندي خافتًا، شبهَ مُنطفئٍ، وشاع بين الناس أنّ المهاتما يُصارع سكرات الموت، وفيمَا كانت الأَنفاسُ الأَخيرة تترجّع وئيدةً، منهكةً، في الجسم المهدود، حدَثَت المُعجزة من جديدٍ، وغشت مَوجةُ إخاءٍ ومحبّةٍ المدينةَ العاتيـــة، وانطلقت مواكب المُسلمين والهندوسيّين معًا إلى مسارح الفِتَن لإخمادها.

وفي صباح الرابع من أَيلول أَحاط موظّفو الإدارة المحلّيّة غاندي علِمًـــا، بـــأنَّ هدوءًا لا يعكّره أَيَّةُ فتنةٍ يُخيّم على المدينة منذُ أربع وعشرين ساعةً، وأنَّ خمس مئة شُرطيٍّ، في كلكتّا، منهم عددٌ من البريطانيّين، قد باشـــروا، إعرابًـــا عـــن رغبـــتهم الصَّادقة في إشاعة السَّلام، وعن تعاطفهم وتضامُنهم مع رسول السلام، صيامًا لمـــدّة أربعٍ وعشرين ساعةً، مع استمرارهم في أداء مهمّاتهم.

وقد هرع إلى عيادة المهاتما الصائم، أيـــضًا، متزعّمـــو عـــصابات التَّـــدمير، والمحرّضون على الفِتنة، وقَتَلَةٌ عتاةٌ؛ وعند فراشه، أَلقُوا بأسلحتهم، وبأَدَوات الجريمة التي بها كانوا يَفخَرون، قاطعين على أنفسهم عهودًا بالإقلاع عن شـــرورهم؛ وقـــد أقسم، أيضًا، بين يدي غاندي زعماءُ مختلَف الطوائف مـــن هندوســـيّين ومُـــسلمين ومسيحيّين، ومُمثِّلونَ عن العُمَّال والتُجَّار والصيارفة، على إزالة جميع أسباب الفِتنة، وقَطع دابرها، غير أنّ المهاتما، مع أنّه صدَّقَ وُعودَهم، لم يكتفِ بها، بـــل طالـــب بمعاهدةٍ مكتوبةٍ، يُوقّع عليها مُمثّلو شتّى الفئات، وهم مُدرِكون كلَّ الإدراك أنّه مُوَطّنٌ العزم – في حال الحَنَثِ بتلك المعاهدة – على مباشرة صيامٍ لا رُجـــوع عنـــه، ولا يردعُه عن المُضيِّ فيه حتّى النهاية أيُّ داعٍ.

كان الوَضعُ على قَدرٍ جليلٍ من الجدّ والخُطورة، وكان زعماء المدينـــة واعـــين لجسامة مسؤوليّتهم؛ إلاّ أنّهم، بعد التداوُل، وَضعوا نصَّ معاهـــدةٍ تُرضـــي رغبـــةَ غاندي. ووقّعوا عليها جميعُهم، متعهّدين بالنّضال حتّى الموت، لمنع سُـــموم الحقـــد الطائفيِّ من الانتشار من جديدٍ؛ عندئذٍ فقط، وفي الساعة التاسعة والربع مـــن مـــساء الرابعِ من أيلول، ارتشفَ المهاتما كوب عصير ليمون، بعد صيامٍ امتدَّ ثلاثًا وسبعين ساعةً، وقبلَ ذلك حذَّر الزعماءَ الحاضرين قائلاً: "**بِيَدِ كلكتّا، اليومَ، مفتاحُ السَّلام في**

الهند بأكملها. ومن ثَمَّ، فإنّ أقلّ حَدَثٍ كفيلٌ بجرّ عواقبَ تتعدّى الحُسبان. فحتّى لو أنّ العالَم بأسره التَهَب، عليكم أن تجهدوا كي تَظَلَّ كلكتّا خارجَ النيران".

وقد أثبتَت كلكتّا وجناحا البنغال وفاءَها للعهد، فانتفت منها الفِتَن والقلاقل طوال أشهرٍ عديدةٍ، ممّا أتاح لحاكم البنغال أن يُصرّح: "**صنائع غاندي كثيرةٌ، ولكن ليس بينها، حتّى الاستقلال، ما يُساوي، في روعته، انتصاره على الشرّ في كلكتّا**".

في تلك الأثناء كانت المجازر الطائفيّة ما انفكَّت مُستعرةً في البنجاب ومقاطعاتٍ أُخرى، حيثُ شعر غاندي أنَّ الواجبَ يدعوه للحضور، فيمَّم شَطرَ البنجاب، عِبر دلهي. وفي محطّة العاصمة خفَّ إلى لقائه طائفةٌ من الزُّعماء، عبّرت وجوهُهم المُتَجهِّمة الواجمة عن الأَسى والاضطراب، من جرّاء ما كان يُعَكِّر صَفوَ البلاد وأَمنَها من فِتَنٍ هوجاء، كان يَزيدها إوارًا واستعارًا تَدَفُّق المهاجرين السِّيخ والهندوسيّين من البنجاب؛ وهكذا، توقَّف غاندي في دلهي، استجابةً لهاتف واجبِ نشر الأمنَ والوئام في ربوعها.

كان الوَضع في عاصمة الهند الجديدة من الخطورة وخَطَر التفجُّر، بحيثُ بات يهدّد مصيرَ البلاد بأسرها. وكان نهرو، في غياب سُلطات الأَمن، وحيالَ وحشيّة الفِتَن وانفلاتها يُضطرّ إلى التدخُّل بنفسه أَحيانًا، مُستخدمًا عصًا طويلةً لِرَدعِ المُشاغبين واللُّصوص والقَتَلة من الهندوسيّين والسيخ؛ وقد ردّ عليه المُجرمون، مرّةً، بالتحدّي فاختطفوا امرأةً مسلمةً وأوثقوها بالحبال، وأحرقوها، حيّةً، أمام باب منزله.

وكان الشعور بالعجز من شدَّة الوطء على نهرو، بحيث استدعى اللورد مونتباتن على عَجَلٍ، من مقرّه الصيفيّ في "سيملا"، وتوسَّل إليه أن يستلم مقاليد الأمن في البلاد، مطلقًا يده، سرًّا، في القيام بكُلِّ ما يراه كفيلاً ببُلوغ ذلك الهَدفِ، وقد أفلح مونتباتن، بفضل حَزمه، وخبرته في إدارة الجيوش، وإحكام تخطيطه، في كَبح جِماح الفوضى وفَرضِ سَطوة الأَمن على البلاد.

وقد عَمِلَ المهاتما، لنفس الغَرَض، بأسلوبه المتميّز القائم على الإقناع، بعيدًا عن وسائل القوّة والإكراه؛ وإذ كان حَيُّ المنبوذين الذي أَلِفَ الحلول فيه، أثناء إقامته في

دلهي، غاصًّا بالمُهجَّرين، فقد أَقنعه وزيرُ الداخليّة "باتل" بالإقامة في منزل الثريّ الهنديّ "پيرلا"، حيث احتلَّ شُرفةً، كان يرقُد فيها في العراء، بعد أن جُرّدت القاعة التي كانت قد أعِدَّت له من أثاثِها، لكي تتّسع لأكبر عددٍ ممَّن فقدوا كُلَّ مأوى.

وفي الحال تصدّى المهاتما إلى مُهمَّةِ تعقيل دلهي والبنجاب وتهدئتهما، في اندفاعٍ لا يعرف تحفُّظًا ولا هوادةً، غير عابئٍ بنُصح الأَطبّاء، الذينَ حظر عليهم تَفَقُّد ضَغطِه الشريانيّ قائلاً: "**دعوني وشأني، فالعَمَلُ يدعوني، ولستُ في حاجةٍ إلى معرفة ضغطي**". وجديرٌ بالتّنويه أنّه خلالَ تلك الأَشهر العصيبة المُضنية، جَنَحَ غاندي إلى الإقلال من الطَّعام، عملاً بشعاره: "**الإقلالُ من الطعام عندما يتعيّن الاستغراقُ في العمل**".

ومنذُ الوهلة الأولى اتَّضح له عُسر مُهمّته، فلئن كانت دَعواته السالفة إلى اللاّعنف والمُسالمة لا تلقى سوى القليل من الآذان المُصغية، إلاّ أنّها قد غدت صُراخًا في بيداءَ، بعد أن تلظَّت الأَحقاد، وتعالت صيحاتُ الثأر والانتقام من صدور مَن قُتِل آباؤهم وإخوتهم وأزواجهم وأَولادهم، وانتُهِكَت أعراضهم، ودُنِّست مُقدَّساتهم.

ولكن سُرعان ما غدا غاندي ملجأً للمسلمين، يفزعون إليه مُستغيثين، مُلتَمسين الحماية والعزاء والعَون، شاكين مآسيَهم، فعَزَمَ على الوقوف إلى جانبهم حتّى يأمنوا شرَّ كلّ اعتداءٍ، ممّا أثارَ عليه حفيظةَ المُتطرّفين من الهندوسيّين. ففي أحد اجتماعات الصَّلاة، صاحَ أحدُهم: "لقد انتُهِكَت أعراض نسائنا وأَخواتنا، وقُتِلَ إخوتُنا باسم "الله" الذي تُنشِد له، أنتَ، الأَناشيد"؛ وأصدى له آخَرُ هاتفًا: "الموت لغاندي". وكانت تلك أَوّلَ صيحةٍ من نوعها تُطلَق في وجهه، مذ باشرَ كفاحَه في سبيل الهند، قبل نحو نصفِ قرنٍ.

بيدَ أنّ غاندي، إزاءَ نداء الواجب، لم يَحفَل يومًا بوعيدٍ أو تجريحٍ. وقد استمرّ، وفاءً لتقليدٍ دَرَجَ عليه منذُ سنواتٍ طويلةٍ، يترأَّس كلَّ مساءٍ اجتماع صلاةٍ في مقرّه، في "پيرلا هوس". وتأكيدًا على روابط التآخي واللاعنف، كان يستَهلُّ الاجتماعَ بالسُّؤال إن كان، ثمّة، من يُعارض في تلاوة آياتٍ من القرآن، وغالبًا ما كان ينهض مُعارضان أو ثَلاثةٌ؛ وحينئذٍ، كان يستفسرُ الحُضورَ إن هم كانوا يُضمرون للمعترضين حِقدًا، فيأتيه،

عمومًا، الجواب بالنَّفي؛ وإذَّاك، كان يعود فيسأل المعترضين إن هم كانوا مُستعدّين للحفاظ على الهدوء أثناءَ تلاوة آيات القرآن، وبَعدَ تلقّي ردِّهم الإيجابيّ، كان يَشرَع بتلاوة الآيات، ضاربًا، بذلك، مثلاً رائعًا في التسامُح والانضباط؛ فهو لم يكُن يتوهَّم أن يوافقه الجميع، ولكنّه كان يقتضي من المعارضين أن يتحلَّوا باللاعنف.

وقد تمثَّلت خُطوته الأولى في توفير الحماية للجمعيّة الملّيّة الإسلاميّة الجاثمة في محلّة "أوكلا"، بضواحي دلهي، وهي بمثابة أكاديميّةٍ إسلاميّةٍ كان يترأَسها آنذاك العلاّمة الجليل الدكتور زكير حسين. وجديرٌ بالتنويه أنّ هذا الأخير كان الوحيد الذي عارَضَ آراء غاندي في تربية النشء، أثناء محاضرةٍ ألقاها المهاتما، لسنواتٍ عديدةٍ خلت، فما كان من غاندي إلاّ أن أَعلن، في نهاية تلك المحاضرة، تعيينَ الدكتور حسين رئيسًا للجمعيّة الوطنيّة للتَّربية الأساسيَّة.

وكانت أمواج الفتنة الهادرة في جوار مقرّ تلك الجمعيّة الملِّيَّة تبعثُ الذُّعر في قلوب الأَساتذة والطلاّب على السواء، فيعيشون في خَشيةٍ مُقيمةٍ؛ وقد حاول جواهر لال نهرو إفهام الهندوسيّين ما تُضمره الحكومةُ من إكبارٍ لتلك المؤسَّسة ولرئيسها، ومن حِرصٍ على سلامتها، فوافاها، ذاتَ ليلةٍ، شاقًّا بمفرده صفوف الجماهير الهائجة، وعلى مرأًى من الجميع، طرقَ بابَها، مؤكّدًا عَزمه على حمايتها. ثمّ عندما تنامى إلى غاندي ما تتعرّض له تلك المؤسَّسة من مخاطر، وافاها بدوره، ومكَثَ بضع ساعاتٍ، في حديثٍ ودّيٍّ مع رئيسها وأساتذتها، فكانت بادرتُه تلك ضمانًا لسلامتها.

ثمَّ راح المهاتما يزور مُخيَّمات اللاَّجئين المُبَعثَرة هنا وهنالك. وقد نَصَحه أصدقاؤه باصطحاب حَرَسٍ مُسلَّحٍ، إذ كان أَبدًا عرضةً لاعتداء الهندوسيّين المتعصّبين الذين كانوا يأخذون عليه تعاطفه مع المسلمين، أو اعتداء المُسلمين المتطرّفين لمجرّد كونه هندوسيًّا. ولكنَّه أبى أيَّة حمايةٍ، ومضى وحيدًا، أعزَل، يجوب المدينة في كلّ اتّجاهٍ، عدّةَ مرّاتٍ يوميًّا، متَنقّلاً من مُخيّمٍ إلى آخَر، مُلقيًا عدّة خطَبٍ في اليوم الواحد، مواسيًا أُلوفَ المُشرّدين الذين اجتُثّوا من جذورهم، وأَفعمت المرارةُ قلوبَهم؛ وممّا جاء في خطبةٍ له، أثناء اجتماع صلاةٍ، يوم العشرين من أيلول: "**في هذا اليوم الماطر، يمثل في خاطري مشرّدو دلهي المساكين، ومشرَّدو البنجاب الشرقيّ، والبنجاب الغربيّ. لقد نمى إليَّ أنّ**

قافلةً من المشرّدين الهندوسيّين والسيخ، يبلغ طولُها سبعةً وخمسين ميلاً، تتّجه من البنجاب الغربيّ، شطر الاتّحاد الهندي. إنّ مجرّد التفكير بمثل ذلك الأَمر يُصيبني بالدُّوار، إذ لم يسبق له مثيلٌ في تاريخ العالَم، ممَّا يحملني على طأطأة رأسي خِزيًا، وممّا يوجب عليكم، أَنتم أيضًا، أن تطأطئوا رؤوسَكم".

المُهمّة التي انتدب غاندي لها نفسَه كانت تبدو مُستحيلةً. فهو كان يُحاوِل أن يعترض بمفرده، تيَّارًا جامحًا، وأن يُبَشِّر، وَسط محيطٍ صاخبٍ بالعُنف والهياج، بإنجيل السِّلم والمحبّة. كان يُناشِد المُسلمين بالبقاء في أحضان الاتّحاد الهنديّ، إن هم رَغبوا في ذلك، ويرشُق بالمروق والكُفر كلَّ هندوسيٍّ يتعرَّض لهم بسوءٍ؛ وكان يُناشِد النازحين الهندوسيّين والسّيخ بالعودة إلى منازلهم التي هجروها، ولكنَّهم كانوا يأبون العودة إلى الباكستان، كما كانوا يرفُضون إخلاءَ منازل المُسلمين المهاجرين التي احتلُّوها عُنوةً.

كانت روايات الوحشيّة التي تدمغُ أَعمالَ الانتقام، في كلا الجانبَين، تبعثُ الرُّعب لدى الأَقلّيَّات، فيفزع كلٌّ منها إلى حيثُ يَلقى الأَمانَ في أَحضان طائفته، في حين كان رسول اللاعنف والتسامح، يقف، وحده، بمئزره الأبيض، وقلبه المُشرع على الجميع، يُنَدِّد بكلّ عُنفٍ، أيًّا كان مصدرُه، وبالانتقام الذي يستفزّ الانتقام، وبالموت الذي يَجرّ الموتَ، وبالضَّغينة التي تُودي بروح الهند. وكان يُردّدُ أنّ "**على الحقيقة أن تُعلَن مهما كانت مرّةَ المذاق. إنّ فعال الهندوسيّين النَّكراء، داخل الاتّحاد الهنديّ، يجب أن يُنَدَّد بها، من فَوق الأسطحة، إذا ما رُمنا أن تتوقَّف فِعال المُسلمين الشنعاءُ في الباكستان**".

كان يحمل، بشدّة، على أبناء دينه الهندوسيّين، أَملاً في إشاعة الطمأنينة في نُفوس المُسلمين، ولكنَّه، بذلك، كان يزيد المتشدِّدين الهندوسيّين تصميمًا على القضاءِ عليه، ولا سيَّمَا أنّه لم يخشَ يومًا مُجابهتهم، في جُرأةٍ، ومحاولة ثَنيهم عن منهجهم، مُبيِّنًا لهم أنّ اضطهادَ بعض الباكستانيّين للهندوسيّين لا يُخوّلهم الحقَّ في التَّنكيل بالمُسلمين، إذ "لا جدوى من الردّ على الشرّ بالشرّ" وقد أردفَ: "**يبدو أنَّ الجنونَ قد طغى على الجانبَين، وعاقبة الجنون الحتميَّة ستكون الدَّمارَ والشَّقاءَ للجميع**".

كان يومُ الثاني من تشرين الأوَّل ١٩٤٧، ذكرى مولد غاندي الثامنة والسبعين، وقد وافى لتهنئته اللورد مونتباتن وعقيلته، وعددٌ من الدبلوماسيّين والوزراء، وانهالت عليه أكوامُ البرقيّات من كلّ أَرجاء الهند والعالَم، وقد هنّأه عددٌ غفيرٌ من المُسلمين؛ وتبرّع له الأَثرياء بالمال فوزّعه على المُشرَّدين، وأَهداه الفُقراءُ الأَزاهير. ولكنّ مظاهر الاحتفاء تلك، لم تَهزّ في نفس غاندي وَتَرًا، ولا هي أفلحت في التَّسرية عن حُزنه، وقد تساءَل: "**لمن هذه التهاني؟ أَلم يَكُن أَحرى بي أن ترسلوا لي التّعازي؟ فقلبي لا يخفُق إلاّ بالقَلَق. في وقتٍ سالفٍ، كانت الجماهير تَمتَثِل لأَقوالي جميعها، أمّا اليومَ فلم يَعُد لصوتي أيُّ صدًى... لقد فقدتُ كلّ أَملٍ في العيش طويلاً... فأنا لا أَقوى على العيش في حين تُسَمِّم الضغينةُ والجريمةُ الأَجواءَ... أتوسَّل إليكم، إذن، أن تُقلِعوا عن جنونكم الراهن... إنّني أتضرَّع إلى القُدرةِ الشاملة أن تنتشلَني من "وادي الدموع" هذا، بحيثُ لا أَقف شاهدًا عاجزًا على المجازر التي تسبِّبها وحشيّة البشر... إن كان الله يُحبّني، فلن يُبقيني على الأَرض سوى فترةٍ وجيزةٍ**".

أَيَّةُ مرارةٍ كانت تموج في حنايا صدر رسول اللاَّعنف، وهو يرى اندلاعَ العُنف الأَهوج، بحيثُ تحوَّل تفاؤله يأسًا، وبحيثُ عَزَفَ عن الحياة نفسها، ذاك الذي قد طالما تمنّى العيشَ مئةً وخمسًا وعشرين سنةً، فهي الفترة اللازمة لجُنديّ اللاعنف كي يقوى على أَداء رسالته، وبحيثُ صرّح: "**لست أَودّ أن تُباغتَني ذكرى مولدٍ جديدةٌ، وأنا في هندٍ ملتهبة!**".

إلاّ أنّه لم يستسلم، وظلَّ يُكافح حتّى رَمَقه الأَخير، في صبرٍ وجَلَدٍ، رغم الأَسى السحيق الذي كان يَصهر قلبه، مثلما هَصَرَ، قديمًا، قلوبَ الأنبياء حيالَ تبلُّد العُقول وتَحجُّر القُلوب. وعملاً بمنهجه الواقعيِّ البسيط، كان يضطلعُ بمُهمّاته الجسيمة، انطلاقًا من الأعمال الصَّغيرة التي تمسُّ حياةَ مُواطنيه اليوميَّة. فقد زار، مرّةً، مُخيَّمًا للمهجَّرين، فراعه ما تكدَّس فيه من أقذارٍ، وراعه، أكثرَ من ذلك، أنّ تراكمها كان ناجمًا عن رفض الهندوسيّين الاضطلاع بمهامّ التنظيف التي كانت وقفًا على المنبوذين! كان يُقارع تلك التقاليد الوبيلة، بلا هوادةٍ، وفي آنٍ معًا، يعمل، في أَناةٍ جمَّةٍ، على إزالتها، وعلى تلقين

الجماهير أساليب النَّظافة والصحَّة. فضلاً عن أنَّه كان رؤوفًا بالمعوزين، يقود حملات تبرُّع لصالحهم، كي يوفِّر لهم أغطيةً تقيهم غائلة البرد، وطعامًا يَسُدُّ أوَدَهم، بعد أن بدَّدت الفِتَنُ المواسمَ هباءً. وكان، في مواجهة المجاعة يُؤثر استفزازَ روح التَّضامن والسَّخاء، الذي يرسِّخ إنسانيّة الإنسان، على فرض التقنين الذي يُولِّد المركزيَّةَ، والتعقيدَ الإداريّ، ويُشجّع الفسادَ، والمضارباتِ المشبوهة.

وكان يعود المساجين، فيَصف نفسه "**سجينًا في إجازةٍ**"، ويحثُّهم على ضَرب المَثَل في التآخي والتضامُن في مواجهة المِحنة.

كان يودُّ الانطلاق إلى البنجاب ليُطفئ نيران الفتن الناشبة فيه، ولكنّه آثر الاطمئنان، قبل ذلك، على استقرار السَّلام في دلهي. وإذ كانت أنباء كلكتّا تدعو إلى الاطمئنان، فغالبًا ما كان يُناشد أَهلَ دلهي أن يحذوا حَذوَ أهالي كلكتّا.

وخلال تلك الأيَّام العصيبة المُرهقة، الَّتي سَيطرَ خلالَها على ذِهن غاندي هَمُّ إِحلال السَّلام، وإزالة أسباب الشَّحناء، وتوثيق عُرى المحبّة بين أبناء الطوائف المتصارعة، لم يَغرُب مستَقبَلُ الهند السياسيّ عن باله، ولا خَمَدَ اهتمامُه بشؤون مواطنيه اليوميّة.

كان أكثرَ ما يَشغَلُه في مضمار السياسة سيطرة الحزب الواحد على السُّلطات التنفيذيّة والتشريعيّة معًا، من جرّاءِ هيمنة أركان الحكومة على المؤتمر، وكان غاندي يخشى سَطوةَ الحزب الواحد التي تنتفي معها المعارضةُ الجدّية السَّليمةُ، الكفيلةُ بردَع الحُكم عن الشَطَط، وتنوس معها روحُ الديمقراطيّة الحَقّة، وينزلق الحاكمون إلى الدكتاتوريّة، فيُطيحون بالشخصيّات القويّة المعارِضة، ويُحيطون أنفسَهم بالمُوالين الأَقزام، صغارِ النفوس، الجبناءَ، المُداهنين، الزَّاحفين.

ومن ثَمَّ، ففي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٤٧، أولى اهتمامًا بالغًا بدعم مرشّحٍ لزعامة المؤتمر، قادرٍ على الوقوف في وجه نهرو ووزرائه، كلّما حادوا عن مبادئ سياسة المؤتمر الأصيلة، ودأب على توعية الناخبين، صابًّا اهتمامه، بنحوٍ خاصٍّ، على المثقّفين، جاهدًا في النّفاذ إلى قلوبهم، ذريعةً للتأثير على عُقولهم،

وساعيًا إلى خلق جيلٍ من المواطنين الواعين، المزوَّدين، على غراره، بمناعةٍ ضدَّ الحُكم، بحيثُ يقوون على المجاهرة بمعارضته كلّما انحرف عن جادّة الحقّ، وعلى تقويم كلّ اعوجاجٍ فيه.

وقد ضَرَبَ غاندي، بنفسه، في ذلك، القُدوَة، إذ لم يتوانَ، في كلّ سانحةٍ، عن إعلان مُقاومته لما كانت تنطوي عليه سياسةُ صديقه نهرو من مواطن وَهَنٍ، ومن ازوِرارٍ عن مبادئ اللاعنف، ولا سيَّمَا عندما نَشبَ أوّلُ صراعٍ بين دولتَي الهند والباكستان بشأن كشمير، فرفع نهرو الأَمرَ إلى مجلس الأمن، فجهر غاندي بمُعارضته لتلك الخُطوة، مُعربًا عن إيثاره وسائلَ التَّسوية المباشرة الوِدّيّة، ليقينه بأنّ مجلس الأَمن خاضعٌ لاعتبارات سياسة السَّيطرة الدَّوليّة، أكثرَ من حرصه على الحقّ الصِّرف.

وفي مثل الجدّ الذي كان به غاندي يُحاورُ نهرو، ويبحثُ قضايا السِّياسة الكبرى، كان يَتحَاور مع سَواد الشعب، وصغار الفلاّحين، فيشرح لهم طرقَ التغذية المُثلى، وفوائد الأسمدة العضويّة ووسائل استخدامها، ويجهد في حلّ مُشكلاتٍ فرديَّةٍ وعائليّة.

وبالإجمال، في غمرة تلك الأيّام العصيبة، التي فيها تحقَّق للهند استقلالُها، إلى حدٍّ بعيدٍ، بفضل غاندي، على نقيض الصُّورة التي قد طالما تطلّع إليها، وهو، مهندس الاستقلال، وحيث رانَ على رسول اللاّعنف شعورٌ مُضنٍ بالإخفاق، من جرّاء اندراء سيل العُنف، في شتّى أرجاء البلاد، وغَمَرَ قلبَ نبيِّ المحبّة الأسى من جرّاء التناحُر الدَّامي بين الطوائف؛ في تلك الفترة عينها، تجلّت عظمةُ غاندي، أكثرَ من أيّ وقتٍ آخَر، بل أكثر ممّا هي تجلّت في مَيعة نضاله المجيد ضدَّ الاستعمار الذي جَعَل منه نجمًا عالميًّا متألّقًا.

لقد أَثبتَ المهاتما، بثباته في نضاله، حتّى عندما تهاوى رفاقُه وتقاعسوا، وبوفائه لمبادئه حتّى عندما ارفضّ عنها الجميع، وبإقدامه، في كلّ لحظةٍ، على التضحية بحياته في سبيلها، أنَّ تطلّعاته كانت من السموّ بحيثُ يلهث دونَ بلوغها مجتمعٌ كان المهاتما يتخطّاه ويتجاوزُه أشواطًا، وبرهَنَ على أنّ أهدافه كانت شامخةً، وأتباعَه مُغرقين في الوَهَن والهشاشة؛ بحيثُ بدا فَشَلُه نفسه دليلاً على تساميه وتفرُّده؛ فهل يسوغ، مثلاً، دمغ يسوعَ بالفَشَل لأَنّ بعض تلاميذه قد خانوه، وكثيرين من أتباعه عجزوا عن الارتقاء إلى قِمَم رسالته؟

هذا الواقعُ قد عبَّر عنه رجل الدّين الأَميركيّ، الدكتور "جون هينس هولمز" الذي سلَخ، في الهند، بضعةَ أشهرٍ، أَثناءَ تلك الفترة المُدلهمّة، وراقَبَ سلوكَ غاندي عن كثَبٍ، وقد كتب له: "**في تقديري أنّ هذه الأشهر الأخيرة كانت تتويجًا لمسيرتك السياسيّة الفذّة، وقمَّتها الباذخة؛ فإنّك لم تكُن يومًا عظيمًا، مثلما كنت في تلك الساعات الحالكة... صحيحٌ أنّك عانيت من الحُزن، وأنَّ مآسي الأَشهر الأخيرة قد سحقتك، ولكن يجب إلاّ يُوليك ذلك أيَّ انطباعٍ بفَشَل جُهد حياتك**".

صديقٌ آخَر أوروبيٌّ كتب له: "يُخامرني شعورٌ بأنَّ عليَّ واجبًا مُطلَقًا بالتعبير عن عميق امتناني لما أَقدمتَ عليه من تضحيةِ حياتك كلِّها، في سبيل ما توسَّمتَ فيه الوسيلةَ الوحيدة لخلاص البشريَّة" وكان يعني اللاّعنف.

وقد ردّ عليه غاندي، في تواضُعه وصدقه المعهودَين: "**عليّ إلاّ أوهم نفسي بذلك، وإلاّ أتيح لأَصدقاءَ مثلك أن يعتقدوا أنّني قد بَرهنتُ بنفسي عن لاعنفٍ بُطوليٍّ ثابتٍ بالبرهان القاطع. بل إنَّ كلَّ ما أَستطيعُ ادعاءَه، هو أنّني قد أبحَرتُ في هذا الاتّجاه، ولم أتوقّف لحظةً واحدةً**".

بيد أَنّ غاندي قد أثبت الكثير، وكان ما أَثبَتَه من السُّموّ بمكانٍ، فقد بيّن، بالبُرهان الحيِّ الملموس، أَنّ بوسعِ الجماعات البشريّة أن تتآخى رغمَ تبايُنها، وأن تحيا حياةً مختَلِفَةً، حياةً أَفضل؛ وأنّ أكثر الناس وحشيةً مُعرَّضون لنفحات الروح المُنعشة، وأنَّه لولا تلك الفترات الفريدة في حياة الإنسان لفقدت الإنسانيّةُ ثِقَتَها بنفسِها وبإنسانيّتها.

ولقد أجمل لويس فيشر تلك المرحلة من سيرة غاندي بقوله:

"**إنّ نجاحَ غاندي في إشاعة التعقُّل والسّلم في كلكتّا، بعد انحجابهما عنها، وأَثَرَ حضوره الذي حوَّل المذابح العارمةَ في دلهي انفجاراتٍ عابرةً، وتأثير زيارته الخاطفة إلى أكاديميّة الدكتور زكير حسين التي أدّت إلى وقايتها من العُنف، وإقدام مُجرمين عتاةٍ على إلقاء أسلحتهم عند قدمَيه، وقبول هندوسيّين بالإصغاء إلى تلاوةِ سُورٍ من القرآن، وعَدَمَ معارضة مُسلمين في سماع كلمات الإسلام المُقدَّسة من فم هندوسيٍّ، كلُّ ذلك واقعٌ باقٍ خالدٌ، يجب أن يُلهِمَ مَن تَنُمُّ أَعمالُهم عن ذُهولهم عنه، بل ينبغي أن يُسيطر ذلك الواقعُ على ذهنهم: ففيه بذور الوِجدان، ومَنبع الأَمَل**".

الصّيام الأخير

أَصبَحَ غاندي، بحقٍّ، نصيرَ المُسلمين ومَلاذَهم في الاتّحاد الهنديّ، وباتَ مُجرّدُ حُضوره يَقِيهم غوائلَ الانتقام، وشراسةَ التَعَدِّيات، وقد بَرْهَنَ، مرّةً أُخرى، عن ذلك الواقع، في غُروب شهر تشرين الثاني ١٩٤٧، عندما انقضّت على أحد المسلمين وذبحتهُ شرذمةٌ من السِّيخ الذين كانوا قد أُرغموا على هجر الباكستان، وتَجَمهروا في محطّة مدينة "پانيپات"(*) الصَّغيرة، التي تقعُ على بُعدِ تسعين كيلومترًا شمالي شرقيّ نيودلهي، وصدورُهم تجيش بالنقمة، والتحرُّق إلى الاثِّئار؛ وبعد أن قطعوا رأسَ ضحيّتهم، انتظموا في مسيرةٍ لاجبةٍ صاخبةٍ، وانطلقوا، مسلَّحين ومتوعِّدين، نحوَ أَحياءِ المُسلمين، الذين كادت تُودي بهم مَجزرةٌ ضاريةٌ، لولا أن اعترضت مسيرتهم سيَّارةٌ مُسرعةٌ، هَبَط منها الرجلُ الوحيد في الهند، الذي كان بِمُكنَتِه درءُ سيول العُنف، والذي كان يرى في بقاءِ المُسلمين، آمنين، في أحضانِ الاتّحاد الهنديّ، رمزًا غنيَّ الدَّلالة؛ فالهندُ الوحيدةُ التي كان يصبو إلى العيش على أَرضها، هي حيثُ الهندوسيّون والسّيخ والمُسلمون والمسيحيّون والفارسيّون يعيشون جنبًا إلى جنب في انسجامٍ ووئامٍ.

وفي هدوءٍ ورباطة جأشٍ، خاطب المهاتما الجماهيرَ الهائجة قائلاً: "**امضوا فقبِّلوا مُسلمي هذه المدينة، وناشدوهم، أنتم أنفسكم، بالمكوث بين ظهرانيكم، وحُولوا دون نزوحهم إلى الباكستان**".

وساد الوجومُ، هُنَيهةً، الحضورَ، وسَرَت بعضُ غَمغَمات استياءٍ، ثُمَّ تجرَّأ بعضُهم فجأروا ساخطين:

- "أهي زوجتك التي اغتُصبت، أم ابنُك الذي قُطّع إربًا إربًا؟".
- "**أجل، أجاب غاندي، زوجتي هي التي اغتُصِبت، وابني هو الذي قُطّع ومُثِّل به، فنساؤكم نسائي، وأبناؤكم أبنائي**".

وفيمَا كان يتكلّم، انتضى بعض المقاتلين أسلحتَهم، فالتمعت تحت أشعّة الشمس خناجرُ وسيوفٌ وحرابٌ، فأردف غاندي في حَزمٍ وحزنٍ:

- "**أَدواتُ العُنف والبغضاء هذه لن تستطيع حلَّ أيّ مُشكلةٍ**".

(*) PANIPAT

في غُضون ذلك، شاعَ نبأ وُجود غاندي في المدينة، فخَرَجَ المُسلمون المذعورون من متاريسهم، وهُرعوا إلى ساحة المدينة، حيثُ بادرت السُّلطاتُ البلديّة، فنَصبت منَصَّةً على عَجَلٍ، وعلَّقت مُكبّرات الصَّوت، تمهيدًا لصلاةٍ جماعيَّةٍ مُرتَجَلةٍ يؤمُّها المهاتما، وتقاطرت جماعاتٌ غفيرةٌ من السِّيخ والهندوسيّين، وتعلَّقت تلك الجموع المزركشة بشَفَتَي نبيّ السَّلام العجوز، وما عتَّمت أن تحقَّقت المُعجزةُ، من جديدٍ، إذ أخذ ينضمُّ إلى صفوف المُصلِّين، المُهَجَّرون الذين كانوا يُحاصرون مَحطة المدينة، مُشتركين في الإصغاء، بخشوعٍ، إلى رسول المثُل العليا "تلك المُثُل التي تجعل منّا، جميعًا، هندوسيّين وسيخًا ومُسلمين ومسيحيّين، أبناءَ وبناتِ أمّنا المشتركة: الهند".

لقد طالع غاندي على وجوه المُهَجَّرين أَمارات الأَسى والبُؤس، فأكّد لهم تعاطُفَه الصَّادقَ العميق، ورجاهم إلاّ يُتيحوا لمشاعر القسوة والانتقام أن تغشى قلوبهم، وناشدهم أن يكتشفوا في تضاعيف مأساتهم بذورَ نصرٍ قريبٍ؛ وشيئًا فشيئًا، أخذ يسري بين الحضور دفءُ التعاطُف، وطَفِق، هنا، أحدُ السّيخ يمدّ إلى مُسلمٍ يدًا بتحيّةٍ، وهناك، مُسلمٌ يُقدِّم لِمُهجّرٍ مقرورٍ غطاءً أو دثارًا يقيه لَسَعاتِ البَرد.

وفي نهاية الصَّلاة، اقتادت الجماهيرُ غاندي الذي كانت قد استقبلته بالنَّقمة، في تظاهرةٍ حماسيّةٍ ظافرةٍ إلى سيّارته، بعد أن أَفلح في حجم دماءٍ غزيرةٍ، ووثّقَ القلوبَ بوشائج المحبّة والتضامُن.

في تلك الفترة، كانت تُراودُ غاندي رغبةٌ مُلحَّةٌ في الشُّخوص إلى الباكستان، لمُساندة الهندوسيّين المذعورين هناك، وإتمَام الرسالة التي كان قد باشرها في الهند، بتأليف قُلوب المُسلمين والهندوسيّين؛ وجَريًا على ما أَلِفَه، بادرَ إلى نقل تلك الرَّغبة إلى عالَم التحقيق، فأَوكل إلى أحد الصناعيّين مُهمّةَ المُثول إلى كراتشي، بُغيةَ الإعداد لتلك الزيارة؛ وذُهِل ذلك الصناعيّ لدى اطّلاعه على رغبة غاندي. واعترضَ، في انفعالٍ: "إنّ مشروعَك جُنونٌ صِرف، ولو أَنت نَفَّذتَه لَلَقيتَ حَتفَك، لا مَحالة". ولكنّ غاندي ردّ في إيمَانٍ: "**لا أَحد يقوى على تقصير حياتي دقيقةً واحدةً، فهي ملكٌ لله**".

بيد أنّ المهاتما كان يَوَدُّ، إذا ما زار الباكستان، أن يستطيع التأكيد، صادقًا، أنّ

مُسلمي الهند باتوا في أَمانٍ وطمأنينةٍ؛ وهو، في قرارة نفسه، كان يشعر أنّهم ما انفكّوا يفتقرون إلى كليهما. وقد رسّخ شعوره هذا، اختيارُ العشرين ألفًا من مُسلمي "پانيپات" الذين كان قد خفَّ إلى نجدتهم، في أواخر تشرين الثاني، الهُجرةَ إلى الباكستان، ممّا أَثبَتَ لغاندي أَنّه لم يُفلح في انتزاع الخَوف من صُدورهم، ولا في اجتِثاث الضَّغينة من نفوس المهجّرين السِّيخ والهندوسيّين؛ وهو، بالتَّالي، كان يُوجس خَطرًا داهمًا مُتربّصًا بالمُسلمين، ويخشى تَحَقُّقَه، إذا ما نأى عن البلاد.

ذلك الإحساسُ بالفَشَل في مُهمّةٍ كانت تحتلُّ من نفسه مكانةً أثيرةً، قد أشاع في ثناياه حُزنًا بليغًا، فباتت ملامحُ وَجهه تعكس، فضلاً عن ذلك الحُزن، كلَّ آلام شعبه؛ وقد كتب أَمينُ سرِّه، واصفًا إيّاه، في أعقاب نزوح مسلمي "پانيپات"، أنّه كان يبدو "أَشدَّ النّاس حُزنًا"، وكثيرًا ما كان يُعبّر عن فَشَله بقوله: "**إن كانت الهند في غنىً عن اللاّعنف، فهي في غنًى عنّي**". وقد أفضى إلى وفدٍ من البريطانيّين بقوله: "**عبرَ الأَجيال، أَلِف العالَم رَجم الأنبياء قبل أن يُشيد الهياكل تخليدًا لذكراهم. نحن اليوم نعبدُ المسيح، ولكنَّنا قد صلبناه، حيًّا**".

أكثرَ من أَيّ يومٍ مضى، في حياته، كان المهاتما يُعاني نزاعًا داخليًّا ساحقًا، وهو يتبيّن أنّ السلامَ المُخيِّم على نيودلهي قد فرضَته قوّةُ السِّلاح، أكثرَ من نبوعِه من قوّة نفس مواطنيه، ومن قناعاتهم السلميّة. وكان كثيرون من المُسلمين الذين استجابوا لندائه، واختاروا المُكوثَ في الاتّحاد الهنديّ، يستشيرونه مُستفسِرين إن كانت سلامتُهم، في الهند، ستَظَلُّ مضمونةً، أو إنّه خيرٌ لهم اللجوءُ إلى الباكستان؛ وكان عجزُه عن نُصحهم يُمزِّقُه، وغالبًا ما كان يُردِّد، في مرارةٍ: "**إنّه أمرٌ لا يُطاق إلاّ يستطيع رجلٌ مثلُ الدكتور زكير حسين، ولنفس الأسباب، السيّد شهيد سهروردي، التجوّل في نيودلهي، في مثل الحرّيّة والطمأنينة اللّتين أنعمُ أنا بهما، في تجوالي**".

وقد زاده حُزنًا أنّ حكومة نهرو، في أعقاب محاولة الباكستان احتلال كشمير، وما نَجَم عن ذلك من صِراعٍ بين الدولتَين الوليدتَين، قرّرت تجميدَ تحويل مبلغ خمس مئةٍ وخمسين أَلف روبيّةٍ، كانت معاهدةُ التقسيم تقضي بأن تؤدّيها الهند للباكستان؛ وقد برَّرت حكومةُ نهرو موقفَها هذا باعتباراتٍ سياسيّةٍ، متذرِّعةً بأنّ ذلك المبلغ قد

يُستخدم لِشراء أسلحةٍ يقتل بها الباكستانيّون الجنودَ الهنودَ في كشمير، في حينَ كان يرى غاندي ذلك الحَنَث بالعهد مُخزيًا، ويَصِمه بالسَّرقة، ويأبى أن تستهلَّ الهندُ الحديثةَ تاريخَها، بمِثل تلك الفِعلة النَّكراء، التي أوقعت الباكستان في شِبه إفلاسٍ، بحيثُ غَدَت عاجزةً حتّى عن أداء رواتب الموظّفين.

ولا بِدعَ، بالتَّالي، إن طَغَت الكآبة، آنذاك، على المهاتما، وأَخذ يَجنح إلى الاستغراق في فَترات طويلةٍ من الصَّمت المتأمِّل، وكأنَّ قرارًا خطيرًا كان يتكوَّن في أعماقه، وقد وَصَفَ، هو نفسه، تلك المرحلة مُعترفًا: "**لقد استحوذ عليَّ الشعورُ بالقُنوط، مع أَنّني، سحابةَ حياتي كلّها، لم أعرف القُنوط**".

ولكنّ غاندي لم يكُن من نَمَط الذين يستسلمون لليأس؛ بل إنّه استَلهَمَ "صوته الداخليّ"، و"في مثل وَمضةِ بَرقٍ" تألَّق في ذِهنه الحلُّ، وقرّر مُباشرةَ صَومٍ غَيرِ محدودٍ، حتّى الموت، إن اقتضى الأمرُ، صومٍ يُنادي به ضمائرَ الجميع، من كافَّة الطوائف، في الهند والباكستان على السَّواء، بغيةَ تحقيق مُصالحةٍ نابعةٍ من قَرارات النُّفوس، ومن يَقظة الشُّعور بالواجب، في مَعزلٍ عن أيّ ضغطٍ خارجيٍّ. وقد باغت غاندي، بِعَزمه على الصِّيام، أَطبّاءَه وأَصدقاءَه، الذين أخذوا عليه لُجوءَه إلى ذلك الحلّ الذي قد يُودي بحياته، في حين كانت أَوضاعُ البلاد ماضيةً في التحسُّن. ولكنّه ردّ قائلاً إنّه قد اعتصم بالصَّبر سنةً كاملةً، إلى أن تأكَّد له أنّ النزوع إلى القتل بدوافعَ دينيّةٍ، كان ما يزالُ راسخًا في النَّوايا، وأَردف: "**بعد أن استنفدتُ جميعَ الموارد المتوفّرة للجُهد البشريّ، أسندتُ رأسي إلى حُضن الله، وقد أَوحى لي بالصيام... فلتكن صلاتُنا الوحيدة أن يَهَبَني الله، طوالَ صومي، قسطًا كافيًا من منعة الرُّوح، لكي لا تَدفعَني تجربةُ الرغبة في العيش إلى استعجال إنهاءِ محنتي، قبل الأَوان**".

وقد ناشد أصدقاءَه إلاّ يهرعوا إلى "بيرلا هوس" لمحاولة ثَنيه عن عزمه، وإلاّ يَقلقوا، فهو "بين يدي الله"، وأن يُصوّبوا الأَضواءَ الكاشفةَ إلى داخلهم، إذ إنّ مُهمّة صيامِه الجوهريّة هي امتحانُ الجميع.

لقد حرّرَه قرارُ الصَّوم من قَلَقِه واضطرابه، فاستولى عليه، من جديدٍ، شعورٌ

بالسَّعادة والسَّكينة، بعد انحجابٍ تمادى أشهرًا طويلةً؛ كان يُدرك أن الصَّوم قد يُودي به، ولكنَّه صرَّح: "**سيكون لي انعتاقًا مجيدًا، وإنّي لأوثره على الوُقوف، شاهدًا عاجزًا على دَمار الهند والهندوسيّة، والسيخيّة والإسلام**".

باشرَ غاندي صيامَه قبل ظُهر يوم الثُّلاثاء، في الثالثَ عشر من كانون الثاني ١٩٤٨؛ وإثرَ تناوُله إفطارَه الأخير، أقام طُقوسًا دينيّةً شارك بها أخِصّاؤه المُقرّبون، واختَتمتها الدكتورة "سشيلة نجّار" بالترنيمة التي كان المهاتما كَلِفًا بسماعها، والتي تقول: "**صليبُك، يا رب، هو سعادتي**".

وفي المساء، توكَّأ على "عكّازتيه" مانو وأبها، ابنتي شقيقتَيه، وأمَّ صلاة المساء الجماعيّة، فاستهلّها بمخاطبة الحضور مازحًا: "**إنَّ الصيامَ لا يُوهِنُ أحدًا، خلالَ السَّاعات الأربع والعشرين التي تلي وجبةَ طعامه الأخيرة**". ثُمَّ ردَّ على أسئلة الحضور فأكّد أنّ صيامه ليس موجّهًا إلى أحدٍ، أو إلى فئةٍ مُعَيَّنة، ولا يسوغُ أن يُؤخَذ بجريرته أيُّ إنسانٍ، ولكنَّه أردَفَ: "**إذا ما استمرَّ الهندوسيّون والسِّيخُ دائبين على طَرد المُسلمين من دلهي، فهم بذلك يخونون دينَهم، وذلك يؤلمني**". وردًّا على اتّهامه بالصِّيام تعاطُفًا مع المُسلمين، اعترفَ بتلك التُّهمة وقال: "**طوالَ حياتي قد دافعتُ عن الأَقلّيَّات، وعلى الجميع أن يذودوا عن الأقلّيّات والمُحتاجين**". فقد كان غاندي يُؤمن إيمانًا راسخًا بأنّ حضارةَ أمَّةٍ تقاسُ بسلوكها حيالَ أَقلّيّاتها.

وقد أَوضحَ أنَّ غايةَ صيامه هي "التضرُّع إلى الله، كي يُطهِّر نفوسَ الجميع، ويُزيل كافّة خلافاتهم، فعلى الهندوسيّين والسّيخ والمسلمين أن يقرّروا التعايش في هذا البلد بسلامٍ وإخاءٍ". وأردف: "**إنّني أمتحنُ دلهي، فأيَّةً كانت المذابحُ التي تُلطِّخ الهند والباكستان، أَتوسَّل شعبَ عاصمتنا إلاّ يدعَ شيئًا يَثنيه عن واجبه، فحتّى لو ذُبح جميع الهندوسيّين الذين ما برحوا يُقيمون في الباكستان، علينا أن نصون حياة أبأس طِفلٍ مسلمٍ يعيش في وَطَننا. وعلى جميع الطوائف، وعلى جميع الهنود، أن يُحِلُّوا الإنسانيّة مَحلَّ البهيميّة، وأن يعودوا فيُثبِتُوا أنّهم هنودٌ أصيلون. أَمّا إن هم عَجِزوا عن ذلك، فلا جَدوى من بقائي في هذا العالَم**".

وأكّدَ غاندي أنّه سيُنهي صيامَه حالما تستعيد دلهي السَّلام، بكلّ ما لتلك اللَّفظة

من معنًى، ثمّ أهاب بكلّ واحدٍ من الحُضور، أن يُرَدِّد نشيد طاغور، الذي أنشدَه هو نفسه، ولا سيَّمَا في مُستنقعات نواخلي، وأثناءَ مسيرة الملح، والذي يقول فيه:

"إن لم يستجب أحدٌ لندائك،

فامضِ وحيدًا، امضِ وحيدًا!".

لقد تراءى للصُّحافيّين الأجانب الحاضرين، أنَّ هالةً من العَظَمة الفريدة كانت تُخيِّمُ فوق طيف الرَّجُل النحيل، وهو يتكلّم، في مثل تلك الصّراحة، والشمسُ قد مالت إلى المغيب. وخليقٌ بالذكر أنَّ وجود عددٍ غفيرٍ من الصحافيّين الأجانب في دلهي، آنذاك، قد أسبغ على صَوم غاندي دَعاوةً لم ينعم بها أيٌّ من أصوامه السابقة، فضلاً عن أنّ ذلك الصَّومَ قد بدا وكأنَّه تحدٍّ أَحرَجَ الكثيرين من أعضاء الحكومة الذين تجاهَلوا المهاتما ومبادئه، وانساقوا لرغبات الشَّارع، ولا سيَّمَا أنَّ عاصمة الهند، آنذاك، كانت تعجّ بالمهجَّرين الهندوسيّين والسِّيخ الذين احتلُّوا المساجدَ ومنازلَ المُسلمين؛ وقد شرَطَ غاندي إنهاءَ صيامه بإخلاء تلك المساجد والبيوت، وإعادتِها لأَصحابها، وبأَداء المبالغ المتوجّبة على حكومة الهند تجاه الباكستان، ما أوقَع الحكومةَ في حَرَجٍ مُستَعصٍ.

يومَ صيامه الثَّاني، استيقظ غاندي حَسَب مألُوفِ عادَتِه، قُبَيلَ الفجر، وسمعته ابنةُ شقيقته "مانو" يهمس ساخرًا: "**كم أنا راغبٌ في تناول طعامٍ، اليومَ!**"، فجاءته بكوب ماءٍ فاترٍ مُضافٍ إليه قليلٌ من بيكربونات الصُّوديوم، فارتشَفَه على مَهَلٍ، في شيءٍ من الاشمئزاز؛ ثمّ استهلّ نهارَه بالردّ على رسالةٍ، كان قد بَعَثَ بها إليه أصغرُ أبنائه "ديـﭭـاداس"، قال فيها: "**إنّ ما تستطيع حياتُك تحقيقَه، لن يستطيعَه موتُك**". وكان ردّ الوالد: "**إنّ الله وحدَه، الذي أَمَرني بهذا الصَّوم، يستطيعُ إرغامي على إنهائه. بانتظار ذلك، أَرجو إلاّ يَغرُبَ عن بالك، وبال الآخرين، أنَّه قد يكون سَواءً عند الله أن يتوفّاني أو أن يَدَعَني أَعيش. ليس لديَّ سوى صلاةٍ واحدةٍ أَرفَعُها إليه: "يا إلهي، ساعدني على الثبات، طوالَ هذه المحنة، واحمني من إغراء الاستعجال في إنهائها، خَشيةَ الموت".**

بيدَ أنّ خَشية موت غاندي كانت تقضّ مَضَاجعَ أَصدقائه، ولا سيَّمَا أنّ وضعَه الصحّيّ قد أخذ يتدهورُ سريعًا. وكان المهاتما قد رَفَض، بادئ الأمر، الخضوعَ لفحوص الأطبّاء قائلاً: "**اطمئنّوا، فقد أودعت نفسي بين يدي الله**"؛ غير أنّ الدكتور جيلدر المختصَّ في أمراض القلب قد أقنَعه بأنّه وزملاءَه، مُكلّفون بإصدار نشرةٍ يوميَّةٍ عن وضعه الصحّي، ولا يَسَعُهم قولُ الحقيقة ما لم يفحصوه؛ وبقولهم هذا أصابوا مَوطِن ضُعف غاندي الذي لم يكن، ليُساوِم مع الحقيقة، فاستسلم لفحصهم، ولكنَّه لم يستسلم لنُصحهم؛ وعندما لحظت الدكتورة سشيلة نجّار أنّ التحليل كَشَفَ عن وُجود نسبةٍ مُرتَفعةٍ من الأسيتون في بَول غاندي، ممّا يُنبئ بخطرٍ داهمٍ، أجاب المهاتما:

- "**إنّ مردَّ ذلك هو قلّة إيمَاني**".

فاعترضت: "**ولكنّ الأسيتون مادّةٌ كيميائيةٌ**".

فأَجاب المهاتما، وقد سَهَمت أبصارُه في أُفُقٍ بعيدٍ:

- "**ما أضأَلَ الأمور التي يُحيط بها العلم. إنّ الحياة تنطوي على أكثرَ ممّا ينطوي عليه العِلم، وما ينطوي عليه الله يتخطّى الكيمياء**".

وأَخذ القَلَقُ ينتاب أَصدقاءَه، وهَجَرَ الوزراءُ مكاتبَهم الفاخرة، ليعقدوا اجتماعَهم حولَ مَرقده؛ وحاولَ وزير الداخليّة، باتل، أن يبسط له المُبرّرات التي حَدَت بالحكومة إلى تجميد تحويل مبلغ الخمس مئة وخمسين ألف روبيّةٍ إلى الباكستان؛ وبعد أن أَفاض في الحديث، ارتكى غاندي على مرفقه، ورَمَق، في حُزنٍ سحيقٍ، مَن قد طالما كان رفيقَ نضاله، وقال له، وعيناه مُغرورقتان بالدُّموع: "**لم تَعُد أنتَ باتل الذي عَهِدتُه**". وقد هالَ بعضَ أصدقاء غاندي ما لَمسوه، للمرَّة الأولى، في مسيرته السياسيّة، من نقمةِ الجماهير الهندوسيّة على صيامه الذي عَدّوه انحيازًا للمُسلمين، فاندفعوا يتظاهرون هاتفين: "دعوا غاندي يموت". ولكنْ، عَبَثًا، توسَّل إليه أصدقاؤه أولئك الكفَّ عن صيامه؛ وجاءَ ردُّه على طلبهم، أثناءَ صلاة المساء، عندما أصرّ على مخاطبة الجماهير، رغم نُصح أَطبّائه، فأكّد: "**لا تُراودني أيّةُ رغبةٍ في استعجال إنهاء صيامي؛ ولا يهمُّني إن لم تَتحقق أمنيّاتٌ حالمةٌ تُساور مجنونًا مثلي، وإن لم**

ينته، بالتّالي، صيامي. إنّني راضٍ بالانتظار، مهما اقتضى الأَمرُ انتظارًا، ولكنّ مُجرَّدَ تَخيّلي أنّ الناس غير مَعنيّين إلاّ بإنقاذ حياتي يُؤلمُني".

وأَفضى إلى مستمعيه، أنّ فيضًا من الرسائل انهمر عليه، وقد ورد في برقيّةٍ من لاهور، في الباكستان، أنَّ أصدقاءَ غاندي المُسلمين، وبعضهم من أعضاء الرابطة الإسلاميّة والحكومة الباكستانيّة، قَلِقُون عليه، ويستفسرون عمَّا يتعيَّنُ عليهم عَمَلُه، وقد حَرِص على إِجابتهم عَلَنًا بقوله:

"**إنّ الصَّومَ أسلوبُ تطهُّرٍ ذاتيٍّ، يستهدِفُ دفعَ جميع المتعاطفين مع الغاية المنشودة منه، إلى المساهمة في ذلك التطهُّر... فإذا ما غمرت مَوجةُ تَطهير الذّات جزأَي الهند، أَصبحَ الباكستان طاهرًا، وكُتِبَ له الخلُود؛ وحينئذٍ، ولكن حينئذٍ فقط، سأَندم على أَنَّني قد عَدَدتُ التقسيمَ خطيئةً، وما زلتُ أَعُدُّه كذلك، آسفًا، حتّى اليوم".**

ثُمَّ أماطَ النِّقابَ عن ذِكرياتٍ من طفولته، حينمَا كان يتسقَّط نقاشَ والده مع أَصدقاءَ ينتمون إلى طوائف أُخرى، فيمضي يحلُم بصداقةٍ مُخلصةٍ تتوثّق بين أتباع مختلف الديانات، وأضاف: "**في عشيّة حياتي سأطفُر فرحًا كالأطفال، لو أنّني شعرتُ أنّ حلمي قد تحقّق، وسأتمنّى، من جديدٍ، أن أعيشَ مئةً وخمسًا وعشرين سنةً**".

استيقظَ غاندي، حسب عادته المألوفة، في السَّاعة الثانية والنصف من صباح يومِ صَومه الثالث، وطلَبَ الاستحمامَ بماءٍ ساخنٍ، وأثنَاءَ استحمامه أملى على أمين سرّه رسالةً إلى حكومة نهرو ناشدَها، بها، المبادرةَ إلى أَداء المبلغ المُتَوجّب للباكستان، ولكنَّه ما كاد يَفرغُ من إملاء الرسالة حتّى أُغميَ عليه. وقد كَشَفَ الفحصُ الطبّيُّ أنّ الصَومَ قد استنفد مخزون جسمه العجوز الذي شرَع يلتَهم أَنسجتَه، ما كان يعني دخولَه في مرحلةٍ حاسمةٍ، لا رجوعَ منها، وكان وزنه قد تدنّى إلى ما دون ٤٨ كيلوغرامًا.

وقد شَهِدَ ذلك اليومُ بدءَ تحوُّلٍ في موقف جماهير دلهي من صيام المهاتما، فراحت أَعدادٌ ضئيلةٌ منهم تتظاهر مناديةً بالإخاء بين الطوائف، حرصًا على حياة غاندي، في حين غَمَرَت جميعَ أرجاء الباكستان موجةُ تعاطُفٍ عارمةٌ مع "ملاك الإخاء"، وأَخذ النَّاسُ يتساءَلون، في قَلَقٍ، عن أَجدى الوسائل لإنقاذ حياته، وغصَّت

المساجدُ بالمُصلِّين الداعين له، ورجَّعت جُدرانُ المنازل آياتِ القرآن، تضرُّعًا إلى الله كي يحميَ الهندوسيَّ العجوزَ الذي مَدَّ يدَ العون إلى مُسلمي الهند. وقد ازدادت تلك الأدعية حرارةً ولجاجةً، بعد أن استجابت حكومة دلهي لرغبة غاندي، وحوَّلت مبلغ خمس مئةٍ وخمسين ألف روبيّةٍ إلى الباكستان، فأنقذته من الإفلاس، ومن مِحَنٍ جسيمةٍ. لقد كان ذلك العَمَلُ تنازلاً خطيرًا، بَرهنت بهِ الحكومة الهنديّة عن عظيم تقديرها لحياة المهاتما، وقد عبَّر عن ذلك نهرو نفسه، أَمامَ أُلوف المُتجَمهرين، في إحدى ساحات دلهي مُعلنًا: "**إنَّ موت غاندي قد يعني للهند فقدان روحها**".

وقد قضى غاندي ذلك اليومَ مستلقيًا على فراشٍ، تحت رواقٍ مُغلَقٍ، مُغمَضَ العينَين، مستسلمًا للسُّبات أَو للإغماء، وقد أُسدِلَ على جسمه ورأسه مُلاءَةٌ قطنيَّةٌ بيضاء، فيمَا رَتلٌ متّصلٌ من مُحبّيه القَلِقين عليه، كانوا يَمرّون على بُعد خُطواتٍ منه، في خُشوعٍ وهَلَعٍ، ضامِّين راحتَي أَيديهم، مُتَمتمين تضرُّعاتٍ حارَّةً.

كانت أمارات حُزنٍ حادٍّ مرتسمةً على مُحيّا الصائم الكبير، حتّى أثناء نومه أو إغمائه، ولكنَّه حُزنٌ اكتَسَبَ من غنى الإِيمَان، سُمُوًّا فريدًا، فلم يستطع حَجبَ سكينةٍ عميقةٍ مستقرّةٍ في تلك النفسِ التي، بتضحيتها ذاتها، كانت تُوفّر للآخرين السَّلام.

وما إن أَذِن موعِدُ صلاة المساء الجماعيّة حتّى استيقظَ غاندي، واستعادَ كاملَ وعيه؛ولكنَّه كان عاجزًا عن المُثول إلى مَوقع الصلاة، فجِيءَ إليه بمذياعٍ متَصلٍ بمُضخّمات صوتٍ مبثوثةٍ في ميدان الصَّلاة، وبالإذاعة الهنديَّة، وعِبره خاطب الجماهير بصَوتٍ مُتَهدّجٍ، بدا وكأَنَّه قادِمٌ من العالم الآخر، فقال:

"**لا تَدَعوا أَعمال الغَير تُقلِقُكُم، بل على كلٍّ منّا أن يوجّه الأَنوارَ الكاشفةَ إلى داخله، ويَجهَدَ في تطهير قلبه، ما استطاع. وإنّني لمُتَيقّنٌ أنَّكم إذا ما تطهّرتم، بالقدر الكافي، لأَسدَيتم للهند مُساعدةً كبرى، ولقصَّرتُم أَمَد صومي... أُعنوا بالوطَن، وبحاجته إلى التآخي، ولا تقلقوا عليّ. ليس بوسعِ مخلوقٍ على وجه البسيطة أن ينجوَ من الموت، فلمَ نَرهَبُه؟ في الواقع، الموتُ صديقٌ خليقٌ بشُكرنا، فهو يُعتقُنا من جميع أَوصابنا**".

وعَجزَ عن مُواصلة الكلام، فتُليت تَتِمَّةُ رسالته نيابةً عنه. وعندما استفسر الصحافيّون عن مُبرِّر صيامه، في حين كان الأَمن، في دلهي، يبدو مستَتبًّا، أَجاب أنَّه لم يكن بوِسعه أن يظَلَّ شاهدًا على طَرد المُسلمين من منازلهم، من غير أن يتحرّك.

بوغتت "مانو" عندما رأَت "بابو" يُفيق نَشِطًا يَقِظًا، في السّاعات الأولى من صباح يوم الجمعة، الرابع مذ باشرَ صيامَه، فيملي علَيها إرشاداته لصلاة المساء، ويُكبّ على التدرُّب على كتابة اللّغة البنغاليّة؛ بيد أنّ تلك اليقظة كانت قصيرة الأَمد، إذ ما لَبِثَ أن أُغميَ عليه، ودَلَّ الفحصُ الطّبيُّ على أَنَّ قُصورَ كليتَيه قد أَفضى إلى قصورٍ قلبيٍّ مُنذِرًا بنهايةٍ وشيكةٍ. وأَصدرت الدكتورة "سشيله نجار" بيانًا كان بمثابة إنذارٍ، يُهيبَ بجميع مُحبّي غاندي أن يعملوا كلَّ مستطاع، قبل أن يُعطِبَ الصيامُ جميعَ أجهزة جسمه.

ومرَّةً أُخرى، حدثَت المُعجزة التي كان غاندي، وحدَه، بارعًا في بعثها؛ وعَبر جدران "بيرلا هوس" اتّصلت "نفسه الكبيرة" بنفوس الثلاث مئة مليونًا من مواطنيه، وهزّت أركان وجدانهم، فشرعوا، بَغتةً، يعيشون مشدودين، دقيقةً فدقيقةً، إلى النضال الذي كان يخوضه ذلك العجوز المهدود مع وِجدانه الذي بات وجدانَ البلاد بأَسرها؛ وطَفِقَت إذاعةُ الهند تُصدر من "بيرلا هوس"، ساعةً فساعةً، نشراتٍ عن نِزاع المهاتما، فتقاطرَ عشرات الصحفيّين الهنود والأَجانب، واحتشدوا عند سور حديقة المنزل خاشعين، وكأنّهم يسهرون على مُدنِف، وغشت ساحاتِ جميع المدن الهنديّة تظاهراتٌ ترفع شعارات "الإخاء" و"الوحدة" و"أَنقذوا غاندي"، وفي طول البلاد وعَرضِها تألّفت "لجان المحافظة على حياة غاندي"، تَضمُّ مسؤولين عن كافّة الطوائف والأَحزاب السياسيّة؛ ودُمغت جميع الرسائل التي كانت تجوب الهند بخاتَمٍ جاء فيه: "**فَلنُنقذ حياة غاندي، ولنَكُن جميعنا إخوةً في السَّلام**". وفي كلّ مكانٍ، انتَظمَت جماعاتُ صلاةٍ متضرّعةً لإنقاذ أيّامه الغالية، وشَهدت المعابدُ والمساجدُ طقوسًا خاصّةً لهذا الغرَض؛ وبَعَثَ المنبوذون إلى غاندي ببرقيّةٍ أَعلنوا فيها: "**حياتك هي مِلكُنا**".

واجتاحَ نيودلهي تَحولٌ مُذهِلٌ، فأُغلقت المحلاّتُ التجاريّة، وألّف الهندوسيّون والسيخ والمُسلمون معًا "كتائب سلامٍ"، وانطلقوا، وقد تشابكت أَيديهم، يُوزّعون على المارَّة عرائضَ مُناشدين، بها، غاندي أن يوقف صيامَه. وجابت الشوارعَ سيّاراتُ شحنٍ تراصّ فيها شبّانٌ يهتفون: "**حياةُ غاندي أَثمنُ من حياتنا**"؛ وعُطِّلت المدارس والجامعات، ومضى الأساتذةُ والطلاّب في مظاهراتٍ يجأرون: "**تريد أن نموت قبل أن يموت مهاتمانا**". وكانت أبلغ المظاهرات تأثيرًا تلك التي اضطلعت بها مئتا أرملةٍ ممّن فَقَدنَ أزواجهنّ في مجازر البنجاب، وقد وافَينَ "پيرلا هوس" مُعلناتٍ أَنَّهُنَّ سيتنازلنَ عن قِسطهنّ من المعونة الغذائيّة، كي يُشاركنَ المهاتما صِيامَه.

بيد أنّ ذلك التعاطفَ الجيّاش لم يُفلح في هزّ أَوتار من كان مُلهمَه، وظلّ غاندي، حيالَه، متَحرّزًا. فقد كان صيامُه قد أَبطأَ في تحريك وِجدان مواطنيه، ومن ثَمَّ، فقد وطَّد، هو، العزمَ على المُضيّ فيه إلى أَبعدِ شوطٍ مستطاعٍ، إلى أن يحدُث التحوُّل النفسيّ الذي كان يتطلّع إليه، وبصوتٍ متهدّجٍ، ردّ على من جاؤوه متوسّلين: "**أنا لستُ على عَجَلةٍ من أمري، وآبى أَنصاف الحلول**". وأَضاف، لاهثًا، مُتَوَقِّفًا بعد كُلِّ لفظةٍ، كي يلتقط أنفاسه: "**سأزهد في هذه الحياة، ما لم يَعُد السَّلام فيُخيّم، من كلّ صوبٍ حولَنا، في الهند كلّها، وفي الباكستان كلّه: ذلكم هو مغزى تضحيتي**".

وردَّ على وفدٍ جاءَه بقيادة نهرو، مؤكّدًا أنَّ تحوُّلاً مُطلَقًا قد اعترى أَجواءَ نيودلهي: "**لا تقلقوا، فلن أبدِّلَ مَوقفي بغتةً، إذ إنّني حريصٌ على أن يتّسمَ كلٌّ ما تفعلونه بالصِّدق، ولستُ أتوخّى سوى الثابتِ الوطيد**".

وفي تلك الأثناء وَرَدَت من كراتشي برقيّةٌ يستَفسِرُ مرسلوها، إن كان بوِسع المُسلمين الذين هَجَروا منازلَهم في الهند أَو طُردوا منها، العودةُ إليها والاستقرار، بأَمانٍ، في نيودلهي. واهتَبل غاندي تلك السَّانِحة وهتف: "**ذلكم هو الامتحان القاطع**".

وانطلق "پياريلال نجّار"، أمين سرّ غاندي، بتلك البرقيّة، وجاب أَحياءَ نيودلهي، ومُخيّمَات اللاّجئين فيها مُردِّدًا على أسماعهم أنّ حياةَ المهاتما مُتوقّفةٌ على موقفهم من المهجّرين المُسلمين؛ وقبل هبوط الليل كان أَلفٌ من المُتَطوِّعين قد وقّعوا على

إعلانٍ تعهَّدُوا فيه باستقبال المُسلمين الذين هَجَروا منازلهم أو هُجِّروا منها، ولو اضطُروا، في سبيل ذلك، إلى التخلّي عن مأواهم. ووافى وفدٌ منهم "بيرلا هوس" وخاطب مُمثِّلُه غاندي قائلاً: "**إنَّ صيامَك قد خضّ قلوبَ الناس، في العالَم أجمع، ونحن نَعِدُك بأن نجعلَ منْ الهند وَطَنًا واحدًا للمُسلمين والسِّيخ والهندوسيّين وسائر الطوائف. إنّما نتوسّل إليك أن تَضعَ لصيامِك حدًّا، وتُنقذ الهندَ من مِحنتها**".

وكان الأَطبَّاء قد أنذروا غاندي أنَّه، ما لم يكُفَّ عن صيامه، أو، على الأقلّ، ما لم يتناول بعض السوائل، سيُصاب بعاهةٍ دائمةٍ خطيرةٍ؛ ولكنّه لم يعبأ بإنذارهم، وحَرِص على مُخاطبة الجماهير بواسطة المذياع، أثناءَ صلاة المساء، فأشار باعتزازٍ إلى أنَّ صوتَه كان أقوى ممّا بدا في اليوم السابق، وأضاف: "**لم أشعُر، قطّ، في اليوم الرابع من الصَّوم، أنَّني في مثل ما أنا فيه اليومَ من عافيةٍ. إنّ دليلي الوحيد، وديكتاتوري، هو الله، المعصومُ من الخطأ، الكُلّيّ القدرة، ولو هو كان في حاجةٍ إلى جَسدي الهزيل هذا، لصانه، رغم تكهُّنات الأطبّاء، رجالاً ونساءً. إنّني بين يدَيه، وبالتَّالي، آملُ أن تصدّقوا قولي أنّني لستُ أخشى الموت، كما لستُ أخشى عاهةً دائمةً، إن بقيتُ على قيد الحياة. ولكنْ يخامرني الشعورُ بأَنَّ إنذار أصدقائي الأطبّاء بتلك العاهة، سيحفز الناسَ على الاتّحاد، إن هم كانوا في حاجةٍ إليّ**".

صباحَ يوم السبت، السابعَ عشرَ من كانون الثاني، أشار الميزان أَنّ وَزن غاندي قد توقّف عن الانحفاض، وكان استقرارُه هذا نذيرًا مُقلقًا يُشعر بتراكُم السَّوائل في جسم الصائم، بعد أن تعطّلت كِليتاه عن عملهما تمامًا، بحيثُ بات مُهَدَّدًا بالتسمّم البَوليّ المباغِت؛ وقد اشتركَ ثلاثة نطاسيّين، مع الدكتورة سشيلة نجّار، في إصدار نشرةٍ طبيّةٍ، بمثابة نداءِ استغاثةٍ، جاءَ فيها: "**إنَّ الواجب يُحتّم علينا إعلام الأمَّة أنّ عليها اتّخاذَ جميع التدابير، وتوفير جميع الشروط المطلوبة، من أَجل وضع حدٍّ لصيام المهاتما**".

وهَجَر نهرو مكتبَه في رئاسة مجلس الوزراء، وهُرِع ليَقبع عند أَقدام أَبيه الرُّوحيّ غاندي، ولكنَّه لم يُطِق رُؤيتَه وهو يحتَضِرُ، فأشاح بنظره عنه كي يُتيح لعَبَراته أن تتدفَّق على سجيَّتها.

وخفَّ أَيضًا اللورد مونتباتن وزوجتُه لعيادة الزعيم الذي كانا يُجلاّنـه، فبادرهما، مازحًا، بقوله: "**كان ينبغي أن أضرب عن الطّعام، حتّى يقومَ الجَبَلُ بزيارة الفـأرة**". فأَجهشت إدونيا مونتباتن بالبكاء، إلاّ أنّ زوجها الذي توسّم شجاعةً فريدةً لدى المهاتما العجوز ربَّتَ على كَتِفِها، مُهدّئًا روعَها وقائلاً: "**لا تحزني، فهو، الآن، يكسَبُ المعركة**".

وحقًّا كان غاندي يكسَبُ المعركة، إذ أَخَذَ ينهمر على "بيرلا هوس" فَـيضٌ مـن البرقيَّات، من الهند والباكستان، يُؤكّد مُرسلوها استجَابتَهم لنداء غاندي، ويُناشدونه الإقلاع عن صيامه؛ وقد أثلج ذلك التَحوّل قلبَ الصائم الكبير، ولكنّه كان راغبًا في المزيد. فأَملى ردًّا على نداء مراسليه، كي يُقرأ أثناء اجتماع الصّلاة، ناشدَهم، به، إلاّ يخدعوه، بُغيةَ ثَنيه عن صيامه، فحسبُ، وأَضاف: "**عليهم أن يعلموا أنَّ أكبر سعادةٍ هي التي تغمرُني عندما أصوم في سبيل هَدفٍ روحيٍّ. وقد وفّر لي هذا الصَّومُ من الفرح أكثرَ ممّا أصَبتُ منه في أَيّ يومٍ مضى، ولا يسوغُ لأَحَدٍ تعكير صفو هذه الحال، ما لم يستطِع التأكيدَ، بأمانةٍ وصِدقٍ، أنّه، خلالَ مسيرته، قد عَزمَ على الارتداد عن إبليس، كي يتّجه شَطرَ الله**".

وقد نَعِم غاندي، في ذلك النهار، ببضع ساعات صَحوٍ، همدت فيها آلامُه، وصفا ذهنُه، فأَقبلَ على تغطية ظُهور المظاريف المستعملة التي أَلِف استخدامَها قُرطاسًا للكتابة بصَفَحاتٍ متتاليةٍ باللّغة البنغالية التي وضع بها طاغورُ أحلى روائعه، ثُمّ أملى على أمين سرّه "بياريلال نجّار" الوثيقةَ المستفيضةَ التي شـرَطَ أن يُوَقِّع عليها بالموافقة زُعماءُ جميع الطوائف والأحزاب، حتّى أَشدّ أعدائه تَطرّفًا من حزب "هندو ماها سبها" كي يُنهي صيامَه، مُثبِتًا، بذلك، بَرَاعتَه الفذَّة في الإفادة من الأَجواء المؤاتية، كي يُدَعِّم النزعات الخَيِّرة، وينتزع وعودَ المحبَّة؛ وقد انطوت تلك الوثيقةُ على ثَبتٍ كاملٍ بالمطالب المتعلّقة بكافّة أَوجه الحياة في العاصمة الهنديّة، وتناولت، فيمَا تناولته، ضرورةَ الإِجلاء عن مئةٍ وسبعة عشرَ مَسجدًا، يستخدمها الهندوسيّون والسيخ ملاجئ، وإعادتها إلى المسلمين، والكفّ عن مقاطعة محلاَّت المُسلمين التجاريَّة، والمحافظة على المُسافرين المُسلمين وسلامتهم في القطارات الهنديّة.

وهرع بياريلال إلى "لجنة السلام" المنعقدة برئاسة الدكتور "راجندرا براساد"،

رئيس حزب المؤتمر، كي يُبلغها شروطَ غاندي، وسرَت في المدينة كلّها حُمّى اندفاعٍ لم تشهَد لها، قطُّ، مثيلاً من قبلُ، فأُغلِقت المكاتب والمخازن والدكاكين والمصانع والمقاهي، وتَجَمهَرَ في فناء المسجد الأكبر ما يُنيف عن مئة أَلف مُواطنٍ يجأرون مُطالبين زعماءَهم بالامتثال لشروط غاندي.

في غضون ذلك، كانت قوى المهاتما ماضيةً في الانهيار، ونَوبات إغمائه تزدادُ طُولاً وتعاقبًا؛ وأثناء إحدى تلك النّوبات، اقترحَ أحدُ الحاضرين إضافة شيءٍ من عصير البرتقال إلى الماء الذي يُسقاه غاندي، فكانت تلك الكلماتُ كافيةً لإيقاظ المهاتما من إغمائه، وللإعلان، في انفعالٍ ساخطٍ، أنّه لو تجرّأ أَحدُهم وأقدَمَ على مثل تلك الفعلة النّكراء، لاضطرّ، هو، إلى تمديد صيامه واحدًا وعشرين يومًا. واستأذنته، حينئذٍ، الدكتورة سشيلة نجّار بتثبيت محاجمَ على خصرَيه علّها تُنَشّط كليتَيه القاصرتين، ولكنّه أبى، وعندما اعترضت بأنَّ المحاجم جزء من العلاج الطبيعيّ الذي أَلِف ممارسته أجابها هامسًا: "**اليومَ، وحده الله يُمثّل علاجي الطبيعيّ**".

مساءَ ذلك اليوم، أثناءَ اجتماع الصَّلاة، هَمَس غاندي، عَبر المذياع، ببضع كلماتٍ متقطِّعةٍ، كثيرًا ما توقَّف أثناءَها، لاهثًا، محاولاً التقاط أنفاسه، قال فيها: "**ليس بوسع أَحدٍ إنقاذ حياتي، أو وَضع حدٍّ لها، فالله، وحدَه، سُلطان الحياة**".

وفي أعقاب الصَّلاة، انتظَمَ رَتلٌ طويلٌ من نساءٍ ورجالٍ هَلِعين، جَزِعينَ، منتحبين، ساروا سحابةَ ساعةٍ كاملةٍ، بتؤدَةٍ وخشوعٍ، وهم يَقذفون بالأزاهير المهاتما النائمَ المتلفّع بشاله الأبيض، مؤدّين طقس "الدارشان"، أي الاتّصال المادّيّ بروحٍ ساميةٍ، وذلك بالتملّي من مشاهدة هيكل تلك الروح.

وفي تلك الأثناء، كانت لجَّةٌ بشريَّةٌ عملاقةٌ، طولُها زُهاء ثلاثة كيلومتراتٍ، تتدفّق، في مدٍّ عارمٍ، على "بيرلا هوس"، حيثُ غشت طلائعُها الحدائق والممرّات، وقد رفع أفرادها مزيجًا مزركشًا من اللافتات المشيرة إلى انتمائهم لمختلف الاتّحادات والنقابات، ومعظمُها يُمثّل الطَّبقاتِ الفقيرةَ التي ترى في المهاتما أبًا وملاذًا ومُنقِذًا؛ وقد عراهم، جميعًا، شعورٌ واحدٌ واجفٌ بالخَطَر القوميّ الداهم، وبواجب إنقاذ أبي الأمّة من براثن

الموت، قبلَ فوات الأَوان؛ ومن صدورهم جميعًا تعالت صــرخةٌ مــشتَركةٌ: "**فَلنُنْقِــذ غاندي!**". لقد كانوا، حقًّا، على أُهبةٍ للتّضحية بحياتهم في سبيل إنقاذه.

إزاءَ ذلك الاندفاع اللاَّهب الذي استفزّه صيام غاندي، شقّ نهرو، بعُسرٍ، طريقًا إلى المِنصَّة التي أَلِف المهاتما أن يُخاطب منها المصلّين، وهتَفَ: "**إنّ في تراب وَطننا شيئًا عظيمًا وحيويًّا قادرًا على إنجاب غاندي. ما من تضحية تُعَدُّ كبيرةً، إن كانَ من شأنها إنقاذه، فهو، وحدَه، خليقٌ بقيادتنا نحو الهدف الحقّ، لا نحو فجر أحلامٍ خدّاعةٍ**".

ولكن، وسطَ ذلك الحماس العارم، لم يَقوَ أحد المتطرّفين المكلَّفين بالقــضاء علــى غاندي على حَبس مشاعر حَنَقه، فجأَر باستنكاره وسُخطه، وبادر رجال الأمن فاعتقلوه، ثم أَفرجوا عنه، بعد دقائقَ معدوداتٍ، من غير أن يُكلِّفوا أنفسَهم مؤونةَ استجوابه.

وفي ساعةٍ متأَخّرةٍ من الليل، عاد "بياريلال نجّار" مُهرولاً إلى "پيرلا هوس" حاملاً، مثلَ كنزٍ ثمينٍ، الوثيقة الكفيلةَ بإنقاذ غاندي، الذي فقد أَطبّاؤه كلَّ أملٍ في بقائه حيًّا؛ وأَقبَلَ أمين السرّ نحو فراش سيِّده النائم، وهَمَسَ في أذنه بضع أَلفاظٍ لم تُفلِح في إيقاظه، فهــزّ كَتفه برِفقٍ، وعندما فتح المهاتما جَفنَيه بَسَطَ أمامَ عينيه، باعتزازٍ وإشراقٍ، الورقة التــي احتوت شروطَه السبعة وقد ذيّلتها عشرات التواقيع؛ وتنهّد غاندي تنهُّد ارتياحٍ، ولكنّــه بادر إلى الاستفسار إن كان جميعُ الزُّعماء قد مَهَروا الوثيقةَ بتوقيعهم، وتردّد "پياريلال"، هُنيهةً، قبل اعترافه بأنّ الوثيقة كانت ما تزال تفتقر إلى توقيعَي الفئتَــين الهندوســيّتَين المتطرّفتَين، اللّتين كانتا قد عزمتا، سرًّا، على تصفية غاندي؛ ولكنّ "پيــاريلال "أَردف: "سيوقّعان غدًا؛ لقد تعهّد رفاقهما بذلك". وتوسّل إلى معلّمه أن يوقفَ صيامَه في الحــال، ولكنَّ المهاتما التفت إليه معترضًا: "**كلاّ، ينبغي إلاّ نستعجل الأمور، بل يتوجّب أن تذوب أقسى القلوبِ الجلموديّة، قبل أن أرتدّ عن تضحيتي**".

قُبَيلَ ظُهر يوم الأَحد، الثامنَ عَشَرَ من كانون الثاني، رنّ جرس الهــاتف فــي القاعة التي كانت ملتئمةً فيها "لجنة السلام"، وكانت الرسالة القادمة من "پيرلا هوس" تحمل إنذارًا رهيبًا، فالمهاتما على وَشَك الإهواء في إغمائه الأخير، وإن هو لم يــرَ الوثيقةَ التي طلبها مذيّلةً بجميع التواقيع، في غضون دقائقَ معدوداتٍ، كان القَدَر هو الأَسبق إلى الضَّربة القاضية.

تجهّمت أسارير الدكتور "براساد"، وبصوتٍ متهدّجٍ، بلّغ الحضورَ النبأ المُروِّع، مُلحفًا على المتردّدين أن يُوقّعوا الوثيقة بلا تلكّؤٍ، ثمّ رجا الجميعَ أن يُواكبوه إلى "پيرلا هوس"، حيثُ سبقهم نهرو وأزاد، وقائد الشرطة، وسفير الباكستان، وحيثُ كان المهاتما مستسلمًا لسباتٍ عميقٍ؛ وعبثًا حاول أمين سرّه إيقاظه بمناداته، وبمداعبة جبينه، فاضطرّت ابنة شقيقته "مانو" إلى تمسيد جبينه بخرقةٍ مبلّلةٍ باردةٍ، فارتعشَ العجوز المُدنِف، وأفرج جفنيه، فوقع ناظراه على حشدٍ مُزَركشٍ مُحيقٍ بسريره، كان يتعذَّرُ جمعُه معًا في أيّ ظرفٍ آخَر، إذ جاورت عمائم السّيخ الزرقاء طرابيش المُسلمين فوق جلابيبهم البيضاء، وجاورت سراويل الهندوسيّين المصنوعة من "الخادي" بدلات المسيحيّين والفارسيّين، ووقف مُمثّلو حزب "مها سبها" الهندوسيّ المتطرّف إلى جانب سفير الباكستان في دلهي. أَنهُرٌ من الدماء، وقلاعٌ من الأَحقاد كانت تَفصِل بين تلك الفئات المتباينة التي، وحدَها، تضحيةُ غاندي استطاعت جمعَها في مكانٍ واحدٍ ضيّقٍ.

وجثا الدكتور براساد عند سرير غاندي، وبسط أمامه الوثيقةَ مذيّلةً بتوقيع جميع الفئات بلا استثناءٍ، مُؤكّدًا أنّ تلك الوثيقة تُمثّل التزامًا ثابتًا، وبرنامجًا مُحدَّدًا، تعهَّد الموقّعون بتنفيذه وفقًا لمطالب المهاتما، الذي كان محيّاه يُشرق بالرضى والحُبور، كلّما ذكر "براساد" أحد التفاصيل المتّصلة بإسهام الهندوسيّين في احتفالات المُسلمين الدينيّة. وأَخيرًا عبّر الدكتور براساد عن رغبةٍ جماعيَّةٍ في إنهاء غاندي لصيامه، ثمّ تعاقب زعماء جميع الطوائف والفئات، مُكرِّرين تعهُّدَهم بالوفاء لالتزامهم.

حينئذٍ، شاعت أمارات الاطمئنان على محيّا غاندي، وأَشار بمَا ينبئ برغبته في الكلام، فأَلصقت "مانو" أذنها بشفتَيه، ومضت تسجّل، على دفتر، أقواله، التي كان "پياريلال" يتولّى تلاوتها على مسامع الحاضرين، وبها بلّغ غاندي الزُّعماءَ المحيقين به، أنّه لم يكُن، بعدُ، مستعدًّا لوقف إضرابه عن الطعام، مع أنّهم قد استجابوا لكلّ رغباته، إذ كان حريصًا أن يمتدَّ ما فعلوه، في دلهي، إلى الهند بأسرها؛ فإن هم كانوا مَعنيّين بإقرار السَّلام في دلهي، وحسبُ، غير حافلين بالعُنف الناشِب في سائر المناطق، كان عَمَلُهُم بلا جدوى، وسيرتكب، هو، خطأً فادحًا بالرُّجوع عن تضحيته.

لقد كان، وهو على عَتَبات الموت، حريصًا على المُضيّ في لعبته إلى أقصى أشواطها، وعلى انتزاع كلّ وُعود الخَير من الآخرين.

ونال من غاندي الإعياءُ، فتلبَّث، برهةً، قبل أن يهمس في أذن "مانو" بقيَّة ما كان يشغله؛ ولكنّ "پياريلال" كان من شدّة التأثّر، بحيث غُصَّ، وعجز عن مواصلة تلاوة أقوال معلّمه، فتولّت عنه تلاوتَها شقيقتُه الدكتورة سُشيلة، وقد جاء فيها:

"إنّ الخَطَل الأكبر هو الاعتقاد بأنّ الهند تخصّ الهندوسيّين فحسبُ، وأنّ الباكستان يخصّ المسلمين فحسبُ، وقد يبدو عسيرًا تحويل ضمائر جميع سكّان الهند والباكستان؛ ولكن، إن نحن عَمِلنا، بكلّ قلوبنا، على تحقيق تلك المُهمّة، فلا بدّ لها أن تتحقّق.

"فإن أنتم، بعد سماعكم أَقوالي هذه، استمررتُم في مطالبتي بإيقاف صومي، سأفعل؛ ولكن، إن لم تتحوَّل الهند إلى الأَفضل، فلن تكون جميع وعودكم سوى خِدعةٍ، ولن يبقى لديَّ من خيارٍ سوى الموت".

وسَرَت قُشعريرةُ ارتياحٍ في الحجرة، وتعاقَبَ الزُّعماء فجثا الواحدُ تلوَ الآخر أمامَ سرير غاندي، مُؤكّدًا إدراكَه لمغزى رسالته، وواعدًا بتحقيق رغَباته كلِّها. حتّى مُمثِّلُ حزب المتطرّفين الهندوسيّين، قد ضمّ صوته إلى أصوات الآخرين ووعد قائلاً: **"نُقسم على تحقيق كلّ ما تأمرنا به تحقيقًا وافيًا".**

حينئذٍ فقط، أشار المهاتما إلى "مانو" بالدنوّ منه، وهمس في أذنها: **"إنّني أقبل بإنهاء صيامي، ولتكُن مشيئة الله"**، فهتفت الفتاةُ مردّدةً تلك الكلمات، هُتافًا ظافرًا مُتهلّلاً، وتعالت صيحاتُ الجَذَل والانفراج. ودعا غاندي الجميعَ إلى الاشتراك في الصلاة، فتُليت أدعيةٌ بوذيّةٌ، ومقاطع من الجيتا، وآياتٌ من القرآن، والإنجيل، ودعاء زردشت، ونشيد من أناشيد السّيخ، ثم النشيد الهندوسي:

"قُدني من الضَّلال إلى الحقّ
ومن الظُّلمة إلى النّور،
ومن الموت إلى الخلود".

كما رنّمت الفتياتُ نشيد الصَّليب الذي كان يحتلّ، في قلب غاندي، مكانًا أثيرًا.

في تلك الأثناء كان المهاتما مُغمَضَ العينَين، وقد كسا محيّاه سلامٌ سحيقٌ ساجٍ، فبَدا، على حدِّ وصف "مانو"، "**مشرقًا بألَق الفداء**".

وعندئذٍ، بعدَ مئةٍ وإحدى وعشرين ساعة صومٍ، تناول المهاتما من يد مولانا أبو الكلام أزاد، الزعيم المُسلم، كوبًا من عصير البرتقال مضافًا إليه بعض الغلوكوز.

وتعالت صَيحات الفرَح من حناجر الجماهير المتراصَّة، في الخارج، عندما تأكَّدت أنّ "باپو" قد أوقفَ صيامه، وفي الحال جالت طائفةٌ من النِّسوة بأطباقٍ عامرةٍ بقِطع البرتقال، تلك الثمرة التي باتت، ببركة غاندي، "عطيّة الله"، وبدا تناولُها الجماعيّ ضربًا من المشاركة الصُّوفيّة الرائعة.

وأعيَت مظاهرُ الفرح الصَّاخبة المهاتما الخائرَ القُوى، فاضطُرَّ أطبَّاؤه إلى دعوة الجميع إلى مبارحة الحجرة التي كان يرقد فيها، كما ناشدوا الجماهير التزام الصَّمت؛ وتلبّث، مع غاندي، نهرو وحدَه، وقد تربَّع على الأرض، متألّقًا بِشرًا، وبعد فترة صَمتٍ، كاشَفَ والدَه الروحيَّ بسرٍّ كان قد كتَمه حتّى عن ابنته "أنديرا"، فأخبره أنّه، منذُ اليوم الفائت، كان قد ألزم نفسَه بالصَّوم، تضامُنًا مع المهاتما؛ وكان لتلك المكاشفة وقعٌ بليغٌ في نفس غاندي، فأنفذَ إلى نهرو، بعد مبارحته "پيرلا هوس" رسالةً مقتَضبَةً جاء فيها:

"**بوسعك الآن الكفُّ عن الصيام، ولتَعِش سنين طويلةً، ولتظلّ، أبدًا، "جوهرة" الهند. مع بركات "باپو"**".

وعَصرَ ذلك اليوم، أَمَّ "پيرلا هوس" زُهاء مئةٍ من النِّساء المُسلمات المتحجّبات، وقد حرص غاندي، رغم معارضة أطبّائه، على استقبال وفدٍ منهنّ؛ وقد أسرّت إليه الناطقة باسمهنّ، أنّهنّ، جميعهنّ، قد باشرنَ صيامًا كاملاً، منذ خمسة أيّامٍ، وتضرَّعن، في مخادعهنّ، من أَجل إنقاذ حياته، فضمّ غاندي يدَيه، تعبيرًا عن شكره، ولكنّه أَعقب شكرَه بعتابٍ قائلاً: "**أنتنّ لا تتحجّبنَ في حضور إخوتكنّ وآبائكنّ، فلم تحتفظنَ بأحجبتكنّ في حُضوري؟**"، وفي لحظةٍ، سقطت الحُجُب كلُّها عن وجوه النّسوة المُسلمات.

ولما أَزِف موعد الصَّلاة، كان غاندي قد استعاد بعض قُواه، فخاطَبَ الجموعَ المحتشدة قائلاً: "حتّى ساعتي الأَخيرة، لن أستطيع نسيان المحبّة التي عبّرتم لي عنها... لا تُفرِّقوا بين مدينتكم وسائر مناطق البلاد. يجب أن يَعمّ السّلمُ الهند والباكستان بأجمعهما. فليطَّلع كلُّ هندوسيٍّ على القُرآن، وليتأمّل المُسلمون في مغزى الجيتا، وفي كتاب السيخ "غرانت صاحب"، وعلى نحو ما نحن نحترم ديانَتنا، علينا احترامُ دياناتِ الآخرين. فالحقُّ حقٌّ سواء كُتِب بالسانسكريتيّة أو بالأوردو أو بالفارسيّة أو بأيّةِ لغةٍ أُخرى...".

ومساءَ ذلك اليوم، اندفعت الجماهير تطالِبُ، أكثرَ من أيّ يومٍ مضى، "بالدارشان" أي التبرُّك برؤية المهاتما القدّيس، الذي استلقى على شرفةٍ أمام حجرته، متلفّعًا بشاله، وقد أسند جسمه بالأَوسدة؛ ثمّ، لكي يُتاحَ للجميع رؤيتُه، رَفَعهُ أربعةٌ من تلاميذه على أكُفِّهم، فراح يُحيّي الجموع التي ماجت بالفَرحة والجَذَل.

وفي ذلك المساء، تناول غاندي وجبةَ طعامه الأولى بعد صيامه، وقوامها كوبٌ من حليب الماعز، وبعض البرتقال؛ وما كاد يفرغ منها، حتّى استقدم مِغزَلَه، وبمَا تبقّى في جسمه الواهن من عزمٍ، طفق يغزل، رادًّا على اعتراض أَطبَّائه بقوله: "**من يأكل خبزًا ولا يعمل، فهو يسرق خبزه؛ وبمَا أنّني قد عدتُ إلى تناوُل الطَّعام، فعليّ أن أعمَل**".

وكان لصيام غاندي، وما أسفر عنه من نتائجَ سنيّةٍ ساميةٍ، وقعٌ رحبٌ مُدوٍّ؛ فانهمرَ على "پيرلا هوس" فيضُ برقيّاتٍ زاخرٌ، مُعبّرًا عن الإجلال والإكبار؛ وأشادت كبريات صُحُف العالَم بالحَدَث الجلَل. فأبرزت، مثلاً، صحيفة "نيوز كرونيكل" اللندنيّة عنوانًا يقول: "**سلطانٌ سرّيٌّ لدى عجوزٍ هشٍّ في الثامنة والسبعين من عمره، يهزّ العالَم، ويُتيح له أَمَلاً قشيبًا... لقد أثبت غاندي قُدرةً كفيلةً بتخطّي قدرة القنبلة الذرّيّة، يتعيّن على الغَرب أن يتطلّع إليها في طموحٍ ورجاءٍ**". واضطرّت صحيفة "تايم" البريطانيّة التي قد طالما هاجمت غاندي، إلى الاعتراف بأنّ "**مثاليّة غاندي الجريئة لم تُصادِف يومًا مثلَ هذا التبرير المُطلَق**". وعلّقت صحيفة "ليموند" الفرنسيّة: "**ومرّةً أُخرى، أَثبتَ غاندي الوديعُ أنّه أكبرُ ثائرٍ في زماننا**". وأشارت

الصحف الأميركيّة إلى هالة القداسة التي تُحيق بالمهاتما، كما أشادت صحف مصر بابن الشرق النبيل الذي وقف حياته على خدمة قضايا السلام والتَّسامُح والإِخاء.

وغداة إنهاء غاندي صيامه، صَرّح محمّد ظفرالله خان، وزير خارجيّة الباكستان أمام مجلس الأمن: "**إنّ موجةً جديدةً وعارمةً من التعاطُف والنوايا الطيّبة، والصداقة بين الدولتَين تجتاح القارّة، ردًّا على ذلك الصيام**".

لقد حقّق صيام غاندي مُعجزةً أُخرى بوقفه المذابح الطائفيّة في كلتا الدولتَين، ونَهَض صَرحًا شامخًا، يُخلِّد تلك القوّةَ الروحيّة الفذّة، الكامنة في صَدر رَجُلٍ تسامت رغبتُه في الخدمة على تعلّقه بالحياة. لقد كان غاندي يُحبّ الحياةَ، ويرغبُ في العيش. ولكنّه، بإقدامه طوعًا على الموت، أَثبَت إيثارَه الخدمة حيثُ تكمُن ينابيعُ الفرح.

الحُلمُ المحطَّم

في موازاة غاندي الدّائب على تَوثيق عُرى الإخاء بين شتّى الطوائف، وإشاعةِ اللاعنف، كانت قَبضةٌ من العُنصُريّين الهندوسيّين المتَطرّفين، في تسعير نيرانِ الطائفيَّة، مُتَوسّلةً إلى ذلك استفزاز روح الانتقام، والتذرُّع بكلِّ أساليب العُنف. وكان مُلهِم تلك الحركة "ڤيا ناك دامودار ساڤركار" المُلقّب "ڤير"، أَي الشُّجاع. هو، أيضًا، كان قد نال إجازةً في الحُقوق من لندن، على غِرار غاندي وجناح ونهرو، ولكنَّه آمن بالعنف والاغتيال السياسيّ، وانحرفَ إلى تعاطي المخدّرات، وإلى الشذوذ الجنسي؛ ولكنّه كان خطيبًا مفوّهًا، بارعًا في إثارة مشاعر البغضاء، وتأليب الجماهير من حَوله. وقد ترأّس حزبًا مُتطرِّفًا يُدعى "هندو ماهسبها" أي "التجمّع الهندوسيّ الأكبر"، وميليشيا فاشيّةً متفرّعةً عنه. وكان مُؤمنًا بتَفوّق العُنصر الهندوسيّ، حالِمًا بإعادةِ تأسيس أمبراطوريّةٍ هندوسيّةٍ كُبرى تنبُذ من أَحضانها كلَّ مُسلمٍ.

وكان اثنان من أتباع "ڤير" هما "ناتوران جودسيه" و"نارايان أبتيه"، قد اشتركا في تأسيس وإدارة صحيفةٍ ناطقةٍ باسم الحركة، أطلقا عليها اسم "هندو راشترا"، أي الأمّة الهندوسيّة، وقد احتفلا بتدشين مطبعةٍ جديدةٍ لها، في الأوّل من تشرين الثاني ١٩٤٧. وكانت تلك مُناسبةً مُؤاتيةً ليشنّا هجومًا ناريًّا على سياسة

غاندي القائمة على الوِفاق والمُصالحة، والذَود عن المُسلمين، وليتعاهدا على قَتلِه. كانت طِباع الرجُلَين تُبرِز بينهما تبايُنًا سحيقًا، فبقدر ما كان "جودسيه" متقشِّفًا، زاهدًا، مُقتصرًا، في لباسه، على القميص والسِّروال الأبيضَين، منعزلاً عن العالَم، مُبغِضًا للنِّساء، صريحًا، قاطعًا، كان شريكه "أپتيه" كَلِفًا بالبذخ، يتزيّا بأَفخر البدلات، أَكولاً، مُعاقرًا للخمرة، يَغرف بنهَمٍ من شتّى مُتعَ الحياة، مهووسًا بمُطاردة الغواني، لا يُفوِّتُ من المغامرات سانحةً، زئبقيَّ السُّلوك، ثَعلبيّ المناورات. القاسمُ المشتَرك الوحيد الذي كان يؤلّف بينهما هو تعصّبهما الطائفيّ المُلتَهب، ورغبتُهما العارمة في القضاء على غاندي، وقد ازدادت تلك الرغبةُ اضطرامًا في أَعقاب صَوم غاندي الأخير، وما وفَّره من حمايةٍ للمُسلمين، ومن إنقاذٍ للباكستان، بإرغامه حكومةَ نهرو على أداء الدَّين المترتِّب عليها للدَّولة الإسلاميّة الحديثة. وراح الشريكان يبحثان عن الأَسلحة الكفيلة بتحقيق حُلمِهما. ومن غريب المفارقات أنّ بلادًا كالهند، جيّاشةً بالعُنف، مَحشوّةً بالمتفجّرات، كان من المتعذِّر العُثور فيها على مسدَّسٍ، إذَّاك، فكان لا بدَّ للرَّجلَين من الاستعانة بصاحب فندقٍ، يُدعى "ڤيشنوكاركاريه"، وثيق الصِّلةِ بتُجّار الأَسلحة وسماسرتها، وقد غدا عُضوًا أساسيًّا في ثالوث شرّيرٍ، هاجسُه الأكبرُ قَتلُ غاندي. وقد انضمَّ إلى المتآمرين الثلاثة، فيمَا بعدُ، شقيقُ ناتوران جودسيه، "كوبال"، ولاجئٌ بنجابيٌّ يُدعى "ماندلال پاهوا"، كان قد أَوى إلى أَحد المساجد، إلاّ أنَّ رجالَ الشُّرطة طردوه منه تحقيقًا لرغبة غاندي، الذي كان لجوجًا في مطالبته بإخلاء المساجد وإعادتها إلى المُصلّين المُسلمين.

وجديرٌ بالتَّنويه أنّ "ناتوران جودسيه"، أحدَ أَركان المتآمرين على حياة غاندي، كان، في صِباه، من أشدّ المندفعين في تأييد كفاحه ضدَّ الاستعمار البريطانيّ، وكانت استجابتُه المتحمِّسةُ لدعوة المهاتما إلى العصيان المدنيّ قد قادته إلى السِّجن؛ إلاّ أنَّه تنكَّر للغانديّة عام ١٩٣٧، كي يُلبّي نِداءَ زَعيمٍ آخَر يُنادي بالتعصُّب والعنف، هو "ڤير سڤاركار"

وفيمَا كان أَعداءُ غاندي يَحيكون بعنايةٍ مكيدةَ قَتله، كان المهاتما، في أَعقاب صيامه، يطفح فَرَحًا واندفاعًا، فقد كان التأثير الخيِّر الذي حقَّقه صيامُه، والثَّورةُ التي استنهضها في نفوس فئةٍ عريضةٍ من الهنود والباكستانيّين، وفي أَغوار وِجدانهم، قد

أَيقظا تفاؤلَه الفطريَّ، وأَشرعا أَمام خياله آفاقًا قشيبةً تموج بالأحلام السنيّة المتَأَلّقــة، وبآمالٍ لا حدودَ لها.

وكان من أَوائل زائريه، إِثرَ صيامه، الصناعيُّ الهنديُّ الذي كان قد أوفدَه إلــى كراتشي من أَجل الإعداد لزيارته للباكستان، وقد أَبلغه أنَّ جناح قد أبــدى، للوهلــة الأولى، الكثيرَ من الحيطة والريبة، إذ كان يتوجَّسُ مؤامرةً مُقنّعةً، ولا يطمئنُّ إلــى من كان يَصِفُهُ "بالثَّعلب الهندوسيّ الخطير"، الذي كانت مناوراته، لسنين عديدةٍ خلت، قد حملته على الانسحاب من حزب المؤتَمر، بل على هجر الهند هجرًا كاملاً.

بيد أنّ إرغام غاندي لنهرو على أداء الدَّين المترتّب للباكستان، والحمايــة التــي وفّرها صيامُه لمُسلمي الهند قد أَدَّيا، في نهاية المطاف، إلى تليين موقف جناح، وإلــى فتحه أبوابَ الباكستان أمامَ خصمه السياسيّ العجوز؛ غير أنّ اقتراح جناح بأَن يــوافي غاندي الباكستان، عن طريق البحر، لم يُصادِف ترحيبَ غاندي، الذي كان يتوخّى من زيارته للباكستان إلهابَ المشاعر، ولَفتَ الأنظار إلى الأَهداف التي كان يَنشُدُها، والتي كانت رحلةٌ بحريّةٌ عاجزةً عن إبرازها. لقد كان يُؤثر المُضيَّ كرائدٍ يقود مَوكبًا جَلبًــا، في تظاهرةٍ تشُدُّ الأَبصار، وتصدُم الأذهان، على غرار مسيرة الملح؛ كان يحلُــمُ فــي الشُّخوص إلى الباكستان، سَعيًا على الأَقدام، حاجًّا، متأَثّرًا خُطى الذين هاجروا لأَشــهرٍ خلت، عبر دُروب البنجاب التي شَهِدَت مآسي تلك الهجرة المروِّعة، على رأس موكبٍ يمتدُّ على مسافة مئة كيلومترٍ، ينتظمُ فيه مئاتُ أُلوف الهندوسيّين والسيخ، الذين نزَحوا عن ديارهم إلى الباكستان، عائدًا بهم إلى بُيوتهم وأَراضيهم، ثمّ يَقفلُ راجعًا، قائدًا موكبًا آخَر مُماثلاً من مئات أُلوف المهجَّرين المُسلمين، عائدًا بهم، أيضًا، إلى مسقط رأسِهم، وإلى منازلهم وحُقولهم ومساجدهم في الهند.

أيُّ انتصارٍ للاّعنف كانت تمثِّل تلك الرؤيا، وأيُّ تتويجٍ لكفاح المهاتما في سبيل التّسامُح والإخاء! رؤيا، لو هي تحقَّقَت، لكانت مُعجزةَ غاندي الكُبرى، بــلا مِــراء، وإكليلَ حياته كلِّها؛ ذلك الحُلمُ المتوهّج كان يستفزّ الزعيمَ العجوزَ ويستهويه، رغــم تَواضُعه السَّحيق، فيَلتَمس من الربّ الإيمَانَ والقدرةَ، وفُسحةً من الزَّمن كافيةً، للتمكُّن من تحويله واقعًا ماثلاً.

ولكنَّه كان لا يزال من الوَهَن بحيثُ تعجُزُ ساقاه عن حَمله بضعَ خطواتٍ في حديقة "پيرلا هوس"؛ كان ما برح، في الأَيّام الأولى التي عَقِبت صيامَه، يقتاتُ بعصير الفواكه ومَغليّ الشعير المُحَلَّى؛ بيد أنّ وزنَه سُرعان ما أَظهر انْخِفَاضًا فاستبشر أَطبَّاؤه، ورأَوا، في ذلك، الدليلَ على أن كِليَتَيه قد عادتا تُفرِزان إفرازًا طبيعيًّا، وعلى أنّ "النفس الكبيرة" قد أَفلحت، مَرَّةً أُخرى، في الإفلات من براثن القضاء.

وقد حَرِص غاندي على الاشتراك في صَلاة المساء، منذُ اليوم الأَوَّل الذي أعقَبَ صيامَه، فأقلَّه قبضةٌ من أتباعه، على مِحَفَّةٍ، ورفعوه على أَكُفِّهم عاليًا، كي يُتيحوا لمُحبّيه التمتّع "بدارشان" غالٍ، والتملّي من رُؤية زعيمهم المنبَعِث. وقد اندسّ بين الحضور ثلاثةٌ من المتآمرين على حياة المهاتما، جاؤوا يترصّدون حركاته ومواعيدَه، ومعالِمَ المكان الذي يتحرَّك فيه؛ وبعد ساعاتٍ قليلةٍ، عندما أَوصدوا دونَهم بابَ حُجرتهم في الفندق، أجمعوا على اغتياله، في الساعة الخامسة من اليوم التالي، عند مُستَهلِّ صلاة المساء، فعندئذٍ سيكون دريئةً سهلةً، بعد أن تأكَّد لهم أنّ رجالَ الأَمن المبثوثين في "پيرلا هوس"، يُحجِمون عن تفتيش الحضور، نزولاً عند رغبة غاندي نفسِه، بل إلحافه في تلك الرَّغبة.

وقد عاد المتآمرون، في صباح الغد، لتَفَقُّد أَرجاء المسرح الذي سيشهد "جريمة العصر"، ويُحكموا خُطَّتَهم التي كانت تقضي بأن يُفجّر أَحَدُهم قنبلةً عند سور الحديقة، فيمَا يُطلق اثنان الرصاص على غاندي، من نافذة غُرفةٍ تُطلُّ على المِنصّة التي يجلس فيها للصَّلاة، ويَقذِف آخَرُ قنبلةً ثانيةً على تلك المِنصّة، لكي لا يبقى للضحيّة أَيَّةُ فرصةٍ في النَّجاة. كانوا يُدركون أنَّ تنفيذ تلك الخُطّة، قد يُودي بحياة عددٍ من الأَبرياء، ولكن، لم يكن، ثمَّة، مفرٌّ من تلك التضحية، ثَمنًا للقضاء على، "الرجل المسؤول عن مقتل مئات ألوف الهندوسيّين في البنجاب".

ولمّا أَزِف موعدُ التنفيذ، وجيءَ بغاندي، محمولاً على مِحفَّةٍ، إلى منصَّة الصَّلاة، لأنّه كان لا يزال عاجزًا عن السير، كانت قنبلةٌ قد أُخفيت عندَ سور الحديقة، مُعَدّةً للتفجير، واندسَّ سائرُ المتآمرين بين المُصلِّين، غير أَنّ أحد المكلَّفين بإطلاق الرَّصاص من النافذة، تقاعَسَ، في اللحظة الأخيرة، من جرّاء نَوبة تَطيّرٍ مباغتةٍ

انتابته؛ أمّا رفيقُه الذي ولَج الحُجرة، فقد فوجئ بأنّ النافذة تعلو نحو مترَين عن الأرض، وعبثًا حاول الاستعانة بسريرٍ للتسلُّق إليها.

وبعد تلاوة الصَّلَوات وترنيم التراتيل المألوفة، خاطبَ غاندي الجمهورَ، ولكنّ صوتَه كان واهيًا، خافتًا، أشبهَ بالهَمس الرَّقيق، بحيثُ اضطرت الدكتورة سشيلة نجّار إلى ترديد عبارته على مسامع الحضور؛ وفيمَا هي كانت تردِّد قول المهاتما: "مَن عادى المُسلمين كان عدوًّا للهند..."، أشعلَ أحدُ المتآمرين فتيلاً ما لبِثَ أن فجَّر القنبلةَ الخفيَّة عند سور الحديقة، والتي لم يُحدِث انفجارُها سوى دَوِيٍّ أشاع الذُّعر والاضطراب، حتّى بين المتآمرين أنفسهم، ولكنَّه لم يُصِب أحدًا بأذًى، وواصلَ غاندي حديثَه، وهتفَت الدكتورة سشيلة نجار، مردّدةً أقوالَه:

- "**أَيّة ميتةٍ يمكنكم تمنّيها، أَجمل من الموت في غمرة الصَّلاة؟**".

تم أَردَفَ، بكُلِّ ما في صدره من نَفَسٍ، في محاولةٍ لتهدئة رَوع الحُضور:

- "**أنصتوا؛ لا تخشَوا شيئًا، إنَّها أَصداءُ تدريبٍ يقومُ به جُنودٌ، فاجلسوا واهدأوا، ولنُواصِلِ الصَّلاةَ**".

واختتم الصلاةَ، مُشرِقَ المحيّا، طافحًا بالسَّعادة، غير حافلٍ بمحاولة الاغتيال التي تعرّض لها. وفيمَا كان رجالُ الأَمن يقتادون "ماديلال پاهوا"، مفجِّر القُنبُلةِ، كان غاندي يُعلن في حماسٍ:

- "**إنَّني على أُهبةٍ، الآن، للمُضيّ إلى الباكستان؛ ولو أَذِنَ لي الأطبّاءُ والحكومةُ بذلك، لشَخَصتُ إليه في الحال**".

وهرع نِهرو وباتل إلى "پيرلا هوس" هَلِعَين، فقبَّلا المهاتما مهنِّئَين بنجاته" وكذلك فعل جميع أصدقائه؛ وكانت "ادونيا مونتباتن" في طليعة من خفّوا للاطمئنان على سلامته، فمازحها غاندي قائلاً: "**علامَ تهنئتي، وأَنا لم أبرهن على أَدنى بطولةٍ؟**"، ثمّ أضاف: "**لو أنّ أحدًا كان أَطلَقَ عليَّ النارَ عن كثَبٍ، فواجهتُه باسمًا مُردّدًا اسم راما (الله) لكنتُ، حينئذٍ فقط استأهلتُ تكريمكم**".

لم يكن يتخيّل، آنذاك، أنّه، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، سيستأهل حقًّا ذلكَ التكريم! في

اليوم التالي، كان غاندي قد استعادَ من القوة ما مكَّنه من السَّير على قدَمَيه إلى مكان الصَّلاة، وأَعلن، مُشيرًا إلى النَّازح المتَّهم بتفجير القنبلة: "**يجب إلاّ يزدري أحدٌ ذلك الشابَّ المُضلَّل. من المرجَّح أنّه يرى فيَّ عدُوًّا للهندوسيّة، فهو، بالتَّالي، جديرٌ بالشفقة**". ثمَّ أَردف أنّ على ذلك الشابِّ أن يعلَمَ أنَّ من لا يُشاطرونه الرأيَ ليسوا، بالضرورة، أشرارًا، ثُمَّ ناشَدَ مُحرِّضيه أن يكفّوا عن نهجهم، مؤكّدًا: "**ليست تلك هي الوسيلة المُجدية لإنقاذ الهندوسيّة، فالهندوسيّةُ لا تُنقَذ إلاّ بأسلوبي**". وأخيرًا رجا رجال الأَمن إلاّ يُسيؤوا معاملةَ المتّهم.

وشَخَصَ وفدٌ من طائفة السيخ إلى "بيرلا هوس"، فأكّد لغاندي أنَّ الذي اعتدى عليه لا ينتمي إلى طائفتهم، فأَجابهم: "**سيّان إن كان من السّيخ أو من الهندوسيّين أو من المُسلمين، فأنا إنَّما أريد خيرًا لكلّ من اعتدى عليّ**".

واقترح معاون مدير الأمن تشديدَ تدابير الحماية، وتفتيش المشتركين في لقاء الصَّلاة المسائيّة، فأبى المهاتما بحَزمٍ، عادًّا تفتيش المُصلّين انتهاكًا لحرمة الصَّلاة، وهدَّد بالصَّوم حتّى الموت، إن هو شاهد شُرطيًّا بين المُصلّين، وأَضاف: "**رام (الله) هو حمايتي الوحيدة، فإن هو شاء وضعَ حَدٍّ لحياتي، لما استطاع أَحدٌ إنقاذي، حتّى لو استنفرتُم مليونَ رجُلٍ لحمايتي. إنّ قادة هذه البلاد لا يؤمنون باللاّعنف الذي أومن به، ومن ثَمَّ فهم يتخيَّلون أنَّ حَرَسكم ضرورةٌ لازمةٌ. وإنّي لأكرّر أنّ حمايتي الوحيدة هي "راما". ولن أَدعَ قوّات شُرطتكم تنتهك صلواتي الجماعيّة، أو تَحُول دون شُخوص النَّاس إليها. أمّا إذا أَصررتم على مثل تلك التدابير، فسأبارح دلهي، وأحمِّلكم، على رؤوس الملأ، مسؤوليّة رحيلي**". وإذ كان معاون مدير الأَمن خبيرًا بعناد غاندي، فقد عَزَم أن يزيد عدَدَ رجال لأَمن المتنكّرين بزيٍّ مدنيٍّ، وأن يُرافق بنفسه غاندي إلى الصَّلاة المسائيَّة، واتَّخذ كلّ أُهبةٍ لحمايته من أيِّ اعتداءٍ، ولكنّه، بعد أيَّامٍ قلائل، حالت مشاغلُ طارئةٌ دون حضوره، وكان المتآمرون على غاندي قد قرّروا القضاءَ عليه، في ذلك اليوم عينه.

هذا، وكان اعتراف "ماندلال پاهوا"، مُفجِّر القُنبُلة يومَ العشرين من كانون الثاني، قد أَتاح لسُلطات الأَمن الإمساكَ بجميع خيوط المؤامرة على حياة غاندي،

وبحائكيها. ولكن، من جرّاء سِلسلة من الإهمال الذي لم يستطع أحدٌ تفسيرَه حتّى اليوم، ظلَّ المتآمرون أَحرارًا طُلقاء، فاستطاعوا التغلُّب على مرارة الفَشَل الذي انتهت إليه محاولَتهم الأولى، وتجاوُزَها إلى محاولةٍ جديدةٍ أشدّ إحكامًا وحَسمًا.

وتفاديًا لفشلٍ جديدٍ قد يَنجُم عن انعدام التنسيق بين المتآمرين، انتدب "باتوران جودسيه" نفسَه للتَفرّد بإطلاق الرّصاص على غاندي، عن كثَبٍ، يومَ الثلاثين من كانون الثاني ١٩٤٨.

كان يوم السادس والعشرين من كانون الثاني عيدًا وطنيًّا، احتفاءً بالقَسَم الذي تعَهَّد به ملايينُ الهنود، في مثل ذلك اليوم، لثماني عشرة سنةً خلت، استجابةً لنداء غاندي، بخَوض كفاحٍ لا هوادة فيه من أَجل استقلال الهند؛ وللمرَّة الأولى، كانت الهند تحتفل بتلك الذكرى، في بلادٍ غدت فيها أحلامُ غاندي واقعًا ماثلاً.

وكان غاندي نفسُه، في ذلك اليوم، ينعَمُ بشِبه بَعثٍ صِحّيٍّ، فهو الذي كان الأَطبّاءُ، لأسبوعٍ خلا، قد نفضوا أيديهم من إنقاذه، وباتوا لا يتوقّعون له من العيش أكثرَ من ساعاتٍ معدوداتٍ، قد عاد قادرًا على تناوُل طعامه المألوف، وعلى الاضطلاع بمشواره الصباحيّ اليوميّ، الذي كان، في نَظَره، الخُطوةَ الأولى نحو تحقيق حُلمه في المسيرة إلى الباكستان.

وفي أعقاب مشواره، ذلك اليومَ، كان من التفاؤل بحيثُ استدعى، على عَجَلٍ، طبيبتَه الدكتورة سشيلة نجّار، لا من أجل استشارةٍ طبّيّةٍ، بل لكي يُوفدها إلى الباكستان للإعداد لرحلته إليها التي غَدَت حُلمه المُسَيطر، وقد أتاح لها ثلاثة أَيّام لأَداء مُهمّتها، بحيثُ تعود إلى نيودلهي في الثلاثين من كانون الثاني، وتتقدَّم بنفسها موكبَه التقليديّ إلى اجتماع الصَّلاة المسائيّة.

وبمناسبة "العيد الوطني"، وتنفيذًا لرغبة الحكومة، شرَع غاندي، ذلك اليوم، في وَضع دُستورٍ جديدٍ لحزب المؤتمر، يُحدّد أهدافه ودَوره، في مرحلة الاستقلال.

وقد تسنّى له، في ذلك اليوم، عزاءٌ جمٌّ أَفعمَ نفسَه حُبورًا، وخلّف في حنايا صدره تأثيرًا بالغًا؛ ففي ذلك الموعد من كلّ سنةٍ، كان مُسلمو الهند قد أَلِفوا المُثول، جماعاتٍ كثيفةً، في مثل حجٍّ مقدَّسٍ، إلى مسجد "قوّات الإسلام" وهو أقدم جامع في

الهند، مُشادٍ في ضاحية "مرولي" القائمةِ على نحو خمسةَ عشرَ كيلومترًا من العاصمة. وكان من شروط المهاتما لإنهاء صيامه الأَخير، أن يُسمَح لألوف المُسلمين حجَّه، بأعدادٍ غفيرةٍ، في مأمَنٍ من أَيِّ خَطَرٍ يُهدِّدُهم. وقد تيقَّن، في ذلك اليوم، عندما شَخَصَ بنفسه إلى ذلك المسجد، أنّ رغبته قد تحقَّقَت بقدرٍ فاقَ تَصَوُّرَه وأحلامَه، إذ قد احتشد ألوف الهندوسيّين والسيخ عند عتبة الجامع، ليُطوّقوا أعناق الحجّاج المُسلمين بعقودِ الياسمين والفلّ، فيمَا انتشر آخَرون في فناءِ الجامع يوزّعون على الحُجّاج المُسلمين الحلوى وأكواب الشاي؛ ولولا صيامُ غاندي، وما أحدثَه من تحوُّلٍ في أغوار النفوس، لكانوا استقبلوهم بالخناجر والهراوات.

لم يستطع غاندي، حيالَ ذلك المشهد، الإمساكَ عن سَكب عَبرات التأَثُّر والفرَح، وهرع أَئمّة الجامع، فدعوه لمشاركتهم الصّلاة، تعبيرًا عن شكرهم، بل دعوه إلى مخاطبة المُصلّين، وأَذنوا لعكّازتيه: "مانو" و"أبها" بمرافقته، على أنّهما، "ابنتا غانديجي". وقد بَلغ التأَثُّرُ بغاندي كلَّ مَبلغٍ، فناشدَ الهنود أجمعين أن يعيشوا كـإخوةٍ. "**فحتّى لو كان كلٌّ منا يعيش على حِدَة، أَلسنا أَوراقَ شجرةٍ واحدة؟**".

ولما عاد إلى "بيرلا هوس" وقد أعياه الانفعال، استسلم إلى استرخاءٍ مُريحٍ، وقد شاعت على قَسَمات وجهه أماراتُ الاطمئنان والسَّكينة، وشَكر للربّ تنجيتَه من قنبلة "ماندلال" بحيثُ أُتيح له أن يَنعَم بذلك العزاءِ الغامر. وكَتب ملاحظةً أنفذَها إلى أحد أصدقائه، قال فيها:

"**رحمةُ الله هي التي أنقَذتني، ولكنَّني أَظلُّ متأهّبًا لتلبية ندائه، عندما تأذن الساعة. ومن يدري ما ينطوي عليه الغد؟**".

لأشهرٍ خمسةٍ خلت، كان قد توقَّفَ غاندي في نيودلهي التي فرَشَت الجُثَثُ المشوّهَةُ شوارعَها، وتَمترس، في منازلها، عَدَدٌ غفيرٌ من سكّانها المذعورين، واستحوذَ الاضطرابُ والحَيرة على حُكّامها. وها هي ذي، اليومَ، عاصمة الهند، تفيءُ إلى سُكونها، فليس، بعدُ، ما يُمسك الرسولَ عن الرَّحيل، الذي ضرب له موعدًا في الثالث من شباط، على أن يتريّث زهاءَ عشرة أيّامٍ في "أشرم ورده"، ليُصيب قِسطًا من الاستجمام قبل الانطلاق إلى تحقيق حُلمه الأكبر: المسيرة إلى الباكستان.

يومُ التَّاسع والعشرين من كانون الثاني كان حافلاً بالنَّشاط واللِّقاءات: غَزلٌ، وتدرُّبٌ على كتابة اللُّغة البنغاليّة، وتدبيجُ طائفةٍ من الرَّسائل، وحديث دعابةٍ مع أنديرا، ابنة نهرو، ولقاءاتٌ مع صحافيّين، منهم الصحافيّة الأميركية "مرغريت بورك هوايت" التي أهداها صورةً له، وأبلَغَها أنَّ على أميركا الكفَّ عن إنتاج القنبلة الذرّيَّة، مؤكّدًا أنَّ اللاّعُنف هو القُوَّةُ الوحيدةُ التي لا تقوى القنبلة الذريَّة على تحطيمها.

إلاّ أنَّ نغمةَ نشازٍ عكّرت صَفو ذلك اليوم، عندما قابل غاندي وَفدًا يضُمّ هندوسيّين وسيخًا، كان لصوم غاندي الفضلُ في إنقاذهم من الذَّبح، وقبل أن يتمكَّن المهاتما من التعبير لهم عن تعاطفه، بادره أحدُهم بالشَّتيمة، صارخًا: "كفاكَ ما سبَّبتَهُ لنا من ضُرٍّ، فارحل عنّا، ارحل وتوارَ في إحدى مغاور الهيمالايا".

في ذلك المساء، رانت يداه بثِقلٍ على كاهلَي "مانو" و"أَبها"، وهو في طريقه إلى لقاء الصَّلاة، حيثُ أعلن بصوتٍ يخنقُه الحُزن، مُشيرًا إلى لقائه مع وفد النازحين: **"لمن يتوجّب عليَّ الإصغاء؟ البعض يرجونَني المكوثَ هنا، وآخَرون يناشِدونني أن أَرحل، البعضُ يُنحون عليَّ باللاّئمة والشتيمة، وآخَرون يغمرونني بالثَّناء. فما الذي يتعيّن عليَّ عمله؟، إنّني أنفذُ مشيئةَ الله، وأَنشُدُ السِّلمَ في قلب الفوضى"**. ثم بعد فترةِ تريُّثٍ أَردف: **"الهيمالايا، في نظري، هي هنا"**.

مساءَ ذلك اليوم، انتهى غاندي من صياغة دستور حزب المؤتمر الذي سيغدو بمثابة وَصيَّته السياسيّة، وعندما فرَغ منه في الساعة التاسعة والربع مساءً، انتابه الدُّوار، فاستلقى، وطفقت "مانو" تُمَسِّد رأسَه بالزَّيت. لقد كانت تلك الفترات المسائيّة الوجيزة، التي تسبقُ نَومَه؟ هي الأَوقات الأَثيرة العَذبةُ لدى أَخصّائه، إذ إنَّه، بعدَ زحمةِ النَّهار، كان يتفرَّغ لهم، وحدَهم، مُسترخيًا، سعيدًا، مقيّمًا نتائجَ يَومه، ناثرًا دعاباته ومَرَحه.

ولكنّه، في تلك اللَّيلة، لم يكن مَرِحًا، فَصدى النَّقمة في صوت المهاجر الذي شتمَه كان يُؤلمُه، ودستورُ حزب المؤتمر الذي فرَغَ لتوّه من صياغته، كان يُبرز البَون الشاسعَ بين المثُل التي كان يريد للهند أن ترقى إليها، وتلتزمَ بها، وواقع الفساد الذي أَخَذَ يهوي إليه الحُكّام، وبعد بُرهة صمتٍ أنشد قول شاعرٍ من الله آباد:

"زائلٌ هو الرَّبيعُ في خميلة الدُّنيا،
فبادرْ إلى تأمُّل منظره الجَلَل،
قبلَ تواريه".

استهلّ المهاتما يومَه الأخير، وِفقًا لمألوف عادتــه، بالاســتيقاظ قُبَيــل الفجــر، وبالصَّلاة، وقد اختارَ، في ذلك اليوم، الثلاثين من كانون الثاني، تلاوةَ النشيد التــالي من "الباغافــادجيتا":

"الموتُ لكلّ مولودٍ مُحتّم،
"ومحقَّقٌ الانبعاثُ لكلِّ مائتٍ،
"فعلامَ الإشفاقُ أَمام ما لا محيدَ عنه؟".

ثم انتقل، مستندًا على كتف "مانو" إلى حجرة عملــه، وجلــس إلــى المنــضدة الواطئة، التي كان يستخدمها مكتبًا، وقبل الشُّروع بالعَمَل، طَلَب من "مانو" أن تُدمدِم له "نشيد الصليب" الذي كان به كَلِفًا، وردَّد معها البيتَ القائل:

"سواءُ أَرهقك الجُهدُ أم لا، يا أَخي، لا تتوقَّف".

ثم اندفع يعملُ، بلا توقُّفٍ، سعيدًا باسترداده بعض عافيته، والقُدرةَ على الــسَّير بمُفردِه بضع خطواتٍ، ما كان ينهض دليلاً على أنَّ الله ما زال يُعدُّه لمُهمّاتٍ جسامٍ.

واستقبل، في ذلك النهار، عَدَدًا غفيرًا من الزّائرين، غير أنَّ المُهمّة الكبرى التــي استقطبت جُهده، والتهمت وقتَه، تمثَّلت في التوفيق بين رفيقَي جهاده نهرو، ونائبه، وزير الداخليّة، باتل، فقد كان كلٌّ منهما يتمتّع بشخصيَّةٍ قويّةٍ حادَّةٍ؛ بيد أنّ نهرو كان اشتراكيًّا، مِثاليًّا، جَنوحًا إلى الحُلم، فيمَا كان باتل واقعيًّا، صُلبًا، لا يلين، وكــان الــصِّدامُ بينهمــا متواترًا، ممَّا أَفضى بباتل إلى تقديم استقالته. ولكنّ غاندي كان يرى في كلَيهما عُنصرًا أَساسيًّا في حكومة الاستقلال الأولى، وفي تعاونهما، ضرورةً لازبةً؛ وقد تناقشَ غاندي وباتل في ذلك الأَمر مُطوّلاً، بعدَ ظُهر ذلك اليوم، وتمادى بينهما النقاش وهما في غفلــةٍ عن انسياب الزَّمن. وفي تلك الأَثناء تناولَ غاندي عشاءَه الأَخيرَ، وقوامُه كــوبٌ مــن حليب الماعز، وكوبٌ من عصير الفواكه، وبعض البرتقال. ثمَّ واصل نقاشَه مع باتــل،

وهو دائبٌ على مِغزَلِه الخشبيّ؛ وتجاوَزَتِ الساعةُ الخامسةَ مساءً. وللمرَّة الأولى في حياة غاندي، أَذِنَ موعدُ الصَّلاة، وهو عنه غافلٌ. وهمَّت "مانو" و"أبها" بلَفت نَظَر "بابو" إلى ذلك، ولكنَّهما تريَّثتا فترةً، إذ تبيَّن لهما خطورةُ حديثه مع باتل؛ إلاّ أنَّهما كانتا فريسةً للحَيرة، فهما قد طالما عَهِدتا في "بابو" حِرصًا شديدًا على التقيُّد بالمواعيد، ولا سيَّمَا مواعيد الصَّلاة الجماعيّة؛ وعندما أَشارت عقارب الساعة إلى الدقيقة العاشرة بعد الساعة الخامسة، أومأَت "مانو" إلى المهاتما باستفسارِ ساعَتِه، وحدَّقَ غاندي بساعته العتيقة، وفي الحال، قَطع حديثَه مع باتل، وهبَّ واقفًا، وهو يقول له:

– "آه! **أستميحكَ عُذرًا. لقد تأخَّرتُ عن موعدي مع الربّ**".

ذلك التأخير كان قد مدَّ عُمرَه عشرَ دقائقَ، فالقاتل كان، منذُ قبل الساعة الخامسة، في مقدَّمة المصلّين، يترقّب وصوله.

واتَّكأ غاندي على كَتِفَي "عكّازتيه"، وكانت "مانو" وفقَ عادتها تحمل أَدوات "بابو": نظّارتيه، ودفترَ خواطِره، ومبصَقَته النحاسيَّة. وقد تميَّز ذلك اليومُ بغياب عنصرَين أساسيَّين من عناصر موكب غاندي التقليديّ، فالدكتورة سشيلة نجّار لم تكن قد عادَت، بعدُ، من الباكستان، ومُعاوِنُ مدير الأَمن كان قد استُدعي، لأمرٍ طارئٍ، إلى مقرّ القيادة. وارتأى غاندي، توفيرًا للوقت، أن يُعدِّل مسيرتَه المعتادة، وينتهي إلى منصّة الصَّلاة، عَبر الحديقة.

كانت أشعَّةُ الشَّمس الغاربةُ تُحيط بهالةٍ قدسيَّةٍ وَجهَ المهاتما عندما واجه الجمع الواقف، في انتظاره، وقبلَ صعوده الدَّرجات الثلاث المُفضِيَة إلى المِنَصَّة، نَزَع يدَيه عن كتفَي "عكّازتيه"، وضمَّهما محيّيًا المُصلّين الذين كانوا يُتَمتمون في خشوعٍ: "بابوجي، بابوجي".

وفجأةً، انسلّ من صفوف المُصلّين، رجلٌ بدينٌ، يرتدي زيًّا عسكريًّا، كان القاتلُ قد ابتاعه وارتداه للتَّمويه؛ وخطا في اتّجاه المهاتما، وراحتاه مضمومتان تعبيرًا عن التّحيّة، في حين كان يخفي بين طيّاتهما سلاحَ الغَدر، مُسدَّسًا من طراز "بيريتا"، كان قد جَهِد كثيرًا في العُثور عليه.

وتخيَّلت "مانو" أنَّه أحدُ المُعجبين الذين ألِفوا الجثوَّ عند أَقدام غاندي للتبرُّك بهما،

فاعترضته قائلةً:

- "**يا أخي، لقد تأخَّر باپــو عشرينَ دقيقةً عن موعده**".

وفي تلك اللَّحظة دفَعَها "ناتوران جودسيه" بعُنفٍ، فرمى أرضًا أَدواتِ المهاتما التـــي كانت تحملها، وما كادت تُكبّ لالتقاطها حتّى فاجأها دويُّ ثلاث طَلَقات مُـسدَّسٍ، فهبَّــت مذعورةً، ورأت الجاني مُصوِّبًا مسدَّسَه نحو صَدر "باپــو"، حيثُ ارتسمت على الخـــادي النَّاصع البياض بقعةٌ قانيةٌ حارَّةٌ، وظلَّ المهاتما ضامًّا يديه، مبتسمًا، وإحدى قدمَيــه تهــمُّ بخُطوةٍ جديدةٍ نحو المُصلّين، ثمّ تمتَمَ "**إيه، رام**" (يا إلهي)، وهوى ببطءٍ على العُشب، ويداه ما فتئتا مضمومتَين، تحيّةً لقاتله، ولجموع المصلّين، وتقدمةَ فداءٍ لجميع طوائــف شــعبه. وكانت الساعةُ العتيقةُ المتدلّية على خَصره تُشيرُ إلى الخامسة، والدقيقة السَّابعةَ عشرة.

الغائب الحاضر

ذُهِلَ مونتباتن عندما نمى إليه نبأُ اغتيال المهاتما، ولكنَّه، بدافع واقعيّته، استفسر مُخبرَه: "**من القاتل؟ أهو هندوسيٌّ أَم مُسلمٌ؟**". ولكن ما استطاعَ أحدٌ إنباءَهُ. وانــدفع إلــى "پيــرلا هوس"، وفيمَا كان يشقُّ دربَه بمشقّةٍ، صاحَ أحدُ الهندوسيّين، وقد امتَقع وجهُه حِقدًا، قــائلاً: "مُسلمٌ هو الذي قتل غاندي". فاعترضَ مونتباتن بعُنفٍ وعصبيّةٍ، وقال بأَعلى صوته:

- "إنَّك مجنونٌ حقًّا، وأنتَ تعلم عِلمَ اليقين بأَنّ الجاني هندوسيٌّ".

تلك الصيحةُ العفويّة التي انطلقت من صدر مونتباتن، قبل اطّلاعه على حقائق الأمور، كانت تعبِّر عن حَدسٍ ثاقبٍ، وهاجسٍ مُروِّعٍ، أَماطَ مونتباتن النقابَ عنه عندما أفضى لأَمين سرِّه: "**لو كان القاتلُ مُسلمًا، لنشبت مجازِر لم يشهَد العالَمُ، قطُّ، لضراوتها مثيلاً**".

وفي السَّاعة السادسة، من ذلك المساء، وضعت إذاعة الهنــد حَــدًّا للتــساؤلات والهواجس، عندما أَذاعت بلاغًا مُقتضَبًا جاءَ فيه: "**لقد اغتيل المهاتما غاندي، فــي نيودلهي، في الساعة السابعة عشرة والدقيقة السابعة عشرة، من بعد ظهر اليوم، وقاتِلهُ هندوسيٌّ**".

لقد نجت الهند من المجزرة، ولكنّها لم تنجُ من وَقع الفاجعة الهاصــرة، ومــن الأَسى والدُّموع.

كان مُحيًّا المهاتما الصريع يعكِسُ سكينةً عميقةَ الغَـور، وهـو مُـسَجًّى فـوق سريره، إلى جانب مِغزله الذي كان قد ودَّعه قبل نحو ساعةٍ فقـط، وَسـط روائـح البخور والمسك، وتراتيل النِّسوة اللاتي كبتنَ مشاعرَ حُزنهنَّ، ليُؤنسنَ روحَ الـشهيد الغالي بمقاطعَ من "الباغاڤـادجيتا".

وفيمَا كانت "مانو" تداعب بِرِفقٍ، جبينَ "باپـو" الغـالي، كـان نهـرو يجلـس القُرفُصاء، وقد أَسندَ إلى الجدار ظهرَه، وأَطلق لدموعـه العنـان، و"باتـل" يُحـدِّقُ مصعوقًا، مذهولاً، في ذاك الذي كان نقاشُه معه، قَبلَ لَحَظاتٍ، قد أَرجأَ، عشرَ دقائق، موعدَه مع القَدَر، ومع الربّ.

وبينمَا كان مونتباتن يذُرُّ على الجثمان قبضاتٍ من بتَلات الورد، كان يترسّخ في أَعماق نفسه اليقينُ، بأنَّ "**المهاتما غاندي سيحتلُّ، في التاريخ، مكانةً تحاكي مكانـة بوذا والمسيح**".

وهرع "ديـڤـا داس"، ابن غاندي الأَصغر، وانكبَّ على الجثمان الفاتر، الـذي احتضنت "أَبها" رأسَه، في شبه عبادةٍ، ضمًّا وتقبيلاً، وقد أَفاد، فيمَا بعد: "**لقد سـهرنا عليه اللَّيلَ كلَّه. كان محيّا والدي يعبِّر عن سُكونٍ عميقٍ، وكانت هالةُ النور الإلهيّ التي غمرت جثمانه من الرقّة، بحيثُ بدا لنا أَنّ الاكتئاب انتهاكٌ لحُرمته القُدسيّة**".

وارتأى كلٌّ من مونتباتن ونهرو وباتل أن يُحنَّطَ الجُثمانُ، ويسجّى فـي قطـارٍ خاصٍّ يجوبُ جميعَ أرجاء الهند، كي يتسنّى للشعب الذي قد طالما أحبّـه المهاتمـا وخَدَمه، أن ينعمَ بآخِرِ "درشان" ويتملّى، متبرّكًا، من رؤيته. غير أنّ أَمين سرّ غاندي "پياريلال نجّار" بادر إلى حَسر اللِّثام عن وصيَّة الفقيد القاضية بحرق جثمانه، وفقًـا للتقاليد الهندوسيّة، في الساعات الأَربع والعشرين التي تلي وفاتَه.

وكان لا بُدَّ من تفويض أَمر تنظيم الجنازة إلى الجيش، بإشراف مونتباتن الـذي تنبّأ: "**ستشهدُ شوارع نيودلهي، غدًا، حُشودًا لم تشهد، قطُّ، مثلَها من قبل**".

لقد كانت الرَّصاصات الثلاثُ التي اخترقت صدرَ غاندي وبطنَه، قد أَصابت قلب الهند في الصَّميم، فعراها الجَزَع، وبَهَظَتها الفاجعة، عندما نمـى إليهـا أَنّ رسـول

السلام الذي قد طالما أحبَّ أعداءَه، والذي كان عاجزًا عن إِيذاءِ حَشرَةٍ، تعرَّض للقتل بيد أحد مواطنيه، وأَبناء دينه.

ولا غَروَ أنَّه ما، قطُّ، استفزَّ موتُ إِنسانٍ، في التاريخ المعاصرِ، مثلما استفزّ موتُ غاندي من حُزنٍ صادقٍ وشاملٍ.

لقد كان المهاتما، يومَ مصرعه، كما كان أَبدًا، فردًا بسيطًا، لا ثروةَ له ولا أَطيان ولا لقبَ رسميًّا، ولا مركزَ ولا وِسامَ، لم يتميّز بتفوّقٍ علميٍّ، ولا بمؤهّلاتٍ فنّيّةٍ بارزةٍ؛ ومع ذلك، بكاه، بكلِّ أوتار قلوبهم، جميع أفراد شعبه الذين فقدوا فيه "بابو": الأبَ والأَخَ والمُرشِدَ والمُصلحَ والمُصالح، ناشرَ الحبّ والوئام، صانعَ الكرامة ومهندسَ الاستقلال. وسارع زعماءُ الأَرض ورؤساءُ الدُّول وقوّادُها إلى تكريم ذلك الرجل النحيل الأسمر، ابن الثامنة والسبعين، القدّيس الذي مارس السياسة بدافع الخدمة، فنهض بها إلى مراقي القداسة، وغدا وجدان الإنسانيّة كلّها جمعاء.

وقد عبّرت الهند عن حزنها تعبيرًا غنيًّا برموزه، جديرًا، وحده، بغاندي؛ فعلى حدّ ما كان المهاتما قد استهلّ كفاحه من أجل استقلال الهند، بحمل البلاد بأسرها على ممارسة "هارتال"" شاملٍ، كان حداد الهند عليه، يوم "هارتال" آخر، يوم صومٍ وصلاةٍ وتأمّلٍ. ففي طول البلاد وعرضها لم تُشعل نارٌ لطهو طعامٍ، وأُقفلت الدكاكين والمقاهي والمصانع ودور السينما؛ وفيما خلا أجهزة الراديو التي كانت ترجّع التراتيل التي كان الراحل كَلِفًا بسماعها، وكأنّها تريد أن تُؤنس بها رحلته الأخيرة، ومنها الترنيمة الهندوسيّة "رام رام" (يا إلهي)، وترنيمة الصليب المسيحيّة، كان الوجوم يخيّم على عموم أهل الهند. وقد تدفّق على نيودلهي سكّان قرى بأكملها لتشييع صانع كرامتهم واستقلالهم.

وقد دفع القنوط بعشرات اليائسين إلى القذف بأنفسهم في اليمّ، وتردّد على الألسنة تساؤلٌ حافلٌ بالحسرة واليأس، جال في خواطر الكثيرين في العالم: "**ها قد رحل المهاتما، فمتى سيُخلّف الدهر مثله؟**".

وفي الباكستان حطّم ألوف النسوة أساورهنّ الزجاجيّة تعبيرًا عن قنوطهنّ.

واضطرّ الجيش إلى ضرب طوقٍ على مقرّ حزب "هندومها سبها" الذي تآمر

على اغتيال غاندي، ومقرّ زعيمه "ساڤـاركار"، لحمايتهما من غضبٍ جـامحٍ كـان يهدر في صدور فئاتٍ غير قليلةٍ.

وغشت الجماهير المندفعة حدائق "بيرلا هوس" حيث صُرِع المهاتما، مقتلعةً كلّ زهرةٍ فيها، بل كلّ عُشبةٍ، لتحتفظ بها ذخيرةً غاليةً، وجأرت الجمـاهير المتراصّـة خارج المنزل، مطالبةً بفرصة وداع "نفسها الكبيرة"، فعُرِض النعش، مـائلاً، علـى شرفةٍ عالية، وقد غطّت الجثمان بتلاتُ الورود والياسمين، وأُشعِل، من حول رأسه، خمسةُ قناديل، رمزًا للعناصر الأربعة: النار والماء والهواء والتراب، والنور الـذي يجمعها كلّها. وأُتيح للشعب الذي بادله غاندي الحبَّ، وبذل في سبيله حياته، أن يظفر منه "بدرشان" أخير.

وطوال ساعاتٍ، ظلّت أمواجُ الجموع تتدفّق واجمةً، محطّمـة الـنفس، ثكلـى، وهي، بعدُ، عاجزةٌ عن استيعاب الحدث الجلل.

بعد منتصف الليل أُنزِل الجثمان إلى الحجرة التي أَلِف غاندي المكـوثَ فيهـا، وانفرد بالسّهر عليه أفراد أسرته، وقبضةٌ من أَصدقائه المقرَّبين الـذين قـد طالمـا لازَموه في أمانةٍ، وشاطروه ساعاتِ مجدِه، وأحزانَ أَيّامه الأَخيرة. وعنـد الفجـر، أَزِفَت ساعةُ الوداع الممزِّق، وبدأت طقوس إعداد الجثمان للحَرق، فنُزِع عنه شـالُه الذي قد تميّز أَبدًا بنظافةٍ ناصعةٍ، إلاّ أنّه في ذلك اليوم تلطّخَ بكتل الدم الجافّ. ودَهَنَ أَحدُ رجال الدِّين صدرَه بمعجون الصَّندل ومسحوق العُصفُر، وطبَعت "مـانو" علـى جبينه دمغةً قانية، ثُمَّ، بمساعدة "أبها" رسمت حولَ رأسه عبارة "هي، رام" (يـا الله)، بورَقِ الغار، وعندما أَذِنت الساعة الثالثة والنصف – موعد استيقاظ غاندي، وصلاته الصباحيَّة –، تحلَّق الحاضرون حولَ الجثمان، وأَنشدوا، بأصواتٍ تخنقها العَبَـراتُ، نشيد الوداع:

"اِلبس الترابَ، فستكون والترابَ واحدًا،

"استحمّ وارتدِ ثيابًا قشيبةً،

"حيثُ أنتَ ماضٍ، مكانٌ لا رجوعَ منه".

وقبل أن يعود الجثمان مُلكًا مُشاعًا للجماهير، حَرِص "ديــڤــاداس" غاندي على تكريم والده برمزٍ يروق له ويُرضيه؛ فإذ كانَ يعهَدُ منه نُفورًا مــن تقليــد المــوتى بأَطواق الزهور، طوَّق عنق والده بالقِلادةِ الوحيدةِ التي كان من شأنه قبولُها، والتــي كانت تليق بمُواكبته في رحلته إلى الأَبديّة، قلادةٍ مؤلّفةٍ من كُتَلٍ قطنيّةٍ صغيرةٍ، مــن تلك التي كان، عصرَ ذلك اليوم المشؤوم، يغزلُها المهاتما.

في تلك الأثناء، وآناء اللَّيل كلِّه، كانت أَمواجُ الجماهير لا تنفكُّ تتكــاثف حــول "بيرلاهوس" ملتمسةً "الدرشان" الأَخير، بين النحيب والزَّفَرات. فأعيد الــنّعش، عنــدَ شُروق الشمس، إلى الشُّرفة العالية، كي يتملّى الشعبُ المفجوعُ من مشاهدة وجهِ قائده الحبيب، حيثُ ارتسمت سكينةٌ عميقةٌ. وظلَّت الجماهير تحاول تخليدَ ذلك المشهَد في مخيِّلتها، حتّى الساعة الحادية عشرة، عندما وصل ابن غاندي "رانداس"، قادمًا مــن مدينة "تحبور" في المقاطعات الوُسطى. حينئذٍ، أُنزِلَ النَّعشُ من جديدٍ، واشترك ابنــا غاندي، وعكّازتاه مانو وأَبها ونهرو الذي قرَّحَ البكاءُ عينَيه، وباتل المصعوقُ، فــي الطُّقوس الأَخيرة، فلفّوا الجُثمان بأغطيةٍ بيضاءَ وحمراءَ، للدّلالة على أنّ الراحل قــد عاش ملءَ حياته، ورحلَ إلى الأبديّة بلا تحسُّرٍ، ثمَّ دثَّروه بأبهى ما يُمكن أن يتزيّا به أَبو الأمّة: علَم الاستقلال.

ومن سخريات القَدَر أن الضَّابط البريطانيّ الذي أَشرفَ على تنظــيم الجنــازة، كان، هو نفسه، قد كُلِّف بإعداد محرقة غاندي، سرًّا، عندما صام واحــدًا وعــشرين يومًا، أثناء سَجنه الأخير، عام ١٩٤٢.

ورُفِعَ النعشُ على منصّةٍ مُشادَةٍ فوقَ شاحنةٍ، ولكن، تماشيًا مع بُغــض غانــدي للآليّات الحديثة، لم تُسيَّر الشاحنةُ بواسطة محرِّكها، بل قام بجرّها مئتا جنــديٍّ مــن مختلف القوّات، مُستعينين بحبالٍ غليظةٍ؛ وقد تقدَّم الموكبَ أربعُ مصفَّحاتٍ، وفرقــةُ خيَّالةٍ، منتقاةٌ من قدامى حَرَس نائب الملك، وكانت تلك لفتةَ تقديرٍ من مونتباتن، لذاك الذي قد طالما سامته بريطانيا المهانة.

وتدافع وراءَ الموكب نحو مليُون ونصفٍ من المشيّعين: حَــشْدٌ مــزركشٌ مــن الأديان والأزياء والطبقات، جمَعهم حزنٌ واحدٌ، وشعورٌ مشتركٌ بفداحــة الخــسارة؛

وامتدّ الموكب إلى ما لا نهاية فبلغَ طولُه نحو أربعة كيلومترات وسار طوال خمس ساعاتٍ، مجتازًا نحو تسعة كيلومترات، هي المسافة التي تفصل "بيرلا هوس" عن نهر "يُمنى"، حيث نُصِبَت المحرقة. وكان الموكب يشُقُّ طريقَه بعُسرٍ، وَسط حَشدٍ من المتفرّجين الذين انتظموا على جانبَي الطَّريق، وأَربى عددُهم على المليون متفرِّجًا، وكان سَوادُ المُشيِّعين متَّشحين بأَلبسةٍ بيضاء.

وفي الجوِّ رافقت موكبَ الجنازة ثلاثُ طائراتٍ من طراز "داكوتا"، كانت تنخفض، بين الفَينة والفَينة، لتُلقيَ على الرَّاحل تحيّةَ وداعٍ، وتُمطِرَهُ بوابلٍ من بَتَلات الورد.

وعندما رفع ابنا غاندي وذووه النعشَ على أكفِّهم لوضعِه فوقَ المحرقة، استولى على مونتباتن، الذي كان في طليعة الموكب وَسط مئةٍ من كبار الشخصيّات السياسيّة والدبلوماسيّة، هاجسٌ مروِّعٌ، وشعرَ بأَنّ مدًّا بشريًّا، عارمًا قد أَخَذ يندرئ من خلفهم، محطِّمًا طَوق حمايةِ الشُّرطة، وأنّ ذلك المدّ كفيلٌ بدفعه ورفاقه، أَحياءً، إلى نيران المحرقة، قبل أن يصل إليها جثمان غاندي، فأَوعزَ إلى رفاقه أن يتوقَّفوا، على بُعد عشرين مترًا من المحرقة، ويجلسوا أرضًا، تفاديًا لذلك الخَطَر الدَّاهم.

كانت الساعة قد تجاوَزَت الرابعةَ مساءً، عندما أَلقى ابنا غاندي جُثمانَ والداهما فوق المحرقة، ووجهُهُ متَّجهٌ شطرَ الشمال، وفقًا للتقاليد الهندوسيّة، وحينئذٍ تدافعت الجموع صاخبةً، على نحو ما توجّس مونتباتن، وكلٌّ يحاول قَذف الجُثمان بوردةٍ أو لمس النعش، أو رفد المحرقة بحَطَبةٍ جاءَ بها، أو التزوّد من المهاتما بنظرةٍ أخيرةٍ.

وإذ كان لا بدَّ من الإسراع قبل غروب الشمس، استهلّ ابنا غاندي طقوس الحرق برشّ الجثمان بمزيجٍ من الزُّبدة السائلة وزيت جوز الهند، ودُهنِ الكافور، والمساحيق الطَقسيّة، فيمَا كان الكهنةُ المُتسربلون بحُلَلٍ عُصفُريّة اللَّون يتلون ترانيم هندوسيّةً؛ ثُمَّ دار "رامداس غاندي" خمس مرّاتٍ حولَ المحرقة قبل أن يُلقيَ فيها مشعلاً اقتُبست نارُه من شُعلةٍ لا تنطفئ، متّقدةٍ، أبدًا، في هيكل الأَموات. وهبَّت أَلسنة اللَّهب الأُولى في حَطَب الصندل، فتعالت أَصواتٌ منشِدَةٌ:

"قُدني من الوَهم إلى الواقع،
ومن الظُّلمات إلى النُّور،
ومن الموتِ إلى الخلود".

وما إن تسامت سُحُب الدُّخان حتّى ماجت الجماهير، واندفعت هائجةً نحو المحرقة؛ وشوهدت مئات النّسوة تنتزعنَ شعورهنَّ وتُوَلوِلْنَ، وتُمزّقنَ "سواريهنّ"، وبعضُهنّ حاولنَ كسر طَوق الشرطة، ليُقدّمن أنفسهنّ طَعمًا للنّار، تضامنًا مع الفقيد، وفقًا لتقليد انتحار الأَرامل، وكدنَ يَجرفنَ إلى انتحارٍ قَسريٍّ، مونتباتن ونهرو والشخصيّات الرسميّة القابعة في مقدَّمة الموكب.

وقد أسهمت رياحُ كانون الصقيعيّة في شبّ أَلسنة اللَّهَب، والارتقاء بها عاليًا، فامتزجت بأشعّة الشَّمس الغاربة، وما عتَّم أن توارى، في طيَّاتها، وجه غاندي، إلى الأَبد؛ ومثلَ هزيم الرَّعد، تردَّدت صيحاتُ وداعٍ مفجوعةٌ، من حناجر هندوسيّين وسيخٍ ومُسلمين وأَجانب، هتفت مُؤتَلِفةً: "**المهاتما غاندي أصبح خالدًا**".

طوالَ اللَّيل ظلَّت النيران تلتهم الجثمانَ، فيمَا مئاتُ ألوف المُشيّعين كانوا يمرُّون في صَمتٍ وأَسًى وخُشوعٍ أمامَ رُفات نبيّهم؛ وفي عداد الذين سهروا قرب المحرقة، واجمين، كان رئيس وزراء الهند، نهرو، الذي استحوذَ عليه شعورٌ مُرهِقٌ باليُتم الروحيّ. وعندما أَشرقت الشمس، ألقى فوقَ الجمر الهامد باقةَ وردٍ، وخاطبَ، للمرّة الأَخيرة، من كان له بمثابة الوالد، متمتمًا: "**باپو، إليك منّي بضع زهراتٍ، ما زلت، اليومَ، أستطيع أن أقدّمها لرفاتك؛ ولكن أين سأمضي غدًا، وإلى من؟**".

لقد استغرق تحوُّلُ النَّار إلى رمادٍ سبعًا وعشرين ساعةً، وعندئذٍ احتفل الكَهَنةُ وأقرباءُ غاندي، ونخبةٌ من أَصدقائه بجمع رماده، وبقايا عظامه التي نَجَت من التهام النار، وقد لملموها في خُشوعٍ وعنايةٍ، وأودعوها كيسًا من القطن المنسوج يدويًّا، ووجدوا بين طيّاتها رصاصة مسدَّسٍ. ثم غُسِلت بقايا العِظام بمياه نهر "يمنى"، وأُودعت وِعاءً نحاسيًّا طوّقه "رامداس غاندي" بعقدٍ من الفلّ والياسمين، ثمَّ وضعه في سلّةٍ مفروشةٍ ببَتَلات الورد، وضمّه إلى صدره، في حنانٍ، وعاد به إلى "پيرلا هوس".

في الساعة الرابعة من صباح الحادي عشر من شباط، انطلق من نيودلهي قطارٌ خاصٌّ قِوامُه خمسُ عرباتٍ من الدَّرجة الثالثة، تلك التي كان غاندي وفيًّا لها طوال حياته، وقد ازدانت العربةُ الوُسطى منها بالورود التي غَشَت أَرضَها وسقفَها وجدرانها ونوافذَها لتُؤنس رُفات المهاتما، الذي وقف على حراسته أبناؤه وأصدقاؤه المُخلصون.

وبتُؤَدَة، وسط سياجَين متقابلَين من ملايين المواطنين المفجوعين الذين اصطَفّوا على جانبَي السكّة الحديديّة، وعلى طول ستّ مئةٍ وخمسة عشر كيلومترًا، جاز القطار من نيودلهي إلى موقعٍ على مقربةٍ من أَحمد آباد، تمتزج فيه مياه نَهْرَي "يمنى" و"ساراوسواتي" الرقراقة، بالمياه الموحلة التي يتدفّق بها نهر "الغانج" المقدّس. وقد اختير ذلك المكانُ الذي تُوليه التقاليد الهندوسيّة قداسةً فريدةً، كي يُذرّ رفات المهاتما غاندي، في لُججه.

ويوم الثاني عشر من شباط، حُمل الرفاتُ فوقَ عربة جنازةٍ إلى الشاطئ، وسط حشدٍ كثيفٍ ضمّ ملايينَ المُشيِّعين، ثم نُقِل الرّفات إلى عربةٍ برمائيّةٍ عسكريّةٍ، بدت وكأنَّها حديقةُ ورودٍ، استقلّها أيضًا ابنا غاندي، و"عكازتاه" مانو وأبها، وباريلال وسشيلة نجّار، والشاعرة نايدو، ووزير الداخليّة باتل، ونخبةٌ من الأصدقاء والمقرّبين، فيمَا كان نهرو مُتَشنّج القبضتَين، مُسنِدًا ذَقنَه إلى صدرِه، يسير واجمًا خلفَ العربة، على الشَّاطئ.

وعلى طول كيلومتراتٍ كان عشراتُ أُلوف المواطنين الهنود، الذين عفّروا جباهَهم بالرَّماد، وبمعجون الصَّندل، يسيرون في الماء ليكونوا أدنى قربًا من الرفات ولينعموا بمشاركةٍ صُوفيّةٍ معه.

ولمّا بلغ الموكب ملتقى الأَنهُر الثلاثة، ملأ "رامداس غاندي" الوِعاء النحاسيّ الذي ضمّ رُفات والده بماء "الغانج" المقدّس، وبلبَن بقرةٍ مقدَّسةٍ، وخضّ الوعاء بتُؤَدةٍ، فيمَا كان الحضور يرنّمون:

"أيّتها النفسُ القدّيسة، فليكن الهواءُ والنار رفيقَين بك، ولتُهَيِّئ لك لُجَج جميع الأنهر والمحيطات أن تخدمي، في الخلود، قضيّة البشر أجمعين".

وصبَّ "رامداس" محتوى الوعاء في الماء الذي ارتسم فوقه خطٌّ رماديّ اللَّون،

خفَّ المواطنون إلى غمره بالورود؛ وفيمَا كان رماد غاندي وبقايا عظامه ماضيةً للاندماج بمياه المُحيط، كانت نفسه الكبيرة تفيءُ إلى مُحيط خالِقها، وتمتزج بنُفوس ملايين مواطنيه، ومُحبّيه في العالَم.

وكان مَصرع غاندي قد تمَّم الرسالةَ التي كان صومُه قد دعا إليها، فدعَّم المصالحةَ، ووثّق وشائجَ الإخاء بين الطَّوائف، وأَخمد المجازرَ الطائفيّة.

وقد أَوجز نهرو مسيرةَ المهاتما غاندي بقوله:

"لقد أنجبت بلادُنا نفسًا كبيرة... مثل منارةٍ قد تأَلَّق لا فوقَ الهند فحسبُ، بل فوق العالَم بأَسره؛ ذلك الصَّوتُ ما انفكّ يرنُّ في آذاننا وقلوبنا، وسيرنُّ في أَذهان شعبنا وقلوبه، بل حتّى ما وراء حدود الهند، مدى الأجيال القادمة، فقد كان صوتَ الحقّ، ومع أَن الحقّ قد يتعرّضُ أحيانًا للخَنق، إلاّ أنّه يتعذّر القضاءُ عليه".

وعند موقع حَرقِ جُثمان غاندي، أُشيدَ مقامٌ يُخلّد ذكراه، تصدَّرَهُ حَجَرٌ أسود حُفر عليه بالإنكليزيّة والهنديّة، خلاصة رسالة الفداء التي دَأَب المهاتما جاهدًا على تحقيقها، سحابةَ حياته، وقد تلخَّصت بالعبارات التَّالية:

"أَتمنّى أن تنعم الهندُ بقدرٍ كافٍ من الحرّيَّة والمنِعَة بحيثُ تقوى على تقديم ذاتِها ضحيّةً من أَجل عالَمٍ أفضل.

"يجب أن يُضحّي كلُّ فردٍ من أجل أسرته، وكلُّ أسرةٍ من أَجل القرية، وكلُّ قريةٍ من أجل الناحية، وكلُّ ناحيةٍ من أجل المنطقة، وكلّ منطقةٍ من أجل الأمّة، وأَن تضحّي الأمَّة نفسَها في سبيل الجميع.

"أَتمنّى حلولَ ملكوت الله على الأَرض"

الجزء الثاني

شخصيّة غاندي وتعاليمه

قسمَاتٌ وَمَلامح

صورةُ غاندي الشَّائعةُ والراسخةُ في الأَذهان، هي تلك التي تُمثِّله في العِقــدَين الأخيرَين من حياته، والتي تُبرز رأسًا أصلع كبيرًا، متَّسعًا في قمَّته، يمضي مُستَدِقًّا، شيئًا فشيئًا، لينتهي بوجهٍ ضيّقٍ، تنفرج على جانبَيه أذُنان عريضتان نافرتان؛ شَــفته العليا دقيقةٌ، مُلتَصقةٌ بأنفٍ كبيرٍ مُصَوَّبٍ إلى أَسفل ويكسوها شاربٌ رفيعٌ، حادٌّ، يغلبُ فيه البياضُ، في حين تعبّر الشّفَةُ السُّفلى الغليظةُ عن سَيطرةٍ علـــى الـــنفس مكينـــةٍ، وهمّةٍ شمّاءَ صاغها الأَلَمُ.

قَسَمات وجهه تخلو من الوسامة، ومُحيَّاه، في وضع الركود، أَقربُ إلى الدَّمامة، ولكنَّه يكاد لا يركُدُ أَبدًا، فهو، سواءً كان يكتُب، أو يُصغي، أو يتكلّم، يقِظٌ أَبدًا، تموج فيه حَرَكةٌ داخليّةٌ لا تَفتُر، تنعكس في عينَين واسعتَين، داكنتَين، وادعتَين، جــذّابتَين، تعلوهما نظّارتان مستديرتان، في إطارٍ معدنيٍّ، وتتراقص فيهما ابتسامةٌ وادعةٌ، تجهَدُ في تخطّي حُزنٍ كمينٍ سحيقٍ، ودهشةٌ تَنُمُّ عن براءةٍ لم تَنَل من نضارتها الآلام.

جسمُه، على نحوله، متينُ البنية، يبرز منه صدرٌ قــويٌّ، مــشدودُ العــضَلات، عريض العظام منيعُها، ويدان كبيرتان، طويلتا الأَصابع، وساقانِ هزيلتـــانِ تتمتّعـــان بجلَدٍ على السَّير والتحمُّل أسطوريٍّ؛ وإهابه الداكن أَملس، رقيقٌ، سليمٌ.

نظافةٌ متوهّجةٌ كانت تنبعث من أظافره، ويدَيه، وساقَيه، وكلّ جسمه، وكذلك من مِئزره القطنيّ، وشاله الرقيق، والمنديل المطويّ المبلَّل الذي كان يُغطّي به رأسَــه، فهذه، كلُّها، كانت، أبدًا، ناصعةَ البياض.

ذلك الجسدُ الذي روّضته الأَصوام الطويلة، والزهدُ، والعفّة، وأكسبته المسيراتُ الطَّويلةُ على الأقدام مِنعةً وطاقةً فريدتَين، كان ينال من الغذاء والعناية القِسطَ الأَدنى

الكافيَ لإبقائه سليمًا، صالحًا للخدمة، طيّعًا، يُنفِّذ بدقّةٍ أوامرَ الإرادة، وتطلُّعاتِ الرُّوح، ولكنَّه لا يمتلك عليهما أيَّة سَطوةٍ، بعد أن لُجِمت شهواتُه، وضُبِطت، بإحكامٍ، ميولُه وأهواؤه.

وتلك الأهواءُ التي كُبحت، وسُميَ بها، قد تحوّلت طاقاتٍ هائلةً، وهوىً رفيعًا لا يُقاوَم؛ والشهوات، والغضب، والطُّموحُ الشخصيُّ، التي أُخضِعت، قد انقلبت قوى إرادةٍ وعَملٍ جبّارةً، وأفرغت على النفس المتحرّرة سكونًا ساجيًا، وأَولتها ثباتًا مطمئنًّا حيالَ تقلُّبات الظروف والحِدثان، وقسوةِ صروف الزمان أَو طراوتها، وغنىً زاخرًا، مُتَعدّدَ الوجوه، مختلف الجوانب، يُحاكي غنى المياه الهادرة الدفّاقة التي احتواها سدٌّ عظيمٌ، فغدت مَوردَ عَطاءٍ ثرٍّ، وبحيرةً تموجُ بخَيرٍ عميمٍ.

وفي أيَّامه الأَخيرة، أَمسى غاندي، وقد اشتدّ جسمه نحولاً، يبدو وكأنَّه روحٌ صِرفٌ يتحرّك داخل ذلك الإطار الرقيق الذي يسانده ولا يُعيقُه، فعلى حدّ قول "ڤيكتور هوغو"، "**الروحُ هو الطَّائرُ الوحيدُ الذي قد يُبادرُ إلى مساندة قفَصه**".

وبالإجمال، لم يكن مظهرُ غاندي ليُثيرَ، لدى من يجهله، أَيَّ اهتمامٍ، كما لم يكُن زيُّه نصفُ العاري، ليلفُتَ أَيَّ نَظَرٍ، بحيث كان من شأن من يُصادفه، للمرّة الأولى، أن يجتازه، من غير أن يلتفت إليه، وإن هو التَفَتَ، فبدافع الفُضول، حيالَ فقيرٍ زاهدٍ، تائهٍ، كان أَولى به أن يلتزم صومعتَه.

إلاّ أنَّ غاندي كان نموذجًا رائعًا لقُدُرات الروح والذِّهن على الجسد؛ وكان ذلك الجسمُ الهزيل، في هندامه الزريّ، يطوي، بين جنْحيه، شخصيّةً فذَّةً، أَخَّاذةً، و"نفسًا كبيرة" (مهاتما) سَمَت إلى أَرقى معارج الكمال والقداسة، وحضورًا ساحرًا، مُهَيمِنًا، أَدهشَ جميعَ من عايشوا غاندي عن كثَبٍ، واجتذبَهم، وإن هم، في الغالب، عَجِزوا عن الإحاطة بأسراره العميقة الغَور.

وقد أسهب نهرو في وصف تلك "الشخصيّة المتوقّدة، المتدفّقة رجولةً، الرائعة، الأَخّاذة والجذّابة إلى أَبعد حدٍّ". وقال: "**إنَّ كتابات غاندي لا توفّيه حقَّه، فهو يتخطّاها بجميع أبعادها... إنّ بسمتَه لَرائعةٌ، وضحكته تُشيعُ العدوى، وبِشرَه مُشرقٌ. إنّه**

يحمل بين جوانحه شيئًا طفوليًّا مُفعمًا بالسِّحر، وعندما يلج مكانًا ما، يجلب معه دفقة هواءٍ مُنعشٍ تلطّف الأجواء. كلُّ شيءٍ فيه مفارقةٌ خارقةٌ، وأَتخيّل أنَّ ذلك هو، إلى حدٍّ ما، شأن كلّ شخصيّةٍ غير عاديّةٍ".

ولنستمع، أيضًا، إلى شهادة الآنسة مادلين سليد، أو "ميرا بهن" كما سمّاها غاندي، وهي ابنة أميرالٍ بريطانيٍّ، أُخِذَت بشخصيّة المهاتما، ومبادئه، فهجرت أسرتها ووطنَها، وجاءَت فأَقامت في "أشرم" غاندي، ورافقته في العديدِ من أَسفاره، وتطوّعت لنشر رسالته في أَقاصي الهند، وقد تسنَّى لها مراقبتُه عن كثَبٍ، ودوَّنت في مذكّراتها، عن الأيّام التي أنفقَتها إلى جواره:

"منذُ ساعات الصَّباح الأولى، حتّى ساعات مهامّ المساء الأَخيرة، كنتُ أتطلّع إلى اللَّحظات التي أتمكَّن فيها من إلقاء أَنظاري عليه؛ فمُجرّد حضوره كان ينتزعني من نفسي، وما كان ذلك ناجمًا عن أيّة مهابةٍ في مظهره، أو عن أيّة ميزةٍ خارقةٍ في أسلوب حديثه، بل عن البساطة المُطلَقَة الأَخّاذة في كِليهما؛ إذ كان المرءُ يجد ذاتَه حيالَ نَفسٍ تُضفي عَظَمتُها نورًا متألّقًا عذبًا على الجسم والأحاديث التي تتجلّى من خلالها. وفي آنٍ معًا، كانت تنبعث منه قوّةٌ روحيَّةٌ يُرافقها اطمئنانٌ ساكنٌ يُغلِّف كلَّ شيءٍ، فيمَا كانت شخصيَّته تشيع إنسانيّةً كثيفةً ناجمةً عن مَرَحٍ لا يُقاوَم، مُتأَهّبٍ أَبدًا للانبثاق، مثلما ينبثق شعاعٌ ذهبيٌّ من خلال أفنان غابةٍ ظليلةٍ".

وتُضيف مادلين سليد مؤكِّدةً أنَّ شخصيّة غاندي الساحرة الغنيَّة كانت تجتذب إلى الأَشرم قومًا مُزَرْكشًا من شتّى الاتّجاهات والنزعات، بعضُهم تشدُّهم ثوريّته، وبعضهم مواقفُه الاجتماعيّة والاقتصاديَّة، وآخرون تصوُّفه وتديُّنه وقداستُه.

ويقول لويس فيشر الذي قضى برفقة غاندي بضعةَ أسابيع، في فتراتٍ متقطّعةٍ، ووضع، عن غاندي، أَغنى السِّيَر وأكملَها وأدقَّها:

"هوًى كبيرٌ كان يحدو غاندي، هوًى نابعٌ من كلّ أَهواءِ الجَسَد التي سيطر عليها، وسما بها، وحوَّلَها إلى طاقةٍ هائلةٍ؛ هوًى ملجومٌ مِطواعٌ، ولكنَّه لا ينِي

يزمجر. كان يمتلك كثافةً عَذبةً، وصرامةً رقيقةً، واندفاعًا مُغَلَّفًا بالصَّبر: كان رفاقُه والمتعاملون معه يُعانون من جَيَشانه وصلابته واندفاعه، ولكنَّه كان يجتذب احترامَهم ويحافظ عليه، بل يجتذب حبَّهم، برقّته، ورهافته، وأَناتِه.

"كان قويًّا، وقوّتُه كانت تنبع، لا من وفرة ممتلكاته، بل من غنى كيانه؛ فقد كان أرَبه أن "يكون" لا أَن "يمتلك"؛ وسعادتُه كانت تنبع من تحقيقه لذاته، فهو، إذ لم يكن يخشى شيئًا، كان قادرًا على عيش الحقيقة، وإذ لم يكُن يمتلك شيئًا، كان قادرًا على أداء ثمن مبادئه.

"كان شديد السِّحر، ونموذجًا فريدًا، هادئًا، يأسُرك في غفلةٍ منك، كلّ اتّصالٍ فكريٍّ به كان مُتعةً، إذ كان يكشف عن فكره، ويُتيح لك رؤية كيف تعمل آلتُه. لم يكن يحاول التعبير عن أَفكاره بصِفةٍ تتّسم بالكمال، بل كان يفكّر بصوتٍ مرتفعٍ، ويُميط اللثامَ عن كلّ خطوةٍ يخطوها ذهنُه، بحيثُ ما كنتَ تسمع كلامَه فحسب، بل خواطر ذهنه. وتستطيع تأثّر خطاه حتّى يبلغَ غايته؛ وبالتّالي لم يكُن في حاجةٍ إلى التكلُّم على غرار أرباب الدَّعاوة، بل كان يتكلّم كصديقٍ، وما كان يهمُّه هو تبادل الآراء، ولكن كان يهمُّه فوق ذلك إقامةُ علاقاتٍ شخصيَّةٍ".

تلك الشخصيّةُ الفذَّةُ قد زَخَرَت بكنزٍ من الخصال، وأَوَّلُ ما يُطالعنا منها: إغراقٌ في البساطة: بساطةٌ هي براءَةُ الأطفال وشُغوفهم، وبساطةٌ إنجيليّةٌ، هي عودةٌ إلى إنسانيّةٍ نقيّةٍ خاليةٍ من الزّيف، وهي مرورٌ، في الحياة، بخُطًى خفيفة الوَطءِ، وبقسطٍ أَدنى من الاحتياجات والمطالب الماديّة، ورضًى بالزّهيد الذي لا غنى عنه لاستمرار الوجود؛ وبساطةٌ في التفكير والشعور، متحرِّرةٌ من كلّ تعقيدٍ وتوريَةٍ وكَبتٍ.

لقد احتفظ غاندي، سحابةَ حياته كلِّها، بدهشة الأَطفال، حيالَ شتّى وُجوه الحياة، وجميع الكائنات، فربطته بها، جميعها، وشائجُ محبّةٍ وتضامُنٍ، غالبًا ما كان يُعبّر عنها بضحكةٍ صريحةٍ، حارَّةٍ، حُلوةِ الجِرس، ضحكةِ من لا يخشى أن يُؤخَذ على حين غرّةٍ، وهو أعزل، ضحكةِ تفاهُمٍ وتسامُحٍ، ضحكة فرحٍ بالحياة المتجدّدة، وضحكةٍ بهجةٍ فرنسيسكانيّة، نابعةٍ من التجرُّد والزُّهد، منطلقةٍ على أَجنحة التحرّر.

وقد عُهِد عن غاندي شَغَفٌ بالأَطفال وبمداعبتهم، وكان يأنَسُ سعادةً غامرةً في صُحبتهم، ويصطنع التكشيرَ والإيماءاتِ الكفيلةَ بإضحاكهم، كما عُهد عنه استثارةُ ضحك الكبار وممازحتهم؛

وقد ظلَّ فلاّحٌ بسيطٌ، يغفو، أَبدًا، بين ضُلوع غاندي، الذي كان يَغمُرُه فرَحٌ صادقٌ بالإقامة بين ظهرانَي القُرويِّين الأُمّيين الفطريِّين، أكثر من إقامته وَسطَ السياسيّين ورجال الفكر، الذين ازدحموا من حوله، طَوالَ حياته.

وبالإجمال كان غاندي من أكثر الناس مَرَحًا، ولُطفَ معشرٍ، وتفاؤلاً، فَسَحَرت شخصيّته ألوف النَّاس من هُنودٍ وأَجانب.

وغنيٌّ عن التذكير ما كان يتّسم به سلوكُ غاندي، ومأكلُه، وزيُّه من بساطةٍ متناهية؛ فالمهاتما كان يقتصر، من اللّباس، على مئزَرٍ قطنيٍّ، وقبّعةٍ من قماشٍ قطنيٍّ أيضًا، وأحيانًا، شالٍ رثٍّ يتّقي به القُرّ والحرَّ؛ وفي أغلب الأوقات، كان حافيَ القدمَين، وإن هو انتعل، فخُفًّا من صُنع يدَيه؛ أمَّا زادُه، فكان على جانبٍ كبيرٍ من الزُّهد، نباتيًّا، خاليًا من الملح والتوابل، ينتبذ منه كلَّ ما يفيضُ عن حاجته للبقاء، كلَّ ما من شأنه إثارةُ شهوات الجسد؛ وقد أَلِف تناول طعامه في صحنَين من الصفيح، اصطحبهما من أحد السجون، مستعينًا بمِلعَقَةٍ مكسورةٍ، حلَّت قطعة قضيبِ خيزرانٍ محلَّ مقبضها؛ أَدواتُ المائدة المتنقّلة هذه، كانت أَبدًا في جرابه، ترافقه في حلِّه وترحاله، ولا يتورَّع من استخدامها في حضرة كبار العالم وعُظمائه، في غَير خَجَلٍ ولا حَرَجٍ.

لقد تنكَّب غاندي، وهو بَعدُ في مطلع شبابه، عن جميع أسباب الرَّفاهية، واستهدفَ تحقيقَ بساطة العَيش، وسموِّ الفكر، وهما سبيل الخلاص، كما أنّه، منذُ مُستَهَلِّ شبابه، أيضًا، ربَط قطارَه بنجم الطُّهر.

ويُعيد غاندي إلى ذاكرتنا صورةَ "ابن البشر"، الذي لم يكُن له موضعٌ يُسند إليه رأسه، في حين أنَّ للثعالب أَوجرتها، وللطُّيور أوكارها؛ فسحابةَ حياته السياسيّة لم يكُن له مسكنٌ خاصٌّ به، وحيثما حلّ، كان يفترش اليابسة، ويرقُد في العراء، كلَّما

استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا ينام إلاّ لمامًا؛ أمَّا الحجرة التي كان يعمل فيها، ويلتقي فيها زائريه، فكانت عاريةً من كلِّ أثاثٍ، فيمَا خلا منضدةً واطئة يستعين بها على الكتابة؛ وفي الكتابة كان يستخدمُ قلمَ رصاصٍ بَخس الثَّمن، يستنفده حتّى آخره، وحتّى لا يبقى منه ما يستطيع إمساكَه بأَصابعه؛ كما كان يتَّخذ من ظهور المظاريف التي يَرِدُ ضمنَها بريدُه الكثيف، قُرطاسًا للكتابة.

ولم يُداخِل غاندي يومًا الشعورُ بأنَّ مركز الزعامة الذي تبوّأه، يُوليه امتيازاتٍ، يتفوَّق بها على سواه أو يختلف عنهم؛ فقد حَرِص، أَبدًا، على السَّفر في مقطورات قطارٍ من الدَّرجة الثالثة، مزدحمةٍ، قَذِرَةٍ، خانقةٍ؛ وخلالَ مكوثه في "الأشرم"، لم يَعفِ نفسَه، يومًا، من المُهمّات الوضيعة المفروضة على كلّ "أشرميٍّ"، بل كان يختار أَشدَّها قذارةً، مثل تنظيف المراحيض، كما أَنَّه لم يكُن يتحرَّجُ من الجلوس القرفصاء على الأَرض للمشاركة في تقشير البطاطا، ومن الاضطلاع بشتّى المُهمّات الأُخرى التي يؤدّيها أبسط الناس؛ وقد طالما أعرب عن انتقاده للطّلاق الوبيل بين الجهد الذهنيّ، والعَمَل اليدويّ.

والبساطة، لدى غاندي، كان يُواكبها ويدعِّمها **تواضُعٌ** سحيقٌ متأَصّلٌ، فكلّ ما أصابه من نفوذٍ وسُلطانٍ، في كلّ أرجاء الهند، ومن تقديرٍ بالغٍ، في شتّى أصقاع العالَم، لم يستطع أن يُسرّب إلى نفسه تكبّرًا أو استعلاءً؛ فغاندي كان أبدًا راسخَ القناعة بأنَّه، للهند وللبشريّة، خادمٌ وضيعٌ، وأنّه، في سعيه إلى الله، وإلى الحقيقة، لا بدّ له أن يصبح دون الصِّفر، بل أَوضع من الغبار؛ ومن صميم هذه القناعة استمدَّ سلوكُه سِماتِه المميَّزة.

وكان تواضُعه يُسبغُ على تصرُّفاته بعض الخَفَر أو التردُّد أَحيانًا، من غير أن ينال من جُرأَته وعزيمته.

وخليقٌ بالتَّنويه أنَّ غاندي كان يَضيق ذَرعًا بمظاهر التَّكريم التي كان يُحيطه بها الجمهور، ويتبرَّم أَشدَّ التبرُّم ممّا كان يجلبه له لقب "المهاتما" من إجلالٍ لا يُطيق احتمالَه.

بساطةٌ وتواضعٌ كان يكلّلهما أَدَبٌ رائعٌ؛ فقد كان غاندي، في كلّ لحظةٍ، ومع كلّ

إنسانٍ، رقيقَ الحاشية، بالغَ التهذيب، حتّى مع أَلدّ خُصومه، يَعُدّ خَدشَ إحساس أيّ إنسانٍ، ولو بكلمةٍ نابيةٍ، خطيئةً مُميتةً. ذلك التهذيب، كان يفرض على الجميع، حتّى على أَعتى مناوئيه، احترامَه، والانحناءَ أَمام دماثته وكياسته؛ فقاتِلُهُ نفسه اعترف: "**قبل أن أطلقَ عليه الرَّصاص، انحنيتُ بفكري أَمامَه، ودعوتُ له أَحسنَ دُعاءٍ**".

وقد كتب لويس فيشر واصِفًا تهذيب غاندي: "**حيالَه، كان يتولاّني انطباعٌ بأنَّني أَمامَ رجلٍ شديد الرقّة، خالٍ من المصانعة، مسترخٍ، سعيدٍ، حكيمٍ، مُتَحضِّرٍ إلى أَبعد حدٍّ**".

وممّا أكسب تهذيبَه بُعدًا سحيقًا، **وداعةٌ** ساجيةٌ عذبةٌ، كانت تتسكب على أَقواله وسلوكه، وحتّى على صلابة نضاله السياسيّ، حتّى قيل عنه إنَّه "**أَودع رسولٍ لأكثر حركة تحررٍ إذهالاً**". وتلك الوداعة لم تكُن، دائمًا، تلقائيّةً في حياة غاندي، فقد كان، في شبابه، يتعرّض لسَورات الغضب، وكانت الحِدَّة تطبع سلوكَه، أحيانًا. ويحضرُنا، في هذا المقام، ثورتُه الصَّاخبة على زوجته في أفريقيا الجنوبيّة، عندما أبت خِدمةَ أَحد المنبوذين، كما لا يغرُبُ عن بالنا شدّته في التَّعامل مع أبنائه. غير أنَّه، بفضل الجهد والتمرُّس، والحرص الدائب على كَبح النَّزوات، وترويض المشاعر، اكتَسَبَ تلك الوداعة، التي ما انفكّت تزداد، مع الأَيّام، سُكونًا واطْمئنانًا، ورِقّةً، والتي وصفها ابنه ماتيلال، بعد أن تسنّى له قضاء كلّ عام ١٩٤٥ ونصف عام ١٩٤٦ إلى جوار والده، فكتب: "**إنّ ما لفتَ انتباهي هو العذوبةُ البالغة التي أصبح عليها آنذاك، بالمقارنة مع ما كان، وقتَ كنّا، نحن الأَربعة، نأتمرُ بأَمره. لقد كان، من قبلُ، يصفح دائمًا، مع أَنَّه مُعلِّمٌ صارمٌ، بيد أنَّه غدا مُتَسامِحًا إلى أبعد حدٍّ، على نَقيض ما كان عليه، عهدَ صبانا**".

وغاندي الوديع لم يكُن يعرف الاستسلام، ولكنَّه كان يسلِّم ببعض الواقع الراهن، ولو آلمه في الصَّميم، لا جُبنًا، ولا وَهَنًا، بل طيبةً وعطفًا. وكان أَلمُهُ ينبع، على نحوٍ خاصٍّ، من الشرّ الذي يُلحِقه بأَنفُسِهم أولئك الذين يُمَارسون عليه الضّغوط.

لم تكن تُخامِرُه رغبةٌ في السَّيطرة والحُكم على الآخرين، بل إنّه كان يُصلّي لمن يحاول السيطرة والحكم عليه، في عذوبةٍ وجرأةٍ.

والضغط عليه، كالضَّغط على كلّ طاقةٍ، كان يُضاعف قدراتِه، فالوداعة طاقةٌ صبورةٌ، نَشطةٌ، مثابرةٌ، هادئةٌ؛ وإنَّمَا الوُدَعاء يرثون الأَرض.

وربّمَا كان أَدَبُه نابعًا من **طيبٍ** فيه بَدَهيٍّ، **وحبٍّ** جمٍّ، عميق الغَور، يغمر نفسه حيالَ جميع الكائنات، وحيالَ كلّ إنسانٍ. ففي كلّ إنسانٍ كان يرى صورة الله؛ وكان حبّه فعّالاً نشيطًا، فغاندي كان، أَبدًا، حريصًا على سلامة الآخرين، يتعاطف معهم إلى أقصى حدود التعاطُف، ويعاني، في أعماق نفسه، آلامَهم؛ وعلى غرار الأمّ التي تتمنّى أن تعاني، في جسدها، مرض ابنها، وأن تحملَه عنه، لكي يتمتّع، هو، بالعافية، كذلك كان غاندي يصومُ، ويُكفِّر، ويتألّم، من أجل تخفيف آلام العمّال والمنبوذين، وربَّمَا كانت نزعة تخفيف آلام الآخرين، هي أعمق نزعاته ودوافعه الكمينة، فقد استقرّ في وجدانه اليقين بأنَّ عليه مُهمَّةَ شفاء إخوانه.

وكان غاندي يُدرك أنَّ حياةَ الناس تتكوَّن من تفاصيل صغيرةٍ، فيُوليها أصدقَ اهتمامه؛ وقد عُهِدَ عنه أنَّه، حتّى في غمرة مشاغله السياسيّة الكبرى، التي كانت تُرغمه على العَمَل بلا هوادةٍ، ليلَ نهار، لم يتردَّد في وقفِ قِسطٍ من وقته على معالجة هموم الناس وقضاياهم.

فقد كان يُراسل ألوفَ الأفراد، ويُعنى بشؤونهم الخاصّة، وشؤون أسرهم، ويدعو أبناءَهم كُلاًّ باسمه؛ وكان يُدرِكُ أَنَّ قيمة السياسة هي دون الصفر، ما لم تُصبح جزءًا لا يتجزّأ من حياة البشر اليوميّة، فلا يتحرّج من تزجية وقته الثمين في تصحيح أخطاءَ لُغَويَّةٍ لكاتبٍ ناشئٍ، بعث إليه بمُحاولاته مُلتمِسًا نُصحه؛ أو في وصف النظامِ الغذائيّ الأَمثل لفلاّحي منطقةٍ مُعوِزةٍ، أَو في مؤاساة مفجوعين بعزيزٍ؛ أو في مصالحة زوجَين متخاصمَين، أو حتّى في انتقاء عريسٍ لفتاةٍ وحيدةٍ.

وقد كانت حياته اليوميَّة نسيجًا من المبادرات الجريئة التي تَنُمّ عن حبٍّ لا متناهٍ. فذات يومٍ لدغت عقربٌ أَحد رفاقه في السِّجن، فبادر إلى امتصاص الدم المسموم، كي يدرأ عن الملدوغ الخطر؛ وفي مناسبةٍ أُخرى التَمَسَ طالبٌ مجذومٌ (أبرص) الانضمام إلى "أشرم سيفاغرام"، فلم يكتفِ غاندي بتلبية رغبته، متخطّيًا معارضةَ بعض الأَشرميّين الذين خشوا انتشارَ عدوى الجُذام إليهم، بل عَكَفَ على تمسيد الضَّيف العليل بنفسه، وعلى تمريضه والعناية به.

وكان تعاطُفه الصَّادق اللاَّمحدود هو مفتاحُ زعامته وقوَّته، فعلى حدّ قول دوستويفسكي "**القوة تكمُن في الوُدَعاء والمحبّين**"؛ وكانت رغبته الحادَّةُ اللاهبةُ في تخفيف الآلام هي التي دفعته دفعًا إلى حَلبة السِّياسة التي مارسها بأسلوبٍ فذٍّ، غيرِ مألوفٍ، فتوسّمت فيه الجماهيرُ نصيرًا مخلصًا، وقدّيسًا عظيمًا، يعيش في مِثل بُؤسهم، ويعبّر عن همومهم وآلامهم؛ ومُذَّاك، غدا هَدَفًا للاستنجاد به من كلّ صَوبٍ.

وبفضل ذلك التعاطُف، استطاع غاندي تسريب مبادئه ومُثُله إلى النفوس التي تَمَكَّنَ من إحداث تطوُّرٍ بليغٍ فيها، بحيثُ كان لقاءُ كلّ إنسانٍ معه، هو الحَدَث الحاسِم في حياته، إذ كان يبدو وكأنَّه الوحيد الذي يصلح للجميع محاورًا، ممّا أَولاه قُدرةً على الخدمة فريدةً. ولكأنّي بالقدّيس أوغوسطينوس كان يعني أمثال غاندي عندما قال: "**كرسيُّه في السماء، ذاك الذي يُثَقِّف القلوبُ**".

ولا بِدع، بالتالي، إن غدت **الخدمة** هي مِحوَر حياة غاندي ومحرّكها، وإن هو وقَفَ عليها وقتَه، وذاتَه، وكلَّ طاقاته؛ خدمةٌ في كلّ لحظةٍ، وكلّ مجالٍ، يعبّر بها عن تعاطُفه مع إخوانه تعبيرًا واقعيًّا، وعِبرَها ينتهي إلى رؤية الله، وجهًا لوجهٍ وقد قال، في هذا السِّياق: "**الخدمة ديني، وأنا قد اعتنقتُ هذا الدِّين، موقنًا أنّ لقاء الله لا يتمُّ إلاّ عِبرَ الخدمة**".

لقد كتب غاندي يومًا: "**لستُ أمتلك سوى الحبِّ سلاحًا يُؤهِّلني لبسط سُلطتي على أيٍّ كان**". وقد تميَّز بحبّه للفقير والمسحوق، على نحو ما يتجلّى من قوله: "**لستُ أبتغي**

ملكوتًا، أو خلاصًا، أو فردوسًا، بل ما أتوخّاه هو إزاحة الكَرْبِ عن المسحوق والفقير".

ولقد رسّخ لديه حبُّه الصَّادق، واندفاعه إلى الخدمة، **صبرًا** بلا حدودٍ.

كما قد ولَّدت لديه رغبتُه العارمةُ في الخدمة، وشعورُهُ الباهظ بتبعاتها، **حرصًا على استخدام الوقت**، استخدامًا أقصى وأَمثل، وعلى تنظيمٍ له مُحكَمٍ، يُتيح الإفادةَ من كُلِّ لحظةٍ منه، في همّةٍ ناشطةٍ لا يتسرَّب إليها وَهَنٌ أو مَلَلٌ؛ فكان استثمارُ كلِّ ثانيةٍ متاحةٍ هو دَيدن غاندي المُهَيمن، وشغله النَّاصب؛ وقد كتب رومان رولان، في معرض ذلك، قائلاً: "**هذا الرَّجلُ الضئيل الجسم، والذي يبدو هزيلاً، لا يعرف الكَلَل، ولا مكانَ للفظة التَّعب في قاموسه. إنَّ فكره يتّجه نحو العمل، عِبر اعتباراتٍ متتاليةٍ، وفق خطٍّ مستقيمٍ، ولكنَّه لا يتوقّف أبدًا**".

فقد كان غاندي يرى، في كلّ دقيقة حياةٍ، عطيّةً من الله، ينبغي وقفها على الخدمة؛ وكان ميدانُ الخدمة من الاتِّساع، في نظره، بحيثُ استقرّ في قناعته اليقينُ بأنَّ على كلِّ امرئٍ توّاقٍ إلى الخدمة أن يعيش مئةً وخمسةً وعشرين عامًا، كي يقوى على النّهوض بالمسؤوليّات الجسام المناطة به؛ وكان، هو نفسه، يتطلّع إلى العيش مئةً وخمسًا وعشرين سنةً كي يُوفّي قسطه من الخدمة.

وتعبيرًا عن ضَنِّه بالوقت، لم يحتفظ غاندي، بعد إذ تجرّد من كلّ ممتلكاته، إلاّ بساعةٍ عتيقةٍ، كان قد ابتاعها، شابًّا، بسبعة شيليناتٍ، وظلَّت، حتّى آخر لحظةٍ من حياته، مثبتةً إلى خَصره بحبلٍ رفيعٍ. وقد سُرِقت منه، ذاتَ يومٍ، فابتأَس جدًّا، وعندما عاد إليه بها السَّارق، بعدَ أشهُرٍ، مرتعدًا، وَجِلاً، وَثَبَ غاندي وَقبَّلَه، وهو يفيض جَذَلاً وعرفانًا.

ومنذُ طراوة عوده، تخلّى غاندي، طائعًا، عن كلّ تسليةٍ يتسرَّب منها الوقتُ هَدرًا، كي يُكرّس كلّ لحظةٍ للخدمة؛ وقد كتب، في ذلك، إلى ابنه مانيلال، عندما كان هذا الأخير في السابعة عشرة من عمره: "**عندما كنتُ أصغر منك سنًّا، كان فرحي الأكبر يكمُن في عنايتي بأبي، ومنذ الثانية عشرة من عُمري، لم أعرف متعةً أو تسليةً**".

وقد عُهِد عنه، حتّى أيَّامه الأَخيرة، رغمَ النَصَب والإرهاق اللَّذين نالا منه نــيلاً ذريعًا، أَنَّه كان يعمل نحوًا من عشرين ساعةً يوميًّا، ويقطع المسافات الطويلة، سعيًا على الأقدام، مُلَبِّيًا نداء الخدمة، غير حاسبٍ لجسده أيَّ حسابٍ، لا ينام إلاّ لمامًا، ولا يُصيب من بُلُغات الطَّعام سوى الزَّهيد الضئيل.

بركانٌ من النَّشاط كان يهدُر في صدر ذلك المتصوّف الذي سَجَت نفسُه، واتّسم بالوداعة سلوكُه، وعلى حدّ قول نهرو: "**مَن لم يعرفوه معرفةً حميمةً، لن يستطيعوا أن يتخيَّلوا أيَّ نارٍ داخليّةٍ كانت تضطرم في رجل السلام والتواضع ذاك**".

ومن أجل إبقاء أَداة الجَسَد صالحةً للخدمــة، ولكــيلا تُهــدَر مــن الوقــت ذرَّةٌ من غير طائلٍ، التزم غاندي نظامَ عــيشٍ مُحكَمًــا، ثابتًــا، لا تتغيّــر لــه وتيــرةٌ، مهما تبدَّلت الظُّــروف أو اضــطربت؛ فتوقيــتُ طعامــه، واســتحمامه، وســاعة الغزل، وساعة الــسير، وســاعة الــصَّلاة، ويــومُ الــصَّمت الأســبوعيّ، كلّهــا مُراعاةٌ بدقّةٍ، سواءٌ هو كان في الأَشرم مقيمًا أو فــي أقاصــي الريــف، أم وســط صَخَب الجمَاهير الهادر، وسواءً هــو حــلّ كوخًــا مُــدقِعًا، أو سِــجنًا ضَــنكًا، أو فندقًا فخيمًا في لندن، أو قصرًا ملكيًّا.

وربَّمَا كان لاستئثار الخدمة بكُلِّ طاقات غاندي واهتمامه، يدٌ في **الحدّ من رقعة فضوله**، وفي تضييق آفاقه، وفي اقتصاره على الاهتمام بالقضايا المطروحــة عليــه بلجاجةٍ، والتي كان يستطيع التأثيرَ فيها، دونَ سواها، إلاّ أنّه كان يُولي تلك القــضايا عنايةً لا حُدودَ لها، ويعُدُّ أَتفَهَ الأمور التي تشغَل الناسَ ذاتَ قيمةٍ جُلّى.

ومن هنا نبَع **تطلُّعه إلى الكمال**، وقسوتُه على نفسِه التي لم يكُن يهاودها في هَنَةٍ أو هوانٍ، واقتضاؤه الكثير الكثير من ذويه وأتباعه الذين انتدبوا أنفسَهم لمشاركته الخدمــة، فهؤلاء جميعهم، وإن هو لم يُطالبهم بما يفوق طاقاتهم، إلاّ أنّه كان يقتضي منهم استنفادَ كلّ طاقاتهم بلا تحفّظٍ، كما يقتضي منهم نظافة يدٍ لا يُفسدها مالٌ، ووفاءً للنُّذور عنيــدًا، وحرصًا لا يفتر ولا يلين على الحقيقة العارية الخالية من كلّ تزويقٍ، وطهرًا في أساليب العَمَل لا يُكدّرُه ظِلُّ شُبهَةٍ، وتناغمًا مُطلَقًا بين الوسائل والأهداف القصوى.

ولا عجب، من ثمّ، إن لقيَ بعض أتباعه، عنَتًا في التعامل معه، فتطلّعاته كانت مأساويَّةَ الطُّموح، وإصراره على أداء الخدمة تَميّزَ بنفاد الصبر، إذ كان يُذكيه شعورُه الملحاح بأنَّ الهند لم يَعُدْ لها على الصَّبر طاقةٌ، وأَنَّ خدمتها تستلزم قداسةً فوريّةً، ممّا حمل زوجته، يومًا، على الاحتجاج الصَّارخ: "**أَتريد أن يصبحَ أبناؤنا قدّيسين، قبل أن يُصبحوا بشرًا؟**".

وغاندي نفسه قد كَتب، ذاتَ يومٍ، إلى رجلٍ نذر التقيُّد بأساليب عيش الأشرم، ثمّ تقاعس: "**إنَّ الواجب يقضي عليك الوفاء لنذرك، ولو أدّى ذلك إلى هلاك كُلِّ أسرتك جوعًا. وحدَهم أُولئك الذين يتمتّعون بشدّة مراسٍ من هذا النَمَط، قادرون على تكوين أمّةٍ؛ وأمّا الباقون فلا يمكن عدُّهم بشرًا**".

ولكنَّ صلابته حيالَ نصاعة سُلوك الأَشرميّين كانت مقرونةً بانفتاحٍ لا حُدودَ له حيال حرّية رأيهم، إذ كان، أبدًا، يُحرّضهم على معارضته ومناقشته، في نشدان الأَمثل والأسمى.

وقَسوَتُه على نفسه كان يُقابلها تسامحٌ سخيٌّ إزاء الآخرين، في الأمور التي لا تمسّ المبادئ الجوهريّة، فهو، على سبيل المثال، كان يَعُدّ احتساءَ القهوة والشاي خطيئةً يحرَصُ على تجنّبها، ولكنّه لم يكن ليتحرّج من إعدادهما بنفسه لزوجته، كما أنَّه كان يتغاضى عن إدمان جواهر لال نهرو للتدخين، وعندما كان يختلف نهرو على الأشرم زائرًا، كان غاندي يوعز بإعداد طعامٍ خاصٍّ له من اللُّحوم، رغمَ انتهاجه، هو وجماعة الأشرم، نظامًا نباتيًّا مُغرقًا في التشدُّد.

وقد اعترف نهرو بتلك الخصلة السَّمحاء لدى غاندي، في رسالةٍ بعث بها إليه، وجاءَ فيها: "**مَن أكثرُ منكَ تسامُحًا في بعض الأمور؟ في الواقع، إنَّ التسامُح الحقّ، إن هو وُجِد، نادرٌ جدًّا**".

وفَوقَ كلّ ذلك كان يحدو غاندي ويُميّزه **صِدقٌ** مُطلَقٌ **واستقامةٌ** لا التواءَ فيها. فولَهُه بالصِّدق هو الذي وقاه، في صباه، من جميع مزالق الشرّ والضّياع التي كاد يهوي إليها، وهو الذي دَمغ عملَه السياسيّ، بذلك الطابع الأَخلاقيّ الفذّ، الذي لم

تعرف له السياسة، يومًا، مثيلاً، والذي يأبى الحيادَ، بأيّ مُبرّرٍ، عن قداسة الغايات وطُهر الوسائل، ويضع، دائمًا، قِيَم الروح في أسمى مقامٍ.

لقد قيل ما من عظيمٍ في عين خادمه وذويه؛ فغالبًا ما يألف عظماء الأَرض ارتداء أقنعةٍ، في حياتهم العامَّة، يحرصون، بها، على إبراز الصورة المصطنعة التي يودُّون أن يراهم من خلالها النّاس، ولكنّهم يُضطرّون إلى خلعها في مخادعهم، وفي عُزلة حياتهم الخاصّة، حيث تتجلّى حقيقتُهم، وهي، في الغالب تتعارض والصُّورة المزيّفة التي على الملأ يعرضونها، وكثيرًا ما تفضح الحقيقةُ صَغَاراتِهم وعيوبَهم الكمينةَ التي يَجهَدون في إخفائها؛ وعلى نقيضِ ذلك، كان غاندي؛ فهو هو، في حياته الخاصّة، وفي سُلوكه السياسيّ العلنيّ، في وَضَح النهار، وفي حَلَك الليل، أَمامَ نفسه، وأمامَ ربّه، وأمامَ جميع الناس؛ إنَّه واحدٌ لا يتغيّر، في جميع الأحوال، بلا قناعٍ ولا ازدواجيّةٍ، ولا رياءٍ؛ وهو مثالٌ نادرٌ لامرئٍ أشاعَ انسجامًا كاملاً، ودائم الإحكام، بين ما يقنَعُ به ذهنُه، وترضى به نفسُه، والأقوال التي يُذيعها على الملأ، أو تلك التي ينثرها في مجالسه الحميمة، وجميعِ أعماله، السياسيّ منها والخاصّ على حدٍّ سواء، من غير تعارضٍ، ولا خِداعٍ، ولا تعقيدٍ، ولا مراوغةٍ.

لقد كان غاندي واضحًا شفّافًا، لا يُقيم من حوله أسوارًا، ولا يُخفي حتّى من صراعاته الداخليّة الكمينة شيئًا، بل يُحاول أن يجعل منها للآخرين أمثولةً، ولا سيَّمَا أنّه كان، بالسليقة، مدرِّسًا.

ولا مِرَاءَ أنَّ غاندي قد خاض، في هذا المضمار، تجربةً فريدةً قاسيةً، فقد عدَّه مواطنوه ومحبُّوه قدّيسًا أثناء حياته، وكان مُدرِكًا لدور القُدوَة، ولثِقَل مسؤوليّتها، ولأَنظار الآخرين المُثبتة عليه، تُحصي عليه أنفاسَه، وترقب كلَّ خُطوةٍ من خُطواته، وتتلقّف كلَّ كلمةٍ من كلماته. وكانت استقامته تفرض عليه أن يكون صادقًا في كُلِّ لفظةٍ يتفوّه بها، وإلاّ يحيد أَيٌّ من تصرّفاته العامّة والخاصّة عمّا يُؤمن به، ويعلنُه. وبالتّالي، فمن العسير تصوُّر إنسانٍ قد راقب باستمرارٍ، وبلا هوادةٍ، أخلاقيّة أعماله وأَقواله، مثلما فعل غاندي، وربّمَا هذا ما أكسب شخصيّته قُدراتٍ منقطعةَ النظير؛ ومن المؤكَّد أنَّ انجذاب الجماهير إليه وتأَثُّرها بسِحره، وانصياعَها لأَوامره ونواهيه،

رغم مظهره الزريّ، وعُزوفه عن الدبلوماسيّة، وأَساليب البلاغة، والتأثير الخطابيّ، ورغمَ دعوته الناس إلى التضحية، والمعاناة، ومحبَّة الأعداء، كانت مدينةً لإخلاصـه الشفَّاف، وللانسجام المُطلَق، في سلوكه اليوميِّ، بين آرائه، وأقواله، وأعماله.

وعلى نقيض سَواد السياسيِّين والمُصلحين، وعامَّـة النـاس، الـذين يُخَـدِّرون وِجدانَهم، في سلوكهم اليوميّ، ويُسلمونه إلى سُباتٍ عميقٍ، ويتصرّفون فـي معـزلٍ عنه، في المكتب، أو الوظيفة، أو المتجر، ممّا يؤدّي إلى نشر الفساد والمظالم، نَهَضَ غاندي رمزًا نادرًا للوحدة المُحقّقة بين المناقبيّة الشخصيّة، والعمل العامّ، اجتماعيًّـا وسياسيًّا، وحلَّقَ، أَبدًا، بأَجنحة الروح وسطَ أَمـواج الجمـاهير، ومزالـق الـسِّياسة الخَطِرة.

لقد كانت **الصراحة** المجرَّدة هي طابعه المميّز، مُذ باشرَ حياتَه الـسياسيّة فـي الهند، فانطوى خطابُه الأَوّل، في جامعة بيناريس، على لهجةٍ جديدةٍ لم يعهـد مثلَهـا الناس، من قبلُ، لهجةٍ تموج بالصِّدق والتحدّي، وتفضح الرياء السائد، ولا تُحجم عن انتقاد الذَّات بقسوةٍ، عِوَضًا عن التغنّي بأمجادٍ غابرةٍ، والتباهي بحضارةٍ عريقةٍ؛ ولا عَجَب، بالتَّالي، إن أَغضَبَ كلامُه محترفي السياسة ودهاقنتهـا، وأحـرَجَ العُظمـاء بإماطته اللِّثام عن دَجَلهم وريائهم، وإن هو، في آنٍ معًا، فجَّر حماسًـا هـادرًا لـدى الشبَّان الذين ما انفكّوا يتطلّعون إلى المُثُل النظيفة.

وكان المراؤون يعلنون، أَبدًا، فشلَهم حيالَ بساطة المهاتما، والمخادعون يُـسقَطُ في يَدهم أَمامَ براءته، فمَا من ذريعةٍ أجدى لفضح الرِّياء من البساطة، ولا من وسيلةٍ أقدر على قَهر المَكر من البراءة.

لقد كان الكذب مقيتًا لديه، وكلُّ حيادٍ عن الحقيقة، ولو ضئيلاً، بغيـضًا عنـده، فحارَب الكذب بضراوةٍ، ولكنَّه كان رؤوفًا بالكاذبين، جاهدًا في إصلاحهم، وقد قال، هو نفسه: "**إنَّ للساعي في إثر الحقيقة قلبًا في مثل رقّة زهرة اللوتس، وفي مثـل قسوةِ الصوّان**".

وقد كتب رومان رولان عنه: "**لم تكن تُباغتُه أيّةُ حيلةٍ سياسيّةٍ. أمّا سياسـته،**

فكانت قائمةً على الإفصاح بكلّ ما يجول بخاطره، من غير أَن يُخفي شيئًا". ويؤكّد غاندي هذا الواقع بقوله: "**أقولُ بلا تردُّدٍ أنّني لم أَلجأ قطّ، في حياتي، إلى الحيلة**".

ولقد طالما أكّد أنّ العلاقات بين الناس ينبغي أن تقوم على الصَّراحة البيّنة، وأن تُعقد، جميعُها، في وَضَح النهار، وصدِق القول، من غير توريةٍ ولا أسرار، فليس كالأسرار ما يُفسِد ما بين الناس من صلاتٍ.

وبقَدر ما كان غاندي **صُلبًا** كالفولاذ في تشبُّثه بمبادئه الأَساسيّة، ثابتًا لا يلين في وفائه لغاياته القُصوى، كان **مَرِنًا في البحث عن الحقيقة**، بعيدًا عن التحجُّر في نُشدان أَمثل الأساليب لبلوغها وخدمتها. ولكي يحتفظَ بحرّيَّةٍ كاملةٍ في هذا البحث وذلك النُّشدان، رفض دائمًا الانتساب إلى أَيّة حركةٍ فكريّةٍ، ولم يُتِح لأيّ مذهبٍ محدَّدٍ أن يُقيّد تفكيره؛ فقد كان يتبنّى كلّ ما يستصوبه من كلّ مَذهَبٍ، وكلّ ما ينفذ إلى قناعاته من كلّ نظريّةٍ، ويحتفظ لنفسه بحرّيَّةٍ نَبْذِ كلّ ما يأباه ضميرُه، أو يستنكره "صوته الداخليّ"، حتّى لو كان تقاليد دينيّةً دهريّةً يدين بها الجميع؛ وما كان يخشى الانفراد برأيٍ آمن به، ولا الخروج على معتقداتٍ شائعة، عندما يفقد فيها الإِيمَان، وقد طالما ردّد: "**لا يُصبح الخطأ صوابًا، ولو آمن به كلُّ الناس، ولا يتحوَّل الصوابُ خطًا، ولو ارفَضّ عنه كلُّ الناس وقاوَموه**".

وهو، بالتّالي، لم يُساوِم يومًا على حقٍّ، ولا هو تستّر على خطأٍ.

لقد كانت حياته كلُّها نسيجًا من اختبارٍ متّصلٍ، بحثًا عن الحقيقة، التي كانت، في نظره، هي الله، في استقلاليّةٍ تامّةٍ، لا يُثبطها قَيدٌ، ممّا كان يُفرِغ على سلوكه عَفويّةً دائمةً، ويدمغه بطابعِ المفاجأَة التي يتعذّر توقّعها، ويجعلُ من أَحاديثه رحلةً ممتعةً حافلةً بالاكتشافات، بعيدةً عن الدّروب المطروقة.

ويصِفُ غاندي مسيرتَه الباحثة عن الحقيقة فيقول: "**أنا لستُ أوفِّر عناءً أثناء تلمّسي طريقي نحو الحقّ، ورفيقاي المخلصان، على ذلك الدرب الجميل، على وعورته، والذي يتعيّن على كلّ ناشدِ حقٍّ انتهاجُه، هما الجُهد المتواضِع الدائب، والصَّلاة الصامتة**".

وقد قال أيضًا: "**إنّ اكتشاف الحقيقة المُطلَقة يعني تحقيق الذات، وتحقيق المصير، أي بلوغ الكمال، وأنا أَعي وَعيًا مُرهقًا مدى نقائصي، وفي هذا الوعي تكمُن قوّتي، إذ يندُر أن يعرف إنسانٌ ما هو يفتقر إليه**".

فمن رؤيته للحقّ والحقيقة، استمدّ غاندي إلهامَه وحماسه، وجميع مبرِّرات أعماله ووجوده، وقد دلَّل على الحقيقة بحياته كلّها، بتجاربه ومحنه، بصراعه مع الشرّ، في ذاته وفي العالَم، بتفكيره وأَقواله، بقراراته وأعماله، بترويض نفسه وضبطها، باستجابته للتحدِّيات، بانتصاراته، وانهزاماته، وبالروحانيّة التي وسمَت كلّ ممارساته.

وكانت الحقيقة هي وصيَّته الأولى والأَخيرة، بدليل ما جاء في إحدى رسائله إلى ابنه الأصغر دڤـداس:

"**لو كنتَ هنا، لتسنَّى لكَ أن تشهد ما تُحقِّقه الحقيقةُ من خوارق، وما تمتلكه من سُلطانٍ. هذا هو كلّ ما أودُّ أن أورثَك إيّاه. وفي اعتقادي، إنّه إرثٌ لا ينضُبُ له مَعينٌ. ومَن قدَّرَه حقَّ قدره، أَدركَ أنّه يفوقُ كلَّ ثَمَنٍ، فما ابتغى سواه، ولا رَغِبَ في أيّ إرثٍ آخَر**".

ولم يقف، يومًا، تكريس غاندي حياتَه للحقيقة حائلاً دون تحوُّله عن آرائه، كلّما اقتضى الوفاءُ للحقيقة ذلك. فلم يتحرّج، قطّ، من الاعتراف بأخطائه، جهرًا، وعلى رؤوس الملأ، كلّما اتّضح له أنّه جانَب الصواب؛ ولم يرهب، قطُّ، التراجع عن خُطَّةٍ قد طالما أعدّ لها، وأَعلن عنها، وعبّأَ لها الجماهير الغفيرة، كلّما خامرَه في سلامتها ارتيابٌ؛ ولم يتردّد، مرّةً، في معارضة ما سبق له قوله، إذا ما داخَلَ قناعتَه شكٌّ في تطابقه مع الحقيقة، ولو اضطرّ إلى إحراج أتباعه وأعوانه، أو تعرّض هو نفسه لتُهمة التردّد، والترجرج، بل الجبن، وحتّى الخيانة أحيانًا.

وقد سأله، يومًا، أحد أتباعه، في دهشةٍ: "**باپو، أنا لا أستطيع فهمك، فكيف تستطيع اليوم تأكيدَ نقيض ما قلتَه في الأسبوع الفائت!**".

فأَجابه: "**ذلك أنّني قد تعلّمتُ الكثيرَ، منذُ الأسبوع الفائت!**".

وقد صرّح غاندي نفسه: "**عندما أكتُب، لا أَحفَل مُطلقًا بمَا سبقَ لي قولُه من قبلُ. فليس هَدَفي أن أَظَلّ متوافقًا مع آرائي السابقة حولَ قضيّةٍ معيّنةٍ، بل أن أكون متوافقًا مع الحقيقة، على نحو ما تتبدّى لي، في فترةٍ معيّنةٍ**".

وقد قال أيضًا: "**إن الفَضيلَةَ الوحيدة التي أَدّعيها لنفسي هي الحقيقة واللاّعنف، ولستُ أدّعي أيَّ قدرةٍ فوق قُدرات البشر. إنّني أَملك نفس الجسد المعرّض للفساد الذي يملكه أكثر أمثالي وَهنًا، وبالتالي، فإنَّني، نظيرهم، معرَّضٌ للخطأ؛ إنّ خدماتي مقيَّدةٌ بحدودٍ كثيرةٍ، ولكنّ الله قد باركها، رغم نقائصها. إنّ الاعتراف بالأَخطاء هو المِكنسة التي تُزيل الأقذار، وتترك السطح أوفر نقاءً من السّابق؛ وإنّني أُونس أنّني أشدّ مِنعةً إثر اعترافي. على القضيَّة أن تستفيدَ حتّى من تراجعها، ولن يبلغ امرؤٌ أَرَبه، طالما ظلَّ يَحيد عن السِّراط القويم**".

وكان غاندي مُؤمنًا أنّ النموّ في الحقيقة هو من صُلب الحقيقة، وأنّ ذلك النموّ يتمّ بالخبرة التي يوليها الزمن، وباطّراد البحث، بحيثُ يتجلّى النُشدان أَخطرَ شأنًا من الوصول، والنموُّ المتواصل أَهمّ من الكمال، وقد كتب، في هذا السّياق: "**إنّ إيماني بالحقيقة واللاّعنف هو في نموٍّ مطَّردٍ، وبمَا أنَّني حريصٌ على التزامهما في حياتي، فأنا، أيضًا، أنمو في كلّ لحظةٍ، وأَكتشف لهما وجوهَ تطبيقٍ جديدةً، فأراهما تحت ضَوءٍ جديدٍ كلَّ يومٍ، وأَقرأ فيهما معانيَ قشيبة**".

ذلك البحثُ الجريءُ، المتحرِّرُ، عن الحقيقة، وذلك الوفاءُ القدسيُّ لها، هما اللذان صاغا، إلى حدٍّ بعيدٍ، شخصيّةَ غاندي الفذَّة، على حدّ قول جان ڤانييه[١]:

"**زعامةُ غاندي وقوَّتُه، كانتا تنبعان من الحرّيَّة الداخليّة الراسخة الجذور، التي كان ينعم بها، والتي كانت تضعُه في منجاةٍ من كلِّ تأثيرٍ خارجيٍّ، وكلِّ ضغطٍ، بحيثُ تصدُر آراؤه كلّها وأَعماله، من قناعاته العميقة الغَور، وتأتي تنفيذًا لصوت وجدانه المتحرِّر، ومن وحي الروح، ومن التوافق المُحكَم بين أقواله وأفعاله**".

---

[١] هو ابن حاكم كندا الأسبق، وقد تخلّى عن تدريس الفلسفة في جامعات كندا، ليُعنى بالمعاقين عقليًّا. وأسّس، لهذا الغرض، مراكز عدّةً، في شتّى بقاع العالم.

وغاندي نفسه قد قال: "**أنا لستُ سوى نفسٍ مناضلةٍ مسكينةٍ، تجهد كي تكون خيِّرةً تمامًا، وصادقةً تمامًا، وخاليةً خلوًّا كاملاً من العُنف في الفكر والقول والعمل؛ غير أنّها تفشل دائمًا في بلوغ الهدف الذي ترى أنّه هو الحقّ. إنّه تصعيدٌ شاقّ، بَيد أنَّ المشقّة عندي، تساوي المُتعةَ. فكلُّ خطوةٍ نحو الأعلى تزيدُني شعورًا بالقوّة، وتؤهّلني للخُطوة التالية**".

وكان غاندي، إلى ذلك، **متفائلاً** بالسَّليقة، يحاول إلاّ يرى سوى الجانب المُشرق من الآخرين، ويُؤمن بظهور عنصر الخير فيهم على نزعات الشرِّ، ويوقنُ بحتميّة انتصار الحقيقة على محاوَلات التَّضليل، وعلى الضُّعف البشريّ، بدليل إعلانه: "**أعتقدُ أنَّ البشريّة، في جملتها، عِبر سَيل الدماء، وكلِّ ما يلجأ إليه الغَرب من مكرٍ وانعدام أخلاقٍ على أوسع نطاقٍ، تتقدّم في صمتٍ، ولكن بثقةٍ، نحو عهدٍ أفضل**".

وربّمَا قاده هذا التفاؤل إلى الاستهانة بشأن قوى الشرّ، وغالبًا ما أدّى ذلك إلى تنكُّر أقرب أعوانه له، وإعراضهم عنه، في أحرجِ السَّاعات؛ بيد أَنَّ عزلته تلك لم تثنِه، يومًا، عن تفاؤله الأصيل، ممّا أسبغَ عليه قُوَّةً لا تقاوَم، دفَعت اللورد مونتباتن إلى الاعتراف بأنَّ لدى غاندي، بمفرده، طاقةً تفوق قُدرات خمسين ألف جنديٍّ.

ويجدُر التَّنويه أنَّ غاندي كان، بالفطرة، **جَنوحًا إلى العزلة**، يأنس إليها، ويطمئنّ في أحضانها، وظلَّ، سحابةَ حياته، يهفو إليها، ويستكين لها، كلّما سنحت له، منها، سانحةٌ، كما أنّه كان يَنفرُ من صَخَب الجماهير، والضوضاء، والغوغائيّة، إلاّ أنّ نداء الخدمة قد انتهى به إلى التغلُّب على ذلك النُّفور، وإلى التضحية بالعزلة، وإلى الانغماس، حتّى قمّة رأسه، في معمعان الحياة العامَّة، وإلى وَقف أيّامه ولياليه على الخدمة بلا تخفّظٍ. ولكنّه، في غمرة انشغاله، لم يَذهل، يومًا، عن إفراد قطاعٍ من وقته، يُخلِد فيه إلى الصَّلاة، التي يلتقي فيها أغوارَ عُزلته الداخليّة الكمينة، ويصغي، في صمتها الخاشع، إلى "الصوت الرقيق"، الذي يُرشده إلى مشيئة الله. وكثيرًا ما وَجَد نفسَه، من جرّاء تشبّثه بالحقيقة الصُراح، معزولاً بين ظهرانَي شعبه، غير أنّ تمرّسه بالعُزلة الطوعيّة كان يحول دون جعل مثل تلك العزلة القسريّة تصرفه عن مواصلة نضاله.

ولا بِدعَ، بالتالي، إن اعترف المستشرق الصوفيّ "ماسينيون" أنّه، في أعقاب خمسين سنةً من البحث الجاهد، قد اكتشف، في غاندي، ضالّته المنشودة، أي المثال الكامل للتوفيق بين التأمُّل والعمل، وقارنه بمثالَيه الرفيعَين: "الحلاّج"، و"شارل دي فوكو"، اللّذَين قد طالما أُعجب بسخاء التضحية بالذّات لديهما، ورأى، في ذلك الثالوث الفذّ، نموذجًا رائعًا لنفوسٍ"رسالتها الصّلاة والتألّم من أجل البشر أجمعين".

ولا ريب أنّ غاندي هو من القِلّة النادرة ممَّن توفّقوا في الجَمع بينَ التصوُّف والعَمَل الاجتماعيّ، بين الكفاح الصُّلب العنيد واللاعنف، بين السّياسة والقداسة.

غير أنَّ الطابع المُهَيمنَ على شخصيّة غاندي، الذي يَسِمُهما بالتميُّز، ويُحيطها بهالةٍ من السُموّ الفذّ، هو **تديّنه الراسخ**، البعيد الغَور، **وإيمَانه الوطيد** المتغلغل حتّى أعماق كيانه؛ فقد رضع غاندي التديُّن من والدته الوَرِعة، ورسّختهُ فيه مربّيتُه، ونمّاه، هو، سحابة حياته بِالتَّأمُّلِ، والصَّلاة، والإصغاء إلى الصوت الداخليِّ الخافت، وبالعيش، كلَّ لحظةٍ، في حضور الله، ووِفقَ مشيئته، وبالسَّعي الدائب إلى مشاهدته وجهًا لوجهٍ.

ذلك السَّعيُ ظلّ ديدنه، حياتَه كلَّها؛ وقد أَرّقه، أَبدًا، على نحو ما أَرّق معظمَ القدّيسين، عجزُه عن بلوغ ذلك الهدف البعيد المنال، وقد عبَّر عن ذلك القَلَق النبيل، عندما صرّح، في مُقدّمة سيرته الذاتيَّة: "**ممّا يعذبني باستمرارٍ أن أكون ما زلتُ بعيدًا عنه، ذاك الذي أعرف جيّدًا أنّه سيّدُ كلِّ نسمةٍ من حياتي، والذي أنا منه انبثقت**".

وقد طالما ردّد القول أنّه لو تأكّد من اكتشاف الله في كهفٍ من كهوف الهيمالايا لاعتكَفَ فيه، على غرار المتنسّكين، ولكنّه كان واثقًا أنّه لن يَعثرُ على الله إلاّ في قلوب النّاس، ولا سيَّمَا المنبوذين منهم والمسحوقين، وهكذا دفعه بحثُه عن الله دفعًا إلى ميدان السِّياسة، ومعمعان النضال الاجتماعيّ، وساحات الخدمة العامّة. وكانت الخدمة هي أقصر طريق، على وعورتها، إلى اكتشاف الله، فلم يعرف إلهًا سوى ذاك الذي التقاه في صدور ملايين المسحوقين من

مواطنيه، وقد عَبَدَ ذلك الإله بوقف حياته علــى نُــصرتهم، ورفــع الحَيــف اللاَّحــق بهم، ومضى إيغالاً فــي محرابــه، بقَــدر مــا كــان يلطِّــف أوصــابهم، ويُــضمِّد جراحَهم، ويؤَاسي أحزانهم، ويبعث فيهم أسبابَ الصِحّة، ودواعي الرجاء.

لقد أَنفق حياتَه باحثًا عن الله في كلّ جائعٍ، فيُوفّر له الطعام، وفي كــلّ شــريدٍ، فيؤمّن له المأوى، وفي كلِّ حزينٍ، فيسكبُ في نفسه العزاء والأَمل، وفي كلِّ مَهيض جَناحٍ، فيرفُده بالأزر والمِنعة وأسباب الكرامة؛ وذلكم، لَعَمري، هو المعيارُ الذي بــه يتعرَّف الربُّ أَتباعَه ومختاريه.

وعلى هذا النَّحو كان غاندي مؤمنًا ومتديّنًا بالسليقة، واقتحم ميدان السياسة بحُكم الظروف، وبدافع الدِّين. والإيمَان عنده لم يكُن مفهومًا عقليًّا، بــل التزامًــا ســلوكيًّا يتناول الكيانَ كلّه، واكتشافًا مستمرًّا لقوّة الحقيقة، وشريعة الحبّ، وهوى خدمــة الله في الإنسان.

ولقد أصابَ نهرو كبِدَ الحقيقة عندما أوجَزَ سيرةَ غاندي بوصفها: "**إِيمانٌ مُحِبٌّ، في خدمة الإنسانيّة**".

ولئن كانت الخدمةُ هي سبيلُ غاندي الرئيسُ إلى اكتشاف الله، غير أَنّه انتهج إلى ذلك الهدف سُبُلاً أُخرى موازيةً، كان لا معدى عنهــا لرؤيــة الله بنظــرٍ صــافٍ، وبوُضوحٍ منزّهٍ من الظلال، فَعكفَ، طوالَ حياته، على تحرير نفسه من كلّ الأَوهان والشَّهوات، مُدمنًا الأَصوامَ، متدرِّعًا بالصّلاة، التي لم تقتصر على عباراتٍ تردِّدهــا الشّفاه، بل كانت صبوةً متحفّزةً منبثقةً من القلب نحو خالقها ومُرشدها؛ كما أَنّه جاهدَ، أَبدًا، في سبيل الانعتاق من كلّ ما يحول بينَه وبين الله، فتخلّى عــن كــلِّ امــتلاكٍ دنيَويٍّ، واعتنق الفقرَ الطَّوعيّ، كبحَ شهوات الجسد، وروّض أهــواءَه، فزَهــد فــي ملبسه، وطعامه، ومسكنه، ومارس العفّة التامّة، وهو، بعدُ، في مَيعة الكهولة، وتنازل لله عن إرادته لكي يُتمّم مشيئةَ الله، فحسبُ.

يقول الحلاّج: "**عندما يستحوذُ الربُّ على قلبٍ، يُفرغُه ممّا ليس الله**". وغانــدي قد دأب، مثابرًا، جاهدًا، صابرًا، غير مهاودٍ، على التخلّي عن ذاته ليكون بكلّيته لله.

وقد جاء في رسالةٍ له إلى الآنسة مادلين سلَيد (أو ميرابهن)، بتـــاريخ ١/٤/ ١٩٤٦: **"إنْ أنا أفلحتُ في أن أُفرِغَ ذاتي من ذاتي تمامًا، فسيتملّكُني الله، وحينئذٍ سأتيقَّنُ أنَّ كلَّ شيءٍ سيتحقّق؛ ولكنَّني أَتساءَل، تساؤلاً جدّيًا متى سأَتحوّل إلى صِفرٍ"**.

وفي ٢٩ حزيران من العام نفسه كتب لها: **"إنّني بين يدي الله، ولست أَرغــب في أمرٍ أو في آخر"**؛ كما أنّه أكّد، في رسالةٍ إلى اندروز، استسلامه التــامّ لمــشيئة الرب، واعتمادَه عليه قائلاً: **"أعتقد أنَّني عملتُ وفق مشيئة الله، لا وِفق أيّ مــشيئةٍ أُخرى، وأَنَّه سيقودني عِبرَ الظُّلمات المحدقة بي"**.

ذلك التجرّد المُطلَق، وهذا الاستسلامُ التامّ للمشيئة الإلهيّة، قد أَوليا غاندي قُدُراتٍ جبّارةً، وحوَّلا حياته إلى "مُعجزةٍ مستمرّةٍ"، على حدّ تعبيره، إذْ قال: **"أنا لا أَملك من القُدرة سوى ما يهبُني منها الله... إنَّ صبيًّا في الخامسةَ عشرَةَ قادرٌ على طرحــي أرضًا، بضربةٍ منه... أنا لا شيءَ، غير أنّني قد تحرّرتُ من الخَوف والرغبة، بحيث بتُّ أَعرف شيئًا من قُدرة الله، وإنّني أعلن أنّه لو أَنكر العالَمُ كلُّه الله، لكان عليّ أن أكون له الشاهد الوحيد. إنَّني أعيش في مُعجزةٍ مستمرّةٍ"**.

إيمَانٌ جمّ أبدَعَ معجزةً فذّةً اسمُها المهاتما غاندي؛ وممارسةٌ صـــادقةٌ للإيمَـــان صَبَغت نضالَ غاندي وسياسته وشخصيَّته كلَّها بِسِمات البُطولة والقداسة.

لقد جهد غاندي، حياتَه كلَّها، كي يصبح "كرمايوغي" مثاليًّا. والكرمايوغي حسبَ وصفه له: **"إنسانٌ تقيٌّ، لا يحسد أحدًا؛ إنّه مَعينُ رأفةٍ، خالٍ من الأنانيّـــة، متجـــرّدٌ، ينظر إلى الحرّ والقرّ، إلى السعادة والبؤس، نظرةً واحدةً، يُسامح دائمًـــا، وهـــو، دائمًا، راضٍ، ثابتٌ على عزمه، مكرّسٌ فكره وروحـــه لله. لا يثيـــر الخـــوف، ولا يخشى الآخرين. لا يزهو بنصرٍ، ولا يحزن، ولا يخاف؛ طاهرٌ؛ حاذقٌ فـــي العَمَـــل، ولكنَّ العمل لا يمارس على نفسه سَطوةً؛ زاهدٌ في جميع ثمار نشاطِه، الجيّدة منها والسيّئة؛ يُعامِل على نحوٍ واحدٍ أصدقاءَه وخصومه، ولا يحفـــل أبـــدًا بـــاحترامٍ أو بإهانةٍ؛ لا ينفخه المديح، ولا يبتئس لافتراءٍ أو ذمٍّ، يُحبُّ الصمتَ والعزلة، وعقلُـــه منظّمٌ؛ وتقواه لا تتوافق وأهواءَ عنيفة"**.

ولا بِدعَ، بالتَّالي، إن تراءَى غاندي للكثيرين، في عصرنا، مُحاكيًا أنبياءَ العصور الغابرة، وصوتًا جريئًا يهُزّ الضمائر ويُذكّر بالحقائق الخالدة، في حين تنهض حياتُه، ومثال سلوكه، عِظَةً حيّةً، ورسالةً بليغةً؛ وقد توسَّم فيه البعض سقراط حديثًا، ولا سيَّمَا وأنَّ سقراط من أوائل شهداءِ الحقّ المعروفين.

بَيدَ أنّ الذين عرفوه عن كثَبٍ، تبادرت إلى أَذهانهم صورةُ فرنسيس الأَسيزي؛ ولعَمري، إنّ وجوهَ المحاكاة بين غاندي والأسيزي من التطابق والتَّوافق بحيث نستطيع إيجاز صورةٍ مُكثَّفةٍ وأَمينةٍ لغاندي، بهذا الوصف الذي قيل في الأَسيزي:

« "إنَّه أكثرُ من قدّيسٍ بين القدّيسين، إنّه يُمثّل الوجهَ الأَوفَر شفوفًا لتلك الأحلام، حتّى اللاواقعيّة، التي تَنشُد تعايشًا عالميًّا أخويًّا. إنَّه يُخاطب أعرق ما في النُّفوس البشريّة، إذ إنّ في أغوار كلّ إنسانٍ فرنسيس أَسّيزيّ يحاوِل أن ينهض، ويبرُزَ وينمو، في حرّيةٍ، وسط عوائق العالَم الحديث.

"إنَّ أكثرَ ما يبرزُ منه – ولا سيَّمَا عندما يقارَن بالإنسان المعاصر – هو براءته، ودهشته إزاءَ الحياة، وعطفُه على جميع الكائنات، وقدرتُه على التعاطُف مع الفُقراء، وعلى التآخي مع جميع العناصر، وذلك حتّى الموت.

"البراءة هي الاحتفاظ بنورانيّة الأطفال في الكهولة، بحيثُ يحتفظ كلُّ شيءٍ بنضارته، ونقائِه، وقشابته، وألوانه. ومن هذه البراءَة تنبعث الدهشة والطرب، وهي تقود إلى الروحانيّة.

"لقد برهن على أنّ المرء، كي يكون قدّيسًا، ينبغي أن يكون إنسانيًّا، وليكون إنسانيًّا، يجبُ أن يكون حسَّاسًا ورقيقًا.

"فرويد اعترف: "فرنسيس الأَسّيزي قد مضى إلى أقصى حدٍّ في التعبير عن حبٍّ قادرٍ على عقد روابط مع أكثر الكائنات بعثًا على النفور.

"الرغبةُ العارمةُ هي دافعه، ولكنَّها رغبةٌ مُطَهّرةٌ مصفّاةٌ، متحرّرةٌ من الهوى، ومن أثقال الجَسَد وأوهانه، وهي رغبةٌ متجدّدة أبدًا، ولا تعرف حدودًا.

"ووحده من يروم المستحيلَ، يُفلح في تحقيق كلِّ ما تستطيعه طاقاتُ الإنسان.

كان فرنسيسُ يمضي إلى أقصى حدود الرَّغبة، وإذا ما وطّن العزمَ على قرارٍ مضى في تنفيذه حتّى أقصى عواقبه.

"ليس لديه نظريّةٌ من جهةٍ، وواقعٌ من جهةٍ أُخرى، بل كلاهما مُتَلازمان متطابقان إلى حدّ الإدهاش. كان يقول: الإنسان لا يعرف إلاّ ما يمارِسُه، وكلُّ ما كان يقوله، كان ينفّذُه في اندفاعٍ وحميّةٍ.

"الرغبةُ التي كانت تحدوه، كانت من العُنف بحيثُ، رغمَ هُزاله، كان دائمًا يسبق رفيقَ دربه، وفي رغبته المُضطَرِمة في تحقيق مشاريعه، كان يبدو وكأنّه يطير، وهو منتشٍ بالرُّوح القُدُس.

"كان يُقاوم رَغبات الحواسّ بتقشّفٍ من القَسوة، بحيثُ لا يُعطي طبيعتَه إلاّ ما يكاد يكفيها لسدّ أوَدها. ولكنَّه بقدرِ ما كان قاسيًا على نفسه، كان بالآخرين رؤوفًا؛ وفي علاقته بالآخرين كان يمقت تلك القسوة التي لا تتَّسم بالعطف، ولا تتحلّى بالكتمان.

"كان يرجّح القلبَ على العقل، والقلبُ الذي نعنيه، هو القلبُ حَسبَ مفهوم پاسكال، أي الإحساسُ المرهَف المتميّز عن روح الرياضيّات. "لهذا رؤيةٌ بطيئةٌ، قاسيةٌ، جامدةٌ، ولذلك مرونةٌ تتناول، في آنٍ واحدٍ، مختلف جوانب ما نحبّ". القلبُ، في مفهوم پاسكال، هو الجهازُ الذي يُنتج المودَّة التي هي عطفٌ واهتمامٌ. ليس هو التأثّر، في مقابل المنطق، ولا الشعورُ في مقابل الفكر، بل هو القدرةُ على تمييز قيمة الكائن، وجاذبه، وإشعاعه، وهي الواقع الجوهريّ للكائن البشريّ، وللحضارة الإنسانيّة ».

وفضلاً عن وجوه المحاكاة هذه، آمن غاندي، على غرار الأَسّيزي، أنّ العلم ينفخ، والمحبّة تبني، وأنّ الحضارة التي لا تستمدّ دافعها من استهداف إنماء إنسانيّة الإنسان، ورقيِّ روحه، قبلَ جسده، إنّما هي حضارةٌ زائفةٌ وحَرِيَّةٌ بالمحارَبة، جهارًا.

وعلى غرار الأَسّيزي، أيضًا، مارَس غاندي التكفيرَ عن الآخرين، ففي التكفير تعبيرٌ صادقٌ عن التعاطُف مع الآخرين، وتوثيقٌ للرَّوابط التي تشدّه إليهم، وتعميقٌ للتّواضع الذي يُدني الإنسانَ من خالقه.

وعلى غرار الأسّيزي أَثبتَ غاندي أنَّ التديُّنَ إخاءٌ يشمَل الكون، وأنّ الحضارة محبّةٌ وأَخلاقٌ وخدمةٌ.

وقد نمضي أشواطًا بعيدةً في تبيان أوجه الشبَه المدهشة، التي تُظهر غاندي وكأنَّه فرنسيس الأَسّيزي القرنِ العشرين، أو بالحريّ، أسّيزيّ السياسة، في كلّ زمانٍ وعَصرٍ.

وغاندي، كالأَسّيزي، خليقٌ ببعث مَوجةِ تَجَدُّدٍ، من شأنها أن تنفُثَ في أوصال حضارتنا المُعتلَّة نفحاتِ الروح الكفيلة بإنقاذها.

تلك لَمَحاتٌ خاطفةٌ حاولنا، من خلالها، إجلاءَ بعض الملامح البارزة من شخصيّة المهاتما غاندي، من غير أن يُداخلَنا ادّعاءُ رسم صورةٍ أمينةٍ ومكتملةٍ له؛ فغاندي من تلك اَلشَّخْصيَّات الغنيّة التي تؤلّف بين الأضداد، وتجمع المتناقضات، في تناغمٍ مدهشٍ؛ وهو يبدو، لمن يتصدّى لوصفه، مُحيطًا لا يُحاط به.

وخليقٌ بنا، الآن، أن نتلبّث رَيثًا، فنُنعِم النَّظَر في بعض ملامحه المميَّزة، ونستقرئ المبادئ الأَساسيّة التي أسهمت في إبداع تلك الشخصيَّة الفريدة المُشرِقة.

غاندي السّياسيّ

"على من يَرغَبُ في رُؤية روح الحقّ، وجهًا لِوجهٍ، في شُموله وإحاطته بكلّ شيءٍ، أن يكون قادرًا على حبّ حتّى أَضأَل المخلوقات، مثلَ حبّه لنفسه... ومن ثَمّ، قادني وفائي للحقيقة إلى ميدان السِّياسة، وَيسَعُني القول، بلا تردُّدٍ، ولكن بكلّ تواضُعٍ، أنّ أولئك الذين يدّعون أن لا علاقة مُشتركَةً بين الدِّين والسياسة لا يفقهون من أمور الدّين شيئًا".

هذا القَولُ لغاندي يُلقي ضوءًا كاشفًا على جَوهر سياسته، ودوافعِها العميقة؛ وممّا يزيدُنا استيعابًا لفحوى تلك السياسة قولُه أيضًا، في موضعٍ آخر:

"لن تبدو لي أيّةُ تضحيةٍ جسيمةً إن كان من شأنها تأهيلي لرؤية الله وجهًا لوجهٍ. إنّ نشاطي كلَّه، سواءٌ سُمّي اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو إنسانيًّا أو أخلاقيًّا، إنّما هو يستهدف هذه الغاية. وإذ أُدرِك أنَّ مقابلة الله تتسنّى في أشدّ خلائقه ضِعَةً، أكثر ممّا هي تتسنّى في ذوي القوّة والنفوذ والوجاهة، فإنّني أجهد في مشاركة الوضيعين ظروفهم، ولن يتمّ لي ذلك إلاّ بتكريس ذاتي لخدمتهم. عن ذلك ينبعُ حُبّي

لخدمة الطبقات المُعدَمة، ولستُ أقوى على أَداء هذه الخدمة، إلاّ باقتحامي مُعتَركَ السياسة، وإلاّ إذا وجدتُ نفسي فيهم؛ وهكذا أنا لستُ سيّدًا، بل أنا مناضلٌ باحثٌ، وخادمٌ وضيعٌ للهند، وبالتالي، للإنسانيّة".

غاندي، إذن، في المقام الأَوَّل، باحثٌ عن الله؛ فكرُه وسلوكه ودأبه منصرفةٌ، جميعها، في هذا المنحى، وقد أكّدت له قناعاته العميقة، والصَّوتُ الداخليُّ الذي يقودُ خُطاه، أنَّ السبيل إلى الله يمرّ عِبر الخدمة، ولا سيَّمَا خدمة المنبُوذين والضُّعفاء والوضيعين، وأنَّ الذريعة المُثلى لتوفير عَونٍ مُحَقَّقٍ لهم، تَكمُن في إسماعِ أصواتهم وشكاواهم، وقلبِ الأَوضاع الجائرة التي تُرهِقهم، ودفعها في صالحهم؛ وخيرُ وسيلةٍ لتحقيق كلّ هذه الأهداف، قد رآها غاندي في اقتحام ميدان السياسة.

وغاندي، وفق هذا المفهوم للسّياسة، كان يحذو حَذوَ يسوع الذي قد طالما عَدَّه أَميرَ السياسيّين، إذ إنّه تمثّل بكلّ ضعيفٍ، ووضيعٍ، جائعٍ، عطشانَ، عارٍ، مُتشرّدٍ وسجينٍ؛ ونادى بعالَمٍ جديدٍ يحتلُّ فيه المنبوذون ومهضومو الحقوق، ومهيضو الأجنحة، المرتبةَ الأولى، في حين يُرذَل العُتاةُ والظالمُون وآكلو حقوق الغَير المتخمون؛ وفَضَحَ، في جرأةٍ أفضت به إلى الموت المهين، زَيفَ مُحترفي السُّلطان، ومزَوّري اسم الله، من رُؤساء كهنةٍ وفرّيسيّين، وجَلَدَ وطرَدَ من حوّلوا بيتَ الله دُكّانًا لتجارةٍ خسيسةٍ؛ ومع إعطائه لقيصر ما هو له، كان حريصًا على إلاّ يُنتقص، ممَّا لله، شيئًا.

وبمَا أنَّ غاندي لم يَحِد، يومًا، عن إيمانه الراسخ بأنَّ على الأهداف أن تستوي والغايات، في طهرها ونُبلها، فقد كان من البَدَهيّ والمُحتّم أن يتّسم أسلوبُه السياسيّ بالروحانيّة الصافية، والمناقبيّة النّقيّة السامية. وهكذا ابتدع، في السياسة، نَمَطًا قشيبًا يُناقض ويُناهض كلَّ ما عُهِد، من قبلُ، عن السياسة، من مثالب. فالسّياسةُ التي قد طالما وُصِفت بمفسدةٍ للأخلاق ومَقبرةٍ للقِيَم، قد حوَّلَها غاندي مدرسةً للمناقب الرفيعة، وللرُّجولة في نُشدان الحقّ، وللصلابة في التشبُّث به، والذَّود عنه حتّى الاستشهاد في سبيله، وللخدمة السَّمحاء، من غير حدٍّ ولا قَيد، وللتّسامح الشهم، وللانفتاح المُشرَع على كلّ خيِّرٍ أيًّا كان انتماؤه، وللجرأة في الاعتراف بالخطأ.

وعوضًا عن تحميل الغير تَبعات الفشل، تحمَّلَها عنهم، من غير تردُّدٍ ولا وَجَلٍ، وكفَّرَ عنها، في روحٍ من التضحية المتواضعة السحيقة، كلُّ ذلك في إطارٍ من الرُّوحانيّة الشفّافة السامية المُفعَمة بحضور الله، والتي تَضَعُ قِيَمَ الروح القصوى فَوقَ كلّ اعتبارٍ، وتغمرُ بنَفحتها كلَّ شيءٍ، فتُسبغ على المهمّات اليوميّة الوضيعة قِيَمًا خالدةً، وتُزَوِّد العَرَضيَّ الزائلَ بعُنصُرٍ أبديٍّ، وتُوثِّق العلاقة بين ملكوت الروح ومهامّ التاريخ بأَواصر لا انفصام فيها، ولا تنابذَ بينها.

وغاندي، بسياسته هذه، قد كفَّر عن كلّ ما ارتكبته الإنسانيّة، على مدى تاريخها الطَّويل المتمادي من جَورٍ وهمجيَّةٍ وميكيافيليّةٍ ودكتاتوريّةٍ، ومن غَزوٍ واحتلالٍ واستعمارٍ، وأوقَد أَملاً مُضيئًا في سياسةٍ نَضِرةٍ تُغني إنسانيّةَ الإنسان وتسمو بها.

إنَّه، على غرار المتنسّكين المنقطعين للمجاهدة والصلاة والتقشُّف، تكفيرًا عن إخوانهم البَشَر السَّادرين في الضَّلال والرذيلة والابتعاد عن الله، قد كفَّر، بطُهر أفكاره ونقاءِ سيرته، وقداسةِ سياسته، عن مظالم السياسيّين عبرَ التاريخ، وعن لا إنسانيّتهم، ونَهَض دليلاً على أنّ في الإنسان جوهرًا إلهيًّا ساميًا خالدًا، قادرًا على خوض أكثر المُستنقعات البشريّة تَعَفّنًا، من غير أن يَفقد نقاءَه، وعلى الانغماس في حمأتها الآسنة من غير أن يُصابَ منها بلَطخةٍ أو تلوّثٍ.

لقد صَبَغ غاندي سياستَه بصوفيّةٍ عميقة الغور، من غير أن تمسّ السياسةُ سُموّ تلك الصوفيّة بشائبةٍ؛ وسار، أَبدًا، تديّنُه الصميمُ وتطلُّعاتُه الاجتماعيّة والسياسيّة جنبًا إلى جنبٍ؛ فمع انغماسه الكُلّيّ في الحياة العامّة، ظلّ على اتّصالٍ وثيقٍ بالله، وكان، كلّما انتهى أحدُ مساعيه إلى إخفاقٍ، يَفزَعُ إلى الصَّوم والصلاة، مُعتبرًا نفسَه مسؤولاً عن ذلك الإخفاق، ومُستنجِدًا الله كي يُنقذَه وأتباعَه من الإثم والظُّلم.

لقد كان راسخَ الإيمَان بأنَّ الحياةَ الخاصّة والحياةَ العامَّة ينبغي أن تخضعا كلتاهما لمبادئ أخلاقيّةٍ واحدةٍ، ومن ثَمَّ، فقد حرص على أن يُقيم من نقاء سيرته وطاقته على المعاناة، ضمانًا لسلامة نضاله، فاقتفى أثرَ حُكَماء العصور الغابرة الذين كانوا يُهينون أَجسادَهم كي يُحققوا لنفوسهم الحرّيّة، وتغدو أجسادُهم قادرةً على تحمُّل

أيّ عذابٍ قد يُلحقه بهم طُغاةٌ يحاولون فرضَ إرادتهم عليهم، فعكف، سحابةَ حياتــه، على بَسط سيطرته على نفسه، وتعزيز قدراتها، وقد وَصَفَ، هو نفسه، ذلك النّضال المتَّصل بقوله:

"**إنّ نفسي تأبى الطمأنينة طالما هي ظلَّت شاهدةً عــاجزةً علــى أَذى يُلحَــقُ بإنسانٍ، أو شقاءٍ يُلمُّ به؛ ويتعذّر عليّ، أنا الكائن الهشّ الواهي، إصــلاح جميــع المظالم، أو تبرير نفسي من اللَّوم عمّا أشهده من شرورٍ. إنَّ الروح فيّ يجرّني في منحًى، والجسد في منحًى آخَر، والتحرُّر من تأثير هاتين القوّتين ممكنٌ، إلاّ أنَّــه لا يتمّ إلاّ على مراحل وئيدةٍ وشاقَّةٍ؛ ولن تتهيّأ لي الحريّة بإحجامي عن العمل إحجامًا آليًّا، ولكن بعملٍ مستقلٍّ مُدرِك. وهذا الصراع بين الجسد والروح، في سبيل تحرير النفس تحريرًا مُطلقًا، يستلزم صَلبًا للجسد لا هوادةَ فيه**".

وهكذا كان نضالُ غاندي السياسيّ تصعيدًا متَّصلاً على درب الجلجلة، وقد أمدّه الصليبُ الذي تنكَّبَه طائعًا، منعةً نفسيّةً فريدةً، بحيثُ كتب "جيلبرت مــورّي"، عــام ١٩١٨، واصفًا نضال غاندي بأنَّه "**حربٌ بين نفسٍ وحكومــةٍ**"، وتَوقَّــعَ أن يكــون غاندي "**عَدُوًّا خطيرًا ومزعجًا، لأنَّ جسمه الذي يُمكِنُ قهره في كلّ لحظةٍ، لا يملــك على نفسه سوى قدرٍ ضئيلٍ من السَّيطرة**".

وعلى غرار ما التزمه في نُشدان الحقيقة، لم يُخضِع غاندي سياستَهُ لنظريّــاتٍ ثابتةٍ جامدةٍ، بل ربَطها بالواقع الحيّ، بحيثُ تتطوّر وتتبدَّلُ معــه، وكانــت ثوابتُهــا الوحيدةُ هي مبادئ الدّين والأَخلاق، والحقّ والخدمة.

ولكي نُقَدِّر سياسةَ غاندي حقَّ قَدرها، حَسبُنا أن نذكر أنّه كان رسولَ اللاَّعُنــف والمحبّة والحرّيَّة لكلّ إنسانٍ، في حِقبةٍ كان فيها هتلر وموسوليني وستالين يزرعــون الذُّعرَ والإرهاب في بلادهم وفي العالَم، ويسومون شــعوبَهم والــشعوبَ المُجــاورة الجَورَ والخَسف، ويُعمِلون التقتيل بلا وازعٍ ولا رحمةٍ، وفي عهدٍ كانت فيه الولايات المتَّحدة الأَميركيَّة دائبةً على إنتاج القُنبلة الذَّرِّيَّة واختبار قُدراتها على القتل والتَّدمير.

وفيمَا كانت الدّول الكبرى تحاول أن تُثبت أنَّ الحرب وحدَها كفيلةٌ بوضع حدٍّ للحروب، وبأَنَّ الكَبتَ والرقابةَ البوليسيّة، وحدَهما، قادران على بَسطِ سيطرة الدولة وحِفظ هَيبتها، ارتفع من الهند صوتٌ كصَوتِ الأنبياء، مُثبتًا للعالَم، بكلّ قوّة إقناعه، وبكلّ تأثير قُدوته، أنَّ هناك خياراتٍ أُخرى، أوفرَ إنسانيَّةً، داعيًا إلى اللاَّعنف وسيلةً إلى السِّلم والإخاء بين البشر، وإلى إيقاظ وعي الأفراد والحفاظ على كرامتهم وإنمائهما، تمهيدًا لبناء دُوَلٍ متماسكةٍ تُوفِّر لجميع مواطنيها الخَير والرِّفعة؛ ومؤكّدًا أنّ الإصلاحات التشريعيّة لا طائل تحتَها، ما لم يُواكبها إصلاح البشر أنفسهم، بحيثُ يُقبِلون، طائعين، على تكوين مجتمعٍ متراصٍّ، متحرّرٍ من العنف، قائمٍ على التفاهم الحميم والحبّ المتبادل.

وفيمَا كانت حركاتٌ إلحاديّةٌ وماديّةٌ تُحاوِل أن توظّف في بدَعها، ما انطوت عليه الدّياناتُ الكُبرى من طاقاتٍ جبّارةٍ، تراكمت عبر قرونٍ من الإيمَان والصَّبر والصلاة، محوّلةً الأرثوذكسيّة الروسيّة إلى مادّيّةٍ شيوعيّةٍ حمراء، والمسيحيَّة الغربيّة إلى مادّيّةٍ فرديّةٍ ذَهَبيّةٍ، وإلى مجتمع استهلاكٍ بطِرٍ، ومحوّلةً الترقّب المأساوي اليهودي إلى صُهيونيّةٍ عُنصريّةٍ استعماريّةٍ شرسةٍ، وإلى تحليلٍ نفسيٍّ شاخصٍ بأبصاره إلى المستنقعات البشريَّة الآسنة، عوضًا عن التطلّع إلى السماء، نَهَض، في الهند، قدّيسٌ، قرَن روحانيّةَ الهندوسيّة وإنسانيّتها بديناميكيّة الإنجيل ومناقبيّته، وذكَّر العالَم بأنَّ الدّين وحده، الدِّينَ الصحيح المتمثّل في الإيمان ونُشدان الله، والسَّير إليه عبرَ الخدمة السَّمحاء، وطُهر السيرة، هو الكفيل بإنقاذ البشريّة من أوصابها، ومن التعاسة التي جرّتها على نفسها، مُؤكِّدًا أنَّ الديانات الكبرى، جميعها، في جوهرها، تتلاقى على هذا الهدف النبيل.

ويقول الأستاذ أنطون كرم، في هذا السياق:

« "يَئس أهل الفِكر المُؤمنون من إصلاح العالَم، فالتمسوا الرجاءَ في العقيدة الغيبيَّة، واستسلموا للإيمان، وتفاءل هو (غاندي) فالتمس الرجاءَ بتحويل الإيمان إلى فِعلٍ.

"وانتَبَذَ أهلُ الفكر المُلحدون كلَّ عقيدةٍ غيبيَّةٍ، وبنوا على الواقعيّة البحث إصلاحَ العالَم والإنسان، فأفرغوا المادَّةَ من معناها اللامتناهي، والإنسانَ من حُلمه الوسيع، فتجوّف الكون، ودار الإنسان في خلاءٍ حزينٍ. وتفاعَل، هو، ليردّ إلى المادّة معناها في نظام الكون، وإلى الإنسانِ حُلمه الذي لا ينتهي، وإلى الكَون قشَعريرة الفرح.

"كمثل صوتٍ في فم الأنبياء، جاء صوتُه من أدغال الهند، وبثَّ الحرارةَ في رُكود المستسلمين، والنعمةَ في بُؤس المنبوذين، ويقظةَ الرَّجاء في يأس الراقدين، يكرز صادقًا برسالة الخلاص المُنتَظَر ».

لقد جعل المهاتما من دينه مُرتَكزًا لسياسته، ومعيارًا لسلامتها، ووضع سياسته في خدمة مُثُل الدِّين العليا، وسعى إلى تعميم ذلك النَّهج بين أبناء وطنه؛ وكان يحدوه الإيمان بأنَّه "**من المُمكن إدخالُ الصِّدق والإخلاص المُطلَقَين إلى حياة البلاد السياسيّة... سأبذُل ما استطعتُ من جُهدٍ لكي نتبنّى، في جميع نشاطاتنا الوطنيّةِ، الحقيقةَ واللاَّعُنف**". وفي مناسبةٍ أُخرى صرّح:

« لقد أَجريتُ اختباراتٍ على نفسي وعلى أصدقائي، ترمي إلى إدخال الدّين في السياسة، واسمحوا لي بيانَ ما أعني بالدِّين. إنَّه ليس الديانة الهندوسيّة، مع أنّني أضعها في أرفع مقامٍ من تقديري، بل هو الدّين الذي يتخطّى الهندوسيّة، الذي يُحوّل طبيعتَنا ذاتها، والذي يُوحّدنا توحيدًا لا فكاك عنه بالحقيقة الكامنة فينا والتي تطهّرنا أبدًا؛ إنَّه العنصر الثابت في الطبيعة البشريّة، الذي لا يُستَغلى أيُّ ثمنٍ لقاءَ ما يمكّنه من التعبير عن ذاته تعبيرًا كاملاً، وتظَلُّ النفسُ، معه، في قَلَقٍ مُطلَقٍ، طالما هي لم تكتشف ذاتَها، وتعرف خالِقَها، وتُقدّر العلاقةَ الحقّةَ القائمة بينها وبين باريها ».

ولئن بدا الكلامُ عن الله والنّفس والتضحية والتجرّد، مستهجنًا في عَصرٍ طغت فيه القِيَم الماديّة، إلاّ أنَّ قِيَم الروح والأخلاق، ما انفكّت هي التي تستفزّ أنبل حركات الإصلاح في العالَم، وتستثير إعجابًا صادقًا لدى كلِّ من ظلَّ القبَس الإلهيّ متّقدًا في صدورهم؛ وستظلُّ مسيرةُ غاندي وتعاليمُه حافلةً، في هذا المضمار، بالعِبَر الباقية.

ولقد أَقام المهاتما الدَّليلَ، بمُضيِّه قُدُمًا في سياسته تلــك، بعيــدًا عــن الــدُّروب المطروقة، والمفاهيم الرَّائجة، وبوَفرة ما حَصَده، منها: من غلالٍ اجتماعيّةٍ وإنسانيّةٍ وسياسيّةٍ على السَّواء، على صدق قول سولجنتسين: "**إنّ السياسة المبنيَّة على مبادئ الأخلاق تُثبِتُ أنّها الأكثرُ بُعدَ رؤيةٍ، والأكثر إنقاذًا وجدوى**".

ولَعَمري، لم تكن يسيرةً المهمّةُ السياسيّةُ التي انتدب غاندي نفسَه لهــا، مُهمّــة تحرير الهند داخليًّا وخارجيًّا، تحرير شعبها من البُؤس والجهل والقــذارة والخــوف والخنوع، وتحرير سياستها من براثن الاستعمار البريطانيّ، وذلك، بأساليب اللاّعنف والإقناع والمحبّة؛ لقد كانت تلك المُهمّة المزدوجة، في حينها، تبدو ضربًا من الخيال، فالشَّعب الهنديُّ قد طالما أَلِفَ الاستسلامَ لقَدَرِه الغاشم، والاستكانةَ له، وكــان بَعــثُ الوعي والكرامة في صُدور أفراده يقتضي مُعجزةً؛ أمَّا كابوس الاحتلال البريطــانيّ، فكان يُمثِّل أعتى أنماط الاستعمار وأدهاها آنذاك، وكانت الهند دُرَّةَ تاج الأَمبراطوريّة البريطانيّة، ومفتاحَ دوام سيطرتها على رُقعةٍ رحبةٍ من العالم، وكان مجــرَّد تخيُّــل إجلائها عن الهند يبدو حُلمًا مستحيلاً، فضلاً عن أنَّ وسائل الكفاحِ الأخلاقيّة والدينيّة التي دعا إليها غاندي كانت تُثير الاستهزاءَ، وترتدي، في نَظَــر دهاقنــة الــسِّياسة، مظهرَ عَبَثٍ فكريٍّ، يلهو به دخيلٌ على السِّياسة، حالمٌ، غريبُ الأَطوار.

بَيدَ أنَّ الواقع قد أثبت أنَّ غانــدي كــان أكثــر الــسياسيّين وُضــوحَ رؤيــةٍ، وأنَّه كان أَصدقَهم، وقد وَصَف، هــو نفــسه، ذاتَــه، قــائلاً: "**أنــا لــستُ خياليًّــا، ولكنَّني أطمح في أن أكون مثاليًّا واقعيًّا**". ولئن كانت الــسياسة، علــى حــدّ قــول أحدهم، هي فنّ جعل الضروريّ ممكنًا، فقد برهن المهاتما عــن أنَّــه كــان، فــي هذا المضمار، فَنّانًا مُبدعًا.

فهو لم يتوجّه إلى شعبه بالخُطَب الرنّانة، والمقالات المزوّقة، على غرار مُحترفي السياسة الذين يُقيمون، مع ذلك، عن الشعب، في عُزلةٍ قصيّةٍ، بل مضى، كما لم يفعــل أحدٌ سواه، إلى أبناء وطنه، إلى أقصى قراهم وأفقرها، وعاش بين ظهرانيهم، وعــانى همومهم، وساعدهم على تذليل مشاكلهم، وكان أكثرَ منهم زهدًا فــي لِباســه وطعامــه،

ومِثلَهم سار مسافاتٍ طويلةً حافيَ القَدَمين، واستقَلَّ نظيرَهم، عرباتِ قطارٍ من الدرجة الثَّالثة مُزدَحِمةً خانقةً. وبقُدوته نَفَذَ إلى أغوار قناعاتهم، وألهب مشاعرَهم، فمضوا يُلبّون نداءاتِه، بلا وَجَلٍ ولا تهيُّبٍ، وقد تحرّرت نفوسُهم من المذلَّة والخَوف.

يقول پول ڤاليري، في تعريفٍ ساخرٍ للسِّياسة: إنّها "استفتاءُ الناس في ما لا يُدركون، ومنعُهم من الاهتمام بمَا يَعنيهم". ولئن كانت تلك هي السياسة في مفهوم مُحتَرفيها، إلاّ أنَّ غاندي قد قَلَب هذا المفهومَ رأسًا على عَقِبٍ، وبنى سياسته على تَوعيةِ شعبه، ودفعِه إلى تقرير مصيره، على ضَوء تلك التَّوعية، وعلى حَمل مواطنيه على حلّ قضاياهم بأنفسهم، وعَدَم التنازُل عن أَيٍّ من حقوقهم.

وكان غاندي قد شخَّص، عن كثَبٍ، عِلَل بلاده، قَبل أن يباشر فيها عَمَلَه السياسيَّ، فتبيّن له، على حدّ قوله "**إنَّ الهند، اليوم، كُتلةٌ هامدةٌ تحرّكها إرادةُ الغير؛ فلتنتعش وتتطهَّر بالزُّهد والسَّيطرة على الذات، فتصبح بَركَةً لذاتها وللإنسانيّة**".

وقد أوضح لمواطنيه، منذ الوهلة الأولى أَنَّ "**الاستقلال لا يسعه أن يكون مِنحةَ أمَّةٍ لأمّةٍ أُخرى، بل هو كنزٌ ينبغي ابتياعه بثَمَن دَم الأمّة الأكثر نقاءً**". لم يَخدع شعبَه بالوُعود الكاذبة، ولا هو فرَشَ طريقَ نضاله باليُسر والمغريات، بل إنّه أهاب به إلى التَّضحية والتطهُّر، ودربِ الصليب، مؤكّدًا له أنّه سيلقى، في نهاية المطاف، الكرامةَ وتحقيقَ الذات؛ وغالبًا ما أَسمعَ مواطنيه مثل هذه العبارات الإنجيليّة النَّغمة: "**لم ينهض، قطُّ، بلدٌ، ما لم يَتَطهَّر بنار العذاب، فلكي يَنبت القمح لا بدّ أن تَفنى حبّاتُ بذاره؛ إنَّ الحياة تنبثق من الموت، فهل للهند قِبَلٌ على الانعتاق من عُبوديّتها، ما لم تخضع لشريعة التطهُّر بالعذاب الخالدة؟**".

لقد سعى غاندي، مِثل غيره من القادة، إلى الاستقلال، ولكنَّه، على نقيضهم، كان وطيدَ الإيمَان بأَنَّ بلاده لن تظفَر بتحرُّرٍ حقٍّ، ما لم يتحرَّر مواطنوها من القُيود النفسيَّة والماديّة التي تغلّهم، وكان يحدو نضالَه اليقينُ بأنَّ الاستقلال المُحقَّق إنَّما تنهض به القاعدةُ الشعبيَّةُ العريضةُ الواعية المتحرّرة، لا قبضةٌ من المتزعّمين الذين كان من شأن تمزّقهم وتنازُعهم على الزعامة والنفوذ، ترسيخُ قواعد الاستعمار إلى

ما لا نهايةَ، أو نَقلُ سُلطات الاستعمار إلى قَبضةِ زُمرةٍ من المتنفّذين الهنود المستغلّين، واستبدالُ نيرٍ صُنِعَ في بريطانيا، بنيرٍ هنديّ الصُنع، يتساويان، كلاهما، في اغتيال الحرّيَّة، وامتهان الكرامة.

الاستقلالُ، في نظر غاندي، كان، في المقام الأوّل، عمليَّةَ تطهُّرٍ ذاتيٍّ، وإصلاحٍ داخليٍّ، لكيلا يغدو مثلَ قَبرٍ مُكلَّسٍ؛ وكان، أيضًا، معركةَ تحرير الذات الهنديَّة من التقاليد الشاذَّة، ومن عبوديّة النِّظام الطبَقيّ، ومن لَعنة "المنبوذيّة"، ومن الغرور والجَشع والرّياء والخَوف والجُبن؛ وغاندي، في هذا المضمار، لم يُحاول أن يُخفي عن نفسه، وعن الآخرين، الأوصابَ الوبيلة، التي كانت بلادُه مُبتلاةً بها، والتي ناهضها من غير مواربةٍ ولا مهادنةٍ، وفي صراحةٍ جارحةٍ، وفي طليعتها "المنبوذيّة" البغيضة، التي اعترف، مشيرًا إليها: "**لقد نبذنا (فئةً من مواطنينا)، وها نحن قد أصبحنا من المُستعمرات البريطانيّة... في الحقيقة ما من تُهمةٍ نُلصقها بالإنكليز، لا يسع المنبوذين رشقُنا بها**".

والمَرض الوبيل الآخر الذي لم يكُفّ عن التنديد به، هو التمزُّق الطائفيّ الذي لم يكن، في نظره، يَقِلُّ خطورةً عن الاستعمار، وقد طالما حذَّر شعبَه، في وضوحٍ وصراحةٍ، أنَّه ما لم ينعتق من تلك الأَوصاب وأمثالها، فلن يكون بالاستقلال جديرًا، وما أكثر ما ردّد مثل هذا القول:

"**ليس بوسعي، ولا بوسع أحد، منحُ الأمّة الاستقلالَ، بل هي ستظفر به، عندما تغدو له أهلاً. ومن العَبَث إلقاءُ اللَّوم على الحكومة، فنحن لنا الحكومةُ التي نستحقّ؛ وعندما نُصلح أنفسنا، تُمسي حكومتُنا، هي أيضًا، أفضل، وحينئذٍ فقط، سنظفر باستقلالنا**".

لقد قاد غاندي أوّلَ عِصيانٍ مدنيٍّ، على أَوسع نطاقٍ، في التاريخ، ولكنَّه لم يكفَّ عن التأكيد على ضرورة طُهر الوسائل، ونقاءِ الطوايا، وسلامةِ النوايا، والتأهُّب للتضحية، كشرطٍ لا غنى عنه لاستقامة كلّ نضالٍ، وجدوى كلّ عصيانٍ، مثل قوله:

"**ينبغي إلاّ ينطوي العصيان المدنيّ على أيّة إثارةٍ، وأن يكون تأهّبًا لمعاناةٍ صامتةٍ**".

"ليس من شأن أيّ سِجنٍ منحُنا الاستقلال، ولا من شأن أَيّ عصيانٍ أن يُضرم فينا روحَ الطاعة والنظام، فسَجنُ المجرم المتصلّب لن يُشرِع أمامه البابَ المُفضي إلى الحرّيَّة؛ ولا تغدو السُّجون هياكلَ إلاّ لِمَن يُجسّدون البراءَة، ولا شيءَ يحملني على الاعتقاد أنَّنا قادرون على انتزاع الاستقلال بفضل سَجن آلافِ الرِّجال، الذين يدَّعون اللاعنف، في حين أنَّ قلوبَهم تمور بالشَّحناء، والنوايا الفاسدة والعُنف".

لقد كان غاندي يتوخّى أن يتحقّق استقلال بلاده، عبر ثَورةٍ هادئةٍ، مطّردة، بحيثُ تنتقل السلطات من مؤسَّسةٍ مُغفلةٍ، إلى ممثّلي الشعب تلقائيًّا، مثلما تسقُط ثمرةٌ ناضجةٌ من شجرةٍ تنال نصيبَها الوافي من الرِّعاية؛ وكان حريصًا على أن يتنزَّهَ نضالُ بلاده، في سبيل الاستقلال، من كلّ أثَرٍ لعُنفٍ، أو ضغينةٍ، أو انتقامٍ.

وربُّمَا نبعت أقسى تجربةٍ خاضها في قيادة شعبه على طريق الاستقلال، من استخدامه اللاّعنف على نطاقٍ جماهيريٍّ، ممّا كان يستَوجب التَّوفيقَ بين شَنّ ثورةٍ شعبيَّةٍ على الاستعمار، وكَبح جماحِ الهَيَجان الشَّعبيّ، أي، في آنٍ معًا، تعبئة النُّفوس، ولَجمَها عن العنف. كَمْ قد عانى المهاتما في هذا السبيل! وكم قد واجه، في بسالةٍ وثَباتٍ، اتّهامات رأيٍ عامٍّ حسيرِ الرُؤية، لم يتورَّع حتّى عن رَشقه بالتواطؤ والخيانة، كلّما أجبرته موجاتُ عنفٍ طارئةٌ جامحةٌ، على إيقاف حَمَلاتٍ وطنيّةٍ كان قد عبّأ لها الشَّعبَ كلّه، أو على إرجاء خُططٍ كان قد أعدّ لها بعنايةٍ وإحكامٍ!

أمّا في ميدان مُقارعة البريطانيّين، فقد عارَضَ غاندي بشدَّةٍ الاتّجاهَين السائدَين بين سياسيّي بلاده، واللَّذين كان أحدهما ينادي بالكفاح المسلَّح، والآخر بالتعاوُن مع المستعمر أَملاً في الظَّفر ببعض فُتَات الحرّيّة الذي قد يتساقط من مائدته. فالكفاح المسلَّح، كفاحٌ غير متكافئٍ بين شعبٍ شبه أعزلٍ، وأمبراطوريّةٍ مدجّجةٍ بأحدث سلاحٍ، مُحكمةِ الدّفاع؛ فضلاً عن مَقتِ غاندي لجميع أصناف العُنف، وحرصِه على إثبات أنَّ اللاعنف سلاحٌ لا يَفُلّه سلاحٌ، ولا تهزمه قوّةٌ مهما عَتَت وتجبَّرت. أمَّا التعاون المُداهِنُ الذَّليل، فكان غاندي يأباه، لأَنَّه كان يطمح لبلاده باستقلالٍ كاملٍ، موفورِ الكرامة، يضَع شعبَه في موضع الندِّ مع المستعمر، بالإضافة إلى يقينه بأنَّ التعاوُن مع الشرّ شرٌّ أعظم، ولا سبيل

إلى القضاء عليه، أَفضل من "اللاتعاون" معه، وبفضل هذا "اللاتعاون" تقويض القواعد الفاسدة التي يقوم عليها بنيانُه المصطنَع؛ على إلاّ ينطوي ذلك اللاّتعاون على أيّة ضغينةٍ تجاهَ الخصم، الذي يجدُر تحريره من شرّه بالإقناع والمعاناة الطَّوعيّة.

وكانت التجارب المتعاقِبَة الأَليمة، قد أثبتت لغاندي أنَّ الحاكم الإنكليزيّ هو "**عمومًا صلِفٌ، لا يفهمُنا، ويعتبر نفسَه كائنًا من مُستوًى أعلى، ويُخيّل إليه أنّه وُجد في العالَم من أجل إخضاعنا، إنّه يُعوِّل على مدافعه وقلاعِه لحماية نفسه، وهو يحتقرنا؛ إنَّه يودّ قسرَنا على التعاوُن معه، أي على أن نكونَ له عبيدًا؛ وعلينا أن ننتصر عليه، لا بركوعنا أمامه، بل بالابتعاد عنه، من غير أن نُضمر له بُغضًا، أو أن نُلحِقَ به أَذيَّةً، فالتَّنكيل به إنّما هو جُبنٌ. ولكنْ، إذا ما رفضنا، فحسبُ، أن نعتبر ذواتِنا عبيدًا يؤَدُّون له التكريم، نكون قد اضطلعنا بواجبنا**".

لقد كان مفهوم اللاتعاون، لدى غاندي، ينبعُ من إيمانه الوطيد بقُدُرات قول "لا": "لا" العاملِ في وجه الرأسماليّ إذا ما استغَلَّ وجارَ، و"لا" الضعيفِ، في وجه الطَّاغي، إذا ما اعتدى وتجبَّر، و"لا" الوطنيِّ، في وجه المستعمر، إذا ما طغى واستباح الكرامة.

واللاتعاون كان يَعني لغاندي إحلالَ العزّة مَحَلَّ الخُنوع، والثِّقة بالنَّفس محلَّ الاستسلام، والرجولةِ محلَّ التراخي، والشعورِ بكرامة الحُرّ محلَّ ذُلِّ العبيد في نفوس مئات الملايين من بني قَومه.

وكان غاندي قد تعرَّض لنقد صديقه الشاعر طاغور، بسبب اهتمامه بإحياء صناعة الغزل والنسيج اليَدويَّين، وهي صناعةٌ كانت تُعَدُّ رجعيّةً باليةً؛ وبسبب دعوته إلى مقاطعة السِّلَع البريطانيّة، التي عدَّها طاغور تثبيطًا لمساعيه من أجل إشادة جسور تعاوُنٍ مع الغرب، ونزعةً انعزاليَّةً عن العالَم الحرّ، فردّ عليه المهاتما، مُبَسِّطًا دوافعه، وقائلاً:

"**عندما يَشُبُّ حريقٌ، لا يكون، في الوقت متّسعٌ للنَّظريّات، بل يتحتّم على كلّ فردٍ أن يأتيَ بدلو ماءٍ لإطفاء النار؛ وكذلك، عندما نرى الجوعَ ناشبًا بالملايين من الهنود من حَولنا، تُمسي مُهمّتنا الأولى والأساسيَّة هي توفيرُ ما يُقيم أَوَدَهم. وإنّ الهند**

لَتموتُ جوعًا؛ والهند ليست بضعَ مُدُنها، حيثُ التُجّار والسماسرة، بل ملايين القرَويّين الذين يئنّون جوعًا. لقد كفّ الدَّم عن السَّريان في أوصال تلك الأعضاء السُّفلى من الهند، بحيثُ باتت مُعرّضةً للانهيار بأكملها. والجوعُ هو الدافعُ إلى المغِزل"...

"ليس اللاتعاون سُورًا يُقام بين الهند والغرب، على نحو ما يزعم "الشاعر"، بل هو تمهيدٌ لتعاونٍ سليمٍ ينهض على التكافؤ والاحترام المتبادَل. إنّه كفاحٌ ضدّ التعاون المفروض بقُوَّة السلاح، والرَّامي إلى تنفيذ خُطَطٍ استثماريّةٍ حديثةٍ، ارتدت، خطًا، اسم حضارة. اللاتعاون هو مقاومة الإسهام القسريّ في الشرّ".

وأضاف غاندي: **"إنّني حريصٌ على التَقَدُّم والاستقلال والحريّة، ولكنّني أريد هذه كلَّها للرُّوح. فعلينا وقفُ عقلنا، وجميع طاقاتنا لتحقيق تطوُّر النفس. هناكَ أمورٌ يتعيّن فعلُها في بعض الأجواء. ومُناخ الهند، اليومَ، يدعونا إلى الالتفات نحو المغِزل، ربَّمَا لفترةٍ انتقاليّةٍ، وربَّمَا، لكثيرين منّا، إلى الأبد.**

"إنّ الاقتصاد السياسيّ الذي يُلحِقُ أَذىً برفاه فردٍ أَو أمَّةٍ هو لا أخلاقيٌّ، وبالتالي مُجرمٌ. إنَّه لمن الإجرام ابتياعُ سلِعَ ٍ لم يَظفَر صانعُها بأجره العادل، ومن الإجرام، أيضًا، استخدامها. وأنا عندما أرتدي الألبسة المصنوعة يَدَويًّا ومَحَلّيًّا، أُسهم في إكساء جيراني وفي إطعامهم، ولئن هم تردّدوا في استخدام المغِزل، أَخذتُ، بنفسي، مبادرة اللجوء إليه. وإنّني أعيد الكرامة للعراة، لا بالتحسُّن عليهم بثيابٍ فاخرِةٍ، بل بإيلائهم عملاً يفتقرون إليه، في المقام الأوّل".

ولقد انتهج غاندي، في مُمارسة اللاتعاون، أسلوبًا فذًّا كريمًا مُفعَمًا بالمناقبيَّة السامية. فهو، قبلَ الشروع بأيّ عملٍ جماعيٍّ، مثلاً، ضدّ الحُكم البريطانيّ، كان يكتُب إلى نائب الملك، في صراحةٍ ووُضوحٍ، مؤكّدًا له، في الغالب، أنّه يُضمر له، ولشعبه، كلّ حُبٍّ، ولكنّه يسعى إلى تقويض سياسة بلاده لأنّها شرِّيرةٌ. ثمَّ يَبسُط شكواه ومطالبه، ويُمهل مراسله رَيثًا من الزَّمن لإعادة النظَر في موقف حكومته، والسعي إلى تبديله، وإلاّ كان على غاندي وشعبه الإقدام على ما عَزَموا عليه أَمرَهم.

وقد جاء في رسالةٍ بعث بها إلى أحد البريطانيّين قوله:

"**إنَّ ديني يُحرِّم عليّ كلّ نقمةٍ عليكم، بحيثُ لن أرفعَ عليكم يدي، حتّى لو توفّرت لديَّ القُدرةُ على ذلك، فأنا أريد أن أقهركم بمُعاناتي العذاب**".

وكان المِغزَل و"الخادي"، ومقاطعةُ السِّلع البريطانيّة، بعض وجوه اللاتعاوُن العمليّة التي أدخلها غاندي، على أوسع نطاقٍ في حياة الهند، والتي، على بساطتها، قوَّضت اقتصادَ الأَمبراطوريّة العاتية، بحيثُ، على حدّ قول ميخائيل نعيمة: "**أصبح المِغزَلُ في يد غاندي أمضى من السَّيف، وأَصبحت الملاءة البسيطةُ البيضاء التي كانت تَلُفُّ جسد غاندي النحيل، درعًا لا تخترقها مدافعُ أساطيل سيّدة البحار، وأصبحت عنزةُ غاندي أشدَّ بأسًا من الأَسَد البريطانيّ**".

وقد مضى غاندي أشواطًا بعيدةً في مضمار اللاتعاوُن، وأَسبغ عليه بُعدًا روحيًّا وعالميًّا بعيدَ المدى، على حدّ قوله:

"**ليست حركةُ اللاتعاون موجَّهةً ضدّ المسيحيّين، أو ضدّ الإنكليز، أَو ضدّ الأوروبيّين، بل هي صراعُ الدِّين ضدّ اللاّدين، وصراعُ قوى النور ضدّ قوى الظلام.**

"**إنّني مُتيقِّنٌ أنّ أوروبا، اليومَ، لا تُمثِّل روحَ الله، ولا المسيحيّة، بل هي تُمثّل روح إبليس؛ ونجاحُ إبليس ليتعاظَم بقَدر ما يظهر واسمُ الله على شفتَيه. إنّ أوروبا، اليوم، لا تمتلك من المسيحيّة غيرَ الاسم، أمَّا في واقع الأمر، فهي تَعبُدُ "مامون"؛ ويسوعُ كان يقول: "إنّه لأَيسرُ على جَمَلٍ العُبور في ثقبِ إبرةٍ من أن يدخُل غنيٌّ ملكوتَ الله". أمّا من يدَّعون، اليومَ، اتّباعه، فهم يُقيّمون تقدُّمهم الأدبيّ وفقًا لممتلكاتهم الأَرضيّة. إنّ نشيد إنكلترا الوطنيّ نفسه غير مسيحيٍّ، فيسوع الذي فرَضَ على تلاميذه محبّةَ الأعداء مثلَ محبّتهم لذواتهم، لم يكُن بوِسعِه أن يُنشِد: "اسحق أعدائي، وخيّب مكرَهم**".

"**لقد أظهرت الحرب، كما لم يُظهر أيُّ شيءٍ آخَر، حتّى الآن، طبيعة الحضارة الشيطانيّة التي تُسيطر، في أيّامنَا هذه، على أوروبا، فقد انتهك المنتصرون جميع قواعد الأخلاق العامَّة باسم الفضيلة... والدّوافع التي تختبئ وراءَ كلِّ جريمةٍ ليست من الدِّين أو الروحانيّة في شيءٍ، بل هي ماديّةٌ على نحوٍ فظٍّ...**

"هذا الاتّهام ليس موجَّهًا ضدّ الأفراد، ولا حتّى ضدّ الأمم... بل إنَّني أتكلَّم عن النزَعات الأوروبيّة، كما هي تنعكس لدى الزُّعَماء الحاليّين... فإنكلترا، عِبرَ حُكَّامِها، تدوس بأَقدامها، في وقاحةٍ، شعورَ الهند الدينيّ والوَطنيّ. وفرنسا، عِبرَ زُعمائها، تخونُ، على نحوٍ مُخزٍ، واجبَها كقُوَّةٍ مُنتَدَبةٍ، بمحاولتها سَحقَ السُّوريِّين" ».

وبالإجمال، كانت وسائلُ غاندي وتطلُّعاته السياسيّة تبدو حالمةً، لا واقعيّةً، ولكنَّ المهاتما قد حوَّلها، بفضل سُمُوِّ نفسه، وصلابةِ إرادته، وبالتزامه بمُثُلِ المناقب والدِّين قُدُراتٍ جبّارةً لا تُقهَر حقَّقت للهند أكبر مُنجزاتها، وباتت للعالَم أجمع مَثَلاً أعلى في قوّة الروح الخارقة. وقد عبَّر ميخائيل نعيمة عن هذا الإنجاز الفذّ بقوله: "**إيمان غاندي الوطيد بأَن لا قوّة في الأرض وفي السماء إلاّ للحقّ، وأَنّ الحقّ هو المحبّة، وأنَّ المحبَّة هي، وحدَها، السلاح الذي لا يقوى عليه أيُّ سلاحٍ، ذلك الإيمان هو الذي صنَعَ المُعجزة التي شَهِدَتها الهند، وشهدَها العالَم، فما كادت تُصَدِّقُها الهند، ولا كاد يُصَدّقها العالَم، وكان اسم المُعجِزة: المهاتما غاندي**".

وقد كتب طاغور نفسه في هذا السّياق:

« "أرجو أن تنموَ روحُ التضحية هذه، وتنمو معها إرادةُ المعاناة؛ تلك هي الحرّيَّة الحقّة، التي لا يسمو عليها شيءٌ، حتّى الاستقلالُ الوطنيّ. إنَّ لدى الغرب إيمانًا لا يتزعزع في القوة والثَّروةِ الماديّة، وبالتالي، لا قيمةَ لكلّ ما يهتف به من دعوةٍ إلى السَّلام ونزع السلاح، إذ إنَّ الحقيقةَ هي القادرة لا على نزع السِّلاح فحسب، بل على التحوُّل إلى قوّةٍ، وسيُبَرهن شعبٌ أَعزل على حقيقةِ أنَّ المنعة الأخلاقيّة أَقوى من السَّطوة البهيميّة... سيأتي يومٌ يُثبِتُ فيه إنسانٌ ضعيفٌ، نبيلٌ، أَعزلُ تمامًا، بأنّ الوديع هو الذي سيرث الأرض. إنَّه لفي سياق المنطق أن يبَرهن المهاتما غاندي، الواهي الجسم، المفتقرُ إلى الموارد الماديّة، عن قوّةٍ لا تُقهر تثوي في الوديع والمتواضِع القابع في قلب إنسانيّة الهند المُهانة المنحطّة.

"إنّ نضالَنا هو نضالٌ روحيٌّ، نضالٌ في سبيل الإنسانيّة. فعلينا أن نُحرِّر الإنسانَ من الشِّباك التي نَسَجَها حَولَ نفسه، ونُعتِقَهُ من مُنظَّمات الأَنانيّة الوطنيّة؛ علينا أن

نُقنعَ الفراشةَ بأَنّ حرّيّة السماء خيرٌ من مخبأ الشّرنقة... انتصارُنا سيكون انتصارَ عالَم ملكوت الله؛ فإذا ما استطعنا أن نتحدّى القويَّ والغنيّ والمدجَّج بالسلاح، وأن نكشفَ للعالَم عن قوّة الروح الخالد، سَينهار صرحُ الجَسد الجبّار، وسيهوي في لُجَّة العَدَم... نحنُ، منبوذي الشَّرق، علينا أن ننتزعَ للإنسانيَّة حريَّتها ».

وخليقٌ بالتَّنويه أنّ نضالَ غاندي الفذّ قد أفضى إلى استقلال الهند في أَسرعَ وأكملَ ممّا كان أحَدٌ يتوقّع. واستقلال الهند كان مفتاح استقلال العديد من دُوَل آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، التي تدين، كلُّها، بفَضلٍ مُحقّقٍ وكبيرٍ، في ما ظَفرت به من استقلالٍ، للمهاتما غاندي. ولقد أثبتَ ذلك المثاليُّ المتصوِّفُ أنَّ البراءةَ والوداعةَ واستلهامَ الروح غالبًا ما تقوى على استنباط أكثر الحلول العمليّة إدهاشًا، حتّى لدهاقنةِ السِّياسة، وأَشدَّها إرباكًا للخصوم، والتي تنمُّ عن حِكمةٍ أَريبةٍ عميقةٍ، ورُؤيةٍ بعيدةٍ نيِّرةٍ؛ فكانت كلّما أمسكت بخناق البلاد أزمةٌ استعصى حلّها، وأُسقِط في يد محترفي السياسة ومتزعّميها، التفتت الأَنظار واجفَةً، متلهّفةً، راجيةً، إلى ذلك الناسك المتنصّت إلى صَوته الداخليّ، المُغرِق في التأمّل والصّلاة، المُكِبّ على الصَّوم والمجاهدة؛ وفي الوقت الملائم، كان يومض بارقُ الخلاص، باهرًا، متألّقًا، على نحوٍ لم يتوقَّعه أحدٌ، ويُعلِن غاندي عن خُططٍ عبقريّةٍ، كانت، على بساطتها، بل من جرّاء بساطتها المتناهية، تشدّ العقول، وتهزّ الضَّمائر، وتُكَهرب عزائم الجماهير.

وتَحفَل مُذَكّرات نهرو بصَيحاتِ الدَّهشة حيالَ تلك الوَمَضات العبقريَّة التي كان يُنير بها غاندي سماءَ الهند، مثل قوله: "**لا مِراءَ أنَّ "باپو" بارعٌ في بَعث الصَّدَمات فينا**"، "**كيفَ استطاع تحريكَ قلب الهند حتّى أغواره العميقة!**"، "**ميزة غاندي الكُبرى، بصفته قائدًا تكمُنُ في قُدرته الغريزيّة على جسّ نبض الشعب، بحيثُ يُدرِك متى تغدو الظروف ناضجةً للإيذان بخُطوةٍ جديدةٍ، وعملٍ جديدٍ**".

ولا بِدعَ إن أَدهَشت أساليبُ غاندي وأربكت، فالسياسيّون قد أَلِفوا التمويهَ والحيلة، وغاندي كان يعمد إلى الصَّراحةِ العارية، والصَّراحةُ تُحرِج من لم يكن بها أَليفًا.

وقد تميّز غاندي، مع تشبُّثِه الصُّلبِ بمبادئه، بطاقةٍ خارِقةٍ على التكيُّف مع

الظُّروف المستجدّة، وتحويل خُططه وِفقًا لتطوّراتها، وحمل الجماهير الواسعة على تبنّي أيّ شعارٍ يرفعه، والسُّلوك وفقًا لإرشاده؛ وبهذا السّياق يُدلي نهرو أيضًا، بهذه الشّهادة القيّمة: "**إنّ أكثر ما يُدهش في غاندي انسجامُه التامّ مع مُثُله ومفهومه للحقيقة، وفي آنٍ معًا، إفلاحُه في تحريك كُتَلٍ بشريّةٍ جسيمةٍ، وتوجيهها. لم يكن مُتصلّبًا، بل كان يتحسّس مُقتضياتِ الوقت الراهن، وكان بارعًا في التوافق مع تقلّبات الظروف. إلاّ أنّ ذلك التوافق لم يكُن لديه سوى أَمرٍ ثانويٍّ، إذ إنّه كان، في الأمور الجوهريّة، صخرةَ ثباتٍ وصلابةٍ لا تلين. إنّه لم يُساوم، قطُّ، مع ما كان يعتقده شرًّا. لقد صاغَ جيلاً بكامله، إن لم يكُن أكثر من جيلٍ، واستطاع، على هذا النحو، تجاوز نفسه، وذلك، في ذاته، نجاحٌ مثاليٌّ**".

وممّا يُميّز نضالَ غاندي السياسيّ أنّه، على جسامة أهدافه، وخطورة شأنه وعواقبه، قد خاضه منفردًا؛ فهو لم يتقلّد، يومًا، منصبًا رسميًّا، ولا عوّل على مساندة جيشٍ أو سلاحٍ أو حزبٍ أو مؤَّسسةٍ، بل ناضل مثلما ناضل، قديمًا، الأنبياءُ، بمخاطبته ضمائرَ الشعب، التي، منها، كان يستمدُّ قوَّتَه، والتي أثبتت أنَّها ما برحت بليغةَ التأثير في السياسة، حتّى أيّامنا هذه؛ وبفضل مُعجزة شخصيّته، أفلَحَ في بَعث إشعاع نُفوذه إلى أقاصي بلادٍ يسودها الانقسام، بل إلى جميع أرجاء عالمٍ تَعُمُّه الفُرقة، ووَجَدَ سبيل النَّفاذ إلى القلوب والعقول باتّصاله المباشر بالناس، وبعمله وِفقَ مبادئه الثابتة البسيطة، وبقُدوته المثلى.

لقد كان يأبى الانضواءَ إلى أَيّ حزبٍ سياسيٍّ، إذ كان يَعُدُّ مثل ذلك الانضواء انسلاخًا عن غير المنتسبين إلى ذلك الحزب؛ وغاندي، بسليقته، رسولُ وحدةٍ ووئامٍ، ويَمقُتُ كلّ ما من شأنه التفريق؛ وهو صاحب مبادئَ ثابتةٍ، ولكنّه يأبى الانتساب إلى أيّ مذهبٍ مُغلَقٍ، لأنَّه، هو، مُشرَع الذهنِ والرُّوح على كلّ خَيّرٍ يَنطِقُ بالحقّ، أيًّا كان مصدرُه.

وقد نفى غاندي، بحزمٍ، ما عُزي إليه من ابتداع مذهبٍ، أو تكوين طائفةٍ دينيّةٍ، وكان ردُّه على ذلك: "**لستُ أدَّعي سوى كوني خادمًا وضيعًا للهند وللبشريّة، يرغَبُ في الموت خدمةً لهما. ولا تُراودني أيّة رغبةٍ في تكوين طائفةٍ، فأنا، في الواقع،**

أطمح إلى أكثرَ من طائفةٍ تتبعني. أنا لستُ أمثّلُ أيّة نظرةٍ جديدةٍ، بل أحاول الاسترشاد بالحقيقة، وتمثيلها على نحو ما أَعرفها. وإنَّني أتطلّع، بكلّ تأكيدٍ، إلى إلقاءِ ضوءٍ جديدٍ على كثيرٍ من الحقائق القديمة".

هذا، وكان غاندي قد انضمَّ، في حقبةٍ من نضالِه السياسيّ إلى المؤتمر، ورئسَه فترةً قصيرةً، آملاً أن يجعل منه بُؤرةً لنشرِ اللاّعنف والساتياغراها، والتحرّر النفسيّ في الهند، ولكنَّه عندما تبيّن أنَّ عَددًا من زُعماء المؤتمر لا يشاطرونه إيمَانَه بتلك القِيَم والأساليب،لم يتردَّد في الانسحاب من المؤتمر، من غير أن يفقد قِسطًا، ولو ضئيلاً، من نفوذه الشَّامل البليغ؛ وكان، خارجَ السُّلطة، يمتلك سُلطانًا هائلاً، يُمكنّهُ من توجيه النِّضال الشعبيّ حسبمَا يرغب، ومن تحطيم خصومه ساعةَ يشاء، ولكنَّه لم يلجأ قطُّ إلى شَهر ذلك السُّلطان سلاحًا في وجه خصومه، إذ كانت روحٌ ديمقراطيَّةٌ أَصيلةٌ تخفُق بين جنحيه. فمع السُّلطان المُطلَق المتوفّر له، كان غاندي، على نقيض الحاكم المُطلَق، الذي بقَدر ما تتّسع رقعَة سُلطته يجنح إلى إساءة استخدامها، فيَفقدِ، بذلك، نفوذَه الحميم في النفوس. أَمَّا غاندي، فبعزوفه عن السُّلطة، وبفضل زُهده فيها، قد وسَّع رقعةَ نفوذه؛ ولا بدعَ في ذلك، فالسُّلطة تتغذّى بألَم ضحاياها ودمائهم، أَمَّا النُّفوذُ فبالخدمة والتعاطف والمحبَّة يتغذّى. فالشَّعب، عند غاندي، ما كان، قطّ، "وسيلةً تُستَثمَر، بل غايةً تُحَبُّ وتُخدَم"، على حدّ قول قسطنطين زريق. وقد سُئل يومًا عن الحقّ الذي يستند إليه في ادّعاء تمثيل مئات الملايين من الهنود، على تبايُن طوائفهم وطبقاتهم ولُغاتهم، فأجاب: "**إنّه حقّ الخدمة**".

ولم تكن السُّلطةُ لتوحي لغاندي أيَّة مُتعةٍ، ولم يكُن لديه حيالَها أيّة عقدةٍ. بل كان إنسانًا مسترخيًا، لم يُعنَ يومًا بالتظاهر بمظهر المعصوم عن الخطأ، الذي يُلمّ بكلّ شيءٍ، وبالدّفاع عن قُدراته وسمعته كما يفعل السياسيّون، وقد اتَّصفَ أبدًا بالتواضُع، واستهدف الخدمةَ المجرَّدة، والتزم بالحقّ في صلابةٍ وبسالةٍ، ولم يتهيّب يومًا الاعتراف بأخطائه على رؤوس الملأ، بل لم يتردَّد في تحمّل أخطاء الآخرين.

وكان غاندي، بالفطرة، ديمقراطيًّا صميمًا، يُقيمِ للفرد البشريّ قدرًا جليلاً، ويقاوِمُ كلّ المذاهب التي لا تحترم الحريَّة الفرديّة، وبنفس القدر كان يناهض الغوغائيّة، ولا يُقيم وزنًا للأغلبيّة اللاواعية التي تحرّكها الأهواء الجامحة، والمصالح الخسيسة؛ وكان يؤثر عليها النخبةَ الضئيلة المتجرّدة. فالديمقراطيّة التي كان يؤمن بها، لا تمتُّ بصلةٍ إلى المفاهيم الدّستوريَّة الرائجة، ولا إلى العَدَد والكثرة، وغالبًا ما ردّد مثل هذه الأَقوال: "**إنَّ أخطر ما حقّقتُه قد تمَّ في صحراء الأقلّيَّة**".

أمّا عن الأكثريّة فقال: "**إنَّني أعلمُ أنَّ الحكومةَ تتوجّس خشيةً من تلك الأكثريّة العارِمة التي يبدو أنَّني أُهَيمِن عليها؛ وربّمَا جَهِلت الحكومة أنّني أخشى هذه الأكثريَّة بقدر ما هي تخشاها. في الحقيقة إنَّني أُصاب بالغَثَيان من التبجيل المفرط الذي تحيطني به جماهيرُ تفتقر إلى إعمال الفِكر؛ وربّمَا سأكون أشدّ يقينًا من صلابةِ الأرض التي أقف عليها، لو أنَّ تلك الجماهير بَصَقَت عليَّ، وإذن، لما اضُطرِرتُ إلى الاعتراف بأخطائي الجسيمة وسواها، ولما حُملتُ على التراجع.**"

ويُلقي جواهر لال نهرو مزيدًا من الضَّوء على ديمقراطيّة غاندي إذ يقول:

« **إنَّ مفهوم غانديجي للديمقراطيّة مفهومٌ ميتافيزيقيٌّ، بلا مِراء، ولا علاقةَ له بمفاهيم العَدَد والأَغلبيّة، والتمثيل، المعهودةِ عمومًا، بل هو قائمٌ على الخدمة والتضحية، وإحدى وسائله الالتزامُ الأَدبيُّ الصَّارم.**

"**وسواءٌ هو اعتُبِرَ ديمقراطيًّا أم لا: فغاندي يُمثِّلُ طبَقات الهند الفلاّحيّة، وهو زُبدةُ الإرادةِ الواعية وغير الواعية لملايين الناس؛ وهو لا يُمثّلهم فحسبُ، بل قد بات المَثَل المُتجسّد لذلك العدَد الجَمِّ من الخلائق. من الواضح أنَّه يختلف كثيرًا عن أيِّ فلاَّحٍ عاديٍّ، فهو رجلٌ خارق الذّكاء وثاقبُه، مُرهَف المشاعر والذَّوق، واسعُ الرُّؤية، عميق الإنسانيّة، مع أَنَّه، جوهريًّا، متنسّكٌ قد أَفلح، بعد أن سيطرَ على أَهوائه وعواطفه، في السُّموِّ بها وفي توجيهها على دروب الرُّوح؛ إنَّه شخصيّةٌ مُدهشةٌ، تجتذب الناسَ كالمغنطيس، وتستفزّ ولاءاتٍ وارتباطاتٍ عاتيةً. أيُّ تباينٍ مع عالَم الفلاّحين، وأيُّ تفوُّقٍ!**

"ومع ذلك، هو فلاّحٌ كاملٌ، له نظرةُ الفلاّح إلى الأشياء والأمور، ومِثل الفلاّح يتعامى عن بعض وجوه الحياة. إنَّ الهند مَوطنُ فلاّحين، وهو بارعٌ في معرفتها، متفاعلٌ مع أدنى ارتعاشاتها، يروز بدقّةٍ، وعلى نحوٍ شبهِ فطريٍّ، كلَّ موقفٍ، وفي يُسرٍ بالغٍ يُحسن التصرُّف، في الوضع النفسيِّ الملائم...

"وكانت الهند ما انفكّت تتفهّم، أو، أَقلَّه، تُقدّر ذلك النَمَط من الرجال، الذين هم مزيجٌ من أنبياء ومتديّنين، الذين يتكلَّمون عن الخطيئة والخلاص واللاّعنف. إنَّ تاريخ الهند الأسطوريّ حافلٌ بقصص أولئك النُسَّاك الكبار، الذين بصرامةِ تضحياتهم، وكفّاراتهم الطَّوعيَّة، كانوا يُشيدون "جبالاً من الثواب" كفيلةً بزعزعة سيطرة بعض الآلهة الأَدنيَن، ورجرجةِ النِّظام القائم. تلك الأساطير كانت تُراوِد ذاكرتي، وأنا أَرقبُ طاقةَ غانديجي التي لا تُصدَّق، وقدرتَه الداخليّة النابعة من مَعينٍ روحيٍّ. ولا رَيب أنَّه لم يكُن قد صيغَ من مَعدن عَامَّة النَّاس المألوف، بل كان مَعدَنُه طرازًا نادرًا، وفي ناظرَيه غالبًا ما كان مجهولٌ لا يُسبر له غَورٌ يُحدِّق إلينا.

"... ولا عَجَب أن جعل وطنُنا من ابنِه هذا، الشبيه بإخوانه أَوثقَ شبَه، والمتميِّز عنهم أبعد تميزٍ، في آنٍ معًا، معبودًا وزعيمًا محبوبًا. إنَّه كان يُنعِش بعض ذكريات الوَطَن التي يكاد يَلُفُّها النِّسيان، ويكشف له زوايا مَخفيّةً من ذاته. قبلَه، وحدها بعض لَعثماتٍ عاجزةٍ، أو تخيّلاتٍ مُبهَمةٍ عن الماضي والحاضر، كانت، أحيانًا، قد آزرت البلاد على احتمال شقائها السَّاحق المدلَهِمّ. ولكنَّه جاء، فعاد قلبُ الهند يخفُق، واستعاد جَسَدُها المسكينُ المكلومُ قُدراتِه ».

ولا مِريةَ أنَّ غاندي كان وطنيًّا مخلصًا متفانيًا في خدمة وطنه وبلاده، بيد أنَّ تلك الوطنيّة لم تُفضِ به، يومًا، إلى التعصُّب ومعاداة الأوطان الأُخرى، بل إنَّه قد آمن وعلَّم، أَبدًا، أن حبّ الوطن ليس بصادقٍ، ولا هو مجدٍ، إن لم يكن سبيلاً إلى حُبٍّ إنسانيٍّ شاملٍ. لقد كان غاندي مثالاً رائعًا للتوفيق المتناغم بين الوطنيّة المخلصة، وحبٍّ إنسانيٍّ شاملٍ مُشرَع النوافذ، إلاّ أنَّه لا يحول دون الانغراس في وَطَنٍ مُعيّنٍ يوقن المرء أنَّ له فيه رسالةً محدَّدةً؛ وهكذا مع كَون غاندي ثروةً عالميَّةً،

ومع امتداد انتمائه إلى البشريّة كلّها، ضرَب مَثَلاً أسمى في الوطنيّة الحقَّة.

فقد وقف نفسَه على خدمة الهند، على أمل أن تخدم الهندُ العالَم، وفق طاقاتها، والرسالة المُوكلة إليها؛ وكان يحدوه إيمَانٌ مضطرِم في خدمةٍ لا تَحُدُّها تخومٌ، وتتخطّى كلّ حاجزٍ جغرافيٍّ، على حدّ قوله: "**لقد ارتبطتُ مع الهند بعقد قرانٍ، لأنَّني أومن إيمَانًا مُطلَقًا بأنَّ للهند رسالةً إلى العالم... دِيني لا حدودَ جغرافيَّة له، وإيمَاني الحيّ بديني يسمو حتّى على حبّي للهند**".

وهو، ولئن أَولى الدِّينَ الأَولويَّة، إلاّ أنّه كان يَعُدُّ خارجًا عن الدّين من لا يُحبّ وطنه، وفي آنٍ معًا، يُؤمن أنَّ من كان محبًّا لوطنه، وفيًّا لدينه، لا يُفرّق بين وَطَنه والأَوطان الأُخرى، ولا يتحرّج من خدمة البشريّة كلّها جمعاء، على نحو ما يخدم وطنَه، فالله لم يرسم، قطُّ، بين الأَوطان حدودًا.

وكان يُلهبُ نضالَ غاندي ويُلهمه شعورٌ مزدَوِجٌ بعبء المسؤوليَّة الباهظ، وبالتَّضامن العالميّ المُلزِم، فقد طالما علَّم "أَنَّ الاستمتاع بالحقّ يقتضي أداء الواجب، وأنَّ نَيل الحرّيّة رهنٌ بتحمُّل المسؤوليَّة، وأنَّ الكرامةَ الصحيحة هي في الانفتاح على السوى، لا في الانغلاق على الذات، وفي البذل والتَّضحية، لا في الأخذ والتنعّم".

وكان يُفعمه شعورٌ راسخٌ بعيد الغور بالتضامن الرَّحب الشامل بين البشر، أفرادًا وجماعاتٍ، وبين الدوّل قاطبةً، فكلّ امتيازٍ حظي به فردٌ، أو حَظِيت به جماعةٌ أو بلادٌ، يجب أن يُستَحَقَّ بوَقفه على الخدمة، وإلاّ غدا استئثارًا ولعنةً على صاحبه. تلك القناعة هي التي دفعت به إلى حلبة السياسة، بعد إذ لَمَس وِقرَ الحَيف اللاَّحق بأبناء جِلدَته الذين لم يكونوا يعرفون إلى التحرُّر من ذلك الحَيف سبيلاً، فتَيَقَّنَ أنَّ ما أصابَه من علمٍ يُلقي على كاهله واجبَ توظيف ذلك العِلم في خدمة مواطنيه الذين لم يُصيبوا من العِلم شيئًا، أَو هم أصابوا منه قشورًا رقيقةً، ولكنَّه عندما انطلق في مضمار الخدمة، أَضاف إلى العلم كلَّ كوامن طاقاته الرُّوحيَّة والأَخلاقيَّة، ووظَّفَها جميعَها في خدمة الهند والعالَم. وكان مُوقنًا أنَّ الجماعات، حيالَ تلك المسؤوليّة، كالأفراد، إذ إنَّ "**البشريَّة واحدةٌ، هناكَ أجناسٌ متعدّدةٌ، ولكن بقَدر ما يكون جنسٌ قد أصاب من**

الرُّقيّ، تغدو واجباتُه أكثرَ جسامةً".

ومن أقواله أيضًا، في هذا السّياق: "**في نظري، الوطنيّة والإنسانيّة مترادفان. إنّني وطنيٌّ لأنّني إنسانٌ وإنسانيٌّ؛ وليست وطنيّتي احتكاريّةً، فأنا غير مستعدٍّ لإيذاء إنكلترا أو ألمانيا من أجل خدمة الهند، وليس للأمبرياليَّة مكانٌ في نهج حياتي. فبقَدر ما تفترُ إنسانيّة المرءِ تتضاءل وطنيّته**".

ويعلّق جان ڤانيه على تلك النّزعة الإنسانيّة لدى غاندي فيقول إنَّ مثل تلك "**الدعوة إلى الإخاء الشَّامل، وإلى اقتسام خيرات الأَرض، وإلى اللاعنف، وإلى المشاركَة بين الناس والبلدان، لا يمكن أن تتمّ إلاّ بتدخّلٍ مباشرٍ من روح الله**".

وهكذا غدا نضال غاندي هو نضال كُلِّ حرٍّ في العالَم، وأَشعَّت رسالتُه على البسيطة جمعاء.

ولا معدى عن التَّنويه بأَنَّ غاندي، مع صدِق وطنيَّته، وتديُّنه الصميم، كان متشبّثًا بسلَّم أولَويّاتٍ لا ينثني عنه، وقد عبّر عنه بقوله: "**لن أضحّي بالحقيقة ولا باللاعنف حتّى من أجل بلادي وديني**".

ومثلما هو أَحلَّ الوفاءَ للحقيقة فوقَ الوطنيّة، كذلك وَضَع الخدمةَ ونُشدانَ الله فوق مقتضيات السِّياسة، فظلّت أنظارُه، أَبدًا، شاخصةً إلى المُثُل العليا، وانطلقت جميع أعماله السِّياسيّة والاجتماعيّة من مبدأٍ دينيٍّ وأخلاقيٍّ التَزَمَ به بدقّةٍ، وعَزَم على ألاّ يحيد عنه، بحيثُ قد يُضحّي بالسياسة إن هي عارضته، ولكنَّه لا يُضحّي به ولا ينتقص منه ذرّةً، في أَيّ حالٍ.

ومن ثمّ، رغم انغماسه بكُلِّيَّته في السياسة، لم يَركَبها مطيّةً إلى المجد والسُّلطة والمال، بل انتهجها ذريعةً للخدمة، ودَربًا إلى اكتشاف الله فحسبُ، وبالتالي عجزت حمأةُ السياسة عن تلطيخه بأيَّة لوثةٍ.

وهكذا أَنفقَ غاندي القسط الأكبر من عمره في معمعان السياسة، وتسنّم فيها أَرفعَ قمم الزعامة، ومع ذلك لم يتخيّل، لحظةً، أنَّ السياسة خليقةٌ بأَن تكون للإنسان غايةً في ذاتها، فسمَا فوقها، وحلَّق عاليًا فوق دهاليزها ومُستَنقعاتها؛ وسحابةَ حياته ناضلَ في

صلابةٍ وجرأَة، ولكنَّه لم يُعادِ، قطُّ، إنسانًا، ولم يُضمر لأَحدٍ ضغينةً. وكان قد رسم صورةً للسياسيّ المثاليّ، فقال: "**على الزعيم أن يُمَارس على ذاته سَيطرةً تامَّةً، وإلاّ يبتغي لنفسه شيئًا، لا سُلطانًا، ولا مركزًا، ولا مُتعةً، وعليه أن يذكر الله أَربعًا وعشرين ساعةً في اليوم**". ولقد حقّق المهاتما، في ذاته، تلك الصُّورة، حتّى الكمال.

ولقد طالما خيَّم على نضال غاندي شبَحُ الصَّليب بكلّ ما يحمل من معاني التضحية والفداء، فهو، مذ أغرق في تأمُّله أَمام صليب الڤاتيكان، قد تأَكَّد بأنَّ الصليب هو الباب المُفضي إلى ما كان يَنشُدُه، وبأنَّ عليه أن يكونَ متأَهِّبًا لعطاءٍ مُطلَقٍ، في وعيٍ، وتواضعٍ وحبٍّ. وتقول "مادلين سليد" في هذا السياق: "**بمَوته انتهى الصَّلب المتمادي الذي تعرّض له فكرُه بصَلب جسده. وهذه التضحية الكُبرى التي أَقدم عليها، بِوعيه وطَوعه، من أَجل حبّ الإنسانيّة، قد أثبَتت انتصارَها حيثُ انتهت كلُّ محاولةٍ أُخرى إلى الفشل**".

وعلى هذا النحو غدا السياسيّ قدّيسًا، وأَثبَتَ، بمثَله للعالَم، كما لم يُثبت إنسانٌ من قبلُ، أنَّ بوسع السياسة والقداسة أن يتماشيا، إذا ما تهيَّأَ لهما مثلُ قداسة غاندي، ونُبلُ دوافعه، ونقاءُ أَساليبه.

وبذلك استأهل غاندي لَقَب "المهاتما: النفس الكبيرة" الذي أَطلَقَه عليه طاغور. وربّمَا أُطلق هذا اللّقب على سواه أيضًا، ولكنَّه لم يَعلَق بأحدٍ غيره، مثلما لَصِقَ به، بل أَصبح له اسمًا، وكأنّه خُلِق من أَجله فحسبُ، أو كأنَّه نبَعَ من نفس الشَّعب الهنديّ لينسكب عليه.

غَاندي الثائر

حريٌّ بنا، الآن، استجلاءُ وجهٍ من أَبرز وُجوه سياسة غاندي، ومَلمحًا من أَوفر ملامح شخصيّته رُواءً وسِحرًا، واستيضاحُ صورة غاندي الثّائر. أَجَل، فغاندي الوديعُ، رسولُ اللاَّعنف، كان من أكبر ثوّار عصرنا؛ ولئن بَدَت الوداعة واللاّعنف في تضارُبٍ ومفارقةٍ مع مفهوم الثَّورة الرائج، إلاّ أنّهما، في واقع الأمر، قد جعلا من ثورته إحدى أصدق الثَّورات، وأسلمها، وأجداها، وأبقاها أثرًا. ولا غَروَ في ذلك، فإخلاصُ غاندي المطلَق للحقيقة قد حرّره من أغلال النُّظم الجامدة، والتقاليد الفاقدة

للروح، التي تمرّد عليها، ليَسيرَ وفق إلهام صوت الضَّمير الخافت. وكان راسخ الإيمَان بأنّ من تمرّسَ باللاّعنف، فلا بدّ لروح الكفاح أن يظلّ متأجّجًا بين ضلوعه.

وما أكثر منتحلي لقب الثوّار، وما أكثر الثَّورات المزعومة!

فثمَّةَ من يدَّعون الثَّورة على نظامٍ فاسدٍ جائرٍ، ودافعهم الصَّميم هو النَّقمة والحَسَد والأَنانيّة، فما إن تستقرّ بين أيديهم مقاليد السُّلطة حتّى يوغلوا في فسادٍ أشدّ قتامًا من ذاك الذي عليه ثاروا، وفي ظلمٍ أَدهى إرهابًا من ذاك الذي ادَّعوا مناهضته.

وهناك الثائرون بدافع النَّزوة، والرغبة المُبهمة في التغيير، فيُدمّرون جميع الجسور المرتبطة بالماضي، وهم لا يملكون أيَّ تصوُّرٍ لمستقبلٍ أفضل، فتتحوّل ثورتهم إشاعةً للفوضى، ومِعوَلاً للهدم.

وهناك من يَتنطَّحون للإصلاح، ونفوسُهم عليلةٌ، فتنعكس عِلَل نفوسهم على كلّ ما يلمسون.

وهناك الذين لا يُؤمنون إلاّ بالعُنف، فتُولّد ثورتُهم سِلسلةً متّصلةً من ردود الفعل العنيفة إلى ما لا نهاية.

وهناك الثائرون باسم إيديولوجيا يتّخذونها ربًّا، ويَنحَرون على مذبحها قوافل الضحايا، وباسمها يُضاعفون المظالم، بحجّة القضاء على ما يَرون فيه مَكمَن ظُلمٍ، ويستبيحون حياة ملايين الأبرياء، في سبيل إقرار عبوديّةٍ توفّر رخاءً مزعومًا، ويقضون على الله، بحجّة القضاء على الشرّ.

وهناك المتمرّدون على القِيَم الخالدة، بذريعة توفير السَّعادة والحرّية للإنسان، فيحرمونه أَهمّ عناصر إنسانيّته، التي، بازدهارها فَحَسبُ، تستقيم له السعادة والحرّية.

وهناك من يثورون بحجّةِ الدفاع عن الله، ويرفعرن راياته، في حين يحدوهم التعصُّب، والأَثَرة، والشَّحناء، والقرَم إلى الدِّماء.

وهناك أنماطٌ لا نهايةَ لها من الثورات التي اعتَوَر دوافعها التواءُ النيّة، واصطبغت ممارستها باعوجاج الأسلوب، والتي تزعم، جميعها، أنَّها العلاج الأَوحد، فإذا بها، في واقع الأمر، الشرّ الأكبر؛ كلُّ واحدةٍ منها تدَّعي امتلاك كلِّ الحقّ، دون سواها، فلا

تُحجِم، في سبيل تنفيذ تخيُّلاتها، عن تحطيم كلّ ما لا يندرج في إطارها.

ومع ذلك فالثَّورة السَّليمة، النبيلة الدوافع، النقيّة الأسلوب، هي ضرورةٌ لا معدى عنها لتصعيد البشريَّة في مراقي التقدُّم والكمال، ولشفائها من جميع الأَوصاب والعِلَل الناشبة بها، ولصَقلِ مُعتقداتها وممارساتها، وتنقيتها من كلِّ ما عَلِقَ بها، عِبر الأيَّام، من فسادٍ، وشَطَطٍ، وأوضار.

وليس أقلّ خطرًا من "الثوَّار" المتهوّرين، أولئك الذين يسكتون عن المظالم بحجّة أنّها إرادة الله، وإنّما دافعهم الكمين هو الحفاظ على مصالحهم، أو خشيتهم القيام بمَا يُزعجهم، ويغيّر مجرى عاداتٍ قد طالما قبعوا مطمئنّين في أحضانها.

ولقد أبدع الشاعر الفرنسيّ "شارل بيغي" في وصف الثورة الحقَّة بأسلوبه المميَّز، فقال:

« لا تُصبِح الثَّورةُ ثوريّةً حقًّا، ولا تبلغُ ملءَ حجمها، ولا تُفلح كثَورةٍ، إلاّ إذا سَبَرت أغوار الإنسانيّة، وفجّرت إنسانيّةً أوفر عُمقًا من الإنسانيّة التقليديّة التي تتصدّى لها. وإنّها لباطلةٌ، إن هي لم توفّر هذا التَجَدُّد الرائع، وهذا الانتعاش الإنسانيّ المذهل، في العمق. الثَّورةُ لا تكتمل إلاّ إذا باتت تقليدًا مكتملاً، إلاّ إذا كانت محافظَةً، أي تقليدًا سابقًا، ولكنَّه أبعدُ عمقًا، وأَوفرُ صدقًا، وأكثر قِدَمًا، وبالتالي، أكثر أبديّةً، وإلاّ إذا وضعت في التداول إنسانًا أبعد عُمقًا، وإلاّ إذا أبرزت إنسانيّةً بلغت من العُمقِ ما لم تبلُغه الثَّوراتُ السابقة.

"الثَّورة لا تبلغ اكتمالَها، إلاّ إذا أصبحت أوفرَ امتلاءً، وإلاّ إذا تغلغلت في مناطقَ إنسانيّةٍ سابقةٍ، واكتشفت، في العُمق، مواقعَ إنسانيَّةً مجهولةً، يجب أن تُبذَّ القديم قِدَمًا، وأَن تُبرهِن بثرواتها الثمينة الجديدة، أنَّ الثورات السابقة لم تكن ثوريَّةً بالقَدر الكافي. إنَّ الثَّورة، خلافًا لاعتقادٍ شائعٍ، ليست إضافةً فوقيّةً، بل هي حَفرٌ في الأَعماق، وتوغُّلٌ في الأَغوار، وتجاوزٌ في العمق.

"لم يَدُر، يومًا، كلامٌ على الثورة، مثلما يدور اليوم، ولم يتجلّ، يومًا، عجزٌ عن تحقيق ثورةٍ فعليّةٍ تتمثّل في التجدُّد والتجديد، مثلما يتجلّى اليوم، إذ لم يفتقر العالَم،

يومًا، إلى النضارة، مثلما يفتقر إليها اليوم... ».

ويُضيف بيغي قائلاً: "**على الإنسان المستقيم أن يكون مُرتَدًّا بــلا انقطــاعٍ، وأن تكون حياته خيانةً مستمرّةً، فعلى الإنسان الحريص على الحقيقــة أن يخــون، بــلا هوادةٍ، جميع الأضاليل المستمرّة المتلاحقة، المتوالدة من غيــر فتــورٍ، والإنــسان الحريص على العدل مُلزَمٌ بالتخلّي، باطّرادٍ، عن المظالم التي لا تني تنتصر**".

ولقد كان غاندي هو ذلك الإنسان المستقيم الذي عناه الشاعر، وكانت ثورته هي تلك الثّورة التي أَبرزت أسمى وأسنى ما في الإنسان من نزعاتٍ خيّــرةٍ، وتطلّعــاتٍ طموحةٍ، وجوهرٍ خالدٍ، وأغنت البشريّة بمزيدٍ من الإنسانيّة العميقة الناصعة.

وقد تجمّعت لغاندي جميع عناصر ثورةٍ سليمةٍ بنّاءة، دافعُها الإصلاح لا التــدمير، في منأى عن كلّ نزوة، أو ارتجالٍ، أو نقمةٍ، أو غرَضٍ أنانيٍّ، ووفق تــصوّرٍ واضــح الرُّؤية للأهداف المتوخّاة، وبرنامجٍ مُحكَم الانضباط؛ فغاندي لم يُعلن ثورةً على القــديم بسبب قِدَمه، لا بل إنَّه قد طالما اعترف بأنَّه لا يبتدع حقائق جديدةً، بل ينقّب، بإخلاصٍ، عن الحقائق القديمة الخالدة، فيُزيل عنها ما يشوّه نقاءَ سناها، ويُبرز وجهَهــا المُــشرق الأَبديّ، كي يفيد الآخرون منها، ومن كنوز الحكمة التي تراكمــت، خــلال الأَجيــال المتعاقبة، في صياغة حاضرٍ مزدهرٍ، ومستقبلٍ مشرقٍ، يوفّران للبشر الخلاص.

وغالبًا ما ردَّد مثل هذا القول: "**أنا لستُ أمثِّلُ حقائق جديدةً؛ إنَّني أَجهــد فــي اتّباع الحقّ، وتمثيله على نحو ما أعرفه، راجيًا إِلقاءَ ضوءٍ جديــدٍ، علــى حقيقــةٍ قديمةٍ جدًّا**".

إنَّه لم يحاوِل الإصلاح بابتداع مذاهبَ وإيديولوجيّاتٍ جديدةٍ، وإنَّمَا دعا مواطنيه إلى الانعتاق من كلّ ما، في نفوسهم، يحجب الفضائل الأَصيلة الكفيلة بإنقاذهم، وكلّ ما، في تاريخهم، يُعطّل القيَم العريقة الثمينة بتوفير الكرامة والحرّية لكلّ فردٍ.

ويسكُب جواهر لال نهرو مزيدًا من الضَّوءِ على هذا المنحــى الثــوريّ لــدى غاندي بقوله:

« يَكمُن سرٌّ غاندي في أَنَّه ظلّ، أبدًا، راسخ القدمَين في أَرض الوطن، وتقاليد شعبنا، في حين كان عَمَلُه يَندَرج على صعيدٍ ثوريٍّ... لقد كان يـدرك أنَّ الثـورة الحقّة تنبع من الشعب، ولا تَتِمُّ في القمّة، وأَنّها، في جوهرها، ينبغـي أن تكـون اجتماعيَّةً. قبلَه، كان مُصلحون اجتماعيُّون كثيرون قد أفلحوا فـي تعـديل بعـض جوانبَ ثانويّةٍ، أو في تأسيس بدَعٍ جديدة؛ أمَّا حديث غاندي، باسم "ملكـوت الله"، فقد حمل الثَّورة إلى ملايين البيوت، والناسُ عنها شبهُ غافلين.

"إنَّ أسلوبه في العمل السياسيّ قد أعاد الحياة إلى مئـات ملايـين البـشر، إذ حرّرهم من الخوف، وحَفرَ في طواياهم احترام ذواتهم، والثِّقة بها، وإذ كان لا يني يلفت الأنظار إلى أكثر الناس حرمانًا، والمفتقرين إلى أَيّ امتيازٍ، وإلى أَشدّ النـاس بُؤسًا وانسحاقًا وإدقاعًا، فقد اضطرّنا، جميعًا، إلى أن نُشيد تفكيرَنـا علـى أسُـس العدالة الاجتماعيّة؛ وكلّ ذلك قد تحقّق في جوٍّ من الصَّفاء، خـالٍ مـن اصـطِراع الأَهواء، وفي حرصٍ على تفادي الصدام قدرَ المستطاع.

"وفي المقام الأوَّل، كان يعود، بلا كَلَلٍ، إلى الحقيقة، وإلى اختيار الأسـاليب، إذ كانت الحقيقة قد باتت هي شرط الوجود، والقاعدة التي ترتكز عليها ديناميكيّة عمله. وبنهجه هذا، بَعَث لدى شعبنا ذكرى المبادئ الأَساسيّة التي أَغنت شَعبَنا في الماضي.

"وعلى هذا النحو كان يُشيد على أسُسٍ قديمةٍ، في حين كـان يوجّـه البُنـى الجديدة نحو المستقبل... لقد أُعجبتُ، دائمًا، بأسلوبه في ربط الماضـي بالحاضـر والمستقبل. ولأَنَّه كان يمتلك ذلك السرّ، استطاع أن يدفع شعبه إلى الأَمام، خُطـوةً خطوةً، من غير انفصامٍ، ومتفاديًا الصراعات، إلى أبعد حدٍّ ».

ولقد تَحلَّت ثورةُ غاندي بالصِّدق المُطلَق، فهو لم يحاول إصلاح الآخـرين، إلاّ بعد أن أصلح نفسه، وأحكم عليها قبضَةَ سيطرته الشديدة، ولم يعكف على صـياغة العالَم إلاّ بعد أَن صاغ نفسه بدقّةٍ وعناءٍ؛ ولم يُطالب، قطُّ، الآخرين بأمرٍ لم يكن هو، في تنفيذه، القدوة المثلى والأولى. فكثيرون من الهندوسيّين، قبلَه، نَـدّدوا بالمنبوذيّـة التي كانت تَحكُم بالمهانة على الملايين من الهنود، ولكنّ أحدًا منهم لم يتخطَّ التنديـد

الكلاميّ، فيمَا هو تميّز بجسارة اختراق جدار الحَظْر الدَّهريّ الذي كان يَعُدُّ الاتِّصالَ بالمنبوذين رِجسًا، فلم يخشَ استضافةَ الكثيرين منهم، ومؤاكلتهم ومشاربتهم، وتنظيف مراحيضهم بنفسه، وتبنّى واحدةً من بناتهم، غدت له أغلى من ابنةٍ، ولازمته حتّى مماته؛ وحَرِص على الإقامة في أكواخهم الزريّة، كلّما اضطرّ إلى المكوث في إحدى المدن الكبرى، فارضًا على زائريه، من كبار الشَّخصيات الهنديّة والأَجنبيّة، الشُّخوصَ إلى تلك الأَماكن المُحرَّمة، التي، لولاه، لما وضعوا فيها قَدَمًا.

وكثيرون، قبلَه، تناولوا بالنَّقد اللاَّذع زَيف الحضارة الصِّناعيّة، ولكنّ أَحدًا لم يَعِش، مثلَه، قناعاته تلك، بالتخلّي، طوعًا، عن رفاه تلك الحضارة، وبالاقتصار على القَشِف الزهيد من الطعام، والمُهلهَل المُغرق في البساطة من اللِّباس، والأَساسيّ الذي لا غنى عنه من الاحتياجات؛ ولم يجرؤ أحدٌ، نظيرَه، على بعث صناعة الغزل والنسيج اليدويّة، متحدّيًا الهُزءَ المرير، والنقدَ اللاسع، حتّى من قِبَل الأصدقاء والمريدين.

وكثيرون أعربوا عن تعاطُفهم مع الفلاحين الفُقراء، والقرَويّين المُهمَلين، ولكنّ أحدًا منهم لم يتعدَّ التعاطُفَ، مثلَه، إلى المُضيِّ صَوب القُرى القصيّة، لتَحرّي أوضاعها عن كثَبٍ، واستجلاءَ أحوال سُكّانها، والانكبابِ على مشاكلهم وقضاياهم، والعيش مثل عيشتهم، ومعاناة ما يعانون، واعتبارهم ركيزةَ البلاد، وإيلائهم القسطَ الأَوفر من الرعاية والاهتمام.

لقد اكتشف غاندي السبيلَ إلى استفزاز الإصلاح الاجتماعيّ الذي يتعذَّر فرضُه قَسرًا، فاستفزّه بالتَّضحية الذاتيّة الطوعيّة، الخليقة بهزّ ما في الغير من أنانيّةٍ ونزعةٍ إلى التملُّك. وقد تبيّن أنَّ قلوب الجماعات لا تنطوي على شهوات ماديّةٍ جامحةٍ فحسبُ، بل أيضًا على قوىً روحيّةٍ فاعلةٍ، غالبًا ما تُستَغلّ استغلالاً فاسدًا، فأَثارها بقُدوته المهيبة، ومثاله الرائع.

وصِدقُ غاندي الصَّميم قد دفعه، أبدًا، إلى نُشدان الأسلوب الأمثل، فما خَشيَ، قطّ، الاعتراف جهرًا بالخطأ، كلّما استبان طريقًا أكثر استقامةً، وكلّما حاد عن سويّ السبيل واحدٌ من أتباعه، أو فئةٌ من مواطنيه. ولم يخشَ الرُّجوع عن خطّةٍ اتّضح له

أنَّها قد لا تتوافق ونقاء الأسلوب الذي كان عليه حريصًا.

وعلى نقيض السياسيّين الذين يلتمسون التصفيق، واستثارة الأهواء، لم يألف التبجّح بمزايا وطنه، وتحقير خصومه، بل فَضَح، من غير وَجَلٍ ولا مهاودةٍ، نقائص بلاده، وأمراض شعبه الأخلاقيّة، داعيًا مواطنيه، بحزمٍ، إلى التحَرّر منها قَبل أن يحقّ لهم التصدّي لخصمهم، بكرامةٍ مَوفورةٍ، ورأسٍ مرفوعٍ.

أمّا أسلوبه الثوريّ، فكان فتحًا في تاريخ الثورات، وأقرب إلى أساليب الأنبياء والمُرسَلين، إذ نادى باللاّعنف سلاحًا لا يَفُلّه سلاحٌ؛ واللاّعنف، الذي يتعارض مع الجُبن والاستسلام، والقائم على الصمود في التشبُّث بالحقّ حتّى الاستشهاد، يعني حُبًّا شاملاً لا يُفرّق بين مُوالٍ وخصمٍ، ورغبةً في إصلاح الذات بالتضحية، وإصلاح الغير بالنفاذ إلى قناعاته الصميمة، وافتدائه بالمعاناة عنه، طَوعًا وحبًّا. وهذا ما عبّر عنه نهرو بقوله: "**أسلحتُنا ليست أسلحة الأزمنة الغابرة، أي القوّة والإكراه، بل أسلحة الحبّ، والتَّضحية بالذات، التي وَضَعها بين أيدينا قائدنا العظيم. إنَّنا بآلامنا الشخصيّة، نجهد في تحويل نفوس خصومنا**".

وغاندي نفسه قد طالما أكَّد لنائب الملك، ولزعماء العالَم، بأَنَّ أساليب اللاتعاون واللاعنف والساتياغراها التي انتهجها، ودعا شعبَه إلى انتهاجها، إنَّما كانت محاولةً لإحداث ثورةٍ في السياسة، كفيلةٍ بإعادة القوة الأَدبيّة، وقيَم الروح إلى احتلال موقعها الحقّ، الذي قد طالما أقصتها عنه سياسةُ العنف والعدوان، والجَشعَ والطُّغيان.

وهكذا قاد غاندي أعظمَ حركة عصيانٍ مدنيٍّ في التاريخ، وكان لها رائدًا، وبها أفلَح في إحراز نصرٍ سياسيٍّ متألّقٍ، في حرصٍ شديدٍ دائمٍ على عدم إراقة قَطرة دمٍ واحدةٍ، واستعدادٍ للاستشهاد ببسالةٍ، في كلّ لحظةٍ. ولئن هو استطاع حمل شعبه على الالتزام بقواعد السُّلوك اللاعنيف، فإنَّما تمَّ له ذلك بفضل توعيةٍ وئيدةٍ، صبورةٍ، وقُدوةٍ نزيهةٍ لا غُبار عليها، وعملٍ دائبٍ على تحويل الاستسلام إلى توثّبٍ للنضال، وتحويل التذلُّل إلى كرامة أبيّةٍ، وبفضل حبٍّ جمٍّ كان غاندي له منبعًا ومثالاً؛ ولقد سبَق لنا أن كتبنا: "**الثَّورةُ الصحيحة المُجدية هي التي تتناول العقولَ فتَسكُب فيها فَيضًا من نورٍ، والإراداتِ فتنفث فيها دفقًا من عزيمةٍ، والقلوبَ فتجعلها عامرةً**

بالحبّ؛ والثوَّارُ الوحيدون الجديرون بالتقدير والخلود، هم الذين يؤدّون بـأقوالهم وسلوكهم هذه المهمّة الرائعة".

ولقد نهض غاندي بتلك المُهمَّة كما لم ينهض سياسيٌّ من قبل، وضَرَب في الثَّورة الرفيعة، النبيلة، الفعّالة، مثالاً فذًّا، قلّما ارتقى إلى ذُروته أحدٌ سواه، ممّن خاضوا مُعتَرك السياسة في التاريخ.

ومرّةً أُخرى، يحسن بنا الاستماع إلى شهادة جواهر لال نهرو الذي كان لغاندي رفيقَ نضالٍ وفيًّا، والذي قال:

« "غاندي كان يتفوَّق على جميع الزُّعماء الآخرين، بمعرفته الحميمة للجماهير الفلاّحيّة، وهو وحدَه كان قادرًا على دفع تلك الجماهير إلى مقارعة السُّلُطات البريطانيّة.

"كان غانديجي يعرف الهند معرفةً تفوق، إلى ما لا حدَّ له، معرفتَنا لها، ولا رَيب أنَّ رَجُلاً قادرًا على إيحاء مثل ما كان يوحيه من إخلاصٍ وولاءٍ فريدَين، كان عليه أن يمتلك، أيضًا، شيئًا يتجاوب وحاجات الجماهير وتطلُّعاتها... وهو، رغم نظرته الفلاّحيَّة، كان مُتمرّدًا بالسليقة، وثائرًا يتطلّع إلى تحوُّلاتٍ جسيمةٍ، غير هيّابٍ من عواقبها.

"أيُّ نظامٍ استطاع فرضَه على شعبنا الكسول اليائس، وبأيّة طريقةٍ حَمَلَنا على العمل، غير متذرّعٍ لا بإكراهٍ، ولا بجاذب مكافأةٍ مادّيّةٍ، ولكن بنظرةٍ وديعةٍ، وكلمةٍ حلوةٍ، وفوق كلّ شيءٍ، بقُدوةِ سيرته الشخصيّة!...

"لا مِريَةَ أنَّ "باپو" بارعٌ في بعث الصدمات فينا ».

ولا غَرو أنَّ صدق الثورة الغانديّة كان نابعًا من واقعيَّة المهاتما الصميمة؛ فثَورتُه كانت تستفزّها المظالم التي يئنُّ منها ملايين أبناء جلدته؛ وأُسلوبه في مكافحة تلك المظالم كان يستمدّ إلهامه من خبِرته الحميمة بخَلَجات نفس الهند، ومن شعوره المرهَف بكوامنها؛ وقد اعترف الشاعر طاغور، عام ١٩٢١، أنَّ غاندي هو أوّل من أَطلق ثورةً غير مستقاةٍ من الكتب الغربيّة، وأنَّه استأهل لقب "المهاتما" لأنَّه تسلّل إلى

روح الهند، فأيقظها، وارتقى بها إلى أسمى معارج العظمة، وعرف كيف يَنطِق بصَوتها، واكتسح العالَم بالحبّ، الذي هو وحدَه الحقّ.

إلاّ أنَّ غاندي الذي بات صوت المظلوم، وأمَل البائس، والذي لم يقتصر على إبلاغ أنّات المحرومين إلى آذان المسؤولين، وضمائر المُقَصّرين، بل عمل، في دأبٍ وصبرٍ وتبصُّرٍ، على توفير الخبز والعمل والكرامة لمن كانوا إليها مفتقرين، كان عميق الإيمَان بأنَّ تلك المنجزات كلّها، التي لا يطمح إلى أكثر منها أفضل الثوّار، لا يمكن أن تكون غايةً في ذاتها، ولا مصدر سعادة إنسانٍ تخفق في حناياه نفحةٌ إلهيّةٌ، وإن هي إلاّ وسيلةٌ ضروريّةٌ لبَعث قِيَم الروح، وتعميق إنسانيّة الإنسان؛ وبفضل ذلك الإيمَان الذي عَمِلَ غاندي بهَديِه، ترتدي الثورة الغانديّة طابعًا فذًّا متميّزًا، بين جميع الثورات التي شهدها التاريخ.

ولا مِريةَ أنَّ ما كان لغاندي عَونًا على تسنُّم تلك القمم الشمّاء، هو تجرّده من كلّ غايةٍ خاصّةٍ، وزهده في كلّ نجاحٍ شخصيٍّ، مثل زهده في المال والمنصب والسُّلطة، بحيث جاءَت ثورته صافيةً سمحاءَ، نقيّةً، مفعمةً بالحبّ والإيثار.

عاملٌ آخَر كان يكمُن وراء ثوريّة غاندي المتفجِّرة، ويضمن لها النُّبل والسموّ، إلاّ وهو شعوره الراسخ بالتضامُن الوثيق مع الإنسانيّة جمعاء، وبالمسؤوليّة عن كلّ جَورٍ يلحق بإنسانٍ. فكانت رؤية الشرّ، أيًّا كان مصدره، وتبيُّن الظلم، أيًّا كان مُقتَرِفُه، يرينان على نفسه بوِقرٍ باهظٍ، ويأبى حيالَهما صمتًا متخاذلاً، أو استسلامًا يائسًا، فغدا صَوتًا للمظلوم، وذراعًا للضعيف، وضميرًا للظالم، إذ إنَّه قد فرَّق دائمًا بين الشرّ الذي يناهضه بحزمٍ، والشرّير الذي جَهِد في هَديه، وإنقاذه، والتكفير عنه.

لقد عرف غاندي عن نفسه قائلاً: "**إنَّني ثائرٌ اجتماعيٌّ**". وكيف لا يكون ثائرًا من تمثّل بكل ضعيفٍ ومسحوقٍ ومهضوم الحقوق، وعاهَد نفسه على الذَّود عنهما جميعًا؟ أَو كيف لا يثورُ رسول اللاعنف، وهو يلحظ أنّ الظُّلم واللامساواة يولّدان العنف، لا مَحالة، وأن لا سبيل إلى إقرار اللاعنف سوى إشاعة العدل والمساواة؟ وكيف لا يتمرّد من عَشِق الحرّية لنفسه ولجميع الآخرين، وأَيقن أنَّها أَوّل عناصر

الكرامة؛ ومن ارتكز نشاطه على إيمَانٍ صميم، وكان إيمَانُه عَمَلاً، واندماجًا بحياة النَّاس اليوميّة! ألم يقل المطران ريوبيه: "**كلّما نَهَض إنسانٌ مُعلنًا رفضه للبُؤس، وجاهرًا برفضه هذا، فالله هو الذي يدعونا**"؟

ومن كانت تلك دوافعُه، كيف لا يغدو الإقدام هو طابعه، والجرأة الماضية هي رائده، فلا يستكين لوضعٍ قائمٍ إذا ما تبيّن فيه امتهانًا لكرامةٍ، حتّى لو اطمأنّ إليه الناس أجمعون، ولا يرتضي بتقليدٍ شائعٍ، راسخ الجذور، إن هو استشفّ فيه تناقضًا مع المحبّة، ومع مشيئة الله، حتّى لو تشبّث به العالَم بكلّ قواه، ولا يحيد عن يقينه بأنَّ الخطأ لا يُصبح صوابًا حتّى لو آمن به الجميع، وأنَّ الحقيقةَ لا تغدو ضلالاً حتّى لو لم يُؤمن بها أَحدٌ، فيظلّ متأهّبًا للذَّود عنها، حتّى لو أحجم عنها العالَم أجمع، ولافتِدائها بحياته حتّى لو تنكّر لها الجميع؟

ونُشدان الحقيقة، والصَّلابة في الذَّود عنها هما مفتاح ثورة غاندي، فالحقيقة تتبوّأ مقام الصدارة في سُلّم أَولويّاته؛ وفي سبيل إشاعتها بين الأنام، والحفاظ على نقائها وأصالتها، كان حَربًا على كلّ ما يشوّهها، أو يُعرقل انتشارها. وحتَّى الدِّين الذي كان حاديَه، ومُلهمَه، ومعيار كلّ أعماله، كان غاندي متأَهّبًا أبدًا للتضحية به إن هو تعارض مع الحقيقة، فلم يتحرّج من التمرّد على كلّ ممارسةٍ تنال من الحقيقة، باسم الدِّين، وإنّ لفي ثورته الهادرة على المنبوذيّة خيرَ مصداقٍ على ذلك، فهو لم يخشَ الجهرَ بأنَّه بريءٌ من الهندوسيّة، التي كان بها شديد التعلّق، إن كانت المنبوذيّة من عناصرها الجوهريَّة.

وهكذا يتَّضح لنا تفرُّد ثورة غاندي وأصالتها: فهي ثورة خدمةٍ مجرَّدةٍ، ومحبّةٍ سمحاءَ شاملةٍ، وانتصارٌ للحقّ متأهّبٌ أَبدًا للاستشهاد، وحرصٌ على نصاعة الحقيقة من كلّ تشويهٍ وتزييفٍ، وسبرٌ لأَغوار القِيَم الإلهيَّة الخالدة، في أعماق الإنسان، واعتمادها أساسًا لإشادة حاضرٍ سليمٍ معافى، وإعداد مستقبَلٍ زاهرٍ، ماضٍ باطّرادٍ في معارج الرقيّ والتقدّم.

تَديّن غَاندي

التديُّن – كما سَلَفَ لنا أن لَحَظنا – ركنٌ أساسيٌّ من أركان حياة غاندي الخاصّة، وحياته العامّة على السَّواء، وقد صَبَغَ سلوكَه وسياستَه بطابعه العميق الأثَر.

لقد وَرِث غاندي التديُّنَ من والدته ومُرَبّيته، في حداثته؛ وعقبَ فترة إغفاءٍ، تيقَّظت تلك النزعةُ في نفسه، أيّامَ دراسته في إنكلترا، ومُذَّاك، ما انفكّت تترسّخ في أعماقه؛ بيدَ أنّها، بعد أن اقترنت بسَعيه الحثيث إلى نُشدان الحقيقة، واكتشاف وجه الله، باتت أشدَّ دوافِعه زخمًا، والإطارَ الذي ضمنَه يتحرَّك نشاطُه كلُّه.

وقد أَماط غاندي النِّقاب عن مشاعره حيالَ ديانته بقوله: "**يتعذَّر عليّ وصفُ مشاعري تجاهَ ديانتي الهندوسيّة، مثلما يتعذّر عليّ وصف مشاعري حيال زوجتي التي تُثير فيّ من الشُّعور، ما لا تقوى على إثارته أيَّةُ امرأَةٍ أُخرى؛ وليس ذلك لأنَّها خاليةٌ من العيوب، بل قد يكون فيها من العيوب أكثر ممّا ألحظ؛ إلاّ أنَّني أونس بيني وبينها صلةً لا انفصام فيها، وعلى هذا النحو هي مشاعري حيال الهندوسيّة رغم عيوبها ونقائصها**".

لقد أَخلص غاندي لدين آبائه، واتّخذ من تعاليم "الباغاڤاد جيتا" نبراسًا، ومُلهمًا، ورفيقَ دربٍ، ولكنّه لم يخشَ من تجاوزها، ولم يتردّد في إغنائها، فمن المعروف أن ليس للهندوسيّة كتُبٌ منزلةٌ، ولا تعاليمُ محدَّدةٌ، ولا مبادئ مُغلقةٌ نهائيّةٌ، بل هي منفتحةٌ على الاجتهاد، متفهّمةٌ، ليّنة العريكة، متحرّرةٌ. وقد حرص غاندي، بدافع حبّه ووفائه لها، على تحريرها من بعض طقوسها وممارساتها، التي كرّستها التقاليد، بحيث غدت، في نظر الجماهير الهندوسيّة، هي الدِّين بعينه، في حين كان غاندي يرى فيها تشويهًا للدِّين، وانحرافًا به عن السِّراط القويم؛ فكافح بشدّةٍ، على سبيل المثال، ذبحَ الأضاحي في المعابد، إذ كان منظرُ الدماء المراقة يبعث فيه الغَثَيان، وكان يرى في ذَبح البهائم، أيًّا كان دافعه، عملاً همجيًّا مُنكرًا.

أمّا التقليد الآخر الذي ناهضه بكلّ طاقاته، والذي كان، أبدًا، متأَهّبًا للاستشهاد، في سبيل القضاء عليه، فهو المنبوذيَّة التي كانت تَحكُم بالمذلّة واللَّعنة على ملايين

الهندوسيّين، بذريعةٍ تتّشح بلباس الدِّين، في حين هي انتهاكٌ للإنسان، وكفرٌ بالله، وإزراءٌ بالدّين الحقّ. لقد كانت المنبوذيّة تقليدًا دهريًّا راسخًا، وحاجزًا منتصبًا كالطَّود، لا يجرؤ أحدٌ على التصدّي له، وإلاّ اتُّهم بالخروج والزندقة. ولكنَّ غاندي، عندما آمن بأنّ ذلك التقليد يُذلُّ البَشَر، ويُغضب الله، ويُشوّه الدِّين، حارَبَهُ بصلابةٍ لا تلين، ومضى في حملته الجريئة عليه، إلى أن صرّح، في جسارةٍ نادرةٍ: "**إن كان الأسلوب اللاّإنسانيّ المستخدَم في معاملة المنبوذين جزءًا من الهندوسيّة، لكان التنكُّر للهندوسيّة واجبًا على جميع الذين، مثلي، لا يجعلون من الدِّين صَنَمًا، ولا يلتمسون الأعذار لجميع الشرور التي تُرتكَب باسمه**".

وفي هذا التصريح، مفتاح معرفة تديُّن غاندي؛ فالدّين، عنده، ليس صَنَمًا جامدًا يُعبَد بلا نقاشٍ، وفي سبيله تُستباح كلّ المحرّمات، بل هو وسيلةٌ للاتّصال بالله. وكلُّ ما فيه يتنافى والأخلاق، ويناقض المحبّة، ويبعد عن الله، لا يُمكن إلاّ أن يكون ضلالاً، وتزييفًا للدِّين؛ ومن ثمَّ، فغاندي لم يتحرّج من الطَّعن حتّى في النّصوص المقدّسة، إن هي جانبت الحقيقة، وامتهنت العقل، على حدّ ما يتجلّى من قوله في المنبوذيّة أيضًا:

"**ليست المنبوذيّة عقابًا يفرضه الدِّين، بل هي اختراع إبليس؛ وقد طالما تذرّع الشيطان بالنُّصوص المقدّسة؛ بيد أنَّ النُّصوص المقدّسة لا يمكن أن تسمو على العقل والحقيقة، إذ إنَّ غايتَها تطهيرُ العقل، وإسباغ مزيدٍ من الوضوح على الحقيقة**".

لقد كان غاندي أبعدَ ما يكون البُعد عن حرفيّة النصوص، وجمود الطقوس، وقد صرّح يومًا: "**المعرفة الدينيّة المجرّدة لا غناء فيها**". وكان يتوجّس خشيةً من الممارسات التي تحيد بالدّين عن مساره الصحيح، ويكافح النزعة الوبيلة إلى إفراغ الدين من جَوهره المُتَمثّل في محبة الله والقريب، والاقتصار منه على قشور الطقوس، وعباراتٍ تردّدها الشفاه، فيمَا القلب عنها في غيبوبةٍ، وعلى فرائض تتعلّق بالأكل والشرب والاغتسال، والنفسُ عنها في منأًى.

وكان يُؤلمُه تخيُّل البعض أنَّهم متفوّقون على سواهم بسبب دينهم الموروث، إذ

إنَّ الدين الحقّ حبٌّ، وتواضعٌ وخدمةٌ، وقد كتب في هذا السّياق:

"الديانة الهندوسيّة مُعرّضةٌ لفقدان جوهرها، إن هي انتهت إلى أن تكون مجــرّد قواعد معقّدةٌ لبيان ما ينبغي تناوله من طعامٍ، ومع من ينبغي تناوله. إنَّ الامتناع عن المُسكرات والمخدِّرات، وشتّى أنواع الأطعمة، ولا سيَّمَا اللحم، وسيلةٌ جزيلةُ الجدوى للمساعدة على تطوُّر النفس، ولكنَّه ليس هدفًا، في ذاته. كثيــرون ممّــن يَطعَمــون اللَّحمَ، ويؤاكلون أيّ إنسانٍ، ولكنَّهم يعيشون في خشية الله، هم أقرب إلــى التحــرّر ممّن يمتنعون، بدافع الدّين، عن اللحم وعن أشياء أُخرى كثيرةٍ، ولكــنّهم لا يكفّــون عن التجديف على اسم الله، بكلّ عملٍ من أَعمالهم".

لقد كان غاندي، حتّى في تديُّنه، واقعيًّا مثاليًّا؛ ففي بلادٍ كالهند حيثُ تُعشّش أكثر الأساطير الدينيّة غرابةً، ولئن هي اتّسمت أحيانًا بالطَّلاوة والرَّهافَة، وحيث تُــسيطر على الفكر الدينيّ الرؤى الجامحة، في مَزيجٍ من الــسذاجة والتــصوُّف، والتقاليــد الراسخة، في عنادٍ وتحجُّرٍ، التزم غاندي الواقع المحسوس، وانتهجــه ســبيلاً إلــى المُطلق اللامحسوس؛ فرفض الاستكانة للرؤى الضبابيّة، والاستسلام، في أحــضانها، إلى التواني الثَّمِل المخبول، وانشدَّت أبصاره إلى رؤية الله وجهًا لوجهٍ، عِبرَ نُــشدان الحقيقة الصُّراح، بواسطة العمل الدؤوب الصَّبور، والجهاد المتّصل الشجاعِ، والخدمة السمحاء المعطاء، والتضحية بالذات المصمّمة العنيدة، التي لا تعــرف هــوادةً، ولا تخاذُلاً، ولا رأفةً، إلى أن تتحرّر الذات من سطوة الأهواء العليلة، فتصفو بــصيرتها بعد أن تنحسر عنها حُجُب الأوهام والرغبات الدنيئة، وتغدو مهيّأةً لاستشفاف الــذات الإلهيّة السامية، بمقدارٍ أوفى من الوضوح والجلاء.

وقد طالما علَّم غاندي أنَّ الدِّين الحقّ هو الذي "يسمو فوق الهندوسيّة والإســلام والمسيحيّة... لا يَحِلُّ محلَّها، بل يُقيم بينها الانسجام".

ولم يقتصر غاندي على تحرير الهندوسيّة من مواطن ضعفها، ومن مثالبها، بل إنَّه أغناها بكلّ ما أدخله عليها من مكاسب استقاها من الديانات الأُخرى. وكان قد خَلُص إلى قناعاتٍ واضحة المعالم، في شأن الديانات الكبرى؛ فطالما كانت تلك الديانات بحثًا عــن

الله، ودربًا إليه، فجميعها تتلاقى على الجوهر، وجميعُها، في ذلك، صحيحةٌ. ومن ثـمّ، استطاع غاندي أن يُؤَكِّد: "**جميع الديانات الأُخرى تحتلّ في نفسي من المحبّة مثل مـا تحتلّه ديانتي اَلْخَاصَّة... إنَّني أُجِلُّ عقيدة الآخرين، بقَدر ما أجِلُّ عقيدتي**".

ولقد برهن غاندي، سحابةَ حياته، على ذلك الانفتاح على الـدّيانات الأُخـرى، بسلوكه اليوميّ، فلم يكن الدّين، يومًا، حاجزًا بينه وبين أيّ إنسانٍ، ولم يُفرّق، يومًـا، بين هندوسيٍّ ومُعتَنِقٍ أيّة ديانةٍ أُخرى؛ ولقد طالما حثّ الهندوسيّين علـى الإحاطـة بسائر الديانات، ولا سيَّمَا الإسلام والمسيحيَّة، وعلى الإفادة من كنـوز روحانيّتهـا، على حدّ ما كان يفعل هو نفسه. وسبق لنا أن أبرزنا حرصَه الشديد على أن تتضمّن الصَّلوات الجماعيّة التي كان يُقيمها، كلّ مساءٍ، على آياتٍ مـن القـرآن، وتراتيـل مسيحيّةٍ، وأناشيد هندوسيّة.

وبمَا أنَّ الهند كانَت تَتَأَلَّف من غالبيّةٍ هندوسيّةٍ مُتعدّدة الطبقات، ومن أقلّيّةٍ مـن المسلمين، فقد أَملى عليه دينُه أن ينهض نصيرًا للمنبـوذين مـن الهندوسـيّين، وأن يضرب المَثَل في التآخي مع المُسلمين، والذَّود عنهم من كلّ افتئاتٍ هندوسيٍّ أرعن؛ وكم قد أَرهق نفسه بالأصوام، في سبيل هذه الغاية النبيلة، إلى أن لقيَ مصرعَه مـن أَجلها، على يد فئةٍ من أبناء ديانته الذين تخلَّوا عن روح الدِّين الحقّ، وتشبّثوا بحرفه القاتل، فتحوّلوا قتَلةً سفّاحين.

وقد أثبت غاندي، أيضًا، بسُلوكه اليوميّ، أنَّ الدِّين الصحيح يتنافى وكلّ مظاهر التعصُّب، "**فالتعصُّب هو إنكارٌ لكلّ دين**"، وأَنّه يوثّـق عـرى التعـاطُف، والتـوادّ والتفاهم، بين جميع أبناء البسيطة، ومعتنقي شتّى الديانات؛ فغاندي لم يتحرّج، يومًا، من تبنّي أسمى ما في الديانات الكبرى، ممّا كان ينفذ إلى قناعات وجدانه، ويتوسَّـم فيه الطريق الأَقوم إلى إسعاد الناس، واكتـشاف وجـه الله، وهـو، ولـئن التـزم بالهندوسيّة، إلاّ أنَّه جَهِدَ في رَفدِ نزعتها الشُّموليّة المُبهمة بالممارسات العمليّة الكفيلة بإكسابها جدوى اجتماعيّةً فعّالةً.

وغاندي اتَّخذ من "الباغاڤـادجيتا" نبراسًا لجهاده، ولكنّه في أعقـاب ممارسـة

تعاليمها، سنين طويلةً، ولا سيَّمَا في مضمار التجرُّد، وعدم الاحتفال بثمار الجهـــاد، اتَّضح له أنَّ تلك التعاليم غير مُكتَملةٍ، إن هي لم تقترن باللاّعنف، ولا سيَّمَا اللاّعنف الإيجابيّ المتمثّل في محبّة الأعداء، والمستمدّ من تعاليم يسوع.

ومن المُحقَّق أنَّ غاندي كان مُشبَعًا بروح الإنجيـــل، وبخاصّـــةٍ بـــروح المحبّـــة الشاملة، وإيثار الفقير والمسحوق، والتجرُّد المطلق، والتضحية بالذات، وطُهر النوايـــا؛ ولكنَّه، على نقيض مُعظَم المسيحيّين، لم ينظر إلى تلك المبادئ علـــى أنَّهـــا نظريّـــاتٌ ساميةٌ جديرةٌ بالتأمُّل، فحسبُ، بل عاشها، يوميًّا، بدقّةٍ والتزامٍ أمينٍ، كمـــا لـــم يَعِـــشها سوى قبضةٍ من المسيحيّين، طوالَ عشرين قرنًا. صحيحٌ أنَّ غاندي قد أعـــرَض عـــن مُجمل اللاَّهوت المسيحيّ، لا بل إنَّهُ تنكّر للكثير من عناصره النظريّة التي ليس لها في حياة عامّة الناس أثرٌ عمليٌّ، والتي لا يؤتي النقاش بشأنها سوى الخلاف والـــشقاق، إلاّ أنّه عاش التطوبيات بكلّ حذافيرها، وبكلّ أصالتها وصفائها، ولم يحاول، يومًا، الحـــدَّ من جُرأَتها وجُنونها السامي، أو تدجينها، كمـــا يفعـــل بعـــض المـــسيحيّين، ومعظـــم السياسيّين منهم، الذين يدَّعون المسيحيَّة افتئاتًا وبُهتانًا؛ فكان، حقًّا، نقيَّ القلب والروح، بسيطًا، متواضعًا، فقيرًا، وديعًا، صانعَ سلامٍ، دائم الجوع والعَطَش إلى العدل والحـــقّ، ودائم السَّعي إلى تخفيف تباريح الجوع والعطش الماديَّين لدى الآخرين.

وكان من البَدَهيّ أن يُسحَر غاندي بيسوع، فيسوع قد أَعلنَ: "**كلُّ من هـــو فـــي الحقّ يسمع صوتي**" (يوحنّا ١٨: ٣٧). وغاندي الذي وقَف حياته على الحقّ، ســـمع صوت يسوع، وعاش تعاليمه، بكلّ جوارحه.

ومن اليسير على من يستقري سيرة غاندي وكتاباته، إدراك مدى تغلغل تعـــاليم الإنجيل إلى أغوار قناعاته، وأثرها البالغ على روحانيَّته وتفكيره؛ فعبارات الإنجيـــل تزدهر تلقائيًّا على قَلَمه ولسانه، وتدلّ على كثافة تفاعُله الصميم معها، بحيثُ قيل إنَّ لغاندي قَلبًا إنجيليًّا يخفُق بين أحضان عقيدةٍ هندوسيَّةٍ.

وغير خفيٍّ أنَّ اللقاء الصَّاعق بين غاندي ويسوع قد تمّ عندما قرأَ المهاتما "عظـــة الجبل"، ولنسمعه يعترف:

« إنّ رسالة يسوع، كما أفهمها تكمُن في عِظته على الجبل، تلك العظة التي دفعتني إلى حبّه... لو كان عليّ التعويل على موعظة الجبل، فحسبُ، على نحو ما أنا أدركها، لما تردّدتُ في الجهر: "أجل، أنا مسيحيٌّ"... وعندما توطّدت علاقتي بمسيحيّين حقيقيّين، أي أناسٍ يعيشون في خشية الله، تبيّن لي أنَّ موعظة الجبل هي المسيحيَّة بأكملها، لمن رام العيش عيشةً مسيحيّةً...

"لا معنى لموعظة الجبل، ما لم تكن لكلّ إنسانٍ، مادَّة حياته اليوميَّة".

ويُسهب غاندي في الإشادة بتعاليم يسوع، وبشمولها، وبطاقاتها الخلاصيّة، ويجدر بنا أن نورد بعض أقواله في هذا الشأن:

"في نَظري، كان يسوع، بكلّ تأكيدٍ، أسمى مثالٍ لمن يرغب في إعطاء كلّ شيءٍ، من غير أن يقتضي، في المقابل، شيئًا، غير عابئٍ بعقيدةِ من يتلقّى العطاء. إنَّني لواثقٌ أنَّه، لو كان يعيش، اليومَ، بين البشر، لباركَ الكثيرين ممّن لم يسمعوا حتّى باسمه، لو هم كانوا يجسّدون، في حياتهم، الفضائل التي كان لها مِثالاً حيًّا على الأرض: فضائل محبّة القريب كالذّات، وإشاعة أعمال الخير والمحبّة بين سائر البشر.

"إنَّه، في نظري، أحدُ أكبر معلّمي البشريّة.

"ليس من مُعجزةٍ تُعادِل سنواتِ رسالته الثلاث.

"إنّني أَرفُض التصديق أنّه يوجد اليومَ، أو أنَّه قد وُجِد، يومًا، إنسانٌ لم يُفِد من مثال يسوع كي يتحرّر من خطاياه، وإن هو لم يُدرك حقيقةَ ذلك. إنَّ حياةَ الناس أجمعين قد تغيّرت، إلى حدٍّ كبيرٍ أو قليلٍ، بفضل وُجود يسوع وأعماله، والكلماتِ التي نَطَق بها صوتُه الإلهي.

"جميع الديانات، في رأيي، تُجسِّد قوةً دافعةً مُشتَركةً: هي الرغبة في الارتقاء بحياة الإنسان إلى أَسمى، ومنحها هدفًا. وبمَا أَنَّ حياةَ يسوع تتَّسم بهذا المعنى، وبهذا التسامي، فإنّني أعتقد أنّه لا يخصّ المسيحيّة وحدَها، بل العالَمَ أجمع: جميع الأجناس والشعوب، تحت أيَّة رايةٍ ساروا، وأيًّا كان اسم العقيدة التي بها يُنادون، وعبادة الله التي ورثوها من أجدادهم...

"يسوع يحتلّ في قلبي مكانة واحدٍ من أكبر المعلّمين الذين كــان لهــم، فــي حياتي، أبلغ أثَر... إنّني أُعلن للهندوسيّين أنّ حياتهم ستظلّ ناقصةً ما لم يُكبّوا، في إجلالٍ، على دراسة تعاليم يسوع.

"لقد أتيحت لي فرصةُ إحناء رأسي أَمامَ يسوع المصلوب النابضة بالحياة، في الــڤــاتيكان، وكم شعرتُ بالتمزّق عندما انسلختُ عن مشهد المأساة الحيّــة ذاك. وقد اتَّضح لي، في الحال، أنّ الأمَم، شأنُها في ذلك، شأن الأفراد، لا تقوم لها قائمةٌ إلاّ عِبر النِّزاع على الصليب، ولا سبيلَ آخَر لها. فالفرح لا يمكــن أن يَــنجُمَ عــن إلحاق الآلام بالآخرين، بل هو ينبع من الأَلم الذي يتحمّله الإنسان طائعًا مختارًا.

"إنّ صورة الصليب التي شَهِدتُها في الــڤــاتيكان، بروما، ماثلةٌ أمام عينيَّ في كلّ الأوقات. كان الجسد ملفوفًا بقطعة قماشٍ صغيرةٍ كتلك التي يرتديها الفقراء في قرانا. وأَيّةُ نظرة رأفةٍ مدهشةٍ كانت تنبعث من ناظرَيه!

"كلّما صفا العذابُ، كان اَلتَّقَدُّم أكبر، ومن ثمّ فإنّ تضحية يسوع كافيةٌ لتُحــرّر عالَمًا تُرهِقُه الآلام.

"لو لم يُعلّمنا يسوع جعلَ شريعةِ الحبّ الأزليّة، مقياسًا للحيــاة كلّهــا، لكانــت حياتُه، وكان موتُه باطلَين ».

بَيدَ أنّ افتِتانَ غاندي بتعاليم يسوع، وضَبطَ سلوكِه وتفكيره على وَقعِها، قد أبرزا له مدى خيانة معظم المسيحيّين، ولا سيَّمَا حكوماتهم وحكّامهم، للمــسيح وتعاليمــه، على حدّ قوله:

« "إنّ الكثير ممّا يُعدّ مسيحيًّا، إنّما هو إنكارٌ لموعظة الجبل.

"لو عاد يسوع إلى الأرض لأنكر الكثير ممّا يجري باسم المسيحيّة. ليس كــلّ من يقول: يا ربّ، يا ربّ، مسيحيًّا، بل المسيحيّ هو من يعمل مشيئة الربّ ».

"إنّ أوروبا اليوم لا تمثّل روح الله ولا المسيحيّة، بل هي تمثّل روح إبلــيس... إنّها لا تملك من المسيحيّة غير الاسم، أمَّا في واقع الأمر، فهي تعبد، "مامون". لقد أظهرت الحرب طبيعة الحضارة الشيطانيّة التي تُهيمن، في أيّامنا، على أوروبا".

ومن ثمّ كان غاندي على قسطٍ جمٍّ من الصراحة في مخاطبة المبشّرين المسيحيّين الذين يحاولون نشر رسالة يسوع، وكانت نصيحتُه لهم:

« إن شئتم أن تبلّغونا أريج المسيحيّة، تشبّهوا بالوردة. فالوردة تَشُدّ إليها الناس شدًّا لا يُقاوَم، ويتغلغل عطرُها فيهم؛ وأَريج المسيحيّة أَشدُّ إرهافًا حتّى من عطر الوردة، وبالتالي يتعيَّن إشاعتُه على نحوٍ أكثر هدوءًا وصمتًا، إن أمكن...

"الطريقة المثلى للتبشير بالإنجيل هي ممارسته، إنَّها الوسيلة الفضلى. في البدء، وفي منتصف الطريق، وفي نهاية الشَّوط. إنَّني أحبُّ أولئك الذين لا يبشّرون أبدًا، ولكنَّهم يَسلكون في الحياة، وفقًا للأنوار الكامنة في أعماقهم؛ حياتُهم صامتةٌ، ولكنَّها أكثر جدوى، إنَّها شهادةٌ حيّةٌ.

"هل سواد الذين، منكم، يُبشّرون بالإنجيل، ينشرون، حقًّا، عُرف سلوكهم الطيّب! إنّ هذا، بالنسبة لي، المعيارُ الأَوحد. ما أَطلبه منهم هو أن يحيَوا حياةً مسيحيّةً، لا التعليق عليها.

"ليس من تبشيرٍ أصدق من السلوك، لا بل ما من تبشيرٍ سوى السّلوك وِفقَ الإنجيل.

"إن أنتم قدَّمتم لنا خدماتٍ إنسانيّةً في سبيل تطوير زراعتنا وأدواتنا، بروحٍ دينيّةٍ، فإنَّكم تكونون قد أدَّيتم رسالة يسوع ».

وكان يشقّ على غاندي أن يشهد من يدَّعون أنَّهم من أتباع رسول السلام والوداعة، يشنُّون أشرس الحروب ضراوةً وتدميرًا، وأتباع رسول الفقر يتَّخذون من الحضارة المادّيّة صنَمًا يُضحُّون على مذبحه كنوز الإنسانيّة، وأتباع رسول الرأفة تحرّكهم أنانيَّةٌ مُفعمةٌ بالجَور؛ ولنستمع إليه يحذّر، في لهجةٍ تقطرُ مرارةً:

« "مع أنَّنا نُرنّم: "المجد لله في العلاء، وعلى الأَرض السلام"، إلاّ أنَّه يبدو أنّ لا مجد لله، ولا سلام على الأرض.

"وطالما ظلّ، هناك، جوعٌ لم يرتوِ، فالمسيح لم يولَد بعدُ، وعلينا ترقّبه، وعندما يحلّ السلام الحقّ، لن نعود بحاجةٍ إلى براهين، إذ سيكون لمولده صدًى في حياتنا، لا في حياتنا كأفرادٍ فَحسبُ، بل في حياة المجموع. حينئذٍ سنقول: المسيح وُلد، ولن نخصّص من السَّنة يومًا على أنَّه يوم ذكرى مولد المسيح، بل سيكون مولده حَدَثًا

يتكرّر باستمرارٍ، ويُؤثّر في كلّ حياة.

"**وكما أنَّ المولد العجيب، حَدَثٌ أَبديٌّ، كذلك الصَّليب هو حَدَثٌ أبديٌّ، في هـــذا العالم العاصف، لذلك لا نجرؤ على تصوّر مَولدٍ في معزلٍ عن الموت على الصليب. المسيح الحيّ، يعني صليبًا حيًّا، وبدونه إنَّما الحياة موتٌ يعيش** ».

وقد طالما حذّر غاندي: "**إيَّاكم أن تخلُطوا بين تعليم يسوع، وما يُعتَبَرُ حــضارةً حديثةً**"، **كما أنَّه أوضح أنّه** "**ينبغي إلاّ يُحكَم على دينٍ من خلال أسوا نماذج أتباعه**".

أمّا هو فقد استَلهَم من المسيحيّة خير ما اكتشفه فيها، وأغنـــى بـــه هندوســـيّته، وتديّنه، وقد اعترف بقوله: "**تأثير المسيحيّة غير المباشَر قد أضفى على الهندوسيّة حيويّةً أكبر**".

ولكن لا بدّ من الاعتراف بأنّ غاندي كان للكثير مِنْ المسيحيّين لا قدوةً فحسبُ، بل تحدّيًا وإدانةً، إذ قلّما عاش معظمهم روحَ الإنجيل على نحوِ ما عاشه المهاتما من صِدقٍ ووفاءٍ وسُموٍّ، ممّا حدا باللاهوتيّ س. ك. جورج من كلكتّا إلـــى الاعتـــراف "**المهاتما غاندي جعلني أرى في يسوع ورسالته وقائع ماثلـــةً**"؛ كما أنَّ الأَب متّـــى سمعان، من الكنيسة السريانيّة الأورثوذكسية في مالابار قد قال فـــي المهاتمـــا: "**إنَّ سيرته، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أقنعتني بأَنَّ المسيحيّة ديانةٌ يمكن ممارستها فـــي القرن العشرين**". ومضى الدكتور ا. ستانلي جونز إلى أبعدَ من ذلك، إذ صرّح: "**إنَّ الربّ يستخدم وسائل شتّى، وربّمَا هو استخدم غاندي للإسهام في جعل المـــسيحيّة الخاوية من روح المسيح، مسيحيّةً حقًّا**".

وحديثًا كتب "جـــان ڤـــــانيه": "**غانـــدي، فـــي نظـــري، أحـــد كبـــار أنبيـــاء زماننـا... إنّ المهاتما قد علّمني كيف أدرك وجهًا قـــشيبًا لتعلـــيم يـــسوع، الـــذي أَعُدُّه معلّمًا وأخًا وحبيبًا**".

ولا بِدعَ في ذلك، فغاندي نفسه كان قد أَعلن: "**إذا ما نفذ امرؤٌ إلى قلـــب دينـــه الخاصّ، فإنّه يكون قد نَفَذَ إلى قلب جميع الديانات الأُخرى**". وهو قد عاش دينه بكلّ حبٍّ وإخلاصٍ، فأَدرَك جوهر الدِّين الحقّ، واستطاع تفهّم روح الديانات كلّها، ومـــن

ثمّ فإن كان من حَقِّ الهندوسيّين ضمُّه إلى صفوف كبار زعمائهم الروحيّين، فإنَّه يحقّ للمُسلمين اعتبارَه أحد شهدائهم، ومن حقّ المسيحيّين عَدَّهُ واحدًا من أعظم قدّيسيهم، ومن أَصدق من عاش الإنجيل بكلّ صفائه وجُرأته.

لقد كان تديّن غاندي، وتطلّعاته الاجتماعيّة والسياسيّة تسير جنبًا إلى جنبٍ، وهو الذي قال: "**ينبغي أن يَطبع الدِّينُ بدَمغته كلّ شيءٍ**"؛ وفي الواقع، كان المهاتما مُتديّنًا بكلِّ جوارحه، ولكنَّه كان يُدرك بوضوحٍ أنّ "**الناس ينقلون نقائصَهم إلى كلِّ ما يلمسون، وأَنّ الدِّين هو أولى ضحايا التَّزوير والتشويه اللَّذَين يُلحِقُهما الناس بالمقدّسات**" فعمل، بقدوته وإرشاده، على تحرير الدّين من كلّ ما يفسده حتّى يعيد له وَجهَه النّاصع، ويُعيد القلبَ مقرَّه، بحيثُ يغدو الدين ذلك الشعور السامي الذي "**يحوّل كياننا، ويشدّنا برباطٍ لا ينفصم إلى الحقيقة الكامنة فينا، والتي تُطهّر كلّ شيءٍ**".

بيدَ أنَّ غاندي، مع عميق تديُّنه، لم ينظر، قطُّ، إلى الدّين كغايةٍ في ذاته، بل كوسيلةٍ إلى الله، ولذلك لم يخشَ من التَّصريح: "**لن أضحّي بالحقيقةِ ولا بالعنف من أجل إنقاذ بلادي وديني**".

وهكذا، بفضل هذا التديّن المتحرّر، حرّر غاندي نفسَه، وعمل على تحرير الكثيرين من السُّجون التي قد تتَّخذ أسماءَ وَرِعةً تقيّةً، وتَلبس لباس الشرائع السماويّة، ولكنَّها تخنُق الروح.

وبفضل هذا التديُّن الصّادق النقيّ، أيضًا، كان الله يتجلّى في كلّ نسمةٍ من حياة غاندي، وكان حضورُ الله يُحيق به ويغمُره، ولقد أَدلى غاندي نفسه بهذا الاعتراف: "**لقد غبَطَ الكثيرون فيّ سكينةَ النفس التي لا تفسيرَ لها سوى الصَّلاة؛ إنّني لستُ عالِمًا، ولكنَّني أَدّعي، في تواضعٍ، أنَّني رجلُ صلاةٍ**".

وعلى غرار كبار القدّيسين كان غاندي يتأهَّب لكلّ مهمَّةٍ خطيرةٍ بالتأمّل والاستغراق في الصَّلاة، كي يضمن لها الصَّفاءَ والاستقامة، وإلهامَ الروح الصائب، ولم يكُن يُكرّس من ذاته لخدمة الناس، إلاّ ما كرَّسَه، من قبلُ، لله.

وهكذا أَمست تعاليم غاندي، التي لم تنِ تؤكّد على خطورة العُنصر الخلقيّ في حياة الإنسان، وعلى ضرورة تغلغل نفحات الروح في ثنايا الحضارة، ووجوب إقحام مُثُل الدين في الحياة السياسيّة، هي خشبة الخلاص لعصرنا هذا الذي يمتلك أقوى طاقة بناءٍ، وأدهى طاقةِ تدميرٍ، على حدٍّ سواء.

ويوجز طاغور أفضال المهاتما، في هذا المضمار، بقوله: "**نحن مدينون لغاندي الذي وفّر للهند فُرصةَ إثبات إيمانها، بأنَّ النَّفحة الإلهيّة لدى الإنسان ما زالت نابضةً بالحياة**".

غَاندي التحدِّي

يَنتَصِب المهاتما غاندي قِمّةً إنسانيّةً وروحيّةً سامقةً، تُناطح أسمى القِمَم في التاريخ، لا بل تُنيف على مُعظمها سُموقًا وسُموًّا؛ وإنّ لفي هذا الشموخ عينه تحدّيًا هادرًا يَهزُّ بعنفٍ كلّ إنسانٍ يهفو إلى دُوار القمم، ويؤرّقه تحقيقُ ذاته، وتموج في صَدره الرغبةُ في بلوغ كمال إنسانيّته. فعلى حدّ قول شارل مالك: "**أَمام قمّةٍ بشريّةٍ وتاريخيّةٍ شامخةٍ كهذه، يجد المرءُ نفسَه في تحدٍّ سحيقٍ... هذه قيمة القُدوة: أن يَقِفَ الإنسانُ القزَمُ أَمامَ هامَةِ العملاق، قلِقًا، خَجِلاً، مُمَزِّقًا نفسَه، طالبًا المزيد من الوجود. من لا يُمزّق نفسه ويخجل بها أمام البطولة الكائنة حقًّا، ليس بإنسانٍ**".

والتحدّي الذي يَستفزُّه مثالُ غاندي يرتدي عُمقًا وجاذبًا فريدَين، إذ إنَّ المهاتما لا ينتظم في سلك بعض المحظيِّين الذين تواكبهم النعمةُ منذ مولدهم، وتكتَسي قداستُهم أَلقًا مُذهِلاً خارِقًا؛ فغاندي قد ناضل بضراوةٍ وبسالةٍ، في كلِّ ساعةٍ من حياته للظَّفَر بالنِّعمة، والحفاظ عليها، ولذلك هو قريبٌ من قلوبنا وإيمَاننا الجريح، ووهننا المُلازِم، ولذلك تَرفُد قدوتُه تطلّعاتِنا بالطُّموح والرَّجاء.

فقد اتَّضح لنا، من استقراء سيرة غاندي، أَنَّه لم يكن يتمتّع بمواهب بارزةٍ، ولم يتميَّز سلوكُ صباه بالفضيلة والتقوى، لا بل إنَّه انزلق إلى الكثير من الزلاّت التي يهوي في وهادها الأحداثُ الجانحون، فسَرَقَ بعضَ مالِ أخيه ليبتاع سجائر يُدخّنها

مع أحد أَترابه، وتمرّد على تقاليد الدِّين والأسرة، فراح يَطعَمُ اللُّحومَ المُحرَّمةَ في الهندوسيّة، في غفلةٍ عن ذويه؛ بيد أنَّ نفورَه المتأصّل من الكذب، وصدقه الراسخَ مع نفسه ومع الآخرين، قد وقياه من الاسترسال في دروب الجنوح، ومن التسكُّع في مسالك الصَّغارة والضَّحالة والضياع.

ولحظنا، أيضًا، أنَّه، في مُستَهَلِّ شبابه، كان نَهِمًا، شهوانيًّا، شَبِقًا، شديد العناية بهندامه، ولو كلّفه ذلك الكثير من المال الذي كان أخوه الأكبر يشقى كي يُوفّره له. غير أَنَّ وفاءَه للنذور التي التزم بها تجاه أمّه، وتديّنه الذي رضعه في حداثته، وغفا فترةً في مطلع شبابه، ثمّ استيقظ وأَيقظ لديه حرصًا على مُحاسَبَةٍ للنَّفس صارمةٍ، وشعورًا مُنقذًا بالعيش، أَبدًا، في حضرة الله، كلُّ تلك العوامل، متضافرةً، قد دفعته إلى انتهاج مسيرةٍ روحيَّةٍ مُصَعِّدةٍ، بعنادٍ، في مراقي الكمال، وإلى اختيار دُروبِ البُطولة الوَعرة، التي قادته إلى القداسة، عبر مراحل التَّجَرُّد المُطلَق، والزُّهد، والعفّة؛ فإذا بذاك الأكول النَّهِم يجتزئ بالزَّهيد من بُلُغات الطَّعام، ويُقدِم على الأَصوام الطويلة، ويجوع طوعًا؛ وإذا بذاك الذي كان حريصًا على ارتداء الأَلبسة الأنيقة، والقمصان المنشّاة، يغدو للزُّهد نبيًّا، ويمضي حافيًا، نصف عارٍ؛ وإذا بذاك الشَّبِق الذي كانت الشهوة قد صرفته، يومًا، عن واجب تثقيف زوجته الأُمِّيَّة، وعن العناية بأبيه المحتَضِر، ممّا خلَّف في أعماقه نَدَمًا مقيمًا، وجُرحًا لم يندمل قطّ، يَنذُرُ "البراهماشاريا" أي عفّة الجسد والفكر واللِّسان، وهو، بعدُ، في السابعة والثلاثين.

ولقد هزّ داعي الخدمة، ونداءُ التَّضحية، ذلك المحامي الشابّ الذي، في أعقاب جهادٍ متمادٍ ومريرٍ، وتجارِب فَشَلٍ ذريعٍ، توفَّق إلى تحقيق نجاحٍ مِهنيٍّ مرموقٍ، كفيلٍ بأَن يضمن له عَيشًا رغيدًا هانئًا، فَضلاً عن زعامةٍ مُتَعاليةٍ، تُوفِّر المركزَ والتبجيل؛ غير أنَّه تخلّى، طائعًا، عن الاستقرار والنجاح، والمجد، وطراوةِ العيش، واختارَ الفقرَ والضَّنكَ والتشرُّد، ومشاركةَ المنبوذين المسحوقين مصيرَهم وشقاءَهم وهمومَهم.

وقد عهدنا غاندي، في مُستَهَلِّ شبابه، مُغرقًا في الخَجَل، عيًّا، يُرتَج عليه إذا ما اضطُرّ إلى التكلُّم أمام قبضةٍ من المستمعين؛ إلاّ أَنّ تمرُّسَه بالسَّيطرة على ذاته،

واستبسالَه في الذَّود عن الحقّ، جعلا صوته الخافت يَنفُذُ إلى أقاصي المسكونة، ويهزُّ بعنفٍ قلوبَ الملايين من مواطنيه، وعقولَهم، ويُضَعضِع أركان أعتى أمبراطوريّةٍ في زمانه، يُجابهُ زعماءَ العالَم، ويفرض عليهم هيبتَه.

لقد كان، في صباه، طالبًا مغمورًا، فأَصبح العالمُ كلُّه يتسقّط أخبارَه، ويتلقّف تعاليمَه وكلماته؛ وكان جبانًا رعديدًا، فبات يتحدّى كلَّ قوى الدنيا، ولا يخشى أحدًا أو شيئًا سوى خيانة الحقيقة، والإعراض عن صوته الداخليّ الخافت، وكأنّي به كان يُردّد مع انغريد برغمان: "**كنتُ أكثر خَلق الله خَجَلاً، ولكن، كان في داخلي أسدٌ يأبى الصّمت**".

وهكذا أثبتَ غاندي أنَّ الإرادةَ الخيّرةَ الصامدةَ، المُستَسلمةَ للمشيئة الإلهيّة، والمدعَّمة بأزر النِّعمة، والتي تحدوها نفَحاتُ الروح، قادرةٌ أن تُحوّل الوَهَن بُطولةً، والدَّربَ الوَعرَ معراجًا إلى ذرى القداسة، والمؤهِّلاتِ الفكريَّة والجسديّةَ الوضيعة، والمسخَّرةَ لخدمة الله في الإنسان، طاقاتٍ جبّارةً، تغدو معها الحياةُ "مُعجزةً مستمرّةً".

وإنّ لفي مسيرة غاندي هذه الجاهدة، وفي تطوُّره المُذهل، وفي تصعيده من الوضاعة إلى أسمى القمم، نفحةَ أملٍ، وأزرًا محقّقًا لكلِّ مُتَطلّعٍ إلى النُّجوم، أيًّا كان زادُه من المواهب والمؤهِّلات ضئيلاً.

ولا مِراءَ أنَّ غاندي كان يَعي، بعُمقٍ، هذا الواقع، عندما كتب:

"**إنّما عيوبي وفَشَلي بَرَكةٌ من الله، بقَدر ما هي، كذلك، مواهبي ونجاحي. إنَّني أُلقي بها كلّها عند أقدام هيكله.**

"**لِمَ اصطفى الربّ الأداةَ المفتقرَةَ إلى الكمال التي أمثّلُها، من أجل تحقيق عملٍ جليل الشأن كالذي انتُدبتُ له؟ إنَّه فَعَل ذلك عامدًا، فقد كان لا بدّ من شدّ أزر ملايين الفقراء الجهّال، المتألّمين في صَمت. وكان من شأن إنسانٍ كاملٍ أن يفتّ من عَضُدهم، ويُحبطَ عزائمهم للوهلة الأولى؛ ولكن، بالمقابل، بدتْ لهم جميعُ الآمال متاحةً، عندما رأَوا رجُلاً مثلَهم، يُعاني من مثل مواطن ضَعْفهمْ، ومع ذلك، يمضي قُدُمًا، على دروب اللاّعنف والحبّ. كان من شأن أيّ إنسانٍ كاملٍ، أن يظلّ مجهولاً، لا يجد فيه أحدٌ الزعيمَ المُنتَظَر، أو هو، ربّمَا كان سيُضطرّ إلى الاعتكاف في كَهفٍ.**

أمَّا من يقتفي أَثَري، فأَمامَه فرصةٌ كبرى لبذّي كمالاً، وقد يتسنّى له إبلاغكم رسالةً ذات شأنٍ عظيمٍ".

مَدرَسَــة غَــاندي

لم يكُن غاندي فيلسوفًا مُحلِّلاً، ولم تُخامره، يومًا، الرغبةُ في بناء نظريّةٍ فكريّـةٍ متكاملةٍ، بل لا يُمكن وَصفُه بأنّه رجلُ فكرٍ، وهو الذي تجاوز، في بحثه، حدودَ العقل الضيّقة؛ فهو، في المقام الأوّل، رجل عَمَلٍ دائبٍ، ورجلُ تأَمُّلٍ وصــلاةٍ، مُنـصِتٌ، بسَمعٍ مُرهفٍ، إلى صوته الداخليّ، فإذا ما أوحى له خاطرةً، حوّلها، في الحال، إلـى مشروعٍ حيٍّ، ماثلٍ، يجهَدُ، بكلّ طاقاته، في تحقيقه.

وبقَدر ما كان يعمل، ويختبر، ويُوغل في التفكير، كانت تتبلوَر في ذهنـه آراءُ مُغرقةٌ في البساطة، ولكنَّها بساطةٌ مقرونةٌ بالعناد. وكانت تترسّخ لديه قناعاتٌ قليلةٌ، ومن الشفافيّة، بحيث تبدو، في ظاهرها، قِشرةً رقيقةً؛ بيد أنَّ أيّ موضوع بحـثٍ أو نقاشٍ، سواها، يبدو تافهًا.

وأُولى تلك القناعات التي غدت لغاندي هاجسًا مؤرِّقًا، كان التَّوق إلى رؤيـة الله وجهًا لوجهٍ، وبمَا أنَّ الله هو الحقيقة، فشاغلُه كان نُشدانَ الحقيقة والتشبُّث بها، بـلا هوادةٍ، وفي شَغَفٍ وصدقٍ، وعبر اختباراتٍ متَّصلةٍ؛ وهو، في بحثه هذا، لم يتوكّـأ على العقل وحدَه، بل كان يلتمس أنوار الإيمَان والحَدس، وكـان يُنـاهض، بـشدّةٍ، النزعة إلى تأليه العقل، على حدّ ما يتجلّى من قوله: "**العقلانيّة مسخٌ قميءٌ، عنـدما هي تدّعي قدرةً مُطلقَةً. إنَّ إسناد القدرة المُطلقة للعقل، عبادةُ أصنامٍ، فيهـا مـن الضلال، مثلُ ما في عبادة عصا أو حجر، على أنّهما الله**".

وقد قاد البحثُ غاندي إلى تبنّي مبادئ أساسيّةٍ كانت محرّك حياته، ومحور تفكيره:

هذه المبادئ هي الحقيقة والحبّ، وقد أفضى به نُشدان الحقيقة، وواجب الالتزام بها إلى مبدأ "الساتياغراها"، كما أنَّ الحبّ أوحى إليه "اللاّعنف" أو "الأهيمسا".

وفي الواقع، إنَّ من يستقري كتابات غاندي يجد لديه هـذه المفـاهيم مترادفـةً،

متداخلةً، متكاملةً، يَعسُر الفصلُ بينها، وحسبُنا دليلاً على ذلك، مثلُ هذه الأقوال:

"الساتياغراها مرادفٌ للقوّة التي تولد من الحقيقــة، أي اللاّعنــف"؛ "اللاّعنــف والحقيقة وجهان لِقطعة نقدٍ واحدةٍ، لا ينفصلان... وبمَا أنَّ الحقيقة هي الله، فالحقيقة واللاّعنف مرادفان لله. من آمن بالأهيمسا، آمن بالله الحيّ"؛ "مَنِ ابتغى العثورَ علــى الحقيقة، بصِفتِها الله، فوسيلتُه الوحيدة التي لا محيدَ عنها هي الحبّ، أي اللاّعنــف، وبمَا أنّني أومن أنَّ الوسائلَ والغاية هي، في نهاية الشَّوط، مفاهيمُ مترادفــةٌ، فلــن أتردَّد في القول إنَّ الله هو حُبٌّ"؛ "إنّ الحبّ، أو بعبارةٍ أُخرى، اللاّعنف، هو مرتَكــزُ هذا الكوكب الذي نحن عليه مُقيمون. مَن مارس الأهيمسا، تمرَّسَ بالقــدرة الإلهيَّــة الكامنة في أعماقه، وإنّنا نتمثّل بالله، بقَدر ما نحقّق اللاعنف...".

الله، الحقيقةُ، الحبُّ، الساتياغراها، اللاّعنفُ، تلك هــي، قِــوامُ فِكــر غانــدي، والأسُسُ المتشابكةُ التي نهضَت عليها رسالتُه؛ وسنحاول إلقاءَ بعضٍ مــن الــضَّوء، على تلك المفاهيم، على نَحوِ ما كان غاندي يُدرِكُها، ويُعلّمها، ويعيشُها.

ولكن، قبلَ الخَوض في تفاصيلها، لا معدى عن التنويه بأنَّ غانــدي قــد تميّــز بعبقريّةٍ نادرةٍ في اختيار أساليب تبليغ رسالته للآخرين، مُستَخدمًا لكلِّ حالٍ الإيقــاعَ الأبعد نفاذًا، فهو، تارةً، تأمُّلٌ صوفيٌّ، وطورًا صرخةُ غضبٍ، أو أنّةُ ألمٍ، حينًا تعليمٌ وديعٌ، وحينًا آخر، حديثُ أليفٌ ساجٍ، ومناجاةٌ حميمةٌ هادئــةٌ، وعلــى جميــع تلــك الأساليب قد هَيمنَت دائمًا المحبّةُ، ذلك الفنُّ السماويُّ الذي يتلاءم وكلّ نفسٍ، ويــضع رسالته في متناولها، متحاشيًا إدهاشها ببراعته، أو غزارة علمــه، ومقنّعًــا مواهبــه بكلماتٍ بسيطةٍ تموج إنسانيّةً؛ ومع ذلك، لم يَعتَورِ أقواله، قَطُّ، ميوعةٌ أو تفاهةٌ، بــل هي غالبًا ما كانت حادّةً، بل خشنةً، في غير جفافٍ. ولا بِدعَ في ذلك، فرسالته غايةٌ في الوضوح والصراحة.

وخيرُ ما نستهدي به، في تجوالنا عِبر مسيرة تفكير غانــدي، وفــي محاولتنــا استجلاء دوافعه الكمينة، هو أقوال غاندي نفسها، وأَمثلةُ سلوكه.

ففي توقه إلى **رؤية الله**، قد كتب، يومًا، هذا الاعتراف الحارق: "**ممّــا يُعــذّبني**

باستمرارٍ أن أَكونَ ما زلتُ بعيدًا عن ذاك الذي أُدرِك جيّدًا أنَّه سيّد كلّ نسمةٍ من حياتي، ذاك الذي أنا منه انبثقتُ".

وبمثل هذه اللَّهفة، أيضًا، عبّر عن حاجته إلى وجود الله وحضوره والعيش فيه ومعه، على حدّ قوله: "**إنَّه لأهونُ عليَّ أن أعيش محرومًا من الهواء والماء، من أن أستغني عن وجود الله**"، "**بوسعكم أن تقتلعوا عينيّ، ولكنَّ ذلك لن يقضي عليّ، وبوسعكم أن تجدعوا أنفي، ولكنّ ذلك لن يقتلَني؛ أمّا إن أنتم دمّرتم إيمَاني بالله، فالموت مصيري**".

ولقد طالما أعلن غاندي أنّه لو تيقَّن من وجود الله في أحد كهوف الهيمالايا، لشَخَص إليه، في الحال، غير أنَّ قناعاته العميقة كانت تُؤكّد له أنَّ الله لا يُمكن العثور عليه إلاّ في قلوب النّاس، فنَشَدَه بين صدورهم، وعَبَدَه في هيكل خدمتهم، يحدوه إيمَانٌ راسخٌ بأنَّ "**على مَن يرغب في رؤية روح الحقّ وجهًا لوجهٍ، في شموله، وإحاطته بكلّ شيءٍ، أن يكون قادرًا على حُبِّ أضأل الخلائق مثلَ حبّه لنفسه**"، "**إنّ الله في كلّ واحدٍ منّا، وبالتالي، فإنَّ تكريس ذاتي لخدمة البشريَّة سيؤهّلني، يومًا، لرؤية الله**".

وغالبًا ما اعترف بأنّ كلّ ما استطاع أَداءه من خدماتٍ سحابةَ حياته، كان الله له، فيه، مُلهمًا وعَونًا؛ فبالله آمن إيمَانًا مطلقًا، وعليه توكَّل، وبين يديه استسلم استسلامًا لا تحفُّظَ فيه: "**عليّ السير مع الله، لا دليل لي سواه**" و"**من كان منغمسًا بكُلّيّته في الله، يستسلم له غير عابئٍ بفشلٍ أو بنجاحٍ**"، "**إنَّ ما أصادِفُه، كلَّ يومٍ، من آلامٍ، وفَشَلٍ، وإحباطٍ، لكفيلٌ بأن يهوي بي إلى أخطر دركات الجنون، لولا حضور الله**"، وكان الله هو قوّته، إذ "**مع الله ينتفي كلّ خَوفٍ**".

ومثلُ هذا الاستسلام لا يتحقّق إلاّ إذا اقتَرَنَ بتواضُعٍ سحيقٍ، فنحن "**بادّعائنا أنّنا شيءٌ ما، نُقيم بين الله وبيننا حاجزًا، وبعُزوفنا عن ذلك الادّعاء، نتّحد بالله، إنَّ قطرةً من ماء المحيط تُسهم في عظمة ذاك الذي هي عنه منبثقةٌ، وإن هي لم تعِ ذلك. ولكنَّها سُرعان ما تجفّ حالما تباشر حياةً مستقلّةً عن المحيط**".

تلك العلاقة الحميمة بالله، كان غاندي يُوثّقها بالإصغاء المتيقّظ إلى "الصوت الخافت"، صوت الضمير، في داخله، وبالامتثال لوَحيه، وبالصلاة التي جعل منها

مفتاح صباحه ومزلاج مسائه، ورفقَة كلّ خطاه: "**لقد واكبت الصلاةُ كلَّ عملٍ قُمتُ به**".

وإدراك الله يقتضي تضحياتٍ جمّةً وجسيمةً، بيد أنَّ جسامة هذه التضحيات تغدو ضئيلةً جدًّا، بالمقارنة مع الهدف الذي هي كفيلةٌ بالانتهاء إليه: "**لن تبـدو لـي أيّـة تضحيةٍ جسيمةً، إن كان من شأنها تأهيلي لرؤية الله وجهًا لوجهٍ**".

والشَّرطُ الأوّل الأساسيُّ لرؤية الله هو طُهر القلب "**فمن لم يكن نقيَّ القلب، تعذّر عليه بلوغ الله... والسبيل إلى تطهير الذات شاقٌّ ووَعـرٌ، فبلـوغ النَّقـاء التـامّ يستوجب تحريرَ الفكر والقول والعملِ من كلّ هوًى، وتَخَطّي تنابُذ تيّارات الـبُغض والحبّ، والنفور والولَع**"؛ ونقاءُ القلب يستلزم التجرُّدَ من كلّ امتلاكٍ ورغبةٍ ماديّـةٍ، والتخلّي عن الذات، والانعتاقَ من ربقَةِ الأهواء؛ وبسبب إيمَان غاندي بأنَّ "**بلوغ الله مستحيلٌ من غير تنكّبٍ تامٍّ عن الرغبة الجنسيّة**"، فقد نـذر، وهـو فـي الـسابعة والثلاثين من عمره، ممارسة "**البراهما شاريا**"، أيْ العفّة المُطلقة؛ والعفّةُ، في اقتناعه وفي ممارسته، ليست إقلاعًا عن العلاقات الجنسيّة فحسبُ، بل هـي، وفقًـا لتعـاليم يسوع، إقلاعٌ عن الشَّهوات كلّها، وصفاءٌ في النوايا، وضبطٌ للحواسّ فكرًا، وخيـالاً، وقولاً، وعملاً، بحيثُ تغدو عاملاً من عوامل تحقيق الذات، ووسيلةً جزيلة الجَـدوى لإدراك الحقّ، وتَتفرَّغُ بها النفسُ للتطلُّع إلى الله، وللانقطاع للخدمة بلا تحفُّظٍ.

لقد كانت تلك القناعاتُ غاليةً على نفس غاندي، ولقد أسهب في تعليمها والدعوة إليها؛ فهو في العفّة، مثلاً، يقول: "**إنْ وَهَب رجلٌ امرأته كلّ حبّه، أو وهبـت امـرأةٌ رجلَها كلَّ حبّها، فما الذي بقي لديهما يهبانه العالمَ كلّه؟... بمَـا أنّ علـى المـرأة المخلصة أن تكون متأهِّبةً للتضحية بكلّ شيءٍ في سبيل زوجهـا، وعلـى الرجـل المخلص، كذلك، أن يضحّي بكلّ شيءٍ في سبيل زوجته، فمن الواضح أنّ أيًّا منهما لا يقوى على التسامي إلى ذُرى الحبِّ الشامل، وإلى اعتبار البشريّة كلّها أسرةً له؛ فلقد شادا، حول حبّهما، جدارًا...**

"**ما هو، إذَن، وضعُ المتزوّجين؟ ألاّ يستطيعون، أبدًا، تحقيق الحقّ؟ ألن يقوَوا، أبدًا، على تقديم كلِّ شيءٍ على مذبح البشريّة؟ الحلُّ المُشرَع أَمامَهم يتمثّل فـي أن**

يسلُكوا وكأنَّهم غير متزوّجين؛ وبوسع أولئك الذين نَعِموا بمثلِ هذا الوضع أن يُثبتوا صحّةَ كلامي. كثيرون منهم، حسب علمي، قد باشروا هذه التجربة، وأصابوا فيها نجاحًا. فإذا ما أفلح الزوجان في اعتبار نفسَيهما أخًا وأختًا، باتا جاهزَين لخدمة البشريّة. إنَّ مُجَرَّد تفكير الرجل بأَنَّ جميع نساء الأرض هنّ له أخواتٌ، وأمّهاتٌ وبناتٌ، يسمو به فورًا، ويُحطِّم قيودَه، ولا يَفقد الزوجان، من جَرَّاء ذلك، شيئًا، بل هما يوسّعان المجال الذي فيه يعيشان، وتعيش في إطاره أسرتهما. ويتحرّر حبّهما من دَنَس الرَّغبة، وبذلك يكتسب منِعةً، إذ بزوال هذا الدَّنَس، يُصبحان قادرَين على خدمة أَحدهما الآخر، وتَندُرُ فرصُ الشِّجار بينهما. في حين أنَّها تتكاثر، حين يكون الحبُّ أنانيًّا، محدودَ الآفاق".

أمّا في مَعرَض وُجوب شمول العفّة الحواسَّ كلَّها، فيقول غاندي:

"...الأحمق الذي يتخيّل أنّه سيطر على جسده، في حين يظلّ ذهنُه يُداعب خواطرَ فاسقةً، إنَّما هو يبذل جهدًا باطلاً. وقد يكون خَطِرًا كَبحُ الجسد، وتركُ الفكر، في نفس الآن، يَسرَح على هواه، فإذا ما زاغ الفكر، لا بدّ أن يَلحَق به الجسد، عاجلاً أم آجلاً.

"البراهماشاريا تعني رقابةً على الحواسّ جميعها، أَمّا من حاول السَّيطرةَ على حاسّةٍ واحدةٍ، وأطلق العنان لجميع الحواسّ الأُخرى، فلا مناصَ له من التبيُّن أنَّ جهودَه كانت باطلةً".

وقد أكّد غاندي، تأكيدًا مميّزًا، على ضرورة كَبح حاسّةِ الذوق، لارتباطها الوثيق بالعفّة، فقال:

"يجب تناوُلُ الطَّعام، على نَحوِ ما يُتنَاول الدَّواء، أي من غير تساؤلٍ إن هو كان مستساغًا أو غير مستساغ المذاق، وإلاّ يُتناوَل منه سوى القَدر الضروريّ لحاجات الجسد". وقد مضى غاندي، في تعليمه، بهذا الشأن، إلى الإعلان أنَّ كلَّ طعامٍ يُؤخَذ، والجسمُ ليس في حاجةٍ إليه ماسّةٍ، يُعدّ سرقةً، إذ إنّه يَحرِمُ إنسانًا آخر من طعام هو إليه في حاجةٍ راغمةٍ؛ ومن ثَمّ فإن، نحن، كنّا حريصين على تفادي

السَّرِقة، توجّب علينا الحدُّ من حاجاتنا الوهميّة".

ولا ريب أنّ ممّا يُدَعّم السطوةَ على حاسّة الذَّوق، ممارسةَ الصَّوم، ولا سيّمَا الصوم التطهيريّ. "**فالصوم هو الصلاةُ الأوفرُ نقاءً، التي تولي قوّةً بلا حدودٍ، قوّةً تتلاشى حيالَها قوّةُ القنبلة الذرّيّة**". فلئن كانت الطاقة الذرّيةُ ناجمةً عن تحطيم الذرّة، فالصَّوم، على نقيضها، يُمثّل قوّة الجَمع، في الحبّ، الذي يضمَن تماسُك الوجود.

ويُجمِل غاندي القولَ بتأكيده على أنّ الجُهد في سبيل تحقيق البراهماشاريا "لن يُكتَب له النجاح إلاّ بالسيطرة على الذات، في جميع المجالات، معًا. إنَّ المعنى الحرفيّ للبراهماشاريا هو "السلوك الموجّهَ نحو الله – الحقّ"، ومن ثمّ، فإنَّ تعريفها يظلّ ناقصًا إن هو اقتصر على " القضيّة الجنسيّة". ويُضيف، واصفًا رؤيته المتألِّقة للبراهماشاريا الكاملة: "**من مارس البراهماشاريا، على وجه الكمال، كان مُشرق المحيّا، خاليًا من كلّ عِلّةٍ أو مرضٍ، ولا يكون موته سوى سُباتٍ وذهولٍ. مَلَكاتُه تظلُّ كاملةً حتّى آخر لحظةٍ، وحتّى رَمَقه الأخير يظلّ يعمل في سبيل الله، لافظًا اسمَه، وبهذه العلامة يُمكن تعرُّفُه**".

ولا بِدع، بالتّالي، إن أقدم غاندي على أقسى التضحيات، سعيدًا، في سبيل إدراك الله. فالله، له، كان كلَّ شيءٍ: "**إنَّ الله حياةٌ وحقيقةٌ ونورٌ؛ إنَّه حبٌّ، إنّه الخير الأسمى**"؛ "**إنّه أسمى من النور والحياة، وأَبعد منهما... إنَّه يسمو فوق الكلام والعقل، إنّه إلهٌ شخصيٌّ لمن يرومون حضورَه الشخصيّ، إنَّه متجسّدٌ لمن ينشدون حضورَه المحسوس... إنَّه، للمؤمنين به، الكائن، وهو للجميع، كلّ شيءٍ**".

بيد أنَّ تعريف الله الأثير، عند غاندي، هو "**الحقيقة**"، على حدّ قوله: "**أسماء الله كثيرةٌ جدًّا، غير أنّ أنبلَها هو الحقيقة**".

والحقيقة تحتلّ حيّزًا عظيم الشأن من تفكير غاندي وتطلّعاته؛ كيف لا، والحقيقة والله، عنده، واحدٌ. وقد قادته مسيرتُه الطويلة، في نُشدان الحقيقة، إلى الاستعاضة عن تعريفه الله بأَنّه الحقيقة، بمقولة أنّ الحقيقة هي الله، بحيث تشمل الحقيقةُ جميعَ ناشديها، والمخلصين لها، حتّى الذين يَزعمون إنكارَ الله، وهم في الواقع يُطلقون عليه اسمًا آخَر.

ولئن كانت الحقيقةُ هي الله، فالله ماثلٌ في أرض البشر، وعلى دروب الحياة اليوميّة.

والحقيقةُ التي يعنيها غاندي، ليست حقيقةَ المُنَظِّرين والفلاسفة، ولا حقيقةَ العلماء التي لا تتناول سوى المظاهر، بل هي حقيقةُ الكائن، في جوهر كرامته التي تقتضي الاحترام، وتُعلن عن نفسها للمحبّ المتجرّد. ومن ثَمَّ، فعلى من ابتغى بلوغ هذه الحقيقة أن يكون أهلاً لذلك الاحترام، وهذا الحبّ.

وإذن، فالشهادة للحقيقة تعني وفاء الإنسان لطبيعته الأصيلة، التي غرس الله في جذورها الطّيبةَ المُطلَقَة السخيّة، والتي تتحقّق في الوضوح والشفافيّة، والصراحة والحقّ. وعلى حدِّ قول غاندي: "**وحدَه الوفاءُ للحقيقة يُبرّر وجودَنا**".

بيدَ أنَّ الحقيقة التي نَشَدها غاندي هي، في المقام الأوّل، عملٌ، وموقفٌ مُشبعٌ بالبطولة، إذ إنَّ "**الحقيقة المُجرّدة لا فائدة منها، إن هي لم تتجسّد في كائناتٍ بشريّةٍ تَمثّل فيهم، ويُثبتون استعدادَهم للموت في سبيلها**".

وهذا الوفاء للحقيقة يتعيّن سواءٌ في نُشدانها، أو في ممارستها.

فبلوغها ليس يسير المنال: "**درب الحقيقة ضَنكٌ، بقَدر ما هو مستقيم**". ولكي يمضي البحثُ عنها، في السبيل السويّ، من غير هَيَمَانٍ ولا ضلالٍ، ولكي يُفضي إلى الحقيقة الواحدة الخالدة، مثلما الله هو واحدٌ أزَليٌّ، ولكيلا يصطبغ وجه الحقيقة بالأهواء الشخصيّة الكفيلة بمسخ رُوائِهما الأَصيل، لا بُدّ من انتهاج خُطًى محدّدة، والتقيّد بأصولٍ ونظامٍ، كما أنَّ للبحث العلميّ نظامًا وأصولاً؛ ومن ثمّ، فلا مندوحةَ للباحث عن الحقيقة، من التقيُّد بعَدَدٍ من النذور. "والنذر عقد شرفٍ بين الإنسان المؤمن برسالته، وربّه القادر على تأييده". ومن هذه النذور:

- نَذر الإخلاص للحقيقة حتّى الموت، وإيلاؤُها الأولويَّة على كلّ شيءٍ، بحيث لا يُضحّى بالحقيقة لأيّ غرضٍ آخر، مهما سمَا، بل يُضحّى بكلّ شيءٍ، في سبيلها.
- نَذر البراهماشاريا، أو العفّة، وما يقتضيه من إحكام السيطرة على كافّة الحواسّ.

- نَذر الفقر الطوعيّ، والتخلّي عن كلّ تملُّكٍ مادّيٍّ.
- نَذر اللاّعنف.
- ونَذر اللاّخوف، فالتحرّر من الخَوف هو أَساس اللاّعنف والتجرّد، وهو مفتاح الحقيقة والله، والحبّ، بل سيّد الفضائل كلّها.

وبالإضافة إلى تلك النذور، لا بدّ من تواضُعٍ سحيقٍ؛ فعلى من يسبح في محــيط الحقيقة، أن يُحيل نفسه صفرًا، إذ إنَّه "**يتحتّم على المرء أن يكون أشدّ تواضعًا مــن الغُبار، كي يستحقّ الحقيقة**".

ومن لا يبلغ هذا المدى من التَّواضُع، ولا يرتبط بهذه النذور، فهو عبثًا يحــاول الإبحار في تجربة نُشدان الحقيقة.

ومن التزم بمِثل تلك النُّذور، ووَفى للحقيقة الوفاءَ المُقتَضى، باتت الحقيقةُ هــي حَكمَه الوحيد، فانتفى عنه الخوفُ من رأي الناس فيه، فلا يخشى التراجعَ عن موقفٍ أو رأيٍ إن هو ارتاب في سلامتهما، ولا يَأخُذُه وَجَلٌ من الجهر بارتكابــه الخطــأ، "**فالاعترَاف بالخطأ أشبه بعمل مكنسةٍ يُزيل كلَّ غُبارٍ**"، وهو يقاوم الخطأ، ولو آمــن به سوادُ الناس، ويلتصق بالحقّ التصاقًا لا فكاك عنه، ولو ازوَرَّ عنه البشرُ أجمعون، ويعتَبر التعاونَ مع الكذب والكاذبين طعنًا للحقيقة وخيانةً.

أَمّا ممارسةُ الحقيقة، فقد دعاها غاندي "**الساتياغراها**"، وهي تعبيرٌ اشــتقَّه مــن لفظتَين تعنيان "الحقيقة والقوّة"، واستهدف منها إبراز قدرات الحقيقــة اللاّمحــدودة، والصّلابة في التزامها، والجرأةَ في الذَّود عنها، بلا عنفٍ؛ إنّها تمرُّسٌ بقوى الروح، ونشدانٌ متواصلٌ للحقيقة، بُغيةَ اكتشافها، إن هي لم تكن معروفَةً بعد، أو اكتشافُها من جديدٍ، إن كانت قد ضاعت عن الوجود. وقد ترجم البعض الساتياغراها علــى أنَّهــا "عناق الحقيقة".

والساتياغراها، في جَوهرها، خيارٌ أخلاقيٌّ ودينيٌّ، قائمٌ على تأكيد الله والضمير الفرديّ، ذلك الضَّمير الذي لا يخضع لتقلّبات التاريخ، بل يستطيع التأثير فيها، لأَنَّــه يستمدّ من الله جذوره. والله الذي منه ينبع كلُّ وجودٍ فرديٍّ، هو، في آنٍ معًا، مــلءُ

الحقيقة والوجود. وإن كان الله موجودًا، وكان الضَمير أسمى قَدرًا من الحياة نفسها – إذ في سبيله يُضحّى بالحياة – فالفرد لا يُمكن أن يكون جزءًا من كلٍّ، بل إنّ المجتَمعَ هو أحدُ أبعاد الفرد.

بيد أنَّ التشبّث بالحقيقة ليس أمرًا فرديًّا فحسب، بل إنَّ على كلّ فردٍ أن يُسهمَ في ترسيخ الحقيقة في المجتمع الذي يُقيم بين ظهرانيه؛ وفي هذا السياق يقول "لوي ماسينيون" الذي كان من أبرز أتباع الساتياغراها، ورئيسَ جمعيّة الغانديّين في العالَم، في فترةٍ ما، مُستَلهمًا نُشدان غاندي للحقيقة: "**ليست الحقيقة اختراعًا أو اكتشافًا غير قابلَين للتبادُل، بل هي ثمرة مشاركةٍ في مائدةٍ، بين رفاقٍ وأصدقاء يقتسمون نفس الخبز الذي اكتسبوه بشرَفٍ، كسبًا حلالاً نبيلاً**".

كثيرًا ما يتعرّض "الساتياغراهي" أي ممارس "الساتياغراها"، لواجب الذَّود عن الحقيقة من افتئاتٍ يُشوّهها، أو طغيانٍ يستهدف اغتيالَها، وهنا تتجلّى سِماتُ الساتياغراها المميّزة؛ فلفظة "عدوّ" غائبةٌ عن قاموسها، وبقَدر ما هي مُصَمّمةٌ على تحطيم الشرّ الذي ينال من الحقيقة، هي رؤوفةٌ بفاعل الشرّ، حريصةٌ على إصلاحه وافتدائه، وهي، في سبيل ذلك، تنتهج التضحيةَ الطَّوعيَّة، وتُرحّب بالأَلَم الفادي. "**فالألم الحقيقيّ المُحتَمَل، في بسالةٍ، يُفلِح في إذابة أيّ قلبٍ، ولو كان من حجرٍ. تلك هي قدرة الألم، وفيها، يكمُن مفتاح الساتياغراها**، وهي ترفع شعار غاندي: "**هَدَفي مصادقة العالم أجمع، وبوسعي التوفيق بين أعظم حبٍّ، وأشدّ مقاومةٍ للخطأ**".

إنَّ "الساتياغراهي" يُخاطب أفضل ما في الغَير، أي مسؤوليّته الحرّة، وبذلك يجهد في تحريره من الخوف، ليدفعَه إلى البحث المشترك عن الحرّيّة والحقّ. إنّه، بفضل التَّضحية والألَم الطَّوعيّ، والحبّ الفعّال، القائم على تحويل العدوانيّة إلى طاقة خَلقٍ، يُحاول إيقاظَ الضمائر؛ فعَمَلاً بنُصح غاندي، ينبغي "**تحرير الخصم من خطأه، بالصبر والتعاطف، فإنّ ما يبدو حقيقةً لواحد، قد يظهر للآخر خطأً؛ والصبر يعني تألّمًا طوعيًّا**". وهكذا تغدو الساتياغراها مطالبةً بالحقيقة، لا عن طريق إيلام الخصم، بل بفرض الألَم على الذات... "**فالساتياغراهي لا يؤذي خصمه أبدًا، ويُخاطِب دائمًا**

إمّا عقلَه بحججٍ لا جفوةَ فيها، أو قلبَه بتضحية ذاته".

وعلى النّطاق الجماعيّ تجد الساتياغراها تعبيرًا عن ذاتها، في العصيان المدنيّ للقوانين الجائرة، وفي اللاّتعاون مع الحكم الغاشم القــائم، بحيــث يغــدو استــشهاد المواطن هو الوسيلة لهزّ ضمير الحاكم، أسوةً بموقف سقراط، والمسيحيّين الأوائــل. وسنَتبسَّط في بحث هذه الوسائل، عند تعرّضنا للاّعنف.

وبالإجمال، يحرص "الساتياغراهي" على طُهر الوسائل، حرصَــه علــى نقــاء الحقيقة، ليقينه بأنَّنا عندما نذود عن الحقيقة بأسلحةٍ غير جديرةٍ بها، فالحقيقةُ تُــزورّ عنّا وتَدينُنا. وهذا الحرص على نقاء الوسائل يستلزِمُ طُهرًا ذاتيًّــا، فــالطُّهر أســاس الساتياغراها، ويستوجب تمرّسًا بالزهد، وسيطرةً على الأهواء، وترقيتَها إلى مستوى السموّ بفضل الصَّوم والعفّة والتأمّل الصامت، وفوق كلّ شيءٍ، يقتضي قلبًا مُــشرَعًا على الحبّ. فالتفاني في صالح الغَير من صُلب الحقيقة، أمّا الانكفاء على الذات، فهو خيانةٌ للذات وللحقيقة معًا. وفي هذا السّياق يُعلن غاندي: "**لكي نشاهد، يومًــا، روح الحقّ الذي يغمر الوجود بأسره، ينبغي أن نبلغ مرحلةً نُحــبّ فيهــا، مثــلَ حبّنــا لأنفسنا، حتّى أكثرَ ما في الخليقة تفاهةً**"، "**الحبُّ والحقيقةُ وجهان لمسكوكةٍ واحدةٍ، وإنّني لواثقٌ أنَّه بفضل تَينِكَ القوّتين يُمكن غزو العالم أجمع**".

والحبّ، في الواقع، هو محوَر تفكير غاندي، وجَوهر تعليمه. والحبّ الذي عناه هو الحبّ الإنجيليّ الذي لا يُفرّق بين صديقٍ وعدوٍّ، والذي يُعبّر عن ذاته بالخدمــة والتضحية، والبذل والفداء؛ وكانت فلسفة الحبّ لديه قد أخذت تتبلــوَر فــي أعقــاب مطالعته للإنجيل، ولكتابات تولستوي المستلهَمَة من الإنجيل. وكان قد كتب، آنــذاك: "لقد راحت تتَّضح لي أكثر فأكثر إمكانيّات الحبّ الشامل اللامحدود".

لقد عاش غاندي وعَلَّم، انطلاقًا من إيمَانه الوطيد بأنَّ الوسيلة الوحيــدة لتغييــر وجه الوجود، وإضفاء السَّنى والبهاء عليه، تكمُن في ترجيح كفّة الحبّ علــى كفّــة الشرّ، وأنَّ الذريعة المثلى لإصابة ذلك الهدف تتمثّل في أن يَشرَع كلُّ امرئٍ في قلب ذلك الميزان، في ذاته، بحيثُ يَميل أكثرَ فأكثرَ باتّجاه الحياة.

ويقولُ غاندي في هذا السياق: "**يُفيدنا رجالُ العلم أنَّه لولا قوّة التماسك التي تربط فيمَا بين الذرّات التي تؤلّف كوكبَنا، لتفتّت هذا الكوكب هباءً منثورًا. وقوّةُ التماسُك هذه موجودةٌ في عالم الأَحياء، مثلما هي موجودةٌ في عالم الجماد، هذه القوّة التي تجمع بين الكائنات الحيّة هي الحبّ... بفضله سنعرف الله، فحيثُ الحبّ هناك الحياة، وأمّا البُغض فيُفضي إلى الدَّمار**".

وفي رسالةٍ منه إلى أحد أبنائه قال: "**قد تغدو الحياةُ، في نظري، غيرَ جديرةٍ بالاهتمام، لو خامَرَني شعورٌ بالعجز عن بلوغ الحبّ الكامل، في هذه الدنيا. ولكنَّ المُهمّ هو أن تظلّ طاقة الحبّ لدينا في نموٍّ مطّردٍ**".

ولا غَروَ في ذلك، فالحبُّ، للكائن، ضرورةٌ جوهريَّةٌ، إذ إنَّ الكائن هو حبٌّ،
ولا حياةَ إلاّ لمن يُحبّ، ويُعطي، ويَهَب ذاتَه،
ووحدَه من يُحبّ هو من أبناء الله، فالله محبّة،
والحبُّ يقوم مقامَ كلّ شيءٍ، ولكن لا شيءَ يقوم مقامه.

لقد كان غاندي راسخَ الإيمَان بأنَّ الإنسانَ لن يقوى على اكتشاف ذاته وتجاوزها إلاّ بالحبّ، في حين أنَّ القوّةَ العنيفة تنحدر به إلى دَرَكات البهيميّة. وهذا ما قاده إلى مفهوم اللاّعنف أو "**الاهيمسا**" الذي جعل منه مِحورًا، ومُجَمَّعًا، وملخّصًا لجميع مبادئه وتَطَلُّعَاته.

واللاّعنف، عنده، لم يكن نظريّةً محدّدة الجوانب، بل كان، على حدّ قوله، كمفهوم الله، يَندُّ عن كلّ تحديدٍ، وموضع اختبارٍ واكتشافٍ لا يتوقّفان، يستجلي منه، باستمرارٍ، مجالاتٍ وطاقاتٍ جديدةً، ويُشارك مواطنيه، والعالَم أجمع، هذه الاكتشافات، باطِّرادٍ، عبرَ مقالاته، وأَحاديثه، وخطَبِه، وخصوصًا بقُدوة سلوكه، مُظهرًا، كلَّ يومٍ، وُجوهًا منه قشيبةً، من غير أن يَستنفد غناه اللامتناهي؛ فقد كانت رؤيا اللاّعنف تنفسح أمامه، مُحيطًا لا شواطئ له.

وقد طالما عبَّر عن تمنّيه اللاّهف بأن تُصيبَ الاختباراتُ في مجال الروح واللاّعنف ما تصيبه في مجال العلم من اكتشافٍ وإبداعٍ؛ ولئن نظر إليه البعضُ، من

جرّاء ذلك، نظرتَهم إلى خياليٍّ مأفونٍ، فقد كان ذلك مصيرَ الكثيرين مـن مُكتَـشفي الطاقات الجديدة، قبل أن يُثبتوا صدقَ حَدسِهم بالمُنجَزات الفعليّة.

وربّمَا استوحى غاندي مبدأَ اللاّعنف، أو "الأهيمسا" مـن التعـاليم الهندوسـيّة العريقة التي تُقدِّس جميع أشكال الحياة، وتدعو إلى الامتناع عن إيذاء كلّ كائنٍ حيٍّ، غير أنَّ ما رفد هذا المبدأ بطاقاته الجبَّارة الفذّة، وبديناميكيّته المتحفّزة، هـو تملّـي غاندي من تعاليم "خطبة الجبل"، ومن الحبّ الإنجيليّ الذي يشمل الـصديقَ والعـدوَّ بمشاعرَ مُتَساويةٍ من العطف والمحبّة، والذي يدعو إلى إقناع الخصم، بأَن تُحوِّلَ لـه الخدَّ الأيسر، إن هو صَفَعَ خدَّك الأيمن، وأن تفتديه بالتأَلُّم عنه طوعًا. ولقـد طالمـا أعلن غاندي وردّد "**أن يسوع هو أمير المقاومة اللاّعنفيّة**".

وأخذت ممارسة اللاّعنف تتبلوَر، واقعيًّا، عند غانـدي، لـدى صـدامه الأوّل بالتمييز العنصريّ الشَّرِس، الذي خَبَره بذاته، مُـذ وَطِئَـت قـدماه أَرض أفريقيـا الجنوبيّة، وشاهد آثاره المُضنية على مواطنيه هناك، والذي دَفَعَه دَفعًا لا يُقاوَم إلـى خَوض مُعتَرَك السياسة. فقد كان الاستسلام للواقع الغاشم جُبْنًا يَرفُضُه بإِبـاءٍ؛ أمّـا المقاومةُ الجسديّة، فكانت شِبهَ مستحيلةٍ، وتُمثِّل معركةً غير متكافئةٍ، فضلاً عن نفور غاندي الفطريّ من كلّ عنفٍ، ومن كلّ مظاهر البهيميّة التي تنحدر بالإنـسان إلـى دركاتٍ لا تليق به؛ لقد كان غاندي يؤمن، بكلّ جوارحه، أنَّ ما يُميِّز الإنـسان عـن البهيمة هو اللاّعنف، وأنَّ الموقف الوحيد الجدير بالإنسان الحقّ هو الردّ على الـشرّ بالخير، وأنَّ السِّلاح الوحيد الذي يخلق بإنسانٍ على صورة الله تقلّـده، هـو سـلاح الروح، والقوّة الأخلاقيّة، القادرُ على مقاومة القوّة البهيميّة، وعلى إحقاق الحقّ، حقٍّ قائمٍ على العدل والمساواة بين الناس، في جوٍّ من التعاطف والحبّ، من غير إكـراهٍ ولا ضغوطٍ، وخصوصًا بعيدًا عن العنف الذي لا يُولِّد سوى عُنفٍ مقابلٍ؛ واللاّعنف يرفض المساومةَ في ما يتعلّق بواجبات الحبّ، والحقّ، والتسامُح، وطُهر الوسائل.

اللاّعنف هو صرخةُ "لا" في وجه العنف، وهو قول "نعم" للكفاح. إنّه، فـي آنٍ معًا، نضالٌ باسلٌ، وحبٌّ للعدوّ؛ إنَّه يرمي إلى تحطيم الشرّ، لا الإنسان الذي يرتكب

الشرّ، وهو يحرّر النضالَ من أبغض ما فيه: البُغض، وما يجرّه البغض من شتيمةٍ وافتراءٍ وانتقامٍ. إنَّ حبَّ العدوّ هذا الذي يُفرِّقُ بين شخصه وفعله، إنَّما هو دعوةٌ له كي يهتدي، وإلى تغيير ما في قلبه، وهذا، لَعَمري، أَجملُ انتصارٍ على العنف؛ والمُقاوِم اللاّعنيف لا يتوخّى إخافةَ فاعل الشرّ وتهديده، بل النَّفاذ إلى جَنَانه وعقله، ويبتغي إرشاده، لا تحطيمه، ويجهد دائمًا كي يَظهَر على الشرّ بالخير، وعلى الغَضَب بالمحبّة، وعلى الباطلِ بالحقّ، وعلى العُنف باللاّعنف.

وهكذا، منذ الوهلة الأولى، بَرَز اللاّعنف الغانديّ مزيجًا فريدًا من مقاومةٍ للشرّ والضلال، صُلبَةٍ، صامدةٍ، لا تهادِن ولا تهاوِد، وحبٍّ غامرٍ لا يتخاذل ولا يفتُر؛ وقد أَوجز المهاتما نفسه فلسفةَ اللاّعنف بقوله: "**لقد رميتُ السيف جانبًا، ولم يبقَ لي سوى كأس الحبّ يسعني تقديمها لمن يهبّون لمقاومتي. إنّني أريد أن أَقرن أعظم حبٍّ، بأشدّ مقاومةٍ للشرّ**".

إنَّ الردّ على الشرّ بمثله، يُوفّر لقوى الشرّ عناصرَ النموّ والازدهار، أمّا اللاّعنف الذي يقضي بأن يحافِظَ القلبُ على طيبَته وانفتاحه، فيُؤدّي إلى انهيار الشرّ تلقائيًّا لافتقاره إلى ما يتغذّى به؛ وغالبًا ما تتحوّل الرغبةُ الشرّيرة نَدَمًا وخِزيًا حيالَ رؤية الخير، وإزاء تصدّي الحبّ لها.

الشر لا بدّ من مقاومته لكيلا يُهَيمن ويسودَ الأَرض، ولكنَّ المقاومة اللاعنيفةَ له تتميّز باندراجها في جوٍّ مفعمٍ بالحبّ، بحيث لا تُسَمِّم القلبَ بتعامله مع الشرّ، بل تُنقذ طِيبتَه وانفتاحه على الحبّ. إنَّها لا تهادِن الشرّ الذي يتعيّن لَجمه وتدميره، وفي آنٍ واحدٍ، لا تُفسِدُ القلبَ برغبة الشرّ وبالحقد، وتتحاشى عن بُغضَ الشرّير نفسِه، بل هي تحاول إصلاحه، ولو بافتدائه والتألُّم عنه.

وجديرٌ بالتَّنويه أنَّ الصيغة السلبيّة الظاهريَّة، في لفظة "اللاّعنف" والمتمثّلة في "لا" النافية، ينبغي إلاّ تَحجُب الإيجابيّة الجيّاشة التي تَزخَرُ بها فلسفة اللاّعنف، كما فهمها غاندي.

فالعُنف الذي حرّمه المهاتما هو العنف الجسديّ المادّيّ، الذي يُخلّف آثارًا مُدَمِّرةً في

كلٍّ من مستخدمه وضحيّته على السواء، ويمتهن إنسانيّتهما؛ أمّا اللاّعنف الذي دعا إليه بديلاً، فهو ينطوي على ضربٍ من العنف السامي، عنف الحبِّ المِبذال السخيّ، وقــوّة النفس الصامدة، والإرادة الصُلبة، والفِداء النَّبيل؛ لاعنفُه هو "**قِمَّة الشجاعة**"، ويتعارض تعارضًا مُطلَقًا مع كلّ جُبنٍ، وخَوفٍ وتخاذُلٍ؛ وقد طالما ردّد علــى مــسامع أتباعــه: "**روّضوا أنفسكم على الشجاعة الهادئة التي تُؤثر إماتةَ الذات، على قتل الغير**".

ليس لاعنف غاندي عُنفًا أقَلّ، سرعان ما ينقلب عجزًا أو جبنًا، بل إنَّه "**ســلاح الأقوياء**"؛ إنَّه عُنفٌ أكبر وأسمى، أَصبَحَ طاقةً داخليّةً، واضطرمت نيرانُــه بفــضل التَّضحية، فتَحوَّلَ حُبًّا خلاّقًا. "**اللاعنف، في شكله الإيجابيّ** – يقول غانــدي – **هــو تعاطُفٌ مع كلّ ما يعيش، إنَّه الحبُّ الصافي**".

ولا بِدعَ، بالتالي، إن صَرَّح رسولُ اللاعنف أنَّه لو خُيِّر بين العُنف والجُــبن لآثــر العنف، فالعنيف قد ينقلب لاعنيفًا، أما الجبان فلا أَمَلَ منه يُرجى. وما أكثر ما أَنشد غاندي:

دربُ الحبّ هو امتحانُ النار،
يتنكّب عنه المتردِّدون؛
دربُ الربّ من نصيب الأَبطال،
لا يسلكه الجبناء.

ومن الجُبن عَدَمُ القدرة على الصَّفح، والصَّفحُ هو خــصلةُ المحــارب القــويّ الشُّجاع، كما أنَّ التَّسامحَ، بلا حدودٍ، هو ميزةُ اللاعنيف. والحبُّ حتّى الغُفران ســرُّ عَظَمة الإنسان؛ "**اللاعنف كفاحٌ أشدّ بأسًا، وأعمقُ أصالةً من شريعة العَين بــالعَين، والسنّ بالسنّ**".

وعلى من آمن باللاّعنف أن يقطع على نفسه عهدًا بألاّ يمسّ أيّ كــائنٍ بــأذًى، وأن يتغلّب على الخَصم بقوّة الحقيقة المُعاشة، وبالتعاطُف والتفهّم والصَّبر، أي قــوّة الحبّ. فالحبُّ هو أعظم قوّةٍ في الوجود. والأَلَم يُطَهِّر من يعانيه، ويُطهِّــر أهدافَــه، وبقَدر ما يكون الأَلَمُ طاهرًا يَمضي المرءُ في مضمار اللاّعنف شأوًا أبعد؛ وعنــدما تأخُذ البراءةُ على عاتقها تَبِعاتِ الشرّ لتُكفِّر عنها، وتفتدي فاعليها، فهي تُحطِّم سلسلةَ

الغضب والضغينة.

"**إنّ شمس اللاعنف**، يقول غاندي، **تطرد أمامها أشباحَ الظلام، كالبُغض والغَضَب والخُبث**". وهي تنبُذ، على نحوٍ خاصٍّ، الخوف الذي هو دافع الجبن، والعنف، والانتقامِ، والتملّك الماديّ، والتدرُّعِ بخَيرات الأرض، تخوُّفًا من المستقبل المجهول.

انتفاء الخوف، إذن، شرطٌ جوهريٌّ من شروط اللاعنف؛ غير أنَّ غاندي، في واقعيّته الراسخة، يُوضح أنّ عَدَم تهيُّب الموت ليس هو، دائمًا، دليل شجاعةٍ، فهناك من لا يتهيَّبون الموتَ، ولَكِنَّهُمْ يفرُّون من وجهِ أوصاب الحياة وهمومِها التافهة، بل هناك من يُقدمون على الانتحار خوفًا من مجابهة مشاكل يستجسمونها؛ وثمَّة البُخلاء الذين يُؤثرون الموتَ على التخلّي عن بعض ممتلكاتهم، وهناك الذين لا يتحرَّجون من أيّة فعلةٍ حقيرةٍ شائنةٍ، حفاظًا على صيتٍ زائفٍ، والّذين يتنكّبون عن اَلسِّرَاط القويم، خَشْيَةَ هُزءِ الناس وانتقادِهم.

أمَّا اللاعنيف فيتغلَّب على جميع تلك المخاوف وما شابهها، وعلى الخوف من الموت، أيضًا. ومن ثَمّ، فإنَّ غاندي يُهيب بأتباع اللاعنف أن يَرهَبوا فقط الأعداءَ الداخليّين القابعين في حنايا الذات، كالأهواء البهيميّة، والغَضَب، والجَشعَ، والكبرياء، وأن يشنّوا عليهم حَربًا لا هوادةَ فيها، إذ إنَّ "**المخاوف الخارجيّة تزول، عندما نكون قد انتصرنا على هؤلاء الخونة في عُقر دارنا. إنَّ الجَسد هو المركز الذي حَولَه تدورُ كلُّ هذه المخاوف، التي تزول تلقائيًّا، حالما يتحقّق التحرّر من التعلّق بالجسد**".

تَحرُّرٌ آخرُ كان يدعو إليه غاندي أتباعَ اللاعنف، هو الانعتاق من التعلُّق بمَتَاع الدنيا، والذي يغدو منبعًا للخوف، خشيةَ فُقدانها، وكان يُحرِّضُ على الأَخذ بالنصيحة السامية القائلة: "**تمتّع بأشياء الأرض بانتباذها**"، **مُؤكِّدًا**: "**إذا ما رُمنا ممارسة اللاعنف، توجّب علينا العزوف عن امتلاك أيِّ شيءٍ من مَتاع الأَرض، أكثر ممّا يملكه أفقرُ الناس**".

بالإضافة إلى ذلك، اللاعنف هو ممارسةٌ في خدمة إله الحقّ. وهذه الخدمة، قبل أن تتَّجه إلى الخارج، تبدأ بعمل الإنسان على ذاته، تحثّه على الكمال، وتقوده إلى

الطُّهر والتجرّد والفقر الطوعيّ. اللاّعنف، قبلَ كلّ شيءٍ، عبادةٌ بالروح والحقّ.

واللاعنف يستلزم قوّةً صامدةً لا تُقهَر، قوّةً لا مَكرَ فيها ولا خديعةَ ولا مُوارَبـــة، إذ ليس ما يدفعها إلى إخفاء سلاحها؛ ومِثل تلك القوّة لا تُستَمدّ إلاّ من كُلّيّ القـــدرة، وهـــي، بالتالي، قوةٌ متواضِعةٌ، إذ إنَّها تعرف مصدرها، ومن ثمَّ فالبسالة والتواضُع عند اللاعنيف يتماشيان. "**لا خلاص للإنسان**، يقول غاندي، **إن هو لم يضع نفسه، بطوعه واختياره، في المقام الأخير بين إخوانه البشر، وما الأهيمسا سوى أقصى حدود التواضع**".

وبمَا أنَّ اللاعنف قوّةٌ نابعةٌ من إرادة الله، ولا تستلزم سلاحًا ولا عـــدّةً ســـوى سلاح الروح وعدّة الإرادة، فهو في مُتناول كلّ إنسانٍ، بل واجبٌ على كلّ إنـــسانٍ، وهو سُنّة الجنس البشريّ برمّته، وليس وَقفًا على الحُكماء والقدّيسين.

غير أنَّ ممارسته تقتضي احترازًا دائم اليقظة، وتركيـــزًا كثيفًـــا علـــى إحكـــام السيطرة على الذات، فهي أشبه بالسَّير على شفرةِ سيفٍ حادّةٍ، لا يُتيح فُسحةً لسَهوٍ أَو تَشتُّتٍ.

وهكذا يغدو اللاعنف "**أسمى خصال القلب، ولا يُكتَسَبُ إلاّ بـــالمراس**"، ومَجمعًـــا لأسمى الفضائل: التسامح، والتعاطف، والرقّة، والرغبة في الوئام، والأناة، والوداعـــة المتحرّرة من كلِّ شوائب البُغض والضغينة، وانتفـــاء الخـــوف والإبـــاء، والـــشّجاعة المُقترنة بالتّواضُع، فَضلاً عن التجرُّد والفقر الطَّوعيّ، والـــسَّيطرة علـــى العواطـــف، والحُكم المُرهَف المُتَميِّز بالشَّفافية والبساطة، والصلابة المُقترنة بالرغبة في الحـــوار، كما يغدو اللاّعنف إيمانًا لا يتزعزع بعَظَمة الإنسان المخلوق على صورة الله، وعَطَشًا إلى الحقّ، والعدل، لا يعرف ارتواءً، وتضحيةً سخيّةً بالذات، في صَمتٍ وثباتٍ.

وبالإجمال يغدو اللاعنف مُرادفًا للكمال، على حدّ قول غاندي نفسه: "**بلوغُ كمال اللاّعنف يقتضي بلوغ الكمال المُطلَق**". تلك هي القناعةُ التي انتهـــى إليهـــا غانـــدي تدريجيًّا، بالاختبار، والنِّضال، والألم، والتجرُّد. ولا رَيب أنَّ بلوغ الكمال ليس ممَّـــا يستطيع إنسان الطموح إليه، فالكمال من خصائص الله، ولكـــنَّ الـــصُبوَّ إليـــه بكـــلّ الطاقات من مُقتضيات اللاعنف، والسعيَ إليه عِبر طريقٍ وَعـــرٍ متمـــادٍ لا ينتهـــي،

واجبٌ محتّمٌ، وفي كلّ لحظةٍ؛ إنَّه كفاحٌ "**تكمن أسلحته في القلب البشريّ، ويُواصل طريقه دائبًا، سواءً كان المرء يتنزّه في هدوء، أو مُكِبًّا على عَمَلٍ شاغلٍ، وسواءً كان طليقًا أو سجينًا**".

وكان غاندي يُؤمن إيمَانًا مُطلَقًا بطاقات مثل ذلك اللاعنف الذي يجمع الفضائل كلّها، ويُؤَلّف فيمَا بينها، بحيثُ تغدو قوّته أشدَّ بأسًا في العالم، قوّةٌ لا تُقهَر، وتتفوّق على جميع القوى الأُخرى مجتمعةً، قوّةٌ قادرةٌ على إثبات جدواها في مجالاتٍ لا حدود لها، وطاقةٌ جبّارةٌ لا يَفلّها سلاحٌ، تتحكّم بجميع الأَحداث، وتصمد في وجه قوى الشرّ جميعها، وتَظهَر على قوى البطش والرّصاص، والجُوع والحرمان، والاضطهاد والسخرية، وتتحدّى الموتَ في ثبات؛ وهذا ما أنفق غاندي حياتَه كلّها على إثباته.

لقد كان إيمانه باللاّعنف يعادل إيمَانه بالله؛ وأمّا ما قد يَعتَوِر تطبيق اللاّعنف من فَشَلٍ وزلَلٍ، فمردُّه نقصٌ في ممارسيه، وأَخطاءُ هم يرتكبونَها، إذ إنّ اللاعنف السليم منزَّهٌ عن الفشل والزلل؛ وقد طالما عزا غاندي، أثناء ممارسةِ اللاعنف الجماعيّ، ما كانت تُصادفه تلك الممارسة من خَوَرٍ وإخفاقٍ، إلى ما وَقَع فيه، هو نفسه، من خطأٍ في الحُكم والتقدير، خطأٍ جسيمٍ، جسامة الهيمالايا، على حدّ تعبيره.

وأَمّا على الساحة، فقد جاز تطبيق اللاعنف الغانديّ عِبرَ مرحلتَين رئيستَين: أولاهما مرحلة البناء الرامية إلى إعداد الأفراد والجماعات، وتكييفهم مع مفهوم اللاعنف، وترسيخ وضعٍ جديدٍ قائمٍ على هذا المفهوم، تأَهّبًا للمرحلة التالية، مرحلةِ النّضال حيثُ يتسنّى استخدام سلاح اللاعنف في المعركة السياسيّة والاجتماعيّة التي تستهدف تَقويض الأَوضاعِ الفاسدة السائدة.

ولم يباشر غاندي مرحلة البناء إلاّ بعد أن كان قد تمرّس، هو نفسه، باللاعنف، وبكلّ فضائله ومُستَلزماته، ثمّ راح يبذُل، عبرَ المقالات والنشرات، والخطَب، والأَحاديث، ثرواتِ نفسِه، كي يجتَذِبَ شعبَه إلى القمم التي تسنّمها، ولكي يُذكي فيه مِثل ما كان يضطرم في داخله من نارٍ آكلةٍ، وكأنَّه كان يجهد في استفزاز شعبٍ من القدّيسين، لا يتوانى عن الالتزام بمثل ما التزم به، هو نفسه، من نذور الساتياغراها،

والحبّ، والبراهماشاريا، واللاّتملّك، واللاعنف، واللاخوف، والإقدام على الألم الفادي، والتضحية، والصمت الداخليّ، وَيغمُرُ كلَّ ذلك إِيمَانٌ بالله وطيــدٌ، تُرسّــخه الــصلاة، ويُنَمّيه الصَّوم المُطَهِّر، على أن تكون الغايةَ القصوى لذلك الترقّي الروحيّ، قدرةٌ مُثلى على الخِدمة، ولا سيَّمَا خدمة الفُقَراء والمسحوقين، والإقدام على العيش مثلَ عيــشهم، ومقاسمتهم آلامَهم، ومهانتَهم، ومؤازرتهم على استعادة كرامتهم وحُرّيّتهم.

أَمّا أسلوب المقاومة فيقوم على اللاتعاون الذي ابتدع غاندي مفهومه، وأَبدع في إحكام خططه وتنفيذها، والعصيان المدنيّ، أي العصيان الجماعيّ للقوانين الجــائرة، مع رضًى مُسبَقٍ بمَا سيجرّه ذلك العصيان من غُرمٍ وتضحياتٍ، وانتباذ كلّ بغضٍ أو ضغينةٍ، أو عنفٍ جَسَديٍّ، وتأهُّبٍ للأَلَمِ الطوعيّ عَمَــلاً بقــول غانــدي لخــصومه البريطانيّين: "**أريد أن أتغلّب عليكم بأَلَمي وحسبُ**"، وإذا ما اقتضى الأَمر، فالــصَّوم حتّى الموت، الذي يُمثّل انفصالاً تامًّا عن مجتمعٍ ضالٍّ، وتضحيةً طوعيّةً تــستهدف إيقاظ ضميره.

وهكذا يتجلّى اللاعُنف الجماعيّ تعبيرًا عن معارَضةٍ روحيّةٍ، قد طالما اعتملــت في الخاطر والنفس، ونَضَجت وانتظمت؛ وهي تتوخّى حَمل الخصم على تبديل موقفه بعد أن يرى بُروز عاملٍ جديدٍ، نابضٍ بالأَمل، يقتحم الحياة الاجتماعيّة. ولا بــدّ أن تأتي تلك المعارضة ثمرةَ بحثٍ جادٍّ، عَكَف على تنــاوُل كافّــة جوانــب الإصــلاح المبتغى، والكفيل بتحقيق تحوُّلٍ اجتماعيٍّ نحو الأفــضل، كمــا لا بــدّ أن يواكبهــا مصارحة المسؤولين عن الوضع السالف حولَ مواطن وَهَنه ومثالبه، ودعوتهم إلــى إصلاحه، فإذا ما رفضوا، هبَّت المقاومة اللاّعنيفة لتجعل الإصلاح واقعًــا راهنًــا، وهي متأَهّبةٌ لكلّ تضحيةٍ في سبيله.

ويؤكّد "جورج هوردان" أنَّ مثل هذا "اللاعنف الفعّال، حيثُمَا استُخدم اســتخدامًا سويًّا، من قِبَل رجالٍ جديرين بالاحترام والتقدير، كانت له نتائجُ خطيرةٌ".

وكان غاندي يعي بعمقٍ أنَّ ممارسة اللاعنف الجماعيّ يستوجب احترازًا أشــدَّ يقظةً من ممارسته الفرديّة، بسبب تعرُّضه الدائم للزَّلَل والشَّطَط؛ ومن ثَمّ، فقد حَرِص

أَبدًا على أن يظلّ العصيان المدنيّ في منأًى عن الغَوغائيّة والعُنف، بحيثُ لا يباشره إلاّ من كان سيّد نفسه، مُتمرّسًا بإِطاعة القوانين العادلة، عن قناعةٍ، لا مخافة مَغبّات مُخالفتها؛ كما أنّه أوضح بجلاءٍ أنّ "**أولئك، فقط، يحقّ لهم الصوم من أجـل قـضيّة الحقيقة، الذين عملوا في سبيلها، والذين يُحبّون خصومَهم، والذين تحـرّروا مـن الأهواء البهيميّة، وتخلّوا عن الممتلكات والمطامع الأَرضيّة**".

وبمَا أَنَّ الله هو القائد الأعلى لمعركة اللاعنف، فلا قِبَل للإِنسان على التخطـيط لها بشكلٍ مُسبَقٍ، بل عليه أن يُصغي، ساعةً فساعةً، إلى أَوامر "الـصوت الـداخليّ" الذي يُملي عليه السلوكَ الملائم.

ومن التَزَمَ بشروط اللاعنف هذه، بات هَزمُه مستحيلاً، فهو قد مات عن جسده، قَبلَ أن يُحاول العدوّ قَتل هذا الجسد، وغدا لا يرى نصرًا أو حياةً، إلاّ في انتـصار الـروح وازدهاره. وحيالَه، لا بدّ أن يُسقط من يد العدوّ العنيف، الذي تحدوه بهيميّةٌ جامحةٌ، وأن يَعقبَ، لدَيه، نشوةَ المطاردة، اشمئزازٌ من الضَّرب، وازدراءٌ لسلوكه العنيف.

ومن الجدير بالتَّنويه أنَّ الحربَ العالميّة الثانية، وما أَفرزته من هَيمنـة قـوى الوحشيّة وانفلاتها، لم تقوَ على زعزعة إيمَان غاندي باللاعنف، بل زادته به تـشبُّثًا، فظلّ يُؤكِّد أنَّ اللاعنفَ، وحدَه، كفيلٌ بدرء خَطَر المجازِر البشريّة، وكان يَفخَر بـأَنَّ "**وَضعَ الهند يرتكز على سُموِّها الأَخلاقيّ الذي استمدّته مـن اللاعنـف، وهـي لا تواجه، في هذا المضمار، في الوقت الراهن، أَيَّ منافسٍ، إذ إنّ سائر دول العـالَم، صغيرها وكبيرها، تزدهي بأَسلحتها، وبقدراتها العسكريَّة، التي هي رأسمالها؛ أمّـا الهند فلا تمتلك سوى رأسمالٍ أَدبيٍّ، ينبغي أن يتضاعف بقدرِ ما يُنفَق منه**".

وبقَدر ما كان إيمان غاندي باللاعنف وطيدًا، كانت أحلامه في طاقاته الخيّـرة رحبةً بوِسع الكَون، كما يتجلّى من قوله: "**هَدَفُنا مصادقةُ العالَم أجمع؛ اللاعنف قـد جاء إلى البشر، وسيبقى؛ إنَّه بشارةٌ بالسَّلام إلى الأَرض**".

وكان غاندي، أيضًا، راسخَ الإيمَان بالتَّـضامُن الإنـسانيّ الـشامل الواسـع، وبالمسؤوليّة المشتركة بين البشر. "**فأن يكون الفرد خيّرًا أو شرّيرًا، أمرٌ لا يعنيـه،**

هو وحدَه، بلْ يعني المجتمع كلّه، بلهَ العالَم بأَسره".

وبالتَّالي، فقد كان حُلمه المتوهّج الغـــالي أن يمـــارس الجـــنسُ البـــشريُّ كلُّـــه الساتياغراها واللاعنف، ويستمدَّ منهما خلاصَه؛ وقـــد عبّـــر عـــن تلـــك الرغبـــة المضطرمة بقوله: "**علينا أن نجعل من الحقيقة واللاّعنف لا موادّ مُمارسةٍ شخصيّةٍ، بل موضع ممارسة الجماعات والأمم. هذا هو، على أيّ حالٍ، حُلمي الـــذي ســـأحيا وأَموت، في سبيل تحقيقه**".

غير أنَّ ذلك الحُلم لم يُبعِده عن أَرض الواقع، فظلّ، فـــي آنٍ معًـــا، يُعلِـــن أنَّ الإِصلاحات الكبرى، إنّما يُذكي نارَها نَفرٌ ضئيلٌ من الذين يلتَهب في صدورهم إيمانٌ مضطرمٌ، ويحدو سلوكَهم صُبوٌّ متحفّزٌ إلى معارج البطولة؛ ومن ثَمّ، كـــان إيمَانُـــه بالنُّخبة وطيدًا، وكان موقنًا أَنَّه "**من شأن فئةٍ قليلة العدد من أشخاصٍ يُلهِبهم إيمـــانٌ لا يفتُر، تغيير مجرى التاريخ**".

وفضلاً عن هذه المبادئ الأساسيّة، قد تناولت بحوث غانـــدي وتعاليمـــه شـــتّى نواحي الحياة، وسنعرض أهمّها لِمَامًا.

لقد نادى غاندي بالتزام **البساطة القُصوى**، معيشةً وسلوكًا، وقد استشفّ مخـــاطر المجتمع الاستهلاكيّ الداهمة، فدعا، حازمًا، إلى تفاديها ومناهضتها، وأكّد، مـــن غيـــر مواربةٍ، أنَّه من المُميت مُضاعفة الحاجات إلى ما لا نهاية، وتحويـــل صُـــبُوِّ الإنـــسان الفطريّ صَوبَ المُطلَق، إلى نزعةٍ مادّيّةٍ استهلاكيّةٍ. لقد آمن المهاتما وعلّم أنَّ ســـعادة الإنسان تكمُن في قناعته بالزهيد من الاحتياجات، وبأنَّ متاعبَه وهمومَه تتضاءل بقَدر ما يستغني عن احتياجاتٍ نافلةٍ عديدةٍ، وبذلك يتسنّى له التفرُّغ لروحانيّةٍ خلاّقةٍ، فضلاً عن تأكيده على أنّ كلَّ ما يحتفظ به المرء، وهو في غير حاجةٍ لازبةٍ إليه، كي يستمرّ فـــي الوجود، إنَّما يمثّل سَرقةً واغتصابًا لمال المحتاجين، وبالتالي خلخلةً للتوازن الكَونيّ الذي من شأنه أن يتحقّق ويسود، لو اكتفى كلُّ امرئٍ بمَا يفتقر إليه، حقًّا، ليس إلاّ.

ويلتقي غاندي، في ذلك، مع الكثيرين من المفكّرين الـــذين يَـــرون أنَّ الحـــضارة الحديثة التي تدّعي توفير السعادة للإِنسان، بتوفيرها وســـائلَ الرفاهيـــة، ومُـــضاعفَتها

المطَّردة للسِّلع الاستهلاكيّة، إنَّمَا هي تقضي على سعادته الحقّة، وتستلب منه روحه؛ وحسبُنا شاهدًا على هذا المنهج الفكريّ قول "رئيسة ماريتان": "**إنّ عمليّة الحضارة هي عمليّةُ إنماء الروح. وقد يُسهم فيها التقدُّم المادّيُّ الصِّرف، إن كان باعثو ذلك التقدُّم يتوخَّون تخفيفَ عبء الالتزامات المادّيّة الباهظ، عن كاهل البشريّة، وتوفير فُسحات فراغٍ تستطيع وَقفَها على حياتها الروحيّة.**

"**أمّا التقدُّم المادّيُّ الذي لا يخدُم سوى إرواء الجَشعَ المتفاقم باطِّرادٍ، وجميع ملذّات الجسد، ونزعةَ التسلّط، فإن هو إلاّ عودةٌ إلى الهمجيّة، أي إلى البهيميّة، والمادّيّة والفوضى**".

ومن تلك النظرة عينها، كان ينبع موقف غاندي من الآلة والتصنيع. فهو لم يكن عدوًّا للتَّقدُّم التقنيّ، بشكلٍ مُطلَقٍ، بل كان يرحّب به، إن هو كان يُلبّي احتياجاتٍ أَساسيّةً، وإن كان أداةً في خدمة الجماعة، يُسهم في تحقيق ازدهارها المادّيّ والروحيّ معًا، وفي توفير العمل والكرامة لأَفرادها، وفي القضاء على الفاقة، في منأًى عن الاستغلال. ولكنَّه كان يقاومه، بشدّةٍ، إن هو غدا بين يدي فئةٍ ضئيلةٍ، وسيلةً لاستغلال المجموع، أَو ذريعةً لامتِهان كرامة الأفراد، وإن هو لم يُخلَق ليسدّ احتياجاتٍ أساسيّةً، بل وُلد من جَشعَ أفرادٍ، يستهدفون إنتاج سِلعٍ نافلةٍ، يُصوّرون للنَّاس أَنّها تُوفّر لهم الرغد والسعادة، ويجعلونهم يلهثون، بلا انقطاعٍ، للظّفر بها، فيُسمِّمون حياتهم، ويصرفونهم عن مناهل الروح، حيث يجدون استقرارَهم النفسيَّ، وسعادتَهم الحقّة.

وربّمَا كان غاندي أكثر جنوحًا إلى إدانة الحركة الصناعيّة الحديثة بأكملها، بغَلواء التقدّم الزائف، وبحُمّى الإنتاج الوبيلة، وبلا إنسانيّتها، وبنزعة أربابها إلى استغلال عُمّالهم وعملائهم، في سبيل مغانم شخصيّةٍ فحسب؛ وبالإجمال كان يرى، فيها، عهدًا من حديدٍ، وقلوبًا من حديدٍ. وقد لَخَّصَ مخاوفه منها بقوله: "**إنَّني أَخشى أن تُصبِح الحركة الصناعيّة لعنةً على الجنس البشريّ**... أنا لستُ عدوّ الآلة، في ذاتها، ولكنَّني أقاومها كُلِّيَّةً، إن هي سَيطرتْ علينا". أمّا العلاج، فهو بَيِّنٌ، جليٌّ، لا

لَبس فيه: "**استبدلوا الجَشع بالحبّ، فيستقِم كلُّ شيءٍ**".

ومن تلك القناعات عينها، كانت تنبعُ مبادئ غاندي الاقتصاديّة التي أوجزها بقوله: "**إنَّ اقتصادًا يقود إلى عبادة "مامون"، ويُتيح للأقوياء تكديس الثروة على حساب الضُّعفاء، هو علمٌ ضالٌّ، ووبيلٌ، ويُفضي إلى الموت. الاقتصاد السليم يقتضي العدالة الاجتماعيّة، والقِيَم الأخلاقيّة**". وكان غاندي يستشهد بحضارة "روما التي انهارت أَدَبيًّا عندما تهيّأ لها امتلاك فيضٍ من الخيرات المادّيّة"؛ وفي هذا المضمار أَيضًا يتَّخذ غاندي من قِيَم الروح معيارَه، ويَضَعُها في المقام الأَوّل من تقديره، مستوحيًا حكمة يسوع المأثورة الخالدة: "**وما نَفع الإنسان، إن هو ربح العالَم كلّه، وفَقَد نفسَه؟**".

كان غاندي يُنادي بنظامٍ اقتصاديٍّ يُفَصَّل على قَدّ مُقتَضيات المجتمع، وحاجاته الأَساسيّة، ويكون مقياسَه الوَحيد الإنسانُ وكرامتُه وازدهارُه الإنسانيّ الكامل. هَدَفه توفيرُ عملٍ كريمٍ لكلّ فردٍ، لا استعباد الأفراد للآلة، ولاستهلاك إنتاج الآلة.

العدالة والمساواة، كانتا أَيضًا من أغلى أحلام غاندي، ولكنَّه، في واقعيَّته الراسخة، كان مُقتَنِعًا بتعذُّر تحقيقهما يومًا، على أرض البشر: "**لا يسعني أن أتخيَّل حِقبةً لا يمتلك فيها بعض النّاس ثروةً أوفر من سواهم، إذ لا يسعُنا القضاء على اللامساواة، حتّى في أكثر العوالم كمالاً؛ بيد أنَّ ما يترتَّب علينا تحاشيه هو الصِّدامات والمرارة. هناك أمثلةٌ عديدةٌ عن أغنياء وفقراء يعيشون في صداقةٍ تامّةٍ، وما علينا إلاّ إشاعة مثل هذه الحالات**".

إلاّ أنَّ نزعته الوِفاقيَّة هذه لم تكن لتبرّر، في نَظَره، أيّ نوعٍ من استغلال الأغنياء للفقراء، أو لتُطفئ فيه الرَّغبة اللاَّهبة إلى إشاعة القِسط الأكبر من المساواة، وردم الفَجَوات الشَّاسعة بين الناس؛ ولكنَّه كان يأبى أن يُنتَهَجَ إلى ذلك أيُّ أسلوبٍ من أَساليب العُنف والقَسر: "**ليس مُحَتَّمًا أن يتصارع الرأسمال والعمل**" و"**يُمكن القضاءُ على استغلال الفقير، لا بإزالة بعض أصحاب الملايين، بل بإزالة جهل الفقير، وتعليمِه عَدَم التعاوُن مع من يستثمرونه. إنَّ من شأن ذلك، ردّ المستغلّين أنفسهم إلى السبيل السويّ**". وكان غاندي يُهيب بالفلاّحين والعمّال أن يصرخوا "لا" في وجه

من يستغلّونهم ويمتهنون كرامتهم. كما كان يدعو الأغنياء وأرباب العمل، إلى الكفّ عن الاستغلال، والتنازل طوعًا عن قِسطٍ من ثرواتهم وسُلطانهم، في سبيل إشاعة المزيد من العدالة الاجتماعيّة؛ وعندما تبيّن له أنَّ دعوته تلك كانت نادرًا ما تلقى إصغاءً، غدا نداؤه يتحوّل إلى نذير، مثل قوله: "**من الواضح أنَّ إقرار نظامٍ غير عنيفٍ، متعذّرٌ طالما ظلّت هناك هوّةٌ شاسعةٌ تفصل بين الأغنياء وملايين الجياع. لا يمكن للبوْن بين قصور نيودلهي، والأكواخ الزريّة التي تحتلّها الطبقة الكادحة، أن يستمرّ، يومًا واحدًا، في الهند المتحرّرة، حيث سيتمتّع الفقراء بمَا يتمتّع به أغنياء البلاد من سُلطانٍ. إنَّ ثورةً عنيفةً، داميةً، ستنشب، لا محالة، ذات يومٍ، ما لم تتنازل الثَّروة، والسُّلطان الذي توليه الثروة، تنازُلاً طوعيًّا، وما لم تتمّ المشاركة بين الجميع، في سبيل مصلحةٍ مُشتَركةٍ**".

وفي أُخريات أيّامه، بات غاندي أكثرَ جُنوحًا إلى ضرورة تدخّل الدولة، على نطاقٍ أوسع، في الشؤون الاقتصاديّة، بُغيةَ تحقيق مزيدٍ من المساواة، بفرض ضرائب، ذاتَ نِسبٍ مرتفعةٍ على الأرباح، وبواسطة قوانين إرثٍ تحدٌّ من انتقال الثروات الفاحشة إلى حفنةٍ من المَحظيّين.

من كلّ ما سلَف من استعراضنا لمبادئ غاندي يتجلّى لنا حرصه على **كرامة الفرد وحريّته**، فالفردُ كان يتبوّأ، في مفهومه، المقامَ الأوّل، بعد الله، وقد طالما ردّد مثل هذه الأقوال: "**رغبتي هي أن يغدو كلّ فردٍ عُضوًا منيعًا، ويتمتّع بأكمل نموٍّ في المجتمع... إن لم يَبقَ للفرد شأنٌ، فما الذي يبقى من المجتمع؟ الدولة التي يتحرّك أَهلُها كالخراف ليست ديمقراطيّةً**".

بيد أنّ الحريّة الفرديّة، التي كان غاندي يدافع عنها، هي حريَّةٌ مسؤولةٌ، متحرّرةٌ من الأَنانيّة والفوضى، ملتزمةٌ بخيرِ المجتمع، ولكن عن قناعةٍ واختيارٍ، لا عن قَسرٍ وإكراهٍ من قبل السُّلطات؛ وقد عبّرَ عن إيمانه هذا بقوله: "**أقدّر الحريّة الفرديّة، ولكنْ عليكم إلاّ تنسوا أنَّ الإنسان، في جوهره، كائنٌ اجتماعيّ، وأنَّه ارتقى إلى المستوى الذي يحتلّه الآن، بعد أن تعلّم التوفيق بين فرديّته، ومُقتضيات**

التقدّم الاجتماعيّ. إنَّ فرديّةً بلا حدودٍ هي شريعة الحيوان في الغابة".

ومن البيّن أنَّ غاندي كان يقود حركةً إصلاحيّةً تتناول أغوار النفوس، وكان راسخ الإيمان بأنَّ ضمان نجاح مثل هذا الإصلاح واستِمراره، يستوجب صَوغ نفوس الجيل الجديد، وفقًا لما كان يتطلّع إليه من مُثُلٍ، ومن ثَمَّ، فقد أَولى التعليم شأنًا بارزًا من اهتمامه، علّه يُنشئ نُفوسًا نضِرةً، صافيةً، شديدةَ المراس، متحرّرةً من النّزَعات الفاسدة، تستمدّ نُسغَها من جُذور الحقيقة الخالدة، ومنِعَتَها من الإيمان النيّر، الوطيد، الحُرّ.

وإذ كانت الهند تَزخَر بالجامعات الطائفيّة، دعا غاندي إلى الاستعاضة عنها بجامعاتٍ شاملةٍ تُلَقَّن فيها مبادئ الديانات كلّها، ويُصيب فيها الطلاّب تربيةَ القلب والنَّفس، في المقام الأوّل، قبل الثقافة الفكريَّة، إذ إنّ "**علمًا بلا روحانيّةٍ يُدمّر العالم، ويُلاشي البشريّة**"؛ وعلى الطلاّب أن يزاولوا، منذ طراوة عودهم، وبانتظامٍ، عملاً يدويًّا، كالغزل أو الزراعة، يُكسِبُهم كرامةً واستقلاليّةً، ويمكّنهم من الاضطلاع بنَفَقات معيشتهم.

ومثل هذه المُهمَّة الجسيمة، لا بدّ أن ينهض بها مُعلّمون على قِسطٍ وفيرٍ من الكفاءة الأخلاقيّة، ومنِعة النفس، والنزاهة، يلتزمون، كالرُّهبان، بنذورٍ لا تقتصر على الامتناع السلبيّ عن بعض الشَّهَوات، بل تنطوي على عناصر إيجابيّةٍ، مستلهمةٍ من روح التضحية والحبّ التي تخلق القدّيسين، وأهمّها:

- نَذر الحقيقة الذي لا يقتصر على تحاشي الكذب، بل يقتضي مقاومة ضلال الأهل وأولي الشأن.
- نَذر اللاعنف، الذي لا يكتفي بالتنكُّب عن السلوك العنيف، بل يوجب الامتناع عن إيذاء الطُّغاة، الذين ينبغي، في آنٍ معًا، حبّهم ومحاولة إصلاحهم، والتصدّي لطُغيانهم، تصدّيًا قد يؤدّي إلى الاستشهاد.
- نَذر العفّة: عفّة الفكر، والقلب والجسد، ومن مستلزماته السَّيطرة على حاسّة الذوق، والاجتزاء من الطعام بالضروريّ لإقامة الأَوَد، والذي لا يستثير شهوةً حيوانيّةً.

– نَذر الامتناع عن السَّرِقة، وهو لا يعني الامتناع عن استلاب ملك الغير، بل عدم الاحتفاظ بمَا للإنسان غنًى عنه لبقائه، إذ إنَّ مثل هذا الاحتفاظ إن هو إلاّ سرقةٌ. ومن ثَمَّ، فالامتناع عن السرقة يستوجب التخلّي عن كلّ تملُّكٍ نافلٍ، والدأب على تبسيط وسائل العيش.

– نَذر التحرّر من الخوف، والاكتفاء بسلاح منعة النفس، وقوّة الحقيقة.

وأخيرًا على المُعلّم أن يمارس عَمَلاً يدويًّا، ويُفضّل أن يكون زراعيًّا، وأَن يُتقن مُعظَم اللَّهجات الهنديَّة.

وكان غاندي يرغب أن يُضفي على مثل تلك المدارس طابع "الأشرم"، أي المنسك الذي يلتقي فيه أناسٌ ينشدون الحكمة واستقرار النفس، عِبر حياة الزُّهد، في جوٍّ مُفعَمٍ بالتديُّن وحضور الله، على أن يضاف إلى كلّ ذلك العمل الدؤوب، اليدويّ والفكريّ معًا، على تناغُمٍ وانسجامٍ بينهما؛ وكان يرغب أن يغشى الأطفالُ مثل تلك المدارس، في الرابعة من عمرهم، ويلبثوا فيها عشر سنواتٍ، في معزلٍ عن تأثير ذويهم، وأيّ تأثيرٍ خارجيٍّ، يرتدون القَشِف من اللِّباس، ويطعمون البسيط من الغِذاء النباتيّ؛ ولا ينعمون بالعُطَل، بالمعنى المألوف، ولكنَّهم، طوال يومٍ ونصف يومٍ، كُلَّ أسبوعٍ، يُزاولون عَمَلاً إبداعيًّا خاصًّا، وطوال ثلاثة أشهرٍ في السنة يجوبون شتّى أرجاء الهند، سعيًا على الأقدام، ويتلقّنون مختلف اللّهجَات المحكيّة. وعندما يَفرَغون من الدّراسة يُخيَّرون بين الانقطاع للتَّعليم، وفِقًا للنُّذور التي التزم بها معلّموهم، أو مغادرةَ "الأشرم" والانصراف إلى الخدمة العامّة.

وكان غاندي يرجو أن تُعيدَ مثلُ تلك المختبرات التربويّة، إلى العالَم، نضارتَه المفقودة، بفضل تثقيفها القلوب، وصوغها نفوسًا شديدة المراس.

قد تبدو بعض آراء غاندي، في بعض جوانبها، ساذِجةً أَو رجعيّةً، أو مُغرِقةً في اللاواقعيّة، وهائمةً في دنيا الخيال. ومن المعروف أنَّ معاصريه، في الغرب، وفيمَا خلا استثناءاتٍ نادرةً، قد عَدُّوه مأفونًا، ولاحقوه بسخريّتهم، وفي هذا السياق يقول ميخائيل نعيمة: "**كثيرون هزؤوا بدعوة غاندي، في مطلعها، واعتبروها صبيانيّةً**

حمقاء، ولكنّه عاش ليخذل الساخرين. الرصاصةُ الأثيمة التي أردتْه كانت وسامًا توّجَ عمرًا من النضال. و"هي"، رمز العنف، ما كانت غير شهادةٍ صارخةٍ يؤدّيها العُنف بانخذاله أَمامَ اللاعنف".

وكان الضابط البريطانيّ "داير"، الذي قاد مَجزرَة أمريستار المنقطعة النظير في همجيّتها البشعة، قد أنذر"أنّ قوّة النفس ستُقمع بقوّة القَبضة"؛ ولكنّه خَسئ، وما انفكّ التاريخُ يلعنه، في حين انتصرتْ قوّةُ النَّفس، وغدت قِبلةَ التاريخ البشريّ، وبات المهاتما غاندي واحدةً من أسمى النفوس التي يتشرّف بها التاريخ البشريّ، والتي يُفاخر بالانتساب إلى تعاليمها، اليوم، قِمَمٌ في الروح والدِّين والاجتماع والسياسة، ودُعاة السِّلم، والإخاء، وحماية البيئة، في العالم.

وبات أَلَدُّ خصومه يعترفون بتفوّقه وسُموّه، كالجنرال سموتس الذي سبق له أن سَجَن غاندي في أفريقيا الجنوبيّة، ولكنَّه لم يتردّد، فيمَا بعد، في الاعتراف بأنّه "**أعظم إنسانٍ في قرننا**".

ومن المُحقَّق أنَّ غاندي قد دَمغَ التاريخَ في العُمق كما لم يَدمَغه، قطّ، سوى نَفَرٍ ضئيلٍ من العباقرة والقدّيسين.

ويتجلّى، اليومَ، أثره البعيد الغَور، في كلّ حركةٍ إنسانيّةٍ، وفي كلّ مؤلَّفٍ يستهدف الذَّود عن كرامة الإنسان، ونَشر السَّلام والإخاء والعدالة بين الأنام، ومناهضة النَّزعة إلى إشادة السلام على التهديد بالدَّمار النوويّ، عوضًا عن إقامته على الحُبّ والتّضحية.

وقد نشأت، في شتّى بقاع الأرض، جمعيّات "أصدقاء غاندي"، تضمّ نخبةً من الذين تحدوهم مُثُله، والرغبةُ في نشرها والاحتذاء بها، وقد ترأّسَ إحدى تلك الجمعيّات، المُستَشرقُ الشهيرُ والمتصوِّفُ "لوي ماسينيون" الذي صام وقاسى، وضُرِب، تضامنًا مع مُسلمي الجزائر، في نِضالهم لأجل الاستقلال، واستنكارًا للممارسات الفرنسيَّة الوحشيَّة في ذلك البَلَد الأفريقيّ العَربيّ.

وكانت سيرة غاندي ومبادؤه قد حَفَرت في نفس "ماسينيون" وعقله آثارًا بليغةً،

كثيرًا ما عبّر عنها بمثل هذه الأقوال: "**لقد برهن لي غاندي، بجرأةٍ، وبانتصاراته الأدبيّة المتألّقة، أنّ نذر الساتياغراها قابلٌ للحياة، وأَنَّ اللاعنف ليس فضيلةَ الجبناء، بل فضيلة الأَبطال**". "**لقد بدا لي فكرُ غاندي فكر عدلٍ حيٍّ، ورغبة جادّة في التطهُّر وتطهير الآخرين، بالعمل. كان فكره نفّاذًا، عاريًا عُريًا صوفيًّا، في حمأة عالَم الخطيئة والقذارة**"

وإليكم نصّ القسم الذي يلتزم به "أصدقاء غاندي":

« "بكلّ تواضُعٍ سأجهَد في أن أكون مُحبًّا، صادقًا، مستقيمًا، وطاهرًا،
وفي إلاّ أمتلك شيئًا لستُ في حاجةٍ إليه،
وأن أستأهلَ أَجري بجُهدي،
وأن أراقِب دائمًا، بحرصٍ وحذَرٍ، مشربي ومأكلي،
وأن أكون، أبدًا، باسلاً، لا أهاب،
وأن أحترم سائر الديانات احترامي لديني،
وأن أسعى دائمًا إلى اكتشاف الخير في قريبي،
وأن أتبع بإخلاص نَهج الاستقلال،
وأن أكون أخًا لجميع إخوتي ».

لقد أمسى غاندي، بالمبادئ التي دلّل على سُموِّها بحياته البطوليَّة، مدرسةً واسعةَ الانتشار؛ ومع ذلك فكنزُ ثرواتها لم يُسبَر، بعدُ، بالقَدر الوافي، وسيظلّ يُسفر، كلَّ يومٍ، عن مجالاتٍ جديدةٍ، وطاقاتٍ خلاّقةٍ.

ولئن كان بعض الغربيّين ما انفكّوا يعترفون بجهلهم لقَدر غاندي الحقّ، على حدّ ما يتبيّن من قول جان قانيه: "**إنّ غاندي نبيٌّ كبيرٌ من أنبياء زماننا. الغرب لا يعرفه جيّدًا، ويجهل حبّه العميق للمنبوذين، وتواضعه الجمّ أمام الله الحبّ. وتعطُّشه إلى رُؤية العدل يسود، ورغبته في توحيد البشر**". فما عسانا نقول، نحن، أبناء الشرق، عن جهلنا الذريع لمن هو مفخرةُ الشرق، والعالم أجمع؟ وما أحرانا بأن نُقبل على استقراء سيرته، واستلهامِ مُثُله ومبادئِه، في سبيل إقامة مجتمع معافى، قائمٍ

على العدالة والحقّ وكرامة الفرد، والتعايش بين إخوةٍ ينتمون، جميعًا، إلى بُنـوّة الله الواحد، على حبٍّ وانسجامٍ، في منأًى عن التعصُّب الطـائفيّ الأَحمـق، والإقليميّـة الحسيرة البَصَر، محافظين على قِيَمنا الروحيّة الأصيلة، الكفيلة بوقايتنا من الانجراف في تيّار المادّيّة المميتة؛ ما أحرى حُكّامنا أن يتلقّنوا من غانـدي أنَّ الحُكـمَ خدمـةٌ وتضحيةٌ وواجبٌ باهظٌ، لا سيطرةٌ واستبدادٌ وامتيازاتٌ؛ كما هو حريٌّ بكلّ فردٍ منّا، أن يتعلّم منه أنَّه مهما بلغ من وَهَنٍ، ومهما تعرّض لطُغيانٍ، فبُمكنَتـه الـذَّودُ عـن كرامته وحرّيّته، وأنَّه مدعوٌّ إلى تَسنُّم أسمى قِمَم القداسة والبطولة.

اليومَ، في مُواجهة تحدّيات عصرنا وشذوذه، وتهديداته، ليس أفضل من التـأثّر بخطى المهاتما الذي آمن، إيمانًا راسخًا، نابضًا بالله الحبّ الواحد السامي، الـذي لا قِبَلَ لدينٍ على احتكاره، وإيمَانًا مماثلاً حيًّا بالإنسان المخلوق على صورة الله.

وجيلاً إثرَ جيلٍ، ستظلّ تعاليم غاندي تُذكِّر الإنسانيّة، تذكيرًا صارخًا، بواجبـات الصدق، والحبّ، والشجاعة، والإخاء، وتفوُّق قِيَم الروح، واحترام الشَّخص البشريّ.

وقد سبق لجواهر لال نهرو أن تنبّأ: "**لا بُدّ أن تنقضي سنواتٌ، قبـل أن تُـدرك وتنفّذ على نحوٍ أفضل، الرسالة التي جسّدها غاندي، رسالةٌ لم تكن محدودةً بوَطَنٍ أو جماعةٍ؛ فالحقيقة التي تنطوي عليها تنطبق على جميع الأَوطان، وعلى البشريّة بأجمعها... إنّ جَوهر هذه الرسالة يُفلت من حدود الزّمان والمكان، وهو، بالتـالي، لا بُدّ أن يبقى ويَتَرسّخ في عقولِ البشر**".

أنجاحٌ أَم فشلٌ؟

الآن وقد أَشفى مشوارُنا مع غاندي على نهاية شَوطه، حانَ لنا أن نُقيِّم ما أَصابه المهاتما من نجاحٍ في حياته الخاصّة، وفي حياته العامَّة، سياسيًّا واجتماعيًّا.

أَمَّا في مجال نجاح حياته الخاصّة، فَحَرِيٌّ بنا أن نَستَرشِدَ بالمعيارين التاليَين:

أَوّلهما قول الدكتور أَلكسي كاريل: "**إنَّ من ارتقى بروحـه إلـى أعلـى ذُروةٍ يستطيع السموّ إليها، فقد عاش حياةً ناجحةً**".

وثانيهما قول الدكتور ڤيكتور بوشيه: "**إنَّ المعيار المباشَر للنَّجاح هو ما نُؤدّيه من خدمةٍ للآخرين**".

ولقد تأكَّد لنا من استقراءِ سيرة غاندي أَنَّه قد استوفى، إلى أَبعد حدٍّ، شَرطَي النجاح السالفَين، إذ إنَّه قد جَهِدَ، سحابةَ حياته، في تحقيق ذاته، والنُّهوضُ بها إلى أسمى مراقي الكمال؛ وبيّنّا ما تَسنَّمه من قِمَمِ التصوُّف والزُّهد، والسَّيطرة على الذات، ولَجم الأهواء التي حوّلها طاقاتٍ خيّرةً جبّارةً، ووظّفها بسخاءٍ، وتجرّدٍ واندفاعٍ، في ميادين الخدمة السّمحاء؛ وكان خيرَ عَونٍ له على الخدمة تلك القوّةُ الخارقةُ التي يُوليها التحرّرُ من جميع الأَوهان التي تُضعِف العزيمة، وتَشُلُّ الإرادة، والانعتاقُ من الأَهواء المُثَبِّطة، ومن أغلال النزوات، فاستطاع إشهار سلاح الروح، صارمًا، متوهّجًا، وأثبت أنَّ قوَّة النفس، بمَا يواكبها من إيمانٍ، وتجرّدٍ، وتضحيةٍ، وبطولةٍ، وفداءٍ، هي أَمضى قدرةً من أسلحة القهر والتجبُّر والطُّغيان، وأَشدّ بأسًا في التصدّي لقوى الشرّ، والاستغلال، والعدوان.

وقد تميّز غاندي، دائمًا، بإخلاصه المُطلَق لمبدأ إخضاع الجسد لسُلطة الروح، فإذا ما استوجبت اعتباراتٌ أخلاقيّةٌ أَداءَ أَيّ عملٍ، حُظِر على الجسد حقّ المعارضة، فإن هو كان ضعيفًا، كان بوِسعه أن يتألّم، بل أن يموت، ولكن لم يكن له الحقُّ في قول "لا".

غير أنَّ المهاتما قد أضاف إلى ذَينك الشرطَين الأساسيَّين لنجاح حياة كلِّ فرد، عُنصرًا آخرَ على قَدرٍ رفيعٍ من الخطورة والفعاليّة، إذ إنَّه عاش في حضورٍ إلهيٍّ حميمٍ غامرٍ، واستمدَّ منه حُضورًا شخصيًّا مُفعمًا بالسِّحر الأَخّاذ والقداسة الأصيلة المَهيبة، والقُدوة الخيّرة البليغة التأثير.

وفي كلِّ ذلك أنصعُ دليلٍ على أَنَّ المهاتما قد أفلح في جعل حياته مثالاً رفيعًا للنَّجاح الخليقِ بالإجلال والاحتذاء، ولا سيَّمَا أنَّ صدق غاندي مع نفسه ومع الآخرين، والتناغم التامّ المُذهل بين أفكاره وأقواله وأفعاله، قد أسهما في تحقيق مُعجزة غاندي، وإيلائه "قُوَّة القُدوة" التي وفّرت له إزرًا منيعًا في معاركه الاجتماعيَّة والسياسيّة.

وكان بَدَهيًّا أن تُحقّق تلك السيرة المُعجزة مُعجزاتٍ خارقةً في الميادين السياسيّة والاجتماعيّة التي خاضها المهاتما.

ومن مُعجزاته، ما أَفلح في إشاعته من وَعيٍ وثقةٍ بالنَّفس، وانتفاضةِ كرامةٍ، في بلادٍ متراميةِ الأَطراف، مُتعدِّدة اللُّغات والمشارب والطبقات، لا تجانُس في مستوى سكّانها، وفي دياناتهم ونزعاتهم.

ومن مُعجزاته، أيضًا، حَملُه شعبَه على انتهاج أساليبَ لم يألف العالَمُ انتهاجَ مثلِها من قبلُ، وشهرُه الحبَّ، واللاعنفَ، والوفاءَ للحقّ، سلاحًا لا يُفلّه سلاحٌ، سلاحًا عَنَتْ لسُلطانه أكبرُ الأمبراطوريّات، صاغرةً، وتطلّعت إليه أنظار العالم في إكبارٍ وإجلالٍ.

ولا مِريةَ أَنَّ العوامل التي أَسهمت في نجاح حياة غاندي الشخصيّة، قد أسهمت، أيضًا، وإلى حدٍّ بعيدٍ، في إنجاز تلك المُعجزات؛ وفي طليعة تلك العوامل، وَقفُه كلَّ طاقاته على الخدمة، ودفعُ كلّ جهوده في هذا المنحى، وكذلك صدقُه المُطلَق الذي رَفعَ حياتَه إلى مرتبة القُدوة ذات التأثير البليغ، البعيد الإشعاع.

بيد أنَّ، ثمَّةَ، عواملُ أُخرى كان لها يدٌ طولى في إنجاح مسيرة غاندي السياسيّة، وفي مُقدّمتها غيابُ الرَّغبة في النجاح عن دوافع غاندي، الذي تعلّم من "الباغافادجيتا" أن يعمل، زاهدًا في ثمار عَمَله، بحيثُ يرى النَّجاحَ الحقَّ في بَذلِ أقصى الجهد، وأَداءَ الواجب كاملاً، والثبات في مواصلة النّضال، على غير احتفالٍ بالنتائج؛ ولكنَّ النجاح غالبًا ما يُكلِّل جهودَ من يُزرون به، ولا يجعلون منه هَدَفًا.

وُيؤكّد "جان ڤانييه" هذا الواقع بقوله: "**زعامةُ غاندي وقوّتُه كانتا تَنبُعان من الحُرِّيَّة الداخليّة الراسخةِ الجُذور التي كان يَنعم بها، والتي كانت تَضَعُه في مَنجاةٍ من كلّ تأثيرٍ خارجيٍّ، وكلِّ ضَغطٍ، بحيثُ تصدُر آراؤه كلُّها، وأعماله، من قناعاته العميقة، وتأتي تنفيذًا لصوت وجدانه المتحرّر، ومن وَحيِ الروح، ومن التَّوافق المُحكَمَ بين أَقواله وأفعاله**".

إنَّ تحرّر غاندي من اعتبارات النجاح الشخصيّ والرفاه، قد أتاح له تحطيم الذرّة الإنسانيّة، ليستنبط منها طاقةً جديدةً ذاتَ قُدُراتٍ يَصعُب تخيُّلُها، كما مكَّنه من

الإقدام على ما بوسع معظم الناس الإقدام عليه، ولكنَّهم يُحجمون، عن صغارةٍ وأَنانيّةٍ وجُبنٍ؛ أمَّا هو، فلم تُرهِبه، يومًا، مخاطر البطولة، وعواقب البسالة في أَداء الواجب؛ وبهذا الصدد يقول شاتوبريان: "**الفِعال العظيمة هي التي يُتَوقّع أن يكون مغبّتَها الأَلَمُ أو الموتُ**"، وقد توقّع غاندي كلَيهما، وأَقدم عليهما طائعًا غير هيّابٍ.

لقد أَمسك المهاتما، ما استطاع، عن إلقاء المواعظ، غير أَنَّه كان موعظةً حيّةً، فحقّ له أن يُصرّح: "**سيرتي هي رسالتي**"، وانتصب مارد قداسةٍ، وصلاحٍ، وزُهدٍ، ووداعةٍ، في عالمٍ ندرَ فيه من يُقاوم نفوذَ السُّلطان اللاأخلاقيّ المُدَمِّر، وإغراءَ الثروة والكبرياء.

لقد لخّص، في ذاته، تعاليمَ الأنبياء، وحِكمةَ الأجيال، المتراكمة في النفوس، عبر الزمان، ولكنَّه تميّز بنَقلها من اعتبارات الذِّهن المجرّدة، وفراغ الكلام، إلى المثال الراهن الحيّ، مُدَعِّمًا الإيمَانَ بالعَمَل. ولقد برع ذلك "المثاليّ الواقعيّ" في استخدام الصَلصال البَشَريّ الشائع، ومن طيّاته بَعَثَ قبَس الرُّوح الغافي، فنَهَض، على حدّ قول الأستاذ أَنطون كرم، "**كالقنطرة المنصوبة بين المثال والراهن، يُلقّح هذا بذاك، يُزوِّد المتناهي بروعة اللاّمتناهي، وينزع عن المثال صِفَة المستحيل ليُجسّده**".

لقد وفّر لشعبه وللعالَم النُّورَ الذي كان يتطلّع إليه، ونَفحة الروح التي كان يفتقر إليها، والنسمةَ المُنعشة التي كان يكاد يختنق لفقدانها، وكأنّي بـﭬيكتور هوغو كان يُشير إلى غاندي عندما قال: "**الفَجر يُعبِّر عن الجُرأَة عندما يبزغ. أن يُحاوِل المرءُ، ويتحدّى، ويصمُدَ، ويُثابِرَ، ويُخلِص لذاته، ويُعارِك القَدَر، ويُدهش الكارثة بعدم التهيّب منها، وأن يتصدّى تارةً للسُّلطة الغاشمة، ويزدري، تارةً أُخرى، النصرَ المنتشي زهوًا... تلك هي القدوة التي تفتقر إليها الشعوب، وذلك هو النور الذي يُكَهربها**".

وبالإجمال، قد حقَّق غاندي، في ذاته، وعلى أكمل وجهٍ، شُروطَ نجاح الحياة، على نحو ما حدّدها تيلار دي شاردان، والتي يتميّز بها كلّ عظيمٍ حقٍّ، إلاّ وهي:

- **تركُ العالَم في وَضعٍ أفضل ممّا كان يوم غشاه،**
- **الاحتفاظُ بقلب طفلٍ خافقًا أَبدًا في صدره،**

– العيشُ في انفتاحٍ دائمٍ، وتَجرّدٍ مستمرٍّ.

ولئن كان لا يخامرنا رَيبٌ في استيفاء غاندي للشرطَين الأَخيرَين استيفاءً رائعًا، إلاّ أَنَّه يحقّ لنا التساؤل إن هو استطاع تبديل وجه العالم، ولا سيَّمَا أَنَّ طاغور كان قد تنبّأ، يوم كان المهاتما ما زال على قَيد الحياة، قائلاً: "**قد يفشل غاندي، مثلما فشل بوذا، وفشل المسيح، في ردع الناس عن غيّهم، ولكنَّ العالم سيذكره دائمًا كواحدٍ ممّن جعلوا وجودهم أمثولةً لجميع الأجيال المقبلة**".

صحيحٌ أنّ غاندي قد نَاضَلَ كما لم يُناضِل سوى قِلّةٍ ضئيلةٍ، في التاريخ، من أَجل وحدة جميع فئات المواطنين، وتوثيق أواصر التآخي فيمَا بينهم، وقد حقّق، أثناء حياته، نتائج مُعجزةً في هذا المضمار، غير أَنَّه لم يُفلح في اجتثاث جذور التعصُّب والبغضاء من جميع القلوب، وصُرِع شهيدَ نضاله هذا، بيد شِرذِمةٍ تُمَثِّلُ أَبغض وجوه التعصُّب الذي ما انفكّت آثاره ماثِلةً، في الهند، وفي شتّى أَرجاء البسيطة، زارعةً الشِّقاق، ناشرةً الجرائم، مُفسدةً الحياة؛ وحتّى استقلال الهند الذي كافح غاندي كلَّ حياته في سبيله، كان لتحقيقه طَعمُ العَلقَم في حَلقه، وَوقعُ طعنةِ الحربة في صدره، بعد إذ جُزِّئت البلاد على أَساسٍ طائفيٍّ، وتدفّقت، من جرَّاء الفتنة الطائفيّة، سَواقٍ من الدِّماء البريئة.

إلاّ أنَّ استشهاد غاندي ذاتَه سيبقى إِدانةً صارخةً أبديّةً لكلِّ تعصُّبٍ، وكلّ شَحناء، ونداءً حافلاً بالتحدّي، يستجيب له، في كلّ مكانٍ، أَفرادٌ وجماعاتٌ عزموا على العيشِ عيشةَ المُتَحضِّرين الواعين للتضامن البشريّ، ووحدة المصير على الكوكب الواحد.

وكذلك ناضل غاندي، حياتَه كلّها، كي يُثبت تَفوّقَ سلاح اللاعنف على كُلِّ سلاحٍ آخَر، وحقَّق، في ذلك، مُنجزاتٍ أَذهلت الدنيا؛ ومع ذلك ما انفكّ العُنف ناشبًا في الهند، حيث ما زلنا نَشهد منه أَحداثًا مأساويّة، وفي شتّى بقاع المعمورة حيثُ ما برح العُنف سيّدًا رهيبًا، هادرًا، مُدَمِّرا، لا يني يحصُد أَلوفَ الضَّحايا.

قد يكون غاندي هو اللاّعنيف الحقّ الوحيد، مثلما كان يسوع هو المسيحيُّ الحقّ

الوحيد، ولكنّ ذلك الواقعَ لا ينال، في شيءٍ، من عَظَمة مثالَيهما.

وسيظلّ لا عنفُ غاندي يَهزُّ ضميرَ الأجيال، ويُؤَكِّد تفوُّقَ قوى الخُلُق والرُّوح على قُوى البهيميّة والطُّغيان، وسيظلّ غاندي يستفزّ، هنا وهنالك، في شتّى بقاع عالَمنا، تلاميذَ وأتباعًا من أمثال لوثركنغ، وماسينيون، وسواهما، يُشهرون سلاح اللاعنف، يقاومون به الجَور والعُنصُريَّة والاضطهاد؛ ويقع منهم شهداءُ يَرووُن بدمائهم رسالةً ساميةً غرَسَ بذورها المهاتما، فأَينعت وانتشرت، وما أحراها أن تَعُمّ الكونَ، وتغدو الوسيلةَ المُثلى للقضاء على كلِّ حيفٍ، وعنجهيّةٍ، وعُنصُريّة.

لقد أثبت غاندي أنَّ كلَّ إنسانٍ، مهما بَلَغَ من وَهَنٍ، ومهما استولى عليه من جَورٍ، فهو حارسُ كرامته، وضامنُ حرّيّته، فإذا ما عَقَد العزمَ على الذَّود عن حِياضه بنفسه، صار إلى النَّصر، ولو تألّبت عليه جميعُ قوى الشرّ.

إنَّ شعوبًا وفئاتٍ عديدةً مضطهدةً في العالَم تستلهم، أكثرَ فأكثر، أساليبَ غاندي في مُقارعة الطُّغيان، وإنَّ مواكبَ أَتباعِ اللاعنف واللاتعاون وشهدائهما ماضيةٌ في التضخّم؛ وإنَّه لمن دواعي الرجاء أنَّ بعض إخواننا في فلسطين المحتلّة، الذين يُعانون من إحدى أقسى مآسي الظُلم والهمجيّة العُنصريّة في التاريخ، قد شرَعوا يَستَوحون أساليبَ غاندي، فعساها تقودهم إلى قهر الطُّغيان، وإحقاق الحقّ، على نحو ما استطاع غاندي قَهرَ أعظم أمبراطوريّةٍ في عهده.

ولقد وَقَفَ غاندي حياتَه على اكتشاف الحقيقة، وضَربَ مثلاً رائعًا في تسخير السياسة لخدمتها، ولرَفع الحيف عن المظلومين، وإعلاء شأن قِيَم الروح وإبراز تفوُّقها.

غير أَنَّ الماديّةَ ما فتئت مُستَشريةً، متكالبةً، مُهَيمنةً، وما زال الظُّلمُ مُمسكًا بخناق الملايين، في طول المسكونة وعرضها، وما انفكّت السياسة تُناصب الحقيقةَ العداءَ، وتغتالُها، في معظم بقاع الأرض.

فهل يعني ذلك أَنَّ جُهود غاندي قد باءت بالفشل، أَو أَنَّ أهدافه كانت باطِلةً؟

إن كان، ثمَّة، فشلٌ، فهو فَشَل الأنبياء الذين أَخفقوا في اجتثاث الشرّ من الأرض، إذ إنَّ حِكمَةَ الربّ تقضي بأَن ينبُتَ القَمحُ والزؤانُ معًا، كما أَنَّهم لم يُفلِحوا

في جرّ الجماهير الغفيرة إلى احتذاء مثالهم، والتمثّل بقُدوتهم، فالبطولةُ والقداسة والتجرُّد ليست من خصال الجماهير.

ومع ذلك، سيبقى غاندي، على غرار الأنبياء، بُؤرة نورٍ تشعّ، عبر الأجيال المُقبلة، وتُشرّف الإنسانيّة، وتُشرّف، على وجهٍ خاصٍّ، هذا القرن الذي شَهِدَ تألُّق نجمه. فغاندي، بقداسته وسُمُوِّه، قد كفّر عن الكثير ممّا اقترفه هذا القرنُ من جرائمَ فاحشةٍ، ومَعاصٍ مُزَلزلةٍ.

لقد بات طابع غاندي يَدمغ بعُمقٍ كلَّ حركةٍ إصلاحيّةٍ ذات نزعةٍ لا عنيفةٍ، في كلّ بقاع المسكونة.

فحَيثُمَا نَهَض مُصلحٌ يحدوه دافعُ مقاومة الطُّغيان، ورَفعُ الحَيف عن المسحوقين والمنبوذين، كان غاندي هو مثاله.

وحيثما قام مناهضٌ لزَيف الحضارة الراهنة، وقيَم مجتمعنا الاستهلاكيّ، وهَيمنة قِيَم المادّة الطَّاغية، فغاندي هو قدوتُه.

وحيثُمَا انتصب مناضلٌ مُؤمنٌ بقُدرات الروح الجبّارة، وببأس سلاح اللاعنف الذي لا يُقهر، فغاندي هو مُلهِمُه.

وحَيثُمَا آمنَ إنسانٌ بأنَّ ضآلة مواهبه الفكريَّة والجسديّة لا تقوم عائقًا دون صبُوِّه إلى الحقيقة والكمال، والبطولة والقداسة، فغاندي هو رائده ونبراسه،

وكلّما ذُكِرَ كبار القدّيسين والعُظَماء الذين تزهو بهم البشريّة، وبهم تتشرّف، فغاندي يتبوّأ، بينهم، مكانةً أثيرةً سامقةً.

وسيظلّ غاندي منارةً يستهدي بضَوئها كلُّ ناشدِ حقيقةٍ، وأسوةً لكلّ من رامَ أن يرقى بروحه إلى ما يجعل الإنسانَ، إنسانًا على صورة الله، ولكلّ سياسيٍّ ما زالت تموجُ في نفسه نَشوةُ المثُل السامية.

إنّه، على حدّ قول الدكتور شارل مالك: "**هِبَةٌ من هبات الله لهذا الجيل، وللأَجيال القادمة**".

وإنّ العالَم، اليومَ، في حاجةٍ حارقةٍ إلى الإصغاء لصَوته يُندّد بالمادّيّة والعُنف،

ويُمجّد الحقَّ وقُوى الروح، ويُنقذ البشريّة من حضارةٍ ضلّت سبيلَها، وفَقَدت روحَها.

إنَّه ثَروةٌ من ثروات الإنسانيّة، فعلى حدّ قول ماسينيون: "مجموعة قِوًى روحيّةٍ هي التي تُكوِّن، عبِر التاريخ، جَوهَرَ الإنسانيّة الخالد، ومن هذه القوى، كان غاندي".

إنَّ وُجودَ شُهود الحقّ وشهدائه، من أمثال غاندي، ولو هم كانوا قِلَّةً ضئيلةً، في عالَمٍ تَسُودُه البشاعةُ، هو، في ذاته، مَنبعُ رجاءٍ، وإِشراقةُ أَمَلٍ؛ وفي هذا السّياق يقول هنري دي لوباك:

"**حسبُ أضيقِ ثُغرةٍ في أَصفَقِ جدارٍ، بأَحلكِ سِجنٍ ظُلمةً، لإِثبات وجـود الـشمس. كذلك، في عالمنا الصَّفيق العتمة، والخانق، يكفي لقاءٌ خاطفٌ بقدّيسٍ، لإِثباتِ وجودِ الله**".

أيُّها المهاتما، أيَّتها النفس الكبيرة

كيفَ لي أن أَشكُرَ لك صنيعَك، وقد أَتَحْتَ لي اقتفاءَ أَثَرِك، خُطوةً خُطوةً، سحابةَ أَشهُرٍ طويلةٍ، انقلبتْ مُغامرةً مثيرةً، في دهشةِ إعجابٍ ما انفكّتْ تتعاظمُ كلَّمَا مَضَيتُ في اكتشافِكَ إيغالاً، وفي خُشوع إجلالٍ، في حَضرة قدِّيسٍ مُجَلٍّ، استطاع الظُّهورَ على ما يُوهِنُنا جميعًا، ويُقيِّدُنا بأغلال العُقم، من خَوفٍ، وأنانيّةٍ، وخَوَرٍ، وصغارةٍ.

وفي خَجَل المتقاعِسِ المُتَواني الذي يَتَطلّع في ذُهولٍ وإكبارٍ إلى القِمَم الشمّاء التي تسنَّمتَها، ولكنّه يُطَأْطِئ الرأسَ خزيًا، لجُبنه أو لِعَجزه عن التَّصعيد في إثْرِك، ويزيدُ من خزيه واضطرابه، ما قد خلَّفتَهُ، أنتَ، وراءَك، من دِماءِ تضحياتٍ ضَرَّجتَ بها صُخُورَ القُنن التي تسلَّقتَها، ومن عَرَقِ جُهدٍ رَوَيتَ به المسالكَ الوَعرةَ التي اخترْتَ انتهاجَها طائعًا،

دِماءٍ وعَرَقٍ تَجْأَرُ بِتَحَدٍّ هادرٍ، علَّه يستَنهض هِمَمًا بكرًا مُتَوثّبةً، يَضِجُّ في حناياها نداءُ البُطولة، ويَهزّها التَّوقُ إلى نَشوةِ أَنسام القِمَم الضّاربةِ في اللاَّنهاية، هِمَمًا خليقةً بتخليدِك، وتكريمِك، باحتذاءِ قُدوَتكَ الفَذَّة.

وكَم قد علَّمتَني، وكم قد كشفتَ لي من حُجُبٍ عن أَسرارٍ سنيَّةٍ في الحقّ – أَجمل أسماء الله – وفي الحبّ الغامر المُشرَع على الكَونِ والكائناتِ، وفي التَّسامحِ والتآخي بين البَشر أجمعين، أيًّا كانت أَجناسُهم وأَديانُهم!

وأَيَّ وجهٍ قشيبٍ لديني قد أَرَيتَني، بعَيشِك روحَه السامية في أَمانةٍ وبسالةٍ مُدهِشتَين!

لن أَقولَ وَداعًا،

فحضورُك في القَلب والخاطر يتجدَّدُ مع كُلِّ خَلجةٍ، ويتألَّق في ثنايا كُلِّ تأمُّلٍ،

إنّه حُضور الخِلِّ الوفيِّ المؤانِس،

والرُّؤيا المتوهّجةِ السَّاحرة،

والقُدوةِ الساميةِ المُستَفِزَّة المُقلقة.

حضورُك الدائم رفدُ عزيمةٍ،

وإشراقةُ أَمَلٍ،

ومِهمازُ تحدٍّ لا يفتُر.

ملحق

شذراتٌ من أقوال غاندي

تمهيد

ما أَغزرَ ما كتَب غاندي! فكتاباتُه تُغطّي مُجَلَّداتٍ على قَدرٍ مُذهِلٍ من الكثافة، مع أَنَّه لم يكن كاتبًا محترفًا، ولا كاتبًا هاويًا، بل كانت الكتابة هي إحدى وسائل عمله المُجدية، ولا سيَّمَا أَنَّه تولّى، طيلةَ سنواتٍ، رئاسة تحرير بضعِ صُحف، وفي كلّ يومٍ، كان يُودع افتتاحيّاتِها تعاليمَه، ومعتقداته، وزُبدةَ تجاربه، ويبُثّ من خلالها إرشاداتِه لناشدي الحقيقة، والساتياغراها والأهيمسا، وخُطَط كفاحه السياسيّ.

هذا، فضلاً عن مراسلاته الكثيفة مع مختلف أنماط البشر، من عظماء العالَم حتّى أَبسط مواطنيه، والتي كان يوليها، جميعها، قَدرًا متساويًا من العناية والاهتمام، وفضلاً عن أحاديثه اليوميّة التي غالبًا ما دُوّنَتْ، وباتتْ مرجعًا ثمينًا، حافلاً، يعُبُّ من مَعِينه الثرِّ كلُّ ساعٍ إلى الكمال.

من هذه الكتابات المتفرّقة، المبعثرة الغزيرة، والقَصيرة، اقتطف كثيرون من مُحبّي غاندي وأتباعه مُنتَخَباتٍ نشروا العديد منها، في شتّى اللغات، وقد جَهِدنا، بدورنا، في جمع أضاميم منها، بَوَّبناها وِفقًا لمضامينها وما تتناوله من مواضيع، وجهدنا، ما استطعنا، في الحفاظ على بساطةِ أسلوبها ووضوحه، علّها تغدو للقارئ العربيّ مَنهلاً عذبًا، وزادًا للفكر والقلب، ونبراسًا يُنير درب الحياة.

يقول نهرو إنّ كتابات غاندي لا توفيه حقّه، وهي عاجزةٌ عن عَكسِ غنى شخصيّته الفذّة وسحرها.

وغاندي نفسُه قد كتب: "**ينبغي أن تُحرَقَ جميعُ كتاباتي مع جسدي. فما سيدوم هو ما فَعَلتُ، لا ما قلتُ وكتبتُ**". وكتب أيضًا: "**من الأفضل أن ندع سيرتَنا لا أَقوالنا تتكلّم عنّا**".

وربّمَا عَجزَتْ، حقًّا، كتاباتُ غاندي عن عَكسِ سِحر شخصيّته الفريد، ولكن من المُحَقّق أنَّ بين سيرته وأقواله وكتاباته لم تَقُم، يومًا، حواجز، ولم يكن، قطُّ، تبايُن؛ لا بل إنّ ميزة تلك الأقوال والكتابات، فضلاً عن واقعيّتها المُقترنة بطمــوح متوثّــبٍ، وعن صدقها السحيق المُتَمثّل في تطابُقٍ مُطلَقٍ بينها وبين سلوك صــاحبها، وعــن بساطتها الأَخّاذة، تلك البساطة التي هي سِمةُ كلّ قولٍ عظيمٍ تُلهمه الــسماء، ميزتُهــا الكبرى تكمُن في أَنَّها تُنير سيرة المهاتما الفذّة، وتكتَنِف خفايا ذهنه بأضواءَ ســنيّةٍ. وقد قيلَ، عن حقٍّ، أنَّ كلَّ ما كتبه غاندي، على غزارته، ليس سوى حــواشٍ علــى السِّفر الكبير الذي هو حياتُه.

ولا بِدعَ في ذلك، فقد كان فكرُ غاندي على علاقةٍ وثيقةِ الصِّلة بالعمل، وكــان عملُه الدائب يستفزّ فكرَه، ويستدعي إبداعه؛ ومن ثمّ، فليست خــواطرُه نتــاجَ جُهــدٍ ذهنيٍّ صِرف، ولا استنتاجاتٍ فلسفيّةً مجرَّدةً، بل هي ثمرة اختباراتٍ عاشها بعُمــقٍ وصِدقٍ، وقناعاتٍ اكتسبها بالجهد النَّاصب، المقترِن بمحاسبةٍ للنفس صارمةٍ، وتأمُّــلٍ في الكون وخالقه ومخلوقاته متواصلٍ. وبالتالي، فهي تنبثــق مــن نبــعٍ، صــافيةً، واضحةً، بسيطةً، متفجّرةً، متحدّيةً، فضلاً عن كونها انعكاسًا أمينًا لحياته وسلوكه.

إنَّ، ثمّةَ، ما هو أَعظم من المنطق والفصاحة، وأكثرُ صوابًا من أَســلم تفكيــرٍ، إلاّ وهو البساطة النابعة من خِبرةٍ نفسيّةٍ عميقةٍ مُعاشةٍ، ومن حَدسٍ نيّرٍ يستمدّ بصيرته مــن الانغماسِ في حضور الله الغامر، ومن الغَوص في مُحيط الحقيقة الخالدة الأَصيلة.

وخواطر غاندي تتميّز بتلك البساطة الشفّافة، وبنمطٍ فذٍّ من البلاغة يُزري بالبلاغة.

وبعدُ، فلا يسوغُ الإقبالُ على هذه الخواطر إقبالَ قارئٍ مستَعجلٍ، يمرُّ بالسُّطور لمامًا، وهو على عَجَلةٍ من أَمر تقليب الصفحات، فالإفادة منها تقتضي معاملتها على نحو ما يعامل فنّانٌ وردةً فوّاحة العبير، يستنشقها بتأنٍّ ووَجَلٍ، ويدَعُ عطرَها يتــسلّل وئيدًا إلى أعماق رئتَيه، قبل أن يستنشقها من جديدٍ؛ أو كما يعامِلُ ذوّاقةٌ شرابًا لذيــذًا

يجتزئ منه برشَفاتٍ خفيفةٍ متعاقبةٍ، ويهب نفسَه فُسحةَ التمتّع بمذاقه العذب. بمثلِ هذا التعامُل تغدو هذه الخواطر بُذورًا تستقرّ في طوايا الوِجدان، وتنمو، وتُثمر، وخميرةً تُنضِج عجينَ النفوس.

الله

- إنّ اللهَ قُدرَةٌ سرِيَّةٌ تَندُّ عن الوَصف، تَملأ كلَّ شَيءٍ. أُحِسُّ به، وإن عَجِزتُ عن رُؤيَته. هذه القُدرةُ غيرُ المرئيَّة التي تُشيعُ الشُّعورَ بها، تستعصي على كلِّ تَجربةٍ حِسِّيّةٍ، لأَنَّها تَختلفُ عن كُلِّ ما تُلِمُّ به الحواسُّ، إنَّها تتسامى فوقَ الأحاسِيس...

  في حين أنَّ كلَّ شيءٍ من حَولي يتبدّلُ باستمرارٍ، ويموتُ باستمرارٍ، هناك، تحتَ جميع تلك التَبَدُّلات، قُدرةٌ حيَّةٌ لا تتغيّر، وتُبقي كلَّ شيءٍ مُتماسكًا؛ تَخلُقُ وتُغني، وتخلُق من جديدٍ؛ هذه القُدرةُ الخالقةُ هي الله...

  وسطَ الموتِ تستمرُّ الحياة، ووَسط الكَذِب تستمرُّ الحقيقة، ووَسط الظُّلماتِ يستمرّ النُّور. من ذلك أستنتجُ أَنَّ الله هو الحياة، والحقُّ، والحبُّ، إنَّه الحبُّ، إنَّه الخير الأسمى.

- في نَظَري، الله هو حقيقةٌ وحبٌّ؛ إنَّه الخيرُ ومَنبعُ الأَخلاق. مَعَه يستحيل كلُّ خَوفٍ، ومنه يَنبَعِثُ النورُ والحياةُ، ومعَ ذلك، فهو فوقَ النُّورِ والحياة، وأبعدُ منهما. إنَّه ضمير الأخلاق، بل هو إلحاد المُلحِد... يسمو فوقَ الكلامِ والعقل. إنَّه إلهٌ شخصيٌّ لمن يرومون حضورَه الشخصيّ؛ إنَّه متجسّدٌ لمن يَنشُدون حضورَه المحسوس؛ إنَّه الجَوهرُ الأطهر؛ هو للمؤمنين به: الكائنُ، وهو، للجميع، كلّ شيءٍ؛ إنَّه حليمٌ، صَبورٌ، ولكنَّه أيضًا رهيبٌ. ليس الجهلُ، لديه، عُذرًا، غير أَنَّه، في آنٍ معًا، دائمُ الرَّحمة، إذ يُتيح لنا، أَبدًا، فُرصَةَ التَّوبة. إنَّه أكثرُ مَنْ عَرَفَتِ الدُّنيا ديمقراطيَّةً، إذ إنَّه لا يُمَارِسُ أدنى ضَغطٍ على حُرِّيَّتنا، كي يُتيح لنا اختيارًا حرًّا بين الخَير والشرّ...

- يُمكنُ تعريفُ اللهِ بصِيغٍ تَفوق الحَصرَ، لأَنَّ الله يتجلّى في صُوَرٍ لا حدودَ لها.

- يجب أن يُنظرَ إلى وُجودِ الله على أنَّه حقيقةٌ راسخةٌ، أكثرَ من وُجود الشمس.
- الله موجودٌ لأَنَّ الحقيقةَ موجودةٌ.
- قد تموتُ البشريّةُ إن لم يتجلَّ الله في الإنسان في وقتٍ ما، ومكانٍ ما.
- إنّه لأَهونُ عليّ أن أعيش محرومًا من الهواء والماء من أن أستغني عن وجود الله. وإن ما اقتُلِعَت منّي العينان فسأَظَلّ على قيد الحياة. أمّا إذا قوي أحدٌ على هدم إيمَاني، فهو، بذلك، يميتني في الحال.
- إنَّ ما أَشهدُه، كلَّ يومٍ، من آلامٍ وفَشَلٍ وإحباطٍ، كَفيلٌ بأن يَهويَ بي إلى أخطَرِ دَرَكات الجُنون، لولا حضورُ الله.
- إنَّني أعاني عذابًا متَّصلاً، لأَنَّني ما زلتُ بَعيدًا عَمَّن هو، في يقيني، سَيِّد كلِّ نَسمةٍ من حياتي، والذي أنا نابعٌ منه. إنّني أُدركُ أَنَّ أَهوائي الشرّيرة هي التي تُقصيني عنه، ومع ذلك، لستُ أقوى عنه فِكاكًا.
- إنَّ هَدَفَ الإنسانِ الأسمى هو رؤيةُ الله، وعلى جميع أَوجُهِ نشاطِه السِّياسيَّةِ والاجتماعيّةِ أو الدينيّة، أَن تُنَسَّق وِفقًا لهذا الهدَف. ويَتَحتَّمُ عليه، بشكلٍ خاصٍّ، تكريسُ ذاته لخدمة الآخرين، إذ إنَّ الذريعةَ الوحيدةَ للعثور على الله هي اكتشافُه في خليقَتِه، والاندماج بها، ولا يتحقَّق ذلك إلاّ بِبَذل الذَّات في خدمةِ الجميع، بَدءًا بأبناء الوطن. إنّني ذَرّةٌ من كلِّ جمٍّ، ولن أَجدَ الله خارجَ البشريّة. مُواطِنيّ هم أدنى القريبين منِّي، وهم يُعانونَ الإهمالِ، والفَقر واليَأس، ممّا يُحتِّم عليَّ استخدامَ كلِّ وسيلةٍ لمساعدتهم.

لو كنتُ واثقًا من وجود الله في أحد كهوف الهيمالايا، لوافَيتُهُ في الحال، ولكنَّني أَعلَمُ أَن لا وجودَ له إلاّ في قلبِ البَشَر... إنَّني أتطلّع إلى معرفة الملايين من إخواني البَشَر، وإلى قضاءِ كلِّ ساعاتِ نهاري معَهُم، فهم هَمِّي الأوّلُ والأَخير؛ ولستُ أعترفُ بإلهٍ غيرِ ذاك الذي أَجِدُه في قلوبِ أولئك الملايين من البَشَر الصامتين.

قد لا نعرِفُ الله، ولكنَّنا نعرف خليقتَه. وخدمةُ خليقة الله، هي خدمةُ الله.

- إنَّني أحِبُّ مُواطنيّ، وجميعَ البَشَر الآخرين حُبًّا مُتَساويًا، لأَنَّ الله يَقطُنُ في قلب كلّ إنسانٍ، وأَنا أَصبو إلى أسمى مستوًى من الحياة، إلى خدمةِ البشريّة.
- العالَمُ مرآةٌ يطيبُ لله رؤيةُ انعكاسِ مَجدِهِ فيها.
- ليس الله في السَّماءِ، ولا في جَهنّم، بل في كلِّ واحدٍ منّا. وبالتَّالي فإِنَّ تكريسَ ذاتي لخِدمة البشريَّة سيؤَهّلني، يومًا، لرُؤية الله.
- لن تبدوَ لي أَيَّةُ تَضحيةٍ جسيمةً، إن كان من شأنها تأهيلي لرُؤيَةِ الله وَجهًا لوَجه. إنَّ نشاطي كلَّه، سواءً سُمِّيَ اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو إنسانيًّا، أو أخلاقيًّا، إنَّما هو يَستَهدفُ هذه الغاية. وإذ أدرِكُ أنَّ مقابلةَ الله تَتسنّى في أَشدّ خلائقه ضِعَةً، أكثرَ ممَّا هي تتسنّى لدى ذَوي السَّطوَةِ والنُّفوذِ والوَجَاهة، أجهَدُ في مُشاركة الوضيعين ظروفَهم، ولن يَتمّ لي ذلك، إلاّ بتكريس ذاتي لخدمتهم. عن ذلك يَنبعُ اندفاعي لخِدمَة الطبَقاتِ المُعدَمة، وَإِنّني لن أقوى على أَداءِ هذه الخِدمة ما لم أَقتَحِم مُعتَرَكَ السِّياسة، وأَجِد نفسي في أولئك المسحوقين.

  أنا لستُ سيّدًا، بل إنَّني مُناضلٌ تائهٌ، وخادمٌ وضيعٌ للهند، وبالتَّالي للإنسانيّة.
- لا يستطيع المرءُ إدراكَ الله، ما لم يَكُن طاهرَ القلب؛ غَيرَ أنَّ السَّيرَ على دَرب التطهُّر شاقٌّ، والتصعيدَ فيه قاسٍ؛ وإنَّ بلوغَ طُهْرٍ كاملٍ يقتضي التحرُّرَ من كلّ ما يَكمُنُ في الخواطرِ والأَقوالِ والأعمال، كما يَقتَضي تساميًا فوقَ تصارع قِوى البُغض والحبّ، والمَيل والنُّفور. إنَّ القضاءَ على الأَهواء الكمينةِ يبدو لي أَشدَّ قَسوةً من غَزوِ العالَم عسكريًّا بقوةِ السِّلاح.

  إنَّ طَريقَ التَّصعيدِ مُضنٍ، إلاّ أَنَّني أَجِدُ مُتعةً في مواجَهةِ صِعابِ المسير، فكُلُّ خُطوةٍ تُوليني مَزيدًا من المنِعَة، وتؤَهّلني أكثرَ لاجتيازِ الخُطوةِ التَّالية.
- إنَّني أدرِكُ أَنَّني لن أَعرفَ الله أَبدًا، إن أنا رَفَضتُ مكافَحة الشرّ، والمُضِيَّ في هذا الكفاحِ حتّى التضحيةِ بحياتي. إنَّ تجربتي المتواضِعة، بكلِّ ما يَعتَورُها من حدودٍ، تُرسّخني في هذا الإيمَان، وإنَّني بقَدرِ ما أجهَدُ لكي أَكونَ طاهرًا، بنَفس القَدَر سأشعُر أَنَّني إلى الله أقرب.

- إنَّ الموسيقى الإلهيَّة لا تنفكُّ تُردِّد نَغمَاتِها في داخِلنا، غير أَنَّ حياةَ الحِسِّ مِن حِدَّةِ الضَّجيجِ، بحيثُ تُغرِقُ ذلك النَّغَمَ الرقيقَ الذي يختلفُ عن كلِّ ما يستطيعُ السَّمعُ تمييزَه، ويسمو فَوقَ كلِّ واقعٍ محسوسٍ.
- كي نبحَثَ عن الله، لا حاجةَ بنا للحجِّ إلى أَماكنَ قصيَّةٍ، أَو لإِشعالِ المصابيحِ، وإحراقِ البَخُور، وطِلاء صُوَر الآلهة باللَّون القِرمِزيِّ، فالله، في الواقع، كامنٌ في أَغوار قلوبنا، وإِذا ما أَفلَحنا في إبطال إِحساس الجَسَد، تسنَّى لنا رؤيتُه وجهًا لِوَجهٍ.
- بلوغُ الله مُستحيلٌ من غَيرِ تَنَكُّبٍ تامٍّ عن الرَّغبةِ الجِنسيّة.
- عبادةُ البَشَر تُفقِدُكَ رُؤيةَ الله.
- كلُّ شيءٍ يخُصُّ الله، ولا شيءَ يَخُصُّنا، بل نحن أنفسُنا مُلكُ الله؛ فعلامَ القَلَق؟
- إنَّ الله يَعمَلُ بلا انقطاعٍ، فإذا ما رُمنا أن نَخدُمَه، ونتّحدَ به، كانَ علينا أن نعمَلَ، على غرارِه، من غَيرِ كَلَلٍ. هذا النَّشاطُ المتَّصل هو، في الواقع، الرَّاحةُ الحقّة. قد تنعمُ قطرةُ الماء التي انفَصَلت عن المُحيطِ بفَترةِ ركودٍ مؤَقَّتَةٍ، أَمّا القَطرةُ التي ما انفكَّت مُمتَزِجَةً بالمُحيط، فلا راحةَ لها. وكذلكَ الأمرُ في ما يتعلَّقُ بنا. فحالما نحن نتَّحِدُ بالمُحيطِ المُتمثّل بالله، لا يبقى للرَّاحةِ مكانٌ في حياتنا، ونحن، في الواقع، لا نَعُود في حاجةٍ إلى راحةٍ، بل يغدو نومُنا نفسُه عَمَلاً، إذ إنَّنا نرقُد مع فِكرة الله تَعتَمِل في أَفئِدَتنا. هذا الدَّأبُ المُتَواصِلُ، يُمثِّل الراحةَ، وهذا التحرُّكُ، بلا انقطاعٍ، يَحمِل المفتاحَ إلى سلامٍ لا يُوصَف.
- كلّما ازدادَ النِّضالُ ضَراوةً، تَكاثَفَ شُعوري بمُشَارَكةِ الله، وترسَّخَ إيمَاني في فَيض نعمتِه؛ وطالما استمرَّت الحالُ على هذا النحوِ، تيقّنتُ أَنّني في الطّريقِ السَّويّ.
- عليَّ السيرُ مع الله، ولا دليلَ لي سواه. إنَّه إلهٌ غيورٌ، لا يرضى أَن يُشاطِرَهُ سُلطتَه أَحدٌ غيرُه؛ وبالتّالي يَتحتَّم علينا أن نَمثُلَ أمامَه، بكُلِّ هَوانِنا، مُصفِري اليدَين، وفي استِسلامٍ تامٍّ، وهُوَ، حينئذٍ، سَيَهبُنا القُدرَةَ على الصُّمودِ في وَجهِ العالَم أجمع، وسيَقِينا من كُلِ شرٍّ.

- مَن كانَ مُنغَمِسًا بكُلِّيته في الله، استَسْلَمَ له، غَيرَ عابئٍ بالفَشَل أو بالنَّجاح، بل يُقَدِّم له كُلَّ شيءٍ؛ وبما أنَّني لم أبلغُ، بَعدُ، مثلَ هذا الوضعِ، أستخلصُ أَنَّ جُهودي لم تكُن كافيةً.
- إن أنا انحنيتُ خاضعًا أمام إبليس، فعليّ إلاّ أتوقَّع، من بعدُ، شيئًا ممّا يَهبُه الله عابديه.
- إن كنّا لا نخشى من الناسِ شَيئًا، ولا نَبتغي سوى حقيقةِ الله، فإنَّني واثقٌ من أنَّنا نستطيعُ أن نُصبحَ، جميعُنا، رُسُلَهُ.
- ليس لديَّ أيُّ وحيٍ خاصٍّ عن إرادةِ الله، ولكنَّني مُتَيَقِّنٌ، في أعماقي، مِن أَنَّه يَكشِفُ ذاتَه، يوميًّا، لِكُلِّ واحدٍ منّا، إلاّ أَنَّنا نَسُدُّ آذانَنا لكيلا نَسمع "الصوتَ الخافتَ الهادئ"؛ ونُطبق عيونَنا لكيلا نُبصِرَ أَمامَنا "عمودَ النار".

  إنّني أَلمَسُ وُجودَه المالئ الكُلّ

- إذا خَشينا الله، لم نَعُد نخشى البَشَر.
- حتّى المُلحدون الذين ادّعوا عَدَمَ الإيمَانِ بالله، آمنوا بوُجود الحقيقة، وهم، بالتَّالي، قد قاموا، بِشَعوذةٍ فَحَسبُ، فهم لم يُطلقوا على الله اسمًا جديدًا، بل اسمًا مُختلِفًا، إذ إنَّ أسماءَ الله كثيرةٌ جدًّا، ولكنَّ أنبلَها هو الحقيقة.
- لله أسلوبُه الخاصُّ في انتقاء أَدوَاته.
- لقد افتدى يسوعُ خطايا أولئك الذين تقبَّلوا تعليمَه، واتَّخذوه قُدوةً لا عَيبَ فيها، غَيرَ أنّ ذلك المثالَ ظلَّ حَرفًا ميتًا للَّذينَ لم يُحاوِلوا يَومًا تغييرَ مجرى حياتِهم.
- إنَّ الله لم يَحمِل صليبَه، مرَّةً واحدةً، وإلى الأبد، لألفٍ وتسع مئةِ سنةٍ خَلَت، بل هو، اليومَ أيضًا، وفي كلِّ يومٍ، يموتُ ويَقوم. إنَّها لتَعزيةٌ باهتَةٌ أن نكونَ أَتباعَ إلهٍ تاريخيٍّ ماتَ مُنذُ أَلفي سنةٍ. إذن، إيَّاكُم أن تُبَشِّروا بإلهِ حِقبةٍ مُحدَّدةٍ، بل بَشّروا بإلهٍ يعيشُ اليومَ في داخلنا.
- حيثُ الحبُّ فهناكَ الله أيضًا.

- إنَّ الله يُديرُ ظَهرَه لِمَن يتخاصمونَ في ما بينَهم.
- لا يَستجيب الله أبدًا لدُعاءِ مُتَجبّرٍ صَلِفٍ أَو لِصَلاةٍ من يُساوِمونه.
- لا أَعرفُ خطيئةً أفدحَ من ظُلم البريءَ باسم الله.

الصّلاة

- الصَّلاةُ هي مِفتاحُ الصَّباحِ، ومِزلاجُ المساءِ.
- الصَّلاةُ تُذَكّرنا بأن لا حولَ لنا في مَعزلٍ عن عَونه تعالى؛ فما مِن جُهدٍ يكتَمِلُ من غيرِ صَلاةٍ، ومِن غَيرِ اعترافٍ صريحٍ بأنَّ أَفضلَ محاولةٍ بَشريّة غَيرُ مُجديةٍ، إن لم تَدعَمها بَرَكةُ الرَّبّ. الصَّلاةُ دَعوةٌ إلى التواضُعِ، وإلى تطهيرِ النَّفس، وإلى البحثِ عن الذَّات في الأَعماق.
- يُصبح الذِّهنُ قَذِرًا، ما لم يتطهّر القلبُ بالصلاة.
- لا يخامِرُني أَدنى رَيبٍ أنَّ الصلاةَ وسيلةٌ مُحقَّقةُ الجَدوى لتطهير القلب منَ الأَهواء، ولكن عليها، في سبيل ذلك، أن تقتَرِن بقَدرٍ جمٍّ من التواضُع.
- لا يَسعُ المرءَ استعطافُ الله، في حين أنَّ اَلْكِبْرِيَاء تُفعِم نفسَه، بل لا بُدَّ لهُ، قَبلَ ذلك، منَ الاعترافِ بعَجزِه.
- لن نقوى على اكتناهِ الله، ولا على مُمارسَةِ الصَّلاةِ، ما لم نتَحوَّل إلى صِفر.
- التَّوبةُ الحقّةُ هي شَرطٌ مُسبَقٌ وجَوهريٌّ للصَّلاة.
- ليست الصَّلاةُ سُؤالاً، بل هي تَوقٌ في النَّفس، وإقرارُ الإنسانِ اليوميُّ بوَهَنِه.
- إنَّ المعرفةَ الإلهيّة لا تُستَعارُ من الكتب، بل يُحقِّقُها المرءُ في ذاته
- أولئك الذين يَغمُرهم حُضورُ الله في داخلِهم، يغدو العَمَلُ لهم صلاةً، وتغدو حياتُهم صلاةً مُستمرَّةً، وفعلَ عِبادَةٍ.
- ليست الصَّلاةُ أُلْهِيةَ امرأَةٍ عَجُوزٍ كَسلى، بل هي، إذا ما أُحسِنَ إدراكُها واستخدامُها، أكثرُ وسائلِ العَمَل جدوى.

- بِفَضلِ الصَّلاة، ودَأبٍ طويلٍ متَّصلٍ، عالَجتُ به ذاتي، ما عُدتُ أُبغض أَحَداً إطلاقًا.
- مع أَنّني غالبًا ما جابَهتُ أوضاعًا كانت، على المستوى السّياسيّ، تَبعَثُ على القُنوط، إلاّ أنَّني لم أفتَقِد، يومًا، الشعورَ بالسَّلام الذي يَسكُن في داخلي؛ وقد غبطَ الكثيرون، فيَّ، سكينةَ النَّفس تلك، التي لا تفسيرَ لها سوى الصَّلاة. إنَّني لستُ عالِمًا، ولكنّني أدّعي، بتواضُعٍ، أنَّني رجُل صَلاةٍ.
- من لم يَستَنِد على مِرساةِ الصَّلاة، كانَ ضحيَّةَ قِوى الظُّلمَة. إنَّ رَجُل الصَّلاةِ يعيشُ في سَلامٍ مع نفسِه ومعَ العالَم كلّه. ومن عُني بشؤونِ العالَم، وهو خالٍ من قَلبٍ دائب على الصَّلاة، كان تعيسًا، وجَعَلَ العالَم أيضًا تعيسًا. الصلاةُ هي الوسيلةُ الوحيدةُ لتَوفير التَّناغُم والسَّلامِ والراحةِ لأَعمالنا اليَوميّة.
- لقد أَنقَذَتِ الصَّلاةُ حياتي، فلولا أَزرُها، لكُنتُ، منذُ زمنٍ بعيدٍ، فقدتُ عقلي. كنتُ أجتازُ، آنذَاك، أقسى مراحلِ حياتي العامَّةِ والخاصّة، التي أوقَعَتني، لفترةٍ ما، في يأسٍ حقيقيٍّ. ولئن أنا تغلَّبتُ على ذلك اليأس، فبفضل الصَّلاة. لم أكن، آنذاك، أُحِلُّ الصَّلاة، في حياتي، منزلةً كمَنزِلَة الحقيقة، وإنَّما لجأتُ إلى الصَّلاة بدافع الحاجة، إذ كان يَتعذّر عليَّ أن أَسعدَ في معزلٍ عنها. ثمّ، مع مرور الزمَن، تعاظم إيماني بالله، وأَمسَت حاجتي إلى الصَّلاةِ لازبةً، لا تُقاوَم؛ ومنذئذٍ باتتِ الحياةُ بلا صلاةٍ، تبدو لي لا سِحرَ فيها ولا فائدة.

وأَخيرًا حانَ وقتٌ اتَّضح لي فيه أن لا غنى للنَّفس عن الصلاةِ، كما أنَّه لا غنى للجِسم عن الطَّعام، لا بل إنَّ الصَّلاةَ أَخطرُ شأنًا، إذ يتَحتَّم علينا، أَحيانًا، إخضاعُ الجسَد للصَّوم، من أجل سلامته، أمّا تصويمُ النَّفسِ عن الصَّلاة، فأمرٌ غيرُ مطروحٍ، إذ إنَّ النَّفسَ لا تُصيب، أبدًا، من الصَّلاة، كفايتَها.

- الصَّومُ هو أنقى صلاةٍ، صلاةٍ تُولي قُوّةً لا حدودَ لها، تبدو، حيالَها، طاقةُ القُنبلةِ الذَّريَّةِ لا شيءَ.
- الصلاةُ الفارغة نُحاسٌ يَرنُّ، أو صَنْجٌ يطنّ.

- أسلوبُ الصَّلاة ليس بذي شأنٍ، ففي هذا المجال، كلُّ امرئٍ هو شريعةُ ذاتِه، ومعَ ذلك فثمَّةَ معالِمُ محدّدةٌ يُولي الاهتداءُ بها، وعَدَمُ الانحرافِ عنها، سلامةً أكبر، إذ قد رَسمَها مُعَلّمو الماضي. تلك هي شهادتي الشخصيَّة، وعلى كلّ فردٍ أن يتحقّق أنَّ صلاتَه اليوميّة تؤتي حياتَه قشابةً وجدّةً.
- سرُّ الصَّلاة الجماعيّة هو ما ينبعث من تأثيرٍ صامتٍ من أحَدِ المُصلّين إلى سواه، فيُؤازِر الجميعَ في تطلُّعهم الرّوحيّ.
- إنَّه لَمِنَ الأَفضَل أَن يَضَعَ المرءُ قلبَه في الصَّلاةِ، من غير أن يَجِدَ ألفاظًا للتَّعبير عنها، من أَن يَجِدَ ألفاظًا للصَّلاة لا يُودعها قلبَه. صلاةٌ في القلب، بلا كلامٍ، خيرٌ من صلاةٍ بالكَلامِ، والقلبُ عنها غائِبٌ.

الصَّوت الدّاخِليّ

- إنّ ما أَعرِضُه عَلَيكُم ليس نِتاجَ فِكري، بل هو يَنبعُ من أَعماقي حيثُ يسكُنُ العَليُّ، ولم أَظفرْ به إلاّ بعدَ معاناةِ آلام ولادةٍ حقّةٍ.

  كنتُ أَظُنُّ أنَّ الله لا شكلَ له، ولكنّني سمعتُ صوتًا جَليًّا، لا يقاوَم، يُكلّمُني على نحوٍ مباشَرٍ، ولم أَكُن أَحلمُ. لقد واجهتُ، أوّلَ الأمر، صِراعًا داخليًّا، ولكن عندما انتهى هذا الصراعُ، غمرتني السَّعادة... لقد كان الصوتُ أكثرَ واقعيّةً من وُجودي عينه.
- منذ زمَنٍ بعيدٍ روَّضتُ نفسي على الاهتداء بالصَّوتِ الداخليّ، ووجدتُ في الانصياع له سعادتي، أمّا مقاومتُه فعسيرةٌ عليّ ومؤلمةٌ.
- الطاغوتُ الوحيدُ، في هذا العالَم، الذي أَرضَخُ لسلطانِه هو "الصوتُ الخافِتُ الهادئ" الذي يَهمِس في داخلي.
- إنّ صوتي الداخليَّ لا يُضَلّلُني أَبدًا. إنَّه، الآن، يهتف: "اصمُد، ولو كنتَ وحيدًا، وتَأَلَّبَ عليكَ الجميعُ. سَدِّد بَصرَك، من غير وَجَلٍ، إلى عُيونهم، ولو كانت مُحتقِنَةً بالدِّماء، ولا تَجزَع، بل ثِقْ بصَوتِ قلبِك الخافِتِ الذي يأمُرُك

بالتَّأَهّب للتخلّي عن الأَصدقاء والزَّوجةِ، والجميعِ، وعن كلِّ شـــيءٍ، وتَهيّـــأ للموتِ في سبيل الشهادة من أجل ما يُضفي على حياتِك معنًى".

- الشهادةُ الوحيدةُ التي أحتاجُ إليها هي شهادةُ الصَّوتِ الدَّاخليّ.
- على كُلِّ فردٍ أن يَظَلَّ مُنصتًا إلى صَوته الدَّاخليِّ الرَّقيقِ، وعاملاً وِفق إيحائه. ومَن افتَقَرَ إلى رهافَة السَّمع، عليه أن يَعمل بأحسنَ ما يـــستطيعُ، ولكـــن لا يَحُقُّ لهُ، في أَيَّةِ حالٍ، تقليدُ الآخرين كالخَروف.
- على كُلِّ فَردٍ أن يعملَ وِفقًا لضميره الخاصّ حتّى لو سفَّهَه الآخـــرون. لقـــد أَكّدت التجربة، في نظري، صِحَّةَ هذا المبدأ، ما جعل الـــشاعرَ يُنـــشِد: "إنَّ دربَ الحبّ يمُرّ عِبر امتحانِ النَّار، ولذا يتحوّلُ عنه الخائفون".
- في مضمار الوِجدان. ليسَ لشريعةِ الأَغلبيّةِ مَكانٌ.

الإيمـــــَان

- ليس جِسمُنا الفاني هو الأَداة التي تُؤَهِّلُنا لرُؤيَةِ الحقِّ الخالـدِ وجهًـا لِوَجـهٍ. ولذلك لا مَناصَ لنا من الاعتمادِ على الإيمَان.
- يَتَحقَّقُ الإِيمانُ عندما يتخلَّى المرءُ تَخَلِّيًا تامًّا عن كِبريـــاءَ الفِكـــر، ويستَـــسلِم بكُلّيّته للمشيئة الإلهيَّة.
- إنَّ الإيمَانَ لم يوجد لكي نَتكلَّم عنه، بل لكي نحياه، وحينئذٍ سينتَشِرُ تِلقائيًّا.
- لم يَتَحقّق، يومًا، شيءٌ عظيمٌ في هذا العالم، في معزلٍ عن إيمَانٍ حيٍّ.
- الإيمانُ هو الذي يقودُنا، عبرَ المُحيطات الهائجة؛ هو الـــذي يَنقُـــل الجِبَـــالَ، وينتقل بنا إلى الجانِبِ الآخر من الشَّاطئ؛ وليس هذا الإيمَانُ ســـوى حيـــاةٍ تَغمُرها ثِقَةٌ نيِّرةٌ واعيةٌ بوُجود الله في داخلنا. ومن امتَلَك هـــذا الإيمَـــانَ لا حاجةَ به، بعدُ، إلى أيّ شيءٍ آخر؛ فهو، وإن كانَ عليلَ الجسم، إلاّ أنَّه ســـليمُ الروح، ولا يَهُمّه إن افتقَر حتّى إلى الفِلس الواحِدِ؛ فجميعُ ثرَوات الرُّوحِ قـــد تكدَّسَت فيه.

- هناكَ، حقًّا، مجالاتٌ لا قِبَلَ للعَقل، فيها، على إرشادِنا، ولا مَناصَ لنا من التّسليم للإِيمَان كي نَقوى على استئناف دَربنا، وإذا ما حَدَثَ ذلك، فالإِيمَانُ لا يعارِضُ العقلَ، بل يتجاوزُه؛ الإيمان ضَربٌ من حِسٍّ سادسٍ، يعمَلُ حيث يَقِف العَقل عاجزًا.
- حيثُ يوجَد النُّورُ، يوجَدُ الظلُّ أيضًا.
- إن كان لديكم إيمانٌ في القَضيَّةِ والوَسائلِ وفي الله، فالشَّمسُ الحارِقَةُ تُصبِحُ لكم بردًا مُنعِشًا.
- أنا لم أرَ الله، ولَستُ أَعرِفُه، ولكِنَّني تَبَيَّنتُ إيمانَ العالَم به، فهذا الإيمانُ، لَهُ من الجُذور الرَّاسِخَةِ ما يجعلُه يرتدي في نَظَري، مِنَ اليَقين، مثلَ ما تَفعَلُه تجربةٌ مباشِرةٌ.
- إنّني مُتَيقِّنٌ من أنَّ جُذورَ الشَّرِّ تَكمُنُ في فُقدانِ الإيمَان بالله الحيِّ. إنَّها لمأساةٌ كبيرةٌ تلكَ التي تُعانيها شعوبٌ تَدَّعي رسالة يسوع الذي تسمّيه أَميرَ السّلام، ومعَ ذلك تُبدي قَدرًا ضئيلاً منَ الإيمان في ممُارسَةِ شريعتِه.
- إنّ فنّ المَوتِ في بسالةٍ وشرَفٍ لا يحتاجُ إلى أيِّ مِرانٍ، سوى إيمانٍ حيٍّ بالله.
- وراءَ كُلِّ كارِثَةٍ مادِّيَّةٍ يكمُنُ قَصدٌ إلهيٌّ.
- لو تحقَّقت جميعُ أحلامِنا لهامَتِ الحياةُ في عالَمٍ من الأَشباح، ولسَادَتِ الأَرضَ فوضَى مُطلَقَةٌ؛ ولذلك شاء الربُّ، في رحمتِه، أن تكونَ إرادتُه هي السائدة على الأَرض.
- العَقلانيُّونَ أناسٌ رائعون، بَيدَ أنَّ العَقلانيّة مَسخٌ مُريعٌ، عندما هي تَدَّعي القُدرةَ على كُلّ شيءٍ. إنَّ إضفاءَ صبِغَةِ القُدرَةِ الكُلِّيَّةِ على العَقل، لا تَقِلُّ شرًّا عن عبادة الأَصنام، مثلَ عِبادَةِ خَشَبةٍ أو حَجَرٍ على أنَّهما الله. أنا لستُ أطالبُ بإِلغاء العَقل، بل أَدعو إلى الاعتراف بمَا هو، في داخلنا، يُقدّس العقلَ.
- وَسط المهانَةِ، وما يُدعى فَشلاً، ووسط صَخَبِ الحياةِ، أَستَطيع الاحتفاظَ بالسَّلام فيّ، بِفَضل إيمانٍ راسخٍ بالله.

- وَحدَه يستطيع اتّخاذَ مَقاصِدَ كبيرةٍ مَن كانَ إيمانُه بالله لا يتَزَعزَعُ، ومن كانت تحدوه مَخافةُ الله.
- بِوسعِكَ ذرٌّ الغُبار في وَجهِ الشَّمس، ولكنَّ ذلكَ لا ينالُ من تألُّقِها.
- لو امتَلكنا ولَو قِسطًا منَ الإيمَانِ ضئيلاً، لرأَينا الله وحبّهُ يُحيقان بنا من كُــلِّ صَوبٍ. بوِسعِ العِلمِ أن يقودَنا في مَراحلَ عَديدةٍ من مَراحل الحياة، إلاّ أنَّــه يَفشَل فَشلاً ذريعًا في ساعةِ الخَطَرِ والتَّجرِبَةِ. حينَذاكَ الإيمانُ وحدَه يُنقِذُ.

الـــدِّين

- لستُ أقصُد بالدِّينِ مجموعةً من الشَّعائرِ والتَّقاليد، بل ما يُمثِّلُ أَصلَ الأديـــانِ كلّها، وما يَضَعُنا مع الخالِق وجهًا لوجهٍ.

أقصُد الدِّينَ الذي... يُحوِّلُ كيانَنا، ويَشُدُّنا برباطٍ لا يَنفَصِمِ إلـــى الحقيقـــةِ الكَامنةِ فينا، والتي تُطهِّر كُلَّ شَيءٍ. إنَّه ذلك الواقعُ الذي لا يمَّحي، القابعُ في حنايا كلِّ إنسانٍ، والذي لن تكون، أَبدًا، كثيرةً التضحياتُ التي يَقتَضيها مِنّـــا، في سبيلِ الكَشفِ عنه كشفًا أَمثلَ. ولن تهدأَ النفسُ حتّى تُـــدرِك تلـــك القـــوّةُ كُنهَها، وكُنهَ خالِقها، والوشائجَ التي تَربِطُ بينَهما.

- الإيمانُ بالله الواحدِ هو حَجَرُ الزّاوية لكلّ دينٍ.
- ينبغي، في الواقِع، أَن يَطبَعَ الدِّينُ بدَمغَتِه كُلَّ عَمَلٍ من أعمالِنـــا، ويجـــبُ إلاّ يعنيَ ذلك أيَّ تَعَصُّبٍ أو تَعنّتٍ، بل الإيمَان بأنّ مبادئَ الأخلاقِ هي التي تقودُ العالَم؛ وإنّ عَجزَنا عن رُؤيةِ ذلك بأعيُننا لا يَمُسُّ من حقيقةِ الأَمرِ في شيءٍ.

هذا الدِّين الذي أَعنيه يسمو فوقَ الهندوسيّة والإسلام والمسيحيّة، الـــخ... إنَّه لا يَحِلُّ محلّها، بل يُقيم بينها الانسجام، ويُسبغُ عليها الحقيقَةَ التي تُميّزها.

الدِّياناتُ تُمثِّلُ طرقًا مُختَلِفةً تتلاقى عَندَ نُقطةٍ واحدةٍ؛ ولا هَـــمَّ إن تبايَنَـــت دُروبُنا، شَرطَ أن نلتَقيَ على بُلوغِ هَدَفٍ واحِدٍ.

في واقع الأَمر، يوجَد من الدِّيانات بقَدر ما يوجَد من أَفـــرادٍ، وســـيظَلُّ

هناكَ من الدِّيانات بقَدر ما يوجدُ من الطَّبائع الخاصّة، والمُناخات المتباينة؛ ولكن، لا وُجود إلاّ لدينٍ أساسيٍّ واحدٍ. وإذا ما نَفَذَ امرُؤٌ إلى قَلب دينه الخاصّ، فإنَّه يكون قد نَفَذَ إلى قَلبِ جميع الدِّياناتِ الأُخرى.

- في نظري، جميعُ ديانات العالَم الكُبرى صحيحةٌ بمِقدارٍ، وصحّتها مُترَجرجةٌ لأَنَّ الناسَ غيرُ كاملين، ويَنقُلونَ نَقائصَهم إلى كلِّ ما يلمسون. وإنَّما الكمالُ صِفةٌ موقوفةٌ على الله وحدَه، دونَ سواه.
- مُفجعٌ ما نشهدُه اليومَ، فالدِّينُ لم يَعُد يعني لنا شيئًا آخرَ سوى بَعضِ القُيودِ المفروضةِ على الطَّعام والشَّراب، أو الشُّعور بالانتماء إلى طائفةٍ عُليا أو دُنيا. دَعوني أَقل لكم أن ليسَ، ثَمَّةَ، أسمَج من هذا الجهل، فتَفوُّقُ فَردٍ ما، لا يَأتيهِ مِن مَحتِدِه، أَوْ مِن وفائِه لنُظُمٍ اجتماعيّةٍ مُعيَّنة؛ بل إنَّ العامِلَ المؤثّرَ الوحيدَ هو السُّلوك؛ فالله لم يَدمغ أَحدًا، عندَ مَولده، بطابعِ التَفوّق أو التَخَلُّف؛ ولئِن أقَرَّ أيُّ نصٍّ بأنَّ إنسانًا ما، هو من طبَقةٍ دُنيا، أو مرذولٌ بسَبَبِ مولده، فمثل هذا النصِّ لا قيمةَ له، وقُبولُه نفيٌ لوُجود الله، الذي هو الحقيقة.
- التَّسامُح بعيدٌ عن التَعَصُّبِ، بُعدَ القُطبِ الشَّماليِّ عَنِ القُطبِ الجَنُوبيِّ؛ ومن شأنِ مَعرِفَةِ الدِّياناتِ مَعرِفةً مُتَعمِّقَةً، هَدمُ جميعِ الحواجز التي تُفرِّق بينَها.

بعدَ تمعُّني في بَحثِ هذا الموضوع، واختباري له اختبارًا عميقًا، خَلصتُ إلى النّتائجَ التَّالية:

١- جميعُ الدّياناتِ صحيحةٌ

٢- ليست أيَّةٌ منها معصومةً عن الخطإ إطلاقًا.

٣- جميعُ الدّيانات الأُخرى تحتلّ في نفسي من المحبّة، مثل ما تَحتَلُّه ديانتي الخاصَّة، وذلكَ بِقدرِ ما يتوجَّب عليّ أن أحبّ قريبي مثلَ حبّي لأهلي. إنّني أُجِلُّ عقيدةَ الآخرين، بقَدرِ ما أجِلُّ عقيدتي. ومن ثَمَّ فإنّ أَمرَ ارتدادي (إلى ديانةٍ أُخرى) غيرُ مطروحٍ على بِساطِ البَحث.

- مَن نَفَذَ إلى صميم ديانته الخاصَّة، فقد نَفَذَ إلى قلبِ جميع الدِّيانات الأُخرى.

- التعصُّبُ هو إنكارٌ لكلِّ دينٍ.
- الذَّود عن دِينٍ ما يَتمُّ بنَقاء أتباعه، وبِفعالِهِم الصَّالحة، ولا يَتمُّ، مطلَقًا، بمجادَلة أتباع المذاهب الأُخرى.
- لا هَمَّ إن أنتَ اعتَنَقتَ هذا الدِّين أو ذاكَ. ما سيقوله الله، وما يريدنا أن نَقولَه، ليسَ ذلك الذي نُعلِنُ عنه بشِفاهِنا، بل ما نُؤمنُ به في قُلوبِنا.
- عِندَما يزولُ الأَساسُ الأَخلاقيُّ، يزولُ الدِّينُ نَفسُه، فليسَ بِوسعِ الدّين إزاحـــةُ الأخلاقِ، والحلولُ مَحلَّها، وليسَ بوِسعِ إنسانٍ، مثلاً، أن يعيشَ فـــي النِّفـــاقِ والظُّلم والمُجون، ويَدّعي، في نَفس الآن، أنَّ الله معه.
- ينبغي إلاّ يُحكَمَ على دينٍ ما، من خلال أَسوأ نَماذج أتباعه، بل مـــن خـــلالِ أَفضَل ما أَنتَجَ.
- إنّه منافٍ للدِّين إضفاءُ طابعٍ دينيٍّ على عاداتٍ وحشيّةٍ.
- الخِدمَةُ التي لا تنطوي على أيّ أثَرٍ لمحبّةِ الذَّات هي الدِّينُ الأَسمى.
- إنّني أَرى أنَّ حياةً من غَير دينٍ، هي حياةٌ من غَيرِ مبدإٍ، وأنَّ حياةً من غَيـــرِ مَبدإٍ تُحاكي سَفينةً من غَيرِ دَفّةٍ.
- الضَّجيجُ ليسَ دِينًا، وليس دِينًا، أيضًا، العِلمُ الواسِعُ المُختَزَنُ في عَقلٍ متّـــسعٍ، بل إنّ مَقرّ الدِّين هو القلبُ، وعلينا، نحنُ الهندوسيّين، والمسيحيّين، وســـوانا، أن نُدوِّن تفسيرَ إيمانِنا بنجيعِنا القاني، لا بأيَّةِ وسيلةٍ أُخرى.
- حيثُ الخَوفُ، لا يُوجد دينٌ.
- إنَّ الالتزامَ الدِّينيَّ الأسمى يَقتَضي التخلِّي عن كلِّ تَمَلُّكٍ.
- لقد أخضَعتُ إرادَتي لخِدمَةِ ديني، واثقًا أنّ في ذلك السبيلَ الأَوحدَ نَحوَ الله.
- حياةٌ أخلاقيّةٌ لا تَمُتُّ إلى الدِّين بصِلَةٍ، تُحاكي مَنزِلاً مُشادًا على الرَّمل.
- المعنى الأَوسَعُ شُمولاً للدِّين هو مَعرفةُ الذات، والازدهارُ الدَّاخليّ.
- إنّني موقنٌ أنّ أكثرَ الأعمالِ روحانيّةً هي أوفرُها جدوًى، بالمعنى الصَّحيح للكَلِمة.

- لستُ أعرِف دينًا يتنكّر للنَّشاط الإنسانيّ؛ فلولا إسهامُ الدِّين، لافتقرت جميعُ أعمالِنا إلى أسُسها الأَخلاقيّة، ولباتَتِ الحياةُ حلمًا مُزعِجًا أَحمقَ، يقوم على صَخَبٍ مُنَفِّرٍ.

الحقيقة

- ليسَ من إلهٍ سوى الحقيقة.
- غالبًا ما أُورِدَتْ نُصوصٌ كتابيَّةٌ لإقناعي بخطئي. ولكنّني، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، أُصرّ على أنَّه لا يسوغ التَّضحية بالحقيقة، في سبيل أيِّ شيءٍ آخر.
- الحقيقةُ المُجرَّدةُ لا قيمةَ لها، إن هي لم تتجسَّد في بَشَرٍ يُمثِّلونها، بإقامة الدَّليل على تأهُّبِهم للمَوت في سبيلها.
- لا يُصبحُ الخَطأ حقيقةً لمُجرَّد انتشارِهِ واستفحاله، ولا تغدو الحقيقةُ ضلالاً لأنَّ أحدًا لا يراها.
- قد أكون زَريًّا، ولكن حينما تستخدِمُني الحقيقةُ وسيلةً للتعبير عنها، يتعذَّر قهري.
- في نظر فنّانٍ حقٍّ، وحدَه يبدو جميلاً الوجهُ الذي يسطع لا بطلاءٍ سطحيٍّ، بل بألَقِ الحقيقة الكامنة في النفس... ما من جمالٍ في منأًى عن الحقيقة، ومع ذلك بِوِسعِ الحقيقة التعبيرُ عن ذاتها من خلال أشكالٍ تبدو، في الظاهر، خاليةً من الجمال.
- الحقيقةُ، شأنُها شأنُ شَجَرةٍ وارفةٍ، تُعطي من الثِّمار، بقَدر ما تنالُ من عنايةٍ، أو هي أشبهُ بمنجَمٍ، بقَدر ما يطال الحفرُ أعماقَه، يكشِف أَثمن ألماسه. كذلك نلاحِظُ أنَّنا بقَدر ما نمضي في البَحثِ عن الحقيقة، بِنَفسِ المقدار، تتراكمُ وتتنوَّع الخدمات التي تُسديها لنا.
- دَربُ الحقيقة ضَيِّقٌ، بقَدر ما هو مستقيمٌ. وكذلك هو شأنُ دَرب اللاّعنف. إنّه يُحاكي مُحاولةَ توازُنٍ فوق شَفرةِ سيف؛ بإمكانِ بهلوانٍ، إن هو رَكَّز طاقاتِه،

الرقصُ فوقَ حَبْلٍ مشدودٍ؛ ولكن، لا بُدَّ من تركيزٍ أَوفر، من أَجل انتهاج درب الحقّ واللاّعنف، إذ إنَّ أدنى تشتُّتٍ قد يقود إلى السُّقوط. إنَّ تحقيق اللاعنف في الذات، لا يَتمّ إلاّ بفَضلِ جُهدٍ مستمرٍّ.

- إنّ الموت، في أيّ وقتٍ، مباركٌ، ولكنَّه مباركٌ مَرَّتين للمُحارب الذي يعيشُ من أَجل قضيّةٍ، أي من أجل الحقّ. إنّ موت الشهيد هو، بالتأكيد، خاتمُ تضحيته الأَخيرُ، وبشيرٌ بالنَّصر.
- على أتباع الحقيقة، الذَّائدينَ عن حِياضِها أن يسألوا الله الموتَ، ولا العيشَ في أحضان الكَذِب؛ وكذلكَ على أتباع اللاّعنف أن يتوسّلوا أعداءَهم، راكعين، أن يَقضُوا عليهم بالموت، ولا الإقدام على إهانتهم أو معاملتهم بمَا يتنافى والكرامة الإنسانيّة. وعلى حدّ قول الشاعر: "إنّ دَربَ الربّ مُشرَعٌ أمام الأبطال، وموصَدٌ في وجه الجبناء".
- إنّ وسائل نُشدان الحقيقة بسيطةٌ بقَدرِ ما هي شاقّةٌ. قد تبدو مستحيلةً للصَّلِفِ المُتَكبِّر، ويسيرةَ المنال لولَدٍ بريءٍ. فعلى طالب الحقيقة أن يكونَ أَوفرَ تواضُعًا من الغُبار. إنَّ الناسَ يدوسون الغُبارَ بأرجُلِهم، وأمّا طالب الحقيقة، فعليه أن يكون من التواضع بحيثُ يقوى الغُبار نفسُه على سَحقِه. حينئذٍ فقط قد تلوحُ من الحقيقة وَمضةٌ.
- إنّ اكتشافَ الحقيقة يقتضي، في المقام الأوّل، قَدرًا جمًّا من التواضُع، فالولوج إلى قلب المحيط الذي تُمثّله الحقيقةُ، لا يتسنّى إلاّ لمن عقَدَ العزمَ على إلاّ يكون، من بعدُ، شيئًا.
- الحقيقةُ والحبُّ وَجهان لنَقدٍ واحدٍ، والحبُّ هو الوسيلةُ لاكتشاف الحقيقة التي هي الهَدَف.
- لكي نرى، يومًا، روحَ الحقّ الذي يغمرُ الوجودَ بأَسره، يجب أن نَبلغَ مرحلةً نُحبُّ فيها، مثلَ حُبِّنا لأَنفسنا، حتّى أكثرَ ما في الخليقة تفاهةً، وفي سبيل ذلك، ينبغي إلاّ نتملَّص من أَيٍّ من أَبعادِ الحياة.

- الساتياغراها قِطعةُ نَقدٍ نُقشَ على أَحد وجهَيها الحبُّ، وعلى الوَجهِ الآخر الحقيقة. إنَّها عُملةٌ رائجةٌ في كلّ مكانٍ، وذاتُ قيمةٍ لا تُقدَّر. الساتياغراها، في جَوهرها، حَرَكةٌ دينيّةٌ؛ إنّها سلوكُ تطهُّرٍ، وتكفيرٍ هادفٍ إلى تحقيقِ إصلاحٍ، وتقويمِ أخطاء، ورَفع حَيف. ووسيلتُها إلى ذلك الأَلَم الطَّوعيّ.
- أَليسَ الحبُّ هو مَصدرُ حياةِ العالم؟ فليس من حياةٍ حيثُ الحبُّ غائبٌ. الحبُّ والحقيقة وجهان لمسكوكةٍ واحدةٍ. وإنَّني لواثقٌ أنَّه بفَضلِ تَينك القُوَّتين يُمكن غَزوُ العالم أَجمع.

إنَّ الإنسانَ كائنٌ محدودٌ، وهو، مِن ثَمَّ، لَن يَقِفَ أَبدًا على مِلءِ كُنهِ الحقيقة والحبّ، إذ إنَّ كلَيهما لا مُتناهيان؛ بَيد أنَّنا نملك، من معرفَتِهما، ما يكفي ليقودَ خُطانا، وأَثناءَ جهدنا للتقدُّم في دَربهما قد نَضِلّ، وقد يكون ضلالُنا جسيمًا؛ ومع ذلك، فعلى الإنسان أن يُحدِّد وِجهَتَه بنفسه، وهذه الاستقلاليّةُ تَفرِضُ إمكانَ اقترافِ أخطاء، وإمكانيّةَ تقويمها، كلّما حدثَت.

- الاعترافُ بالخَطأ أَمرٌ حَسَنٌ، ويُولي شُعورًا بالقوَّة. إنَّه أشبهُ بعملِ مكنسةٍ يُزيل كلَّ غُبارٍ، ويجعل المكانَ أَوفَر نظافةً، بل هو ضروريٌّ، أيضًا، كلَّما توجّبَت القَهقَرى، من أجل تقويم انحرافٍ في النَّهج. إنَّ القضيّةَ التي نُدافعُ عنها، تَستَمدُّ من ذلك منعةً. أمّا إذا ما أصرَرنا على التّيهِ في دَربٍ خاطئٍ، فمِنَ الْمُؤَكَّد أنّنا لن نَبلغُ أبدًا هدفَنا.
- التجرُّد من الخَوف شَرطٌ لا بُدَّ منه لنُموّ جميع الخِصال النَّبيلة، إذ كيف للمرء أن يَنشُد الحقيقةَ أو يلتزمَ الحبَّ، إن هو لم يتجرّد من الخَوف.
- من نَشَدَ الحقيقةَ، أي الله، عليه الالتزامُ بعدّة نُذورٍ، منها نَذر الحقيقة، والعفّة (إذ لا يمكن إشراكُ الله والحقيقةِ بأمورٍ أُخرى)، واللاعنف، والفقر، واللاتملّك.
- يجب أن تكون الحقيقةُ في الفكر، والأَقوال، والعمل. وحدَه الوفاءُ للحقيقة يُبرِّر وجودَنا.
- استخلَصتُ من التَّجربة أنَّ الإنسانَ غالبًا ما يرسُم مُخطّطاتٍ لا يلبَثُ أن يرى

الله وقد عَبث بها؛ ولكن، عندما يتَمثَّل الهدَفُ في نُشدان الحقيقة، يصبح فَشَلُ المُخطّطَات ضئيلَ الشأن، ولا يُلحِق بالمرء كَدَرًا، وتنتهي على خَيرِ ممّا كان يتوَقّع المرء منها.

- مِن جرّاء شَغَفي بالحقيقة، ما قَوِيتُ، يومًا، على تَصَنّع الوَلاء، ولا أَيَّةِ فضيلةٍ أُخرى.
- الصَّمتُ جزءٌ من النِّظام الرُّوحيّ لدى أتباع الحقيقة.
- ليس من اليسير، دائمًا، معرفةُ أَينَ يَكمُن الواجب، بل غالبًا ما يُضطرّ المرءُ إلى تلمُّسه في الظَّلام. إنّ قوًى متعدّدةً ترين بثِقَلها على حياتنا، ولو أَنَّ مبدأً عامًّا واحدًا، كان من شأنه إتاحة اتّخاذ قرارٍ تلقائيٍّ في كلّ الأمور، لتيسَّرت مسيرتُنا، ولكنَّني لستُ أذكر مناسبةً واحدةً تهيّأ لي فيها التصرّف بمثل هذا اليُسر.

  لقد استهدفتُ، ببساطةٍ، وبطريقتي الخاصّة، أن أُطبّق على حياتي اليوميّة مبادئَ ذاتَ قيمةٍ أَبديّةٍ.

- ما سببُ وجود الشرّ؟ وما هو الشرّ؟ يبدو أنَّ هذه التساؤلات تتعدّى حدودَ عقلنا. علينا، إذن، الاكتفاءُ بمعرفة أَنَّ الخيرَ والشرّ موجودان، كلاهما، وأَنَّه، حيثُمَا تسنّى لنا تمييزهما وَجَب علينا إيثارُ الواحد، ونبذُ الآخر.

التواضُــع

- عندما يُخامرُنا شُعورٌ بأنَّنا شيءٌ ما، فإنَّنا نُقيم بينَ الله وبينَنا حاجزًا، ولكن عندما نَنتَبذُ ذلك الشُّعورَ، نتَّحد بالله. إنَّ قَطرة الماء، في المُحيط، تُسهِم بقِسطٍ في رحابة المحيط، وإن هي لم تعِ ذلك. غير أَنَّها تَجِفُّ وتتبخّر حالما تُباشر وُجودًا مُستقلاً عن المُحيط.
- طالما لم يَضَع الإنسانُ نفسَه، بملءِ اختياره، في المقامِ الأخيرِ بينَ رفاقِه من الخلائق، فلا خلاصَ له.
- ساعةُ النَّصر الأَعظم هي ساعةُ التّواضُع الأعظم.

- إنّ حياةً قائمةً على الخِدمة يجبُ أن تكون حياةَ تواضُعٍ. فمن صَبا إلى التَّضحية بحياته في سبيل الغير، لا وقتَ لديه لتَثبيتِ مَركزٍ تحتَ الشَّمس.
- المُتواضِعُ لا يُدرِكُ ولا يعي تواضُعَه؛ ولَئِن استحالَ على التواضُعِ الفِطريِّ أن يَظَلَّ خَفيًّا، إلاّ أنَّ المتواضِعَ الحقَّ سيَظَلُّ يجهلُ تواضُعَه.
- الخِدمةُ من غير تواضعٍ أثرةٌ وأَنانيَّةٌ.
- التواضعُ هو مِفتاح النَّجاح السَّريع.
- إنَّ روح اللاعنف يقود، حتمًا، إلى التواضُع؛ فاللاعنف يعني الثقة بالله، صخرةِ الأَجيال، وإِذا ما ابتَغينا منه العَون، توجَّب علينا الدنوُّ منه، بقلبٍ متَّضعٍ نادمٍ.

التجَرُّد، الخِدمَة، التضحِيَة

- طالَما لم تَمُت فينا أنانيَّتُنا، لن نقوى على قَهرِ الشّرّ الكامنِ في داخِلنا، ولكي نستَأهلَ الحُرِّيَّة الوحيدةَ الجديرةَ بهذا الاسم، يقتضي منّا الله تجرُّدًا مُطلَقًا.
- الضُّعفاءُ والمنبوذون هم الذين يَهَبُهم الله عَونَه. إنَّ عونَ الله يُصبح مُجديًا عندما يتحوّلُ الإنسانُ إلى صِفر.
- التخلّي عن الأشياء من غير تخلٍّ عن الرَّغبةِ فيها، قصيرُ الأَمَد، مهما كانت المُحاولاتُ في ذلك جادَّةً.
- لقد اتَّخَذتُ من الخدمةِ دينًا لي، بعد إذ شَعَرتُ أَنَّ الله قادرٌ أن يتجلّى عن طريق الخِدمة ليس إلاّ.
- اِجعَل من الخِدمة فَرَحَك الأَوحد، فلن تحتاجَ إلى أيّة مُتعةٍ أُخرى في الحياة.
- انتصارُ الإنسانِ يَتمثَّلُ في الاستعاضة عن الكفاح من أجل الوجود، بالكفاح من أَجل الخِدمة المتبادَلة، وحينئذٍ ستَحِلُّ شريعةُ الإِنسانِ محلَّ شريعةِ البهيمة.
- الخدمةُ التي لا تنطوي على أيِّ أَثَرٍ للأنانيّةِ هي الدِّين الأَسمى.

- الخِدمةُ التي تؤدَّى بلا فَرَحٍ لا تساعِد أَحدًا: لا مَن هي موجَّهةٌ إليه، ولا من يُسديها، بَيدَ أَنَّ كلّ مُتعَةٍ وكلَّ اهتمَامٍ يَبدُوانِ باهتَين، بل ينقلبانِ عَدَمًا، إذا ما قُورنا بالخِدمةِ التي تؤدّى في رُوحٍ من الفرَح.
- الجَسَدُ أيضًا هو امتلاكٌ، ويجبُ أن يُستَخدَمَ في سبيل خِدمةٍ مُثلــى. وحينئــذٍ تُصبح الخِدمةُ هي هدفُ الحياة الحقّ. علينا أن نأكُلَ ونشربَ، وننامَ ونستيقظَ، لكي نخدُمَ على الوجه الأَمثل.
- من رامَ الخدمةَ، أَوكلَ إلى المعلِّم الأَسمى الاهتمَامَ بحاجاته، وتميَّز بالــسَّكينة، والتنكُّبِ عن الغَضَب والاضطرابِ، فالخِدمةُ والتَّضحيةُ هما، لـــه، المكافــأةُ التي بها يكتفي.
- لا وُجودَ للعالَم من غَيرِ التَّضحية، فكلُّ عَمَلٍ لا يَندرِجُ في مِضمار التَّــضحية، من شأنِه أن يَقُودَنا إلى الأنانيّة. إذ مارسنا عادةَ الخدمة، وَجَدنا سعادتَنا وسعادةَ العالَم، أما المُتع الأنانيّة فتُفضي إلى الدَّمار، في حين أَنَّ التجــرُّد يقــودُ إلــى الخلود. ليس للفرَح وجودٌ مُستَقلٌّ، بل هو ينشأ من مَوقفنا من الحياة. قد يُخيّــل إلينا أنّنا أحرارٌ في تَلَقّي بعض الهبات من الآخرين، لأَنَّنا أَسدَينا إليهم معروفًا، ولكنَّ إنسانًا يُفكِّر على هذا النحوِ، لم يُصبح بعدُ خادِمًا، بل هو طاغٍ.

ولكن إيّاكُم أن يُفضيَ بكم روحُ التَّضحية إلى المرارة الوجيعة التــي قــد يُسبّبها افتقادُ الردّ على تضحيتكم بمَا يقابِلُها، فالتَّضحيةُ الحقّةُ لا تنتظر جوابًا.

- التَّضحيةُ القسريَّة ليست بتضحيةٍ.
- لكي تكونَ الحياةُ صادقةً يجب أن تكون تضحيةً متّصلةً؛ أما الفَرَحُ فلا يــأتي إلاّ في أعقابِ التَّضحية.
- قد يكمُن من السُموِّ في بَسمةٍ إلهيّةٍ، أكثرَ ممّا ينطوي عليه ما يُعتَبر تــضحيةً جسيمةً. لقد كانت مرتا ومريم، كِلتاهما، صالحتَين، غيرَ أَنَّ التي كانت تخدُم الربَّ في بساطةٍ، من غَيرِ لُجوءٍ إلى اهتماماتٍ نافلةٍ، كان، لا رَيبَ، يحدوها روحُ التَّضحية أكثرَ من تلك.

السَّيطَرة عَلى الذَّات

- قد يكونُ الجَسَدُ مَسرَحًا للأهواء، أو هيكلاً لتحقيق الذَّات؛ وإن هو كان هيكلاً، فلا مكانَ فيه للمُجون، إذ يَتعيَّن على الروح أن يُرَوِّضَ اللَّحمَ والدَّمَ في كلِّ لحظةٍ.
- في اعتقادي أنَّ النَّفسَ تزدادُ قوّةً بقَدر ما هي تُرَوِّضُ الجسدَ وتُخضِعُه.
- رُؤية الله وجهًا لِوَجهٍ مستحيلةٌ ما لم يُصلَب الجسَد.
- لا تستطيعُ تحقيقَ القَدرِ الأَقصى من الوَعي والوجدان، ما لم تُسَيطر سيطرةً تامَّةً على عقلِك وفكركَ وجَسدكَ أيضًا.
- وحدَه من يعرف ضَبطَ جميع أهوائه، يستطيعُ معرفةَ ذاته.
- ليس الإنسانُ إنسانًا إلاّ بمقدار ما يستطيعُ ممارسةَ الضَّغط على ذاته، ويجهد في هذه الممارسة فعلاً.
- من كان فريسةَ الشَّهوات، افتقر إلى مرساةٍ.
- إنْ لم يَخضَع الفِكرُ للرَّقابة، سارَ كلُّ شيءٍ على غير هُدًى... ولكن عندما تُحكمُ القَبضَةُ على أَعنَّةِ الفكر، يُصبحُ كلُّ شيءٍ يسيرًا كعَبَثِ الأطفال.
- من خَسِر حياتَه خَلّصَها، وفي سبيل التمتّع بالحياة، ينبغي الصُّدوفُ عن إغرائها.
- كي يؤتيَ الحِرمانُ من المَلذّات ثمارَه المُجدية، لا يسوغُ أن تفرضه إرادةُ الآخرين بل علينا أن نُخضِع له ذواتنا بملء رغبتنا.
- بأيّة دلائلَ يُمكننا تعرُّفُ من يَرغبُ في الاقتران بالله وبالحقيقة؟ إنَّه مُتحررٌ من كلّ عِداءٍ كلّ رَغبةٍ، من الكِبرياء والخَوف على السواء، ومَنْ كُلِّ أشكال التعلّق. وعليه أن يتلاشى تمامًا كي يتمرَّسَ بالسيطرة على حواسّه، وأن يَشرَع بفَرضِ رَقابةٍ على لِسانه، جهاز الكلام والذَّوق، فتلك هي الوسيلةُ الوحيدة لكَبح ميوله نحوَ المُغالاة والكَذِب، وكلِّ لفظةٍ جارحةٍ. ولا مَفرَّ من تلك الرّقابة، أيضًا، في سبيل التحرُّرِ من طُغيان لَذّةِ الطَّعام والشّراب، وإلاّ

فلَسنا سوى بهائمَ يَقتَصِر همُّها على إرضـــاء شَـــهواتِها الحِـــسِّيَّة. ولكنَّنـــا، بإخضاعِ ذواتِنا لنظامٍ مُناسبٍ، نستطيعُ أَن "نكادَ نساوي الملائكة عظمةً"، فَمَن انتصَرَ على عالَم الحَواسِّ، بات نبراسًا للآخرين، واحتوى جميعَ الفـضائل، وتجلّى الله نفسه بواسطته.

- عمومًا يتسنّى للمرء السيطرةُ على أهوائِه، بقَدر ما يكون قد أَفلَحَ في التخلّـي عن مَلذّات الطَّعام.
- على من يبتغي العيشَ في خشيةِ الله، ويلتمسُ مـشاهَدَته وَجهًـا لِوَجـهٍ، أن يضغَطَ نظامَه الغذائيَّ كمًّا وكيفًا، مثِلمَا يَضغَطُ على فكره ولسانه.
- ليس الصَّومُ سوى وسيلةٍ لبلوغ فَرضِ الرَّقابةِ على الذات؛ ولا يكفي تـصويم الجسد، بل ينبغي أيضًا إخضاعُ الفكر للصّيام، وإلاّ تفاقم خَطَر الوُقوع فـي الرياء، والانحدارِ إلى الكارثة.
- الصَّوم، لبعضهم، عديم الجدوى، فهم وإن حَرَموا أجسادَهم كلَّ طعامٍ، يُطلقون لفكرهم العنان للتَّلذُّذ بأشهى الأَطعمة، ويتخيّلون ما سيُقبِلون عليه من شرابٍ وطعامٍ، حالما ينتهي امتحانُهم. إنَّ هذا اَلنَّمَط من الصيام، لا يُسهم بشيءٍ في السَّيطرة على الذّات، إذ يتعيَّن على الفِكر، أيضًا، تعلُّمُ الحرمان، فالفكر هـو مركز كلِّ شَهوةٍ، ولا بدّ من التحوُّل عن الملذّات التي يتعيّن علـى الجـسم انتباذُها. وبالتالي، فإنَّ
- جَدوى الصِّيام تظلُّ محدودةً، إذا ما استمرَّ الفِكرُ يتمرَّغُ في حَمأَةِ الأهواء.
- إن لم يواكب صومَ الجسد صومُ الفكر، فهو يُفضي، لا محَالةَ، إلى الرِّياءِ والفَشَل.
- لا يساعدُ الصَّومُ في السيطرةِ على الجانـب البهيمـيّ مـن طبيعتنـا إلاّ إذا مارسناه، ونحن يحدونا قَصدُ السيطرة علـى ذواتنـا. فـبعض أصـدقائي قد لاحظوا، في الواقع، أنَّ شهواتهم قـد ازدادت شراسـةً، إثـرَ الـصيام. وبالتالي، فمن العبث الصيام، ما لم يُرافقـه الجُهـدُ الرَّامـي إلـى بلـوغ السِّيادة على الذات.

- الصَّومُ للعالَم الداخليّ، ما العيونُ للعالَم الخارجيّ.
- إن لم يكُن الصَّومُ نتيجةَ نعمةٍ إلهيّةٍ، غدا تَجويعًا لا طائلَ تحتَه، إن لم يكن أسوأَ من ذلك.
- علينا معرفةُ الحدِّ من حاجاتنا الجَسَديّة والفكريّة، وإلاّ أَضحت ضرورةُ إرضاء هذه الحاجات نُشدَانًا للمُتعة. وعلينا تدبُّر شؤون حياتِنا على الصَّعيدين الماديّ والثقافيّ، بحيثُ لا تحول دون قُدرتنا على خدمة البشريّة. فهذه هي المُهمّة التي علينا أن تستقطب كلَّ طاقاتنا.
- مِن أَجلِ التَمتّع بصِحَّةٍ تامَّةٍ، ينبغي العيشُ وِفقًا لوصايا الله، ونبذُ أعمالِ إبليس. إنَّ السَّعادة الحقيقيّة تتعذَّرُ في منأًى عن صحّةٍ منيعةٍ، ممَّا يقتضينا رَقابةً شديدةً على طعامِنا، وسيطرةً تامّةً على مُتعة الأكل. إنَّ إحكامَ السِّيادة على حاسَّة الذَّوق يُؤهّل لترويض جميع الحواسِّ الأُخرى. ومَن أَخمَدَ ثورةَ شَهَواته، غزا، في الواقع، العالَم أجمع، وأَسهمَ في حياة الله.
- إنَّ التغلُّب على شهوات الجسد هو المهمّةُ العليا في وجود أيِّ رَجُلٍ أو امرأةٍ. فمَن لم يُسيطِر على شهواته، لا أملَ له في الإمساك بزِمام نفسِه.
- أيُّ رجلٍ أو أيّة امرأةٍ لم يَضبُطا أهواءَهما، مصيرُهما الهلاك. ففُقدانُ السيطرة على الحواسّ، كالإبحار على سفينةٍ لا دفّةَ لها، والتي سيُكتَب لها التحطُّم لدى ارتطامها بأوّل صخرةٍ.
- من اتّخذ الحقيقةَ قرينةً له، خانها كلّما شَغَلَ طاقاتِه بأيِّ شيءٍ آخَر، وبالتّالي فكيفَ له الاهتمامُ برغبات الحواسّ؟
- إنّ حبًّا عفيفًا بين رجلٍ وزوجته يُقرّب من الله أكثرَ من أيّ حبٍّ آخَر.
- إنَّ خَلقَ حياةٍ جديدةٍ هو أقربُ عملٍ إلى الألوهة. وجُلُّ ما أرجوه أن نُقبِل على هذا العمل، بطريقةٍ إلهيّةٍ، أي إلاّ يجمعَ الرجلَ والمرأةَ سوى الرغبةِ في إيجاد حياةٍ جديدةٍ.

- إنَّني أعتبرُ أنَّ حياةً تتّسم بالعفّة المُطلَقة، فكرًا وقَولاً وعَمَلاً، لا غنى عنها لبلوغ الكمال الروحيّ، والأُمّةُ التي لا تملِكُ رجالاً قادرين على ممارسة حياةٍ كهذه، هي، بذلك، فقيرةٌ.
- عندما تُهدِّدُك أهواءُك بالقضاء على أفضل ما فيك، فاجثُ على ركبتَيك واصرُخ إلى الله مُستغيثًا.
- لقد لقّنتني التجربةُ المريرةُ دَرسًا قيّمًا، وهو كبتُ غضبي؛ فكما أنَّ الحرارة المخزَّنة تتحوّل إلى طاقةٍ، كذلك غضَبُنا، إذا ما سيطرنا عليه قد يتحوّل إلى قُوّةٍ قادرةٍ على زعزعةِ العالم.
- إن كانت لديكَ الإرادةُ، فلا بدَّ أن يتوفّر لديك السَّبيل.
- لا رَيبَ أن الصِّيام وسيلةٌ جليلةُ الجَدوى في سبيل ضَبط الحواسّ. ولكن هناك من لا يُجديهم الصيامُ فتيلاً، إذ بتوهُّمهم أنَّ الامتناع عن الطعام يُوليهم تلقائيًّا المناعة، يَقتَصِرون على حِرمانِ أجسادهم من الطَّعام، في حين هم يُوفِّرون لخيالهم مآدبَ حافلةً بالطَّيِّبات، ولا يكُفّون عن إعمال الفكر في ما هم مُقدمِون عليه من طعامٍ وشرابٍ، في نهاية الصيام. وليست تلك هي الوسيلة الكفيلة بِضَبطِ حاسَّةِ الذَّوق والشَّهوة الجسديَّة. فالصَّومُ لا يُصبح مُجديًا إلاّ إذا تعاون الذهنُ مع تقشُّف الجسد، أي عندما يتمرَّس بازدراء الأشياء التي يُحرم منها الجسد، فمَنبعُ الشَّهوة هو الذّهن. وبالتّالي فالصيام محدود الجدوى، إذ لا شيءَ يحمي الصائمِ من أن يظلّ فريسةَ الأهواء. ولكن يمكن القول، إجمالاً، أنَّ الذريعة الوحيدة لإطفاء لَظَى الشَّهوةِ الجنسيّة هو الصِّيام.
- كثيرون ممّن يتوقون إلى العفّة (براهماشاريا) يُخفقون لأنهم يودُّون مواصلةَ استخدامِ سائِرَ حواسِّهم على غرار من ليسوا مُرتَبطين بنَذر العفّة. ولا مفرّ من رسم خطٍّ فاصلٍ بين حياة ناذري العفّة وسواهم، فوُجوه التماثُل بين الفئتَين ظاهريَّةٌ فحسب، ولكن من المُحتّم أن تتجلّى وجوهُ التَّبايُن فيمَا بينهم بُوضوحٍ جَليٍّ. فالطرفَان، كِلاهما، يستخدِمان عيونَهم، ولكن، في حين يستعين بها

البراهماشاري لاكتشاف مَجدِ الله، لا يستخدمُها الآخرون إلاّ لاستطلاع العالَم الباطِل المُحيق بهم. وكلٌّ من الفئتَين يستخدم سمعَه، ولكن، في حين لا يُصغي الواحدُ إلاّ لما ينطوي على تسبيح الرّبّ، يطربُ الآخر لأنغام الفُجور. كلٌّ من الفريقَين قد يُطيل السَّهَر، ولكنَّ أَحَدهُما يتجهَّد في الصلاة، والآخر يُبَعثِرُ ليلَه هدرًا في مسرّاتٍ حمقى. كلٌّ منهما يُغَذّي الإنسانَ الداخليَّ فيه، ولكن، في حين لا يحدو الواحدَ سوى الحرصِ على إبقاء هيكلِ الله في أحسن حالٍ، يتوخّى الآخر التُّخمةَ، وتحويلَ الإناء المقدَّس إلى مُستَنقع أقذارٍ يفوح بالنَّتانة. إنَّهما قُطبان لا تنفكّ الهُوّة بينَهما تتَّسعُ وتتفاقَم، ولا تنحسِرُ أبدًا.

- لا حدودَ لطاقات الزُّهد. ومن يصبو إلى البراهماشاريا يُلازمه الشُّعور بتقصيره، ولا يكفُّ عن مطاردة الأهواء المُتَسحِّبَةِ في أكثر زوايا نفسه ظُلمةً، ولا يني يُكافح، بلا هوادةٍ للانعتاق منها.

الفكرُ اللاإراديّ هو أَحَدُ وجوهِ مَرَض الذِّهن، وإخضاعُ الفِكر يعني إخضاعَ الذِّهن، مع أنَّه كالرِّيح يَعسُر ثَنيُه. ولكنَّ حضورَ الله داخلَ الكيان يَجعَلُ حتّى ضبطَ الذِّهن ممكنًا. ذلك هو الهدف الأقصى، فلا عَجَبَ إن بدا الجُهد اللازم لبلوغه، هو أيضًا، الجُهد الأَقصى.

- لا يُمكن الامتزاجُ بكلِّ ما يَعيش، من غَير تطهيرِ الذَّات، ومَن لم يكُن نَقيَّ القلب لن يبلغُ إلى الله أبدًا. عن ذلك ينجُمُ أنّ التطهّرَ يعني تطهّرًا في جميع المراحل، وجميعِ نواحي الحياة. وليسَ كالتَّطهُّر نشرًا للعدوى، إذ إنَّ تطهيرَ الذَّات يقود حتمًا إلى تطهير كلِّ ما يُحيق بالإنسان.

بيدَ أنَّ دَرب تطهير الذَّات شاقٌّ، عسيرٌ. فبلوغُ النَّقاء الكاملِ يقتضي تطهيرَ الفكر والقَول والعمل من كلّ هوًى، والتسامي فوق تيّارات البُغض والحبّ والنُّفور والانجذاب.

إنَّني أدرِك أنَّني لم أظفر، بعدُ، بهذا الطّهر الثلاثيّ الوجوه، رغم ما أمارسُه من نضالٍ لا هوادةَ فيه من أَجل الوصول إليه. وبالتَّالي، فمهما أَغدقَ

عليّ العالَمُ من إطراءٍ، لن يُفلحَ هذا الإطراءُ في هَزّي؛ وفي الواقع غالبًا ما يلسعُني الثَّناء؛ إنَّ السيطرةَ على الأهواء الخبيثةِ تبدو لي مُهمّةً أعتى من غَزوِ العالَم، مادّيًّا، بقُوّة السلاح. منذ عودتي إلى الهند، لم أَكُفَّ، لحظةً، عن اكتشاف أهواءٍ غافيةٍ، كامنةٍ في قرارة نفسي، متشبّثةٍ بها، وقد غمَرني إدراكي بهذا الواقع بالتواضُع، ولكنّه لم يفُتَّ في عزيمتي. إنَّ تجربتي، بل تجاربي، قد وفَّرت لي المنِعةَ وفَرحًا جمًّا، ولكنَّني أعلَم أنَّه لا يزال عليّ اجتيازُ دَربٍ وَعرٍ يمتدّ أمامي. فعليَّ أن أتحوَّل عَدَمًا، إذ طالما لم يَضَعِ المرءُ ذاتَه، طَوعًا، في أسفل دَرَكٍ بين إخوته البشر، لن يُكتَب له خلاصٌ.

- الطبيعة لا ترحم، فهي تثأَرُ لنفسها كلّما انتُهِكَت شرائعُها.
- الأَلَم هو قَدَر الجنس البشريّ. إنَّه سُنّةٌ أَبديَّةٌ، فالأمُّ تتألَّم ليعيشَ ولدُها، ومنَ المَوتِ تَنبعُ الحياة. إنَّ القمحَ لا ينبُت ما لم تَمُت حَبَّة البذار، وما من أمّةٍ نهضت، يومًا، ما لم تتطهَّر بنار العذاب. لا مَفرَّ من سُنّة الأَلَم، فهي شَرطٌ لكياننا لا غنىً عنه، والتقدُّم يُقاس بكمِّيةِ ما يُقاسى من أَلَمٍ، وبقَدر ما يكون الأَلَم نقيًّا، يكونُ التقدُّم عظيمًا.

اللاعنف

- من حيثُ هو حيوانٌ، يَتَّسِمُ الإِنسانُ بالعنف، ومن حيثُ هو روحٌ، يتَّسم باللاعنف.
- لن يُؤتيَ اللاعنفُ كاملَ جدواه، إلاّ إذا استمدَّ طاقاتِه من الرّوح؛ فاللاعُنف الذي لا يتطلّبُ سوى مساهمةِ الجسد، هو لا عُنفُ الضُّعفاء والجُبناء، وبالتالي فهو عاجزٌ عن أَيّ تأثيرٍ.
- سلاحُ العنيف رمحٌ أو سيفٌ أو بُندُقيّةٌ. أمّا اللاعنف فدرعُه الله.
- القوّةُ الحقَّة لا تُستمدّ من مصدرٍ جَسديٍّ، بل هي تنبعُ من إرادةٍ لا تُقهَر.
- إنَّ الطاقاتِ الإلهيّةَ الكامنةَ فينا، غير محدودةٍ. وإنَّ إيذاءَ فردٍ بشريٍّ واحدٍ،

هو تدنيسٌ لهذه الطَّاقات الإلهيّة، وأذًى يَلحَق ليس بهذا الخصم فحسبُ، ولكن، من خِلالِه، بالبشريّةِ جمعاءَ.

- يحيا حرًّا من كان متأهِّبًا، إن اقتضى الأمر، للموتِ على يدِ قريبه، رافضًا قَتلَه رفضًا مُطلَقًا. فإنَّ أيّ قتلٍ، أو أيّ نيلٍ من إنسانٍ، أيّةً كانت الأسباب، جريمةٌ في حقّ الإنسانيّة.
- من أجل الدّفاع عن النفس لا حاجةَ إلى القدرة على القتل، بل أفضلُ منها القُدرةُ على المَوت.
- كما أنَّ التدرُّب على العُنف يقتضي إتقانَ فنِّ القَتل، كذلك التمرُّس باللاعنف يقتضي إتقانَ فَنّ التَّضحية.
- إنَّ رجُلَ الله يمتلِكُ القُدرَةَ على استخدام السّيف، ولكنَّه لا يستخدمُه، لعلمه أنَّ الإنسانَ هو صورةُ الله.
- اللاعنفُ وسيلةٌ في مُتناول الجميع، أحداثًا وشبّانًا وكُهولاً، شرطَ أن يؤمنوا فعلاً بإله الحُبّ، وأن يستخلصوا من هذا الإيمَان حبًّا مُتَساويًا لجميع النَّاس؛ وإذا ما غدا اللاعُنفُ شريعةَ حياةٍ، فهو يتناول كيانَ المرءِ بأَجمعه، وليس فقط بعضَ أعمالٍ فرديّةٍ.
- من كان اللاعنفُ حاديَه، تَوجَّبَ عليه امتلاكُ قلبٍ في مِثل رِقَّة الزَّهرة، وقسوةِ الجُلمود... منذُ شبابي جَهِدتُ في إسباغِ القَسوة على قلبي بالقَدر الكافي الذي يُمكّنني من مكافحة الأَشياء المُؤلمة... رُبّمَا كان علينا أن نحميَ الآخرين من الألم، بأَخذِه على عاتقنا، وبقَدر ما يكون الأَلَمُ صافيًا، يكونُ التقدُّمُ سريعًا. وخيرُ ما يُمكن الإِنسانَ تحقيقه هو الجَمعُ بين أَشدِّ مقاومةٍ للشرّ، وأكبرِ عطفٍ على من يَقترف الشرّ..
- لكي يكونَ اللاعنفُ مُجديًا، لا بدَّ له من إرادةٍ مصمِّمةٍ على تقبُّل الألم، وهذا لا يعني، على الإطلاق، خُنوعًا ذليلاً لإرادة الطاغي، بل مقاومة شروره بكلّ ما في المرء من طاقاتٍ.

- ليس اللاعنف "امتناعًا عن أيّ كفاحٍ فعليٍّ ضدّ المكر"، بل، على النقيض من ذلك، أرى أنَّ اللاعنف ضربٌ من الكفاح أشدُّ زخمًا، وأكثرُ أصالةً من شريعة "العين بالعين، والسنّ بالسنّ"، التي من شأنها مضاعفة العداء. إنَّني أرى أن يُستعان على كلّ ما هو مُنافٍ لمبادئ الأخلاق، بسلاح الأخلاق والرُّوح؛ لن أحاولَ فَلَّ السِّلاح الذي يُشهره الطَّاغي في وجهي، باستخدام شَفرةٍ أرهفَ شحذًا، بل أجهَدُ في تعطيلِ دافع الصِّدام، بامتناعي عن كلِّ مُقاوَمةٍ مادّيّةٍ، بحيثُ يكفّ خصمي عن عدائه بفَضلِ قوّةِ الرُّوح؛ إنَّه سيرتبكُ، بادئ الأمر، ثمّ لا بدَّ له من الاعتراف بأن لا سبيلَ إلى قَهر هذه المقاومة الروحيّة؛ وإن هو أَقرَّ بذلك، فلن يخرُج من المعركة مُهانًا، بل إنَّه سيَخرُج أوفرَ نُبلاً.
- من غير أيِّ وَجَلٍ، قادَ بوذا صِراعًا مع أعدائه، وأَفلحَ في قَهرِ صَلَفِ الإكليروس. والمسيحُ قد طرد الباعةَ من الهيكل، ولَعَنَ المُرائين والفرّيسيّين. لقد كان ذانكَ المعلّمان الكبيران يُؤمنان بعمَلٍ مباشرٍ حازمٍ. غَيرَ أنَّهما، في آنٍ معًا، قد برهنا عن طِيبةٍ وحبٍّ، لا يطالُهما جدالٌ، في كلّ عملٍ من أعمالهما؛ ولولا ذلك، لما رَفعا خِنْصَرًا في وجه أعدائهما، ولآثرا، ألفَ مرّةٍ، الاستسلامَ، على خيانة الحقيقة التي جاءا ليُبلّغانا إيّاها. وكان من شأن بوذا أن يلقى الموت في صراعه ضدَّ رجال الدّين، لو لم يُثبت أنّ حبّه كان يُعادل جهودَه في سبيل إِصلاح الإكليروس؛ والمسيحُ قد مات مصلوبًا، ورأسُهُ مكلَّلٌ بالشوك، مُتحدّيًا جَبَروت أمبراطوريّةٍ بكاملها؛ فلَئِنْ أنا أبديتُ مُقاومةً تَتَّسم باللاعنف، فإنَّني، بكُلِّ تواضُعٍ، أَسيرُ في خُطى هذَين المُعلِّمَين الكبيرَين، ليس إلاّ.
- لقد خَلصتُ إلى قناعةٍ جوهريّةٍ، هي أنَّ الظَّفَر بنتائجَ حاسمةٍ لا يقتضي إقناع العقل فحَسبُ، بل لا بدّ أيضًا من مَسّ شغاف القلب، وبالتالي الاستعانة بطاقة الأَلَم؛ تلك هي الوسيلة الوحيدة لكي يتفتّح في الإنسان نوعٌ آخَرُ من الفهم، كلُّه في الدّاخل؛ فالأَلم، لا السَّيف، يجب أن يكون شعارَ الإنسان.

- لقد بات جَليًّا أنَّ الأُمم، شأنُها شأنُ الأفراد، لا تُحقّق اكتمالها، إلاّ عِبرَ نــزاع الصَّليب.
- الفَرَحُ لا ينجُم عن تعذيب الآخرين، بل عن الآلام التي يفرضُها المرءُ علــى ذاته، طَوعًا.
- الأَلَمُ، عندما يتحمَّلُهُ الإنسانُ في ابتهاجٍ، لا يعودُ أَلَمًا، بل يتحوّل إلى فَــرَحٍ لا يُوصفُ.
- إنَّ أعتى القلوب قسوةً، وأسمجَ العقولِ جهلاً، لعاجِزَةٌ حيالَ الألَم المُتجرد الطَّوعيّ.
- كلّما نَشبَ خلافٌ، واصطدمتُم بمعارضةٍ، فاجهَدوا كي تتغلَّبوا على الخــصم بالمحبّة.
- عندما أتخلّى عن السيف، لا يبقى لديّ ما أقدِّمُه لخصومي سوى كأسِ الحُبّ.
- الحبّ هو أَمنع ما في الحياة قوّةً، وفي آنٍ معًا، أكثرُ ما يمكن تصوّره تواضُعًا.
- بالحبّ وحده يُمكن استمالة الخصم، أمّا بالعُنف فذلك مُتعَذِّرٌ تمامًا؛ فــالبغض هو أَشدّ ضُروب العُنف مكرًا.
- لا بدّ لأكثر القلوب قسوةً من أن تلين بفعل نار الحبّ؛ وإن هي لم تَلِن، فَــلأنَّ النارَ لم تكن قويّةً، بالقَدر الكافي.
- ليس اللاعنف عملاً خارجيًّا، أو امتناعًا عن عملٍ خــارجيٍّ؛ بــل يجــب أن يتغلغل حبًّا حتّى أغوار القلوب والنوايا.
- لا يسع اللاعنف أن يقف جامدًا حيالَ المظالم الاجتماعيّة.
- لا يستطيع امرؤٌ أن يكون لا عنيفًا على نحوٍ فعّالٍ، إن هو لم يناهض الظُّلــم الاجتماعيّ أينمَا كان.
- المرءُ الصَّابي إلى اللاعنف لا يحقُّ له أن يثور على مَن يُهينه، أو أن يتمنّى له سوءًا، بل عليه أن يتمنّى له الخير؛ إنَّه لا يلعَن المُعتديَ عليه، ولا يُلحِــق به أيّ عذابٍ جسديٍّ، بل إنَّه يتقبّلُ منه كلَّ ما يُلحقه به من عذابٍ، وعلى هذا النحو يغدو اللاعنف، الذي أُحسِنَ فهمُه، براءةً مُطلَقَةً.

إنَّ اللاعُنف المُطلَق هو التخلّي عن كلّ إرادةِ سوءٍ، حيالَ كلّ ما يعيش... واللاّعنف، في صيغته الإيجابيّة، هو تعاطُفٌ مع كلّ ما يعيش. إنّـه الحُـبُّ الصافي.

إنَّه وضعٌ يتّصف بالكمال، تصبو إليه البشريّة جمعاء، ولو عن غفلةٍ منها. فالإنسانُ الذي يُجسّد البراءةَ في ذاته، لا يبلغُ الألوهة، بل هو، حينئذٍ فقط، يُصبحُ إنسانًا حقًّا. إنّنا، في وضعنا الراهن، نِصفُ بَشَرٍ، ونصفُ بهائم؛ قد ندّعي، في جهلِنا الصلِفِ، أنَّنا نقوم بمُهمّةِ جنسنا، عندما نرُدُّ على الضَّربةِ بضربةٍ، ونستسلم للغَضب... مع أَنَّ السَّيطرةَ على الذات وحدَها هي واجبُنا.

إنّ السيطرة على الذّات هي سُنّة كياننا، والكمال الأسمى يقتضي السيادة العليا على الذات، وهكذا تغدو المعاناةُ رمزَ جنسِنا البَشريّ.

إنَّ هدفَنا لا يني يَبتَعِد عنّا؛ فكلّما قطعنا، في التقدّم، شَوطًا، تجلَّى لنا مقدارُ عَدَم جدارتنا؛ ومن ثمَّ، فالشُّعورُ بالرضى يَنبعُ من الجهدِ المبذول، لا من الهدَف الذي تمَّ الوصول إليه. والنَّصرُ المُطلَق يكمن في الجهد المُطلَق.

وعلى هذا النحو، كلّما اتّضحت لي المسافة التي تنأى بي عن هدفي، بات الحبُّ هو سنّة وجودي؛ وكلّما أَخفقتُ، غدا جُهدي أكثر إصرارًا، بسبب ذلك الفَشَل عينه.

إنَّ طبيعةَ لاعنفي حيالَ أخي، لا يُمكنُها أن تختلف عن طبيعة لاعُنفي حيالَ الكَون. وعندما يشملُ حبّي لأَخي الكونَ أجمع، فلا بُدّ أن يكون هذا الحبُّ من نفس الصِّيغة.

ليس مُحتَّمًا أن يكون لاعُنفُنا قويًّا، ولكن لا بُدّ له أن يكون صادقًا.

- القوّة تكمُن في تحرّرنا من الخوف، لا في كَمِّيَّة اللَّحم والعضَلات التي ينطوي عليها جسدُنا.
- الشجاعة ليست من صفات الجسد، بل هي خصلةٌ نفسيّةٌ، لقد رأيتُ جبناء يتمتّعون بعَضلاتٍ منيعةٍ، كما شهدت شجاعةً نادرةً في أكثر الأَجسام هُزالاً.

- اللاعُنفُ هو قِمَّةُ الشَّجاعة.
- اللاعنفُ والجُبنُ يتنافيان. سَهلٌ عليّ تَصَوُّرُ إنسانٍ مدجّج بالسّلاح، ومُفتَقِرٍ إلى الشجاعة افتقارًا كلِّيًّا. فامتلاكُ السّلاح يفرِضُ شيئًا من الخَوف، إن لم أَقل من الجُبن؛ ولا وُجود للاعنف في مَعزِلٍ عن بسالةٍ مُتأَصّلةٍ.
- مع من يعرفون كيف يموتون، أجدُ السبيلَ لإرشادهم إلى طريق اللاعنف، غير أنَّ هذه المهمّة تغدو مستحيلةً مع من يخشَونَ الموت.
- ألم يَقُل الشاعرُ أَنَّ الطريقَ المؤدّيةَ إلى الله، مُشرَعَةٌ في وَجه الشُّجعان، وأَنَّ لا طاقةَ للجَبان على أن يخطوَ فيها خطوةً واحدة؟
- ثمتَ فسحةٌ لإنسانٍ عنيفٍ كي يرتدّ عن عُنفه يومًا، أَمّا الجبان فلا رجاءَ منه على الإطلاق.
- إن لم يكُن بدٌّ، على الإطلاق، من الخيار بين الجُبن والعنف، فإِنَّني أوصي بالعُنف... ولكنَّني أومن أنَّ اللاعنفَ يسمو، بمَا لا يقاس، على العُنف، وأَنَّ في المُسامحة من الرجولة أكثر ممّا في الاقتصاص. إن الصَّفح هو زينةُ الجنديّ. ولكنّ الامتناعَ لا يكون صَفحًا، إلاّ عندما تَتوفّر إمكانيّة العِقاب، وهو يُمسي خاليَ المعنى، إن كان ناجمًا عن العجز فحسبُ. ولا يُمكن القول أَنَّ الفأرةَ تَصفَح عن الهرّ عندما تدعُه يلتهمها.
- الضعيف لا يعرفُ الصَّفحَ، والغفرانُ هو ميزةُ الأَقوياء.
- الصَّفحُ يسمو فوق كلّ شيءٍ؛ وما الاثّار سوى ضُعفٍ ناجمٍ عن الخوف الحقيقيّ أو الخوف الخياليّ من التعرّض للأذى.
- العنف لا يُحرّر من الخوف، بل يحاول مكافحة أسباب الخوف. أمَّا من آمن باللاعُنف، فعليه أن يتأهّب لأقسى التضحيات، في سبيل التحرّر من الخوف.
- إنّ لاعُنف الأقوياء هو أَشدّ ما في العالَم من قوًى لا سبيل إلى مقاومتها.
- الإرهاب والكذب أسلحةٌ يستخدمها الضُّعفاء لا الأقوياء.
- العنف انتحارٌ.

- ليس من خطيئةٍ مثل الجُبن.
- دَربُ اللاعنف والحقّ حادٌّ مثلُ حدّ الشَّفرة.
- ليس اللاعنف أمرًا بسيطًا، وما الامتناعُ عن إيذاء أيّ كائنٍ حيٍّ، سوى أقلِّ وجوهه شأنًا. بَيدَ أنَّ اللاعنف يُنتَهَك بفِكرةٍ شرّيرةٍ، باستعجالٍ غير مبرَّرٍ، بقولٍ كاذِبٍ، أوبمُجرَّد تمنّي الشرّ للآخرين.

ويخونُ اللاعنفَ، أيضًا، من يحتفظ لنفسه بمَا يفتقِر إليه الآخرون، في طعامِهم اليوميّ. نحن مسؤولون عنِ الجسَد الذي أُوكل إلينا أَمرُه، وإذ نعرف حدودَ اللّحم والدم، يتحتّم علينا أن نصبُوَ، بلا هوادةٍ، وبكلّ قوانا، إلى المُثُل العليا.

- إذا رُمنا ممارسة اللاعنف توجّب علينا انتباذُ الرغبةِ في امتلاك أيِّ شيءٍ من متاع الأرض، أكثر ممّا يملكه أصغر الناس.
- عندما سأبلغُ مرحلةً لا أقترف فيها أدنى شرٍّ، وأتحرّر فيها من كلّ خاطرةٍ مُتعاليةٍ أو قاسيةٍ، مهما كانت عابرةً، حينئذٍ، وحينئذٍ فقط، سيُفلح اللاعنف لديّ في زعزعة أعتى القلوب قسوةً.
- إنَّ شمسَ اللاعنف تطرُدُ أَمامها كلَّ أشباح الظّلام، كالبُغض، والغَضَب، والخُبث.
- إن نحن احتفظنا، في داخلنا، بسُمّ الضغينة، وادّعينا عدم رغبتِنا في الانتقام، فسمُّنا يرتدّ إلينا، ويُودي بنا إلى التهلكة؛ ولئن كنّا عاجزين عن التمرُّس بحبٍّ قويٍّ كريمٍ، فيتحتّم علينا، على الأقلِّ، إلاّ نُغذّي فينا أيّة ضغينةٍ، كي نأمن العواقب الْوَخيمَة التي تنجم عن لاعنفٍ جسديٍّ فحسبُ.
- مهما سمَت نُبلاً القضيّةُ التي نُدافع عنها، إلاّ أنَّ الضغينةَ والعنف يُفسِدان فرَص السَّلام الذي نسعى إليه، ويضاعفان مظاهرَ البَغضاء والحِقد.
- يُمكن التثبُّت من أنَّ خلافًا قد سُوِّيَ وفقًا لمبادئ اللاعنف، إن هو لم يخَلِّف في قلوب المتخاصمين أيَّ أَثرٍ لضغينةٍ، بل جعل منهم أصدقاء.
- إنّ الله هو، أبدًا، إلى جانب من لا يخافون.

- انتفاءُ الخوف هو شرطُ الروحانيَّةِ الأوّل، فالجبناءُ لا يستطيعون أَبدًا أن يكونوا أخلاقيّين.
- الوسائلُ الفاسِدةُ لا يُمكن أن تؤدّيَ سوى إلى نتائجَ فاسدةٍ؛ وليس بالمِقصلَة تتحقّق المُساواةُ الحقّة بين الفلاّح والأمير، أو بين ربّ العمل وأَجيره.
- إنّني لعلى يقينٍ بأَنَّ الحرِّيّة التي تحقَّقت بوسائلَ غير شريفةٍ، أو بدمِ الآخرين ليست حرّيّةً.
- لا يستطيع أحدٌ التأكيد أنَّه على صوابٍ، وأنّ هذا أو ذاك على خطأٍ، لمُجرَّد أنَّ رأيه يُبيّن له ذلك. ولكن لا بدّ لكل امرئٍ أن يمنع نفسه عن كلّ ما يرى فيه ظُلمًا، مهما كانت النتائج، هذه الخطوةُ الأولى، هي مفتاحُ التوصُّل إلى مِنعة النفس.
- غالبًا ما يخشى الناسُ التعبيرَ عن آرائهم، ولا يلبثون أن يُمسوا مُرائين، إذ إنَّهم يُكوّنون آراءً خاطئةً حول آداب اللّياقة، أو أنّهم يخافون خدشَ حساسيّات المستمعين أو القرّاء. أمّا من توخّى تقدُّم اللاعنف على المستوى الفرديّ والجماعيّ، فعليه الجهرُ بالحقيقة، حتّى لو هي بدت قاسيةً على السمع، ومُنفّرةً للجماهير.
- ما من مؤسّسةٍ بقادرةٍ على فرض لاعُنفٍ إلزاميٍّ؛ كما أنَّه يتعذّرُ ثَبتُ الحقيقة في تشريعٍ مكتوبٍ. بل على كلِّ امرئٍ أن يتبنّاه في حرّيَّةٍ تامّةٍ، بحيثُ يلائمنا ملاءمةَ ثيابٍ مفصّلةٍ على قدّنا، وإلاّ وقعنا في تناقضاتٍ لا حَصر لها.
- كلَّ يومٍ نشهدُ تحقيق ما كان، بالأمس، يعدو التصوُّر، وما فتئ المستحيلُ يتراجع أَمامَ المُمكن؛ وفي مجال العُنف تبدو أحدثُ الاكتشافات مُذهلةً إلى حدٍّ فريدٍ؛ غيرَ إنَّني أُصرّ على أنَّه لا يزال علينا تحقيقُ إنجازاتٍ أعظم شأنًا في مضمار اللاعنف.
- ليست مُمارسَةُ اللاعنف وَقفًا على الحُكَماء والقدّيسين، بل هي، أيضًا، من شأن العامّة. اللاعنف هو سُنّة الجنسِ البشريّ، كما أَنّ العنفَ هو شريعة

البهائم. إنَّ الروحَ في سُباتٍ عند البهيمة، ومن ثمَّ فهي لا تعرف شريعةً غير شريعة القوّة البدنيّة، في حين أنَّ كرامة الإنسان تقتضي منه الخضوعَ لشريعةٍ أسمى، هي سلطانُ الرّوح.

لذلك أتحتُ لنفسي أن أقَدِّم للهند شريعةَ تضحيةِ الذات العريقة.

اللاعنفُ، في صيغته الديناميكيّة، يعني المعاناةَ الواعية. وهذا لا يفرض، مُطلَقًا، أَنّ علينا الخنوعَ لإرادة فاعلي الشرّ، بل أنّ علينا أن نقاوِمَ، بكلّ جوارحنا، إرادة الطاغوت. إنّ فردًا واحدًا يسلُك وِفق هذه الشريعة الأساسيّة، يستطيع تحدِّي سلطانِ أمبراطوريّةٍ ظالمةٍ برمّتها، في سبيل إنقاذ شرَفه، ودينه، ونفسه، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، في سبيل إسقاط هذه الأمبراطوريّة وتجديدها.

ومن ثمَّ، فأنا لستُ أطالب الهندَ بممارَسةِ اللاعنف، بسبب ضُعفها، بل أريدُها أن تمارسَه، وهي مدركةٌ قوّةَ سُلطانها... ليست الهندُ في حاجةٍ إلى استخدام السّلاح لكي تعيَ قوَّتها... إنَّني أريدُ أن تعترفَ الهندُ بأنّ لها نفسًا لا يمكن القضاء عليها، وأنّ بوسعها التغلّبُ على جميع الأوهان الماديّة.

إذا ما لجأَت الهند إلى سياسة السَّيف، قد تظفر بنصرٍ مؤقَّتٍ، ولكنّها لن تعود هي تلك التي يزهو بها قلبي. لقد عقدتُ على الهند قراني، لأَنِّي مدينٌ لها بكلّ شيءٍ، ولديّ يقينٌ مُطلَقٌ بأنّ لها رسالةً تؤدّيها في العالم، وأنّ عليها إلاّ تُقلّد أوروبا تقليدًا أعمى. أمّا إذا ارتضت الهندُ سياسةَ السَّيف، فستكون لي، من ذلك محنةٌ، ولكن أرجو إلاّ أتخاذل أنا نفسي. إنّ دِيني لا يعرفُ حُدودًا جُغرافيّةً، وإيمَاني الحيّ يتخطّى حتّى حبّي للهند ذاتها.

أمّا إذا اتّخذت الهند من العُنف مبدأً، فلن أرغب، بعدُ، في العيش فيها، لأَنَّها ستغدو عاجزةً عن استثارة كبريائي. إنَّ وطنيّتي خاضعةٌ لديني، وإنّني أتعلّق بالهند تعلّق طِفلٍ بصدر أمّه، لأنَّني أشعرُ أنّها توفّر لي ما أفتقر إليه من غِذاءٍ روحيٍّ. ولكنَّها إذا فشلت في توفير هذا الغذاء، فسيُخامرني من الشُّعور، مثلُ ما يخامر يتيمًا فَقَد الأمل في العثور على من يحميه، يومًا.

- في مصلحة الهند تخلّيها عن حقّها في الاقتصاص، فنحن لدينا مُهمّةٌ أفضل، ورسالةٌ أسمى نُبشّر بها الكونَ كلّه.

الغِنى وَالفقر

- الحُبُّ والتّمَلُّكُ الاستئثاريُّ لا يتَماشَيان أَبدًا. فمبدئيًّا حيثُ الحبُّ كاملٌ، لا وجودَ، مُطلقًا للتَّمَلُّك. ولكنَّ صِحَّةَ هذا المبدأ نظريّةٌ، فَحَسبُ. ففي الحياةِ اليوميّة، يَتعذَّرُ علينا إثباتُ حُبٍّ كاملٍ، إذ إنَّ الجسدَ مُلكٌ لا انفكاكَ لنا عنهُ؛ ومن ثَمَّ سيَظَلُّ المرءُ يُعاني شيئًا من النَّقص، ومع ذلك، عليه أن يُحاول، أبدًا، التطلّع صوب الكمال. طالما نحن على قيد الحياة، فالحُبُّ والتجرُّد الكاملان، هما لنا مَثَلٌ أسمى مستحيلُ المَنال. ولكن لا يسوغ أن يفتُرَ عزمُنا على بلوغه.
- لقد تبيّن لي جليًّا أنَّه، إن كان عليَّ خدمةُ أولئكَ الذين أشاطِرُهم العيشَ، وأَقِفُ على مُشكلاتهم، لكي أصبحَ، يومًا، شاهدًا لهم، فمِنَ المُحتَّم عليَّ أن أتخلّى عن كُلِّ ثروةٍ، وأعزِفَ عن كل تَمَلُّك.

  ومن الخطأ الزَّعمُ أنَّني، إثرَ هذا القرار، قد تمكَّنتُ من تحقيقِه بين ليلةٍ وضحاها، لا بل عليَّ الإقرارُ بأَنَّ الأمورَ قد سارت، باديءَ الأَمر، بطيئةً، مُوجعةً؛ ولكن، مع تَوالي الأَيّام، اتَّضَحَ لي وجوبُ أن أُلقي إلى عُرضِ البَحر، كثيرًا من الأشياء التي كنتُ أعتبرُها تخصُّني. كنتُ أونسُ فرَحًا حقًّا في التخلُّصِ منها، شيئًا فشيئًا، وبوتيرةٍ راحت تتسارعُ. حينئذٍ غَمَرني شعورٌ بالتحرُّرِ من عِبءٍ ثقيلٍ، ولم أَعُد مُقيّد الحركة، وبتُّ أستطيعُ التَفرّغ، في فَرَحٍ أكبر، لخدمة مُواطنيّ؛ وتأَكَّد لي، آنذاك، أنَّ التَمَلُّك مُربكٌ، لا يُطاق.
- لقد بدا لي أَنَّ التَّملُّكَ جريمةٌ، إذ لا يسوغُ أن يحتفظَ المرءُ من الأَشياءِ إلاّ بمَا لا يَفتقِرُ إليه الآخرون. ومثلُ هذه الأشياءِ، لا وُجودَ لها. وبالتَّالي، فإنَّ التخلّي عن كُلِّ تملُّكٍ هو، وحدَه، بِمَنال الجميع، وهذا يعني، بعبارةٍ أُخرى، التخلّي، طَوعًا، عن كلِّ شيءٍ...

عليّ، إذَن، وفقَ هذا المَنطِق، التنازُلُ عن جَسَدي لإرادةِ الله، وطالما ظلَّت هذه الآلةُ تَحتَ تَصرُّفي، عليَّ استخدامها، لا من أَجلِ التَمتّع بمَلَذّات العَــيش، بل في سبيل خدمةِ الآخرين، كلَّ ساعةٍ. ولئن كان هذا هو من أمرِ الجــسَد، فكيف، بالأحرى، الثيابُ وما يُشبِهُها؟

لا غَروَ أنَّه يستحيلُ بلوغُ الكمال، في مجال الفَقر الطوعيّ المنذور، غَير أَنَّ الذين قَطَعوا فيه أقصى ما استطاعوا من شَوط، لا يتردَّدون في التأكيــدِ أنَّكُم، يومَ تتنازلون عن كلِّ تَمَلُّكٍ، ستظفرونَ بكلّ كُنوز العالَم.

- أنا لستُ أَملِكُ شيئًا على الإطلاق. منذُ اللَّيلة التي اتَّخذتُ فيها هــذا القــرار، اغتَنَت تجربتي بأمورٍ أربعةٍ: الحياةُ، والقُوَّةُ، والحُرِّيَّةُ، والفَرَح. فإن شِئتَ، يا صديقي، أن تَعرفَ هذه الأمورَ الأَربعةَ، لا بُدَّ لك من انتهاج الدَّربِ عينه.
- الإقلاعُ عن امتلاكِ أيِّ شيءٍ لا يحاكي، أوَّلَ الأَمر، خلعَ ثيابِك عن جَــسدك، بل سلخ لحمِك عن عِظامِك.
- من أَرادَ أَن يَنعَمَ بالحياة، عليهِ التنكُّبُ عن غُرورِها.
- يبدو أنَّ العالَم يجري وراءَ مَتاعٍ ذي قيمةٍ زائلةٍ، وهو يَفتَقِــرُ إلــى الوقــتِ للاهتمامِ بأَيِّ شيءٍ آخَر؛ ومع ذلك، فلو أنَّ الأَمرَ تعرّضَ لبَحثٍ على قَــدرٍ، ولو ضئيلٍ، مِنَ العُمق، لتَبيَّنَ، في النِّهايةِ، أنَّ وحدَه، يستأهِلُ الاهتمَــامَ، مــا دُمغ بطابعِ الأَبديَّة.
- الحضارةُ، في مَفهومِها الحقيقيِّ، لا تقومُ على مُضاعفةِ الحاجات، بــل علــى تحديدها طَوعًا. تلك هي الوسيلةُ الوحيدةُ لإدراك السَّعادة، ولتأهيلنــا لخِدمــةِ الآخرين، على أَمثَل وجهٍ.

لا بُدَّ من تَوَفُّر حدٍّ أَدنى من الرَّاحةِ والرَّفاهية، ولكن عندَ تجاوُز هذا الحدّ، فما كان كفيلاً بمساعدتِنا، يُصبِحُ مصدَرًا للإرباك. إنَّ العَمَــلَ علــى خَلــقِ حاجاتٍ لا حَصرَ لعدِّها، من أَجل السَّعي، في وقتٍ لاحقٍ، لِسَدِّها، إنَّما هــو مطارَدَةٌ للرّيح. وما هذا الهدفُ الخاطئ سوى فخٍّ.

- إنَّ النِّظامَ الاقتصاديَّ الذي يَسير في اتجاهٍ مُعاكِسٍ لتَقَدُّم الفَرد والأمَّة الأَخلاقيّ، لا يُمكن أن يكون إلاّ لاأَخلاقيًّا، وبالتَّالي مُغرِقًا في الخطيئة.

لا يَجدُ الفكرُ مُتّسعًا للترقّي، إن كان عليه مسايرة حياةٍ مُعقّدةٍ، في المجال المادّيّ، والخضوعِ للدُّوارِ الذي تَفرِضُه عِبادةُ "مامون" (إله المال). ولا تجودُ الحياةُ بعطاياها، إلاّ يومَ يتمرّسُ المرءُ بحياةٍ دافِعُها النُّبلُ.

- ينبغي لجمُ هذا الجَري المحمومِ الذي يقودُ الإنسانَ إلى نُشدانِ المزيدِ من المالِ باستمرارٍ.
- استعيضوا عن الجَشَع بالحُبِّ، فيستقيم كلُّ شَيءٍ.
- إنَّ فَنَّ جَمع المال يُصبح مصدَرَ انحطاطٍ وحَقارةٍ، إن لم يُرافقهُ فنٌّ آخر أَوفرُ نُبلاً، إلاّ وهوَ فَنُّ إنفاقِ الثَّروة على نحوٍ مُفيدٍ.
- لستُ أستطيعُ تخيُّلَ وسيلةٍ لعبادهِ الله أسمى من أن أؤدّيَ، باسمِه، للفُقَراء، العملَ الذي أَلِفوا تأديتَه بأنفسِهم.
- علينا إلاّ نَعتَبِرَ أَنفسَنا مَلاّكينَ لثَروتنا، بل أمناءَ عليها، وأن نَستَخدِمَها لخِدمةِ المُجتمع، مُحتَفظينَ لأنفسنا بمَا لا يزيد عن مُكافأةٍ عادِلَةٍ عمَّا نُؤَدّيه من خدماتٍ. وفِقَ مثلِ هذا النِّظامِ، لن يكونَ، ثمَّةَ، فقيرٌ واحدٌ، ولا غنيٌّ واحدٌ.
- في تقديري، إنَّنا، على نَحوٍ ما، لصوصٌ. فإن أنا استَولَيتُ على ما لستُ إليه بحاجةٍ لازِبَةٍ فَوريّةٍ، فإنّني أَسرُقُه من إنسانٍ آخَر. لا بل قد أَذهَبُ إلى القول بأَنّ هذهِ هي قاعدةٌ أساسيَّةٌ من نواميس الطَّبيعة؛ فالطَّبيعةُ تُنتِج، بكمّيَّاتٍ كافيةٍ، ما يلزمُنا، يومًا فيومًا؛ فإن اقتَصَرَ كلٌّ واحدٍ على تناوُلِ حاجتِه الشخصيّةِ، لا أكثرَ، لانتَفى الفقرُ من هذا العالَم، ولما رأَينا أحَدًا يَنفُقُ جوعًا؛ أمَّا ونحن مُقيمونَ على اللاّمساواةِ، فنَحنُ لُصوصٌ.
- حتّى الأشياءُ التي لم تُسرَق، أَصلاً، ينبغي اعتبارُها مسروقةً، متى ظَلَّ المرءُ يمتلِكُها، وهُو في غَير حَاجَةٍ إليها.
- لِجَميع النَّاسِ حقٌّ مُتساوٍ في الخيراتِ التي لا بُدَّ منها لاستمرارِ الوُجود.

- الخُطوة الأولى، في طريق العدالةِ الاجتماعيَّة، تكمُنُ فــي قيامِنــا بــالتغييرِ المُقتَضى في حياتِنا الشخصيّة، بحيثُ نَخضَعُ لِلْجُزْءِ السَّامي من كيانِنا.
- علينا أن نَخجَلَ من أنفُسِنا، إن نحنُ أخلَدنا إلى الرَّاحة، أو أَقمنا مأدُبةً عامرةً، طالما كانَ، ثمَّةَ، إنسانٌ قادرٌ على العَمَل، لا شُغلَ له أو لا طَعامَ.
- إنني أَمقُتُ كلَّ امتيازٍ أو احتكارٍ، وأَعتَبرُ مُحرَّمًا كلَّ ما لا يُمكن اقتسامُه مــع الجماهير.
- سيَّانٌ مُحاولةُ إبلاغ كَلِمَة الله إلى كلبٍ، أو إلى ملايين الجياعِ الــذينَ فَقَــدَت أبصارُهم كُلَّ ألقٍ، وبات إلهُهم الوحيدُ هو الخبزُ الــذي يفتَقِــرُونَ إليــه. إنَّ الوسيلةَ الوحيدة لمخاطبةِ هؤلاء تَتمثَّل في توفير ما باتَ لهم مُقَدَّسًا: العملُ.
- لا مِراءَ أنّه من العَذبِ جدًّا الكلامُ عن الله، حولَ مائدةٍ عامرةٍ، بمناسبةِ غَداءٍ فاخرٍ، ومع اليقين بأنَّ الوجبةَ التاليةَ ستكونُ، هي أيضًا، أشهى. ولكن كيفَ التحدُّثُ عن الله إلى ملايين النَّاسِ الذينَ لا يظفَرون بوجبتَين يوميّتَين من الطّعام؟
- لا يَسعُ الله الظُّهورُ لِشَعبٍ يموتُ جوعًا، ويَئِنُّ من البَطالة، بِــشكلٍ مقبــولٍ، سوى شكلِ العمَل، وما يُواكبُه من أجرٍ يؤمِّن أَوَدَ العيش.
- كلُّ ما له بالحياةِ الاقتصاديَّةِ صِلةٌ، يقومُ، لدى الفُقراء، مقامَ حياةٍ رُوحِيَّةٍ. ولن يُمكنَكُم شَدُّ اهتمام ملايين الجياع إلى اعتباراتٍ أُخرى، بل سيهوي كلامُكــم في الفراغ. ولكن، وَفِّروا لهم الطَّعامَ، فتُصبحوا لهم آلهةً، فهم عاجِزون عــن أيّ تفكيرٍ آخر.
- إن كان الرأسمالُ مَصدَرَ قُوّةٍ، فكذلك هو العملُ، أيضًا. وبِوسع كلٍّ من تَينــك القُوَّتَين، أن يُستَخدَم لأَجل البِناء أو للهَدم، وكلِتاهُمــا مُتلازِمتــان، إذ حالمــا يُدرِكُ العاملُ مدى قُوَّته، يُمسي قادِرًا على أن يكون لــصاحبِ رأسِ المــالِ شريكًا، عِوَضًا عن أَن يكونَ له عبدًا. أمّا إذا حاولَ الاستيلاءَ على كلِّ شيءٍ، فَمِنَ المُرجّح جدًّا أنَّه سيقتلُ الدَّجاجةَ ذاتَ البيض الذَّهبيّ.
- إنّ كُلَّ استغلالٍ يَفرِضُ، في الأَساسِ، تعاوُنًا طَوعيًّا أو قــسريًّا، مــن قِبَــل

المستَغَلّين. غَيرَ أنَّ للمَصالِحِ، في ذَلك، يَدًا، بحيثُ نَضمُّ بين ذراعَينا القيـودَ التي تُكبِّلُنا.

- يُمكِنُ القضاءُ على استغلال الفُقَراء، لا بـالتخلُّص مـن بِـضعةِ أصـحابِ الملايين، بل بالكِفاح ضدَّ جَهل الفُقراء، وبتعليمهم عَدَمَ التعـاوُنِ مـع مـن يستَغِلّونَهم؛ ومن شأن ذلك أن يُعيد المُستَغِلّين إلى رُشدهم، في آنٍ معًـا. إنَّ رأسَ المال ليس، بحَدِّ ذاتِه، شرًّا، بل إنَّ الوبالَ يَكمُنُ في سُـوء اسـتخدامِه؛ ولن يكونَ غِنىً عن الرأسمال، بشكلٍ أَو بآخَر.
- لا جَرَمَ أَنَّنا نسرُقُ عندما نَسلِبُ الغَيرَ أَيَّ شيءٍ بغَيرِ إذنِه، أَو حتّى بإذنه، إن لم تكُن إلينا به حاجةٌ أكيدةٌ. اشتهاءُ ما لِلغَير، أو التطلّع إليه باشـتهاءٍ، هـو أيضًا سَرِقةٌ... أَمّا التَّقَيُّدُ بمبدأ الامتناعِ عن السَّرِقة، فيقتضي التواضع وإعمانَ الفكرِ، واليَقَظَةَ، والعيشَ البسيطَ.
- اللاتَملُّكُ مرتَبِطٌ بالامتِناعِ عن السَّرِقة... التَمَلّك يقتضي الحيطَةَ... ولكنّ الله لا يُوفّر للغَد مؤونةً احتياطيّةً. إنَّه لا يَخلُق إلاّ ما يلزَمُ للوقتِ الحاضر، ويُعطينا، في كلِّ يومٍ، خبزَنا كفافَنا. وقد خَبَرَ القِدّيسون، بالتجربةِ، هذه الحقيقةَ...
  على الإنسانِ أن يكونَ كالطّائر، لا سَقفَ فوقَ رأسِه.
- هذه وصيَّةٌ نبيلةٌ: "تمتَّعْ بخيراتِ الدُّنيا بعُزوفكَ عنها".
- إنَّ الاقتصادَ الذي يتَعارضُ والطمأنينةَ الأخلاقيَّة لدى فردٍ أو أمَّـةٍ، هـو لا أخلاقيٌّ وحافلٌ بالخطيئة.
- يُثبتُ الواقع أنَّه حيثُ يستَتبُّ الاستقرارُ الاقتصاديُّ، يَتأَكَّـدُ أيـضًا الإفـلاسُ الرُوحيّ.

الحريّة والديمقراطيّة والحكم

- إنَّ بقاءَ هذا العَدَدِ الجَمِّ من النَّاس، أَحياءً، على أرضِ كَوكَبنا، لَدليلٌ علـى أنَّ أسُسَ العالَم ليست قائمةً على قُوّةِ السِّلاح، بل على قُوّة الحقيقَة والحُبّ.
- يطيبُ الموتُ عندما يتعذّر العيشُ في حُرّيّةٍ.

- لديّ قناعةٌ مُطلَقَةٌ بأنَّ ما من إنسانٍ يفقِد حُرّيّتَه، إلاّ من جرَّاءِ هوانٍ في نفسه.
- ليسَ من شجاعةٍ أعظم من رَفض الرُّكوعِ، رفضًا لارُجوعَ عنه، أمامَ سُلطةٍ أرضيَّةٍ، مهما بلَغت من جبَروتٍ، على إلاّ يَصحَبَ هذا الرَّفض أيَّةُ نَقمةٍ، وأن يكونَ دافعَه إيمَانٌ راسخٌ بأَنّ الرّوحَ وحدَه، ولا شيء سواه، هو الذي يُحيي.
- مِنَ المألوف لُجوءُ الشُّرطةِ والجيشِ إلى قمعِ الأَقلِّيَّاتِ، مهما عظُمت قُوَّتُها. ولكن ليسَ بوسعِ شُرطةٍ أو جيشٍ حملُ إرادةِ شعبٍ بأكملِه، مُصَمِّمٍ على المقاومةِ، حتّى استنفادِ كلِّ طاقاتِه، على الاستسلام.

سأكونُ قد أنجزتُ رِسالتي إن أنا أفلَحتُ في إقناعِ البَشريَّةِ بأنَّ كلَّ رجُلٍ وكلَّ امرأةٍ، مهما كان لهما من قُوّةٍ جسديّة، هما حارسا كرامتهما وحُرّيّتهما، وأَنَّ باستطاعتهما حمايتُها، حتّى لو تألَّب العالَم أجمعُ ضِدّ من عَزَم على الصُّمود وحيدًا.

- الدَّولةُ تُمَثِّلُ العُنفَ في صيغةٍ مُكثّفةٍ ومُنظَّمةٍ. فللفَردِ رُوحٌ، أَمَّا الدولةُ، وهي آلةٌ لا روحَ لها، فلا غِنى لها عن العُنف، وهو مصدَرُ وُجودِها.
- حكومةٌ تقوم على الإرهاب لا تَستَحقُّ الوجودَ إطلاقًا.
- هناك قولٌ مأثورٌ للكاتب البريطانيّ "ثورو" وهو أنَّ الحُكمَ الأَفضلَ هو الذي يحكُم أَقلّ.
- الاستقلالُ الحقُّ لن يَتمَّ بفَضلِ استيلاء البعض على مقاليد الحُكم، بل نتيجةَ قُدرةٍ سيتمتّع بها، يومًا، جميعُ المواطنين، وبها يتأهَّلونَ لمُقاوَمة كلِّ إفراطٍ في السُّلطة.
- إنَّ روحَ الديمقراطيَّة ليس أمرًا آليًّا يُمكنُ ترسيخُه بإلغاء بعض الصِيغ، بل هو يقتضي تَحوُّلاً في القلوب، يُفضي إلى توطيد رُوحِ الإخاء.
- إنَّ أَفضلَ الأعمالِ وأعمقَها رُسوخًا هي التي تَتِمُّ في عُزلةِ الأَقلِّيَّة.
- على المُتنطّحينَ لقِيادةِ الشَّعب أن يكونوا عازمينَ على عَدَمِ الانقيادِ له: ذلك شرطٌ لا غنى عنه لتفادي حُكمِ الرَّعاع، وتحقيقِ تَطوّرِ البلاد، في إطارِ النِّظام.

- مساهَمَةُ المبادَرَةِ الفرديَّة هي أساسُ كلِّ تَقَدُّمٍ.
- إن ارتكَبَ والدٌ ظُلمًا، فَواجبُ الأَبناء هَجرُ المنزِلِ الأبـويّ. وإن أَدارَ مُـديرٌ مدرسةً على غَيرِ اكتراثٍ لمَبادئ الأخلاق، فعلى الطُّلاب هجرُ هذه المدرسة، وإذا هوى رئيسُ جماعةٍ إلى الفَسادِ، فأعضاءُ هذه الجماعة، الحريصونَ على نظافةِ أَيديهم، لا مَفرّ لهم منَ الاستقالة. كذلك الأَمرُ، إذا اقترفت حكومةٌ ظُلمًا جائرًا، توجَّبَ على المُواطن الإقلاع عن تعاوُنه معها، كُلّيًا أو جزئيًّا، علَّ الْمَسْؤُولِينَ يرعَوُون عن جريمتِهم.

هذه الحالاتُ جميعُها تنطوي على عُنصرِ أَلَمٍ أَدبيٍّ أَو جسديٍّ، ولكن في مَعزلٍ عن هذا الأَلَم، لا سبيلَ إلى بُلوغ الحُرِّيَّة.

- لا أصدِّقُ أنَّ فردًا مُنعَزِلاً يستطيعُ التَرقّي في مَعارج الرُّوح، مـن غَيـرِ أن يعودَ تَرقّيه بالفائدةِ على من يُحيطونَ به. بل إنّي أومِنُ بالوحدةِ الجوهريّة بين الإنسانِ وكلِّ حيٍّ؛ وبالتَّالي، فإن خطا إنسانٌ واحدٌ خُطوةً في طريـق حيـاةِ الروح، ففي خُطوته مَكسَبٌ للبشريّةِ جمعاء. وعلى النَّقيض مـن ذلـك، إنَّ تَقَهقُرَ أيِّ فردٍ يعود بالعالم أَجمعَ القَهقَرى.

ليس هناك فضيلةٌ واحدةٌ لا تعودُ بالفضلِ إلاّ على فردٍ واحدٍ.

- لا يستطيعُ إنسانٌ العيشَ بقِوى الشرّ. حتّى حبُّ الذات، إذا ما أُحـسِنَ فهمُـه، يَفرِضُ حدًّا أدنى من احترام الآخرين. إنَّ تماسُـكَ الـدّول يتحقّـق بتبـادُل الاحترامِ على نحو ما هو قائمٌ بين المُواطنين.
- إنَّ الكارثةَ الحقيقيّةَ لا تكمُنُ في الوطنيّة، بل في ضـيقِ الرُّؤيـة، والأَنانيّـةِ والقبَليَّةِ التي تُسبِّبُ تعاسةَ الأمَمِ الحديثة، التي يبتَغي كُلٌّ منها الازدهارَ علـى حسابِ سواها، والنهوضَ على أَنقاضِ الآخرين.
- لا يُمكِنُ الوصولُ إلى سِلمٍ دائمٍ إلاّ يومَ يُقلِعُ المسؤولونَ، من غَيـرِ تحفُّـظٍ، وبوَعيٍ وتصميمٍ، عن استخدام وسائلِ التّدميرِ الواقعةِ تحت إشرافهم. وبَدَهيٌّ أنَّ تحقيقَ ذلك يَقتَضي تَخَلِّي الدوَلِ الكُبرى عن مَطَامِعهَا الأَمبرياليَّة، وفـي

هذا السبيلِ، لا بدَّ لرعايا هذه الدّولِ الكُبرى من الإقلاع عن تبنّي سياسةِ منافَسَةٍ من شأنِها القضاءُ على اقتصادِنا، كما لا بدّ لها من انتباذِ الرَّغبةِ في مُضاعفةِ احتياجاتها، ممّا يفرض، أساسًا، رَفضًا لزيادة الممتلكات الماديّة.

- إنَّ سلاسل العَبدِ تتحطَّمُ لَحظَةَ يعتَبِرُ نفسَه إنسانًا حُرًّا.
- ليستِ السَّلاسلُ الذهبيَّةُ بأقلَّ تجريحًا لكرامةِ الإنسانِ من السَّلاسِلِ الحديديَّةِ، فالجرح ينتُجُ من السَّلاسل ذاتِها، لا من نوعِ المَعدَن.

مِن حصَاد التجَارب

- حياتي تُؤلِّفُ كُلاً لا يَتجزَّأ، وجميعُ أفعالي تَجمعُ بينَها رابطةٌ واحدةٌ، إذ إنَّها، جميعَها، تَنبع من حُبٍّ للإنسانيّةِ لا تَخمُدُ له جُذوةٌ.
- إنَّ حياتي دَأبٌ لا هوادة فيه، يَندرِجُ في جوٍّ من الفَرَح. فحينَ آبى الاهتمامَ بالغَدِ، أشعر أنّني حرٌّ كالهواء... وألقى عزاءً في حَربي المتّصلةِ على شهَوات الجسد.
- إنَّما عُيوبي وفَشَلي بَرَكَةٌ من الله، بقَدر ما هي، كذلك، مواهبي ونجاحي. إنّني أُلقي بها كلِّها عندَ أَقدام هَيكله. لِمَ اصطفى الربُّ الأَداةَ المُفتقِرةَ إلى الكمال التي أمثّلُها، من أَجل تحقيقِ عَمَلٍ جليلِ الشأنِ كالذي انتُدبتُ له؟ أعتَقِدُ أنَّه فَعَل ذلك عامِدًا. فقد كان لا بُدَّ من شَدِّ أَزر ملايين الفُقَراء الجُهَلاء، المُتَألِّمينَ في صمتٍ. وكان من شأنِ إنسانٍ كاملٍ أن يَفُتَّ في عَضُدِهم، ويُثَبِّطَ عزائمَهُم، للوَهلة الأولى. ولكن، بالمقابلِ، بدت لهم جميعُ الآمال مُتاحةً، عندما رأَوا رجُلاً مثلَهم؟ يُعاني من مثلِ مَواطن ضعفهم، ومعَ ذلك، يمضي قدُمًا على دُروب اللاعنفِ والحُبّ. كان من شأن أيِّ إنسانٍ كاملٍ أن يَظَلّ مجهولاً، لا يجدُ أحدٌ فيه الزَّعيم المنتظَر، أو، رُبَّمَا، كان سيُضطرّ إلى الاعتكاف في كَهْفٍ. أمَّا من يقتفي أثَري، فأمامَه فرصةٌ كبرى لكي يبُذّني كمالاً، وقد يتسنّى له إبلاغكم رسالةً ذاتَ شأنٍ عظيمٍ.

- إنَّني أدرِك الحدودَ التي تُقيّدني، غيرَ أنَّ بعض القُوّة التي أَنعمُ بها، نــاجِمٌ عــن هذا الإدراك بالذَّات. إنَّ الفَضل في كلّ ما أُتيح لي عملُه، سحابةَ حياتي، يعودُ، بالدَّرجة الأولى، إلى أنّني من خلال حدودي، اكتشفتُ فِعلَ قُوّةٍ غير قُوّتي.
- إنَّ الخدماتِ التي أُسديها بعيدةٌ عن الكمال، غيرَ أنّ الربَّ، حتّــى الآن، قــد باركها رغمَ عيوبها.
- لا أريدُ التَكَهُّنَ بالمُستَقبَل. ما يَهُمُّني هو تَدبّرُ أَمرَ الحاضر، فالله لــم يعطِنــي وسائلَ الإشرافِ على اللَّحظة القادمة.
- إنَّ الظُّلمةَ المُطْبِقَةَ التي تَكتَنِفُنا ليست لَعنةً بل هي نعمةٌ. فقد وَهَبنا الله القُــدرةَ على رُؤيةِ الخُطوةِ الماثلة أمامَنا فقط، وحسبُنا ذلك، إذا ما كَشَفَت لنا الأنوارُ السماويَّة تلك الخُطوةَ، وسيَسَعُنا، حينئذٍ، أن نُنشِد مع نيومن: "حسبي خطــوةٌ واحدةٌ"، في حين تُتيح لنا تجاربُنا السَّابقة التأَكُّد من أنَّ خطــوةً تاليــةً فــي انتظارِنا. بعبارةٍ أُخرى، إنَّ الظُّلمةَ المُطبِقَةَ ليست مستَغلِقَةً علــى نحــوِ مــا نَتخيَّلُ، بل هي تبدو كذلك، عندما نَطمَحُ، في نفادِ صَبرنا، للتَّطَلّع إلى أبعــدَ من خُطوةٍ واحدةٍ.
- إنْ أنا بَخَستُ أَيَّ إنسانٍ حقَّه، كان عليَّ أن أؤدّي، عن ذلك، حِــسابًا أمــامَ إلهــي ومُبدعي. ولكنَّني واثقٌ أنّه سيُباركُني عندما أكونُ قد أعطيتُ قريبي أكثرَ من حَقّه.
- في فلسفة الحياةِ التي أتبنّاها، الوسائلُ والغايةُ مترادفان.
- إنَّ رفضي للكَذِبِ قد طالما أنقَذني من مزالق.
- لقد سنَنتُ لنفسي قاعدةً تقضي إلاّ ألجأَ أبدًا إلى القضاء بشأنِ أيَّةِ إهانــةٍ ذاتِ طابعٍ شخصيٍّ صِرف.
- تتحقَّقُ دائمًا أكثرُ رَغَبات القلبِ رصانةً وطُهرًا، ولقد طالما تَبيَّنتُ ذلك. فقــد كانت، أبدًا، أَغلى أمنيّاتي هي خدمةُ الفُقَراء، وبالفعــل حملتنــي الظــروفُ باطّرادٍ على الْعَيْش بين ظَهرانيهم، بحيثُ أَضحيتُ وقضيّتَهم واحدًا.

- إنَّ دُنوَّنا من الهَدَف يتناسب وطُهرَ وسائلنا، قد يبدو هذا الأسلوبُ طويلاً، بل طويلاً جدًّا، ولكنَّني واثقٌ أنَّه الأَقصر.
- إنَّ الهَدَفَ الذي أسعى إليه، مهما بلغ الثَّمنُ، هو تحقيقُ ذاتي ورؤيةُ الله وجهًا لِوجهٍ.
- بوسيلةٍ أَو بأُخرى أَعرِفُ اكتشافَ أَنبَلِ ما في البشريّة، وهذا ما يُتيح لي التشبُّثَ بإيمَاني بالله، وبالطبيعةِ البشريَّة.
- أنا لستُ من أصحابِ الرُّؤَى، ولا أَدّعي القداسةَ؛ إنّني كائنٌ أَرضيٌّ أعيشُ على مُستوى الأرضِ، وأعاني ما تعانونَه من وَهَنٍ؛ غير أَنَّني قد رأَيتُ العالَم، عِشتُ وعينايَ مفتوحتانِ، واجتَزت أقسى صُنوف المِحن التي قد تَحِلُّ بإِنسانٍ، وهذا ما ثقَّفَني.
- إنَّ التبجيلَ الذي يُحيطُني به جُمهورٌ عديمُ التفكير يُصيبُني بالغَثيان. وكُنتُ شعرتُ بقَدرٍ أوفرَ جدًّا من الارتياحِ لو أَنَّهم بَصَقوا في وجهي.
- حِكمتي هي إدراكي الواضِحُ جدًّا لكلِّ ما ينقُصُني.
- ما يلزمني من أَجلِ الخدمةِ هو الحبُّ، لا الوجاهةُ. وطالما بَقِيتُ مُخلِصًا للقَضيَّةِ التي أخدِمُها، فلن أَفتَقِرَ إلى الحُبّ.
- لو أَنَّني افتَقَرتُ إلى روح المَرَح، لكنتُ انتَحرتُ منذُ أَمَدٍ بعيدٍ.
- إنَّ نفسي تأبى كلَّ راحةٍ طالما ظلَّت تَشهَدُ، عاجزةً، أَلَمًا واحدًا، أَو ظُلمًا واحدًا. إنّني، معَ ضَعْفِي ووَهني وشقائي، لن أُفلِح في القضاءِ على جميع الشُّرور، غير أنَّني لن أستطيعَ، أيضًا، غَسلَ يديّ منها. فالرُّوحُ يجذِبُني من جهةٍ، والجَسَدُ من الجهةِ الأُخرى، والحرّيَّةُ تنبعثُ من تنازُع تَينكَ القوّتَين. ولكنَّها تأتي وَئيدةً، وفي أعقابِ مراحلَ عديدةٍ، ومَصاعبَ شاقّةٍ. إنَّني لن أَظفرَ بالحرّيَّةِ من جرّاء رفضي العَمَلَ مَبدئيًّا، بل إنَّني أظفر بها بِفَضلِ عَمَلٍ واعٍ مُتجرِّدٍ. ويؤدِّي هذا النضَالُ إلى صَلَبٍ مُستَمرٍّ للجَسد، في سبيل تحرير الرُّوحِ، تحريرًا أَمثَلَ.

- إذا ما تبيَّنَ لي أنَّ أحدَ أعمالي الرُّوحيّةِ يَتعذَّرُ تحقيقُه عَمَليًّا، فلا بُدَّ من اعترافي بفَشله، إذ إنَّني واثِقٌ من أنَّ أكثر الأعمالِ روحانيّةً هو، في آنٍ معًا، أَيسرُها تحقيقًا.
- في تقديري أنَّ بُلوغَ الكمال، في مضمار الرّوح، يقتضي الوُصولَ إلى عِفَّةٍ مُطلَقَةٍ في الفِكرِ، والقَولِ، والعَمَل. وإنّ أُمَّةً تفتَقِرُ إلى رجلٍ من هذا النَمَط لجديرةٌ بالرِّثاء.
- الهَدَفُ لا يني يتباعَدُ باطِّرادٍ، وبقَدر ما نتقدَّمُ يتعاظم إدراكُنا لعجزِنا
- كثيرًا ما يحدُثُ خَلطٌ بين المعرفةِ الروحيَّةِ والتَقَدُّمِ الروحانيّ، في حين أنَّه ليسَ للمعرفةِ الكتابيَّةِ أو للجَدَلِ الفلسفيِّ أيُّ شأنٍ بالرُّوحانيّةِ التي تقومُ، بالأَحرى، على المُضيِّ في التمرُّس بِمنعَةِ القلب إلى أقصى الحدود. إنَّ الإقدامَ هو أوَّل ما تقتضيه الرُّوحانيَّة، إذ يستحيلُ على الجَبَان أن يكون فاضلاً.
- ليس من الفضيلة في شيءٍ الإحجامُ عن عملٍ ما، خَشيةَ ما قد يجرّه من عواقب.
- لا يُعتَبَرُ أخلاقيًّا، ما لم يكُن طَوعيًّا، وليس للأخلاق من أَثَرٍ في سلوكٍ يحاكي الآلة. ولكي يُوصَفَ أيُّ عَمَلٍ بالأَخلاقيَّة، لا بُدَّ أن يكون قد أُنجِزَ في وعيٍ تامٍّ، ونُظِر إليه على أنَّه واجبٌ. أمَّا العَمَل الذي يُمليه الخوفُ أو القسرُ، فهو خالٍ من الأخلاق.
- قاعدة الأخلاق السَّليمة لا تكمُنُ في سلوك الدُّروب المطروقة، بل في أن يكتَشِفَ كلُّ فردٍ السبيلَ الذي يناسبُه، وأن يسيرَ عليه ببسالةٍ.
- مفروضٌ على الإنسانِ أن ينقادَ، في جميع أعمالِه، إلى اعتباراتٍ أخلاقيَّةٍ.
- لا همَّ إن كان العَمَلُ الذي تقومونَ به تافهًا، بل أَنجِزوه على أَمثل وجهٍ مُمكِنٍ، وأَولوه من العناية والاهتمامِ ما تُولُونَه لأَجَلِّ الأمور شأنًا، فإنَّكم ستُدانون على هذه الهَنَاتِ الصَّغيرة.
- هناك حُدودٌ لنُمُوِّ ذكاء الإنسان، أَمَّا خِصالُ القلبِ، فلا حدودَ لنُمُوِّها.
- تحينُ مرحَلةٌ في الحياةِ لا يبقى فيها للمرء حاجَةٌ إلى البَوحِ بأفكاره علانيةً،

وبِقَدرٍ أَقلَّ، إلى التعبير عنها بأعمالٍ خارجيَّةٍ، إذ يُصبح بوسع الأفكارِ أن تَعملَ بذاتها، وتترسَّخَ لَدَيها القُدرةُ على ذلك. ويُمكنُ القولُ في من كان فكرُه عَمَلاً، أنَّ سكونَه الظَّاهرَ هو وسيلتُه الحقيقيَّة للعمل... في هذا السبيلِ أقودُ جُهودي.

- إنَّ عُظماءَ التَّاريخ قد وَجَدوا أَنفسَهم، أبدًا، وحيدينَ، ساعةَ المعركةِ؛ كانوا يُؤمنونَ في أَنفسهم وفي الله إيمانًا حيًّا، وتحدوهم الثِّقَةُ بأنَّ الله إلى جانبهم، وبالتّالي فلم يُداخلهم، قطُّ، شعورٌ بالتخلّي عنهم.
- عندما يعملُ إنسانٌ في سبيل هَدَفٍ، تُصبِح مقاومتُه مُستحيلةً.
- تنتابُني رغبةٌ عارمةٌ في أن أَذوبَ في الكائِنِ الأَبديِّ، وأمسيَ مثلَ كُتلةِ صَلصالٍ بين يدي مثَّالٍ.
- إنَّ تَقَشُّفاتي، وأَصوامي، وَصَلواتي، لا قيمةَ لها إن أنا تَذَرَّعتُ بها وسيلةً لإصلاح نفسي. ولكنَّها تغدو ذاتَ قيمةٍ لا تُقدَّرُ بثَمَنٍ، إن هي مثَّلت تَطَلُّعَات نفسٍ تجهَدُ في إلقاء رأسِها المُتعَبِ على رُكبتي خالِقِها.
- لقد جَهِدتُ، أبدًا، في أن أُضمرَ لمن يُخالفونَني الرأيَ من المودَّةِ، مثلما أضمِرُ لمن هم أَقربُ المخلوقاتِ منّي، وأَعزُّهم على نفسي.
- إنَّ كلَّ تَقَدُّمٍ يتحقَّقُ عِبر الأَخطاءِ وتصحيحها؛ وما مِن خَيرٍ يأتي جاهزًا من يَد الله، بل علينا أن نَصوغَه بأنفُسِنا من خِلال تجارِبَ وأخطاءَ مُتكَرِّرةٍ. تلك هي سنّةُ النُموِّ الشخصيّ.
- كثيرًا ما أُخِذَ عليّ عِنادٌ لا يلين، وعَدَم انصياعي لقرارِ الأغلبيَّة، لا بل قد اتُّهمتُ بالاستبداد... غير أنَّني، على النَّقيض من ذلك، أَفخَرُ بأَنَّني مَرِنٌ بالفِطرَةِ، في كُلِّ ما يتعلَّقُ بأمورٍ ليست أساسيَّةً. إنَّني أَمقُتُ الاستبدادَ، فأَنا أُقيمُ مِن عظيمِ القَدرِ لحُرِّيَّتي واستقلالي ما لا يسعُني معه سوى احترامِهما لدى الآخرين. إنّي آبى أن يَمشيَ في إثري إنسانٌ واحدٌ، ما لم أَكُن قد نَفَذتُ إلى عقلِه... لقد أَظهَرتْ لي التجربة أنّ العيش في المجتمع مع الحفاظ على استقلالي، يقتضي حصر استقلالي في القضايا التي تَتَّسمُ بالأَهميَّةِ الكُبرى.

أمَّا في جميع المضامير الأُخرى، حيثُ لا شيءَ يَقسرُني على التضحيةِ بمبادئي الدينيَّةِ والأَخلاقيَّةِ، فلا بُدّ من الانحناء أَمامَ الأغلبيَّة.

- لستُ أريدُ جُدرانًا تُحيقُ بمَنزلي من كلِّ صوبٍ، وآبى أن تُسدَّ نوافذي، بل أرغَبُ في أن تَهُبَّ جميعُ الثَّقافاتِ على بيتي، بكُلِّ حرِّيَّةٍ، ولكنَّني أَرفُض لأَيٍّ منها أن تنتزعَني من أَرضي، كما أرفُض العيشَ في بيتِ شَعبٍ آخَر بمثابةِ دخيلٍ، أو مُستَعطٍ، أو عَبدٍ.
- لا أَذكُر أنّني قُمتُ بعملٍ واحدٍ في حياتي بدافعِ المصلحة، ولقد آمنتُ، أبدًا، بأَنَّ الأخلاقيَّةَ العُليا هي المصلحةُ العليا.
- لستُ أبتغي مَلكوتًا أو خلاصًا أو فردَوسًا، بل إنَّ ما أتوخّاه هو إزاحةُ الكَرْب عن المسحوق والفقير.
- الحبُّ يدفَعُ ولا يقسُر.
- هَدَفي هو مصادَقَةُ العالَم أَجمع، وبوسعي التوفيقُ بين أَعظمِ حُبٍّ، وأَشدِّ مقاومةٍ للخطأ.
- إنَّ إيماني بسُلطانِ الحُبِّ والحقيقةِ الكاسِح، قد تَغَلغَلَ إلى أغوار كياني، ولا شيءَ في الوُجودِ يستطيعُ انتزاعَ هذا الإيمانِ منّي.
- أيُّ حاجزٍ لا يقوى الحبُّ على تحطيمه!
- حيثُ تكون المحبَّة، هناك تكمُنُ الحياةُ، أَمَّا البُغض فيقودُ إلى الدَّمار. ليسَ عندي سلاحٌ أَفرِضُ به السُّلطةَ على أيٍّ كان سوى المحبَّة.
- تعتَمِدُ السَّعادةُ على ما تستطيع عطاءه، لا على ما تستطيعُ الظَّفرَ به.
- الحبُّ لا يُطالِبُ أبدًا، ويُعطي دائمًا. الحبُّ يتألَّم دائمًا، ولا يَنقَم أبدًا، ولا يثأَرُ لنَفسِه.
- واجبُ الإنسانِ الحدُّ من البُغض، ونَشرُ الحُبِّ.
- عَدلُ الحُبّ تَسليمٌ، وعدلُ القانون اقتِصاصٌ.

- من شأنِ الحُبّ أن يتحوّلَ سُمًّا، ما لم تُقيّده اعتباراتٌ أَخلاقيَّةٌ.
- الفضيلةُ هي اكتشافُك أَفضلَ ما في خصمِك، والتوجّه إليه.
- لو لم يُعلِّمنا يسوعُ جَعلَ شريعةِ الحُبّ الأَزليّةِ مِعيارًا للحياةِ كلِّها، لكانت حَياتُه، ولكان موتُه باطلَين.
- اِنهَلْ ما استطعتَ من أعماقِ اليَنابيعِ المُتدفِّقةِ من "موعظة الجبل"، فتعاليمُ هذه الموعِظَةِ تعني كُلَّ واحدٍ منّا.
- لا أَظُنُّ أنَّ لِمَوعِظةِ الجَبَل معنىً، إن لم يكُن لها، في حياةِ كلِّ إنسانٍ، استخدامٌ جوهريٌّ ويوميٌّ.
- القاعدةُ الذَّهبيَّةُ هي الالتزامُ بعمل الخَير، أيًّا كانَ الثَمَنُ.
- يُصبح المرءُ عظيمًا بقَدر ما يعمل لصالحِ إخوانه البَشَر.
- يُمكننا مَقتُ عُيوب أخٍ لنا من غَيرِ أن نَمقته هو نفسه. لقد استنكرَ يسوعُ عيوبَ الكهنة والفرّيسيّين، ولكنَّه لم يُضمِرُ لهم أيَّ بُغضٍ. هذه الشريعةُ التي تَفرِض حُبَّ الإنسان، وبُغض ما ينطوي عليه من شرٍّ، لم يَقصُرْها يسوعُ على نفسه، بل كانت تعليمًا نادى به.
- الجمالُ الحقُّ الذي أَستَهدِفُهُ هو الردُّ على الشرِّ بالخَير.
- لا يستطيعُ إنسانٌ الحطَّ من كرامةِ إنسانٍ آخَر، من غير أن يَحُطَّ من كرامةِ نفسه أيضًا.
- من يُعذِّبِ الآخرين ويحسُدهم، ليس أهلاً للعَيشِ في هذا العالَم.
- التباينُ في وُجهات النَّظَر يغدو مُجديًا فقط حيثُ يسودُ التسامحُ والمحبّةُ والحقُّ والإخلاصُ.
- لَدَيَّ قناعةٌ راسخةٌ بأنَّ كلَّ عَمَلٍ صالحٍ، لا بُدّ له أن يحمِلَ ثمارًا في نهاية المطاف.
- وأنا أَدنو من نِهايةِ حياتي الأَرضيّةِ، أستطيعُ القَولَ إنَّ نقاءَ الحياةِ هو أسمى فنٍّ

وأصدقُه. إنَّ فنَّ انتزاعِ موسيقى رائعةٍ من صَوتٍ مثقَّف قد يتحقَّق للكثيرين. أمَّا فَنُّ انتزاع تلكَ الموسيقى من تناغُم حياةٍ طاهرةٍ، فلا يتحقّق إلاّ نادرًا.

- الجمالُ الحقُّ هو نَقَاءُ القَلب.
- دلَّتني تجاربي إلى أنَّنا لو تعاملنا مع الأَطفالِ في تواضُعٍ وبراءَةٍ لتعلَّمنا منهُم الحِكمةَ.
- عندما يوَثّقُ الفِكرُ صِلاتِه بالنُّجوم، يفقِد الفَسَاد قُدرَتَه على النَّفاذِ إليه.
- الزينةُ الحقَّةُ للمرأَة: خِصالُها وطُهرُها.
- الفرَحُ يكمُنُ في النِّضالِ، أمَّا النتائجُ فهي نعمةُ الله.
- للمُكافِحِ، الكفاحُ، في ذاتِه، هو النَّصرُ، لأَنّه فيه، وحدَه، يلقى مُتعتَهُ.
- الفَرَحُ يكمُنُ في النضال وفي المحاولة، وفي ما ينطويان عليه من معاناةٍ، لا في النَّصرِ نفسِه.
- فخرُ الإنسانِ في الجُهد نحوَ هَدَفه، لا في بُلوغِه.
- يكمُنُ الرضى في الجُهدِ لا في النجاحِ: جهدٌ كاملٌ هو انتصارٌ كاملٌ.
- إنَّها مشيئةُ الله أَنَّ مَن يَمضي إليه ضَعيفًا أَعزلَ، ينالُ منه مَوهبةَ القُوَّة.
- الإنسانُ القِدّيس هو الذي لا يعتَبِرُ نفسَه أَبدًا أعلى مرتبةً من أيّ مخلوقٍ على الأرض، والذي زَهِد في كُلِّ ملذّات الحياة.
- على العقلِ أن يستمدَّ من المُعاناة قوَّةً، فالمُعاناةُ تفتَحُ العيونَ على الإِدراك.
- يتعلّم المرءُ النِّظامَ في مدرسةِ الشَّدائد.
- قد يمتحنُ الربُّ، أحيانًا، إلى أقصى الحدود، أولئكَ الذين يريدُ أن يباركَهم.
- لا تستطيعُ أن تعيشَ حياةً حقَّةً من غَير أَلَمٍ.
- الصبرُ والمثابرةُ يتخطّيانِ الجبالَ.
- إنّني أمقتُ من كُلِّ قلبي تلكَ الرَّغبةَ المجنونةَ في تحطيمِ المسافاتِ والوقتِ، وفي إنماء الشَّهواتِ البهيميّةِ، وفي المُضِيّ إلى أقاصي المسكونةِ في سبيل

إشباعها ولَئِن كانَ هذا ما ترمي إليه الحضارةُ الحديثةُ – ولقد تبيَّنَ لي أنَّ ذاك هو مرماها – فإنّي أَعُدُّ هذه الحضارةَ شَيطانيَّةً.

- الحضارةُ، بمعنى اللَّفظةِ الصحيح، لا تقومُ على مُضاعَفَة الحاجاتِ، بل على تخفيضِها، طوعًا، وعن تَصميمٍ.
- إنّني آبى أن أكونَ عَبدًا لتقاليدَ وعاداتٍ لا أَفهمُها، أو لا أَستطيعُ الدِّفاعَ عن سلامةِ أخلاقيَّاتها.
- إنَّ تربيةً لا تُعلِّمُنا التمييزَ بين الخَير والشرِّ، ولا تَحثُّنا على تَبَنِّي الأَوَّل والتحاشي عن الثاني، ليست سوى تضليلٍ.
- الثقافةُ الحقَّةُ هي استنباطُ خيرِ ما في داخلك، فأيُّ كتابٍ أَفضلُ من كتاب الإنسانيّة؟
- غايةُ كلِّ معرفةٍ بناءُ الشخصيَّة.
- على ثقافة الفِكر أن تكونَ في خِدمةِ ثقافةِ القَلب.
- إنَّنا أَشدُّ حاجةً إلى من يُعالجون نفوسَنا منَّا إلى من يُعالجون أجسادِنا. إن تَعَدُّدَ المشافي والنِّطاسيِّين لا يَنهَضُ بُرهانًا على حضارةٍ حقَّةٍ، وبقَدرِ ما نَعزِفُ، نحن وسوانا، عن العنايةِ المُفرطةِ بأجسادنا، يكونُ ذلك لخَيرنا، وخيرِ العالَم.
- من يهرعُ إلى الطبيبِ حالما يُلِمُّ به عارضٌ طارئٌ، ويبتَلعُ كلَّ أصناف العقاقير النباتيّةِ أو الكيميائيَّة التركيب، لا يقصِّر عمرَه فحسبُ، بل إنَّه يتنازلُ عن سيادتِه على جسمه، فيُصبح له عبدًا، ويفقُد السيطرةَ على ذاتِه، بل يفقِد إنسانيَّته.
- ليس بوسع البشريَّة العيشُ بالمَنطِق وحدَه، فهي في حاجةٍ إلى الشِّعرِ، أيضًا.
- أقوى مَن الكلمة المنطوقَةِ فكرٌ مُتَجلٍّ.
- الإنسانُ أسمى من النِّظَام الذي يَضَعُه.
- إنَّنا مُستَعبَدُون لخُرافَةٍ تَزعُمُ أنَّ لا شيءَ على الطِّفلِ أن يتعلَّمه، خلالَ

السَّنوات الخمسِ الأولى من عمره، في حين أنَّ الواقعَ يُثبِتُ أن لا شَيءَ ممَّا يتعلَّمُه، لاحقًا، يُساوي ما بِوسعِ هذه السنواتِ الخمسِ تزويدُه به. إنَّ وَضـعَ الوالدَين الجسديَّ والعقليّ أثناء الحَملِ ينعكس على المولود؛ وفي ما بعد، لن يَكفَّ الجَنينُ يخضَعُ لتأثيراتٍ مِزاجِ الأمّ، ورَغَباتها، وأَوضاعها النَّفسيَّة، ونَهجِ حياتها؛ وفي أَعقاب ولادته يَعكِفُ الوَلَدُ على تقليد والدَيه، ويَظَلُّ سحابةَ سنواتٍ طويلةٍ، مُرتَبطًا بهما ارتباطًا تامًّا في ما يتعلَّق بنُموِّه وازدهارِه.

إنَّ الزوجَين اللَّذين يُدرِكان هذا الأَمرَ إدراكًا صحيحًا، يمتنعان عن العلاقة الجنسيَّةِ التي تستَهدِفُ إرضاءَ شَهوةٍ فحسبُ، ولا يلجـآن إليها إلاّ عندما يُؤنسانِ رغبةً في الإنجاب. إنَّني أرى أنّ مِنَ الجَهلِ المُطبق اعتبارَ العلاقة الجنسيّةِ وظيفةً مُستَقلّةً لازمةً، على غرارِ النَّوم والأكل. إنَّ وجـودَ العالَم مرتبطٌ بوظيفةِ الإنجاب، وبمَا أنَّ العالَم هو مَسرحُ الله، والمرآةُ التي ينعكِسُ فيها مَجدُه، فلا بُدَّ أن تُضبَطَ عمليَّةُ الإنجاب بحيثُ يتكاثر العالَم في انتظامٍ.

على من يُدرِك ذلك أن يُسيطِرَ، مهما كلَّفَ الأَمرُ، على رغبته الجسديَّة، ويُلِمَّ بالمعارِفِ الكفيلةِ بأن تؤمِّن لذُرِّيَّته السلامةَ الجسديَّة والعقليَّةَ والرُّوحيَّةَ، وتُعمِّمَ جدوى هذه المعارف على الخَلَف.

- لا مثيلَ، في أَيَّةِ مدرسةٍ، للتثقيف الطبيعيّ الذي يَتَشرَّبُه الأطفالُ، في أسرةٍ مُحكَمة التنظيم.

- أمام الخِيار بين الحُرِّيَّةِ والعِلم، مَن لا يُؤثِرُ ألفَ مرّةٍ الأولى؟ إنَّ الشبّانَ الذين دَعوتُهم عام ١٩٢٠ إلى الفِرار من قِلاع العبُوديّة المُتَمثِّلةِ في المعاهد والجامعات (البريطانيّة)، والذين أَعلَنتُ لهم أنَّه من الأَفضل المكوثُ في أَحضان الأمَّة، والعملُ في تكسير الحَصى، حبًّا بالحرِّيَّة، من اكتسابِ ثقافةٍ أَدبيّةٍ مع الرُّسوف في أَغلال العبوديَّة، يستطيعون الآن العودةَ إلى ينابيع هذه النَّصيحة التي أَسدَيتها لهم.

- القَلَق على المُستَقبل هو مَحض إلحادٍ. فبِمَ نُبرّر خوفَنا من أن يُصيب أبناؤنا

من المؤهِّلات والنجاحِ أقلَّ منّا؟ إنّنا عندما نقتَصِد مالاً لمصلحةِ أبنائِنا نُبَرهِنُ عن ضَعفِ ثِقَتِنا بهم وبالله.

- إذا ما اهتَممنا باليوم، اهتمّ الله بالغَد.
- إنَّ الساقيةَ تُريد دائمًا أن تَهَبَ ماءَها للجميع، ولكن كيف للسّاقية أن تُلام إن أحجم أحدُهم عن مَلءِ دِلوِه منها، أو عن الدُّنوِّ منها، خَشيةَ أن يكون ماؤها مسمومًا؟
- ليست الأَخلاقُ في انتهاج الدُّروبِ المطروقَة، بل في اكتشافِ الحقِّ الذي يُفضي بنا إلى ذواتِنا، وفي انتهاجه من غَير وَجَلٍ.
- على الزّعيم أن يُمَارِسَ على نفسِه سيطرةً تامَّةً، وألاّ يبتغي لنفسه شيئًا.
- كن قاضيَ نفسك، تكن سعيدًا حقًّا.
- إذا عُني المرءُ بالوسائلِ، عُنِيَتِ الغايةُ بنفسِها.
- لا تُخْفِ أفكارَكَ، فإن كان معيبًا الإفصاحُ عنها، كان أكثرَ عيبًا إعمالُ الفكرِ فيها.
- مِنَ الأفضل أن نَدَعَ سيرتَنا، لا أَقوالَنا، تتكلَّمُ عنّا.
- أَفضلُ وسيلةٍ لتكريمِ الأَموات: التَمثُّلُ بخِصالهم.
- العيبُ ليس في أن يُقتادَ إنسانٌ إلى السِّجن، بل في أن يقتَرِفَ ما يستَأهِل السَّجنَ.
- عليَّ العَمَلُ بالحكمةِ القائلةِ بأَنَّ كلَّ عَمَلٍ بُوشر به ينبغي المُضيُّ به إلى نهايته، ما لَم يتّضح أنَّه يتنافى ومبادئ الأَخلاق.
- إنَّ كلّ مُخادعٍ لا يخدَعُ، في النهاية، سوى نفسِه.
- إنّ إدراكي لِنقَائصِ الجنسِ البَشريِّ الذي أَنتمي إليه، يَحولُ بي دونَ السُّخْطِ على أَيٍّ من أَبناء جلدتي؛ ومثلَما أَرغَبُ في تفادي الأَخطاءِ التي لا أَنفكُّ أَرتَكِبُها، كَذَلِكَ الأمرُ في ما يتعلّقُ بالآخرين، إذ أسعى إلى مُطارَدَةِ الشرِّ، حَيثُمَا كان، مُتحاشيًا، أَبدًا، عن إلحاقَ الأذى بمَن كان عنه مسؤولاً.

الإنسانُ وأعمالُه أَمرانِ مُختَلِفان. ففي حين يَتوجَّبُ تأييدُ العَمَلِ الصّالِح، ومُقاوَمَةُ الفِعلَةِ الشَّنعاءَ، يَتَحتّمُ، دائمًا، احترامُ الفاعِلِ أو الإشفاقُ عليه، وفقًا

لَعَملِه. إنّ الوصيّةَ القاضيةَ بأن "تُبغِض الخَطيئةَ لا الخاطئ"، سَهلَةُ الإدراك، عسيرةُ التطبيقِ، ولذلكَ تصُبُّ الضَّغينَة فيض سُمومِها، عبرَ العالَم.

ولَئِن كانَ جديرًا بنا مُقاومةُ بعض الأَنظمة، والعَمَلُ على تدميرها، فعلى النَّقيض من ذلك، إنَّ مُحَاولَةَ النَّيلِ من أصحابِها يعني أَنّنا نَجعَلُ من ذواتِنا دريئةً. ذلك، لأَنَّ ريشةً واحدةً هي التي رَسَمتنا جميعًا، ونحن، جميعُنا، أَبناءُ خالقٍ واحدٍ، وبالتَّالي، فنحنُ نكتَنِزُ قُوَى إلهيّةً لا حدودَ لها، ومن ثَمّ، فإنَّ الإساءَةَ إلى كائنٍ بشريٍّ واحدٍ تعني نيلاً من هذه القُوّة الإلهيّة، إضرارًا بالنَّاسِ أجمعين.

- إنّني أَحرَصُ على مُكافَحةِ انحدارِ الإنسانِ إلى مستوى البهيمة، أكثرَ من حرِصي على تجنيبِ شعبي الآلام، فأولئك الذين يخضعون، طوعًا، لسِلسلَةٍ متماديةٍ من المِحَن، يكبُرون بها، ويزدادون نُبلاً، ويرتقونَ بمُستوى البَشريَّةِ كلّها جمعاء؛ أمّا أولئكَ الذين ينحدرونَ إلى استِخدامِ أيّةِ وسيلةٍ من أجل انتزاعِ انتصارٍ، والذين لا يربَؤونَ بأَنفُسهم من استغلالِ شعوبٍ أُخرى، أو أناسٍ أَضعَف منهم، فهؤلاء يَحُطُّون، لا من قَدرِ أنفُسهم، فحَسبُ، بل من قَدرِ البشريّة جمعاءَ. من ذا الذي يستطيعُ، والحالةُ هذه، التمتّع برؤيةِ إنسانٍ مهانًا؟ فَإن كنّا، جميعُنا، أَبناءَ الله الواحد، ومشتركينَ في نفس الطبيعةِ الإلهيّة، فلا بدَّ من التضامُن مع خَطيئةِ كلِّ إنسانٍ، سواءً كان قريبًا لنا أم لا.
- كلّما رأَيتُ إنسانًا تَزِلُّ به قَدَمُه إلى مهاوي الضّلال، قلتُ لنفسي: أَنا، أيضًا، قد ضَلَلتُ، يومًا. وعندما أَرى إنسانًا تُسيطر عليه الشهواتُ، أقول لنفسي: أنا، أيضًا، كنتُ كذلك. وهكذا أَشعُر بصلاتِ قُربى تشدُّني إلى كُلِّ إنسانٍ في العالَم، ويغمُرُني الشُّعور بأَنّني لن أَكونَ سعيدًا، إن لم يشعُر بالسَّعادةِ أَكثرُ النَّاس وَضاعةً.

مـــراجـــع

– M.K. Gandhi, *The Story of my experiments with truth*, Navajivan Press, Ahmedabad, 1940.

وترجمته الفرنسيّة :

Autobiographie ou mes expériences de vérité, Quadrige - P.U.F., Paris, 1983.

– Gandhi, *Tous les Hommes sont Frères*, Gallimard, Paris, 1983.

– Gandhi, *Ma non-violence*, Lutter, Stock, 2, Paris, 1973.

– Gandhi, *Lettres à l'Ashram*, Ed. Albin Michel, Paris, 1971.

– Jawaherlal Nehru, *La promesse tenue*, E. L'Harmaton, Paris, 1986.

– Louis Fisher, *La vie de Mahatma Gandhi* (Traduction Française), P. Belfond, Paris, 1983.

– Erik H. Erikson, *Gandhi's Truth* (On the origins of Militant Nonviolence), W.W. Norton & Co Inc. 1969.

وترجمته الفرنسيّة :

– *La vérité de Gandhi, Flammarion, Paris, 1974.*

– Madeleine Slade, *Dans l'intimité de Gandhi*, Ed. Denoël, Paris, 1965.

– Vincent Sheean, *Mahatma Gandhi - a great life in brief*, Min of Broadcasting - Government of India, New Delhi, 1968.

– Romain Rolland, *Mahatma Gandhi*, Min of Broadcasting - Government of India, New Delhi, 1986.

– Susanne Lassier, *Gandhi & la non-violence*, Coll. «Maîtres Spirituels», Ed. du Seuil, 1983.

– Dominique Lapierre & Larry Collins, *Cette nuit la liberté*, Robert Laffont, Paris, 1975.

– Georges Oshawa, *Un enfant éternel*, Ed. de la Maisnie, Paris, 1983.

– Camille Drevet, *Massignon & Gandhi - La contagion de la vérité*, Ed. du Cerf, Paris, 1967.

– S. Panter Brick, *Gandhi contre Machiavel*, Ed. Denoël, Paris, 1958.

– M.S. Deshpande, *Light of India. Message of the Mahatma*, Wilco Publishing House, Bombay, 1958.

– M.S. Semenoff, *Tolstoï & Gandhi*, Ed. Denoël, Paris, 1958.

– Nirmal Kumar Bose, *Selections from Gandhi*, Navajivan Publishing House, Ahmedabad, 1947.

نخبة من الكتّاب اللبنانيّين: **غاندي – نخبة من لبنان**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٠.